

# تاريخ المغرب العربي

٤

المرابطين : صنهاجة الصحراء الملتصقة

في المغرب والسودان والأندلس

دكتور  
سعد زغلول عبد الحميد

الناشر / **مكتبة** الأندلس  
بجالات حوزى وشركاه











# تاريخ المغرب العربي

الجزء الرابع

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتصمون

في المغرب والسودان والأندلس

رئيس التحرير  
سيد زغلول عبد الحميد

كلية الآداب - جامعة الكويت  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (سابقاً)



General Manager: Dr. Zuhair M. Al-Sayid

Dr. Zuhair M. Al-Sayid

Dr. Zuhair M. Al-Sayid

الطبعة الأولى ١٩٩٥

توزيع / منشورات / منشورات / منشورات

جمال حزي وشركاه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ  
﴿قُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ سُورَةُ يُوسُفَ  
١١١ آيَةٌ



# تقديم

وبعد سنوات أخرى من الجهد والتعب يخرج الجزء الرابع من كتابنا  
فى تاريخ المغرب العربى ، فى موضوع المرابطين ، من : بربر صنهاجة  
الملثمين ، وحركة الإحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس -  
فكان لهم دورهم فى توجيه الغرب الاسلامى بعامة الى ما آل اليه فى العصر  
الحديث ، وحتى أيامنا هذه .

اننى أتذكر تمايىق أستاذنا الدكتور/محمد مصطفى زيادة على بحث  
عرضته عليه ، اذ قال ( یرحمه الله ) : « اننا ننحت فى الصخر » . كما  
أتذكر رهبتي عندما كان يسألنى أستاذنا عزيز سوريال ( له الرحمة ) عن  
باكورة أعمالى .

اننى لا أمل تكرار الشكر لكل من عاوننى فى انجاز هذا العمل  
وأخص بالذكر :

- مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت وقاعة دورياتها الجديدة (وقتئذ) .
- مكتبة كل من قسمى التاريخ واللغة العربية ومكتبة الدراسات العليا  
بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .
- الزملاء الأساتذة والأبناء الطلبة الذين قدموا لى كل عون .
- رفاق الدرب على مسيرة اخراج كتابى فى تاريخ المغرب : د/نبيلة  
حسن ، والأستاذ/يوسف شكرى .
- وأرحب بالرفاق الجدد : محمد الجمل ، ابراهيم سلامة ، أحمد  
اسماعيل - طلبة الدراسات العليا ، علماء المستقبل .

- أما عمن افتقدناهم : د/محمد عبد العال ، د/محمد عبد العزيز ،  
د/مصطفى أبو ضيف - فاهم الرحمة وخالد الذكرى .

ولا أنسى شكر الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي ، والعاملين  
بمؤسسته « منشأة المعارف بالاسكندرية » .

وأرجو أن يتيسر لنا عما قريب اخراج الجزء الخامس فى تاريخ  
الموحدين .

وعلى الله التوفيق .

**سعد زغلول عبد الحميد**

الاسكندرية فى ١١/٩/١٩٩٤

**الفهرست**  
**المرابطون : صنهاجة الصحراء الملتهمون**  
**في المغرب والسودان والأندلس**

- المقدمات : في أهمية الكتاب ومصادره ومحتوياته والتمهيد ص ٢٥
- الفصل الأول : في البلاد والسكان ص ٤٥
- الفصل الثاني : قبائل الجبال الملتهمين بالصحراء الكبرى قبل قيام دولة المرابطين ص ١٠١
- مقدمات الحركة المرابطية : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن  
الـ ٥ هـ / ١١ م ص ١٣٤
- الفصل الثالث : عملية النهضة المرابطية : أبو عمران الفاسي وحركة  
التجديد الثقافية في صحراء الملتهمين ص ١٥٧
- الفصل الرابع : قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة  
المدنية ص ١٩٩
- الفصل الخامس : دولة يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب  
الشمالية ص ٢٣٣
- الفصل السادس : المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس - على عهد  
يوسف بن تاشفين ص ٢٨٣
- الفصل السابع : على بن يوسف بن تاشفين - الذروة وبداية الانحلال  
ص ٣٧٥





## الخرائط والأشكال

### الصفحة

- خريطة رقم ١ - الصحراء الإنريفية الكبرى - المواضع التاريخية  
في التقسيمات السياسية الحديثة ٤٧
- شكل رقم ٢ - موجات الكعبان الرملية الصغيرة - جنوب  
ورجلة ( الجزائر ) ٤٩
- شكل رقم ٣ - أشكال هلالية ( رملية ) قرب الخارجة - الوادي  
الجديد ( مصر ) - مع صورة المؤلف ٥١
- شكل رقم ٤ - كروكي الصحراء الغربية ٥٣
- شكل رقم ٥ - كروكي الصحراء الشرقية ٥٥
- خريطة رقم ٦ - التقسيمات المناخية وموارد المياه الجوفية ٦٧
- خريطة رقم ٧ - توزيع الطوارق وغيرهم من الجماعات العرقية  
في الصحراء والساحل والسودان ٧٢
- شكل رقم ٨ - طارقي ملثم ( اللثام من النوع الصغير ) ٧٩
- شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يوجد فيه السمات  
الإنسانية ورأس التمساح وجسم الثعبان ٨٢
- شكل رقم ١٠ - وادي سموف - المدينة في المقدمة وغابات  
النخيل بين كتبان الرمل ٨٧
- شكل رقم ١١ - اللط ( الوعل ) النموذج الأخير في صحراء  
الجزائر - منطقة الراوي غرب سواره ( حيث  
تم القضاء عليه تماما ) ٩٣

الصفحة

- شكل رقم ١٢ - امرأة بربرية ( مغربية ) وبصحبته خادمتهما  
١٢٧ ( أسيرتها )
- شكل رقم ١٣ - كف امرأة ( عروس ) مزوق بحنة الزرافة في  
أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية  
١٣٣ واضحة
- خريطة رقم ١٤ - المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات  
٢٠٥ الصحراء
- خريطة رقم ١٥ - شبه جزيرة أيبيريا بطوائفها الإسلامية  
والمسيحية - مع غزو ألفونسو المحارب في  
الشرق ( ٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م )  
٢٩٨
- شكل رقم ١٦ - نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،  
٣٧٣ المسكوكات الإسلامية ، بيروت ١٩٨٤
- خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومحطات الطرق النجارية  
٤٢٠ عبر الصحراء الانريقية

## محتويات الكتاب

### الآية الكريمة ص ٥

تقديم ، ص ٧ - الفهرست ، ص ٩ - الحرائط والأشكال ، ص ١٠ ،  
١١ - المحتوى التفصيلي للكتاب : المرابطون : صنهاجة الصحراء المننون ،  
ص ١٢ .

**المقدمة في أهمية الموضوع ومصادره : الأهمية ، ص ٢٥ - المصادر**  
بولانجه ، ص ٢٦ - البكري ، ص ٢٧ ، الادريسي وصاحب الاستبصار وليون  
الافريقي ، ص ٢٨ - ابن شداد الزيري - ابن الاثير - النويري - ابن  
القطان ، ص ٢٩ - ابن عذاري ، ص ٣٠ - ابن أبي زرع ، ص ٣١ - ابن  
خلدون ، ص ٣٢ - الحلل الموشية ، ص ٣٣ - الأوراق الرسمية والوثائق -  
بروفنسسال ، ص ٣٤ - مؤنس ومكي وعنان - مذكرات الأمير عبد الله ، ص  
٣٥ - أعمال الاعلام لابن الخطيب ، ص ٣٦ - الذخيرة لابن بسم ، ص ٣٧ -  
ابن بسم وابن حيان ، ص ٣٨ - عبد الواحد المراكشي ، ص ٤٠ - التراجم ،  
ص ٤٢ .

### التمهيد : ص ٤٣ .

## الفصل الأول البلاد والسكان

**البلاد : الصحراء الغربية ، ص ٤٥ - الاقليم الصحراوي : السمات**  
العامة ، ص ٤٦ - الطرق - بحار الرمل : مكوناتها النوعية - الكسوة  
الرسوبية ، ص ٥٠ - الطقس ، ص ٥٤ - رياح الحرمتان والأمطار ، ص ٥٤  
- التصحر ، ص ٥٧ - اقليم الساحل ، ص ٥٨ - بلاد النخل ، ص ٥٩ -  
الأرض الرسوبية والأرض السوداء ، ص ٦٠ - توزيع المياه الجارية ، ص ٦١  
- آبار الصحراء - الطرق الكبرى ، ص ٦٢ - مياه السودان الجارية ، ص  
٦٣ - السنغال والنيجر ، ص ٦٤ .

**السكان : صنهاجة الصحراء : الملثمون - القبائل وتوزيعها ، ص ٦٨**

- لمنونة - لحطة ، ص ٦٩ - جدالة وجزولة ، ص ٧٠ - مسبوفة ، ص ٧١ - السمات انعامة نباتات المتنين ، ص ٧٣ - الجمالة رعاة الابل ، ص ٧٤ - الزى - اللنام ، ص ٧٧ - النعاب ، ص ٧٨ - وظيفة اللنام ، ص ٧٩ - ديانة السودان ، ص ٨١ - تطور اللنام ، ص ٨٣ .

**الثروات الطبيعية : النباتات ، ص ٨٤ - النخلة ، ص ٨٥ - اقاييم**  
النخل ، ص ٨٦ - نباتات الساحل ، ص ٨٩ - الحيوان : الجمل ، ص ٩٠ -  
حيوانات البرية - اللوط ، ص ٩٢ - صيد البحر - الجراد ، ص ٩٤ -  
ثدييات الساحل - البقر ، ص ٩٥ - ثروات السودان ، ص ٩٦ - الثروات  
المعدنية : الملح - الحديد والنحاس ، ص ٩٧ - الأحجار الكريمة ، ص ٩٧ -  
العنبر ، ص ٩٨ - الاسبتوس ، ص ٩٨ .

## الفصل الثاني

### قبائل الجمالة الصحراوية قبيل قيام دولة المرابطين النظم السياسية والحياة الاجتماعية

**التمهيد : مجتمعات البربر والجماعات السودانية ، ص ١٠١ - وسائل**  
المواصلات في الصحراء ، ص ١٠٢ - ظهور البدو الجميلية ، ص ١٠٣ -  
أهمية ظهور الجمل ، ص ١٠٣ - توغل صنهاجة جنوبا الى حدود السودان ،  
ص ١٠٤ - الهجرة الى غانه ، ص ١٠٥ - العلاقات التجارية والحضارية مع  
السودان ، ص ١٠٦ .

**القبائل والمواطن وطرق المواصلات : ص ١٠٧ - ابراطورية لمنونة**  
القديمة ، ص ١٠٨ - مدينة ترغا الطوارقية ، ص ١٠٩ - بداية دولة  
الملثمين - الملك تلجاجون وتيلوتان ، ص ١١٠ - الملك يلنان ، ص ١١١ -  
بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء ، ص ١١١ - ملوك الطوائف الصنهاجية ،  
ص ١١٢ - النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم الجدالي ،  
ص ١١٢ - التجارة مع السودان وازدهار مدينة سجلماسة ، ص ١١٣ -  
مسالك التجارة وطرقها ، ص ١١٤ .

**الخريطة السياسية الاجتماعية للصحراء الكبرى في القرن ٤ هـ / ١٠ م**  
- صنهاجة الصحراء في القرن ٤ هـ / ١٠ م - الأسرة ، ص ١١٥ -  
المسكان الصحراوي والمسكن السوداني ، ص ١١٦ - أودغست ومملكة  
غانه ، ص ١١٦ - دويلات الطوائف ما بين صنهاجة والسودان ، ص ١١٧ -

ازدهار أودغشت ، ص ١١٨ - انتشار الإسلام في التكرور ، ص ١١٩ -  
النظم الاجتماعية عند الملثمين ، ص ١٢٠ - النظام الأموي ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ -  
أودغشت تحت حكم تنبروتان ، ص ١٢٠ - ملكية انتخابية ، ص ١٢١ -  
اتحادات القبائل ووحدة المقر ، ص ١٢١ - طبقات المجتمع ، ص ١٢١ -  
السمات الطبيعية ( الفيزيكية ) ، ص ١٢٢ - بربر صنهاجة والسودان ،  
ص ١٢٣ - الوحدة العرقية الصغرى : الأسرة أو البيت ، ص ١٢٤ - النظام  
الأموي ، ص ١٢٥ - حرية المرأة ، ص ١٢٦ - كتابة التيفيناغ ، ص ١٣٠ -  
الحفاظ على اللغة البربرية ، ص ١٣٢ - نقوش الحناء ، ص ١٣٢ .

**الحركة المرابطية ، المقدمات : خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن**  
**الـ ٥ هـ / ١١ م :** بقايا ثقافات قديمة وضغوط المذاهب المخالفة ، ص ١٣٤ -  
التشيع الاسماعيلي والحارجية الصغرى ، ص ١٣٥ - التنظيمات الاجتماعية  
والأنساق العرقية ، ص ١٣٦ - التبذ ، ص ١٣٦ - الفارة على القوافل ،  
- حياة الصيد والسرقة - المتعة عند السودان وعدم العفة عند البربر ، ص  
١٣٧ - الجهل بتعاليم الإسلام ، ص ١٣٧ - أودغشت وتادمكة من مراكز  
التجارة لا الثقافة ، ص ١٣٨ - فاس والقروان وحركة الاشماع الاسلامي  
في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، ص ١٣٩ - الرحلة الأندلسية الى المشرق ،  
ص ١٣٩ - القروان والفسطاط مركزان علميان في طريق الحجاز ، ص ١٤٠ -  
المدرسة المكية - رحالة العلم الأندلسيون - مكة مركزا علميا - شيوخها ،  
ص ١٤١ - المدرسة المصرية وأشهر علمائها ، ص ١٤٥ - مدرسة القروان ،  
وأشهر علمائها ، ص ١٤٩ .

### الفصل الثالث

#### عملية النهضة المرابطية : أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء الملثمين

القروان العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس ، ص ١٥٧ - أبو عمران  
الفاسي ( منشأ ) القروان ( وطن ) ، ص ١٥٧ - رحلته العلمية ، ص ١٥٨ -  
العودة الى المغرب ، ص ١٥٩ - استاذيته في الفقه المالكي ، ومعرفته  
بالكلام والفلسفة ، ص ١٦١ - مدرسة أبي عمران وأشهر أعلامها ، ص ١٦٣ -  
صلاته الوثيقة بعمامة القروان ، ص ١٦٤ .

**أبو عمران الفاسي والتنظيم الايديولوجي للدولة الصحراوية الدينية ،**  
ص ١٦٤ - تلميذه وخاج بن زلوا ، ص ١٦٥ - التنازع في وفاة أبي عمران

وشخصية الزعيم الصنهاجي ، ص ١٦٥ - مجاورة ترتيبه الأجيال ، ص ١٦٦ - تصحيح وفاة أبي عمران وتأخيرها إلى ٤٣٩ - ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م ، ص ١٦٨ - وتوثيقها ، ص ١٦٨ - مشكلة الزعيم الجدالي ، ص ١٦٩ - اللقاء بين أبي عمران ويحيى الجدالي ( ١٠٤٨ / ٤٤٠ ) ، ص ١٧٠ - اختيار المعلم ، ص ١٧١ - دور محمد وجاج السوسي ، ص ١٧٢ - عبد الله ابن ياسين محتسبا ، ص ١٧٤ - رباط وجاج ، ص ١٧٥ - الطريق إلى جدالة ، ص ١٧٦ - أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين : في أرض جدالة ، ص ١٧٧ - في أرض لمتونة ، ص ١٧٩ - حدود القطع والرجم ورفض لمتونة ، ص ١٧٩ - معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة ، ص ١٨١ - ثورة لمتونة بقيادة الجوهر - وانتهاء مشروع المدينة الفاضلة ، ص ١٨٢ .

**الرباط :** رباط عبد الله بن ياسين - أهمية رواية البكري - الهدف من الرباط في المغرب ، ص ١٨٣ - أدتني رباط ابن ياسين الأول ، ص ١٨٤ - مكان الرباط - تاريخ إقامته ( ١٠٤٨ / ٤٤٠ ) ، ص ١٨٥ - الموضع واحتمالاته المختلفة ، ص ١٨٦ - جزيرة إيوني - رباط ماسة - منصب السنغال الأوفق ، ص ١٨٧ - نظام المرباطة ، ص ١٨٩ .

الجماعة الأولى من المرابطين : أهل الحق - التوابون - المرابطون ، ص ١٨٩ - شروط الالتحاق بالرباط ، ص ١٩٠ - التوبة والتطهر ، ص ١٩١ - الحدود ، ص ١٩٢ - الخروج من الرباط والعمل الإيجابي : بداية دولة الرباط : دولة أهل الحق ، ص ١٩٣ - الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية ، ص ١٩٤ - غزو جدالة ، ص ١٩٤ - غزو الصحراء ، ص ١٩٥ - خضوع لمتونة ، ص ١٩٥ - خضوع مسوفة ، ص ١٩٦ .

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط - والتخلص من بقايا المعارضين ، ص ١٩٦ .

## الفصل الرابع

### قيام دولة المرابطين - القواعد التأسيسية والسياسة الدينية

القيادة المشتركة وتقسيم العمل ، ص ١٩٩ - الجيش ، ص ٢٠٠ - المخطط الحربية ، ص ٢٠١ - بيت المال ، ص ٢٠٢ - تزكية المال ، ص ٢٠٣ .

**التوسع الاقليمي خارج الصحراء - فتح دوة وسجلماسة :** الأسباب .  
- ما بين طلب الزكاة والشكوى من الحكام ، ص ٢٠٤ - النوازل السكونية  
والانفجار السكاني ، ص ٢٠٦ - فتح أودغست ، ص ٢٠٧ - غدر  
سجلماسة ، ص ٢٠٨ - الفقيه رئيسا ، ص ٢٠٩ - انشقاق الملمثين والحرب  
الأهلية - بدء ظهور أبي بكر بن عمر ، ص ٢٠٩ - هزيمة تبغريلى ومقتل  
يحيى بن عمر ، ص ٢١١ - اتحاد قبائل الرباط اللمنونية تحت قيادة  
عبد الله بن ياسين ص ٢١٢ - جدالة قبيلة حليفة ، ص ٢١٢ .

**قيادتان : شمال الصحراء وجنوبها - تدرج الفتح الشمالية من  
اغمت الى برغواطة ، ص ٢١٣ - فتح اغمت ، ص ٢١٤ - أول ذكر ليوسف  
ابن تاشفين ، ص ٢١٥ - القضاء على امارة البجليين الشيعية ، ص ٢١٥ -  
فتح السوس الأقصى ، ص ٢١٦ - نفيس - ايجل - نول لمطة ( ٤٥٠ /  
١٥٨ ) ، ص ٢١٧ - الفاء المظالم ، ص ٢١٨ .**

**فتح تامسنا : بلاد برغواطة - السمات العامة للحركة البرغواطية ،  
ص ٢١٨ - هرطقة برغواطة ، ص ٢٢٠ - فيما بين التشدد الخارجي  
والتساهل الشيعي ، ص ٢٢١ - الصلاة - الزكاة - عيد الاضحى ، ص ٢٢٢ -  
الزواج والطلاق وغيرها من المعاملات ، ص ٢٢٢ - الجرائم والمقوبات ،  
ص ٢٢٣ - ترجمة القرآن ، ص ٢٢٤ - ملوك آل صالح ، ص ٢٢٥ - ضم  
تامسنا لدولة الرباط ، ص ٢٢٦ - معالم حرب تامسنا ، ص ٢٢٧ - سمات  
حرب المطاولة مع زناته ، ص ٢٢٧ - موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن  
ياسين ، ص ٢٢٨ - وصية ابن ياسين واتخاذ منظر بديل ، ص ٢٢٩ -  
النزاع لمقتل الفقيه وكسر آخر معانل برغواطة ، ص ٢٣٠ .**

### **الفصل الخامس دولة يوسف بن تاشفين**

**يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية وتصفية دولة  
زناته المغراوية ، ص ٢٣٣ - دور أبي بكر بن عمر في فتح المغرب قبل  
الرحيل ، ص ٢٣٥ - من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب .  
من مناقب الرجال الثلاث ، ص ٢٣٦ - رحيل أبي بكر والعهد الى يوسف ،  
ص ٢٣٧ - اغمت قاعمة مرابطية - زواج أبي بكر بن عمر من زينب  
النفزاوية ، ص ٢٣٨ - بناء مراکش : التوقيت ، ص ٢٣٩ - اختيار موضع  
مراكش ، ص ٢٤٠ - أهمية الموقع وبدء البناء ، ص ٢٤١ - أعمال أبي بكر**

فى البناء ، ص ٢٤٢ - أعمال يوسف بن تاشفين فى بناء مراكش ، ص ٢٤٣ - جامع الكتبية فى موضع جامع القصبه ، ص ٢٤٤ .

يوسف بن تاشفين أميراً لدولة العباد المرابطين : الرجىل - نسبه وصفاته ، ص ٢٤٧ - معاشه ، ص ٢٤٨ - يوسف نائبا لولاية المغرب . ص ٢٤٩ - العهد الى يوسف بالولاية ، ص ٢٤٩ - شروط الاتفاق على النيابة ، ص ٢٥١ - تركه الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة ، ص ٢٥١ - تقسيم الجيش - تنصيب يوسف والعمليات العسكرية فى المغرب ، ص ٢٥٢ - التمهيد للأعمال العسكرية - مراكش ، ص ٢٥٣ - زينب النفزاوية . ص ٢٥٤ .

أعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة ، ص ٢٥٥ - الحرب فى المغرب : تهدين القبائل ، ص ٢٥٦ - فتح فاس ، ص ٢٥٧ - ما بين فتح غمارة ، وردة فاس وطاعة مكناسة ، ص ٢٥٧ - اقامة نظم الدولة وتراثيها - الدراوين - ديوان المال والخراج ، ص ٢٥٩ - الحرس الأميرى من العبيد السود والصفقاتية البيض - دار النسكة ، ص ٢٦٠ - دولة ابن تاشفين فى هب الريح : عودة أبى بكر بن عمر من الصحراء ، ص ٢٦٢ - اعتزال أبى بكر لصالح يوسف ، ص ٢٦٤ - ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب ، ص ٢٦٥ - محاولة ابراهيم بن أبى بكر المطالبة بذلك أبه ، ص ٢٦٦ - وفاة أبى بكر بن عمر ، ص ٢٦٧ .

عهد يوسف بن تاشفين - الاستقلال والتقسيم ، ص ٢٦٨ - المرابطون والسودان الغربى - دولة أبى بكر بن عمر الصحراوية ، ص ٢٦٨ - استشهاد أبى بكر فى غانه ، ص ٢٦٩ - الثورة على لمتونة فى السودان - وتأسيس تومبوكتو محل غانه ، ص ٢٧١ - التوسع الاقليمى فى عهد يوسف بن تاشفين - استكمال فتوح المغرب ، ص ٢٧٢ - فتح الأقاليم البحرية فى شمال المغرب - خضوع منطقة سلا ، ص ٢٧٣ - التوسع فى



السوس الأدنى : فتح مكناسة ، ص ٢٧٤ - فتح فاس ، ص ٢٧٥ - فتح  
نلمسان ، ص ٢٧٧ - تهدين البلاد والتقسيم الإداري ، ص ٢٧٩ - غزو  
العدوة الأفريقية : سبته وطنجة ، ص ٢٨٠ - فتح طنجة ، ص ٢٨١ .

### الموصل السادس

#### المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس

##### على عهد يوسف بن تاشفين

فتح الأندلس حتمية تاريخية ، ص ٢٨٣ - الموقف العام في الأندلس  
- تهديد فرناندو الأول ، ص ٢٨٤ - الصراع بين رؤساء الطوائف -  
تهديدات الفونسو السادس ، ص ٢٨٥ - سقوط طليطلة - وحتمية التدخل  
المرابطي ، ص ٢٨٦ - ( أمراء الطوائف ) ما بين الوعي والغيبوبة ، ص ٢٨٨  
- الصراع بين أصحاب طليطلة وبطليوس وأشبيلية ، ص ٢٨٩ - بلاد النغر  
تحت حماية دويلات الاسترداد بشكل تبادل ، ص ٢٩١ - الفتنة في طليطلة ،  
ص ٢٩٢ - فرار ابن ذي النون ودخول الفونس السادس طليطلة - التدخل  
المرابطي في الأندلس - عملية الانقاذ المرابطية ما بين الأمانة والواقع ، ص  
٢٩٣ - طاب النجدة من يوسف بن تاشفين ما بين القبول والرفض ، ص  
٢٩٤ - التفكير في الاستعانة بالعرب ، ص ٢٩٥ - رعى الجمال أفضل من  
رعى الخنازير ، ص ٢٩٦ - فتح سبته وعبور يوسف الى الأندلس - سبته ،  
ص ٢٩٧ - العبور ، ص ٢٩٩ - التحالف الأندلسي المرابطي ورد الفعل  
الأسباني - التمهيد لمركة فاصلة ، ص ٣٠٠ - ثقة الفونس السادس في  
النصر ، ص ٣٠١ - موقعة الزلاقة في بطليوس - ميدان المعركة ما بين  
التلقائية والاختيار ، ص ٣٠٢ - وقعة الزلاقة ، ص ٣٠٤ - إدارة المعركة  
في الجانب الإسلامي ليوسف ، ص ٣٠٦ - أخبار الجواسيس ، ص ٣٠٧ -  
تباطؤ حركة المرابطين ، ص ٣٠٨ .

الكهين : الحرس الأميري يحسم المعركة ، ص ٣٠٩ - الربح والحسارة

فى المعركة الفاصلة ، ص ٣١٠ - التقييم الحتامى للزلافة ، ص ٣١٢ - حرب  
الاحلال والتجديد المرابطية ، ص ٣١٣ - يوسف بن تاشفين اميرا  
المسلمين ، ص ٣١٤ - لقب شرفى بعد النصر ، ص ٣١٦ - امارة المسلمين  
تنهى نظام الطوائف ، ص ٣١٦ - مشكلة التوقيت ، ص ٣١٦ - الحامية  
المرابطية الاولى ، ص ٣١٧ .

**العبور الثانى وحصار لييط - امتيلاء الاسبان على حصن لييط ،**  
الهيمنة المسيحية فى الشرق ، ص ٣١٩ - حصار حصن لييط ، ص ٣٢١ -  
دور الفقهاء فى تقرير مصير امراء الطوائف ، ص ٣٢٢ - وقوف امير المسلمين  
الى جانب ابن عباد ضد صاحب مرسية ، ص ٣٢٣ - ألفونس السادس  
يحاول نجدة الحصن - حرب سجال دون نصر ، ص ٣٢٤ - توحيد قيادة  
الجبهة الأندلسية تحت رايات امير المسلمين - انتهاء نظام الطوائف ، ص  
٣٢٥ - سمات التغيير ، ص ٣٢٦ - الاسباب العامة ، ص ٣٢٦ - الاسباب  
المباشرة ، ص ٣٢٨ - غرناطة أولا ، ص ٣٢٩ .

**استسلام بقية الامراء فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م - سير بن أبى بكر**  
نائبا ، ص ٣٣٢ - سببة رباطا جديدا ، ص ٣٣٣ - مسار الأحداث -  
تمهيد منهجى ، ص ٣٣٣ - الوحدة بداية لعملية الانقاذ ، ص ٣٣٤ - خطة  
شاملة لغزو الطوائف ، ص ٣٣٥ - مملكة العباديين الهدف الأول - مسار  
الأحداث ، ص ٣٣٨ - قيادة الحامية المرابطية - مقر نيابة الأندلس ، ص  
٣٣٩ - الشروع فى غزو أشبيلية ، ص ٣٤٠ - اخذ المرية ، ص ٣٤١ -  
سقوط جيان وقرطبة ، ص ٣٤٢ - تهدين أعمال قرطبة ووقف المعتمد من  
ألفونس ، ص ٣٤٣ - تعيينه القشتاليين : هزيمة البرهانس - الثغر  
الأقصى : قلعة رباح - نهاية العباديين فى أشبيلية ، ص ٣٤٤ - ازدواجية  
الفتح : الصلح والعنوة ، ص ٣٦٦ - نهاية المعتمد فى اغمات ، ص ٣٦٧ .

**غزو بطايوس : آخر ممالك الوسط والغرب ، ص ٣٤٩ - المرابطون**

فى شرق الأندلس ، ص ٣٥١ - تهديد منهجى ، ص ٣٥٢ - أخذ قبره  
وهرسيه ( شعبان ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ) ، ص ٣٥٣ - دخول دانية وشاطبه ،  
ص ٣٥٤ - غزو بلنسية - نهاية القادر بن ذى النون - بلنسية تحت حماية  
السيد ، ص ٣٥٥ - ابن جحاف رئيسا تحت الحصار ، ص ٣٥٦ - عودة  
السيد الى بلنسية ، ص ٣٥٧ - أمير المسلمين يشرف على العمليات الحربية  
من بعيد ، ص ٣٥٩ - الجيش الاسلامى صيد سهل لرجل الريكونكسنا  
( ألفونس والسيد ) ، ص ٣٥٩ - السيد أميرا لبلنسية ، ص ٣٦٠ -  
استرجاع بلنسية ( ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ) بعد تحريقها بالنار ، ص ٣٦١ .  
اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة ( ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ) .  
ص ٣٦٣ .

العودة الى مراكش ونهاية يوسف بن تاشفين ، ص ٣٦٥ - الموقف  
فى شرق الأندلس ، ص ٣٦٦ - مرض يوسف والتطاول على الغرب من قبل  
الفونس السادس ، ص ٣٦٨ - وفاة يوسف نهاية مرحلة القوة المرابطية ،  
- صورة يوسف ، ص ٣٧٠ - الدينار اليوسفى ، ص ٣٧١ .

### الفصل السابع

على بن يوسف بن تاشفين - ذروة العصر المرابطى  
بداية الانحلال ، ص ٣٧٥

صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين ، ص ٣٧٦ -  
ما بين صورة كل من يوسف وولى عهده على ، ص ٣٧٧ - وصية يوسف  
فى أصول الحكم ، ص ٣٧٨ - مبايعة رؤساء القبائل وتوزيع الحكام ، ص  
٣٧٩ - الادارة المدنية ، ص ٣٨٠ - أحوال الأندلس تتير اهتمام على بن  
يوسف منذ ولايته ، ص ٣٨٢ - العبور الأول لـ على بن يوسف ، ص ٣٨٣  
- محاولة اكتساب رضا الجميع - فى حملة التفقد الرادعة ، ص ٣٨٤ -

فتح اقلش ، ص ٣٨٥ - قيادة الأمير تميم ( أخى أمير المسلمين ) وائى  
غرناطة ، ص ٣٨٦ - هزيمة الاسبان ومقتل ولى عهد ألفونس السادس .  
ص ٣٨٧ - العبور الثانى الى الأندلس ( ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ) ، ص ٣٨٨ -  
فتح طليبة واجتياح منطقة طليطلة ، ص ٣٨٩ - سرقسطة ما بين المرابطين  
والاسبان المسيحيين - الدخول تحت المظلة المرابطية ، ص ٣٩٠ - هزيمة  
مروعة لجيش سرقسطة واستشهاد المستعين بن هود ، ص ٣٩١ - استنجد  
عماد الدولة بن المستعين بالاسبان المسيحيين ، ص ٣٩٢ - زعماء سرقسطة  
يستدعون المرابطين ، ص ٣٩٢ - وعماد الدولة يستدعى ملك أراجون -  
هزيمة المرابطين ومقتل يحيى بن محمد بن الحجاج ( آخر ٥٠٣ هـ / صيف  
١١١٠ م ) ، ص ٣٩٣ - ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان ، ص ٣٩٣ -  
سرقسطة وساحتها ميدان قتال ، ص ٣٩٤ - أمير المسلمين يفجر القيادة  
ويمين الأمير مزدل قائدا أعلى ، ص ٣٩٥ - مزدل يجتاح منطقة طليطلة  
( ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ) ، ص ٣٩٦ - وفاة مزدل واستشهاد ابنه بعده : من  
علامات الهبوط ، ص ٣٩٧ - مظاهر الهبوط والتردى ، ص ٣٩٩ - مصائب  
الحرب الاسبانية - اضطراب الزناتية فى المدوة - غارات ردعية للجنوبيين  
على ميورقة وبرقة ، ص ٤٠١ - وقمة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدل ،  
ص ٤٠٢ - الهياج الشعبى على المرابطين : ثورة قرطبة ( ٥١٤ / ١١٢١ ) ،  
بداية النهاية للمرابطين ، ص ٤٠٣ - حدث فردى يثير العاصفة على القائد  
المرابطى ، ص ٤٠٤ .

#### الموقف الدينى والثقافى فى الأندلس والمغرب - فى أوائل عهد الأمير

على بن يوسف ، ص ٤٠٥ - المالكية المرابطية - تمهيد منهجى ، ص ٤٠٦ -  
ما بين الدراسة التقليدية ، والاتجاهات الصوفية المستجدة ، ص ٤٠٧ -  
غريب الحديث والتسامح الدينى ، ص ٤١٠ - اتجاهات أخلاقية فى دراسة  
الحديث ، ص ٤١١ - اتجاه نحو التسامح الدينى ، ص ٤١٣ - اتجاهات

مالكية متشعبة على المستوى الرسمي . ص ٤١٤ - من مظاهر الفتور في  
علاقة أمير المساجين بأئمة الأندلس - نبوة قرب وفاته ، ص ٤١٥ -  
احراق كتب الغزالي بشارة قيام مذهب التوحيد لمحمد بن تومرت ، ص ٤١٥  
- احياء علوم الدين ومشروع اترجيح الاسلامي آثار الخلاف بين فقهاء  
الأندلس والغزالي ( حجة الاسلام ) ، ص ٤١٦ - فتوى ابن راشد ( الجد )  
بتغريب جماعات المعاهدين آثار خواطر اصحاب الاسترداد على الوجود  
الاسلامي في الأندلس ، ص ٤٢٠ .

- فهرس المصادر والمراجع الواردة في الهوامش ص ٤٢٣
- أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات ص ٤٣٥
- أسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع ص ٤٥١



## المقدمة

في أهمية الموضوع ومصادره :

الإلهامية :

يعتبر تاريخ المرابطين في المغرب من موضوعات التساويخ الإسلامي الهامة لأكثر من سبب ، ربما لا يكون أهمها تلك العمالية التي قام بها يوسف بن تاشفين لانتفاذ المسلمين في الأندلس من السقوط تحت ضغط حرب الاسترداد المسيحية المعروفة باليكونتيستا . هذا ، وإن كان لدخول الأندلس تحت حكم المرابطين في مراكش آثار عظيمة من حيث الربط بين طرفي الغرب الإسلامي شمال المضييق وجنوبه ، في وحدة سياسية - حضارية واحدة ، بقيت علاماتها المميزة ، في كل من غرب أوروبا وغرب أفريقيا إلى اليوم .

ومثل هذا يقال عن أهمية دخول المرابطين مملكة غانة السودانية قبل ذلك ، ونشر الإسلام في المناطق التي لم يكن قد دخلها بعد ، جنوب الصحراء ، الأمر الذي كانت له آثاره الحاسمة فيما آلت إليه حديثا الأوضاع السياسية والمظاهر الحضارية في غرب أفريقيا حتى أيامنا هذه .

والهم بشكل عام أن دولة الرباط التي قامت في صحراء المغرب في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، تأسس قيامها على عملية إحياء للإسلام ودولته مثل غيرها من عمليات التجديد التي كان يحاولها بعض الموهوبين من رجال الإصلاح المسلمين من أهل السياسة والدين بين حين وآخر ، بفرض تنقية الإسلام مما لحق به من الشوائب أو محاولة تقويم ما لحق بالمجتمعات الإسلامية ودولها من اعوجاج عن الطريق المستقيم أو انحراف . وذلك في ضوء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بدعوة العودة إلى عصر النقاء الأول : عصر النبوة والرشاد .

وهكذا بدأت الحركة المرابطية تقليدية هدفها نشر الإسلام السني في الصحراء ، ولكن تدمجها جنوبا في السودان وشمالا في أسبانيا حولها مع مرور الوقت ، إلى إمبراطورية متعددة الثقافة والأعراق ، الأمر الذي عرضها

الى زلزلة اسقطتها بعد حوالى ٦٠ ( ستين ) سنة فقط من ضم الأندلس ،  
لكى تحل محلها فى كل من المغرب والأندلس حركة اصلاح جديدة . أكثر  
تطورا ، قامت باسم دولة الموحدين - موضوع دراستنا القادمة - ونجحت  
فى دمج بلاد المغرب بطابعها المميز الذى تعيشه الآن .

### المصادر والمنهج :

التاريخ للدولة المرابطية هو التاريخ للجيل الثانى من قبائل صنهاجة  
المغربية ، وهم الملمون من بربر الصحراء . فكانه تسجيل لحياة بعض  
الشعوب البدوية ، تماما مثل التاريخ للعرب فى رمال جزيرتهم وواجاتهم  
أو تسجيل لحياة الترك والمغول فى سهوب بلادهم فى أواسط آسيا وحياتهم .  
فهو إذن تاريخ لم يدون بشكل منتظم الا بعد وقت من بداية الحركة المرابطية  
واستقرار قواعد دولتها . وبناء على ذلك فهو يعتمد فى بداياته على الرواية  
الشفوية التى كثيرا ما تطور وتتحوّل ما بين الحفيدة الواقعة والاسطورة  
المتخيلة . وهذا ما يعانى منه تاريخ المرابطين فى بداياته الأولى ، تماما كما  
هو الحال بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام فى بداياته الأولى ، وكذلك الأمر  
بالنسبة لتاريخ الترك والمغول فى مراحل الأوليّة حيث تغلب القصص  
الشعبية المعروفة بالفلكلور على كثير من أطرافه .

وهنا يمكن أن نجد بديلا لذلك القصص الشعبى فى السارخ المدون  
لدى بعض الشعوب المدنية المجاورة . والمنال لذلك تاريخ العرب المسلمين  
عند البيزنطيين ، وتاريخ الترك والمغول عند الصينيين . ومنل هذا يقال عن  
تاريخ المرابطين حيث تتمثل بداياته الأولى فى روايتين ليسا محليتين من  
بنات الصحراء . أولاها أندلسية ، وهى رواية البكرى المعاصرة ، وثانيهما  
أفريقية تونسية للأمير الزيرى الصنهاجى : عبد العزيز بن شداد المتوفى  
فى أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ م . والمهم أن هذين الاتجاهين :  
الأندلسى والأفريقى سيستمران كعلامتين مميزتين فى التاريخ للمرابطين ،  
وخاصة بعد نزولهم فى الأندلس وضمها الى دولتهم باسم الاسلام والدفاع  
عن دياره ، وذلك فى مقابل النزعة الأندلسية فى التاريخ المرابطى التى  
تجبل من اضم افتخاتا على حقوق الأندلسيين فى حكم بلادهم والدفاع  
عنها ، وان كان بمعونة من الأخوة المسلمين وأميرهم فيما وراء العدة ( أو  
المضيق ) . فكانها نزعة من الشعوبية بين العرب والمجم ، أو نزاعا طائفيا  
اقليميا ، مما ساد فى ذلك الوقت على المستوى الاسلامى والطائفى الاقليمى



أيضا ، مما نتى الإشارة إليه فى هذا التعريف بالمصادر أو فيما يتعلق بالتوثيق المنهجى فى العرض التاريخى .

والمهم فى التاريخ المرابطى أنه يعانى كثيرا من نقص المصادر على مستوياتها المختلفة ، من الوثائق والأدب التاريخى والجغرافى والثقافى بعامة ، والأثرى بخاصة - حيث لم يبق لنا شيء من بقايا المرابطين أو لقائهم وآثارهم ، وهى الآفات التى يعانى منها التاريخ الإسلامى ، نتيجة طبيعية لآفات المجتمعات الإسلامية المتمثلة فى عدم الاستقرار السياسى وتوابعه من الاضطرابات الاجتماعية أو العكس من ذلك .

### البكرى :

والبكرى هو أبو عبيد عبد الله ( القرطبى ، ت ٤٨٧ هـ ) ، وكتابه الذى يعننا هو الجزء من المسالك والممالك المعروف باسم « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » ، والذى نشر بمعرفة انبارون دسلان ( *in Siane* ) بالجزائر سنة ١٨٥٧ م ، تحت عنوان « وصف أفريقيا الشمالية » ، بأفرنسية ، مع تعريف بالبكرى وبين بأهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ المغرب استنادا الى تقييم محتوياته .

ووصف أفريقيا للبكرى يعتبر وثيقة معاصرة ( ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ) من الطراز الأول بالنسبة للعصر المرابطى الأول فى بلاد المغرب ، من حيث التعريف بالبلاد الصحراوية وطرقها ومفاوزها ، وأهلها الجمالة المثمن وحياتهم القاسية فى الصحراء - التى كان لها سحرها أيضا - وخصوصية عاداتهم وتقاليدهم النابعة من طبيعة تفردهم فى الفجار ، وكيف تهيأ لهم القيام بحركة الإصلاح الدينية المرابطية التى غيرت الشمال الأفريقى ( فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ) من حال الى حال ، بفضل فريضة الحج التى ربطت بين المشرق الإسلامى والمغرب فى دائرة ثقافية واحدة - مما تعرض له فى الدراسة - متجددة مع توالى المواسم والأعوام .

ومع أهمية الرحلة ورحلة الحج بصفة خاصة كمصدر حى للأخبار ، فإن المعلومات الدقيقة التى يقدمها البكرى عن البلاد والطرق والناس والتراتبى والمعدات والتقاليد ترقى الى المستوى الوثائقى بمعنى رجوع البكرى الى وثائق أرشيف قرطبة الاستعلامية التى كان يزخر بها اندرون هناك منذ أيام الناصر والمتصور ، والتى استفاد منها البكرى من غير شك ،

كما يرى دسلان فى تقديمه للكتاب بالفرنسية ( ص ١٣ - ١٥ ) ، وهو الأمر المقبول حقا .

ولهم أن معلومات البكرى الفريدة عن أحوال المرابطين من بربر صنهاجة الصحراء الملتصين كانت موردا نهل منه القدامى ، من الادريسي ( قرن ٦ هـ / ١٢ م ) الى الحسن الوزان ( ليون الأفريقى : قرن ١٥ هـ / ١٦ م ) والمحدثون ، من كولى :

(W.D. Cooley, Early History and Geography of Central Africa, 1841 الى جوتيه : (E.F. Gautier, Le Sahara, 1940)

الى حد اعتماد البعض بحق ، عليه فى عمل الدراسات المتعمقة ، كما فعل جان ميشيل ليسار (J.-M. Lessard) فى دراسته عن سجلماصة ( هسبيريس ، ١٩٦٩ فصل ١ - ٢ ) ، وهو ما نقتدى به من غير تردد .

ومن المهم الاشارة هنا الى أننا استغفنا من توقيت البكرى الدقيق للأحداث فى تصحيح بعض التواريخ الخاطئة عند غيره من المتأخرين ، الأمر الذى ساعد على تحديد مسار التاريخ المرابطى فيما بعد عصره بشكل منطقي مقبول ، الأمر الذى يكرس مرجعية البكرى من غير شك .

#### الادريسي ، وصاحب الاستبصار ، وليون الأفريقى :

ومن الواضح أن الادريسي ( القطعة الخاصة بالمغرب ، دراسة محمد حاج صادق ) استفاد من تأليف البكرى فى اخبار قبائل المرابطين من صنهاجة لتونه ولطة ، الرحالة الذين ليس لهم مدينة الا نول لطة وأنزقى ، حيث محطات خدمة قوافل الابل الصحراوية ( ص ٧٤ - ٧٥ ) ، الى جانب ما يقمسه من معلومات عن بناء مراكش على عهد يوسف بن تاشفين ، واستكمال بنائها على عهد على بن يوسف ببناء قصر الحجر ، وجلب الماء من العيون خارجها ( ص ٨٣ - ٨٤ ) .

أما صاحب الاستبصار (أواخر قرن ٦ هـ / ١٢ م) فجعل اعتماده فى اخباره على البكرى - فى هذا الموضوع - كما يظهر اثر البكرى أيضا عند الحسن الوزان ( القرن ١٥ هـ / ١٦ م : ليون الأفريقى ، وصف أفريقيا ، الترجمة العربية عن الفرنسية - السعودية ) الى جانب مشاهدات القرن الـ ١٦ م التى يمكن الاستفادة منها عن طريق القياس والمقارنة مما يظهر فى الدراسة .

**ابن شداد الزيرى ( ت حوالى منتصف القرن ٦ هـ / ١٢ م ) :**

وسجل الرواية الأفريقية التونسية فى تاريخ المرابطين فى كتاب « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لعبد العزيز ( أبو محمد عز الدين ) بن شداد بن ( الأمير ) تميم بن المعز بن باديس ( الزيرى الصنهاجى ) المتوفى حوالى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فبسبب انتماء ابن شداد الى الزيريين فى افريقية يمكن اعتبار كتابه هذا نوعا من التاريخ الوطنى او القومى الصنهاجى ، وان أصبح بحكم الاقتباس والنقل يمل وجهه نظر المشاركة لتاريخ المرابطين .

**ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م ) :**

فابن الأثير - بما له من رسوخ فى التاريخ الإسلامى - يعطى وزنا عظيما من غير شك ، لرواية ابن شداد عندما يعرضها فى تاريخ المرابطين بعد عرضه لرواية الرقيق فى الهلالية وسقوط خلافة قرطبة التى ينق فيها بصفتها رواية « رب البيت الذى هو أدري بما فيه » - وان كانت رواية ابن شداد قد تعرضت مع مرور الوقت ، لأخطاء النسخ وربما للتحوير والزيف - خصوصا بعد قيام دولة الموحدين المعادية للمرابطين . والمثل لذلك قصة الفيل الذى ركب الفونس ، وقصة اخفاق أمير المسلمين فى التخلص من شيخ جبل كزوله ، والكف عنه بعد ما انكشف سره ، الى جانب قصة الرجال الثلاث الذين اشتهى أحدهم زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين .

**النويرى ( ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م ) :**

وهى من الآفات التى تعاني منها رواية ، النويرى ( تاريخ الغرب الإسلامى : أفريقيا والمغرب والأندلس ، تحقيق كل من مصطفى أبو ضيف - الدار البيضاء - وحسين نصار - القاهرة ) الذى رجع الى رواية ابن شداد فنقلها أو حصها مع ما هو معروف عنه من النقل من ابن الأثير .

**ابن القطان ( ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ) :**

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا من الجزء الذى وصل إلينا من كتابه « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، لابن القطان ، الا قطعة صغيرة متناثرة عن أواخر عهد المرابطين ( ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م - ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م : تحقيق محمود مكى ، الرباط ) . وهذه القطعة من تاريخ المرابطين

في الأندلس خاصة بفترة المطاولة ( الصراع ) بين المرابطين والموحدين .  
ومن أهم ما تقدم تلك القطعة من تاريخ المرابطين في الأندلس وقمة أبلش  
( سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م ) ، وغزو إقليم طليطيرة ( ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ) ،  
وهي السنة التي يضع فيها احراق كتاب الأحياء للغزالي ، الى جانب أخبار  
محمد بن تومرت الأولى .

ابن عذاري ( يكتب حوالي ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ) :

ويرجع الفضل لابن عذاري الذي تعتبر حولياته في « البيان المغرب »  
العمود الفقري لتاريخ المغرب الاسلامي في كل العصور ، الأمر الذي يتأكد  
من عرض مصادره في الجزء الأول الذي نشر بمعرفة برونسسال وكولان .  
ومن حسن الحظ ان اسفرت جهود الباحثين عن استكمال اجزاء هامة من  
الكتاب بعد الجزئين اللذين نشرهما دوزي ، مثل الجزء الثالث في تاريخ  
الطوائف الذي أخرجه برونسسال ثم الجزء الرابع في تاريخ المرابطين ، قبل  
القسم الخامس في تاريخ الموحدين ، مما كان لويثي ميراندا جهده في اخراجه  
الأمر الذي ساعده على اخراج كتابه في « تاريخ امبراطورية الموحدين » .

وتتأكد أهمية أخبار ابن عذاري في تاريخ المرابطين بمقارنتها بغيرها  
من روايات المتقدمين عنها والمتأخرين ، اذ تثبت المقارنة ان ابن عذاري مؤرخ  
موهوب ، يعرف كيف يوازن بين مختلف الروايات ، ويميز الغث من  
السمين ، الأمر الذي يؤكد التوقيت الصحيح للأحداث - عصب التاريخ  
الرئيسي - الأمر الذي يساعده حقا في تحديد المسار اسمى للوقائع عندها  
تضطرب فيما بينها وتختلف لسبب أو لآخر .

ورغم ما يعتري القطعة من البيان الخاصة بالمرابطين والتي تمتد على  
طول مائة عام تقريبا وتمثل الجزء الرابع من الكتاب حسب نشرة احسان  
عباس ( بيروت ١٩٦٧ ) ، من النص في البداية والنهاية الى جانب بعض  
الغروم مثلما يشير اليه المحقق في ص ٣٠ ( عن أحداث ما بين ٤٦٩ -  
٤٩٥ هـ / ١٠٧٦ - ١١٠١ م ) ، فانه زاخر بالموضوعات والمعلومات الوفيرة ،  
من : حركة الأمير أبي بكر بن عمر الى الصحراء ، وتسمية يوسف بأمرير  
المسلمين ، وعبوره الى الأندلس ، وثورة ابن جحاف بلنسية ، واخبار  
البلاد الشرقية ، وحرق الأحياء ، الى ولاية علي بن يوسف ، وتاشفين بن علي .  
ومما يحمد للمحقق محاولته استكمال تلك القطعة بتزويدها ، باللاحق

الحمسة في : ترجمة يوسف ويمض أعماله ، الى جانب المعلومات عن انغادر ابن ذي النون ، والقاضي ابن جحاف في بلنسية .

ابن أبي ذر ( ت حوالى ٧٤٠ هـ / ١٢٣٩ م ) :

وكتاب ابن أبي زرع الذى يعتبر من نوع كتب التاريخ المحل ، من حيث انه يحمل عنوان « الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ( الرباط ١٩٧٣ ) فكانه من كتب تاريخ المدن . حتى شبهه جوتييه بكتب الارشاد السياحي ، من حيث عنايته الفائقة بمعالم مدينة فاس القديمة ، التى ما زالت باقية الى اليوم ، لتجمل من فاس بحبيها « البالى » و « الجديد » تحفة فى متحف « المغرب » الحديث ، من تحف المنصور اوسطى التى تحتز بها بحق مديرية الآثار هناك ، وقد يكون ذلك من مبررات ترجمة الكتاب الى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ، من الألمانية والبرتغالية والأسبانية ، بل والقديمة مثل ترجمة طورنبرج اللاتينية .

ورغم ذلك فروض القرطاس يعتبر بحق أيضا مصدرا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ « المغرب » ( الحديث ) من : الإدارة وحتى العصر المريني . فى أوائل القرن الثامن الهجرى / ١٤ م . والمؤلف يعرض بشكل عام لتاريخ دول المغرب دون توثيق أو اسناد . ودون انباع منهج الحوليات التاريخي . وإن كان قد عوضه بأسلوب شبيه آخر ، وهو انهاء تاريخ الدولة بمرض لأهم الاحداث ، من اجتماعية واقتصادية وظواهر كونية مع وميات الاعيان . وهو فى ثمايا عرضه يلجأ الى استكمال تواريخ آثار فاس وخاصة جاسع القرويين حيث يمالج أعمال الدول المختلفة حتى أيامه ، مثلما يتكلم عن أعمال يوسف بن تاشفين فى الجامع العريق بعد أعمال العاصرين ( سنة ٢٩٥ هـ / ١٠٠٤ م ) ( ص ٥٩ ) ، ويتبع ذلك بأعمال الموحدين والمرينيين .

وفيما يدق بتاريخ المرابطين فهو يشغل قسما معتبرا من الكتاب ، تحت عنوان الحبر عن ظهور الدولة المرابطية اللمتونية ، وقيامها بالمغرب والقبلة ، وبلاد الأندلس ، وذكر ملوكهم ومدة أيامهم الى انقضاها وذهابها . وهكذا تنوال على دولة المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ٤ ( أربعة ) عهود نسمى بالدول ، وهى دولة كل من : الأمير أبى بكر بن عمر ( ص ٣٣ ) مع وفاة زينب النفزاوية سنة ٤٦٤ هـ ( ٩ ) ، والأمير يوسف بن تاشفين ثم ابنه على وحفيده تاشفين - دون اعتبار للمراحم : ابراهيم بن تاشفين - آخرهم .

رواية البكرى واضحة المعالم ، فى الفترة المرابطية الأولى ، وكذلك

رواية القاضي ابن جنون ( قنون ) ( ص ١٦٦ ) الذي يعتبر من مصادر ابن شداد .

ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) :

يمالج ابن خلدون دولة المرابطين عرضاً في أكثر من موضع ، فهو يعرض لها في المقدمة ، كما يمالجها في تاريخ البربر على مستوى الدولة ، وعلى مستوى النبيلة من : لمتونة الى غيرها ، مثل : مسوفة \* وهكذا يعرض للمرابطين تحت عنوان : الطبقة الثانية من صنهاجة ، وعم اللمتون ، وما كان لهم بالمغرب من الملك ( ج ٦ ص ١٨١ ، من ط \* يولاق المصورة ببيروت ) \* ويناول هذا القسم العناصر الآتية : المثلثون من صنهاجة ( ص ١٨١ ) ، وتاريخهم الأول من بداية اسلامهم ، وفيه يظهر أثر البكري ، كما تأتي الإشارة أكثر من مرة الى ابن أبي زرع ، ( ١٨١ - ١٨٢ ) ، والخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك ( ١٨٢ ) \* وهو في عرضه لمرب يوسف بن تاشفين لمراوة وبني يفرن في فاس وتلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط يذكر ما حدث به المؤرخون بشكل عام ، ويخصص عندما يذكر قول صاحب : نظم الجواهر ( ص ١٨٤ ) انذى لا تعرف ان كان يقصد به صاحب نظم الجمان ( ابن القطان ) أم لا ، قبل أن يوجه أنظاره ، نحو الأندلس والعبور الى الفونس الـ ٦ ( ص ١٨٦ ) ، وسوء العلاقة بملوك الطوائف والفتوى بخلمهم ( ص ١٨٧ ) ، ومخاطبة الخليفة العباسية ، ومخاطبة الفسزالي له ( ص ١٨٨ ) ، وملك على بن يوسف ، والصراع مع الفونس الـ ٦ الى ظهور المهدي محمد بن تومرت ( ص ١٨٩ ) .

ونص ابن خلدون ما زال في حاجة الى تحقيق ، فكثر من الأسماء بل والتواريخ محرفة نتيجة لأخطاء النساخ وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من التواريخ ، وهذا ما يظهر في ترجمة دسلان وتصحيحاته التي يمكن أن تساعد كثيراً في إعادة تحقيق النص \* فد « تاوكا » صححتها « تاركا » ( طارقه ، تارغه ) على سبيل المثال ، وبنو « صولان » : بنو مولان ، وكاكريم : كاكدم ( قاقدم ) ، و « بتولوتان » : « يتلوتان ( ج ٦ ص ١٨١ ) ، « وتيزاو » : « تاشق بن بيزا » : تينزواين واشتق بن بيزار ، و « ناشرت » : ناشرت ، و « الكندالي » : الكدالي ( الجدالي ) ( ج ٦ ص ١٨٢ د والترجمة ج ١ ص ٦٥ ) . وتأتي ( في ص ١٨٣ ) قراءة اسم « لقوط » ( البرغواطى - صاحب سبنة وأغامت ) ليعتمد صححتها دسلان في شكل « Laghout » بدلا من « سكوت » .

التي تأتي في ابن خلدون في مواقع أخرى ، والتي أصبحت دارجة عند غير ابن خلدون من القدامى والمحدثين بدلا من لقوط .

ومثل هذا يقال عن بعض التواريخ مثل : استيلاء الفونس الـ ٦ « الطاغية » على بنسبة سنة ٨٥ ( ١٠٩٢/٤ م بدلا من ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م ) وجواز يوسف الثاني سنة ٨٦ ( ٤ ) هـ/ ١٠٩٣ م بدلا من ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م ( ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٩ ) .

والمهم في رواية ابن خلدون أنه استطاع أن يقابل بين الروايات المتضاربة ، وأن يختار الصحيح منها ، وأن يستبعد الروايات القصصية ، ويقدم رواية سليمة وإن كانت مختصرة . والمهم أن يتبناها من ينقياها مما شابها من تحريفات النسخ والنقل .

« الحلل الموشية » في الأخبار المراكشية ( لجهول أنجزها في ربيع الأول سنة ٧٨٣ هـ/مايه ١٣٨١ م ) :

ورواية الحلل رغم تأخرها النسبي وسرعتها تعتبر من المراجع الهامة بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، من حيث أنه يمكن عن طريقها سد بعض الفراغات في تاريخ المرابطين سواء في المغرب أو الأندلس ، أو اكمال ما تعاني منه بعض الروايات من الخروم أو القطع . هذا ، كما تميزت هذه الرواية المجهولة المؤلف بتوازنها من حيث العناية بكل من المغرب والأندلس بنفس القدر ، وكذلك الأمر بما فيها من توازن في تقييم العمل المرابطي بالأندلس دون تحيز لأي من موقفى الأندلسيين والصحراويين اللذين ، بما يمثله كل طرف على المستويات الحضارية والانسانية .

وصاحب الحلل يذكر بعض الكتب التاريخية التي أخذ عنها ، مثل : البكري ، وأبى يحيى بن اليسع ، صاحب كتاب المغرب في محاسن المغرب ( ص ٦٢ ) ، وكذلك محمد بن الخلف ( ص ٦٦ ) ، إلى جانب روايات المعاصرين من شهود العيان ، ذوى المناصب المتبرة ، مثل : محمد بن عبد العزيز بن الامام : أحد خواص المعتمد بن عباد ( ص ٥٧ ) .

والمهم أن صاحب الحلل ينفرد ببعض المعلومات التفصيلية ذات الشكل الأدبى ، من حيث العناية بالعدد والوصف الدقيق ، مثل : قائمة الهدية التى قدمت من قبل يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه الأمير الأكبر : أبى بكر « ابن عمر » عند عودته من السودان ، والتي احتوت دنانير الذهب ،

والأفراس والسيوف المحلاة بالذهب وأنواع الملابس الثمينة ، من المعباتم المتصورة والأقواب السوسية ، والبرانس الملونة ، وقباطى الشاش المونة ، والجوارى الأبكاز ، وأرطال العود الغالى والمسك الطيب والعنبر والند ٠٠ الخ والحقيقة أن النص على أن يوسف كتب الى أبى بكر كتابا يعتذر فيه عن قلة الهدية ( ص ٢٨ ) ، ربما تعنى أن مصدر تلك المعلومات التفصيلية المنهضة هى تلك الرسالة ، على ما نظن .

هذا الى جانب ما يعرضه صاحب الحلل من خطابات رسمية بمناسبة اتخاذ لقب أمير المسلمين ( ص ٢٩ ) ، او بمناسبة استصراخ المتوكل بن الأفتس بأمر المسلمين ( ص ٣٤ ) ، وكذلك المعتمد ( ص ٤٥ ) وهو ما يبنى الثقة فى الأصول الديوانية ( الوثائق ) فى الحلل المشوية ، بصرف النظر عن سرعتها واضطراباتها أحيانا .

#### الأوراق الرسمية والوثائق :

والحقيقة أنه كان للأندلس بحضارتها الديوانية العريقة التى كانت قرطبة ما زالت تحتفظ ببعض بقاياها ، أثرها على الكتابة التاريخية للدولة المرابطية والموحدية ، وهما الدولتان العريقتان فى أصولهما الصحراوية « الجبلوية » ، من حيث طغيان المادة الوثائقية المتمثلة فى الرسائل الرسمية الصادرة من دواوين الطوائف . وانه لما يؤسف له أنه لم تصلنا - بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عمت كلا من الأندلس والمغرب فى القرون التالية - أية نماذج أصلية من تلك الرسائل . فالذى وصلنا منها هى نماذج مشوهة نقلها الهواة من : كتاب أدباء أو مؤرخين هوأ بعضهم عن بعض ، حتى وصلت إلينا مشوهة الصورة والنسخ . ولما كان كتاب هذه الرسائل من الأدباء والشعراء أصلا ، كانت غلبة الطابع الأدبى على تلك النسخ من الرسائل الى جانب الاسراف فى استخدام المحسنات اللفظية ، والتشبيهات والاستعارات ، مما يعد ان لم يمنع الاستفادة منها الى حد كبير .

#### بروفنسسال :

ويرجع الفضل للأستاذ بروفنسسال فى الكشف عن مجموعة مخطوطة من الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية ، اكتفى بنشر الأخيرة منها لأنها كانت أحدث وأوثق ( نشر الرباط ، ١٩٣٤ ) . اما بقية الرسائل المرابطية



**الأقل قيمة وغائبة عند كان من حسن الحظ أن لعيت من عكف على دراسها  
من المختصين اقتداء بـبروفنسال \***

### **مؤنس ومكى وعنان :**

فكان لمسين مؤنس نشاطه فى هذا المجال حيث نشر بعض ارسديه  
فى المجلة المتدريه للدراسات التاريخيه ( ١٩٤٩ ) ، وفى صحيفه المنبه  
المعري بمديده ( ١٩٥٤ ) ، وخاصة تلك الرسائل الي نشرها دي دراسه  
عن النشر الاعلى اى مملكة سرقسطه ( مصر ١٩٩٢ ) ، ونخوى على ٤ (ربيع)  
رسائل ، اولها عن موقعة اقليش ( ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م ) ، والثانيه عن  
سقوط سرقسطه ( ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م ) ، والثالثه والرابعه عن هزيمه اقلعه  
( ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م ) ، هذا ، كما قام محمود مكى بنحقيق ونشر ماكان قد  
بقى من رسائل بروفنسال ( المرابطيه ) ، وهى ٢٢ ( اثنان وعشرون )  
رسالة مرابطيه فى موضوعات مختلفه ، منها : لقاء ابن رشد بيوسف بن  
تاشفين ، بمناسبة مسأله المعاهدين ، وغزو منطقه طليطلة على عبد على بن  
يوسف ( ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ) ، ورسالة موجهة سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م  
الى قاضي ريه عن زياده اختصاصات العضاه ، ووصايا على بن يوسف  
الى رعيته الأندلسيين ( ٥٠٠ - ٥٠٨ هـ / ١١٠٦ - ١١١٤ م ) ، ورسالة من  
مراكش سنة ٥٠٦ هـ / ١١٠٢ م عن مركز الفقهاء المميز لدى المرابطين ،  
وعن احوال بلنسية التى استنقذت من السيد ( ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ) ،  
واستدعاء الكاتب ابن ازرق سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م لاستخدامه فى ديوان  
انشائه ، وتولية شخص على ميورقة ربيع ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، ورسالة فى  
قتل الجراد ( لابن القبطرنة ) ، هذا كما نشر محمد عبد الله عنان بعض  
الرسائل المرابطيه فى ملحق كتابه عن المرابطين والموحدين \*

اما عن اهم الأدب التاريخي الخاص بالمرابطين فى الأندلس ، فهو ذلك  
النوع الذى ياخذ شكل المذكرات الشخصية ، سواء كانت معاصره او  
متأخره ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجى ، واعلام ابن الخطيب ،  
ومعجب عبد الواحد المراكشى ، وأخيرا ذخيرة ابن بسام \*

### **مذكرات الأمير عبد الله ( ٤٦٩ - ٤٨٣ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٩٠ م ) :**

تعتبر مذكرات الأمير عبد الله المعروف « بكتاب التبيان » من المصادر  
الهامة بالنسبة للتدخل المرابطى فى الأندلس . ففى مقدمتها ينص الأساس  
جروفنسال ( ذخائر العرب ، رقم ١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨ ) على أن تلك

المذكرات التي دونت أثناء الإقامة الجبرية لمؤلفها في أغصات ، تمثل اعظم مجموعة وثائق وصلت الينا فى تاريخ ملوك الطوائف وأقلا تحويرا .

والحقيقة أن المؤلف يستهل مذكراته تلك بمقدمة يقرر فيها الطريقة التي اتبعها فى الكتابة ، وهى التي تمثل منهاجا معتبرا فى أسلوب التأليف ، من : جودة الصياغة ، والأمانة فى النقل ، ومراعاة ترابط الأحداث ، واستخدام العقل فى القياس ، مع مقارنة الماضى بالحاضر من حيث أن الـ « أنا : آن الآن » ، بمعنى أن ادراك الوجود هو ذات الزمان ، كما نظن . وهو اذ يعرف أن التجربة مهمة فى التعليم ، فانه يدرك أيضا أن : ليس العلم بكنزة الرواية ، انما هو نور يضعه الله فى القلوب ، بمعنى أن العلم لا يعنى بالتكرار والاعادة ، بل بالكشف والتجديد ، وهو ما يشبه الاستنارة العقلية لدى الماوردى فى باب العقل من أدب الدنيا والدين .

وينص الأميرالفرناطى وطنا الصنهاجى أصلا ، على أهمية التمرس بالتجربة السياسية بالنسبة لأمثاله من الأمراء المستقلين بالحكم والإدارة . وهو فى ذلك يأخذ بمقالة كل من الفارابى والماوردى فى أن صناعة الحكم والرئاسة هى أشرف الصناعات ، الأمر الذى يتطلب أن يكون صاحبها فيلسوفا عالما ، شبه معصوم من الخطأ (١) .

ولا ينسى الأمير عبد الله فى مذكراته التنبيه الى الاستفادة بتجارب الماضى التاريخية ، حيث الإشارة الى ذاتية الأحداث التاريخية ، وأهمية الصدفة فى المسار التاريخى ، كما فى قصة تسلم المنصور بن أبى عامر لقمة السلطة فى قرطبة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لهم فى غرناطة ( المذكرات ، ص ١٨ ) .

#### أعمال الأعلام لابن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م ) :

وهذا الكتاب هو الآخر من روائع الأدب التاريخى المتخصص فى عصر ملوك الطوائف رغم تأخره بشهادة مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب ، أحد كبار رجال السياسة والأدب فى القرن الثامن الهجرى/ ١٤ م ، مثل معاصره وصديقه ابن خلدون .

---

(١) انظر للمؤلف ، الماوردى بين التاريخ والسياسة ، جامعة الاسكندرية ( الموسم الثمانى ) ١٩٧١ ، ص ٦٢ -

فلقد جمع ابن الخطيب مادة تاريخية غنية عن تلك الفترة ، جعلت روايته ترقى الى مستوى المصدر الاصيل ، تماما كما هو الحال بالنسبة لروايته المتأخرة عن غرناطة القرن ( الـ ٨ هـ / ١٤ م ) الموسومة بالاحاطة سقا ، الى جانب كونها أساسية بالنسبة لأصول نظام الطوائف وجذوره التي عرف في رجل السياسة والأدب كيف يكشف عن مظانها المتغيرة ، كما كان لديه الذكاء والخبرة الميدانية التي تمكنه من بيان عللها ومعرفة خباياها .

فنشأة نظام الطوائف كان نتيجة طبيعية لسقوط خلافة قرطبة التي أعلنها شيخ الجماعة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور عندما اتفق على خلع هشام المزيدي ، وإبطال رسم الخلافة جملة ، حيث تقسم بعدئذ رؤساء الطوائف البلاد والأقطار (أعمال اعلام، نشر بروفنسال ، ص ١٣٩) ، تماما كما كانت الدكتاتورية العمارية من الأسباب المباشرة لسقوط الخلافة ، من حيث أجهدت البلاد في إقامة آلة حربية ضخمة ، واستئثفت نظام الصوائف السنوية ، في وقت كانت الأوضاع قد استقرت فيه على طول التفور الشمالية ، وكانها حدود نهائية .

والهم هنا هو أن قرطبة العاصمة المدنية العملاقة ، المكونة من ٢١ ( واحد وعشرين ) حيا والتي بلغ محيطها ٢٥ كم ، وعدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة كانت المدينة الوحيدة القادرة على ربط أطراف الأندلس بعضها الى بعض ، وفرض سلطانها تحت رايات حكومتها المركزية ( ص ١٣ وما بعدها ) . فبعد أن سقطت قرطبة في مستنقع الفتنة تحولت من عاصمة حامية الى ساحة قتال مفتوحة لا يشهاها المتنافسون على السلطة من العرب والبربر والصقالبة فقط ، بل والحلفاء المسيحيون من ممالك الشمال ( ص ١١٣ - ١١٤ ) . هذا ، كما كان استيلاء المبادئ على قرطبة يحقق لهم التفوق على غيرهم من رؤساء الطوائف ( ص ١٥٤ ) .

#### كتاب الذخيرة في معاصر أهل الجزيرة لابن بسام (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) :

يعتبر ابن بسام من شهود عصر الطوائف ، وتتلخص أهمية كتابه « الذخيرة » في أنه كتاب أدب وتاريخ ، إذ يرجع ابن بسام فيه الى تاريخ ابن حيان المعروف بالمتقبس والذي يعتبر بدوره تاريخ وأدب ، الأمر الذي ينفث فيه شيئا من الحياة رغم الاختلافات المنهجية بين العلمين (١) .

(١) عن كتاب ابن حيان ، انظر أحمد مختار البادى ، مجلة عالم الفكر ( الكويت ) ، لجلد ٨ ، العدد ١ ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٢٧ - ٢٩ .

والكتاب الذي يأخذ بشكل السير أو تراجم الرجال مقسم جغرافيا الى ٤ ( أربعة ) أقسام ، ثلاثة منها حسب تقسيم بلاد الأندلس ، الى : الوسط وتمنلة قرطبة والغرب حيث اشبيلية وما يتصل بها من بلاد سناحل البحر المحيط ، ثم الشرق وما يتصل به من الجزر والثغور ، حيث يعالج أهل كل إقليم على حدة بينما يخصص القسم الرابع والأخير للطائرتين على البلاد من الشعراء والكتاب الى جانب بعض المشاهير من المعاصرين من أهل أفريقية والشام والعراق .

### ابن بسام وابن حيان :

والحقيقة أن ما يعطى الكتاب شكله التاريخي المميز بالنسبة لبلاد الأندلس في عصر الطوائف بخاصة أنه يعالج في كل من الأقسام الثلاثة الأولى عددا من رجال الدولة والكتاب الى جانب الأدباء ( المقدمة ، ص ٥ ) ، كما أنه يعول في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان ابن حيان ( المقدمة ، ص ١٨ ) .

واذا كان ابن بسام قد عدل في نقوله من أبي مروان بن حيان ، سواء من التاريخ الكبير المعروف باليتين أو من تاريخ ملوك الطوائف الذي عدده المعاصرون من « فرص العمر وغوره » حيث حسن التصرف في المادة المقتبسة ، من الاختصار أو التخفيف حسب مقتضى الحال ، الى جانب التمسك الواضح باصول منهج البحث التاريخي ، من : التثبت من صحة النص المكتوب بخط المؤلف الى سلامة طريقة البحث وهدفه ، والنقد لما يمرض له ابن حيان في المقدمة . هذا ، وإن قرر في الختام « أن المؤرخ متهم على كل حال » (٢) .

واغراض البحث كما يعرضها ابن حيان تتلخص في الآتي :

— الاعتبار بدروس الماضي ، الأمر الذي يقضى باستقصاء الأخبار ، والعناية بتقيد شازدها وواردها .

— وإذا كان اضطراب الأحداث بسقوط الخلافة ، وقتنة الطوائف قد

---

(٢) الفخيرة ، ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٢ — حيث التمثل بيت الشبعر الذي يقول فيه ابن الرومي :

مهما تقل فسهام منك مرسله وفوق قوسك والأعراس اغراض

جعلت ابن حيان يتوقف عن جمع الأخبار أو يتعذر عليه متابعتها لبعض الوقت ، فإنه يعود الى استئناف تقييد الأحداث من لحن أهل العلم والأدب ، وإن كان بشكل لم يرضى نهم الباحث المجتهد ، إذ يقول : « لزهد من قبلنا قديما وحديثا في هذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم » ( ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٦ ) .

والهم أنه نجح في وصل ما كان قد انقطع من أخبار بداية فتنة الطوائف ، وأخبار أبطالها وشهود حروبها ، مما أسعفته به الذاكرة أو أخذه عن أهل الثقة ، أو ما سمحت بمشاهدة الأحداث التي ظل بعضها يأخذ بخناق بعض حتى اكتمل نظمها وانتشرت مطاويها ، وأعلنت خوافيها دون محاباة لها أو خوف عليها من سطوة الحق أو صرامة الصدق ( ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٧ ) .

والظاهر أن مؤرخ الأندلس ابن حيسان انتابته أزمة نفسية منتهت من متابعة دورة تاريخ الطوائف أشبه بتلك التي انتابت ابن الأثير عندما توقف لفترة من الوقت عن التاريخ لغزو جنكيز خان لدولة خوارز مشاء ، على اعتبار أن إعلان مثل هذا النبأ الخطير كان في رأيه بمثابة نعي للإسلام في تلك الجهات الشرقية من أواسط آسيا . والحقيقة أن ابن حيان بعد أن توقف عن إعلان أخبار عصر الطوائف في الأندلس ، عكس اعتبار أنه نعي لخلافة قرطبة المروانية ، رأى أن الجاريج لنويلات المشرق الأيراني - التركي التي ظهرت بشكل قوى ، إلى جانب خلافة بغداد الضعيفة ، اعتبارا من القرن الثالث الهجري / ٩ م ، هي النموذج الذي يمكن أن يقتدى به في التاريخ للأندلس اعتبارا من مطلع القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) ( ١ ) .

(١) انظر النشرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٥٧٧ - ٥٧٨ حيث النص على أنه استمر في التاريخ لعصر الفتنة الطائفية ، أسوة بالمؤرخين من أصحاب التاريخ بالمشرق كالصفي وابن القراس والفرغاني ( ت ٣١٧ هـ / ٩٢٤ م ، الذي له صلة لتاريخ الطبري ) ، ونظراتهم من اعلام الفقهاء الذين عاصروا الفتنة التي لحقت بالمشرق اعتبارا من أول القرن الثالث هـ / ٩٠ م ، حيث تصريحهم بأخبار أمراتهم المتوطين على السلطة عند ومن منقلبي الخلافة منهم . فالأمر ما اعتدوا بذكر أخبار الأمامج هناك من الديلم والآراك ، مع عدم الفائدة فيها ، ونفي العار بوجودها . وبمدها مما كتبه من قبلهم من أخبار ملوك العرب في صدر الإسلام لفظا وصلى ، وعكسا ومبني ، حتى توسعوا في ذكرها وتناهاوا في التقليل عنها - وإن ذلك لا محالة كان لاستغرابهم من شأنها ... وأشار لهم إلى أنها طرقت حادثة لما بنه الدنيا ، ومفيدة لمحاسنها مرسدة فيها ، مؤداة بانطباعها ، لكي يكون اليقاع لمن تغرد بجزوتها ، ويلام البهاء لمن لا تتسلط =

وبناء على ذلك استكمل ابن حيان تاريخه الكبير بتاريخ رؤساء الطوائف ، وكان له رأيه الخاص في أولئك الملوك الصغار الذين حملوا الألقاب الملوكية التي حملها الخلفاء ، الأمر الذي كان يثير استنكار البعض أو سخرية الآخرين . وهذا ما أخذ به الجمهور العريض من الناس ، وإن لم يمنع ذلك أصحاب المآزب الخاصة من قبول نظام الطوائف كنوع من نظام حكم المتفلسفين الذي يعتبر ظاهرة سياسية تاريخية في حالة عجز الحكومة المركزية عن ضبط الأمور في الأصقاع البعيدة ، فكانه نوع من الحكم المؤقت الذي ينتهي بنهاية أسباب وجوده . وفي هذا الشأن توجد مادة متنوعة في ذخيرة ابن بسام تعبر عن مختلف وجهات النظر من عامة شاملة أو خاصة محدودة .

#### عبد الواحد المراكشي ( أنجز مؤلفه سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ) :

يعرف عبد الواحد المراكشي بمؤلفه في تاريخ المغرب والأندلس الذي يحمل عنوان « المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب » الذي ألفه في المشرق في أواخر شهر جمادى الثاني ٦٢١ هـ / يونيو ١٢٢٤ م . وتتلخص أهمية الكتاب في أهمية صاحبه عبد الواحد الذي يعتبر واحدا من كتاب الدولة الموحدية ، من حيث صلته بالأمير اسحق بن يعقوب المنصور الذي كان حاكما لاشبيلية على أيام أخيه الناصر .

ورغم أن عبد الواحد كتب المعجب في بغداد فالكتاب يعتبر ، بسبب مركز صاحبه الاجتماعي ، وثيقة هامة بالنسبة لتاريخ المرابطين رغم اهتماماته الأدبية الخاصة ، حيث التعريف بكثير من الشخصيات الأدبية السياسية من ملوك الطوائف وكتاب دواوينهم - وهو من هذا الوجه له رأى يعيل فيه بشدة الى المعتمد بن عباد ولكنه لا يعتمد بنفس القدر عن يوسف ابن تاشفين .

هذا ولعبد الواحد الذي يعتمد كثيرا على الحميدى ( ص ٦٩ ) رغم

---

= التبر على ملكوته . فركبت سفن من تدمر فاجتمع من ملوك هذه الفتن البربرية ، وانقضت وكلفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياساتهم المنفرة وسبب انتفاض دولهم .. وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسي ، وخياه لولمى ، والفضن بفوائده الجمة على من تمكبت احسادى به الى ذى ومتكصتى .. الى ان رايت زغافه الى ذى خطبة سنية أثنى على بعد الدار ... الأمير المؤئل الامارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين : يحيى ذى النون .

تصريحه بتشتت الذاكرة واعتذاره بغياب كتبه ، نظرات عميقة فى السياسة وشئون الحكم • فالأندلس كانت كرسى المملكة الى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين فصارت اذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدو ( ص ٥ ) ، وأهم سمات طليطلة التى زلزلت أخبار سقوطها أهل ذلك العصر ، هو القرب من وسط الأندلس ( ص ٧ ) ، تماماً كما يلح على ذلك الحميرى صاحب الروض المطار • وهو بالنسبة لعصر الطوائف فى الأندلس يقدم روايات وثائقية جيدة ، مثل : قرطبة التى تحولت على عهد ابن جهور الى جمهورية شعبية ، جنودها أهل الأسواق وان كان ابن جهور يدير أمورهما بأسلوب الملوك المتغلبين ( ص ٥٩ - ٦٠ ) الذين حملوا ألقاب الخلافة ( ص ٧٠ ) •

وإذا كانت أطماع « الروم » ( الأسبان ) قد قويت فى بلاد المسلمين فقد انقطع هذا الطمع بين نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللبتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ابنه على ذلك ( ص ٩٢ - ٩٣ ) •

ورغم نقده لرؤساء الطوائف بعامة فهو يعرف للمخبرين منهم قدرهم • فعلى بن مجاهد الذى خلف والده فى دانية وميورقة : مصون النفس طاهرها لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، مؤثر للعلوم الشرعية ، توفى قبل فتنة المرابطين ببسبر « لا أتحدث تاريخ وفاته » ( ص ٧٤ ) • والمتوكل عمر بن الأفطس ناظم نائر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، قتله المرابطون وولديه الفضل والعباس ، ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ هـ/فبراير ١٠٩٢ م • وفيهم قال ابن عبدون قصيدته الغراء ، ومطلعا :

الدهر يفجع بعد الدين بالآثر      فما البكاء على الأشباح والصور  
أنهاك أنهاك لا آلرك موعظه      عن نوعة بين ناب اللين والظفر  
( ص ٧٥ وما بعدها )

وهكذا كان عبد الواحد الأديب يرى فى المتبذخين عباد صنوا لهارون الرشيد : ذكاء نفس وغزارة أدب الى فضائله الذاتية من الشجاعة والسخاء ، وهو على الجملة ، إذا عدت حسنات الأندلس فهو أحدها ، بل أكبرها ( ص ١٠١ ) • وهذا لا يمنع من اعترافه ليوسف بن تاشفين بقدرة ويمن نقيته التى قطع الله بها طمع العدو فى بلاد المسلمين •

### التراجم :

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض أهم مصادر تاريخ المرابطين في المغرب والأندلس فلا يبقى الا الإشارة الى كتب التراجم التي استفدنا منها في الدراسة ، مثل صلة ابن بشكوال وصلتها لابن الأبار ، وهي التي خصصنا لها صفحات داخل الدراسة ، وحاولنا الاستفادة منها في حل بعض المشاكل المتعلقة بضبط التواريخ ، مما يظهر في صميم العمل . وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات الحديثة التي أشرنا إليها في كثير من المواضع ، مع اعتذارنا لمن سقط ذكره - عن غير قصد .



## المرابطون : صنهاجة الصحراء اللثمون في المغرب والسودان والأندلس

### التمهيد :

إذا كان قيام دولة بني زيري خلفاء الفاطميين في أفريقية والمغرب ، اعتباراً من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ( ١٠ م ) ، قد حقق غلبة قبائل صنهاجة أفريقية أنصار الفاطميين المتأخرين على الكتاميين أنصارهم الأولين السابقين الذين انتقلت بقاياهم مع قوات الخلافة الى القاهرة ، فإن الهيمنة الزيرية لم تلبث أن تزعزت من أصولها عندما رنت أبصارهم الى الاستئثار بالسيادة دون الحلفاء المصريين ، اعتباراً من منتصف القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) .

ومن المهم الإشارة الى أن القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) له أهمية خاصة في تاريخ عالم الاسلام من حيث كان قرن سيادة البسود الرحالة ، سواء في المشرق حيث ظهر الأتراك السلاجقة رعاة الخيل في بلاد التركستان بأواسط آسيا ، ونجاحهم في الغلبة على الخلافة في بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، أو في المغرب حيث كان العرب الهلالية يندفعون من صحاروات مصر نحو بلاد القيروان ، الأمر الذي كانت له ردود فعل عنيفة ليس في أرض الاسلام فقط ، بل وفي العالم المسيحي المعاصر ، سواء في بيزنطة التي كانت هزيمتها في ملازكرد ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ايذاناً بتحويل أرض الروم ( الأناضول ) الى تركستان جديد ، أو في شبه جزيرة ايبيريا حيث انتهت هزيمة قشتالة ، أقوى الممالك المسيحية على أيدي المغاربة الصنهاجيين في الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م الى دخول أسبانيا الاسلامية تحت الهيمنة الغربية في عصر المرابطين وخلفائهم من الموحدين ثم المرينيين .

فلقد تسببت الهجرة الهلالية التي تمت تحت رعاية الخلافة الفاطمية – وان كان ذلك في ظروف اقتصادية صعبة بالنسبة لكل من مصر والخلافة وعرب الهلالية مع من كان يصاحبهم من بني سليم – في قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية ( العرقية ) في أفريقية التونسية رأساً على عقب ، مما كانت له آثاره الهامة على مستقبل البلاد الى قرون عديدة ، بل وبشكل نهائي حتى أيامنا هذه ، وخاصة فيما يتعلق

بالتربية السكانية لكل الشمال الإفريقي بدءا من برقة على تخوم مصر ،  
وانتهاء بالصحراء الغربية وموريتانيا حتى سواحل الأطلنطي ، وربما على  
بعض مجتمعات السودان القريب أيضا . فمن الآثار السلبية للهجرة الهلالية  
ضمف الزيريين في المهديّة وبني عمومتهم الحمادين في القلعة وبجاية ، الأمر  
الذي كانت له أصداءه في ضمف أوضاع المسلمين في صقلية في مقابل  
ازدياد التهديد النورمندي . كذلك خرج الصغار من أبناء زيري بن مناد على  
أبناء عمومتهم ، ملوك المهديّة وبجاية ، وانضموا الى خصوم العائلة من زعماء  
زناتة ، حلفاء الأمويين في الأندلس . وإذا كان بعضهم قد مد نشاطه  
الجهادي في ثغور الأندلس ، كما نجح البعض في اقتطاع مملكة هناك في  
غرناطة ، فالمهم انهم شاركوا في زيادة تفتيت الأندلس في نظام ملوك  
الطوائف ، الذي أصبح وكأنه حتمية تاريخية مقدرة ، ليس على الأندلس  
فقط ، بل وعلى أفريقية والمغرب أيضا .

وهكذا انتهى الأمر بانحسار النشاط الفردي للزعماء الزيريين ،  
مصحوبا بعجز الدولة عن مدافعة الهلالية أو مواجهة الخطر النورمندي .  
وتوالى التذر تبشر بزوال النظام الصنهاجي في أفريقية ، وإذا بهوارق الأمل  
تظهر في الأفق البعيد بالمغرب ، في شكل عملية انقاذ على أيدي جماعات  
صنهاجية أخرى ، لم يكن أفسسها الملك والترف بعد ، وهم صنهاجة  
صحراوات المغرب الأقصى من « الجمالة الكبار » ، طوارق العصور الوسيطة ،  
جوابة الصحراء الكبرى .

## الفصل الأول

### في البلاد والسكان

#### البلاد :

وطن المرابطين الأصلي اذن ، هو الصحراء الغربية من الشمال الافريقي وامتداداتها : جنوبا ، حتى أوليل ومصب نهر السنغال على ساحل المحيط ، وشمالا في موريتانيا حيث بلدة اطار ، على طريق نواكشوط - مراكش ، حتى مدينة نول ونخوم السوس الأقصى . وشمالا بشرق في صحراوات الجزائر الجنوبية حيث مرتفعات الحجار ( الاحجار ) على سمت وارجلان ( ورطة ) وغدامس ( شرقا ) - وحيث مدينة توات ( عين صالح حاليا ) ، موطن الطوارق الحاليين ، أسلاف الملثمين من المرابطين ، وصحراوات ليبيا الجنوبية ، حيث مدينة « زويلة » القديمة جنوب فزان على الطريق الى هضبة تيبستي ، التي كانت بابا مفتوحا بين كل من السودان ( الأوسط ) وطرابلس ومصر . وشرقا ، من موريتانيا حتى بحيرة تشاد ، مرورا بصحراء مالي حيث بلدة تساليت في منطقة أدرار افوراس ، من حيث يؤدي الطريق الجنوبي الى تومبوكتو غربا ، وإلى نيامي في جمهورية النيجر ، جنوبا بشرق . وفي صحراء النيجر الشمالية الشرقية المتاخمة لتشاد ، تقع هضبة آير التي تمتد بحيرة تشاد ببعض المياه الموسمية - وحيث تقع مدينة (أجاديس) ، غير بعيد من تادمكة القديمة ، شرق أوغست . وبحيرة تشاد تعتبر همزة الوصل بين النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد التي تقع عاصمتها «نجامينا» على نهر شارى (Chari) الذي يمد البحيرة بالقدر الأكبر من المياه (١) .

---

(١) انظر اطلس مصر والعالم ، جيوروجكس ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، وقارن ، كولين ماكغيندى مرجعة مختار السويلى ، ص ٧٩ وخريطة سنة ١٩٠٠م ، ص ٨٥ وخريطة سنة ١٩٥٥ م . وقارن تحديد اين أبى ذرع ، الفرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٢٠ ( عن بلاد قبائل صنهاجة ) حيث النص على أنها صحراوية كلها : مسيرة ٧ ( سبعة ) أشهر في القبلة ( الجنوب ) طولا ، ٤ ( أربعة ) أشهر عرضا ، من نول لمطة ( على نخوم السوس الأقصى البحرية ) الى قبلة القيروان ، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان . ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث تعداد قبائلهم ، ثم النص على انهم كلهم ما بين البحر المحيط ( الاطلنطي ) والمغرب ( الغرب ) الى غدامس من قبلة (جنوب) طرابلس وبرقة . وقارن ليون الافريقي ، الترجمة =

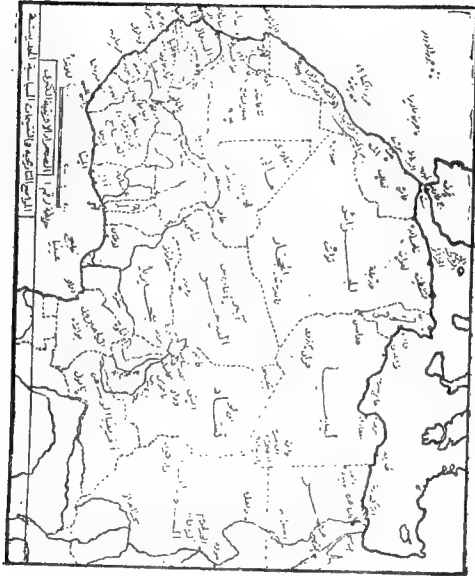
### الاقليم الصحراوى : السمات العامة :

بلاد المزابيين تعادل اذن ، فى وقتنا الحالى ، صحراوات موريتانيا والسنتال ومالى واكثر النيجر ، ويحدها جنوبا الخط الفاصل بين الاجناس الصراوية البيضاء والاثيوبية السوداء ، امتدادا من مصب السنغال الى منحى النيجر ، وحتى بلاد تشاد . اما الحد الشمالى فيتمثل فى سفوح جبال اطلس ( الصحراوية ) الجنوبية التى تنتهى غربا على ساحل المحيط ، وهو الحد الغربى للصحراء الكبرى ما بين مصب وادى السوس شمالا الى مصب السنغال جنوبا .

وتظهر اهم خصائص الصحراء فى بنيتها الرملية الجديدة ، التى قد تضطرب سطوحها بفعل الرياح كموج البحر ، فتنتقل من موضع الى آخر ، وتجلب معها التصحر والبوار . وهى عديمة الأمطار ، قليلة الرطوبة ،

---

= ص ٥١٧ وما بعدها ، حيث أقسام صحارى ليبيا الخمسة وهى : ١ - صحراء زناقة (منهاجة) الجلفة القاحلة ، من المحيط غربا حتى ملاحات تقازة شرقا ، وشمالا تقوم لوميديا وجنوبا حتى بلاد السودان وميلكني ولانه وتومبوكتو ، ٢ - صحراء قنزيفة ( وزريقة ) عند ابن خلدون ( ص ٥١٩ ) وتمتد شرقا من تقوم تقازة حتى تقوم آيخ . وشمالا حتى سجلماسة ( تافللث ) ، ٣ - صحراء الطارقة ( ص ٥٢١ ) من تقوم آيخ شرقا حتى صحراء يلبدي غربا وشمالا حتى الزاب . ٤ - صحراء لسه ( لطة - لثولة - ص ٥٢٢ ) حتى صحراء برداوة ( شرقا ) ، وشمالا حتى ورقلة ( ووجل ) وفلمس ، وجنوبا حتى كاتو ( مملكة الزنج ) ، ٥ - صحراء برداوة ( ص ٥٢٤ ) ، وتمتد شرقا حتى أوجله وشمالا حتى فزان وبرقة ، وجنوبا حتى بلاد البرنو ، وقارن اسماعيل الميرى ، الصحراء الكبرى ( ص ١٩٢ ) حيث الاشارة الى تقسيم الحسن الوزان ، وحيث زناقة ؟ بدلا من زناقة ( زناجة : منهاجة ) ، وأنظر حسن احمد محمود ، للمرابيئون ، ص ٤٤ - ٤٦ - حيث الاشارة الى الاعتماد على البكرى ( ق ١١/٥ ) والاديسى ( ق ١٢/٦ ) ، وفيه تعريف بالوطن العام : ويمتد من غدامس ( جنوب طرابلس ) الى المحيط ، ومن دتن (جبال اطلس - شمالا) حتى مصب السنغال والى منحى النيجر الى تاد مكا والوطن الخاص الذى يمتد بين ترغه فى وادى درعه . وفى بلاد لثوته منطقة لطة وجزولة ، من وادى نول حتى رأس موجدور الحالية . وشرقا الى مدينة اذكى ( على ٧٠ يوم من نول ) وهى حصن لثوته ، وجنوبا يمتد وطئ لثوته الى صحراء ليسر الممتدة الى المحيط ، وقارن لنفس المؤلف ، الرحلة الافريقية من تاريخ المزابيين المجلة التاريخية المصرية مجلد ١١ ، ج ٦ ، ١٩٦٥ ، ص ١١٢ - حيث تحديده مناطق الخوارق ، وتوزيع قبائل الملتصين عن ابن خلدون . وقارن شمسة ، المزابيئون ، ص ١٥ - حيث يقابل هذه المزابيين : موريتانيا - ومالى ، وغانا . واكثر النيجر . وانه يصعد من الجنوب الخط الفاصل بين الاجناس اللبية والاجناس السودانية ، من مصب السنغال وحوضه الأدنى ، الى منحى النيجر وحتى بحيرة تشاد . اما الحد الشمالى فيتمثل فى المرتفعات ( المناوح ) الجنوبية من جبال اطلس - وأنظر الخريطة رقم ١ ) .



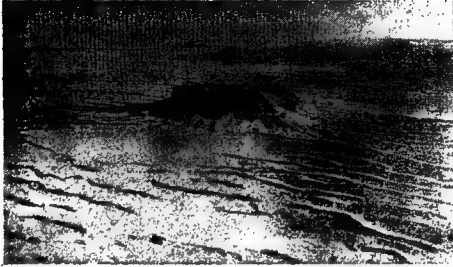
خريطة رقم ١ الصحراء اافريقية الكبرى - المواقع التاريخية في  
التقسيمات السياسية الحديثة

شديدة الحرارة التي قد تتعدى الـ ٥٠ درجة مئوية نهارا . وتتميز الصحراء بالمسافات الشاسعة التي كانت تقاس قديما ، ليس بمسيرة الأيام ، بل بالشهور طولا وعرضا ، بمعنى آلاف الكيلو مترات في جميع الاتجاهات . ويترتب على كل ذلك ندرة في السكان وقلة في التجمعات العمرانية ، وبالتالي ضعف المستوى الحضاري بسبب الانفلاق الفاري ، والبعد عن البحار رغم واجهة المحيط ، الذي كان يعرف أيضا ببحر الظلمات بمعنى المجهول .

وبطبيعة الحال لم يستطع بدو الصحراء الا إقامة جسور ضعيفة بين حضارات البحر المتوسط والحضارات السودانية المدنية ، الامر الذي ترتب عليه بقاء طريق الشرق التاريخي مفتوحا للأنسان والحيوان والنبات ، من حيث لا يتغير التواتر فيه الا عند تغير الارتفاع (٢) .

(٢) انظر جاك ريشار - مولارد ، افريقية الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ١١ - ١٤ . لاروند ، الجزائر ، باريس ، ١٩٥٠ ( بالفرنسية ) ، ص ٩٨ - ٩٩ ، وفارن جوييه ، ماضي شمال افريقية ، ص ٥٤ - ٥٥ ، حيث المركز على امبراطورية قرطاجنة التجارية قديما ، في الربط بين حضارتها وبلاد السودان الغربي حي قلب خليج غينيا الذي اكتشفه عن طريق البحر عبر مضيق أصعدت هرقل ( جبل طارق ) ، وانه بعد سقوط قرطاجنة حلت محلها ليفة ( لبتيس ماجنا : طرابلس ) التي أصبحت مركزا لتجارة ما وراء الصحراء برا عن طريق فزان ، وبعد ذلك استخدم تجار العرب نفس طريق القوافل القديمة . وهكذا ظهرت التأثيرات ، القديمة لغوض البحر المتوسط في افريقيا الغربية السوداء ، الامر الذي يشرح توزيع السكان . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٣ - حيث المسمى اللغوي للصحراء الذي يشهد على صفة الاستواء والقضاء دونما أشجار أو جبال . اما للصحراء الكبرى فيحدها من الشمال الشرقي البحر في برقة ، ومن الجنوب امداد حطاب النيجر الذي يفتق مع انشار التينة التي تسمى « كرام - كرام » (cram - cram) ، ص ١٤ - حيث الانتسابة الى زحف الرمال نحو الشمال ، والمثل لذلك منطقة الاغوار في جنوب الجزائر ، والتي كانت صحراء في أواخر القرن الماضي ، ص ١٧ حيث الرياح العاتية في توات ( بلاد الطوارق ) ، وقارن ابراهيم بن محمد الساسي الموماس ، الصحراء في تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ١٩٧٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث النص على أن اسم منطقة سوف ( جنوب شرق الجزائر ) نسبة الى « السيوف » التي تسمى كثبان الرمل ذات القمة الحادة ، والمدينة كالنصل ، ص ٤٦ - حيث النص على أن الرمل يأتي من الصحراء الكبرى من جهة الجنوب - وانظر اسماعيل العربي ص ١٧ - حيث النص على أنه بسبب الرياح وتحرك كثبان الرمل عرف أهل الواحات نظام التسقف ناتبة المخروطية في عمارة مساكنهم ، إذ هو يمنع تراكم الرمال عليها ، ويهدد الجني بالسقوط .

وعن اشكال الكثبان الرملية شديدة الانحدار ، ذات الحمة الحادة كنصل السكين ، والمعروفة في الجزائر باسم السف ، والتي يمكن ، عن طريق القاطع أن تشكل هئات هرمية =



شكل رقم ٢ - موجات الكثبان الرملية الصغيرة - جنوب ورجلة ( الجزائر )

هكذا ظهر منذ القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، الى جانب الطريق الغربى المؤدى من المغرب الأقصى - عبر مسنقعات ايجلى ( مولار ، المقدمة ص ١٤ ) - الى غانة ومالى ، طريقان آخران ، هما : الطريق المؤدى من غرب الجزائر الى انيجير الأوسط ( بلاد السونفاى ) والطريق المؤدى من طرابلس الى بحيرة

---

= ونجمة ، انظر والطين ، الاراضى الجافة ، ترجمة على شامين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، وعن الكتبان الهائلة الشكل ( انفرد ) ، حيث يفضى المذبح فى موريتانيا والى الشمال من ثنية النيجر ، انظر ص ١٢٣ ، وفارن جيدة حسنين ، حسن ابو المنين ، سطح هذا الكوكب ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢٠ ، ص ٣٢٩ - كما توجد نماذج منها فى ولحات مصر - كما فى المارجه - انظر شكل ٣ عن اشكال حلابة قرب المارجه - صورة للمؤلف بتاريخ يناير ١٩٦٣ .

تشاد ( بلاد كانم شرقى البحيرة ) (٣) .

بحار الرمل : مكوناتها النوعية :

تتكون رمال الصحراء المنتشرة على السطح نتيجة لنفثت صخور الكنتلة القارية المكونة من الجرانيت والدولوريت (dolorite) مع صخور بللورية ، وأنواع من الصوان والعروق الصخرية التى تنشطر وتفتت نتيجة للتغيرات الجوية ، من الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، بين الصيف وأشتاء ، والليل والنهار ، وما الى ذلك من هبوب الرياح ومطول الأمطار ، وجريان الأودية والسيول . هذا الى جانب طبقات رسوبية تكونت على طول الأزمنة من أصول بحرية ، من : الأصداف والأعشاب والطحالب والقواقع ، كما فى السنغال والنيجر والصحراء الوسطى ، وغيرها من النقاط

---

(٣) ن . هـ . ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الإفريقى ، الترجمة د ص ٧٩ ، وقارن ليون الإفريقى ، الترجمة ص ٨٦ - حيث الإشارة الى صعوبة الرحلة فى الصحراء التى لا ماء لها من حث هي رملية برمتها ، ووجوب الزود فيها بالماء ، وخاصة على طريق فاس - تومبوكتو . وطريق للمسان - أعادى ، الى جانب الحديث بعد ذلك عن صعوبة الرحلة الملتصقة مؤخرًا بن فاس والقاهرة ، عبر صحارى ليبيا ، مع المرور بجوار بحيرة تشاد . وقارن شمعة ، المرابطون ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ - حيث الإشارة الى ٣ ( ثلاثة ) طرق أولها : الطريق القديم الذى يعادل طريق التاجم الحديث عبر موريتانيا ، من : تارودانت ( شرقى أغادير ) الى تول ( تدوف حديا ) الى أولل ( سانت ايتيئ - ص ١٦ ) . والطريق الثانى الى مالى وغانة وهو الأوسط . من : سجناسا ( تافيللت ) ، الى النيجر ، عبر درعه أو عبر أودغشت - وهو يقابل اليوم طريق كولبشار - اهدار - منحنى النيجر من الشرق ( ص ٢٠ ) . أما الطريق الثالث ، فمن ، نفوسه وطرابلس الى السودان الأوسط ( تشاد ) ثم الغربى ( ص ٢٣ ) . وأعط حسس محمود ، المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ - ١٩٦٥ ص ١١٦ - حيث الإشارة الى ان انتشار الاسلام كان يتم شرقا عبر منحنى النيجر وتشاد وبلاد الكانم ودارفور .





شكل رقم ٣ - أشكال هلالية ( عملية ) قرب الحارثة - الوادى الجديد (مصر)

## ١) الساحلية (٤) .

(٤) مولارد ، ص ١ ، ٢٧ ، وأنظر جودة حستين . وحسن أبو العيثن ، سطح هذا الكوكب ص ٧١ - ٧٢ - حيث يتكون الغلاف الصخري للأرض من أوكسجين ٤٧٪ وسيليكون ٢٨٪ والنيوم ٧٥٪ وحديد ٤٢٪ وكالسيوم ٣٣٪ وصوديوم ٠٠٠ الخ . وحيث يكون غطاء الأرض من صخور نارية منها البازلت والجرانيت والسيانيت والدولوريت ، وصخور رسوبية ، منها الجيرية والرملية والطينية والفرينية ، حيث يتحول منها تحت الضغط الجرانيت « عن النيتيس (Gneiss) و» الشيست (Schist) ( عن الطينية ) والرخام ( عن الجيرية ) » وأنظر لارنود ، الجزائر ، ص ٥٢ - حيث مصطلحات : العرق : كل شبكة من الحصى المكوز بسبب هبوب الرياح ، يعد تسوية السطح وحمل الطبقات الخفيفة من الرمل ، تاركة طبقات الحصى للطور . الأخدود ( ص ٥٤ ) وتسمى : سلاسل تلال الرمل الممتدة والتي قد تصل الى ٢٠٠ - ٣٠٠ م . البطن ( ص ٥٤ ) : وتسمى الضلوع التي نشأت عن مجاري المياه القديمة والتي تمتد من مئات الأمتار الى الكيلو مترات ، الحادة ( ص ٥٤ ) : وتسمى الهضاب القائمة على طبقات جيرية كثيفة تحيط بالسهول . وقارن جوتييه ، الصحراء ( بالفرنسية ) ، ص ٤٦ - حيث تعريف الحادة بأنها شكل من الترسيب الفيضي يظهر في صورة الحصى الدور ، والأعند المنزلة والحيطان الصخرية ، فكانها طائلة من الصخر العازي الملمع بالرمل - كما في الجزائر وطرابلس ، حيث يكون السير على الحادة لمدة أيام متواصلة ( وعن تعريف الحادة عند السائي ، أنظر ج ١ ص ٧٤ ) . وأنظر جوتييه ، ما في شمال افريقية ، ص ٤٦ - من التجمعات الاخدودية البحرية الحديثة ، التي توجد في موريتانيا الجنوبية ، ومنها يقول الجولوجيون انه كان موضعها خليج اختفى في ٤ آلاف سنة ، ص ٤٧ حيث يرى مونو ( Monod ) ان هذا الملمع لا يؤثر على استقامة الساحل وان الاقليم مغطي . بكتبان قديمة ( من الرمل ) تبينها النباتات الخضراء ، الأمر الذي يمتنع عدم تغير الطقس من وطب الى جاف في العصور التاريخية ، لا في موريتانيا ولا في غيرها منذ ألف سنة على الأقل .

وعن تفرع صخور الرمال ، أنظر ابراهيم المومر . الصحراء وسوف ، ص ٤٠ - ٤٢ حيث ترجيح مقالة الانطاكي ( داود العشاب ) التي ننص على ان الرمل أصله من جبال واحجار فتنها الماء لطول الأزمنة ، ومن ثم أكثر قرب البحار والأراضي التي قليت برا ، وص ٤١ - حيث القول ان رمل سوف ناعم كالفلق المتخل ، وأنه ملمع الخذاق ، وفيه الحلو والمر والحريف ( ثبما لاختلاف صادات الأحجار ) - اما عن أسماء حجر الرمل الأحمر ، فالصليب : الزمن ، المكيك ذو الرؤوس الحادة : كيشة ، والقطع الصغيرة : ودد ، واليايس عسر الكسر : شبة ( صفا ) ، اما الصوان فهو أشدها صلابة . والأرض الرسوبية السوداء دسي البربرية : تنفرت أي غمرة أو الشهباء (ص ٤٣ وه ٩) . ومن الطبقات الرسوبية في الأناضل لصحراوية وشبه الصحراوية : « العرق الذي يمتنع تواعا من المنخفض الممتد لمدة أمال في شكل أرض مسطحة صلبة ، مكسوة بالحصى والمخلفات الكترسية ، دون أحجار كبيرة أو صخور لبنانيات ، أنظر جان درش ، أصول تاريخ التسمات في جبال الأطلس العليا ، مجلة الدراسات لاسلامية ( بالفرنسية ) كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٩ - حيث النموذج : وادي نون في منطقة جولينس ، حيث يسمى وري ( عرق ) العنن ( Warg ennun ) .



وتظهر الكسوة الرسوبية بما فيها من معلومات طبقات الحجر الرمل العظيمة ، متجمعة مع قطع بركاني في موريتانيا في مرتفعات ادرار ، وفي حوض تاوديني وفي غينيا الفرنسية ( في قوطه : فوتا ) وفي السودان ؛ وبسبب اتجاه جبال درن ( اطلس ) بين الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ابتداء من منطقة السوس ، تكون الحوض الرسوبي الواسع في صحراء جنوب مراكش ، والذي يعرف بتندوف ، حيث الطبقة المتفحمة في اقليم درعه بالجنوب المراكشي ، وفي مرتفعات تيبستي تتداخل الصخور البركانية في الطبقات الرسوبية ( الكسائية ) ، وكلما قل الارتفاع كلما ازداد التحلل الكيماوي للصخور .

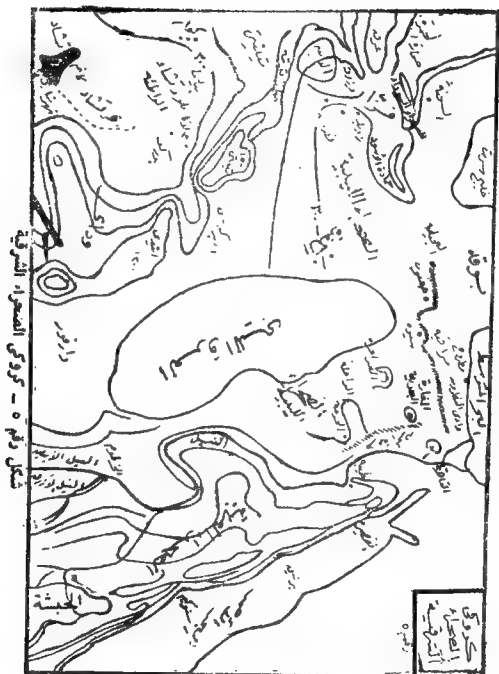
واذا كان السطح الصحراوي الرمل بما يتداخل فيه من القمم الصخرية والطفوح البركانية له شكل متواتر حزين ، فان مجارى المياه والقمم الجبلية في الجنوب الصحراوي تقدم تقديرا ملفتا للنظر في منطقة الشريط على تخوم السودان المعروفة « بالساحل » (٥) .

### الطقس :

والحقيقة ان ما تتسم به الصحراء من جفاف يفسر ارتفاع الحرارة يرجع الى طبيعة الرياح السائدة واحمها الريح الشرقية الحارة المعروفة بالحرمتان (Harmattan) واتى لها آثار حاسمة من حيث توزيع الاقاليم النباتية ، وبالتالي الظواهر الانسانية والاقتصادية .

ففي الشتاء تأتي رياح الاليزيه (Alizé) اللطيفة الرطبة من المحيط الاطلنطي ، ولكنها لا تؤثر الا في الاقاليم الساحلية حتى الرأس الأخضر بداكار ، وذلك انها تتجه غربا تحت تأثير اندفاع الحرمتان الشرقية . وفي صيف تتحول رياح الاليزيه الجنوبية الى رياح موسمية جنوب خط

(٥) مولد ، ص ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٦٤ . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ١٤ - حيث ارتفاعات تيبستي والهجار ( الهجار ) فصل الى ٤٤٠٠ م و ٣٠٠٠ م ، وان المناطق ريفية منخفضة بالنسبة للمرتفعات الغربية ، وان الصحراء الوسطى يخترقها سلسلة من راكين من الشرق الى المغرب ، بين تيبستي وعين زير عبر الهجار ( البحار ) ، مكونة ٣ (ثلاث) دسل جبال صغيرة وهي : اغلب الى تكون امتدادا لجبال موريسانا في المغرب ، والهجار الوسط ، ومنها ادرار وايفورا ( غربا ) وآير ( شرقا ) ثم تيبستي ( على حدود ليبيا تشاد ) .





وبذلك لا يتأتى الانتقال من الطقس السواحي الى الطقس الصحراوي  
 إلا عندما ينعدم سقوط المطر لسنة أو أكثر في موضع معين ، ويكون ذلك  
 عادة جنوب الصحراء ، أما عن سقوط المطر فيكون في فصل الصيف ، فهو  
 مطر موسمي ، وبالنسبة لمطر اقليم البحر المتوسط فهو أكثر ندرة ،  
 ودرجة الحرارة تتعدى في شهر يونيو الى ٥٠ درجة ، أحيانا ، أما عن برد  
 يسائر فهو قاس يصل الى درجة التجمد (٨) ، وبفصل رياح الأليزية  
 (Alizé) القارية الباردة ، ورياح الحرمان الشرقية الحارة ، التي تغطي  
 تعصف طوال ٦ ( ستة ) أشهر ، فإن بقاء المزروعات الجافة يصبح غير أكيد  
 بسبب عدم انتظام المطر الذي تتراوح نسبته من سنة لأخرى من ١ الى ٥  
 أمثال ، الأمر الذي يتسبب في التصحر ، إذ تتحول الأرض شيئا فشيئا الى  
 أرض رملية بسبب الحريف من ناحية ، وبسبب الرمال التي تلقىها رياح  
 الأليزية القارية على الأرض الصالحة للزراعة ، وهو ما يدفع الفلاحين السود  
 من الولوف الى الهجرة نحو الجنوب ، الى حياة البداوة في فصل الشتاء ،  
 والتجمع صيفا على المواشي والأطراف حيث الماء ، وهجر منطقة

= حيث الإشارة الى ان عناصر الخمسين مأخوذة من طلي النيل العام ( الذي قد يكون موجب  
 التهاب الجهاز التنفسي وليس المناخية الكهربية ؟ )  
 وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٦ - ١٧ حيث : تؤدي شدة الحرارة  
 عند خط الاستواء الى ضغط جوي منخفض يجذب تيارات الهواء من الجانبين ، في مقابل ضغط  
 مرتفع على مستوى القطب نتيجة للهواء المتجمع المالك من خط الاستواء ، والتوقف بسبب  
 دوران الأرض ، في طريقه الى القطب ، ومن هذه الحركة تتكون مطلقان وإيسيتان لأصناف ماسكس  
 على المحيط في منطقة الأسود ( الأزورس ) وفي الصحراء الوسطى ، وهذا الاصناف الماكس  
 هو السبب ، الى حد كبير في عدم نزول الأمطار في الصحراء ، وعن الرياح فالجنوبية في  
 الصحراء سمي « الشول » ، « والسيركو » جنوبية شرقية حارة ، مثقلة بالرمال والغبار ،  
 أما ربيع الحسن ( الخمسين ) المصرية ، فهي رياح عاتية جنوبية غربية ، وقارن إبراهيم  
 العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ - حيث الرياح السوم ، ومنها : الشول وهي حالة  
 حارقة ، وضد السوم : ربيع الصبا البحري ، وهي صاعدة يتخلل الإنسان بها .  
 (٨) مولاي ص ٢٥ ، ٢٦ ، وقارن لارنود ، ص ٥٠ - حيث النص على ان الصحراء أكثر  
 بلاد العالم حرارة ، وهي في الصف أبون منتهب مع الإشارة الى ان الحرارة قد تصل الى  
 تندوف بصحراء الجزائر الى ٥١ درجة . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ،  
 ص ١٥ - حيث للمر قليل لا يتجاوز على ساحل المحيط ، ٢٠ ملميم ، أما فرق درجة الحرارة  
 فيصل ما بين ٥٠ نهارا و ٢٠ ليلا - وقارن إبراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ -  
 حيث الجوز منتهى الحرارة حرا ( صيفا : أكثر من ٥٠ درجة ) ، ومنتهى البرودة برذا ( شتاء :  
 أقل من الصفر ) .

## الوسط (٩) .

### الأرض الطبية - منطقة « الساحل » :

والحقيقة أن هذه المناطق الجنوبية من صحراء شمال أفريقيا الكبرى ، ذات طبيعة جغرافية خاصة إذ تمثل منطقة انتقال من الصحراء العطشى الى بلاد السودان الجنوبية ، المغورة بالأمطار الموسمية الأمر الذى اعطاها اسم « الساحل » ، من حيث تبدأ فيها الحضرة العشبية التى يراها القادم من بلاد الشمال الصحراوية ، وكأنها ساحل البحر تماما ، كما كان الحال بالنسبة لغابات الزيتون فى منطقة صفاقس التى اشتهرت « بالساحل » حسبما كان يراها القادم إليها من الصحراء (١٠) .

واقليم الساحل هذا ، يمثل نطاقا يمتد من ساحل المحيط الموريتانى غربا حتى تشاد شرقا ، عبر متحنى نهر النيجر ، الأمر الذى يجعل نوعا من التداخل بين شريط « الساحل » والإقليم السودانى ذى الفصل المطير الواحد الذى يطول ما بين ٧ أشهر جنوبا وه أشهر شمالا ، والذى يجمع بين الأمطار الشتوية العسادية والأمطار الموسمية التى تمل كلما صعدنا شمالا نحو « الساحل » والصحراء . هذا ، كما يطول فصل الجفاف لمدة ٥ أشهر ، ويكون تأثيره السلبى أشد فى إقليم الساحل الذى قد يعانى أحيانا من التصحر (١١) .

(٩) مولازى ص ٤٧ . أما فى سان لوى وداكار ، وعلى طول كل الشاطئ السنغالى حتى الرأس الأخضر فيسود طقس خاص جدا . يسمى شبه الكانارى (Sub-canarien) حيث يكون لرياح الأليزية هناك تأثير يجعل الجو هناك أشبه بطقس الكانارى ، بل وشواطئ الأطلس للبراكنية . وهو ما يتناسب البهى من سكان البحر المتوسط ( كالسوريين الذين لهم شاطئ الاغصاضى ) . ولكن هذه الظروف الجوية المناسبة لا توجد فى الجنوب أبدا من ذلك ، إذ الرأس الأخضر هو الحد الأدنى بعده ذلك يتحول الطقس مباشرة الى استوائى يتطلب الاحتياط ( جرتيه ، ملهى شمال افريقية ص ٥٠ - ٥٢ ) .

(١٠) أوغر الكبرى ، ص ١٩ ( حيث ساحل الزيتون ، ص ٨٥ ( حيث داخل الساحل ) ، وقارن لمدح (Fare) تاريخ غرب افريقية ( بالانجليزية ) ص ٢ - حيث ملاحظة انه مع الاسفل من الشمال حتما تنحى الصحراء وتظهر النباتات الشوكية الى نحو ملطف الى أرض القصب الذى نزيدا كثافته مع ظهور الأشجار شتيا حتى أرض النابت الحقيقية . ومن هذا النمط لا يتغير من الشرق الى الغرب بسبب الارتفاع غير المحسوس .

(١١) أطر مولازى . ص ٩ - ٢٥ - حيث القصب السواحل الشمالى الذى يتميز . عن الصحراوى بالمر صفا . وفى ولاية تصل نسبة المطر الى ١٠٨ ملم ، بينما هو فى تيدال ٩٣٠ ملم . مع اختلافات درجى شائعة من سنة الى أخرى ، وقارن ص ٤٧ - حيث من الصعب تحديد إقليم الساحل الشمالى سمي لخط الفاصل بين الصحراء والسودان (افريقيا) =



وهنا تجدر الإشارة الى أن حزام بلاد النخيل الذى يحف بشمالا ببلاد المغرب الحصبية كما يحف نطاق الساحل جنوبا ببلاد السودان ، اذ يمتد من تارودانت فى أقصى السوس حتى واحات مصر الشرقية ، عبر واحات وارجلان ، وبلاد الجريد وفزان (١٢) . والفرق بين الاقليمين انه بينما يعتمد اقليم الساحل فى حياته على المطر ، يكون اعتماد بلاد النخيل على مياه الواحات الجوفية التى تأتى عادة من سفوح أطلس ( درن ) الجنوبية مثل نهر الساورة ( ج ١ ص ٧٤ ) أو من بعيد ، من هضاب الصحراء الوسطى أو تخوم بلاد السودان ( انظر فيما بعد ، ص ٥٩ ، هـ ١٥ ) .

والهم أن منطقة الساحل بصفتها منطقة انتقال بين الصحراء العطشى والسودان الجنوبي المغمور بالمطر مهددة بالتصحّر ، ليس بسبب الجفاف ، بل عن طريق تبيس الأرض الرملية التى تنبت الأعشاب فى فصل الشتاء ، ولكنها عندما تعود رملية متحركة فى فصل الصيف ويصيبها المطر تتعرض للنبس « الأسمنتى الحديدى » أى « للبور » الذى ربما كان أصلا لكلمة البوال (bowl) ، وهى الكلمة السواحلية التى عرف بها ، على ما نظن ، وذلك بشكل لا رجعة فيه . ومن الواضح أن عملية التصحر هذه تتم كيميائيا فى جو « الساحل » حيث المطر والحرارة ، بينما تقل شمالا فى الصحراء بسبب الجفاف ، وكذلك جنوبا فى السودان المطير ( الجنوبي ) بسبب رياح الحرمان التى تحمى الأقاليم الاستوائية الغنية عندما تهب باردة فى فصل الشتاء فلا تكون لها خاصية التبيس ، فيندر البوار

---

« المدارية » بسبب وجود عامل طرد من المنطقة الصحراوية ، عن غير قصد ، وهو الأمر الذى جعل الساحل بلدا يقطنه البدو البهلى من الماربة (Maurus) فى الغرب ، والطوارق فى الوسط ( حتى مصب النيجر ) . فمع أن هؤلاء هم سادة الصحراء حقيقة ، الا أنهم كانوا عبيد مطالب حيواناتهم ، وقارن محمد سبيد العشاش ، التوارق ، ص ١٧ - حيث الإشارة الى منطقة السهول والمراعى المسحقة التى تسمى ( أزواغ ) والممتدة من أعلى نهر السنغال غربا الى بصيرة شاد شرقا ، ومن اطراف المناطق الرملية الى غابات السفانا جنوبا . وتضم هذه المنطقة : الواحات والوديان التى تشق جبال ناسل ( فات - جانت ) والهقار ( تمنغست ) وآير ( أندر ) واضغاف ( كدال ) .

(١٢) انظر ج ١ ص ٧٣ وهـ ٦٤ ، وقارن ليون الافريتي ، الترجمة ، ص ٨٢ - حيث تقسيم الأقاليم الطبيعية فى افريقيا من الشمال الى الجنوب كالآتى : ساحل المتوسط ، السهول الجبلية ، والتلول ، وسهول النخيل فى نوميديا . صحارى ليبيا الرملية حتى بلاد السودان ثم السودان .

(البوال) (١٣) •

### الأرض الرسوبية والأرض السوداء :

أما الأرض الجيدة فتتجمع على ضفاف الأودية ، وفي الوهاد ، وعلى طول مجارى المياه ، من بركانية ورسوبية رملية وطفلية ، وهي محمية من حرارة الشمس ورياح الحرمان الحارة بكسوة من الحشرة النباتية ، وطبقة رقيقة من التربة ، الأمر الذى قد يؤدى وقتيها وبسرعة الى التبيس أو التصحر (bowalisation) •

والأرض المحصنة السوداء ، وهي التى ترسب على الشواطئ الواسطة عند مصبات أنهار الجنوب ، حيث يلتقى المد بمجرى الماء العذب ، وتتكون عادة من بقايا عضوية ، من الوحل والطين مع الرمل والحصى ، كما فى أسافل السنغال والسين (Sine) • وهي تبيس فى وقت الجفاف وتهبج صلاحيتها محدودة للزراعة ، وهي تسمى عندئذ التان (tann) •

وفيما وراء جامبي (Gambé) حيث الأمطار الغزيرة تغمر الأرض ، يمكن إقامة زراعات الأرز التى تفيدها أيضا الفيضانات الشتوية • وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأراضي التى تغمرها مياه السنغال والنيجر الأعلى

---

(١٣) انظر مولود ، ص ٢٨ - ٣٠ - حيث الإشارة الى انه ربما كانت أرض الساحل من دمال العرق ، وهو من شواهد عصور الجفاف ، وتصل في انتشارها غربا الى جامبيا وشرقاً الى إقليم نور (Nioro) وشمال سيجو (Ségou) وواجادو (Ouagadougou) في الحوض (Hodh) ، وشمالاً الى نيجيريا • وهناك طبقات من الدروع الحيدرية الإندودية - وهي شواهد على فترات أكثر رطوبة - وتمتد من الفرو (Ferio) الشرقى وجيد مكة (Guidmeka) الى شمال شرق جاو (Gao) ، سما الكهوف وأودية الأنهار الكبيرة مكسوة بالصهال والتربة الطفلية الرملية وغيرها ، وذلك في أرض والو (Walo) ونهر السنغال وحوض سيجو - موبتي (Ségou - Mipti) وسامبو تشساد (ص ٢٨) • وقد منطقة انتقال ذات إمكانات متنوعة هي منطقة الإمبراطوريات السودانية من : عابا الى مال وغيرها (ص ٢٩) ، ينشر البوال - وهي الأرض القبيحة بالنسبة للفلاح - في أمالي حانسا وعسا البرسة وجوب السدا ، (ص ٣٠) ، وانظر دائرة معارف لكسكون برنفرسيال (Lexicon Universal) ليويروف ، ١٩٧٥ ، ج ٧ ص ١٤٩ (أفريقيا Africa) ، - حيث الإشارة الى صف الخصوبة في الأراضي الحارة وهي أراضي الأعشاب (الساكن Steppes) ، التى ينقصها البوتاس والفسفور ، والفسفور والمواد الطوية ، وبالأرض التركية قليلة فهي لا توجد في غرب إفريقيا الا في السنغال • أما أراضي الشريط من الشمال فهي حمضة صعبة المحبة •

## والأوسط والأدنى(١٤) .

### توزيع المياه الجارية في الصحراء والساحل :

يعتمد تقسيم المياه الجارية على طبيعة الطقس وأحوال السطح والتربة . وهكذا يكون الاعتماد على الأودية النهرية ، من : دائمة ومؤقتة في شمال الصحراء حيث جبال أطلس ، من غربية عليا أو شرقية صحراوية ، ومطر البحر المتوسط ، مستوى ، أو في جنوب الصحراء حيث المطر الموسمي الضيفي الذي يميز أنهار غرب أفريقيا التي تخترق الصحراء ومنطقة الساحل ، أو أنهار هضاب أفريقيا الوسطى الجارية من مرتفعات الجبال ( الهقار ) وادرار وآير ( بلاد الطوارق ) وتيبستي ( بلاد التبو ) - من حيث تهبط أودية تافساسيت وتامنرست ، ووادي اغرغار ، والتي قد تلغى مع بعضها البعض في الصحراء . فيفضل أمطار أطلس الصحراوية ، وبعض مياه أفريقيا الوسطى الموسمية تتجمع المياه تحت سطح التربة ، وتنفجر في شكل مياه جارية من العيون والآبار الارتوازية ، في الواحات الشمالية ، في وادي ريغ وبلاد الجريد وورجلان ( ورقلة ) وصحراء وهران ، وفي توات ، حيث يكون الري حسب نظام دقيق متعارف عليه بين أهل البلاد ، يقن حصص الماء بينهم حسب الوقت أو الحجم ، بوسائل تقنية محلية(١٥) .

---

(١٤) مولار ، ص ٣٠ ، ٣١ - حيث الإشارة إلى أن بس ( اليونان ) و ( البان ) لم يكن وحده أنه الأرض في أقاليم الساحل والسودان الجنوبي ، بل يضاف إليه ضاؤون عناصر المحصورة فيها ، من : الأروت واليوناس والفوسفور على مر الزمن ، وهذه الصخور الجيرية ، وكثرة صخور الكوارتز الحديدية من الحجر الرمل والحرايب والجبس ( gneiss ) والصوان حتى كاد الأمر ينتهي باصالتها على أنها أرض جديدة . ومن جهة أخرى فإن طول الأمطار الشديدة والساخنة كان ينسب في تدوير الأروت ، وبالتالي تهديد الأراضي ، حتى الحسبية ( بالبس - والصحرا ) .

(١٥) أنظر جوسيه ، الصحراء ، ص ٧٤ - حيث نهر شاري الذي يعادل البحر وبحيرة تشاد ، ص ٤٣ - حيث وادي سايو ، ص ٩٢ - وادي ايفار غاره الذي ينبع من الجبال في جنوب شرق الجزائر ، ص ١١٥ وما بعدها - حيث الواحات الحسبية وحساء الاستقرار في الصحراء الصلبة والعرى ، بلا الطوارق ، ما بين الجبال وبلاد السودان ، ص ٢٨ - حيث الري الشرقي في واحات النخيل عن طريق الفجارات إلى برح إلى القرن ٣ هـ / ٩ م وهي القنوات التي توجه فيها مياه الصون الشرفة الارتوازية . وفانر اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٩ - ٢٣ - حيث الإشارة إلى السون والآبار والفجارات ، ص ٢٢ - التي تسمى قنوات بحر ، الأرض وتلطف الماء الملوحة التي تجري إلى متحدر الواحة ، ص ٢٥ - حيث نهر شاري ( Chari ) الذي ينبع من الجبال الاستوائية ، ويصب في بحيرة تشاد الذبة وإلى سلغ =

## آبار الصحراء :

اما في قلب الصحراء حيث لا يتجاوز متوسط المطر ١٢٥ ملليمتر في السنة الا في حالات استثنائية ، فيكون الاعتماد على ماء الآبار ، من : أحساء سطحية او حفائر عميقة ، من عذبة حلوة أو ملح أجاج(١٦) .

وهكذا يعدد البكري ١٠ ( عشرة ) موارد للماء على طول الطريق من سجلماسة الى فاس ، بعدد مراحل الطريق العشرة ، فكان طول هذا الطريق حوالي ٤٠٠ كم . وأول هذه الموارد : حمة أي ماء حار كبيرتي ، وثانيها أحساء يصل عمق الماء فيها حوالي ذراع ، بينما المواقف التالية على جداول وانهار ومياه سائحة ( نازلة من سفوح أطلس ) (١٧) . والطريق من درعه الى سجلماسة يمتد ٦ ( ست ) مراحل ، محطات مائها ما بين ملح ( تيسن ) ، ومنسوب الى بعض حيوان المنطقة ، مثل بشر الأياثل ، وماء النعام ، فكانه ملح أيضا ( ص ١٥٦ ) .

اما الطريق الكبير من تامدلت الى أودغست ، وطوله ٤٠ ( أربعون ) مرحلة ، فيعدد محطات مياهه ، من : بير الجمالين وعمقها ٤ ( أربع ) قامات في ارض محجرة ، ينبعها ( شعب ) طريق جبل ضيق ، ينتهي بعبد ٣ مراحل ( ١٢٠ كم ) بأرض رملية رخوة ، فيها آبار ماء ( تندفس ) تنهار وتندف بمجرد خفها . أما الماء الوافر الذي لا يستنزف في بئر ويطوفان ، فهو زعاف يصيب من يشربه من الانسان والحيوان بالاسهال . وماء الارض اليرقاة في أوكازيت - أصعب مراحل الطريق ( ٣ أيام ) - وانزمين ، القرية من السطح ( ٤ أيام ) يصنف ما بين العذب والزعاف . وهذا الموضع يمثل نقاط الطريق الى بلاد السودان - فهو مجمع القوافل ، وهو مستهدف من قطاع الطريق . ومثل هذا يقال عن بئر بنى عبد الوارث ( على ٥ مراحل ) .

---

١٦- ماتحتها ٢٥٠٠٠ كم<sup>٢</sup> . والتي ربما كانت لها موارد أخرى تحت الأرض ، كما قد تتسرب مياهها من جهة الجنوب الغربي في اتجاه بحر الزال ، ص ٢٧ - حيث التصریف وادي الساوره الذي يحده مياهه حوبا حتى أعالي واحة بوات ، ص ٢٨ - ٢٩ - حيث وادي الفرغار الذي ينبع من مرهات بسبتي وينتجه شمالا لمسافة ١٠٠٠ كم . لكي يموص في شط ( ملال رملية ) بحر . بعد من سكره أي عند أقدام جبال الأوراس التي تاتيها مياه سروج الأطلس التي تنجر في وادي زنج والخزند والراب .

١٧- أنظر ارادة الدواير . الصحراء وسوق ، ص ٢٥ - حيث تصنف مياه الإبار في : - - - - - ومنابع ، ومنسج ، وملح ، وأجاج ، ومر .  
١٨- البكري ، ص ١٤٧ .

وأبار اغرق التالية الملحة لا تصلح الا لشرب الابل • وإذا كانت المياه في آبار اقرتندى على ٥ أيام من سجلياسة جيئة الماء الوفير حيث أصناف الشجر ، فان بئر وازن في منتصف المسافة ، مالح الماء(١٨) •

وعلى عكس هذا يقال عن مياه الطريق المحاذي لساحل المحيط من نول لمطة الى أوليل ، حيث يستنبط الماء العذب من الآبار القريبة من الشاطئ، المالح ، بسبب رياح الاليزيه (Alizé) الرطبة ، والأرض الصخرية ( الصفاء ) التي تكون مصائد حسنة لمياه المطر العذبة(١٩) •

أما عن الآبار على الطريق الصحراوي من درعه الى السودان ، ففي المراحل الخمسة الأولى يوجد الماء العذب حتى الوصول الى بئر تزامت في بداية الصحراء حقيقة ، ومازها معين أقرب الى الملوحة ، رغم انه محفوظ في طبقات الحجر الصلد ( البكري ص ١٦٣ ) ، وهي في شرق بئر الجمالين ، على أول طريق تامدلت - أودغست ، التي تقع في مثل تلك الأرض الحجرية ( ص ١٥٦ ) ، فيكون ماء الجمالين معيناً هو الآخر ، ربما بسبب معادن الحديد ( ص ١٦٤ ) وغيره • والظاهر أن آبار تلك الصحراء التي تعتبر موطناً لقبائل صنهاجة كلها معينة تصلح لسقيا الابل وحيوانات الصحراء فقط ، الأمر الذي يفسر كيف كانت أموالهم الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ومنه(٢٠) •

#### مياه السودان الجاوية :

وهكذا فرغم طول المجابات القاحلة والمفاوز الجرداء التي قد تطول الى ست مراحل وثمانية ، فلا ذكر بعد ذلك للماء المعين والمالح أو الزعاف حتى بلاد السودان القريبة من مواطن جداله ، على ٦ ( ست ) مراحل ، وهي بلاد صنفانة(٢١) •

وواضح من وصف صنفانة أنها مدينتان على ضفتي النيل ، وأن

---

(١٨) البكري ، ص ١٥٦ - ١٥٧ •

(١٩) البكري ، ص ١٧٢ ، وانظر فيما سبق ص ١٠ ، ه ٩ وعامش جوبيه عد الجوشبه الكنامري والشاطيء المراكشي على طول ساحل السنغال •

(٢٠) البكري ، ص ١٦٤ •

(٢١) البكري ، ص ١٧٢ - حيث أرض جدالة آخر بلاد الاسلام في الصحراء ، وأقربها الى بلاد السودان •

عبارتها متصلة إلى البحر المحيط وإن المقصود النيل هنا هو نهر السنغال ، وليس النيجر ، وإن المقصود مخفأة هو غابة المسبوقة بكلمة صن التي هي صفة لغاية فكانها بلاد ملوك السونينك (Soninke) . وبذلك تكون غابة منصف البرن الخامس الهجري/ ١١ م عند البكري ، هي مدينة السنغال المدارة التي تحدد أطلالها بموضع كومبي صالح ( كومبي بيشار ) ، في الركن الجنوبي الشرقي من جمهورية السنغال ، حاليا (٢٢) .

وهكذا بوصف كل من نهر السنغال ونهر النيجر بأنه « نيل » ، بمعنى النهر الصحراوي الموسمي الأصل ، والذي يفيض حتى الطوفان ، ويجب بعد ذلك حتى القاع - والذي قد يتواتر طوفانه أو جفافه لعدة سنوات متتالية ، وهي سمات الأودية والأنهار الصحراوية (٢٣) .

ففي الصحراء كما في إقليم الساحل ، تكون الوديان جافة عادة إلا لفترات قليلة عقب هطول زخات المطر . ومثل هذا يحدث لبعض روافد السنغال أو النيجر حيث الأودية التي تسمى دلول (dello) والتي يمكن أن تجرى كالأنهار بشكل مؤقت ، وهي قوية عنيفة تحمل المواد المختلفة لكي تنتهي ناشرة الأوحال والرمال والحصى (٢٤) .

### السنغال والنيجر :

هذا ويحتفظ كل من نهري السنغال ( ١٧٠٠ كم ) والنيجر ( ٤٢٠٠ كم ) ببعض مياهه في فصل الجفاف . وفي إقليم الساحل الجنوبي تجرى مياه الأودية لمدة شهرين أو ثلاثة وتجري أنهار المناطق السودانية

(٢٢) انظر فينج (Fage) تاريخ غرب إفريقيا ( بالانجليزية ) ، ص ٢٠ - حيث النص على انها على بعد ٢٠٠ ميلا شمال باماكو (Bamako) عاصمة مالي الحالية . وانظر اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - حيث النص على أن دولافوس كان أول من حدد خرائب كومبي صالح موضعاً لغاية القديمة .

(٢٣) انظر جوبييه ، الصحراء ص ٧٢ - ٧٤ - حيث الإشارة إلى أن نهر النيجر يقتضي إلى الصحراء من عند تنييه قرب تومبوكتو . فهو بعد أن ينزل من مرتصات فوتا - جالون على شاطئ خليج غينيا يدير ظهره إلى الخليج ثم يدب مياثره شمالا ، حتى الإقليم الصحراوي . وبذلك يخلف النيجر الأعلى منذ التثنية عن النيجر الأسفل .

(٢٤) مولد ، ص ٣٣ ، وقارن ليون الإفريقي ، الترجمة ص ٤٩٠ - ٤٩١ - حيث يكون الأمر كذلك بالنسبة للراوى الذي يرقفه وإحداث دوعه في الشمال المراكشي ، والذي قد يفيض كانه البحر ، فتشتر الطن والأحوال بشكل مزعج خلال فصل الشتاء .

- خلال فصل الشتاء ، ولكن الضعيفة منها لا يتجاوز جريانها شهر مارس ، بينما أصبحت بعض أنهار السنغال مثل الفولو (Ferlo) والسني (Sine) والسالون (Saloun) خنادق ومطامر . مثلما تغير مجرى أنهار أخرى مما يتعذر سريعا على الهضاب ، كما في النيجر وفولتا ، لأسباب مختلفة من تغير الطقس ، والتحول التركيبي الصحراوي ، كما في تشكيل الحمادة أو العرق ، الذي يؤدي الى تحول بعض الأنهار الداخلية نحو شاطئ البحر . هذا ، كما يشهد نهر السنغال من منطقة الحوض في تشاد أنهارها ، ملحا تحولت أنهار الفولتا ، مثل : السورو (Sourou) نحو المحيط (٢٥) .

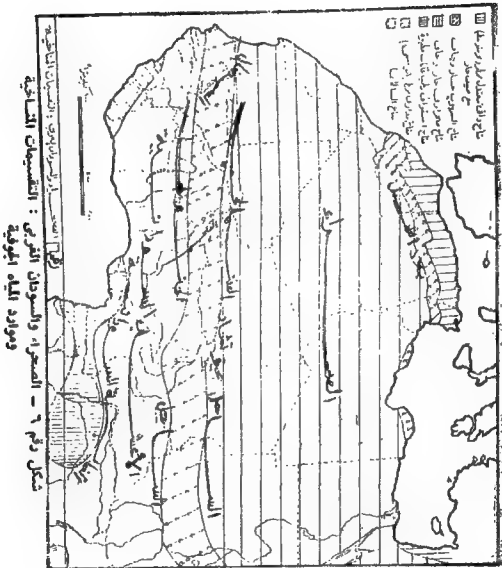
• ويستثنى كل من نهري السنغال والنيجر من هذه الظواهر . ونهر السنغال الذي يقع في منطقة الجفاف الطويل ، وينطبق عليه نظام المناطق الحارة ، ينبع من مستنقعات الشمال الشرقي ، وهو ضعيف التسدفق في شهر مايو بينما يهظم فيضانه ، وخاصة عند المصب في أغسطس وسبتمبر . وهذا يفسر انفيضان السنوى لكل سهل الوالو (Walo) في الحوض الذي يصل عرضه الى حوالي ٢٠ كم . فيصبح بلدا خصبا (٢٦) .

(٢٥) مولار ، ص ٢٣ . ومارن والوطن ، الأراضي الجافة ، ص ١١٤ ( الترجمة ) حيث النص بشكل عام على ان الأنهار الصحراوية صالحة للملاحة والنقل وقت الفيضان ولكنها كثيرا ما تجف مياه . بل وصف من البريان كلية ، وهي في المناطق المستوية تضطر الى الرساب حولها بدءا بالمواد الخشنة ثم الباعية بصدا من حبيض التل ، الامر الذي يؤدي الى نشأة المستنقعات والعروى والحدادات .

(٢٦) مولار ، ص ٣٣ - ٣٤ - حيث الإشارة أيضا الى ان النهر يجري امام داجانا بين الللال ويملا بجيرى مركز (Rkiz) وجير (Guler) على شاطئيه اليسني واليسرى . اما هي دلتا السنغال فهي محاطة بحزام ساحل لا يستطیع النهر اختراقه الا بصعوبة ، الامر الذي أدى الى تغير المجرى كثيرا على مر المصور التاريخية . وهو مفتوح جنوب مسان لوى (Saint Louis) بعد جريابه بعذاه الساحل خلف لسان البربري ، وهو كتلة من الرمل المتحرك الذي تنطه مسول الطي المتدفقة فوكة . وقارن أيضا ص ٣٦ - حيث وصف الساحل شمال داکار بأنه منخفض كثيرا مع وجود نطاق من الصبار ( سبار المر Sbar des Maures) الذي يمتد كالألواء الصغيرة مقابل أمواج المحيط التي تتدفق موجاته في سلاسل متوالة ، وحتت يوجد منخفض طبيعي ببوابة الساحل ، كان في السابق بحيرة ، فهو حائبا مغطى بالتقواقع ، ولديه يتدفق فيضان نهر السنغال ببدا لمسافة ٣٥ كم . حتى المصب . وعلى طول الساحل جنوب لوسا الى داکار ، ومسبب الرطوبة ، تنتشر الزراعة شبه الدفيئة التي يسمها الولي (Oulouf) نأسي (Niayes) . وقارن جوتيه ماضي شمال إفريقيا ( بالفرنسة ) ، ص ٤٧ - حيث يصلح نهر السنغال للملاحة من المحيط حتى كاييس (Kayes) عند انهاء النهر بواحدة التالية (Falamé) حيث يكونان مثلثا من الأرض أحسن







## السكان :

### صنهاجة الصحراء : المثلثون ، القبائل وتوزيعها :

قبائل الصحراء التي أقامت دولة المرابطين ، والتي تقيم في الصحراء الغربية ما بين سواحل المحيط الأطلنطي ، جنوب جبال درن ( أطلس الغربية ) (٢٩) ، عند خط التماس مع بلاد السوس الأقصى بالمغرب وحتى غدامس جنوب طرابلس ، تنقسم إلى قبائل صنهاجة التي تعد من مجموعة قبائل البرانس الحضرية ، كما هو الحال بالنسبة لصنهاجة أفريقية الذين أقاموا دولة بني زيري في تونس ، ودولة بني حماد في شرق الجزائر (٣٠) .

ولكنه إذا كان صنهاجة الصحراء هنا يمثلون واحدا من الاستثناءات البارزة لقاعدة تقسيم البربر إلى قبائل بدوية مثل زناتة ، وقبائل حضرية مثل صنهاجة ، فإنه استثناء يؤكد القاعدة ، كما يقال أحيانا . فالحقيقة أنه إذا كانت صنهاجة الصحراء تمثل البدواة في أجل مظاهرها ، من حيث أنهم جمالة ، رعاة ابل ، يسكنون القفر وراء الرمال ، ويعبدون في مجسات التوجة التي لا يعرف لها حدود ثابتة حتى صاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجرا كما ينص ابن خلدون (٣١) . فإن انشغالهم لدولة المرابطين الكبرى التي ضمت البلاد من السودان جنوبا إلى الأندلس شمالا ، تسمى أنهم مدوا جسورا متينة بين حضارات الأندلس والمغرب والسودان ، وتجعل

---

(٢٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ وعن نسخة جبل درن أنظر درشي (J. Dresch) مجلة الدراسات الإسلامية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٢٩ ( بالفرنسية ) ، ص ٢٢ - حيث « ادراون درن » (Adraen Dren) تسمى «جبل الجبال» ، «ادراون تسمى جبل والمجمع ادراون ( جبال ) - وإن كانت كلمة ( درن ) تسمى أيضا جبل الزنبر من اللؤلؤ نادر أي زار الذي ينتج منه صندره إلى درن » .

(٣٠) من البرانس والبر ، أنظر ج ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وعن صنهاجة أفريقية ، أنظر أيضا ج ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٣١) المر ج ٦ ص ١٨١ ، وأنظر لئون الأفريقي ، ص ١٨٨ وما ١٢٢ - حيث يستمد البربر جنوبا وراء السودان في شكل حزام يسير من الغرب إلى الشرق فيما لوطن : حداله . ولتونه ولط ( لته ) ، وتارنه ، ويقال له حزام العرب على امتداد السوس الأقصى . والمغرب الأوسط والزاب مع مراري حماية وقسميته ، ثم أفريقية ، وحيث توجد على التلال مواطن العرب . من : ذوو حسن ، وذو منصور مع « ذوو » عبد الله ، ونوردياح ثم تشرلميم وأنظر الخريطة أو الشكل رقم ٢ .

من بداوتهم استثناء يصحح من وضعهم في جماعات البربر أهل الحضرة ،  
مثل اخوانهم صنهاجة أفريقية (٣٢) .

وإذا كان الضائع أن قبائل لتونة هي أشهر قبائل المرابطين حتى  
عرفت « الامبراطورية » المرابطية بأنها دولة لتونة المالية (٣٣) ، فمن المفبول  
ضم قبائل لمطه الى لتونة على اعتبار انها تحلان اسما واحدا ، بعرف النظر  
عن كتابته أو نطقه بالطاء أو التاء ، حيث تكون لتونة تفخيما للمنة على  
الطريقة المغربية الأندلسية كما في خلدون وعبدون (٣٤) .

(٣٢) وهنا لا بأس من الإشارة الى ما ينص عليه أوليفر وفتح من أن اثر مدينة البحر  
البحر المتوسط ظهرت في نفوية الفروق بين البربر في الشمال وبين البربر الرعاة في طاق  
الساكنات والصحراء ، وأن هذه الفروق زادت يستول الجبل ثم الاسلام - موجز تاريخ افريقيا ،  
الترجمة ص ١٩ .

(٣٣) وفي راء دولة لتونه المرابطية يقول الشاعر الملمصر محمد امبارك اللواتي ، وهو  
يسند اوساخ النساء على أيامه :

ولم يكن من بعد لمسون دولة      ولم يك في بنسنة بعدهم هل  
اولئك لمسون الال قد سمانهم      اساس الهدى إذ مست الضم والحدل  
انظر ، محمد سعد الضائع ، المواقف ، لبا ، ١٩٨٩ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٤) أطر ليون الانريتي ، ص ٥١٨ ، ه ١٢٢ - حيث لمطه في شكل له ، وقارن  
الإدريسي ، المغرب بحق صادق ، ص ٧٣ - ٧٤ حيث جعل لمطه صورا أو اخصاص اللذين  
كثرت نسليهما ، وتسلفوا على الأمم حتى أصبحت عليهم قبائل البربر فأخرجهم الى الصحراء  
المجاورة للبحر المطلم فنزلوها الى الآن - كما يصيغهم بأصحاب ابل وبحب شتي ، وأهم رحالة  
( لا يستقرون ) . وفي ٧٢ - حيث النص على أن بلاد الصحراء ينسب إلى لمطه ، وأما  
كانت ، وأمرنا كما يصيغ إليها ( ص ٧٥ ) بلدة أرمي على أنها للمطه أيضا ، ويعتد من  
قبائل لمطه : مسوفة ، وشان ، وثماله ، ويجعل من قبائل صنهاجة : جدالة وامونه مع بني  
مقصود وتميه ، وبني إبراهيم ، وبني ناشون . ويجعل نهر مدينة نوك ، على طول امتداد  
من الشرق الى الغرب ، من موطن لتونه ولمطه . وفي ٧٦ - حيث أرمي - من بلاد مسوفة .  
ولمطه ، واسم المدينة البربرية أزقي ، والجنابية أي السودانية قوقلم ( جوقلم ) وقارن  
أن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ حيث النص على كثرة اللشيين وتصدق قبائلهم ، ثم البده بتقديم  
كدالة « جدالة » على لمونه ومسوفة ، ثم ذكر وززيلة ( وتريكة ) وتاركا ( تاوكا ) وزغارة  
ثم لمطه ، وحيث النص على أن بطون لتونة : هم : بنو ورتنطق ( أشراشم ) وبنو زمال  
وبنو صولان ، وبنو ناسحة ، وأن لتونة كان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف به : كاكدم  
١ قوقلم ) وانهم لم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس .  
وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٥ - حيث تصحيح وتزيلة وتالكا ( وأنظر ه ٥ - حيث  
تاركا = تارحا وحمها طوارق - وحيث ذكر بني ورتنطق ( Ourtentac ) وهو الاسم الذي  
ما زال باقيا في موضع بورتنتيك ( Portentic ) على ٤٠ مرحلة شمال السنغال - وبنو نبال =

ولا بأس من الإشارة الى انه لما كان اللفظ اسم لنوع من الأيائل الصحراوية ذات القرون الحادة ( انظر فيما بعد ، ص ٩٣ ) فالفترض أن قبائل بدو الصحراء هؤلاء عرفوا العبادة الطوطية ، قديما وأنهم اتخذوا « لخط أو لمت » جدا أسطوريا لهم ، كما هو الحال في قبائل أسد ونمر وعجل العربية . وبذلك يكون « لمت » هو الأصل ، « ولتونة » - الذي يؤنث في العربية الى لتونة - هو الاسم المستحدث في شكل التفتيح ( انظر شكل ١١ ص ٩٣ ) .

وبعد ذلك تأتي قبائل جداله ( كداله ) وجزوله ( كزوله ) المدينة ، التي يجعل البكرى مساكنها ( عمارتها ) مجاورة لمساكن لمطة على طول مسيرة ٣ ( ثلاثة ) أيام ( مراحل ) من عاصمة السوس : ايحل الى مدينة ثول لمطة (٣٥) ، الأمر الذي يسمح بأن تكون جزوله تحريفا لاسم جداله أو العكس . وهذا ما يؤيده الحسن الوزان الذي يضم جداله الى لتونة تحت اسم « زناقة » ( زناجة ) الذي يعتبر تحريفا لصنهاجة أو النطق الأصيل للاسم قبل تعريبه (٣٦) .

« ( زمال ) وينو صولان ( مولان ) وينو لشيج ، وموطنهم يعرف بـ « كاكدم » (Kakdem) وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٣٩ - ٤٠ ، حيث تصبغ قبائل اللشيج دون لاد ، بحيث تأتي لتونه في رقم ٥ بين جزولة وجدالة ، وحيث تأتي صوفة في رقم ١١ ، وقبلها رقم ٩ قبيلة كاكدم (Kakdem) . والاسم في الحقيقة موضح لبشر قبائلهم ( كما في ترجمة دسلان حنا ) . وفي النهاية يأتي تقرير أن الزعامة للتونة وتنازعها باستمرار جداله ( ص ٤٠ - ٤١ استنادا الى الحلل الخشبية ) . وقارن الاستيصار ، ص ٢١٢ - حيث النص على أن ثول لمطة آخر بلاد السوس . وانظر القرطاسي ، ص ١٢٠ - حيث النص على أن صنهاجة ٧٠ ( سبعون ) قبيلة ، من أصيلة ، مثل لتونة وكندالة وصوفة ولحطة ، وفرجة ، مثل مسراة ، وتكلاية ، ومنداسة وبني وارت - وفي كل قبيلة بطون وأغاد لا تحصى .

(٣٥) البكرى ، ص ١٦١ ( وقارن الاستيصار ، ٢١٢ ) ، وانظر ايضا البكرى ، ص ١٦٤ - حيث جداله تجاور البحر المحيط ، ومن ١٧٦ - حيث يقع متجم الملح في أوليل في بلادهم ، ص ١٧٢ - حيث يصايدون بلاد السودان ، على بعد أيام من صنهاجة . وانظر حسن محمود ، المرابطون ، حيث جداله جنوب صحراء تيسر حتى نصب السنتفال ، وإن مركزها أوليل : مركز نجم الملح المشهور . وانها قريبة من غابة وشعب صنهاجة على الضفة اليسرى للنيجر ( متحفى النيجر ) .

(٣٦) ج ٣ ص ٢٩١ ، وانظر لبرون الافريقي ، ص ١٥٥ - حيث تحديده منطقة عزلة بأنها متاخمة لجبل هلال من السوس ، ومن الشمال الأطلس ( دود ) ، والشرق درعة ، مع النص على أنها منطقة جداله ايضا ، وانظر ص ١٨ ع ١٢٣ وهو ما اتف به شميرة ، المرابطون ص ٢٩ - ٣٠ من وحدة القبيلتين - متاخمة وحد بين نسب يحيى بن ابراهيم الجدال ، وعبد الله ابن ياسين الجزول .

أما قبائل مسوفة فتأتى مواطنها فى المنطقة ما بين سجلماسة وغانة ، وتوصف بأنها مسيرة شهرين ( حوال ٦٠ مرحلة : ٢٤٠٠ كم ) فى زمال وجبال غير عامرة ، قليلة الماء ، ولذلك فهم يبدو رجل ليس لهم مدن ولا عمارة ، باستثناء وادى درعه على مسيرة ٥ (خمس) أيام (٢٠٠ كم) (٣٧) ، وفيما بين درعه وسجلماسة تقع مواطن قبيلة سرطلة ( أو سرطلة ) ، الممدودة وقتئذ من قبائل صنهاجة الصحراء (٣٨) .

وعن قبائل ترغرة ( كما فى البكرى ) أو تارجا ( كما فى الاستبصار ) التى يمكن أن تتحرف الى طارغة وطارجة وطارقة بمعنى قبائل الطوارق (Touareg) وهم المثلثون حقيقة ، فكانت مواطنهم على مسافة يومين ( ٨٠ كم ) من سجلماسة (٣٩) . ومن المهم أن ليون الأفريقى ( قرن ١٦ م ) يقدم قبائل الطوارق على لمتونة ، ويجعلهم فى صحراء آيبر ( مرتفعات وسط النيجر حاليا ) ، ويفسر الاسم ( طوارق ) بمعنى الساقية أو القناة ، كناية عن خبرتهم فى رى بساتينهم بتقنية اقتصادية عالية فى الماء ، كما يوصف بذلك أهل الجريد ، وخاصة فى واحات قصصة (٤٠) .

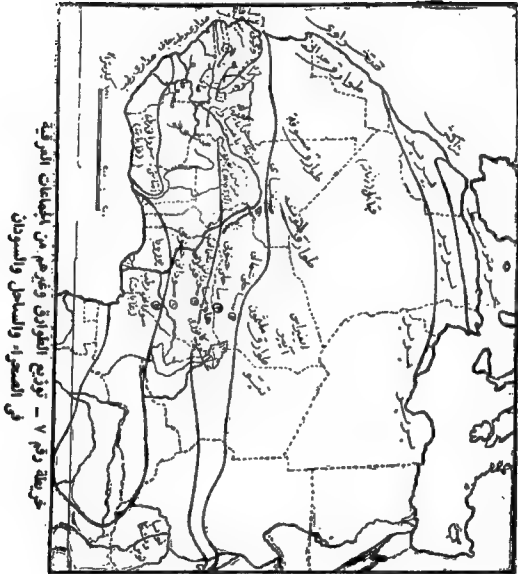
---

(٣٧) البكرى ، ص ١٤٨ ، ١٥٥ ، وانظر الأديسى ، تحقيق صادق ، ص ٧٥ - حيث يجعل مسوفة من قبائل لمطة الأمر الذى يزيد فكرة الطوطية فى لمطة وأنها الأصل للتمتونة .  
(٣٨) الاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث النص على أن قاعدة دعة ( مدينتها المركزية ) تسمى بتومتين .

(٣٩) البكرى ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤٠) البكرى ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، ص ٢١٢ - حيث المسافة ٥ ( خمسة ) مراحل : ٢٠٠ كم ، من وادى درعه - حيث ينس البكرى على أن مدينة ترعة خربت بعد بناء سجلماسة وعمرانها وذلك فى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م . وهو ما لا نجده فى الاستبصار . والظاهر أن الترغرين انتقلوا الى سجلماسة ، إذ يوصف أهل سجلماسة الذين بقوا على ما كانوا عليه وقتئذ حتى أيام البكرى ، بأنهم « يلتزمون الثقاب ، فلا حصر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله » .

(٤١) ليون الأفريقى ، ص ٥٢١ وهـ ١٢٥ - حيث الطارقة اسم بربرى يعنى الساقية والقناة وذكر صحراوات آيبر ( الممتدة الهواء الكثيرة الماء والكلأ ) وايثيدى وتوات وأغلس . وانظر ص ١٣٦ - حيث تصحيح للأوضاع وتعرف ايثيدى بأنها عرق رجل من كتيان عالية . الأمر الذى ينطبق على صحراء لمطة جنوب القلب الزاب - وعن تقنية السستيا فى واحات جنوب الجزائر ، انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقانون محمد سعيد القشاش ، التوارق ، ص ٢٧ - حيث يمرض كثيرا من احتمالات أصل تسمية الطوارق ، منها ما هو منقبى كالنسبة الى طريق الهداية وطارق ابن زياد ، أو معنى لطروق الصحراء ، ومنها ما هو جغرافى مثل النسبة الى الاسم الاتبنى لمدينة سجلماسة ، أو ظهور لاسم حديث فى منطقة ازواغ بجوار ممالك السونفاى =



### السمات العامة لقبائل المتمرين الصحراوية :

لما كانت قبائل صنهاجة الصحراء تحيط ببلاد السودان الجنوبي ، كان طبيعيا أن يتم الامتزاج بينهم وبين الأجناس الحشيشية السودانية في منطقة التماس هذه ، حيث غلبت البشرة السوداء على أهلها ، وإن ظلوا متميزين الى الجنس الأبيض (٤١) ، ولا يأس أن تكون قاعدة التقسيم لقوية حيث تكون كل من اللغة العربية والبربرية ، وخاصة لهجة التيفيناغ اطارقية ، سمة للبيض (٤٢) ، وتكون اللهجات السودانية للهوسا وأنسوكتاي والفولان سمة للسود ، فكان الجغرافية السياسية مبنية على التقسيم العرقي (٤٣) .

---

= والهوسا ، والنسبة الى وادي دعره أو الى قبائل تارغه ( تارغا ) وهو ما تأخذ به ، ولكن على أساس أن قبائل ترغه هي التي أعلنت اسمها لوادي دعره ( انظر فيما بعد ص ٨٨ ) ، هذا ولو أن المؤلف يهمل كل ذلك يترجح أن يكون الاسم قد جاء من اسم « الوادي » أي وادي الأبال ( الأمل والحياة ) بليبيا ؟

(٤١) عن أجناس شعوب شمال إفريقيا البيضاء انظر ماكيفيدي ، المجلس التاريخ الإفريقي ، ترجمة السويدي ، ص ٣٥ . حيث التقسيم الأول الى ( أريمة ) أجناس ينتمي الى : الساميين في شبه جزيرة العرب ، والحمايين في شمال إفريقيا ( البربر ) والمصريين في وادي النيل ، والكوشيين في الصحراء الشرقية « البجا » . وهذا توصف الشعوب النيلية الصحراوية بصفاته الأجسام وسواد البشرة ، وإن كانت أجسامهم ووجوههم انضمت من الزواج .

(٤٢) عن اللغة البربرية انظر ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ، وفان ليون الإفريقي ، الترجمة ص ٤٧ - حيث الإشارة الى أن اللغة الإفريقية ( البربرية ) تسمى عادة ( أوائل أملايخ ) أي اللغة النيلية . مع النص على أنها تحوي بعض الكلمات العربية ، وإن هذا سبب انتساب البربر الى العرب الجورين ، والصحيح أن الغلبة مع اللغة العربية أنت عن طريق عملية الحسب الروماني لبلاد البربر ، ص ٨٠ وما ١٨٨ - حيث النص على أنها الكتابة المستعملة حديثا لبربر الطوارق واسمها التيفيناغ ، ص ٨١ و ١٩١ - حيث حلت الحروف العربية محل الكتابة الإفريقية وإن كتابة التيفيناغ كانت منتشرة حتى جزر كناري ( المالحات ) ، وفي أواسط الصحراء الكبرى وغربها ، وإن كتابة الطوارق مشتقة منها ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٣١٠ - حيث النص على أن الطوارق هم الوحييون الذين يكتبون الأبجدية اللبينية ( البربرية ) .

(٤٣) انظر ماكيفيدي ، المجلس التاريخ الإفريقي ، الترجمة ، ص ٥٥ - ٥٦ - حيث النص على أنه منذ قضاء الرومان على قرطاجنة والاستيلاء على الشمال الإفريقي من بداية التاريخ الميلادي وقع حدث هام تمثل في تدفق هجرات قبائل الزنوج من غرب القارة الى وسطها في تباين متوازيين من قبائل الزاندي ( Zande ) والبانو ( Bantu ) ، وإن الطريق : من جبال =

وأهم سمات أهل الصحراء أنهم جمالة ، زعاة ابل يجوبون الصحارى الضاسمة لآلاف الكيلومترات وراء الكلا والماء لابلهم ، والتماسا للدفء اللانيم شتاء لتتاجها ، وسعيا وراء الرزق ، بدلالة القوافل ، أو حمل المتاجر ، وحتى الغارة على الجيران • وبذلك يصبح الجبل هو السيد الحقيقي للصحراء • فعلى الابل بخاصة معاشهم ، اذ ياكلون لحومها طازجة مطهية ، وقديدا مجففة ودقيقا مطحونا - كما كان يفعل العرب قديما ، أيام التشريق فى موسم الحج - ويشربون من البانها ويأتمنون ، وينسجون من وبرها الملابس كما يتخذون النمال والأدوات المنزلية من جلودها كالسفر للطعام والسطول لرفع الماء من الآبار ، الى غير ذلك من أدوات الركوب كالسروج واللجم والاقتاب - وان كان الجيد منها من اختصاص أهل المهن فى المراكز الحضرية (٤١) • فكأنهم اكتفوا اقتصاديا فى معاشهم بفضل ابلهم ، وان كان اقتصادا بلويا يكتفى بالضرورى من أسباب المعاش ، ولا يتعدى درجة الحاجى منها الى الكمال • وهكذا فهم قلما عرفوا الحبز عن طريق قوافل التجار بباديتهم ، حيث كانوا يتحفون به رؤساء العشائر والقبايل منهم (٤٥) •

الكامبون الى حوض زائير الى منابع النيل الأبيض والأخضر الغربى المحيط ببجعة فكتوريا • وقارن دائرة صارف ليكسيكون يونيفرسال (Africa) Lexicon Universal ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النى على ان سكان اقليم الساحل ( السانانا ) المشى ، المند جنوب الصحراء من الغرب حتى اعالي النيل يحوى عددا من الجماعات العرقية ، معظمهم من الزراعى المستقرين • منهم : الولوف (Wolof) والسيرير (Serer) السنغاليز ، والفولاني (Fulanic) الفينيون ( فى غينيا وشمال نيجيريا ) ، السونينكي (Soninki) ولالينكة (Malinka) والباببار (Bambara) والدوجون (Dogon) فى مال ، والسنوفو (Senufo) فى ساحل الناج ، والموسى (Mossi) ، فولتا العليا ، واليوربا (Yoruba) والهوسا (Hausa) فى نيجيريا ثم السارا (Sara) فى جنوب تشاد •

(٤٤) أنظر الأديسى ، ص ٧٥ - اسماعيل العيسى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢١٠ •

(٤٥) ابن حوقل ، ص ٦١ - حيث الإشارة الى ان قبائل البربر فى برارى سلطاسة وأردفست ونواحي ملحة وتامكة الى الجنوب ، وتواشى فزان ، فهم مهملون لا يعرفون الطعام ولا راوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب ، وقوام حياتهم اللبن واللحم ، وقارن ، الكبرى ، ص ١٦٤ • والأديسى ، تحقق صادق ص ٧٤ - حيث النى على ان عيشهم من ابلان الابل ولحومها ممددة ومطحونة ، مع الإشارة الى انه ربما جلبت لهم الحنطة والزبيب وان أحصل طعامهم تلك الوجبة التى تسمى « اسلوا » ، والتى تمد من الحنطة المنقوعة المبروشة ، مزوجة بالصنل والسن ، مطبوخة على النار • وقارن القرطاس ، ص ١٢١ ، الاستيعار ، ص ٢١٣ - ٢١٥ - حيث الإشارة الى انه رغم طعامهم القليل من اللحم واللبن والسن ، فانهم فى صحة جيدة ، بل وفى منتهى القوة ، وان أمكن تفسير ذلك بأنه تميز عن حالة نفسية تتمثل فى نظرة =



وهؤلاء الجمالة فرسان يحكم النساء ، فهم الرعاة الكبار ، الذين يمتنون بحيواناتهم الضخمة في الرعي والسقى ، وهم الذين يسوسونها وقت النتائج (٤٦) . وعلى الطرق الصعبة ، في الرمال المتحركة ، والمستنقعات السبخة ، والصخور التي تحفى لها اخفاق الابل (٤٧) . وهم الغزاة بفضل ابلهم الكريمة المعروفة بالنجب ، ومفرها نجيب ، التي كانت تسابق الخيل التي عرفوها في الواحات حيث يتوفر الشمع والماء . وقطعان الابل التي كانت ترمى بالآلاف قرب ديارهم كانت تستخدم كدروع رادعة للأعداء

= الخوف من قبل أهل الحضر بالعصبة لأهل البادية الذين ربما طهروا في أعينهم بظهر الوحش الكاسرة حسيما . ينص ابن خلدون في المقدمة ، في السبب الثاني في السران البدوي ، الفصل الثاني في أن جبل الرب في الخلقة طبيعي ( ط - التجارية ، القاهرة ، ص ١٢١ ) - حيث النص : وما من كان صلتهم في الأبل فهم أكثر طمعا ، وأشد في الفخر مبالا . فنادا من أذى البرد إلى دفعه هوائه طليا لاختص النتائج في وماله . . . وأيضاً . . . نفرة عن الضمة منهم ، فكانوا بذلك أشد الناس حرصا ، وينزلون من أهل الحوافر منزلة الوحش غير المقدر عليه . . . وهؤلاء هم الرب ، وفي منافعهم طعون البربر وذنابة العرب والأكراد والتركمان والترك بالشرق . . . ومن سهاجة المقتضى . . . وأنظر ، البر ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على أنهم المرحلون بالقدر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب . . . منذ دهور لا يعرف أولها . . . اصغروا عن الأرياف ومجروا النمل وجفوها ، واعتاضوا عنها البان الأسام ولومها ، ابتذالا عن الممران وتوحشا بالمر عن الغلبة والفخر ، فنزلوا من ريف الحبيشة ( السودان ) جوارا . . . وساروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حيزا . . . وقارن ليون الأفريقي ، ص ٦٧ - حيث النص على أنهم يصيرون على الجوع ، وأنهم يأكلون الخبز أو الوجبة المجهزة ، بل ينتلون بطليب النوق واللحم المقدد المثل في الحليب . . . وفي الربيع حيث يتوفر الحليب لا يهتمون بربط النساء أو استخفاهن لعلته في مناطق المشب وقتئذ ، وكذلك ص ٦٩ - حيث يصف نادبة أمير زانلة ( سنهاجة ) في مضاربه ، حيث ذهبت الجمال والحراف وطير النعام ، وقدمت اللحم مضوية ومسلوقة في شرائح متبلة بالاعشاب وبهارات بلاد السودان مع شيز القردة الناعم والتسر مع الحليب . هذا ، مع النص على أن الماعين أكلوا وحشهم وبدون خبز .

(٤٦) أنظر جوتييه ، ماضي شمال إفريقية . ص ٢١٧ وما يمهها - حيث تقسيم البربر إلى رعاة صغار هم رعاة النساء والماعز وراعاة كبار هم رعاة الابل ، وهي نظرية ابن خلدون الذي يقسم البربر فيما لأحوال معاشهم إلى قسمين هما ، المستغنون ومعاشهم في الفلاح ودواجن السائمة ، والمفتزون ، وهم : « أهل الانتجاع والأطمان » في نتاج الابل وظلال المراح - البر ج ٦ ص ٨٩ .

(٤٧) البكري ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، وقارن ليون الأفريقي ، الترجمة ، ص ٦٧ - حيث النص على أنهم لا يركبون سوى الابل . ويستغنون لهذا مريجا يصفونهم بين النعام وبين عتق الجمل ، يسمى الرحلة ( ص ١٢٤ ) وأنهم قد يصفون سقلا فوق ساق على عتق الجمل الذي يتقلب منخاره ويوضع فيه سبر يمكن بواسطته تدوير الجمل وتوجيهه ، كما يقاد الحصان بالجلام .

عندما نطق حليفهم دفعة واحدة فتدعسهم دهسا(٤٨)٠٠

ومن قوة الجمال التي كانوا يتعاملون معها ، استمد الرجال قواهم وعزمهم ، وزعم خفة وزنهم فهم كالرماح السهوية في قوامهم ، ونى شدة بأسهم ، والرمح فلا سلاحهم المفضل قبل القوس والنبل ، وهذا ما يظهر في خطط معاركهم ( بعد تأسيس دولتهم ) وما يؤديه انتشار حمل الرماح بين أهل البلاد المتاخمة لصحرائهم ، كما في السوس(٤٩)٠ وهم فوق ذلك يعرفون أوضاع البر واقتفاء الأثر ، واكتشاف مواضع الماء - ولهم في ذلك الحس الذي لا يدانيهم فيه غيرهم(٥٠)٠

واذا كانت روايات القرن ( ٣ والـ ٤ هـ / ٩ - ١٠ ) عندما تتكلم عن خشونة حياتهم ، تنص على أنهم يتشجعون بثيابهم ولا يلبسون القميص(٥١)

(٤٨) انظر ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث النص على ان ملك صنهاجة كان يملك من الابل ما يسمح له بالقضاء على أعدائه بمجرد الاعتماد على هبيج بعضها ونفارها على الخصوم بفته . وقارن البركي ، ص ١٥٩ - حيث يقول ان ملك أودغست ، في منتصف القرن الرابع الهجري/ ١٠ ميلادي ، كان يستطيع ان يجيش مئة ألف نجيب ، وان يمد حليفه ملك ماسين ( من ملوك السودان ) بـ ٥٠ ( خمسين ) ألف نجيب . وعن دخول الجبل الى المغرب وغزو الصحراء ( ج ١ ص ١٠٥ ) ، وقارن ماكيني ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٧٥ - ٧٦ - حيث النص على ان صنهاجة اخترقت الصحراء بفضل الجمال التي دخلت شمال افريقيا منذ غزا الفرس البلاد في القرن ٦ ق.م ، وانها وصلت الى المغرب في القرن الأول ق.م ، وشاع استعمالها في القرن الـ ٤ م ، ويفضل استخدام الجمل كسفينة لاجتياز الصحراء ، عرفت صنهاجة العولة الزنجية التي أسستها قبائل السونينكي (Soninke) وهي ملكة غانة في شمال ستول الذهب في بنمبوكم (Bambuk) .

(٤٩) انظر الادريسي ، ص ٧٨ - حيث النص على ان أهل تارودانت ، لا يمشي الرجل منهم ، لا وفي يده رمحان قصار المص ، طوال الأسنان رقاقها ، الأمر الذي يعني مهارة بالغة في استخدام الرماح ، والذي يذكر بمهارة الترك في الحرب بالنبال حتى كان الفارس منهم يحمل قوسين ، ويضرب من أمام ومن خلف ، فكان له عينان في قنائه أيضا كما ينص الجاحظ في رسالة معاقب الترك ، وانظر جوييه ، الصحراء ، ص ١٣٤ - حيث النص على ان سكان فزان الجرمتين ، على عهد اليونان واللاتين ، كانوا لا يستعملون السهام والقوس في الرمي ، بل كان سلاحهم الوحيد هو الحربة . وان الطوارق في تومبوكتو عند ثنية النجر ما زالوا يرمون بالرماح ، وهم يرمون بالنبل بدقة مدعشة - وانظر ص ٢١٠ حيث النساء الطوارق يحصلن المنجر في اللزاع ، وقارن شمعة ، المرابطون ، ص ٢٨ - حيث لا يشبه الرجل من أهلها الا رفي يده رمح او رمح طوال الأسنان من الطيب المديد .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

(٥١) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ ، وقارن ابن حوقل ، ص ٨٢ - حيث النص على أنهم يتشجعون =

فالرأى ان الزى المناسب لهم ، بصفتهم جمانة ( فرسان ) هو السراويل المناسبة للركوب ، مثلهم مثل « الأحدين » المتصلين بالقرب من جهة الشرق ، وهم أصحاب زى كزى المفاربة ، وفيهم جنه يلبسون السراويلات المفتحة الطوال<sup>(٥٢)</sup> ، ولا بأس ان تكون ثيابهم قد تطورت مع مرور الوقت ، وتعلم بعضهم ركوب الخيل<sup>(٥٣)</sup> .

### الثمام :

أما أهم ما يميزهم من الكساء فهو اللثام ، المتخذ من فضل العصامة لتغطية الفم والأنف مما ، فلا يظهر من الوجه الا العينان ، فكانه من الفم لثم بلثهم ، وهو الذى أعطاهم اسم اللثامين<sup>(٥٤)</sup> ، الأمر الذى يذكر بطقبة

---

= بالكساء ، وقارن الادريسي ، المغرب العربي ، تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على ان لباس الرجال والنساء لدى لثونة الصحراء ( لسط وصنهاج ) « الاكسية الصوف » ، وكان الأوضاع ظلت مسعرة - فى مجال الثياب - دون تغيير يذكر حوالى ٤ ( أربعة ) قرون وأكثر .  
(٥٢) ابن حوقل ، ص ٥٥ .

(٥٣) أنظر ليون الافريقى ( قرن ١٦ م ) - حيث يقرر ان لباس جزولة عبارة عن صديرة قصيرة من الصوف دون أكمام ، ملتصقة بأجسامهم ( الترجمة - ص ١١٥ ) وهذا يعنى انهم يلبسون ذلك فوق السراويل ، على ما نظن . وعن ثياب الطوارق قارن أيضا ، ص ٦٦ - ٦٧ حيث ثياب العامة : كساء كقوطة شبيقة من الصوف الخشن ، وعلى الرأس قطعة فاضى سوداء ملفوفة حول الوجه كالعصامة . أما الوجهاء فيلبسون قميصا كبيرا له أكمام عريضة ، من قماش القطن الأزلق الذى يشترونه من التجار القادمين من بلاد السودان . وعن ثياب الطوارق حاليا ، انظر محمد سعيد القضاة ، التوارق ، ليبيا ١٩٨٩ ، ص ١٧ - حيث الزى عبارة عن اللثامى القضاة والسراويل الواسع ، والخذاء العريضة من جلد البعير .

(٥٤) أنظر لسان العرب : ط . بيروت ، ج ١٢ ، ص ٥٢٢ ، لثم - حيث اللثام من اللؤلئ لم يلمش بكسر الاء ، وربما بفتحها يعنى رداء المرأة وهو قناعها على « أنفها » وهو اللثام عندما يكون على الفم ( بحيث تظهر العينان والأنف ) وهو « اللثام » اذا كان على الأنف ( فلا تظهر الا العينان ) ، وأنظر اليمعوبى ، ص ٢٥٩ - حيث النص على ان صنهاجة السودان الغربى ينتشون بسمائهم ، ستة فيهم ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ حيث النص على انه لا يرى لاحد من صنهاجة منذ عرفت من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم ينتشون وهم أطفال ، وينتشون على ذلك ، وقارن الادريسي ، المغرب العربي تحقيق صادق ، ص ٧٤ - حيث النص على لثونة ( لسط وصنهاجة ) يرسطون على رؤوسهم عمامة الصوف المسماة بالكرازين . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على انهم اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم ، وقارن ترجمة دسلان (DeSlane) ج ١ ص ٦٤ - حيث النص على ان اللثام هو نوع من شريط أو رباط القماش ، وقارن ج . مارسيه ، المغرب الاسلامى والمشرق فى المصور الوسطى ترجمة هيكيل ، ص ٢٦٥ - حيث اللثام عند الطوارق الحاليين ، قطعة من القماش =

• الأستاذين المحنكين ، فى العولة الفاطمية بمصر والشام(٥٥) •

هذا كما عرفت صنهاجة مثل بربر الصحراء يوضع النقاب على وجوههم فلا يرى منها غير العينين - وبذلك فهم « المتقبون »(٥٦) •

والنقاب أشبه بالقناع الصغير يوضع فوق اللثام فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين وكذلك الأمر بالنسبة للبرقع ، وهى مما عرفه العرب أيضا قديما وحتى الآن • وأغلب الظن أن اللثام ( على الفم وحده ) تطلب ظهور النقاب ( أو القناع ) الذى يوضع على العينين فوق اللثام - زيادة فى التحفظ - فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين(٥٧) •

ورغم ما يقال من أن سبب وضع اللثام أو القاب هو باعتبار الفم ، بصفته مدخل الطعام عورة يجب سترها مثل المخرج(٥٨) ، أو أنه من أجل

= يغطون بها وجوههم من أسفل الى أعلى ، وقارن حسن أحمد محمود ، المرايطون ، ص ٥٦ - ٥٣ - حيث اللثام الماصر • قطعة من القماش تصنع فى السودان ، وتعمل الى الطوارق • وهو على لوتين : أسود للنبلاء ( ولهم الثيابة ) وأبيض للعبيد ( أصحاب الأصال اليومية الدارجة ) وقارن ليون الايراني ، الترجمة ص ٦٨ - حيث النص على او اشرفهم يلبسون فوق رؤوسهم لثاما أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه ، فلا تظهر سوى عيونهم ، ويكونون هكذا عندما يأكلون • تكشف الفم عند تناول اللقمة فقط ثم ستره فى الحال ، وانظر ص ١٤١ - حيث يدعى اللثام بالبربرية : « تاغلموست » •

(٥٥) انظر صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٣ ص ٤٧٧ - حيث النص أنهم أجل طبقاته • الأستاذون ، وهم الذين يدورون عنائهم على أحنائهم كما تفعل العرب والمغاربة ( وهم ما يمثل أروا مغربيا وفد الى مصر مع الفاطميين ، وقارن جمال الفيال ، اعلام الاسكندرية ، ص ١١٠ ، هـ •

(٥٦) الاستبصار ، ص ٢٢٢ - حيث النص على أن أهل تلمكة على تهرم السودان • مسلمون وهم يتقبون كما يتقب بربر الصحراء •

(٥٧) انظر لسان العرب ، ج ١ - ١ ب ، ص ٧٦٥ - نقاب ( وقناع ) - حيث النقاب فى أى شيء كان والنقاب = القناع على ماون الألف ، ويقال تنقب وانتقب • والأصل فى النقاب انه من رداء المرأة ، وهو مستحدث من الحمار ، لسان العرب ، ج ١ - ١ ب ، ص ٧٦٨ (نقب) • اما البرقع فهو لباس الدواب وتساء الأعراب ( ج ٨ - ع ، غ ، ص ٩ ) • وانظر أوليفر ونيج ، موزن تاريخ العربية ، الترجمة ، ص ٧٠ - حيث النص على ان اللثام كان رداء الطبقات النبيلة من الأحرار ، دون العبيد من الزرايع والصناع •

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث أنهم يزعمون ان الفم مسوءة تستحق الستر كالمورة لما يخرج منه ، لا ما يخرج منه عندهم انفن مما يخرج من المورة ، وقارن البكري ص ١٦٨ ، الذى يفهم من روايته أنهم يغطون ذلك حرصا على أنفواهم أن يصبها الذباب ، ذلك أنهم =



شكل رقم ٨ - طاقى ملثم ( اللثام من النوع الصغير )

التخفى عند القيام بأعمال اللصوصية - التي كثيرا ما يضطرون إليها بسببهم القحط والجفاف - أو للدفاع عن الوطن<sup>(١٦)</sup> ، كما يفعل المشون من شباب المناضلين الفلسطينيين ضد الاحتلال الاسرائيلي ، حاليا .

ولا بأس أيضا في أن يكون ارتداء اللثام لأغراض دينية سحرية محضة ، كان تكون هناك علاقة بين الأقنعة ذات الأشكال العجيبة والألوان الصاخبة التي يرتديها أهل السودان الغربي في احتفالاتهم الآن ، وبين استخدام اللثام قديما عند بربر الصحراء<sup>(١٧)</sup> .

« يسمن من لا يضع اللثام من غيرهم » ألفوه اللبان « بلختهم » ، وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٤٩ - حيث يعتبر أن اللثام لستر الوجه كله ، لأن الوجه كالمرآة ، وهو ما لا ينبغي له سندا .

(٥٩) أنظر ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث قصة ارتداء النساء السامرات عادة ، للثام كتسبها بالرجال من أجل تخويف القراصنة المهاجمين معضا يرون كثرة عدد المنافقين عن مساكنهم ، ولو أن المعركة انتهت بأن كان من قتل من النساء أكثر . فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سعة بلازمولة ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، إذ لا يزيلونه ليلا ولا نهارا . أما بداية النس كيفهم منها أن ثبوتة كانوا مثل العرب يتلفسون من الحر والبر ، ولكنهم بعد أن ملكوا شيئا للثام ، فكانه أصبح رمزا لحالة ثقافية معينة ، عبر عنها الشاعر العربي بأنها الحياة .

ثم لهم ذك السمل في حصره  
ولأن ألتوا صسناهجة فهبهم هم  
لما حذا احرلز كل فطسيلة  
شلب الحياه عليهم فلتسمر

وقول الآخر :

إذا التتوا بالربط خلت وجوههم  
أزاهر تيمو من فتوق الكمام  
أو التتوا بالسمايرة أبرزوا  
عيون الأكاسي من جلود الأراقم

وقارن النويري ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ - ٣٨٥ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ - مع إضافة بعض الطرائف عن تمسك لتبوتة بالثام إلى الحد الذي يسمح للرجل منهم بأن يقدم ستر وجهه على ستر عورته - وذلك في دمشق بعد انقضاء دولة المماليك .

(٦٠) أنظر جوليان ( ش ١٠ ) ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، الترجمة العربية ، ج ٢ ص ١٠٤ - حيث النص على أن ثبوتة كانوا يهيمون واحسات جنوب المغرب الأقصى إلى بلاد الزوج ، ولعلم كانوا يضمون اتقاء من المين لثاما يعجب أسفل وجوههم ففسوا بالملتين ، وقارن أحمد مختار الميادي ، الصفحات الأولى من تاريخ المراكيط ، مجلة كلية الآداب بدمرة الاسكندرية ، ٦٧/٢١ - ٦٨ ص ٤٩ - حيث النص على أن ارتداء اللثام عادة أخذت من زلوج إفريقيا المحاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع المين الشريرة عنهم ، مع الإشارة إلى جوليان ( تاريخ شمال إفريقيا ، ١٩٥٢ ، ص ٧٧ ) ، وهو مختلف عنه إذ يمكن أو يكون العكس هو الصحيح - والأمم احتمال على كل حال . وأنظر لون الإفريقي ، ه ١٤١ ص ٦٨ - حيث الإشارة إلى كثير من الأساطير غير المقتمة مما يتعلق بالثام ، منها : انه لدفع أمر محرم (Taboo) حقن ، وهو المم أمام المرأة والأشخاص المحترمين ، وهو ما لا يشير إليه المؤرخون .

والحقيقة أن ما يأخذ به البعض من رفض فكرة ارتداء اللثام من أجل انقاء عوارض الجو المختلفة من الغبار والبرد والحر ، وترجيح فكرة الحفشة من تسرب الأرواح الجبشية إلى الجسد عن طريق الفم والأنف له علاقة بالمعتقدات السودانية التقليدية في جنوب الصحراء ، والتي تتمثل في أساطير وقصص عن الله والبشر والطبيعة . ويظهر ذلك في الفن التقليدي في وسط أفريقيا وغربها في الأقنعة بشكل أساسي ، وفي الرؤوس ذات المعنى الديني السحري والتي تستعمل في القيام بالتمائم الدينية واضرب على الطبل وقص الحكايات . وبدون ذلك لا يمكن للفن المرئي القيام بوظيفته في المجتمع الأفريقي التقليدي ، والتي تتمثل في الصراع من أجل السيطرة على القوى المختلفة ، من : طبيعية وعقلية لكي تنتهي الأمور على ما يرام ويشتهي ، فكان الفن هو وسيلة العلاج (٦١) .

هذا وتعرف ديانة السودان عند الباحثين بـ « الأحيائية » (animisme) ، من حيث أنها تركز على تقديس الأرواح أيا كانت ، لاجتذاب الحيرة منها وتقريبها ، ودفع الشريرة منها وطردتها - فكانها من الديانات الثنوية ، مثل : السمنية (Chamanisme) : ديانة المغول والتتر . وهي تعني بأرواح الموتى الباقية مع الأحياء وهي الأكثر عددا ، إلى جانب أرواح مظاهر الطبيعة المختلفة ، من : الماء والأرض والشجر والحيوان وغيرها من الكائنات ، الأمر الذي يميز عن وحدة المجتمع والبيئة حيث يفنى الفرد في سبيل الجماعة (٦٢ م) .

= القدامى . وإن كان من الممكن أن يكون القناع لاختفاء الوجه أحيانا ، أو أن يكون ارتداء اللثام الذي يتم في حفل عائلي صغير بالنسبة للظلام ( المراقب ) دلالة على أنه بلغ مبلغ الرجال ، وأنه يستطيع المشاركة في الفوز وكذلك التردد على النساء . (٦١) دائرة المسافر ليكسبون يونيفرسال ، ط ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٤٦ ( عن الدين ) وص ١٦٠ ( عن الفن ) ، وص ٦٤٦ ( عن قناع للتأمل مصنوع من الخشب والليف ( من زائر الكونغو ) وهو في الحقيقة لباس للرأس دقيق النحت والتلوين ، ويعلم بأهميته شاب أثناء احتفال الحتان أو الرقص ، وانظر شكل ٧ - حيث قناع من غينيا الفرنسية يجمع بين التسمات الإنسانية ورأس التمساح وجسد الأسد .

(٦٢) عن السمنية انظر للمؤلف ، الإسلام والترك ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، عدد ٢ سنة ١٩٧٩ ، ص ١٦٦ . وعن ديانات السودان ، انظر مولود ، الرقيبا الغربي الفرنسية ، ص ٧٧ ( عن الديانات ) - حيث يتطلب فناء الفرد في مصلحة الجماعة أعدادا شائكة للشخص منذ نعومة أظفاره ، مما يشبه الأعداد في الجسبات السرية ، كما يتطلب احتفالات سرية تستخدم فيها الأقنعة الرمزية الخاصة بتلك الديانة ، ص ٨٠ والصفحة المقابلة حيث صورة =



شكل رقم ٩ - قناع من غينيا الفرنسية - يجمع بين القسمات الانسانية  
ورأس التمساح وجسم الثعبان



والهمم انه رغم كل ما يقال عن العلاقة بين اللثام والديانات السودانية المشار اليها ، فان المتعارف عليه ابتداءً ان استخدام اللثام بالصحراء ، بل وفي كل مكان مفتوح كالريف والبحر والفضاء أيا كان ، أمر مطلوب لحماية الوجه وجهاز التنفس ، بل والعينين أيضا ، مما قد يتهدهدها من اذى الرياح المحملة بالرمال والأتربة ، والى تسغو عاصفة على طول الطريق - وخصوصا في مواسم انتفخات الجوية<sup>(٦٢)</sup> .

ومن المهم الإشارة هنا الى أن اللثام الصحراوى تطور فى مملكة جنوى التى خنفت تومبوكتو كالعاصمة التجارية ، والتى عرفت عند المغاربة باسم جنيوه ، وهو الاسم الذى أصبح عند تجار المغرب كناية عن بلاد السودان حيث جادت صناعة القطن فاصبح اللثام ( فى القرن ١٦ م ) كسبر الحجم ، أسود اللون أو أزرقه ، ويتفطون به حتى الرأس ، بينما تميز لثام العلماء والفقهاء باللون الأبيض<sup>(٦٣)</sup> .

وهكذا يصبح اللثام نوعا من عوامل الربط بين بربر الصحراء وقبائل

---

« قناع خامس يجمعات النالو والباجا من غينيا الفرنسية ، وتظهر فيه مسحة الوجه الانساني ، وشكل رأس التمساح مع جسم الأفعى (شكل ٩ ص ٨٢) . وقارن كولين ماكيفيدى ، اطلس التاريخ الإفريقى ، الترجمة ، ص ٢٣ - حيث تحفة فنية قتل مقعدا من النحاس للأغراض السحرية ، قاله حبة ضخمة ملففة ، وقاعدته مزينة بالفضادح والأقلمة البارزة ، بينما المقعد (ص ٧٦) مزخرف برموذ بارزة ، من الصليب البيزنطى الى القناع والسيف ويضى الأدوات الحرفية . وانظر أيضا ص ٨١ - حيث قناع من العاج يمثل رأس ملكة الفريقية مزين بالفريز كالمقرص ( كورنيش ) من رؤوس البرتغاليين الأوائل الذين وصلوا الى إفريقيا ( من مطبوعات المتحف البريطانى بلندن ) . وقارن فهدج (Page) «دعوة لارايه غرب افريقية ( بالانجليزية ) ، ص ٧ - حيث تتلخص عقائده الزوج فى ان لكل جماعة رئيس كهنوتى ، وأنهم يعتقدون فى اله أعلى هو خالق الكون وأعداد من الآلهة لهم علاقة بالأشياء الأرضية ، مثل : الصخور والأنهار والبحيرات وهم أقرب الى الإنسان منهم الى الاله الخالق ، وهناك اعتقاد فى الحياة بعد الموت ، وهناك عالم الأرواح ، ومنها أرواح الموتى ولهم تأثير قوى على الناس والأشياء »  
(٦٢) انظر ابراهيم الواسر ، الصحراء وسوف ، ص ٤١ وه ٦ - حيث النص على انه اذا ثارت الرياح اطارت دمل « سوف » الناعم كالدقيق ، فى الجو أعمدة قد تغشى التوائل فتدنفها ( فكانها عواصف الثلج فى ممرات أطلس وجبال الريف على تكوم الصحراء . كما ينص ليون الاثريقى ، الترجمة ، ص ٨٥ ) . ولذلك فانه فى زمن الريح لا يستطعم الإنسان السير فى «أرض سوف» من غير ستر عينيه بزجاج هو فى الحقيقة منظار يستخدمه أهل الصحراء - الأمر الذى يعنى ان المناظر ( النظرات ) الزجاجية تعتبر نوعا من النقاب ، وإن الأقبشة المشقة التى يتخذها العلماء على الألف والهم أثناء الكشف على المرعى نوع من اللثام أيضا .  
(٦٣) ليون الإفريقى ، الترجمة ، ص ٥٣٧ .

السودان الشمالى الذين امتزجوا بهم بحكم الهجرة والجوار منذ القديم ، حتى أصبح الجميع ملثمين ، فكان السمة المميزة لدولة المراتطين هى انها دولة السمر أصلا ، أى أهل الوسط المهجنين بين الجنسين الأبيض والأسود ، وهى طبيعة الوطن فى إقليم الساحل ، حيث التماس بين الجنسين الذى ربط امتزاج الدم بينهما عرقيا ، كما ربط اللثام بينهما حضاريا وثقافيا .

وتظهر تلك التفرقة فى تقسيم الزوج فى أفريقيا الى عرقين ، هما : السود فى غرب أفريقيا ، وهم « السودان » وحدهم ، نسبة الى مجموعة اللغات التى يتحدثونها ، وهى اللغات السودانية ، وهؤلاء يختلفون عن العرق الآخر الذى يمثل السودان فى شرق ووسط وجنوب أفريقيا ، ولهم لغاتهم الخاصة بهم ، فهم البانتو (Bantu) أهل الغابات ، نسبة الى اللغة ، وهم الزوج الحقيقيون (٦٤) .

وثمة سمة ثالثة زادت فى تميز ذلك المجتمع الصحراوى السودانى الملثم ، تتمثل فى مركز السيادة الذى تمتعت به المرأة ، فالأسرة فيه من النوع الأموى ( الماترياركى matriarcale ) ، وفى الامبراطوريات السودانية كانت الوراثة لابن الأخت ، وفى دولة المراتطين كان الانتساب الى الأم اذا كانت من الأسرة المالكة ، كما يأتى .

---

(٦٤) انظر فيديج ، مقدمة لتاريخ غرب أفريقيا ، ص ٤ - حيث كلمة بانو معنى الرجال (men) ، ص ٥ - حيث الهجرات والاختلاط بين السود والبش خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية ، الأمر الذى يوضح أن دولة غانة كانت أكثر شمالا مما يظن وكذلك الأمر بالنسبة لبلدات الهوسا فى الغرب . وانظر ص ٩ - حيث الإشارة الى ذوبان الغزاة من البربر فى المجتمع الزنجى الذى تعلم تقنياتهم وأقام الامبراطوريات .

## الثروات الطبيعية

### النبات :

الصحراء بطبيعة الحال ، قليلة الثمرات تبعا لقلّة الماء ، وبالتالى قلّة النباتات التى عليها معاش الحيوان والانسان . ولما كانت صحراء الملتصين هى الصحراء بالامتياز أى قلبها المقفر ، كانت النباتات فيها من النوع الايرى أو الشوكى ، الذى يدافع عن وجوده ضد الحيوان من أجل البقاء ، ربما باستثناء الجمل ، المهيا خلقيا للتعامل مع هذا اللون الصعب من الطعام (٦٥) .

### النخلة :

وإذا كان الجمل هو الرمز الأول للصحراء حسبما هو معروف ، فإن النخلة هى الشعار الثانى للصحراء . والحقيقة أنه إذا كان الجمل مرفوا يتحملة للمعش شمة الصحراء الأولى ، فإن النخلة ليست كذلك ، إذ لا تصبر طويلا عن الماء مثل نباتات الصبار وهى لذلك لا توجد فى الصحراء الا فى الواحات حيث تتوفر المياه الجوفية ، كما فى أحساء الرمل والبطنج والسباح والشطوط ، أو غير بعيد من موارد الماء على طول الأودية والأنهار أو حول العيون والآبار (٦٦) .

---

(٦٥) الى جانب النباتات الشوكية عرفت الصحراء النباتات التى تقاوم الحرارة والجفاف عن طريق الأوراق الصغيرة المضادة للنسج ، والجذر الكبير للخطاط على الرطوبة ، ومنها الصغير الصبر ( مثل : *Baerhavia repens* على الحواف الجنوبية للصحراء ، والى زهر وتوت فى ٨ ( ثمانية ) أيام فقط - وهى عادة تستهلك كميات قليلة من الماء ، ونهى - بلورها لانتشار الواسع وساعدها فى ذلك حيوانات الرعى ، من الجمل والفزال والماعز حيث ساعد أشواك البنور على التعلق بأرجل الحيوانات وشعرها وبرها والرحلة معها - أنظر والطون الاراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٦٦) وفى غرس التخيل تشير دراسة أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر ،

وهكذا تكون النخلة رمزا للصحراء شراكة مع عائلة الصبار والنباتات الشوكية الأخرى ، حيث أن أوراق سعفها الأبرية وتحملها للحرارة الشديدة الى جانب ارتفاعها المستمر مع مرور الوقت ، تبجل منها شارة حقيقية في قلب الصحراء : تهدي الى مواضع الماء ، وتدل على الطريق . هذا ، الى جانب أهميتها الاقتصادية الكبيرة ، من حيث أن ثمرها مصدر الطعام الطبيعي في الصحراء والواحات . ولما تقسمه أيضا من خدمات عامة للإنسان والحيوان ، كالقش عند لفتح أشعة الشمس وحسرة الجو ، والطراوة عند اجفاف الجفاف ، الى جانب المنظر الجميل الذي أوحى للبتائين إقامة السواقي السامقة ، والأساكيب ( المصارية ) الرائقة (٦٦ م) .

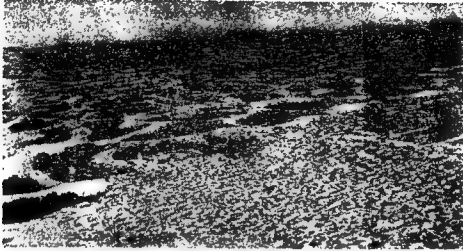
ولتوطن النخلة في صحراء افريقيا الشمالية قصة أشبه ما تكون بقصة توطن الجمل فيها وإن كانت أحدث منها ، كما تدل الشواهد . فالنخلة وافدة من المشرق ، بوابة عمران المغرب . ولا بأس أن تكون قد دخلت البلاد في العصر الروماني رغم افتقار الأدلة على وجودها وقتئذ - على الأقل بالكثافة المعروفة الآن في غابات النخيل . وهذا الأمر يدعو الى قبول فكرة أن غرس الواحات بالنخيل ، مثل سكنها بالجنس الأبيض ، وتطور أساليب الري فيها بتقنية متقدمة إنما كانت تتم شيئا فشيئا في العصور الوسيطة والحديثة ، منذ انتشار الجمل الذي جعل الوصول الى الصحراء أمرا ميسرا ، كما جعل استقلالها الاقتصادي شيئا ممكنا (٦٧) .

---

شمال سيناء ١٩٩١ ص ١٥٦ ، الى أنه يتم غرس الفسائل في حفر يصل عمقها الى الماء السطحي ، أو الرمال اللبنة بالماء ... وإن النخل يثمر عادة بعد ٦ ( ست ) سنوات بعد التسميد والتذكير . مع النص على أن النخلة تحتاج الى رعاية وكرام من صاحبها حتى تكرمه بالمحصول الوفير .

(٦٦) عن الأسكوب ( في المقد ) وهو المنصر المماري في الجامع الذي يعادل البلانة المتفرشة ، عند أحمد فكري ( المثل الى مساجد القاهرة ومدارسها ) ، انظر للمؤلف ، المارة والفون في دولة الإسلام ، ص ٢٩٤ وه ٩ .

(٦٧) انظر جوتييه ، ماضي شمال افريقيا ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - حيث النص على أن غابات



شكل رقم ١٠ - وادي سوف ( الجزائر ) - المدينة في المنفعة وغابات النخيل  
بين كتبان الرمل

#### اقليم النخل :

والمنطقة المقابلة « للساحل » شمالا ، هي حزام النخل الذي يحد الصحراء ابتداء من السوس الأقصى غربا ، مما يتأخم مواطن قبائل جزوله ، ويمتد شرقا عبر سفوح درن ( أطلس ) الجنوبية وبلاد درعة وسجلماسة الى وارجلان والجريد حتى غدامس ( جنوب طرابلس ) ، وهي مناطق شبه صحراوية ، يتوفر فيها الماء والحصب . فايجلي عاصمة السوس ، على نهر

---

النخل الجيلة في وادي ريخ - جنوب بسكرة ( بالجزائر ) لم يكن لها ذكر في النصوص الرومانية ، ولا يوجد له أثر في البقايا الرومانية ( الأثرية ) ، وانظر ابراهيم الحواس ، الصحراء وسوف ، ص ٦٤ - ٦٥ ، حيث التركيز على ما للنخلة - شجرة سوف بالامتياز في العصر العربي الاسلامي - من ادب خاص بها . فهي الشجرة المباركة التي خلقت من فضلة طينة آدم ، وهي تشبه الانسان من علة وجوه ، من : الاستقامة ، وتمييز جنسها ، والاشارة بلفاح الذكر ذي الرائحة الانسانية ، والهلاك اذا قطع راسها أو أصيب جمارها ( منها ) ، وعدم رجوع غصنها اذا قطع ( كالخضو الآدمي ) ، وكسوة الالياف ( اشبه بفقر الجسد ) ، ثم انها تمى عندما تهدد بالقطع اذا لم تتم قصود الى الاشجار . اما عن أسمائها فيبعد أكثر من ١٠٠ ( مائة ) نوع . والمهم بعد ذلك أن النخلة ليست شجرة صحراوية عذبة ، فهي وإن تجمدت الحر الشديد لا تصير كثيرا على العطش ، فهي لذلك شجرة الواحات التي تحتاج الى الرعاية ، مما سبقت الاشارة اليه .

ماست ، شهيرة بكثرة النخيل ورخص التمر (٦٨) . والمهم أن ايجل على ٣ ( ثلاث ) مراحل فقط من مدينة نول لمطة ، من حيث يبدأ الدخول في الصحراء (٦٩) .

وبلاد درعه التي يمكن أن تكون قد أخذت اسمها من قبائل ترغه ( أو الطوارق ) التي سكنتها قديما (٧٠) ، اشتهرت بكثرة بساتين الفاكة والنخيل (٧١) .

وتعتبر سيجلماسة ( تافاللت ) القريبة من درعه من بلاد النخل هي الأخرى الى جانب بساتين الفاكة ، وإن تميزت على غيرها من الواحات بزراعة القمح (٧٢) .

وفي الطريق الى المشرق كانت ورجلان التي امتدت في شكل ٧ (سبعة) واحات أو حصون من بلاد النخل ، تمثل محطات رئيسية على طريق القوافل

---

(٦٨) البكري ، ص ١٦٢ ( والاستبصار ، ص ٢١٢ ) - حيث وفرة لصب السكر أيضا ، وشجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت الطعام الشائع الاستعمال ، والمستخدم أيضا في علاج الكلى وادوار البول .

(٦٩) الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٧٠) عن ترغة أنظر ، ما سبق ص ١٤ وهـ - أما عن وادي درعه فهو عنة قرى متصلة على طول النهر الذي ينبع من جبال الأطلس ( درن ) ويجري بقلبيها من الشرق الى الغرب . وعاصمة تلك القرى التي كانت تسكنها قبيلة سرطة أيام البكري ( منتصف القرن الهـ ٥ هـ / ١١ م ) هي « يتوميتين » ( البكري ص ١٥٥ - ١٥٦ ) .

(٧١) هذا كما اشتهرت درعه بالزيتون والأعشاب شبه الطبية التي تنمو في ظل النخيل كالحناء خاصة ، والكراوية أو الصناعية مثل النيلج ( المستخدم في صبغة اللون الأزرق ) - أنظر الادريسي المغرب ، تحقيق صادق ، ١٩٨٣ ، ص ٧٧ ، وفارن الاستبصار ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - حيث الانفراد بالمعلومات التي ربما سقطت من نسخة البكري ، والتي تنص بخاصة على سودة الحناء التي عظم انتاجها حتى كانت تؤخذ منها ينفور الحناء الى سائر البلاد ، وقارن شهيرة المرابطون ، ص ٢١ - هذا كما يوجد بادرعه شجر التاكوت الذي يستخدم ورقه في دباغة الجلد النداسي ، كما كان ورق شجر التامجلنت يستخدم كصاف الطعام ، لمطهنة وقوته ، كما كان الحال في سيجلماسة - البكري ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢٠٧ .

(٧٢) البكري ، ص ١٤٨ ، والاستبصار ، ص ٢٠١ - حيث سقا القمح من النهر الذي ينبع من إحدى اليمون الارتوازية ، وكذلك الشعير - بينما يضيف الادريسي الى الحناء والكراوية والكمون زراعة القطن ( المغرب العربي ، تحقيق صادق ، ص ٧٦ ) .

الى واحات مصر(٧٣) . أما قسطنطينية ( القلاع ) وقاعدتها توزر الشهيرة بهندسة الرى الدقيقة ، فكانت مع بلاد الجريد القريبة ، بلاد التمر بالامتياز(٧٤) . وفي جنوب شرق الجريد عرفت غدامس بكنزة تمرها ، وشهرة جلودها - وهي آخر مواطن الطوارق في ليبيا حاليا(٧٥) .

وهكذا امتدت بلاد النخل من تارودانت بالسوس غربا الى واحات مصر شرقا . والى جانب النخلة وفي ظلها حيث تتوفر الرطوبة وجدت النباتات والأعشاب الطبية والطرية ، من الحناء والحبق وأصناف الأشجار من الاهليلج وشجر الصمغ وغيرها مما كان يستخدم في الغذاء والدواء وفي الصناعات من الصباغة والدباغة وغيرها(٧٦) .

#### نباتات الساحل :

أما عن منطقة الساحل ( حزام أعشاب السافانا الجنوبية ) ، شجبه الصحراوية ، فتوجد بها الى جانب الأعشاب الابرية ، شجيرات الدوم ، كما تنتشر فيها شجيرات الطلح ( الأكاسيا : Acacia ) ، والسكرام كرام (Cram - cram) الى نخلة الرونييه الشمينية : (Roniez Barassus) Flabe lifer (٧٧) .

(٧٣) الاستبصار ، ص ٢٢٤ ، ابن خلفون ، العير ، ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١ - حيث بلاد النخل تمثل اقليما طبيعيا في شمال الصحراء يمتد من السوس الى مصر ، وانظر ج ١ ص ٧٥ - ٧٧ . والشكل ٨ - عن غابات النخيل في وادي سوف بالجزائر .  
(٧٤) البكري ، ص ٤٧ - ٤٨ ، والاستبصار ، ص ١٥٥ ، ١٥٠ .  
(٧٥) البكري ، ص ١٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - وعن طوارق غدامس الآن ، انظر محمد سعيد القشاش ، التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، ص ١٧ - حيث تمتد مواطنهم من غدامس الى تمنقست بالجزائر وتيميناوين على الحدود مع مالي ، الى تينيكتر شمال طاهو بالنيجر ، وابشة شرق تشاد .

(٧٦) البكري ، ص ١٥٧ - حيث موضع القرندي على طريق تامدلت - اودغست ، وهو بئر عطية في حد بني وارت ، من صنهجة وانظر ابراهيم المولوي ، الصحراء وسوف ، ص ٥٢ وما بعدها ، حيث نباتات منطقة سوف ، مع النص في ص ٥٣ - على ان شجر الصحراء المطبق فلفل ، هو : الازال والارضى والمنددة والبلبال والباقل والرخ ، مع الاعتناء بذكر اشجار الدواء ، من : الدعار ( للسمال والبراسير ) والطرفاء ( وجع البطن ) والائل ( شدد الشمر ) .

(٧٧) مولود ، ص ٤٦ - ٤٧ ، وانظر دائرة معارف ليسيكون نينايرسال ، افريقيا ، ج ١ ص ١٤١ - حيث الإشارة الى ان منطقة الأعشاب ( سافانا ) تمثل ١/٣ ( ثلث ) مساحة افريقيا ما بين الغابات والصحراوات ، وانها تتدنى كلما اقتربت من الصحراء حيث بعض الشجيرات التي تنحدر الجفاف ، وبعض الحشرة المتباعدة التي تتحمل بعض الرعي .

وتعتبر مدينة أودغست أول مناطق هذا الحزام جنوب الصحراء ، حيث تتوفر الحياة الحضرية بتوفر الماء ، من : البساتين والنخيل ، بل وزراعة القمح عن طريق الحرث ( بالقووس ) والسقيا الصناعية بالدلاء ، فكانها نظيرة سجلحاسة ودرعه ( شمال الصحراء ) ، ويؤكد شهرتها في إنتاج الحناء أيضا (٧٨) .

وبعد أودغست تكون النقلة الى البيئة السودانية الموسمية ، حيث يزرع القمح وكذلك الأرز الذي يسمى « الرشيد » ، وهو يحتاج الى الغمر في الماء ، الأمر الذي توفره مياه نهري السنغال والنيجر (٧٩) . أما الغابات الجنوبية فكثرها شجر الأبنوس من اسود ( غالبا ) ومجزع ، والذي يكون منه الوقيد (٨٠) .

### الميسوان :

#### الجميل :

الجميل الذي دخل الى صحاروات المغرب في القرون الميلادية الأولى ، هو بحق سفينة الصحراء ، قيفضله أمكن التوغل في قلب بحار الرمل ، وارتياح أطرافها جنوبا حتى بلاد السودان حيث أصبحت الصحراء همزة الوصل ، وطريق المواصلات الذي يربط شمال أفريقية بوسطها ، وشرقها بغربها بشبكة من الطرق أحدثت في المنطقة ثورة اجتماعية سياسية ، كما يقول جوتييه ، أشبه بما أحدثته خطوط السكك الحديدية ، وظهور السيارة ثم الطائرة (٨١) . ويرجع ذلك لفضخامته وقدرته على حمل الأثقال ، وتحمله الجوع والمعش ، وتاقلمه مع البيئة بفضل الأخفاف المضادة للنفوس في الرمال ، واعتياده على أكل شجيرات الصحراء الشوكية ، وشرب ماء الميون

---

(٧٨) البكري ، ص ١٥٨ - حيث النص على انه لا يأكل دقيق القمح الا الميسور ، اما اللامة تاكلهم اللدة وغيرها ، وقارن الاستيصار ، ص ٢٦٥ ( حيث سقطت الحناء ، وعن درعه ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ) .

(٧٩) مولار ، ص ٣٠ .

(٨٠) البكري ، ص ٧٣ ، وانظر دائرة صارف لكسيكون يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث النص على ان الغابات الاستوائية تنتج حاليا نفلة الحمر الثمينه ، ونفلة الزيت ، والألبونس وخشب الماهوجي .

(٨١) انظر مانى شمال افريقية لجوتييه ، ص ٢٠٩ ، وقارن شمعة ، المرابطون ، المقدمة ص ٥ .



## الملاحه (٨٢) .

والجبل الكريم يسمى نجيب ( والجمع نجيب ) ، وهو سريع العدو يسابق الخيل ، فراكبه فارس محارب مثل راكب الفرس وأشد (٨٣) .

والخيل التي دخلت المغرب عن طريق المشرق عبر مصر ، ربما منذ عصر الهكسوس أو الفرس (٨٤) ، لا توجد في الصحراء الا في الواحات حيث الماء

(٨٢) ما سبق ، ص ٦٢ ، وانظر والتون ، الأراضي الجبلية ، الترجمة ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .  
... حيث الاشارة الى ان الجبل هو الحيوان الاساسي من بيئة آكلات العشب في البيئة الصحراوية والجبل الاسيوي ذو السماتين أشد من الافريقي ذي السنام الواحد ، وأقدر على تحمل الجوع والمشي والحر والبرد ، وعن خصائصه الفسيولوجية ، فخلف الكبير يساعد على توزيع الوزن فوق مساحة كبيرة من الرجل ، ويسمكه يحسن ضد الاشعاع الحراري من السطح الصخري الحار .  
اما عن تحمله للحرارة والبرودة فلانه لا يفرق قبل درجة حرارة ٤١° ، بينما يبرد جسمه ليلاً الى درجة حرارة ٣٤° ، وهو يمشي ما يفقد من الماء مما هو مخزون في سدنه ، وذلك عن طريق أكسدة اللحم فيه . والحقيقة انه ليس للجبل خزان مياه في جسمه ، وأقصى ما يحميه المرتحل عنه ذئب يهره وقت الظلمة ، هو المصاصة العظمية الخضراء في لثايف معدنه .  
وعن دورة حياة الجبل ، أنظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية في مصر وشمال سينا ، ص ٨٠ - ٨١ ، حيث الاشارة الى التكاثر الكبيرة عن دورة حياة الجبل حيث المولود ( حوار ) والمطلوم ( لبني ) ، والطلين ( مفروط ) ، والمنظم الاستخدام ( مربوط ) ، وذلك قبل مرحلة التنطبع ، والجبل « صايم » عندما يطلب الأئني في الشتاء ، والجبل ١٢ شهرا ، وفتره الرضاعة فتره طيبة لأصحاب الدابة لأحد شيء من لبنها .

(٨٣) وانظر جوتييه ، ماضي شمال افريقية ، ص ٢٠٩ - حيث تراء شاربا لنظريات ابن خلدون ، اذ يقول ان الجبل لا ينكسر عن الرجل الذي يستخدمه ، وهو البدوي الكبير ، راعي الابل الذي يجتمع في قبائل مغيلة ، كل واحدة منها أشبه بكتيبة مقاتلة منذ مولدها ، فهي سريعة الاتصال ، ويمكن ان تظهر ككاثرة طبيعية ، غير متوقفة ... وهو بسبب الفقر وانتقاد التسبيح والمثع والتفرد يصبح وحشا آدميا ، ينزع الى النهب والسيطرة . وقارن اسماعيل العربي ، الذي يأخذ بمقولة دخول الجبل الى صحراء المغرب عن طريق مصر ، منذ عصر الهكسوس ، وعلى طول عدة قرون ، فكان الهكسوس الخيالة جلبوا معهم الجبل أيضا من آسيا - بصرف النظر عما هو معروف من ان الجبل الاسيوي ذو سنامين - وهو يشير أيضا الى ان حيوان الأتقال في الصحراء المغربية ، قبل الجبل كان الثور ذاللقب ( السنامة ) . وقارن أوليفر ، ونيج ، مقدمة تاريخ افريقية الغربية ، الترجمة ، ص ٦٧ ، - حيث النصر على انه قبل مجيء الجبل الى شمال افريقيا كان هناك نوع من العربات التي تجر الواحدة منها ٤ ( أربعة ) شبول تجوب الصحراء في طريقين ، من فزان وجنوب مراكش الى ثنة النحر العظيم ، حيث كان يوجد الذهب - وهو الأمر المستغرب - وأن ذلك بقاء على الرسوم الموجودة على الصخور الأثرية في الصحراء .  
(٨٤) أنظر جوتييه ، ماضي ، شمال افريقية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ( عن الحصان المغربي ) .

والعلف ، من الشعير أو من ردىء التمر - بينما يكون النوى أحيانا غذاء الماعز<sup>(٨٥)</sup> .

### حيوانات البرية :

أما عن حيوانات البرية فحتها اللبظ ( اللمت ) وهو نوع من الأيائل الشبيهة بالبقر الوحشى ، مثل الرنة<sup>(٨٦)</sup> ، والذي كان يصنع من جلده دروع الدرق للعلية ، آلة الحرب الشهيرة لحفتها ومتانتها ، ليس بين انصخراوين فقط ، بل وفى كل بلاد المغرب ، وكذلك بالاندلس<sup>(٨٧)</sup> .

ومع اللبظ عاشت فى الصحراء انواع من الكباش التى تسمى ( الهمانية ) وهى شبيهة بتلك الأيائل أيضا ، وإن كانت أكبر حجما ، وشعرها مسترسل كشعر الماعز<sup>(٨٨)</sup> . ووجد بنفس الصحراء الثعلب وخاصة النوع الأبيض الصغير الحجم ، كبير الأذنين ، المعروف بالثعلب والمطلوب لفرائه الجميل ، الثمين<sup>(٨٩)</sup> ، كما « الفيزون » ( انقندس ) فى أيامنا هذه .

---

(٨٥) انظر ليون الإفريقى ، الترجمة . ص ٤٩٢ - عن دوعه حيث التمر علف الخيل والنوى المجروش لغذاء الماعز .

(٨٦) انظر فيما سبق ، ص ٧٠ - حيث اعتبر اللبظ الجذ الأسطورى الذى تتسمى به بعض القبائل الصحراوية ، من جهة ( ملحمة ) أو ملحمة ، وانظر ليون الإفريقى ، ص ٤٨٩ وه ٤ ، ه ٦ - حيث اللمت نوع من الوعل ( Addas أو Oryx ) ، حيث النص على أن كلمة « ودان » فى ليبيا (غير ودان موريتانيا) تعنى نوعا من المها البرى بحجم العجل ، وقارن إبراهيم التوماس ، الصحراء وسوق ، ص ٦٧ - حيث تقرير أن البحر الوحشى ( بلحوص بالبرية والكورن بالفارسية ) كان بصحراء سوق الجنوبية الى عهد قريب ، وانظر ص ٩٨ - حيث النص على أن الغزال يأكل الحنظل والحلج فيستعليه ، ويشرب ماء البحر الملح فيستطبه .

(٨٧) انظر البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ . وانظر شكل ١١ - النموذج الأخير لللبظ فى الجزائر .

(٨٨) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر دائرة معارف لشميكون ، يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث تحوى اراضى المشب الافريقية حاليا معظم ما بقى فى العالم من قطبان الحيوانات البرية من : الأيائل والزراف والمهاج الوحشى فى شرق افريقيا والحيوانات الوحشية التى ترمى عليها .

(٨٩) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ . وانظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ١٦١ - ١٦٢ حيث الاشارة الى أن حيودوت الذى ذكر مثل هذه الحيوانات وبشميتها الخيل لا يذكر الخيل الذى سيكون دخوله المغرب فى القرون الميلادية الأولى .



شكل رقم ١١ - اللمط ( الوعل ) - النموذج الأخير في صحراء الجزائر -  
منطقة الراوى غرب سواره ( حيث تم القضاء عليه تالما )

وغير ذلك لا تعرف الصحراء الا بمض الزواحف ، من الحيات والأفاعي  
غير السامة ، من صغيرة وضخمة ، ومن ذات القرون . كما عرف الجرذون  
الذى يعرف فى اللغة النبريرية باسم « اقزيم » ، وكان يؤكل فى  
سجلنا (١٠) ، هذا ، وكان الجراد الذى كانت تحمله رياح الحرمان من  
أقليم الساحل بشرق أفريقيا ، رغم هجماته انخريرية (١٠ م) طاماما محببا  
لأهل الصحراء فى السوس ، حيث يأكلونه بكثرة مقلوا ومملوحا (١١) .  
وأغلب الظن أنهم كانوا ينتظرونه ، كما كانت تنتظر طيور السماء المهاجرة  
فى تئيس ودعياط بشمال الدلتا (١٢) .

وفى منطقة صحراء جدالة على شاطئ الأطلسى ، ما بين السوس  
والسنغال ، عرف صيد البحر . وهناك ذكر للسلاحف البحرية الضخمة  
التي تكثر فى منطقة جزيرة أيوى ، قرب الساحل ، حيث كان معاش أهلها  
على لحومها (١٣) .

(١٠) الإدريسي ، المغرب العربى ، تطبيق صادق ، ص ٧٧ - وهنا لا بأس من الإشارة  
إلى أنه جرت المصادفة على أكل الكلاب فى بعض الواحات ، حتى كان يقتل بتسميتها فى  
سجلنا وبلاد البرية ، فى لفظة وقسيلية .  
(١١ م) وأنظر مولار ، ص ٥٠ ، ووالتون الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٥٥ - حيث  
٣ الجراد أعظم خطر يهدد البيئة لأنه مستهلك للنباتات الخضراء ، وص ٣٥٦ - حيث تركيب الجراد  
الفسيلوجى غير ملائم لطروف الجفاف نظرا لحاجته إلى قدر من الرطوبة لدورة حياته القصيرة ،  
ولكن الذى يساعد على البقاء هو قدرته على التحمل .  
(١٢) الإدريسي ، ص ٧٨ ، وأنظر شميرة ، المرابطون ، ص ١٨ .

(١٣) الاستبصار ، ص ٨٨ - حيث كانت تلصق الفياك لصيدها ، كما هو الحال فى  
الصحراء غرب الاسكندرية الآن ، وكما كان ينتظر موسم الجراد فى بعض الواحات بالمغرب  
( العربى ) إلى عهد قريب .

(١٤) البكرى ، ص ١٧٦ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ - ولما كان النص يحمل طريقة  
صيدها مكتفيا بالإشارة إلى أن درقتها الكبيرة قد يستعملها صياد السمك كزورق ، فربما كان  
استيلاء السلاحف البحرية بكثرة ، موسميا عند خروجه إلى البر فى موعد وضع البيض (١) .  
ومعنا لا بأس من الإشارة إلى أن لم « الثرسى » وهى السلحفاة البحرية فى الاسكندرية ، كان  
يباع كالحم البتر ( عبد اللطيف البغدادى ، وكتاب الافادة والاعتبار ، ص ٨٤ ) . وأنظر  
عن السلاحف البرية التى تبالغ الروايات فى ضخمتها على طريق تيرافى بالسودان ، والتى  
ينبشى التفرد بينها وبين سلاحف جزيرة أيوى البحرية ، وإن كانت رواية الاستبصار تشير  
إلى أنها كانت تؤكل أيضا - البكرى ، ص ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٢ - حيث الإشارة  
إلى أكلها وهو ما لا يذكره البكرى ، ولا تصرف أن كان الحظ قد وقع استنادا إلى أكل لحوم  
السلاحف البحرية فى أيوى وساحلها أم لا (٢) .

### ثدييات اقليم الساحل :

واقليم الساحل العشبى ( السافانا ) هو اقليم الحيوانات الثديية بالامتياز ، ومنه يمكن أن يتسرب بعضها شمالا الى الصحراء أو جنوبا الى السودان ، بل وحتى الغابة الاستوائية • ومن تلك الثدييات : السنور والذئب ، والفهد والتطط الوحشية ، والأسود وأنشور ، الى الفأر والحنزير الوحشى والوعل ، والثردة والفيل ( الافريقى ) ، وفرس النهر ، والبقر •

ونموذج البقر هو النور الذى يوجد منه فى المنطقة ٣ ( ثلاثة ) أنماط ، أولها : الثور ذو القتب ، من حيث انه تعود على الجفاف وأصبح سباحا للموطن ، بل وأمكنه الاستقرار خارج النطاق العشبى ( المستقر ) وذلك فى جنوب الصحراء (٩٤) •

وهكذا يمكن أن نفهم كيف كانت الماشية من الغنم والبقر كثيرة فى أودغست ، رخيصة الثمن كما كانت أيائل اللط كثيرة بالمنطقة (٩٥) •

والنوع الثانى من البقر ، هو الثور الحامى ذو القرنين الكبيرين ، وهو أصلا من وادى النيل من سلالة الأوروك (Aurocks) الذى اندفع جنوبا الى السودان وأعلى النيل وغربا الى شمال أفريقية حتى مراكش - انه المعجل أبيس (Apis) الذى انقرضت سللته من أوروبا بعد أن كان يعيش هناك فى الصور الوسطى •

أما النوع الثالث فهو الذى يعرف بـ « الأزواق » كما يعرف أيضا بـ « المربى » فى شرق جوره وفى النيجر ، وهو أصغر حجما من ذى القتب ، ويعطى اللبن ، ويستخدمه الطوارق بالصحراء والهومة بالسودان فى

---

(٩٤) مولار ، ص ٥٣ • هذا ، ولا بأس من الإشارة الى ان هذه القائمة من الحيوانات من متوحشة ومستأنسة توجد فى تقاليد القمامة من القرطاجينى ( هنونون ) الى اليونان ( هرودوت ) والرومان ( أميان مارسلان ) ، وانظر جوتييه ، مافى شمال افريقية ، ص ٤٨ - ٤٩ ( عن التماسيح وفرس النهر ) ، وص ١٩١ - ١٩٢ - حيث التماسيح البرية ( الورل : Lezards ) ، والفهد والتطط والبقر والفيل ، ص ١٩٤ - حيث أول ذكر للفيل عند بلينهم (Pline) ، وص ١٩٤ - ١٩٥ - حيث انتشار الفيل فى طرابلس ، الذى استعمله الرومان فى حمل المون حسب رواية ماركسلا •

(٩٥) البكرى ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، وقارن الاستيصار ، ص ٢١٥ •

الركوب (٩٦) ، كما كان يستخدم في السودان الشرقي في القتال أيضا كالخيل والجمال (٩٧) .

وفي عالم الطير لا يلفت نظر البكرى الا نوع من الحمام واليمام صغير الرأس ، غليظ المناقير قرب أودغست ( ص ١٥٧ ) ، أما عن النعام ، أكبر الطيور وأسرع الدواب ، والذي كان يصاد في الصحراء ، بل ويربى في الواحات في القرن الـ ١٠هـ / ١٦ م حسبما ينص الحسن الوزان (٩٨) ، فلا ذكر عند البكرى لشيء من ذلك ، ولا يأتي اسمه الا عابرا . والمعروف حاليا أن بافريقيا حوالي ٢٣٠٠ نوع من الطيور (٩٨ م) .

أما عن السودان فعالم مختلف تماما ، حيث الحبول القصيرة جدا في غانة (٩٩) ، الى جانب فرس النهر الذى يشبه الفيل في ضخامته وأنيابه ، وفي خروجه من النهر للرعى ثم العودة الى الماء . وكان يتم اصطياده بالمزاريق والمبال لأكل لحمه واستخدام جلده في عمل السياط المبرومة ، المعروفة بذهب الغار ، والتي كانت مطلوبة في جميع البلدان (٩٩ م) .

واشتهرت بلاد السودان بالأفاعى الضخمة ذات الجلود المبرقشة ، التى كانت تتخذ منها بعض الملابس ، كما كان بعضها موضح التجميل ، بل والتقديس ، مثل الكيش حسب عقيدة الطوطمية ، كما قد يظن ، وان رأى البعض أن الكيش رمز لعبادة آمون (١٠٠) .

ومن الطيور عرف في السودان ذلك الطائر الذى يشبه الخفاف ، والذي كان يطير في مدينة بوغرات وهو يصوت بـ : « قتل الحسين » قتل

(٩٦) مولار ، ص ٥٣ .

(٩٧) أنظر المسعودي ، ج ٢ ، ص ٢ - ٥ .

(٩٨) ليون الإفريقي ، الترجمة ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ - حيث صيد اللحم والنعام بالاشراك في موريتانيا ، وص ٤٩٢ حيث تربية طيور النعام في ددعه ، ووصف لحمه بأنه قاس له رائحة مفررة لا سيما الفخذ اللزج .

(٩٩) دائرة معارف ليكسينكون يونيفرسال ، إفريقيا (Africa) ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٩٩) البكرى ، ص ١٧٧ .

(٩٩) البكرى ، ص ١٧٣ .

(١٠٠) البكرى ، ص ١٧٣ ، وقارن الاستيصار ، ص ٢١٨ ، (عن تجميل الحية بالسودان) ، وعن عبادة الكيش . أنظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٩٥ - حيث النص على أن عبادة الكيش التى عرفت قديما في توات تعني عبادة صنم له رأس كبش يمثل الآلهة المصرية آمون .

الحسين ، عدة مرات ثم يقول « يكريله » مرة واحدة ، الأمر الذى قد يعنى بوجود جالية عربية شيعية لاجئة فى ذلك الموضع (١٠١) .

### الثروة المعدنية :

وأول معادن الصحراء الشهيرة فى القرون الوسطى ، هو الملح الصخرى الذى كان يستخرج من المناجم ، كما تستخرج سائر المعادن ، فى كتل شبيهة بالحجارة . وأشهر مناجم الملح اثنان : أحدهما فى قلب الصحراء فى تانتال ، بأول إيجابة ( المغازة ) فى أول الطريق الى سجلماسة ، على بعد ٣٠ ( عشرين ) مرحلة ( ٨٠٠ كم ) منها . والمنجم الثانى الذى يقع على شاطئ الأطلس فى موضع أوليل من بلاد جدالة ، غير بعيد عن جزيرة أبونى ( جزيرة السلاحف البحرية ) (١٠٢) .

وكان معدن الحديد فى جبل أزور ، على طريق تامدلت - أودغست (١٠٣) ورربا كان أيضا فى جبل الحديد المعروف بـ « أدرار » ان وزال (١٠٤) .

أما النحاس فمنجمه غير بعيد من إيجلى التى كان يسبك فيها على سفوح جبال أطلس ( درن ) (١٠٥) ، وكانت الفضة فى أرض تامدلت ، حيث اشتهر منجمها بوفرة الإنتاج (١٠٦) .

هذا ، كما وجدت فى جبل هزرجه ، فى أول طريق أغمات - أودغست ، أنواع من الياقوت الجيد ، الحسن اللون ، الشديدة الصلابة حتى يكمل حجر السنداج عن ثقبه (١٠٧) . وفى طريق تادمكة - غدامس كان يوجد حجارة

(١٠١) البكرى ، ص ١٨١ ، وانظر أيضا ص ١٨٣ - حيث النص على أن أهل مملكة أولوا سمو بهذا الاسم لأن ذلك ما يفهم من تسمية طيلهم .

(١٠٢) البكرى ، ص ٧١ - ٧٢ - حيث الإشارة الى أن المسافة من نول لطة على ساحل السوس الجنوبي الى أوليل تقدر بـ ٦٠ ( ستين ) يوما ( ٢٤٠٠ كم ) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر فيدح (Fage) مقدمة لتاريخ غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٩ - حيث الإشارة الى موجودات الملح الصخرى فى الصحراء ، فى مواضع تنفاذى (Taghaza) وتاودينى (Taodeni) ، وبانوك (Taouk) - وذلك بعد النهر المراتبى .

(١٠٣) البكرى ، ص ١٥٦ - حيث يوجد فى شكل قضبان لا تذيبها النار .

(١٠٤) البكرى ، ص ١٦٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث النص على « جبل

الحديد » ، وإن لم يحدد ان كان به حديد أم لا .

(١٠٥) البكرى ، ص ١٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(١٠٦) البكرى ، ص ١٦٣ .

(١٠٧) البكرى ، ص ١٥٣ ، وانظر جودة حسنين وحسن أبى العيّن ، سطح هذا =

شبيهة بالعقيق تسمى « تاسر النسمت » ، ربما كان في الحجر الواحد عدة ألوان ، من : الحمراء والصفرة والبياض . وهي الى جانب جمالها تتميز بالصلابة الشديدة لا تتأثر بالحديد ، اذ لا تجلي ولا تنقبض الا بحجر « نتواس » (١٠٨) . وفي هذه الصحراء يوجد الشب الأبيض الطيب ، الذي يصدر الى كثير من البلاد (١٠٩) .

والى تلك الحيرات الطبيعية يضاف عنبر جزيرة أيوني ، على ساحل المحيط في بلاد جداله (١١٠) ، كما وجدت بوادي درعه حجارة التامضفيت ( الاسبيستوس ) التي تقزل خيوطا كالكتان ، وتصنع منها الأبرسة والقيود للدواب ، مثلما تنسج منها الثياب والمناديل التي لا تؤثر فيها النار (١١١) .

هذا عن معادن الصحراء ، أما السودان فعالم وحده ، فهو بلاد الذهب بالامتياز حيث التبر جزائيا في متناول الجميع بلا حساب ، بينما الحديد وأنواع من الصلف والحرز هي حل النساء التي ترتفع أثمانها الى ما يوازي وزنها من الذهب ، ومثل هذا يقال عن الملح الذي كان عزيزا الى حد التعامل بقطعه أحيانا ، بدل النقود .

أما عن نسيج الاسبيستوس المتخشف من حجارة وادي درعه ، والذي

---

= الكوكب ، ص ٩٩ - حيث مقياس صلابة الصخور الذي يتفوق الى ١٠ ( مقر ) درجات اولاما : ١ وهي صلابة التلك (Talk) ، وآخرها ١٠ ( عشرة ) وهي صلابة الماس . (١٠٨) البكري ، ص ١٨٢ ، وقارن الاستحصار ، ص ٢٢٥ - حيث اسم الحجر « نتواس » وأنظر جودة حسنة وحسن أبو المينج ، سطح هذا الكوكب ، ص ٨٤ - عن الألوان حيث النصر على أن ألوان الصخور تتوقف على التركيب الكيماوي الأصلي ، وعلى نظام الأيونات والذرات في البلورة .

(١٠٩) البكري ، ص ١٨٣ ، وقارن الاستحصار ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) البكري ، ص ١٧١ ، وقارن الاستحصار ، ص ٢١٥ .

(١١١) البكري ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وقارن الاستحصار ، ص ٢٠٧ - ولا بأس من الإشارة الى أن مثل هذا النسيج المضاد للحريق كان يستخدم في صنع بقايا مقفلة تنسب للسيد المسيح ويترقب بها الى بعض ملوك القسطنطينية أو غاليسيا ( الجلالة ) بالاندلس . حيث الفريخ الجبل لسان جان دي كومبوستل . وعن معدن الاسبيستوس . انظر جودة حسنة وحسن أبو المينج ، سطح هذا الكوكب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - حيث يصف معدن الاسبيستوس الصخرى ، ضمن أنواع صخور السيلكات التي تمثل ١/٢ الماهن في الطبيعة ( ص ١١٦ ) ، وهي من الذرع المعروف باسم ( الثمبانية : Serpentine ) من حيث تأخذ شكل كتل حبيبية أو صفائحية في هيئة ليفية ، والنوع الأخضر منه هو الصخر اسبيستوس (Asbestos)



لا تؤثر فيه النار ، فكان يدله في السودان يستخلص من نبتة في بلاد  
الدمدم ، توصف بأنها شجرة ذات ساق طويل تسمى توويريرى ، لها ثمرة  
كبيرة منتفخة ، داخلها صوف أبيض يفزل وتصنع منه الثياب والأكسية  
التي لا تؤثر فيها النار ، فكانه قطن معدنى - وهى من العجائب (١١٢) .

من هذا العرض لثروات الصحراء الافريقية الكبرى من بشرية  
وطبيعية ، تصح مقولة شعيرة ( محمد عبد الهادى ) التي يرددها بقوة  
عن جوتييه (Gautier) الذى كان يستوحى ابن خلدون ( فى العمران ) ،  
والتي تتلخص فى أن الصحراء الافريقية فى المصور العربية الاسلامية  
الوسطى كانت تنبض بالحياة والثراء ، على غير ما عليه الصحراء البائسة  
التي نعرفها اليوم .

فقوافل الجمال العظمى التي كانت تجوب الصحراء واردة وصادرة من  
أقصاها الى أقصاها ، كانت تقوم بنفس الدور الحضارى الذي قامت به  
السكك الحديدية الحديثة والتي تقوم به خطوط الطيران الحالية بين أطراف  
العالم لتضخ فيها الحركة والحياة . كذلك كان الأمر بالنسبة لقوافل الجمال :  
سفن الصحراء المهددة - بشئ من المبالغة - لسفن الفضاء .

---

(١١٢) الاستبصار ، ص ٢٢٥ ، وانظر دائرة معارف ليكسبون يونيفرسال ، ١٩٧٥ ،  
ج ١ ، افريقيا : (Africa) ، ص ١٤٢ - حيث تعتبر افريقيا الجنوبية الشهيرة بمادنها من الماس  
والذهب ، ثاني أكبر منتج للاسبستوس فى العالم .



## الفصل الثاني

### قبائل الجماعة الملتصين بالصحراء الكبرى قبيل قيام دولة المرابطين

#### النظم السياسية والحياة الاجتماعية :

##### تمهيد :

المعروف أن اقالم شمال أفريقيا العامرة كانت تقطنها مجتمعات البربر - الآسيوية الأصل - منذ العصور القديمة ، بينما كان يسكن الصحراء جماعات السود ، الأفريقيون حفيقة ، الذين عرفوا عند قدماء الكتاب من اليونان والرومان باسم الآثيوبيين أى الأحباش ذوى البشرة السوداء ، وانذين كانوا يقعون تحت ضغط اهل الشمال البيض<sup>(١)</sup> .

والحقيقة انه منذ بدأت هجرات شعوب البحر المتوسط ، من فينيقيين ( قرن ٨ ق م ) ، ويونان ( قرن ٥ ق م ) ، ورومان ( قرن ٣ - ١ ق م ) ثم واندال ( قرن ٥ - ٦ م ) وبيزنطيين قبل العرب ، سواء للاستيطان أو التجارة أو الفزو فى شمال أفريقيا ، ازدادت حركة زحزحة السودان من الشمال الى الجنوب ، فحل البربر المفازية مكان السود الأفارقة فى الصحراء بشكل مضطرد ، تبعا لضغط المستعمرين الجدد فى الشمال أو من دخل فى خدمتهم من البربر الذين كانوا يطلبون العبيد السود ، عماد الطبقة العاملة

---

(١) هاينز (Haynes) طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث ينص هيودوت على ان المرمنطين فى فزان كانوا يستخفون عربات تجرها الخيل فى صيد الآثيوبيين من التبو (Tbbou) - اهل تيبستى ، وانظر ماكليدى ، أطلس التاريخ الأفريقى ترجمة السويلى ، ١٩٨٧ ، ص ٣٥ - حيث الإشارة الى وجود ٥ ( خمسة ) أجناس متمايزة فى افريقيا ، منها ٤ ( أربعة ) لا مثيل لها فى القارات الأخرى ، وهم : الزنوج ، والشعوب النيلية الصحراوية ، والأقزام ، ثم اليوشن : وانظر فيدج ، تاريخ غرب افريقية بالانجليزية ، ص ١٤ - حيث الإشارة الى راي ديلاكوس الذى يقول ان الهجرة البربرية الى بلاد السودان بدأت بعد فترات اليهود ضد الامبراطورية الرومانية فى برقة (Cyrenaica) فى القرنين ١ ، ٢ م ، وفى الجنوب والغرب كان الاستقرار بين جماعات السونيك (Soninké) بين موقع تيمبوكتو ومسينا .

فى تلك المصور (٢) \*

ولكن حلول البربر البينى مكان الاحباش السود ومزاحمتهم لهم فى الصحراء ، ظل محدودا فى نطاق الشمال حيث حزام الواحات ( فى بلاد النخل ) ، عند اقدم جبال أطلس الصحراوية بشكل عام . وهكذا كانت قبائل الصحراء متناثرة فى جماعات صغيرة ، تبعا لتناثر الواحات وموارد الماء ، وصعوبة وسائل الاتصال التى كانت تعتمد على العربات التى تجرها الثيران (٣) \*

والهم أن وسائل المواصلات فى الصحراء ظلت محدودة المدى ، وباعطة التكاليف الى ما بعد دخول الحصان الواحد من المشرق فى الألف الأول ق.م. تقريبا ، والذي لا يستطيع العيش الا فى الواحات حيث الملف والماء (٤) . أما عن دخول الجمل الى بلاد المغرب والصحراء اعتبارا من أوائل التقسيم المسيحى ، فقد كان بمثابة انقلاب ، ليس فى وسائل المواصلات بالصحراء فقط ، بل وفى تكوين جماعات عرقية كبيرة العدد ، أشبه باتحادات قبلية ضخمة من أصحاب الجمال الذين استطاعوا إخضاع غيرهم من ضعفاء الفلاحين ، ورعاة الشاة والماعز ، وإقامة الامبراطوريات الكبرى ، اعتمادا على قطعان جمالهم التى صارت وقتئذ بمثابة فرق العربات المدرعة والسريعة

---

(٢) انظر ، هاينز ، طرابلس فى المصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ٢٥ - ٢٦ ( عن اللاتينيين واليونان ) ، ص ٢٦ - ٢٤ ( عن روما وقرطاجنة ) ، ص ٢٦ ( عن الحدود الرومانية ) ، ص ٦٦ - ٦٢ ( عن الوندال والبيزنطيين والانتصار على الليبيين ، وأقرار الأمور حتى الفتح العربى ) ، وقارن ماكجيفى أطلس التاريخ الاثري ، الترجمة ، ص ٥٥ ، وقارن ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٠ - حيث النص على أن صناعة الصحراء ( فى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م ) فى كثير منم ألوان حسنة ومطامن خائفة حتى يأخذوا فى جهة الجنوب فتستحيل الوافهم وأفسادهم ( لى السواد ) ، وانظر ص ١٠١ - حيث الإشارة إلى ما يقال من أن بنى تانك ، ملوك تانكة ( شرق أودغست ) والقبائل المنسوبة اليهم ، أصلهم سودان أبيض أبيضهم - كناية عن تأثير البيئة فى لون البشرة .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٤ ، والهلعش على ص ١٦ وشكل ١ عن هاينز - حيث العربات التى تجرها الجمل .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٤ ، هاينز ، طرابلس فى المصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ٩٥ - حيث الإشارة إلى صور عربات الجمل المرسومة على الصحراء قديما ، مع المقارنة مع تقرير الكاهن ليون - رسالة القرن ١٩ - الذى يشير إلى متاعب الجمل فى الصحراء حيث كان كل حصان فى حاجة إلى جمل ليحمل له الماء فقط ، دون الملف من الصمير والتمر .

الحركة ، حديثا ، فحققت لهم تفوقا ساحقا على غيرهم من أهل الواحات وصغار البدو .

وهكذا كان الجمالة من صنهاجة قد حققوا النصر على السودان في الصحراء ، ووصلوا في القرن الرابع الميلادي جنوبا حتى ثنية النيجر ، وغربا حتى نهر السنغال حيث أقاموا مدينة غانة التي ستتحول الى مركز مزدهر لتجارة السودان ، وذلك غير بعيد من الموضع الذي ستحل فيه كل من جنه (Jenne) وتيمبوكتو ، فيما بعد<sup>(٥)</sup> .

اما عن أول ظهور لهؤلاء المحاربين من يرير البدو الجمالة في شمال افريقيا ، فكان أثناء الصراع ضد البرابرة ( الآخر ) من الواندال ، فلقد تحصن المغاربة ( الموريتانيون ) داخل دائرة من الجبال مكونة من ١٢ ( اثني عشرة ) صفا من الابل ، في وسطها النساء والأطفال والأموال ، بينما وفن المقاتلة منهم بين أرجل الجبال العالية ، وانتهت المعركة بخسارة الوندال الذين فزعت خيولهم خوفا من الجبال الغريبة المظهر . ومثل هذا حدث فيما بعد عندما التقى المغاربة مع جيوش بيزنطة بقيادة سولومون . فلقد فزعت خيول الروم ، وشبت على قوائمها ليقع الفرسان من على ظهورها ، وللا ينقذهم من الهزيمة الا ما لجأ اليه القائد البيزنطي من الأمر بنزول الفرسان عن ظهور الخيل لكي يحاربوا رجالة ، حيث نجحوا في اختراق صفوف الجبال . وعن هذا الطريق تحقق لهم النصر على الموريتانيين<sup>(٦)</sup> .

وهكذا كان دخول الجمل الى صحراوات المغرب بمثابة ثورة اقتصادية واجتماعية وفي النهاية سياسية . فلقد قصر الجمل المسافات ما بين الواحات في أطراف الصحراء وأدى الى سهولة التبادل التجاري ما بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، كما أدت سهولة المواصلات الى نشأة قبائل بدوية كبيرة ، مثل : البتر والبرانس وصنهاجة وزناتة وهي في الحقيقة اتحادات قبلية تنتشر في كل البلاد ، وتصل الى مستوى الشعوب ، كما يقول ابن خلدون ، وتؤسس العصبية قاعدة قيام الدولة كما يرى<sup>(٧)</sup> .

(٥) مولاي ، غرب إفريقيا ، بالفرنسية ، ص ٦٠ .

(٦) أنظر ج ١ ، ص ٨٦ ، وفارن جوتييه ، ماضي شمال إفريقيا بالفرنسية ، ص ١٩٥ .

(٧) القصة ، فصل ٨ في أن العصبية إنما تكون من التحام النسب ، ط التجارة ،

ص ١٢٨ وما بعدها .

هذا ولو انه منذ دخل العرب بلاد المغرب وصحراواتها في مطلع القرن السابع الميلادي لم يعرفوا لهم خصوما من البدو الجمالة ، وان طالبت المقاومة على غير ما حدث في الفتوح الأخرى . الأمر الذى يفسره ان لقاءات الفتح في المغرب وقعت على طول الطريق التاريخي ، فى مواطن العمران ما بين برقة وفاس فى المغرب الأقصى . وهذا يعنى أن الجمالة من رعاة الإبل المنساربة كانوا قد انسحبوا جنوبا الى الصحراء أمام قوات الامبراطورية البيزنطية منذ حملة بليزاريوس واسترداد البلاد من أيدي الوندال . ومن الواضح أنهم كانوا قد رضوا بحياة العزلة جنوبا وراء رمال الصحراء ، مجاورين لبلاد السودان ، شبه الصحراوية ، مكتفين بأعمالهم السلمية فى خفارة الطريق ونقل المتاجر على جمالهم . واذا كان ابن خلدون ينص على أن جمالة صنهاجة الملتصين تركوا الأقاليم الحصينة الشمالية الى ما وراء الرمال ، وأبعدوا عن القفر جنوبا مجاورين لريف الحبشة ( السودان ) ، منذ دهور لا يعرف أولها ، فان ذلك لا يعنى أكثر من عدم معرفة : كيف ومتى حدثت تلك الهجرة (٨) . والحقيقة أن هناك رواية أخرى فى الإدريسي ، تقول ان قبائل « لحظ وصنهاج » ، كثر نسلهم ( فى المغرب ) وتسلبوا على الأمم ، فاجتمع عليهم قبائل البربر فازعجهم الى الصحراء المجاورة للبحر المظلم ( المحيط الأطلنطي ) فنزلوها الى الآن . وتفسر هذه الرواية امكانية هذه الهجرة على أساس ان قبائل صنهاجة : « أصحاب ابل ونجب عتاق ، رحالة » (٩) . والحقيقة أن الجمالة الملتصين فى صحراوات شمال افريقيا ينقسمون الى جماعتين كبيرتين أولاها : غربية تتكون من صنهاجة اللثام على شواطئ المحيط ، والثانية شرقية ، تتمثل فى جمالة اقليم الحجار ( الهقار : الأحجار ) وتيبستى وادار وتشاد (١٠) . وهؤلاء الآخرون يتميزون عن الصنهاجيين بطول القامة وسواد البشرة ، بمعنى أن نسبة أكبر من الدم الأسود تجرى فى عروقهم ، ولهذا فهم ينسبون الى جماعات التبو (Tebbou) السودانية ، حيث يعتبر وجودهم فى تلك المناطق المنزلة من الصحراء الكبرى ، دليلا على سكنى الصحراء بجماعات السودان ، قبل سيادة الجمل

(٨) انظر البربر ، ج ٦ ص ١٨١ .

(٩) المغرب العربى ، نشر محمد صادق ، ص ٧٤ .

(١٠) جوتييه ، ماضي شمال افريقية ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠ ( عن الملتصين من شرقيين وغربيين ) ، وقانون مولاي ، ص ٦٠ . عن اجداد صنهاجة البيطى المختلطين بالسود من القديم ، ورسالتهم من المغاربة ( المور : Maures ) ومن الطوارق فى الوسط .

### على الصحراء الكبرى اعتبارا من القرن الثالث الميلادي (١١) .

والهم أن سيادة الجمل في أول الأمر كانت على طرق التجارة التي ترفد بلاد المغرب بخيرات بلاد السودان ، وخاصة العبيد السود والذهب ، مما كان ينمش دويلات المغرب المستقلة ، اعتبارا من بداية العصر العباسي . فلا شك أن خيرات السودان هي التي دفعت القوات الأموية من أهل الشام الموجودين على حدود بلاد المغرب ، إلى الهجرة نحو غانة ، عندما تأكدوا من سقوط دولتهم في المشرق . فهناك رواية للدريسي تقول إن ذرية هذا الجيش الأموي كونت جالية عربية في غانة ، عرف أهلها باسم « الهنبيين » الذين اشتهروا ببياض البشرة وبأنهم يحافظون على تقائهم العرقى فلا يتزاجون مع أهل البلاد السودان الا بحساب (١٢) . ولاشك أن دخول عرب الشام الأمويين إلى غانة في ذلك الوقت المبكر ، يعتبر من الأحداث الهامة في طريق نشر الاسلام في تلك البلاد . وتبع ذلك اهتمام دول المغرب المستقلة منذ العصر العباسي بالمعاملات التجارية مع السودان الغربي . فبنو حبيب ( الفهريون ) اهتموا برعاية الطرق التجارية وتمهيد الوعر منها ، وحفر الآبار - وهي محطات المياه التي يمكن أن تشبه بمحطات البنزين حاليا ، على طول تلك الطرق (١٣) . أما الأغالبة ( التميميون ) ، خلفاء بني حبيب في تونس ( المالكية ) فلقد اعتمدوا على فرق المماليك السودان ، منذ بداية أمرهم ( ج ٢ ص ٣٣ ) بينما أخذت امامة بني رستم ( الأباضية ) في الجزائر شكل جمهورية تجارية كان الأئمة يشاركون في نشاطهم مع بلاد السودان من حيث كان يتدفق الذهب حتى صارت عاصمتها تاهزت مدينة عالمية يؤمها التجار من كل البلاد ( ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ) . هذا ، كما كان لدولة الأدارسة ( الزيدية ) في فاس اهتمامات خاصة بذهب السودان ( فيما بعد ، ص ١١٣ ) وكذلك الأمر بالنسبة لدولة بني مدرار ( الصفرية ) في سجلماسة ( ج ٢ ص ٤٠٩ ) التي بلغ الأمر بأمراتها إلى حد اتخاذ اللقب

---

(١١) اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص ١٨ ( عن التبوتم الزمنة غارة في جبال تيبستي ) ، ص ٣٤ ( عن الرجل البدوي ، ضامر الجسم ، مرتفع القامة ، ذي القعدة على تحمل العطش والجوع والتعب ) .

(١٢) الكبرى ، ص ١٧٩ ، الاستبصار ، ص ٢٢٢ .

(١٣) أنظر فيما سبق ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث الإشارة إلى أن الطريق الوعر الذي يسير في الصخر من درعه إلى وادي ترجا ، على طول ٥ ( خمسة ) مراحل ( حوالى ١٧٥ كم ) إنما هو أعجوبة من عمل القضاة ( الأوائل ) ، ولو أن البعض يزعم أنه من عمل ملوك بني أمية ( أي الأندلسيين على ما نظن ) .

المخلافى وكانهم منافسون جدد للخلافة الفاطمية ، حتى أصبحت دنانيرهم « الشاكارية » مضرب المثل بين النقاد المغربية من حيث : دقة السك وعيار الذهب ( ج ٣ ص ٢٣٣ ) .

والى جانب التنافس فى جلب ذهب السودان وماليكه كان لتجار دول المغرب هذه ، جهودهم فى نشر الاسلام على مذاهبهم المختلفة فى بلاد السودان ، فكان طرق التجارة الصحراوية كانت فى نفس الوقت طرق الحضارة والثقافة ، وكان التاجر المسلم ، بصرف النظر عن مذهبه ، كان الداعى الى نشر مبادئ الاسلام دون تفريزات مذهبية . وهكذا يسجل ابن حوقل ( حوالى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م ) أنه كان من قبائل صنهاجة الصحراء من يعتنق التشيع كاهل السوس ، ومنهم من كان يأخذ بأراء المعتزلة وينهج نهجهم فى العلم مثلما كان يفعل الخوارج ( الشراة ) أيضا ، الذين تميزوا بقوة التدين والتمسك بأهداب العقيدة (١٤) . والذى يلفت النظر هنا ، أنه اذا كان الادب التاريخي والجغرافى يمكن أن يكون مفيدا فى تتبع أخبار انتشار الاسلام فى بلاد السودان منذ وقت مبكر ، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتشار الاسلام فى الصحراء المغربية ، وهو ما يفهم بسبب قلة المراكز العمرانية فى الصحراء ، الى جانب طبيعة الحياة البدوية الصعبة ، وهموم مشاكلها اليومية التى لا تفسح الوقت لكثير من التامل فيما وراء الطبيعة . وهكذا تنص رواية لابن خلدون على أن موطن قبائل لتونة كان يعرف باسم كاكدم ( قاقدم - جاجدم ) فكانه فى الصحراء السودانية ، حيث عرفوا الاسلام بعد فتح العرب الأندلس ، أى اعتبارا من القرن الثانى الهجرى (١٥) . هذا ، ولو أنه توجد رواية أخرى لابن خلدون تنص على أن دخول الملتنيين فى الاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى ( ٩ م ) ، حيث بدأوا يجاهدون جيранهم ممن لم يسلموا ، الأمر الذى تؤيده تفصيلات تاريخ ملوك الملتنيين حتى القرن الرابع الهجرى ( ١٠ م ) (١٦) .

(١٤) صورة الأرض ، ص ٩٩ - ويظهر اثر الفكر الشيعى المنتشر فى بعض اناليه السودان فيما يقال من احدى مدن السودان ، وهى بوغرات التى كانت تسكنها قبيلة مراسة الصنهاجية ، من أن بعض الطبر فيها كان يفهم من سوتة « قتل الحسين » بايقاع متكرر بينهما كانت تأتى « بكربلاء » بعدها فى لقرة ( مرة ) واحدة ( انظر الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث تنسب تلك الرواية الى « الفقيه عبيد الملك » الذى ربما كان يتشيع ) .

(١٥) المعبر ، ج ٦ ص ١٨٩ ، الأمر الذى تؤيده أعمال ابن حبيب فى اصلاح طرق التجارة الصحراوية ، وانظر ما يأتى ، ص ١٠٩ .

(١٦) المعبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ .



ومنذ ذلك الوقت وحتى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كانت جماعات من البربر المسلمين تستقر في إقليم ادرار وتاجنت (Tagent) والحوض (Hodh) وتستخدم الزنوج في استغلال مناجم الملح (١٧) ، فكان أحداث الصحراء الجنوبية لم تعد تنفصل عن وقائع السودان منذ استقرار الفتوح في الشمال الأفريقي .

### النظم الاجتماعية - السياسية :

#### القبائل والمواطن وطرق المواصلات :

فيما يتعلق بالتراتب الاجتماعية والسياسية لا تسعفنا المصادر الا بالقليل من المادة الأولية اللازمة لرسم صورة تقريبية لما كانت عليه قبائل الصحراء من حيث : التقسيمات الاجتماعية ، ابتداء من الوحدة الصغرى المثلة في البيت أو الأسرة أو العائلة ، وما يتلوها من تراكيب اجتماعية أخرى مما يعرف عند العرب بالمشائر والأقخاذ والبطون ، وانتهاء بالتجمع الأكبر وهو القبيلة ، وما قد يتلوها من اتحادات بين القبائل المختلفة ، التي تحمل عادة اسم القبيلة صاحب القيادة والهيمنة . وفي ضوء هذا الترتيب المنهجي الذي عرفته قبائل العرب ، والذي يظهر بوضوح في ذلك النسق من التاريخ العربي المعروف باسم علم الأنساب ، الذي اقتدى به نسابة البربر ، بلغت عدة قبائل صنهاجة من الملتئين ، حسب احصاء ابن أبي زرع ( قرن ٧ هـ / ١٣ م ) الذي أخذ به ابن خلدون ( قرن ٨ هـ / ١٤ م ) ، ٧٠ ( سبعين ) قبيلة (١٨) ، بينما كان المشهور منها عند قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م خمسة : هي لمتونة ولطة ، ومسوفة ، وجداله وجزولة ، يمكن أن تختصر الى ٣ ( ثلاثة ) فقط ،

(١٧) أنظر فيج ، غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ١٤ .

(١٨) القرطاس ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، البر ، ج ٦ ، ص ، ولادن ابن حوقل ( منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ هـ ) الذي يعد منهم ٤٥ قبيلة ، منها ١٩ ( تسعة عشر ) من القبائل الخلفى ٣٦ ( ست وعشرين ) قبيلة يشتهر في صفة نسبها الصنهاجي ، وأنظر حسن احمد محمود ، المرابطون ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث تجميع أسماء قبائل الملتئين ، من قدامى الكتاب والمحدثين - دون التزام بالترتيب الزمني ( التاريخي ) أو القيمة الوثائقية - من كل من : ابن حوقل ، والدمشقي ( نسبة البحر في عجائب البر والبحر ) ، وباسية (Basséf) ، واليزيري ، والبكري ، وابن خلدون ، والادريسي ، والبيدق ، وكولان ، وجولياني ، وديومين ، والحلل .

اذ اندمجت كل من الأولى والثانية تحت اسم لتونة ، والرابعة والخامسة تحت اسم جدالة ( ما سبق ، ص ٦٩ ) • هذا ، كما يمكن أن تندرج القبائل الخمسة تحت اسم لتونة ، دون غيرها ( ما سبق ، ص ٧٠ ) وان كان الدارج في تأسيس دولة المرابطين. الحاق مسوفة بلمتونة ، تماما كما يلحق - في التفرية الهلالية - عرب بنى سليم بعرب بنى هلال ، وان كان. الذكر في « التفرية » للهلالية دون غيرهم •

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن من بين غزوات العرب للمغرب كانت الهجرة الهلالية أشدها تأثيرا في قلقة القبائل المغربية ، وتوجيه الجمالة منها نحو الجنوب حيث ضربوا نطاقا حول سهوب السودان ، جنوبي الصحراء ، في مقابل النطاق الذى صار للعرب الهلالية الخيالة حول بلاد النخل في شمال الصحراء ، وان تطلب هذا الأمر عدة قرون لكى تؤول خريطة المغرب العرقية الى ذلك الشكل فى القرن الثامن الهجرى/ ١٤ م على عهد ابن خلدون(١٩) :

وهكذا فمن طريق اتحاد قبائل الجمالة الملتصين تحت هيمنة احدها : لتونة كانت أو مسوفة ، كان يمكن لرئيسها اقامة امبراطورية كبرى على طول البلاد وعرضها ، ما بين المغرب والسودان ، انشبه ما تكون بامبراطوريات السهوب الآسيوية ما بين الصين شرقا وايران غربا(٢٠) • وكان من الطبيعي أن تكون امبراطورية الملتصين الافريقية ، دولة تجارية تنقل المتاجر واسباب الحضارة ، وتجنى الأموال ما بين الجنوب السودانى والشمال الأفريقى ، تماما مثل امبراطوريات فرسان آسيا الوسطى ، حيث طريق الحرير الذى كان عامرا بفضل الجمل الآسيوى ذى السنمانين •

واذا صححت رواية ابن خلدون عن أن لتونة كانت تقطن منطقة كاكدم ( السودانية ) عندما دخلت فى الاسلام فى مطلع القرن الـ ٢ هـ / ٨ م ، بمع

(١٩) البر ، ج ٦ ص ٧ •

(٢٠) انظر ابن خلدون ، ص ٩٧ - حيث ينص على انه كان لقبائل الملتصين في قلب البر في أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، « ملك يملكهم تكبره صنهاجة » وسائر تلك الديار ، لانهم يملكون تلك الطرق ( ما بين أودغست وسجلماسة ) وحيث انهم أهل « البسالة والجرأة والفروسية على الأبل ، والحفة في الجرى والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والدلالة على مياهه ، وقارن عن الترك والمنول فرسان السهوب » وبنية جروسية ، امبراطورية السهوب (R. Grousset, L'Empire des Steppes) ، بالفرنسية ، للخدمة ، ص ٧ وما بعدها •

فتح الأندلس ( ما سبق ، ص ١٠٦ ) ، فلا بأس أن يكون ذلك قد تم عن طريق حملات عبد الرحمن بن حبيب ، أمير أفريقيا التونسية ، الوافد من الأندلس ( ١٢٦ - ١٣٧ هـ / ٧٤٤ - ٧٥٥ م ) ، الذى يذكر له الاهتمام بطريق التجارة الى السودان ، من تمهيد وامداد بمحطات المياه ( ٢١ ) ، وعلى العكس من أعمال عبد الرحمن بن حبيب التى نشطت تجارة السودان ، وأفادت قبائل المثلثين ، كان لبناء مدينة سجلماسة ( الصفرية ) قريب ذلك الوقت ( ١٤٠ هـ / ٧٥٨ م ) آثار سلبية على مدينة ترغا ( طرقا ) الطوارقية من حيث تحول طريق القوافل الى سجلماسة ، مما أدى الى خراب ترغا التى هجرها أهلها وأقاموا فى المدينة الجديدة ( ٢٢ ) ، التى أصبحت أهم محطة فى الطريق الى بلاد السودان خلال القرن الثالث الهجرى ( ٩ م ) ، قرن سيادة القيروان ، عاصمة أفريقية التى غلب ملوكها من الأغالبة على عقد المواصلات إليها ( ٢٣ ) .

( ٢١ ) أنظر فيما سبق ، ص ٦٢ - حيث يذكر لعبد الرحمن بن حبيب حفر ٣ ( لالة ) آبار فى الطريق الصحرى الى أودغست ، أشهرها بئر الجمانين ( ما سبق ، ص ٦٣ وعن ولاية عبد الرحمن بن حبيب ، أنظر ج ١ ، ص ٣١٣ ، وقارن ماكيندى ، atlas التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٥ - حيث خريطة المغرب سنة ٧٥٠ م ( ١٣٢ هـ ) على عهد ابن حبيب ، والنس على أهمية فتح العرب لثغرى الجنوب الغربى حيث قبائل مسندة الحيرة يتجلبأ الصحراء ، الأمر الذى أدى الى اكتشاف طريق بلاد السودان ، وقارن الحبيب المنحاني ، المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٦٢ - حيث النس على ان علاقة القيروان بتجارة السودان ترجع الى القرن ٢ هـ / ٨ م ، وفى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م على وجه التحديد ، عندما وجه الى المغرب : عبد الله بن المحسب قاتل حبيب بن أبى عبيدة ( والد عبد الرحمن ) الى المغرب الأقصى ففزا السنوسى الأقصى ، وبلغ أرض السودان ( ٢ ) - مع الاشارة الى ابن عذارى .

( ٢٢ ) البكرى ، ص ١٥٨ .

( ٢٣ ) أنظر الاصطخرى ، ص ٢٤ - حيث النص على انه بين المغرب والسودان مفاز 'منقطعة لا تسلك الا من مواضع مرفوعة كان يلقب عليها ملوك افريقية من اولاد الأغلب - أما عن القيروان فهى أول المحطات وأكبرها على الطريق ، ليس الى السودان الغربى فقط ، بل عن طريق السودان الأوسط ( تشاد وكاتم ) أيضا ، وكانت المسافة بينها وبين سجلماسة تماثل ٨٠ مرحلة فى الطريق الصحراوى ( حوالى ٢٨٠٠ كم ) ، وهى ثلث المسافة فى طريق الصارة الى تبليغ ١٢٠ مرحلة ( حوالى ٤٢٠٠ كم ، بينما المسافة ما بين تاهرت وسجلماسة ٥٠ مرحلة ( حوالى ١٧٥٠ كم ) فقط . اما المسافة بين القيروان وزويلة ( على طريق تشاد ، فهى ٣٠ مرحلة ( حوالى ٢٠٥٠ كم م .

### بداية دولة المثلثين :

وفي هذا الوقت من مطلع القرن الثالث الهجري يبدأ التاريخ الحقيقي لدولة المثلثين وأسرتها الحاكمة جنوب الصحراء ، حسبما يقدمه ابن أبي زرع ، ويأخذ به ابن خلدون مع ما أضافه إليه من مواد أخرى . وهكذا يكون أول البارزين من ملوك صنهاجة هو الثاني منهم واسمه تيلوتان (Tiloutan) المتوفى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م . ولما كان ابن خلدون يربط ما بين نشأة دولة المثلثين المسلحة وبين قيام دولة عبد الرحمن الداخل في الأندلس (سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) فانه يجعل تلكاكون (تلجاجون) ؛ (Telgagoun) والتيلوتان أول ملوك صنهاجة الصحراويين (٢٤) . فكان الفارق الزمني بين ولاية تلجاجون الأول وبين وفاة ابنه تيلوتان ، وهو الثاني ، تبلغ حوالي ٨٥ سنة . ولما كان روض القرطاس يقول ان حكم تيلوتان بلغ ٦٥ (خمسة وستين) سنة ، يكون حكم تلجاجون ٢٠ (عشرين) سنة .

### بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء :

وبناء على هذه الرواية تكون بداية نشر الاسلام في الصحراء الجنوبية وفي بلاد السودان قد تمت حوالي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وراء جيوش المثلثين ، وذلك قريب الوقت الذي كان خوارج الصفرية يمتزلون مواطنهم في بلاد الريف الحسبة لكي يبنوا سجلماسة (سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) على مشارف الصحراء ، ويستغلونها موطنها (ج ٢ ص ٤٠٩) . وإذا كانت الرواية لا تخصص دورا محددا لتلجاجون في هذا المجال ، فيمكن أن يكون المفهوم من سياق النص انه أول من ترك دين المجوسية ليدخل بكل حماسة المسلم الجديد ، المنبر بدينه ، في ميدان نشر الاسلام . أما عن تيلوتان ولعدهه وثاني الملوك (ت ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م) ، فهو فارس الاسلام الذي يجوبه

---

(٢٤) انظر روض القرطاس ، ص ٩٢٠ - حيث أول ملكه بالصحراء تيلوتان بن تلاكين. الصنهاجي اللاتوني ، وقارن ابن خلدون ، المير ، ج ٦ ص ١٨١ - حيث النص على انه الرياسة كانت في لثونة ، وانه استولى لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن مارية الداهل (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) وانه توارثه ملوك منهم تلاكين وورتكا (أوراكن) بن ورتنلق ، جده أبي بكر بن عمر أمير لثونة ، وانظر ترجمة دسلان (De Siane) ، ج ٩ ص ٩٥ - حيث التصحيح الى تلاكاون (تلجاجون) بن أوركوت او أراكن بن ورتنلق (Ourtentac) جده أبي بكر بن عمر ، أمير لثونة المعروف - وحسب الإشارة الى ان اسم ورتنلق ما زال باقيا في موضع (Portendic) على مسافة ٤٠ مرحلة شمال السطال .

البلاد على رأس جيشه الذي بلغت عدته ١٠٠.٠٠٠ ( مائة ألف ) نجيب  
( فارس هجان ) ليفرض الهيمنة على كل الصحراء ، كما يفرض الجزية التي  
كانت تمير خزانته بالأموال على ٢٠ ( عشرين ) ملكا من ملوك السودان ،  
حتى امتدت مساحة إمبراطوريته التي تكونت على طول ٦٥ سنة ، حوالي ٣  
( ثلاثة ) أشهر طولاً في مثلها عرضاً ، أى على امتداد أكثر من ٣.٠٠٠  
( ثلاثة آلاف ) كم ( ٢٥ )

أما ثالث الملوك فهو يلتان ( Iltan ) الذي توفي سنة ٢٨٧ هـ /  
٩٠٠ م فكانه حكم ٦٥ ( خمسة وستين ) عاما هو الآخر ، ويخلفه في الملك  
ابنه تميم ( ابن إلتان ) ، فكانه أول من حمل اسما عربيا من ملوك الملتين ،  
ولا يمتنع ذلك من أن يكون له اسما بربريا آخر ، كما كانت العادة في حمل  
اسم قومي الى جانب الاسم العربي أو اللقب عند بربر المغرب ، وعند الترك  
في المشرق ، وعلم تميم ٢٠ ( عشرين ) سنة ( مثل تكلكاكون ) ، إذ كانت  
وفاته غدرا على أيدي مشايخ لتونة ، سنة ( ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ) ( ٢٦ )

( ٢٥ ) القزاس ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، المير ج ٦ ص ١٨٢ - حيث الاسم ييلوتان  
فكانه إيت ( بنو ) يلوتان والتصحيح من ترجمة صسلان ، ج ١ ص ٦٦ - حيث النص على أن  
الاضطراب في الأسماء في النص العربي ، يرجع الى جهالة النساخ ، وخاصة في روض القزاس ،  
وانظر الفلقسندى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث النص على أسماء الملوك نقلا عن ابن زرع -  
والإشارة الى أولهم ييلوتان الذي كان يركب في ١٠٠٠ ( ألف ) نجيب بدلا من ١٠٠.٠٠٠ ،  
وتوفي في سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م

( ٢٦ ) انظر القزاس ، ص ١٢١ - حيث الثالث هو حفيد ييلوتان واسمه الأثير بن لطر  
ابن تيلوتان بدلا من يلتان ، أما عن تميم فهو ابن الأثير ، هذا ، ولقد أخذنا برواية ابن خلدون  
على أساس أن نسخة القزاس التي كانت بين يديه أصح من التي بين أيدينا اليوم ، وهو  
الأمر المقبول بناء على البعد الزمني ، الى جانب أنه حصل على معلومات إضافية أخرى أسفاد  
منها في نظرت الى القزاس ، وقارن المير : ج ٦ ص ١٨٩ - حيث توجد رواية أخرى تقول  
أن من أشهر ملوك منهجة هؤلاء : تينزوا (Tinezwa) بن واشنيق (Ouechenic) ، وهو في  
الأصل والاشق بن بيزار (Bezaz) وقيل بيريوان (Berowian) وهو في الأصل : يرويان  
ابن استولى بدلا من واشنيق بن يزار : ( Izar ) ، فكان الأول : ( تيزوا ابن واشنيق بن  
يزار ، كما في نص بولاق المصور ) يقوم مقام تليجاوون ، وكان الثاني ( يرويان بن واشنيق بن  
يزار ، كما في نص بولاق ) بدلا لتيلوتان وتجييه اليه ١٠٠.٠٠٠ ، على أن يقابل ملكه عهد  
عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في القرن الرابع الهجري ( ١٠ م )  
في الأندلس بدلا من عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٥ م قبل أن يفتقر أمرهم  
طوائف ، وقارن الفلقسندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث يلتان ( ت ٢٨٧ هـ /  
٩٠٠ م ) وتميم بن يلتان الذي قتلته منهجة ، ثم اختراق اليه ١٢٠ سنة الى ملك أبي عبد الله  
تيفات ثم قيام صهره يحيى بن إبراهيم الجندال الذي حج سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م

### ملوك الطوائف الصنهاجية :

وبعد تميم يفتقر أمر امبراطورية الملتمين الصنهاجية الى عدد من ملوك الطوائف يستمر ملكهم لمدة ١٢٠ ( مائة وعشرين ) سنة ، حاول ابن خلدون ان يملأها بروايات أخرى ولكنه لم يوفق بسبب تصوره ان تلك الروايات الجديدة تتعلق بملوك آخرين لنفس الفترة السابقة ( كما أشرنا في الهامش السابق ) . وربما كان له الحق في ذلك بسبب تكرار بعض المعلومات الإحصائية التي تتعلق بأعداد عسكر الملك أو أعداد التابعين له من أمراء الأقاليم السودانية .

والحقيقة أن الروايات التكميلية التي يقدمها ابن خلدون دون الإشارة الى مصدرها ترجع الى البكري الذي يوثقها بتاريخ أكيدة تنهى فترة الطوائف هذه - وان ظلت اختلافات قراءة أسماء الملوك بسبب أخطاء النسخ . والراى ان دسلان (De Sslan) استخدم روايات البكري في محاولته تصحيح أسماء ملوك السودان الملتمين ، في ترجمته لابن خلدون .

والهم انه بفضل رواية البكري نعرف أن دولة صنهاجة نهضت من كبوتها بعد أقل من ٥٠ ( خمسين ) سنة ، ولكن لفترة وجيزة ، بفضل تين بروتان ( الملك ) الذي هيمن على أودغشت وفرض سلطانه على غانة. خلال حكمه الذي امتد من ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م الى ٣٥٩ هـ / ٩٧١ م ، وكانهذه كانت النهضة الثالثة لدولة صنهاجة الصحراوية (٢٧) .

### النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن إبراهيم :

والهم أن تلك النهضة الثانية لصنهاجة انتهت بعد فترة غامضة ثانية على عهد أبى عبيد الله بن تيفاوت (Tifaout) المعروف بنارشت (Naresht) الذى تم اختياره ملكا سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ، لما عرف به من صفات الرئاسة ، من : التدبىن والورع وأداء فريضة الحج والمجاهد . ولم تطل ولاية المجاهد المنتخب ( أبى عبد الله نارشت ) الا ٣ ( ثلاث ) سنوات فقط ، إذ:

---

(٢٧) انظر فيما بعد ، ص ١١٧ ، ١٤٠ - والهم هنا هو أن معلومات البكري عن يرويانر في منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠٠م) هي نفس المعلومات الخاصة بتيلونات المنوفى في أوائل القرن الـ ٣ هـ / ٩م ، الأمر الذى قد يشكك في نهضة صنهاجة الصحراوية في تلك الفترة المبكرة .

سقط شهيدا في ميدان الجهاد في السودان ( سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ) في موضع غربي مدينة بانكلايين حيث بنو عبد الوارث الصنهاجيين ، اسمه قنقارة ( جنجارة ) ، نسبة الى مكانه من السودان الذين كانوا من اليهود « الفلاشة » (٢٨) .

وبعد نارشت ( ابي عبد الله محمد ) ظهر يحيى بن ابراهيم الجدالي ( السكدالي ) (٢٩) ثم ابنه ابراهيم بن يحيى ولي عهده ، وهو الذي مر بالقيروان (٣٠) .

#### النشاط التجاري لدول المغرب عبر الصحراء :

اما عن اعمال الادارسة في سبيل تنشيط التجارة مع السودان فيرجع الفضل الى الامام عبد الله بن ادريس ( الملوى : ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ) (٣١) ، في بناء مدينة تادلت ( او تامدلت ) ، التي اشتهرت بمنجم فضتها الغزير الانتاج ، غربي مدينة درعة ، وعلى الطريق الى سجلماسة ، طريق القوافل التجارية الى غانة والسودان (٣٢) .

ومع ازدهار تجارة السودان ونشاط دول المغرب المستقلة الاولى ، ظهر

---

(٢٨) انظر القرطاس ، ص ١٢١ - حيث النص على ان المدينة ( تاتا كلانين ) كانت لبني وات ( هكذا ) من اوائل مسلمي المغرب الذين اسلموا على يدى علي بن نافع ، والذين عرفوا بالصلاح وبانهم يجاهدون السودان غير المسلمين ، وحيث موضع استشهاد نارشت هو بفارو بدلا من قنقارة ، وقارن العير ، ج ٦ ص ١٨٢ ، والبكري ، ص ١٦٢ ( حيث ناورسني بدلا من نارشت ) وقنقارة ( بدلا من بفارة ) وبانكلايين ( الذي اخذنا به بدلا من بانكلايين ) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٦ - حيث هلك اوغسبت فيما بين ( ٣٥٠ - ٣٦٠ / ٩٦١ - ٩٦٦ ) منهاجي يمتد في ١٠٠٠٠٠٠ نجيب ، ومسيرة بلاده شهرين في مثلها في عمارة مصلة .

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٢ - حيث النص على انه بقي في الولاية الى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م - الامر الذي يمتيز متقدما بعض الشيء عما وصلنا اليه في الدراسة ، وقارن ابن خلدون ، العير ، ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣٠) انظر القرطاس ، ص ١٢٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ ، الذي يضع مكان ابراهيم بن يحيى ، يحيى بن عمر بن تلاكاكين (Telagaguin) ولا ندري ان كان قد وقع في الخطا بسبب اسم مدينة تاتلاكاتين التي استشهد بقرها ابو عبد الله نارشت .

(٣١) وكانت مملكته تشمل اغنيات وبلاد المصامتة وبلاد السوس الاقصى مع بلاد الحلة - ج ٢ ص ٤٥٩ ، وقارن زامباور ، الترجمة ص ١٠٣ .

(٣٢) البكري ، ص ١٦٣ ، وهي في القيروان ، ص ٣٥٩ ، تادلت - حيث تعتبر مهدا لبعاعات الطوارق ( بني ترخا ) حيث متاجم الذهب والفضة .

فى مطلع القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، مع قيام الدولة الفاطمية ، طريقان سديدان الى السودان الغربى ، أحدهما غربى وهران وتونس الى النيجر الأوسط وبلاد غانة ، والثانى الى بلاد السودان الأوسط من طرابلس الى بلاد كانم وتشاد(٣٣) .

والحقيقة أن ازدهار تجارة السودان ، فى القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، يظهر فى ازدهار مدينة سجلماسة ، أهم محطة فى طريق السودان ، وهم أسواق الصحراء وقتئذ حسبما يروى ابن حوقل الذى زارها فى سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، وسجل رواج تجارتها وكثرة أرباح أهلها الذين ظهرت عليهم النعمة فى الأفعال والكمال فى الأخلاق ، كما كانت سجلماسة مركزا علميا مرموقا ، حيث تفوقت على غيرها من مدن المغرب بكثرة المشايخ والعلماء . وفى تلك الزيارة تكلم ابن حوقل عن ذلك الصك الشهير الذى حرره لأحد تجار سجلماسة بعض عملائه من تجار أودغست السجلماسيين بمبلغ ٤٢ ألف دينار(٣٤ م) ، الأمر الذى لم يعرف الرحالة العراقي له نظيرا فى المشرق ، أى فى مرافئ تجارة الهند والصين وطريق الحرير ، فى الخليج ، من : البصرة الى سيراف وهرمز(٣٥) .

#### مسالك التجارة وطرقها :

هكذا تمثلت خريطة التجارة فى أفريقيا الشمالية فى ٤ ( أربعة ) خطوط طولية وخطين عرضيين . والخطوط الطولية هى :

١ - طريق الساحل الغربى ، الممتد على طول شاطئ المحيط الأطلنطى ، وعقدة مواصلاته الشمالية ، هى نول لمطة (أونون) .

٢ - الطريق الغربى الأوسط الذى يعبر الجزائر ، وعقد مواصلاته : توات شمالا ثم سجلماسة وأودغست .

٣ - طريق المغرب الأدنى وبدايته القيروان ( فهو طريق القيروان ) ، وعقدتا مواصلاته : سجلماسة وأودغست .

(٣٣) ماكفيدى ، المجلس التاريخى الإفريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ .

(٣٤م) صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٣٤ ، وانظر لشار (J-M. Lessard) ، سجلماسة ، المدينة

وعلاقتها التجارية فى القرن الحادى عشر ، عن الكرى  
La ville et ses relations commerciales au XIe siècle)

، مجلة هسبريس ، ١٩٦٩ ، ص ٥ - ٣٦ .



٤ - الطريق الشرقي وبدايته طرابلس ، وعقد مواسلاته الى السودان الغربي ( غانة ) : سجل ماسية واودغست ، والى السودان الأوسط : فزان الى تشاد وكانم ، وتادمكة الى السودان الشرقي والواحات الشرقية الى مصر .

أما الخطان العرضيان : فالشمالى منهما هو الطريق التاريخى الشمالى الآتى من مصر والمنتهى عند تازا وفاس ، ومدنه ، من برقة الى طرابلس ، فالقيروان ، وتونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، واغامت ، هى نهايات لنخطوط الطولية . وأما الجنوبي فهو طريق التجارة الأعظم عبر واحات بلاد النخل وهو طريق الحج أيضا ، الذى يستوعب القوافل العظمى التى تحوى آلاف الجمال مثلما تستوعب طرق الملاحة عبر المحيطات حاليا ، سفن النقل العظمى التى لا تعرفها موانئ البحار الداخلية والقنوات بين القارات - كما أنه الطريق الأنصر ( ما سبق ، ص ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٩ ) .

#### الخريطة السياسية والاجتماعية للصحراء الكبرى فى القرن ٤ هـ / ١٠ م :

والهم انه فى هذا الوقت من منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، كانت سجل ماسية تابعة اسميا للدولة الفاطمية ، خاضعة فعليا لأسرة آل مدرار ( الصفرية ) وهم من البتر ، بدو زناتة الجمالة الذين يصعب التفرقة بينهم وبين صنهاجة الصحراء الذين يتميزون بالثنام والنقاب على الوجه والعينين .

أما الصحراء حيث قبائل صنهاجة المثلثون ، فكان لها ملكها ، معاصر ابن حوقل ، الذى كان يحكم منذ سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وذلك فى عصر الفرقة ( الطوائف ) قبل يروتان ( ما سبق ، ص ١١٢ ) (٣٥) وينص ابن حوقل على أن رعية الملك الصنهاجى وقتئذ بلغوا نحو ٣٠٠.٠٠٠ ( ثلثمائة ألف ) بيت أى أسرة ، بمعنى حوالى ١.٥٠٠.٠٠٠ ( مليون وخمسمائة ألف ) نسمة وأكثر ، على أساس أن متوسط ٥ ( خمسة ) أفراد للأسرة ، بمعنى زوجين وثلاثة أبناء ، يعتبر معدلا قليلا بالنسبة لأفراد الأسرة فى المجتمعات البدوية والريفية - حيث الزواج الداخلى وتعدد الزوجات - والهم ان المليون ونصف المليون وأكثر من قبائل صنهاجة - يعنى بلقة العصر نوعا من أزمة التضخم السكانى التى تبشر بالانفجار . والهم أن تلك الكثرة

السكانية يفسرها نوع البيوت المستخدمة للسكنى والتي كانت حسب ابن حوقل ما بين نواله ( خيمة من الجلد ) أو خص ( كوخ من الأعشاب والعصى ) ، الأمر الذى يعنى أن مساكن صنهاجة فى منتصف القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م . كانت فى منطقة الساحل ( أعشاب السافانا ) الفاصلة بين جنوب الصحراء وشمال السودان الغربى . والظاهر أن المساكن السودانية الحديثة المبنية بالأعشاب وعروق الشجر فى شكل أكواخ مستديرة ويغطيها سقف مخروطى من الأعشاب أيضا ، أو تلك التى تأخذ شكل حظيرة مربعة يغطيها سقف سنهي ( جمالون ) من فروع الشجر وأوراقه (٣٥ م) ، لها أصول عريقة فى القدم . فقبائل الجرمنتين القديمة فى فزان كانت لها بيوت من الأعشاب التى تكسو أعواد الخشب فى شكل القارب المقلوب ، أو خيام الجلد مثل خيام البدو الحاليين ( وهى المادة الخام المتخذة من البيئة المحلية من أعشاب السافانا أو من جلود حيواناتها ) (٣٦) . وهذا ما يفسر أيضا كيف كان من أصاليب حربهم الدفاعية الاعتماد على أعداد ابلهم الغفيرة فى سحق الأعداء ، عندما ودهسا ، بمجرد اثارها ونفاذها على العدو بفترة (٣٦ م) .

ومن الواضح أن أودغست ، بصفتها باب السودان الجنوبي ، كان لها حكومتها المستقلة ، تماما كما كان الحال بالنسبة لسجلماسة ، باب الصحراء الشمالى ، كما كان هناك نوع من أوجه الشبه بين الحكومتين ، فذلك ما تفرضه طبيعة المكان وتكوينه البشرى على مر الزمان . ويتلخص وجه الشبه فى أن موقع كل من البلدين فى منطقة التماس بين بربر الصحراء من البدو الجمالة مع كل من حضارة بربر الشمال « المتوسطة » وحضارة سودان الجنوب « الافريقية » ، بمعنى أن صنهاجة فى ذلك الزمان كانت همزة الوصل عرقيا وحضاريا بين الشمال الافريقى الأبيض وبين الوسط الافريقى الأسود ، وكان من الطبيعى أن يكون التأثير الأبيض طرديا نحو الشمال والتأثير الأسود عكسيا نحو الجنوب ، فتكون حكومة سجلماسة ومجتمعها أقرب الى حضارة البحر المتوسط ، ومجتمع أودغست وحكومتها أقرب الى الحضارة الافريقية « النيلية » أصلا .

---

(٣٥م) انظر ديلافوس ، الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .

(٣٦) انظر هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢١ ، وقارن عن مساكن الطوارق الحاليين سحيد القشاط ، الطوارق ، ص ٨١ - حيث مساكن الطوارق من : جلد ، أو صبر أو قش الى جانب سكنى الكهوف .

(٣٦م) انظر ابن حوقل ، ص ٩٧ .

### مملكة غانة والعلاقة بأودغست :

والهم أن كلا من حكومتى سيجلماسية وأودغست لم تكن حكومة عسكرية ، بل أشبه بجمهورية تجارية ، مثل امبراطورية غانة التى تمتعت لهذا السبب ، بالاستقرار منذ نشأتها فيما بين القرنين الثالث والرابع للميلاد ، وذلك فى منطقة أوكار (AUKAR) شمال أودغست حيث كان موطن زنوج « الماندنج » المهاجرين من شمال أفريقيا ، والذين كانوا متأثرين بالثقافة اليهودية . ومن منطقة أوكار توسعت دولة غانة جنوبا الى منطقة الحوض ، واستمرت أسرتها الحاكمة حتى القرن الثامن الميلادى حيث سقطت فى سنة ٧٧٠ ميلادية على أيدى أسرة أخرى من زنوج « السونينكه » التى استمرت فى الحكم حتى قيام دولة المرابطين (٣٧) ، ومن الواضح أنه رغم اتساع مملكة غانة المعاصرة لابن حوقل شمال وجنوب غرب أودغست ، فإن هذه الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال تحت حكم الصنهاجيين المسلمين ، وأنها كانت على علاقات طيبة بمملكة غانة .

وفى ذلك ينص ابن حوقل على أن ملك أودغست كان يحرص على مداراة (التقرب من) ملك غانة ، أغنى ملوك الدنيا بما لديه من أموال الجباية ومخزون التبر ، وأن هذا الأخير كان يسترضى تابعه ملك كوغه بالهدايا ، بينما كان ملوك غانة وكوغه حريصين على استرضاء ملك أودغست المسلم لحاجتهم الماسة الى الملح الذى كان يأتيهم من بلاد المسلمين (٣٨) .

والحقيقة أنه قبل قرن تقريبا من ظهور دولة المرابطين كانت امبراطورية المسلمين قد تفتتت الى نوع من دويلات الطوائف منذ اغتيال مشايخ صنهاجة للملكهم قيم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، الحالة التى استمرت حوالى ٢٠ سنة ( الى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م ) ، وهى الفترة التى ملاحا ابن خلدون برواية أخرى للبكرى الى جانب رواية القرطاس (ما سبق ، ص ١١١ وهـ ٢٦) . وفى منتصف فترة التردى السياسى هذه كانت خريطة الصحراء تتمحور حول مملكة أودغست التى كانت قد بلغت الذروة من القوة والهيمنة ، بفضل جيشها الكبير الذى كان يحوى ١٠٠٠٠٠ ( مائة ألف ) نجيب ( من الجمال الحربية

---

(٣٧) انظر ج . دفينج ، تاريخ افريقيا الغربية ، ص ١٨ - حيث النص على ان ملوك ذلك الأسرة بلغوا ٤٤ ملكا .

(٣٨) ابن حوقل ، ص ١١٧ - حيث الاشارة الى ارتفاع سعر الملح فى بلاد السودان ، إذ كان ثمن الحبل منه ما بين ٢٠٠ دينار فى المناطق القريبة من الماسة ( غانه ) و ٣٠٠ دينار فى الاقاليم النائية .

السريعة الحركة ) ، ومساحة أراضيها التي كانت تقدر بمسيرة شهرين طولاً وعرضاً ( حوالي ٢١٠٠ كم ) في بلاد عامرة ، والتي كان يحكمها أمير صنهاجة ، هو : تين يروتان بن ويسنو بن نزار ، الذي كان يخضع له عشرون أميراً من حكام الأقاليم ، يؤدون له الجزية السنوية ، خلال حكمه الذي استمر عشر سنوات ( ٣٥٩ - ٣٦١ هـ / ٩٧٠ - ٩٧٢ م ) (٤١) .

ومن الواضح أن إمبراطورية أودغست التي كانت قد بلغت الذروة. أخذت تعاني من أعراض التصدع والاضمحلال ، فهذا ما يتبين في النزاعات الداخلية التي دبت بين الحكام المحليين من أمراء الاقطاع السودانيين الذين يلقيهم البكرى بالملوك . ولقد تطلب الأمر تدخل ملك أودغست في سبيل الحفاظ على وحدة دولته الصنهاجية . فعندما قام النزاع بين يرين أمير مقاطعة ماسين وبين أمير مقاطعة أوغام ، وقف تين يروتان ، الملك ، الى جانب الأول عندما طلب منه النجدة . وعندما استشعر خطورة ملك أوغام ، سير ضده جيشا كبيرا ، من ٥٠.٠٠٠ ( خمسين ألف ) نجيب ( جمل سريع ) ، تمكنت من اقتحام عاصمة أوغام واستباحتها نهبا واحراقا ، الأمر الذي انتهى بمقتل أميرها على أيدي المحاربين الصنهاجيين وانتحار زوجته ، كما كانت تقضي بذلك التقاليد السودانية(٤٢) . وهكذا بلغت أودغست أوج عزها في ظل صنهاجة قبل دولة المرابطين ، وسيطرت على أجزاء هامة من بلاد السودان ، وصارت منافسا تجاريا لغانة . ولكنه لم تمضِ عشرون سنة على انقضاء عهد يروتان حتى استعادت مملكة غانة السونينكية قوتها ، ونجحت في سنة ٩٩٠ م ( ٢٨٠ هـ ) في الاستيلاء على أودغست من الصنهاجيين(٤٣) . وبذلك أصبحت أودغست قاعدة لمملكة أوكار ( غانة ) .

#### (٤٦) البكرى ، ص ١٥٩ .

(٤٧) البكرى ، ص ١٥٩ - حيث النص على أن ملك أوغام الذي سلاحه وصحى بنلمه في ميدان الخال ، وأن نسوته قتلن أنسهن أسفا عليه ، وأنه من أن يملكهن البيضان ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٦ - حيث رواية البكرى ذاتها مع تغيير طفيف يخلص في أن ملكه أودغست الصنهاجي غزا ملكا من السودان اسمه « أوغام » ، فكان أوغام هو اسم الملك ، كما يقال ان غانة هو الملك وان المملكة اسمها أوكار . وهنا لا بأس من الإشارة الى انه في مقابل نجيب الصنهاجيين وجالهم التي كانت تعد بمشرات الألوف ، كان المنصور بن أبي عامر وقتئذ يمتنى باستنتاج الجبل ، حيث خصص لذلك في اصطبلات اشبيلية ٣٠٠٠ ( ثلاثة آلاف ) من المراكم و( ١٠٠ ) مائة من الفحول ، وأنه في بعض غزواته كان معه ٤٦ ( ستة وأربعون ) ألف فارس بينما كان الرجال ٢٦ ( ستة وعشرين ) ألفا فقط - أنظر ابن الخطيب ، أعماله الاعلام ، نشر بروكسفال ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤٨) أنظر ليدج ، ص ٢١ ، وقارن مولار ، غرب افريقيا الفرنسية ، ص

حيث انتقل إليها غانة ( إى الملك ) ، وعاش في كنفه البربر من الزناتية الى جانب العرب ، بينما أدت الصدمة النفسية التي ألتم بصنهاجة الى التحالف فيما بينهم ، والعمل على التقوى برباط السدين . وبذلك كانت الهجمة السودانية على اودغست فى ذلك الوقت المبكر من أواخر القرن الرابع الهجرى ( ١٠ م ) ، وراء حركة الاستنارة السياسية التي أشعل لهيبها المرابطون (٤٢) .

ففى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م دخل أهل تكررور - فيما وراء غانة - وكانوا من عباد الكواكب والأصنام ، فى الاسلام كرها ، على يدى وزجاي ابن ياسين ، بطل نشر الاسلام حربا وسلبا (٤٣) ، وذلك قريبا من الوقت الذى كان فيه زعيم جدالة يفاوض أيا عمران القاسى ، عالم القيروان من أجل ارسال من يراه أهلا لتعريف سكان الصحراء بقواعد دينهم الصحيحة - من تلاميذه ( ما يأتى ، ص ١٧٠ ) - وبعد حوالى ٥ ( خمس ) سنوات ، كان رئيس صنهاجة وهو محمد المعروف بنارشت بالبربرية ، يجاهد بعد سنة

---

ص ٦٠ - حيث الإشارة الى الأمير تونكا (Tounka) الذى يظن انه فاتح اودغست وكان يتخذ من نéma) فى الجنوب الغربى عاصمة له ، ورغم هذه الحال فقد كان متصاحلا مع المسلمين فى بداية امره ( نهاية القرن ١٠ م ) حيث انه أقام ١٢ ( اثني عشر ) مسجدا .

(٤٢) أنظر فيلج ، ت - غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٢١ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، ص ٧٦ - حيث تصرفت صنهاجة بفضل الجبل ، على الدولة الزنيجية التى أسستها قبائل السونينكى (Soninké) شمال حقوق النحب فى بامبوك (Bambouk) وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٩ - حيث النص على ان كلمة غانة هي صمة للمرك تلك الدولة السودانية ، بينما اسم البلد أوكار بناء على كتاب الملك الغانى الى يوسف بن تاشفين ، ونصه : ه الى أمير اغمات ، قال غانة ، وهذا دليل على ما قيل - كما يقال للدول التى تنسب الى ملوكها من : فرعونية وساسانية وأماوية ... الخ .

(٤٣) الاستبصار ، ص ٢١٧ ، حيث النص على دخول أهل مدينة سلى بالترغيب على يديه ، على عكس أهل التكرور ، ( فى بلاد السنغال - أول من دخل فى الاسلام من السودان ) - وغيرهم ممن دخلوا فى الاسلام جبرا بالسيف والحرب ، وأنظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٠ - حيث الإشارة الى سكنى التكرور على شفاف نهر السنغال ، وخاصة فى منطقة كايس (Kayes) نى اغاليه . وأنظر أمين طيبى ، أثر الاسلام فى غانة العصر الوسيط ومال ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ، المجلد ٤ ، صيف ١٩٨٤ ( بالانجليزية ) ، ص ٢٥٤ - حيث التكرور ، غرب غانة على المجرى الأسفل لنهر السنغال ، ص ٢٥٠ - حيث النص على ان شعب التكرور ظل وثقا الى أن دخل مملكه وارجاى بن رابيس ( بدلا من وزجاي بن ياسين ) فى الاسلام وذلك فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م ( بدلا من ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ) .

٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م فى بلاد السودان ، حيث استشهد بأرض قبيلة قنقارة ( جنجارة ) ، غربى مدينة بانكلايين التى كان يسكنها بنو عبد وارت ، من بطون صنهاجة(٤٤) .

### النظم الاجتماعية عند قبائل الملتمين الرباطية :

يضع ابن خلدون قبائل الملتمين فى صحراوات المغرب ، فى الطبقة الثانية من قبائل صنهاجة ، حسب أقدميتها فى التاريخ السياسى بالنسبة لصنهاجة افريقية ، أصحاب العولة الزيرية ممثلو الطبقة الأولى ، وما تفرع عنهم من الدول بالمغرب والأندلس(٤٥) . فكان صنهاجة هنا هى الجذم أو الأصل لذلك الجنس من البربة الذى يوضع بين قبائل البرانس أى الحضرة ، هذا ، ولو أن ابن خلدون عند الكلام عن نسب صنهاجة ولمطة ينسبهما ، كما هى العادة الى أبوين أسطوريين ، هما صنهاجة ولمط ، ويجعلهما أخوين . وينسبهما الى أمهما - وليس الى أبيهما - وهى تيزكى العرجاء ، التى تزوجت بأكثر من رجل من البتر والبرانس ، وأنجبت أكثر من ولد صار أباً تاريخياً لقبيلة من القبائل(٤٦) ، الأمر الذى يعنى استقرار مبدأ النظام الأموى ، الذى يعنى تفوق الأم فى العائلة البربرية حيث يمكن الانتساب إليها ، وبالتالي تقنين كل ما يترتب على ذلك من امتيازات قانون الوراثة ، وحقوق النبالة والشرف(٤٧) .

والهم انه فى منتصف القرن الـ ٤ هـ/ ١٠ م ، عندما كان ابن حوقل يجمع معلوماته عن قبائل الملتمين ، أثناء ذروة الدولة الصنهاجية الزيرية ، على عهد يوسف بلكين بن زيرى ، كانت القيادة للموغلين من الملتمين فى صحارى المغرب الأقصى وبربريه ، وهم صنهاجة أودغمت تحت راية ملكهم « تنبروتان بن اسقيشر » الذى كانت تخضع له كل القبائل ويدين له زعماؤها بالولاء والطاعة ، بأعدادهم التى لا تحد حتى انه كان لا يعرف الكثير ممن يترددون عليه بل ولا سمح بأسمائهم ، الأمر الذى يعنى أن اسم

(٤٤) البكرى ، ص ١٦٢ - حيث الاسم البربرى يافى الذى صحح الى نارست كما سبق ، ص ١١٩ .

(٤٥) العير ، ج ٦ ص ١٥٣ - حيث استخدام كلمة « طبة » بالنسبة للدول اشبه ما تكون بكلمة « جبل » بالنسبة للأفراد .

(٤٦) العير ، ج ٦ ص ٩٠ ، جوتييه ، حافى شمال افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٤٧) انظر ج ١ ص ١١٦ ، وما يأتى ، ص ١٢٥ .

« صنهاجة » كان يعنى الاسم السياسى لاتحاد قبائل اللثمين تحت قيادة آل تنبروتان ، أصحاب السيادة .

ومن الواضح أن الملك الصنهاجى كان منتخبا بصفته من آل تنبروتان ، بمعرفة رؤساء القبائل ومقسميها الذين كان لهم ، بطبيعة الحال ، حق عزله إذا ما عن لهم ذلك . وكانت أهم القبائل فى المنطقة ما بين سجلماسة وأودغست ثلاثة ، هى : سرطة ( أو شرطة ) وسمسطة ثم بنو مسوفا : اكبرها (٤٨) ، بينما يعدد ابن حوقل ٤٤ اسما لتجمعات صنهاجية من قبائل بطون وافخاذ ، من أصيلة أو قريبة من العروق الصنهاجية . والمهم انه من بين ١٩ ( تسع عشرة ) قبيلة صنهاجية أصيلة عند ابن حوقل لا نجد ذكرا منها ، عند البكرى بعد حوالى مائة عام ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، الا لست فقط ، هى : بنى مسوفا ، وبنى وارث ، وسرطة ، وترجه ، وبنى موتونا ثم لمطة (٤٩) ، الأمر الذى يعنى اندماج تلك القبائل فى بعضها البعض ، وقيام تجمعات قبيلة كبيرة المدد ، تربط بينها قرابة الدم بفضل تعدد الزوجات ، ووحدة المقر ( الوطن ) ، بعد أن سهل الجبل طرق المواصلات فيما بينها . ومن المقبول أيضا أن تكون المسميات الباقية تعنى فى هذه التجمعات القبلية ، طبقة النبلاء أو الأشراف الحاكمة ومنهها طبقة الأحرار المحاربة ، وفيهم - الى جانب أهل السياسة - رجال العلم والفقه والمعرفة والآثار والتواريخ (٥٠) ، بينما يهبط أفراد القبائل المنسية الى الطبقة المحمية « من المهوورين » ، ثم طبقة الموالى والعبيد السود ، ومنهم الخدم والرعاة والحرفيون الصغار ( فى البادية ) (٥١) . أما طبقة الحرفيين

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ - ٩٨ . وقارن ليون الإفريقى ، الترجمة ، ص ٦٨ - حيث النص على حياة اللثمين الصنية ، على أيامه ( قرن ١٦ م / ١٠ هـ ) ، والتي تلخصت فى عدم النظام وسرقة ابل الأمعاء ، ومع ذلك فقد كانوا يدينون بالطاعة المطلقة للأميرم - الذى كان يدعى « أمينة كال » ( من الأمانة على ما نطق ) - ويكونون له الاحترام .

(٤٩) ابن حوقل ، ص ١٠٠ - حيث القائل الـ ١٣ التي نسبت أسماؤها ، هى : انكيو ، وبنى ماكسن ، وبنى كادجيت ، وبنى سيثيت ، وبنى صالح ، وبنى توتك ، وسططة ، ومداة ، ومفرسة ، ومومنه ، وفريه ، وملوانه ثم نيكارت ، وقارن الانديسى ، المغرب العربى ، ص ٧٥ - الذى يجعل مسوفا من لمطة ( مع قبيلتي وشان وغالة ) بينما يجعل جداله من صنهاجة ( مع قبائل : بنى منصور ، ونسيمة ، وبنى ابراهيم ، وبنى تاشلفين ) .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٩٠ - حيث التعريف بمسيد ملوك تانمكة : لهر بن الفاراه ، ووايتا بن سبنزك .

(٥١) ليون الإفريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - حيث الإشارة الى ان دوعه (مهد الطوارق) =

حقيقة ، من : الحدادين والتجارين والصاغة والحاككة ، وغيرهم من الاتباع  
والقرباء فلا توجد الا في المدن والمراكز العمرانية الكبيرة ، مما سبقت  
الإشارة اليه (٥٢) .

### السمات الطبيعية ( الفيزيكية ) :

ولما كان المتنون من صنفهاجة ، مثلهم كمثل آبائهم الليبيين ،  
مرتبطين بمائلة شعوب البحر المتوسط . فهم من أصحاب الجسم الضامر  
والقامة المرتفعة ، والرؤوس الطويلة ، والوجه الاهليلجي ، والانف الأثنى ،  
والعيون السود ، والجلد البنى ( البرونزى ) ، والشعر الأسود (٥٣) . وهذا  
لم ينح من وجود نماذج ذات جلد أبيض وشعر أصفر أو أحمر ، مما ينم

---

« التي كانت عاصمتها مبيج في القرن الـ ١٦ م كان لأهلها عبيد زواج من المسنين يتوالدون ،  
ويحتفظ الناس ( أسادهم ) بالأولاد خدمتهم ، وقارن اليمقري ، البلدان ، ص ٣١٤ - حيث  
استخراج التبر في الملاي عن طريث العبيد السودان الذين يطرون ويستخرجونه كالزرنخ  
الأصفر قبل أن يسبك » .

(٥٢) أنظر ص ٧٤ ، هـ ٤٤ ، وقارن العمري ، مسالك الأبصار ، نشر أبو ضيف ،  
ص ٧٨ - حيث سلطين مسالك السودان الصحراوية البيطى . من البربر ، وهي ٣ ( ثلاثة )  
في بلاد آبير ، وفلوسية ، وتادمكة ( شرق أوغست ) . وقارن مع تنظيمات قبائل الصحراء  
حالياً من الطوارق ، محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٦٥ وما بعدها ، عن الطبقات  
الاجتماعية ، حيث النبلاء ( أما جفن ) والطبقة المقهورة ( أو اللاجئة : امفاد ) ، وطبقة الفقهاء  
( المسلمين ) ثم الحدادون ( الصنائع التقليديون ) ثم العبيد والرقا ، وص ٤٩ - ٤٦ - حيث  
تقسم بلادهم الى ٧ ( سبع ) مناطق تسمى سلطنات ، على رأس كل منها سلطان كما في :  
غات بليبيا ، وتنفيس في الجزائر ( الهقار ) ، وأزواغ ( سلطة اليمين غرب ) واليمين -  
شرق ( تقيقرت ) ، وسلطنة آبير ، وسلطنة تمزقلا ( جنوب آبير ) ثم سلطنة كل أقرس  
( جنوب أزواغ ) ، قرب الهوسا . وأنظر ص ٦٣ - ٦٤ - حيث تتكون السلطنة من عدد من  
القبائل ، وتنقسم القبيلة الى عدد من المحلات أو الأحياء ، والتي الى عدد من العائلات التي  
تتكون من عدد من الأسر والأسرة هي الخلية الاجتماعية الصغرى ، وقارن اسماعيل العربي ،  
الصحراء الكبرى ، ص ١٧٦ - وحيث ينقسم طوارق الرحل اجتماعيا الى : أسباط نبلاء وأتباع  
وعبيد من الزنوج ، والنبل صفة للمشيخة كلها التي تكون على رأس القبيلة ، ومنها رئيسها .  
وعن طوارق الهقار ( جنوب الجزائر ) فينقسمون الى ٣ قبائل ، هي : كل دولة ، وتيفية  
علت ، ويطروق ، وأنظر ص ٣٥ - ٣٧ - عن طبقة العبيد التي عليها حراسة الأرض ، لهم  
المراتون ، ال غير ذلك من امتيازات : الحدادة والتجارة والاشارة الى انهم يتحولون في فترات  
ممتدة الى تجار يبيعون منتجاتهم لأهل الواحات نظير ما يحتاجونه من الثمر والملابس والأدوية  
والأدوات المنزلة حتى أنهم يسيطرون اقتصاديا على الواحات .  
(٥٣) هاينز ، طرامس ، في المصور القديمة ، ص ١٨ - وأنظر اسماعيل العربي ،  
الصحراء الكبرى ، ص ٣٤ - ٣٥ .



عن تأثيرات وافدة من أوروبا عبر التاريخ ، عن طريق الوندال والقوط وغيرهم من جماعات أهل الشمال ( النورمان )<sup>(٥٤)</sup> . هذا ، ولو أن الدم الأسود كان يقد الى الشمال بشكل طبيعي ، عن طريق إباحية زويلة - جنوب ودان - الذين كانوا يجلبون أنواعا من السودان ، من : البرين ، والزغاوين ، والمرويين ، كما كان أهل كوار جنوب زويلة ، يأتون بأنواع أخرى ، الى جانب أن ملوك السودان كانوا يبيعون أبناء بلادهم من غير شيء ولا حرب<sup>(٥٥)</sup> .

أما عن صفات السودان بعامة فهي التي عرفها اليونان قديما بشكل علمي عن طريق جالينوس ، الذي يحدد لهم ١٠ ( عشر ) خصال ، هي : الشعر المفلقل ، وقلة اللحية واتساع المنخار ، وسماكة الشفتين ، وقوة الأسنان ، ورائحة الجسد ( الزفرة ) ، وسواد البشرة ، وخروج الأذنين ، وطول عضو الذكورة ، وأخيرا الميل الى الفرج والضجيج<sup>(٥٦)</sup> .

وهكذا امتزج البيض والسود في الصحراء ، ما بين الجنوب والشمال ، وأصبح اللون البرونزي ( البني ) هو المميز لأهل الصحراء المقربية ، تماما كما هو الحال عند العرب في صحرائهم التي يحف بها السودان الشرقي عبر البحر الأحمر ومضيق باب المنسلب ، حيث البجاء ، الأشسد سوادا من الحبشة الذين يتميزون بلون بشرتهم الوسط ، ما بين البياض والسود ، مثل العرب ( الاصطخري ، ص ٣١ ) . وخير مثال لهذا التمزج الصحراوي الوسط ، بين الرجل الأبيض والرجل الأسود ، هم سكان المرتفعات الوسطى في أقاليم الهقار ( الحجار ) وآيير وتشاد حيث الطوارق الملتصون من المغاربة البيض أصلا ، أو في تيبستي حيث التبو (Tebou) ممثلو أهل الصحراء القدماء من الجنس الحبشي أصلا .

(٥٤) نفس المصدر .

(٥٥) اليمتوي ، ص ٢٤٥ .

(٥٦) م. دلافوس ، الزواج ، ( بالفرنسية ) ، ص ٦

(Maurice Delafosse, Les Nègres, Ed. Reider, Paris)

وقارن أين رسته ، ص ٩٩ - ١٠٠ - حيث النص على أن ساكني منطقة خط الاستواء سود الألوان بسبب الحرارة والجفاف ، وأن شعورهم قسطا ، وأبدانهم نحيفة ، وطباعهم حارة ، وفي أخلاقهم الجفاف والذكاء .

## الوحدة القرية الصغرى : الأسرة أو البيت :

الدارج عند قدامى الكتاب : استعمال المسكن للتعبير عن الأسرة أو الوحدة الاجتماعية النواة لدى شعوب البدو ، سواء الافريقين البربر ، أو الآسيويين الترك . والبيت البدوى اما أن يكون خيمة أو خباء من الشعر أو الصوف أو الوبر ، وهو الدارج ، أو من جلد الحيوان أو من الأعشاب وفروع الأشجار وهو ما يسمى « بالحص » ، وبخاصة في منطقة الساحل وأعشاب السفانا ، أو من الألياف الخشنة النامية بين براعم النخيل العليا ، كما في الجنوب المراكشى (٥٧) .

وفى تفصيل الرجل الصحراوى للخيمة على البيت المبنى ، ينسب الى الطوارق انهم يسمون البيوت والمنازل المبنية « قبور الأحياء » (٥٨) . ومن الواضح أن الطوارق جنوب الصحراء شاركوا السودان فى طراز مساكنهم التى عرفت حديثا بأنها أكواخ مستديرة الشكل تنتهى بسقف مخروطى ، أو حظائر مربعة ( أو سقائف ) ذات أسقف جمالونية ( هرمية ) مقطوعة بأفرع الشجر وورقه العريض أو الأعشاب الطويلة (٥٩) . أما عن الأثاث والرياش فى خيام الملتصين وأخصاصهم ، فليس لدينا من مرجع عن طبيعتها الا معلومات القدامى من أصحاب رسوم ما قبل التسايرخ ، ومن مؤرخى اليونان والرومان أو من الكتاب المتأخرين من العصور الحديثة المبكرة ، قبل مشاهدات المعاصرين . فالغراش نوع من مواد بناء الخيمة أو الحص ، فالنوم على بسط وبر الجمل أو على حصر الحيززان الناعمة (٦٠) ، والأواني المنزلية مما لا يستعمل فى الطبخ ، من : الحشيش أو الجلد أو بيض النعام (٦١) .

والهم أن البناء القبلى يقوم — بعامة — على أساس الروابط العاصبة

- (٥٧) انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، ولتأرن ابراهيم الحوام ، الصحراء ، وسوف ، ص ٨٢ ، ٨٤ — حيث سلكن زنابة من زرائب الخلفاء القائمة على أعمدة خشب الأزل والمرخ أو من جريد النخل التى تسمى طرود . كما عرفوا البيوت المبنية من طين الشطوط ، ذات الأبواب المنحولة من عصى مشدودة بأسياذ من جلود الأبل أو غيرها . وانظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ وه ١٢٧ ، والبيت بالبربرية الطارقية « تازقى » ، انظر الكبرى ، ص ١٥٧ .
- (٥٨) اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٠٨ . وهو قريب من تسمية بعض أهل الخليج حالياً ، شقن الوافدين بأنها صناديق ( صخوة ) .
- (٥٩) ديلافوس : الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ .
- (٦٠) ليون الاريفى ، ص ٦٧ .
- (٦١) هاينز ، طرابلس فى المصور القديمة ، ص ٢٠ .

فى خط الذكور ، بينما تحل المرأة وأهلها فى مكانة تالية • أما عن تكوين الأسرة فإنه يقوم على قاعدة الزواج - الداخلى - فى العائلة أو العشيرة - وتبعا لعرف تعدد الزوجات الذى يؤدى الى الاندماج التام بعد مدة • وبطبيعة الحال فإن الأسرة رغم كونها الوحدة النواة ، فإنه لا يعتد بقيمتها الاجتماعية وإن تحولت الى عائلة كبيرة تحوى ثلاثة أجيال أو أربعة ، وذلك أن الحى بمعنى مجموع العشائر هو الذى يكون « الحى » أو الوطن الأصغر ، الذى يمكن أن يكون مستقلا ، بل ويفرض سلطانه على بقية الأحياء والعشائر ، أى على القبيلة كلها(٦٢) •

### النظام الأموى ( الماتريارقى ) :

والظاهر أن طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء ، هى التى أملت النظام الأموى الذى يعنى سيادة الأم فى الأسرة ، عكس النظام الأبوى (البطريارقى) الدارج فى مجتمعات الريف والحضر • فالرحلة بعيدا ، سواء للرعى والسقى ، وخاصة بالنسبة للجمال أو السفر مع قوافل التجارة يضع المرأة الباقية فى الدار أمام مسئولياتها ، ليس فى إدارة البيت وشئون الصغار والمسنين فقط ، بل وفى الدفاع عن الحى إذا ما اضطرتها الظروف الى ذلك(٦٣) • ولما كانت التفرقة الأولية بين قيمة الرجل والمرأة قائمة على القوة الاقتصادية ، فإن تقسيم العمل فى المجتمعات البدوية يظهر الأهمية النسبية الكبيرة للمرأة • فإذا كان الرجل هو راعى الجمل بالامتياز فإن المرأة هى راعية الغنم والماعز بالتخصص ، كما أنها تشارك الرجل فى مراعاة الإبل وسياستها ، وخاصة وقت الإنتاج ، فى فصل الشتاء(٦٤) •

(٦٢) وهذا ما يقول به الأنثروبولوجيون ، من : أن كل جماعة قروية تؤلف فى الواقع وحدة مكانية متميزة ، وأنه رغم انتشار أفراد الجماعة القروية الواحدة إلا أن اسم الجماعة يظل مرتبطا بالأقليم الذى يعتبر بمثابة الوطن الأساسى لهم • - بمعنى أن الجماعات المجاورة فى المكان داخل أرض القبيلة ، تكون مرتبطة بروابط قرابة من درجة معينة • أنظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ١٩٩١ ، ص ١٦٨ - مع الأخذ فى الاعتبار ما قد يكون من الاختلافات بين سكان شمال شرق إفريقيا ( سيناء ) وشمال غرب القارة ( الصحراء الغربية ) •

(٦٣) أنظر فيما سبق ، عن قصة اللثام ، ص ٨٠ ، هـ ٥٩ •

(٦٤) أنظر ( مع الفارق ) أحمد أبو زيد • المجتمعات الصحراوية فى شمال سيناء ، ص ١٧٩ - حيث ما للمرأة من قيمة اقتصادية كبيرة ، وذلك فى توزيع العمل بين النساء والرجال ، ورغم ذلك فالمجتمع يسوده النظام الأبوى بمعنى سيادة الرجل - وهو الأمر -

وعلى الرغم مما عرفته المرأة من المركز المتميز في المجتمع الطارقي  
كديما وحديثا ، من حيث العمل ، والسفور ، والتمتع بقدر واضح من الحرية  
في معاملاتها العاطفية ، فمن الواضح أيضا أن تلك الحرية كانت شكلية ،  
وأن السيطرة كانت للرجل . حقيقة أن بعض النساء قد وصلن إلى مركز  
الزعامة كالكاهنة قديما ( انظر ج ١ ص ٢١٧ ) أو أن بعض عظماء الرجال  
من أهل الحرب والسياسة انتسبوا إلى أمهاتهم ، كما هو معروف عند  
المرايطين ، من ابن فاطمة وغانية أوفانو مما يأتي ذكره أيام بنى تاشفين  
( ص ٣٠٦ ، ٣٩٢ ) ، إلا أنه لم ينبغ من نساء الملتصين نايغة ، كما كان  
الحال عند الترك ، من : شجر الدر ( عند الماليك ) وتركبان خاتون ( عند  
السلاجقة ) أو خواتين السلطان ( عند ترك القرم ) . أما عن نموذج زينب  
النفزية ، زوجة صاحب أغمات ثم زوجة زعيم المرايطين « أبوبكر بن عمر »  
ويصده يوسف بن تاشفين ، فإنها لم تكن صنهاجية بل زناية ( ما بعده  
ص ٢٥١ ، ٢٥٤ ) .

والهم أن ذلك المجتمع « الأموي » الإفريقي ، إلى الذي يقسدر المرأة  
كعضو عامل في المجتمع ويحترم مشاعرها كإنسان عاقل له حقوقه المساوية  
لحقوق الرجل بالرضا والاختيار ، استوحى مبادئ حقوق الحرية والمساواة  
بين الرجل والمرأة من مصر القديمة ووادي النيل (٦٥) . ومن هناك انتشرت  
إلى السودان النيل بين البجاه والزنج والحبشة ، وإلى شمال أفريقيا من حيث  
انتشرت إلى الصحراوات الوسطى ، وصارت من ثوابت العادات والتقاليد  
في الصحراء جنوبا ، وفي السودان الغربي الذي كان يزهو بنسائه (٦٦) .  
فرغم أن بلدة تسابيت ، على ٢٥٠ ميلا شرق سجلماسة كانت بمثابة منطقة  
أمنزال صحراوية ، حيث يوصف أهلها بأنهم زنوج ، فإن نسائهم يوصفهن  
بالجمال وإن كن سمرراوات (٦٧) . أما سجلماسة ، على خط التقسيم الحدي  
بين عالمي البيض والسود ، فقد كانت سوقا رائجة ، ومدرسة متخصصة

= المستغرب . وانظر ص ١٨٧ - حيث الرمي والمنايا بالطيط ، يعلم الفتاة النقة والحرص ،  
يوسن استقلال الوقت ، والتعرف على طبائع الحيوان والتعامل معه برموز الأصوات والإشارات  
التي يدرها ، كما كان للنساء خبرة في عمليات تولد التوق ، دون الرجال .  
(٦٥) انظر جوتييه ، غاشي شمال إفريقيا ، ص ٣٤ وما بعدها - حيث الأثر المصري  
بشكل عام ، وانظر الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها .  
(٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٧٧ ، وانظر شكل ٩ - حيث ٠٠ امرأة بربرية  
مسافرة تماما وبصحبتي خادمتها ( أسيرتها ) السودانية .  
(٦٧) ليون الإفريقي ، ص ٥٠٥ هـ ٩١٠ .



شكل رقم ١٢ - امرأة يربرية ( مغربية ) وبصحبته خادمتها ( أسيرتها )

لتدريب الجوارى من البيض والسود ، على مختلف أنواع الخدمات المنزلية من الأظلمة أو الترفيه (٦٧ م) .

أما فى السودان فكانت النساء فى بعض مواطن العراة يترددون على الأسواق ( الدولية ) لا تستر الواحدة منهن الا عورتها بسيور من الجلد المصفور (١٨) .

### حرية المرأة فى النظام الاموى :

والظاهر ان النظام الاموى الذى كانت تعرفه كثير من قبائل الطوارق والذى يسمح بنوع من الحرية للمرأة البربرية ، كان سببا فى ظهور ادب قصصى موضوعه العاطفة بين الرجل والمرأة من انسانية رفيعة ، وشهوانية وضعية . وهنا لا بأس أن يكون للنزاعات التاريخية بين العرب والبربر ، وما نتج عنها من اتجاهات شعبية مناهضة لأحد الفريقين أو الآخر ، أثر فيما يظهر من تحريف لبعض هذا القصص الذى يقتضى أن يكون ذا أهداف نبيلة فى أصوله الأولى وان كانت النبالة والوضاعة نسبية - كما هو الحال بالنسبة للحقيقة .

وهنا يمكن الإشارة الى ما يقال من جريان عادة اكرام الضيفان بتقديم بعض نساء الأسرة لهم . وفى هذا الشأن يقدم لنا الادريسي رواية عن مدينة

---

(٦٧ م) انظر البكري ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ - حيث كان يجلب من أودغست جوار حسبان الرجوة يبيض الألوان ، مائسات القنود لا ينكسر لهن نهود . . . . . لطف ضخم الأرداف . . . المستنقح باحداهم كانه يستنقح بيكر ايدها . هذا كما كان الممول من مشايخ فاس ، وجبل للوسا ، ويروون الطرف عن مشاهداتهم فى جمال نساء أودغست ذوات الحصور النظيفه والأرداف العظيمة . الأمر الذى كان يسمح لولد الواحدة منهن الطفل بالنسول تحت خصرها والبلود من الجهة الأخرى ، وانظر الاستبصار ، ص ٢١٥ - حيث كانت تجلب سودانيات طبائحات مصنعات فى عمل أصناف الحلوات من الجوزينات واللوزينات والقصاريات ، من الكنائات والقطايف ، يزيد ثمن الواحدة منهن على ١٠٠ ( مئة ) دينار وأكثر . وقلون الادريسي ص ٧٨ - عن السوس - حيث : نساء حاذقات فى الصناعات . أما عن نساء تادمكة ، شرق أودغست ( الاستبصار ، ص ٢٢٤ ) فقد اشتهرن بأنهن فائقات الجمال حتى قيل انهن أجمل نساء العالم .

(١٨) الاستبصار ، ص ٢٢١ - حيث الإشارة أيضا الى ان النساء كن يحلقن شعر الرأس ويطلتن شعر العانة . ومن التكت الطريقة فى هذا الشأن ما يروى من أن واحدة منهن عبرت لأحد التجار عن إعجابها بلحيته الكثة الطويلة حتى أنها تمننت لو كانت ملتحها فى عانتها ، الأمر الذى أثار حنق الرجل وغضبه - عندما ترجمت له مقالتها - حتى شنع فى سبها .

أزكى ، وهي جوجدم باللغة الجناوية ( السودانية ) ، والتي تعتبر صرة وطن قبائل مسوفة ولطة ، وعقدة المواصلات الى مدن سبي وتكرور وغانة ، تقول على لسان من دخلها - دون التعريف به - « ان النساء اللاتي لا أزواج لهن عند ( سن ) الأربعين ، يتصدقن بأنفسهن على من أرادها » (٦٩) . وإذا كان مثل هذا اللقاء يمكن أن يعتبر نوعا من زواج المتعة الذي عرفه الشيعة في المغرب ، فان تلك الرواية عندما تتحول بحيث تعني : ان المرأة هي التي كانت تختار الرجل الجميل أو الشجاع وتستضيفه لكي تأخذ منه نسلا متميزا يمنع من ذلك (٧٠) ، وان كان من المقبول أن يكون الأمر متعلقا أصلا باستضافة بعض التجار العابرين من أجل البيع والشراء ، وهم في الطريق إلى السودان أو العودة منه .

والحقيقة ان ما يقوله الحسن الوزان عن نساء الملثمين يمكن أن يكون قرينة على اتجاهات شعبية عند أصحاب تلك الروايات ، مناهضة للبربر . فوصف النساء المغرى من حيث أنهن يدينات ، ذوات أرداف ( ثقيلة ) وأثناء تاهله ، وقوام دقيق (٧١) ، يتبعه القول أنهن لطيفات عند الحديث ، يمكن اليك أيديهن ، ويندفعون في الملاطفة الى حد السماح بتقبيلهن دون التصادي في ذلك ، فالرجال يقتلون لأسباب مثل هذه (٧٢) .

---

(٦٩) المغرب العربي ، تحقيق محمد صادق ، ص ٧٥ - ٧٦ .  
(٧٠) أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى أن نساء تادكة فالتات الجبال ، «اتباع ذلك بالقول ان الزنا عندهم مباح ، وان النسوة هناك يتصارعن على الرجل الجميل أينتهن تحمله الى منزلها - وقارن هاينز ، طرابلس في العصور القديمة ، ص ٢١ ، الهامش - عن عادة تعدد الزوجات بين بعض قبائل الصحراء قديما ، حيث الإشارة الى أن هيرودوت يقول ان قبائل التزايون كانت تمارسها بشكل دائم ، مع الإشارة الى ان المبالغة في حرية المرأة قبل الزواج لدى هذه القبائل ربما كانت بسبب عدم معرفة اليونان والرومان لعادة تعدد الزوجات .

(٧١) ليون الإفريقي ، الترجمة ، ص ٦٩ ، ص ١٤٢ - حيث الإشارة الى أن هذا الوصف خاص بالنساء عند القبائل الاسترقاقية .

(٧٢) نفس المصدر والصفحة ، ص ١٤٢ - حيث النص على السماح للرجال بزيارة النساء والملاطفة الخفية ، اما الاتصال الجنسي لمقربته تصل الى الاعدام . ومثل هذا معروف منذ جماعات البدو الأخرى سواء في صحاروات افريقيا أو آسيا - وعن عادة اللقاء بين الشبان والشابات عند الطوارق المعاصرين ، أنظر محمد سعيد القشاش ، التوارق ص ٨٩ - حيث اللقاء في الأفراح والمرأة سافرة والرجل ملثم ، ص ٩٠ - حيث السر في الصحراء : من : إيقاد النار ، والاستماع الى الموسيقى والفناء ، وجلبوس كل شاب الى جانب محبوبته ( عشيقته ) في علة دونما شيء يجرح الطهر والحياء حتى الفجر ، ص ٩١ - حيث يتم الاتفاق على الزواج عندما =

هذا ، ولقد انتشرت عادة تحرر المرأة هذه ، من الشمال الى الجنوب السودانى حيث لاحظها ابن بطوطة فى رحلته الى مالى فى ايوالاتى ( ولاية ) التى حلت محل اودغست ، حيث سمح لنفسه باستنكازها ، ولكنه قوبل برد مضيقه بأن المهم فى استقبال المرأة لصديق من الرجال هو العفة والسلوك القويم - عكس سلوك التستر الفاسد(٧٣) .

#### كتابة التيفيناغ(٧٤ م) :

وفى اطار النظام الاموى يمكن وضع لغة البدو المثلثين فى المصر الوسيط وخلفائهم الطوارق المعاصرين ، وخاصة خط تلك اللغة التى لم تمت مستعملة كتابة منذ الفتح الاسلامى الا بشكل عرضى ، وسط الخط العربى واللغة العربية ، وسيلتنا التفاهم على المستوى الرسمى بشكل خاص . ومن الواضح انه على عكس ما قد يظنه البعض من ان اللغة العربية - بصفتها : لغة القرآن والاسلام - هى التى وضعت حدا لاستخدام اللغة والكتابة البربرية ، فالصحيح ان البربرية كانت قد اضمحلت تماما فى اعقاب الحكم الرومانى لبلاد البربر ، كما كانت الكتابة قد ضاعت تماما(٧٤) ، على امتداد ألف سنة تقريبا .

فعند وصول العرب الى المغرب الأقصى ( فى النصف الثانى من القرن الـ ٧ م ) كانت الرطانة اللاتينية متغلغلة بين البربر حتى قلب الصحراء فى بلاد الجريد وامتداداتها بالجزائر ، وفى واحات المغرب الأقصى . أما اللغة البربرية فكانت لاجثة فى مناطق الانعزال الجبلية والصحراوية ، كما فى جبل نفوسة وجزيرة جربة والقبائل ( بالجزائر ) ، وفى جبال مراکش ( السوس الأقصى ) (٧٥) ، حيث أن جبل « درن » يعنى « جبل الجبال »

---

= يتأكد الشباب من حب صاحبه له ، وكيف يتم ذلك ... ، وانظر أيضا: أبو زيد ، المجمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ص ١٨٨ - حيث النص على ان المجتمع يسمح للمرأة ( قبل الزواج ) بالخروج للرحى ( السرح ) فى الجبال والادوية ، وان القانون الرملى وسق القبر المساندة تعمل على الحفاظ على كرامة المرأة ، حيث اعتراض طريق الفتاة الرابعة يماثل الاعتداء على العرض ، وص ٣٠١ - حيث النص على العقوبات المشددة بالنسبة للاعتداء على المرأة ، وان كانت لا تتجاوز الغرامات الشديدة على كل حال .

(٧٣) الرحلة . تحقيق على الكتانى ، ج ٢ ص ٧٧٧ .

(٧٣م) انظر ج ١ ص ١١٠ .

(٧٤) ليون الافريقى ، ص ٧٩ .

(٧٥) انظر ليون الافريقى ، ص ٨١ - حيث النص ( فى القرن الـ ١٦ هـ ) على ان :-



(ما سبق ، ص ٦٩ ، هـ ٣٤) وحيث « نول » أو « نون » على حافة الصحراء ،  
تعنى الإبرة بالبربرية القديمة (٧٦) .

واللغة البربرية ( الأفريقية عند حسن الوزان ) تسمى عادة « اوان  
أمازيغ » أى اللغة النيلية ، من حيث هى لغة الفرسان ، وهى واحدة من  
مجموعة اللغات الحامية والأفريقية ، وإذا كان بينها وبين اللغة العربية شئ ،  
من التشابه ، فالرأى أن ذلك نتيجة الاحتكاك الحضارى ، وليس بسبب  
القرباة العائلية ( اللغوية ) (٧٧) .

والهم من كل ذلك أن الفضل يرجع الى النساء فى الحفاظ على اللغة  
البربرية فى مناطق الانعزال ، سواء فى الجبال منها أو الصحراوات أو الجزر ،  
حيث بقيت المرأة بعيدا عن مراكز العمران العربية ، وتأثيراتها الحضرية على  
المستويات الرسمية والشعبية ، لا تعرف الا لفتها الأم التى كان يتلقاها  
الأطفال حتى سن الشباب ( ج ١ ص ١١١ ) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة  
لانتشار المروبة ، ليس فى المغرب البربرى فقط ، بل وفى المشرق الايرانى ،  
حسبما نرى أيضا . والأهم من ذلك هو أن المرأة البربرية احتفظت ببقايا  
الكتابة الأفريقية ، ممثلة فى الرموز المستخففة فى الوشم الذى كان  
يستخدم لأسباب طبية علاجية أو لأسباب أخرى مثل تلك النقوش المستخدمة  
فى ذلك النوع من الحناء السائلة ( كالحبر الشينى البنى ) ، التى عرفها

« ضياع الكتابة الأفريقية منذ ٩٠٠ سنة ، واستعمال الحروف العربية بدلا منها ، وهـ ١١١ - حيث  
كان انتشار اللغة البربرية حتى جزر الكنارى ( الحالات ) ، وفى أواسط الصحراء الكبرى ،  
وغربها » .

(٧٦) ليون الأفريقى ، الترجمة ، ص ٥٢٥ ، وهنا يمكن القول أن آخر مجموعة موحدة  
لفويا تتكلم البربرية هى الموجودة فى الصحراء ، وأن لهجة أهل الصحراء هذه تنقسم من حيث  
التركيب الحرفى الى لهجة قرى جبال الأطلس الغربية . انظر لارود ، الجزائر ، بالفرنسية ،  
ص ٦٦ .

(٧٧) انظر ليون الأفريقى ، ص ٤٧ - حيث الإشارة الى أن وجود بعض الكلمات العربية  
فى اللغة البربرية يعنى وجود قرابة بين اللغتين ، فكأنها من عائلة لغوية واحدة . الأمر الذى  
نفسر على أساسه القرباة بين البربر والعرب الجعزين من اليمن - وقارن محمد سعيد القساطل  
التوارق ، ص ٢٩ - حيث تسمى لغة الطوارق حاليا ( تماشاك ) وهى « لانتيناغ » ، ص ٢١ -  
حيث النص على أنها لغة الفينيقيين لغى سامية عربية أصلا . مع الإشارة الى بعض التباين  
مثل : « أودم » = الوجه ، « أيسلان » = أسنالك عن حاله ، وص ٢٤ - حرف «  
( = ت ) ، وهو يرسم على رقاب الإبل ، لأنه أول حرف فى اسم « توارق » أو ( تماشق )  
وانظر ج ١ ص ٩١٠ ( عن البربرية ) ، ص ٨٧ والهوامش عن القرباة بين البربر وعرب  
اليمن .

المصريون باسم « حنة الزرافة » ، والتي كانت تزين أيدي النساء وأرجلهن في المناسبات الفرحية وخاصة زواج العروس « ليلة الحناء » .

والمعروف أن هذا اللون من زينة الحناء الذي كان منتشرا لدى عامة أهل الاسكندرية ( باب المغرب ) وربما لدى غيرهم ، كان مركبا من وحدات زخرفية صغيرة الحجم مما يشبه حروف الكتابات القديمة ، من : نبطية وثمودية وصفوية ( أو ديموطيقية ) ( ٧٧ م ) . ولهذا يرى البعض أن ذلك الطراز من حروف زخرفة الحناء النسائية لدى الطوارق بصفة خاصة ، والذي يسمى « تيفيناغ » هو آخر تطور لأشكال الكتابة البربرية ( ٧٨ ) .

وهكذا يمكن القول أن الصحراء ، على مشارف القرن الخامس الهجري

---

( ٧٧ م ) انظر الاستيعاب ، ص ٥٨ - ٥٩ وح ١ - حيث تخطيط للدم المصري القديم مع مقارنة بالحروف البربرية ، حسيما تصورها مؤلف القرن ١٢ م المغرب . وعن الآثار المصرية القديمة في الصحراء الانريكية الكبرى . انظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها . وفي ليلة الحنة في مصر الحديثة ، انظر ( و - و - لين ( Lane ) ، عادات وتقاليد المصريين الحديثين ( من مكتبة د - عبد المر ) ( *Manners and customs of the Modern Egyptians* ) ص ١٧٢ . عوان . عرف للمؤلف بالحفة المادية في شكل عجيبة يابسة دون إشارة الى حنة الزرافة المماثلة . انظر شكل ١٢ - حيث كتب امرأة ( عروس ) مزوقة بحنة الزرافة في أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة - من كتاب : فاطمة برنيس *Bernisse* بعنوان : جنس ، لكو . اسلام - مجموعة : المرأة والمجتمع . ترجمة فرنسية عن الأمريكية - صورة الفلاي - من مكتبة أحمد . أبو زيد .

( ٧٨ ) انظر ج ١ ، ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليونو الانريكي . ص ٨٠ وح ٨٨ ، وص ٨١ . وح ١٩١ - حيث النص على أن التيفيناغ لدى الطوارق هي الكتابة اللسية البربرية في شكلها الحديث أو أنها مشتقة منها على كل حال ، وقارن لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ، ص ٦٧ - حيث احتمال أن تكون كتابة التيفيناغ من أبجدية اللبيين ، وهي كتابة الطوارق وخاصة النساء ، التي يمارسها بتخيل التلاميذ الصغار المتدينين ، وهي ما زالت بالية ، على كل حال . وانظر شكل ( ١٣ ) نقش الحناء في يد العروس في المغرب ، صورة الفلاف لكتاب « فاطمة برنيس » ( *Fatma Bernisse* ) ، الجنس والفكر والإسلام ( *Sexe Ideologie* ) ( *Islam* ) باريس ١٩٨٣ . هذا ، كما يمكن أن ترى بعض حروف تلك الكتابة ، من : الدائرة والمثلثات ( دلسا ) والمخطوط المتدوجة في أشكال دائرية أو مدببة أو متقاطعة ، في التطريز الزخرفي « للشال » أو « الطرحة » النسائية ، من عمل راحة منيرة ، تمسك يروى بعض أبنائها ( أحمد السنوسي معروف ) .

( ١١ م ) ، كانت مركز جنب للتقاليد المغربية القديمة وحفظ لها ، فى مقابل بلاد المران الشمالية التى صارت مركز قلقلة وطرده ، نتيجة للصراع بين القبائل الصنهاجية والزناتية ، تحت رايات القوى المتنافسة من الفاطميين فى أفريقية والأمويين فى الأندلس ، الأمر الذى ازداد اشتعالا بقدم الهلالية الى المغرب تحت تهديد الفاطميين وترغيبهم ، وذلك ما يقتضى التعريف بأحوال أهل الصحراء الملتزمين الثقافية والدينية من حيث كونها المدخل الطبيعى لنهم أصول حركة الأحياء المرابطية .



شكل رقم ١٣ - كف امرأة ( عروس ) مزوق بحنة الزرارة فى اشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة

### مقدمات الحركة المرابطية :

خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى ( ١١ م ) :

يتطلب رسم خريطة ثقافية لصحراء المغرب الكبرى قبيل ظهور المرابطين ، قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى ( ١١ م ) أن نتعرف على المراكز العلمية المحيطة بالصحراء ، والتي كانت على صلة بها عن طريق خطوط القوافل ما بين الشمال حيث حضارة المتوسط الإسلامية ، والجنوب حيث حضارة السودان الأفريقية والمتطورة تحت التأثيرات الإسلامية الوافدة .

وأول ما يلاحظ هو أن قبائل الصحراء في ذلك الوقت ، ورغم دخولها في الإسلام منذ فترة مبكرة ، فإنها لم تكن تعرف من الإسلام إلا واجهته السطحية من حيث كونه دين التوحيد الإلهي في مقابل التعددية في عبادة الأصنام أو الكواكب والنجوم مما كان يعرفه الصابئة أو عبادة النار المجوسية ، أو السحر والشموعة مما يدخل في عبادة الأرواح من خيرة وشريعة ، أو الطوطمية حيث عبادة الحيوان من داجن ووحش ، مما يرجي خيره ويتقي شره . وليس من المستغرب أن كانت مثل هذه الممارسات موجودة ، وخاصة في المناطق المنعزلة حيث كان لها أثر في تحوير الفكر الإسلامي وتحريفه ، في كثير من المناطق المنقطعة ، والتي كانت أرضا صالحة لانتشار المذاهب المارضة لدولة الخلافة - إن لم نقل للسنة والجماعة .

ونظرة خاطفة على خريطة المغرب الدينية توضح أن الصحراء الكبرى كانت واقعة تحت ضغوط المذاهب الشيعية والخارجية بفرقها المختلفة ، منذ وقت مبكر . فمذهب الزيدية ( الشيعي المعتدل ) بدأ ينتشر على حدود الصحراء بفضل جهود الإدارة الذين بنوا مدينته تامدلت على مسافة ٢٠٠ كم. شرقي درعه ، في قلب وطن المؤمنين من بني ترجاء ( الطوارق ) (١) .

---

(١) انظر البقوي ، ص ٣٥٩ - حيث أسسها عبد الله بن إدريس العلوي . في موضع تحيط به مناجم الذهب والفضة ، وإن أهل المنطقة هم بني ترجاء . وتضيف الرواية أن الطريق إلى بلد غشت ( أودغست ) فيه المنازل - وفيه ملك لا دين له ، يفرزو بلاد السودان وممالكهم . وقارن الكبرى ، ص ١٦٣ - حيث مناجم الفضة دول ذهب .

والظاهر أنه منذ هذا الوقت بدأ التشيع الفساطمي الاسماعيلي في الانتشار في شقوق جبال أطلس الصحراوية ، في منطقة تازارت ، حيث منجم الفضة القديم الذي كان يستقله الصنهاجيون من بني ماغوس ، وبني المناس ، والذين كانوا قد اعتنقوا جميعا مذهب الاسماعيلية ( الروافض ) الفاطمي على أيدي بعض دعاة المذهب القادمين من نفطة ( من بلاد الزاب ) قبل دخول إبي عبد الله الشيعي أفريقية . هذا ولو أنه يفهم من الرواية أن الأدارسة كانوا قد نجحوا في اكتساب هؤلاء الاسماعيلية الذين عرفوا باسم البجليين عندما نشروا بينهم فكرة أن الإمامة تكون في ولد الحسن ، وليس الحسين (٢) . هذا ولو أن التشيع الفاطمي لم يلبث أن كانت له الغلبة في قلب صحراء المغرب الأقصى حيث تمت الهيمنة على مدينة سجلماسة التي صارت جزءا من المملكة العبيدية (٣) . وبفضل دعاة التشيع الاسماعيل الفاطمي ، المبني على إمامة الحسين ، الإمام المستقر ، عرف ذلك المذهب في قبيلة مراسة الصنهاجية ، القاطنة في مدينة بوغرات ، جنوب بالسودان (٤) . كما كان سكان مدينة تيووين في بلاد السوس شيعية جعفرية (اثنى عشرين) ، مقابل أهل تارودانت المالكية الحشوية (٥) .

والى جانب الشيعية كان الحوارج الصفرية قد سيطروا على حدود الصحراء في سجلماسة وتمكنت الأسرة المردارية من التثبيت بها رغم الفتح الفاطمي (٦) . وإذا كان التأثير الخارجي غير واضح بين قبائل صنهاجية الصحراء ، فإن تجار تاهرت الاباضية كان لهم نجاحهم في نشر الاسلام في السودان ( ج ٢ ، ص ٤٠٦ وه ٣٩٢ ) . ومن بين الاباضية من تجار أودغست ، أهم مركز تجارى جنوب الصحراء في القرن الرابع الهجرى ( ١٠ م ) ، أبو رستم النفوسى الذى تروي له بعض مشاهداته الطريفة في بلاد السودان (٧) .

والى جانب خصوصيات مذاهب المعارضة الشيعية والخارجية ، كان

(٢) البكرى ، ص ١٦١ .

(٣) انظر ج ٣ ص ٩١ ، ٢١٧ ، ٣٤٣ .

(٤) الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث كان تفسير الدعاة لصوت طائر هناك ، بأنه يعبر عن النداء بمقتل الحسين في كربلاء .

(٥) الادريسي ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٦) ج ٣ ، ص ٢٢٧ - حيث تحولت الامارة في سجلماسة الى خلافة .

(٧) البكرى ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - عن محاسن نساء أودغست .

لصحراء خصائصها المميزة مما يتمثل في التنظيمات الاجتماعية والأنساق العرقية والمعادن والتقاليد ، إضافة الى ما سبقته الإشارة اليه من نظام الأسرة الأموى ، وما كان للمرأة من الحرية عند بربر الصحراء ( ما سبق ، ص ١٢٥ ) ، وما كان دارجا من اجراءات التحقيق مع المتهمين فى جرائم السرقة وغيرها ، مما يشبه نظام المباحلة أى الحكم الإلهى ( الأوردالى : Ordalie ) ، مما نراه من عادات الصحراويين عند البكري (٧ م) .

فالادريسي ( منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ) ، يصف أهل السوس - دون تفرقة بين السنة والشيعة - بأنهم أرق الناس عيشا ، وانهم يشربون نوعا من النبيذ الحلو المذاق ، المهد من عصير العنب المطبوخ ، والذي يعرف بالأنزاز ، ويسكر سكرًا عظيما . وفى أواخر ذلك القرن كان أهل السوس متخصصين فى عمل أنواع من النبيذ المستخلص من عسل بلدهم الفخار الذى كان يتطلب شرابه التخفيف بالماء بنسبة ١٦ ( ستة عشر ) مثلا ،

ليخرج بديع اللون الأخضر الذى يشبه الزمرد (٨) . ومن الواضح أن شرب هذا النبيذ كان مباحا على أساس ما كان معروفا من تحليل شراب بعض أنواع النبيذ (٩) ، على مذهب أهل العراق ، على ما نظن . والذي يلفت النظر أن مثل هذا النبيذ لم يكن منتشرا فى القرن الـ ١٦ م / ١٠ فقط ، حسب رواية الحسن الوزان ، فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد السكر وحدها ، بل وفى غيرها من قرى جبال درن (١٠) . والمهم هنا الإشارة الى أن ما كان يمارس على تخوم الصحراء من اختراقات للشرعية فى مجالات الطعام والشراب ، لم يعرف مثله فى الصحراء الفقيرة ، التى ربما كانت فى حاجة الى الملح أكثر من احتياجها الى المواد السكرية ، وما يستخرج منها من الأغذية الكمالية .

أما آفة الصحراء والبدو عامة وفى كل مكان ، فهو الفقر الذى كان يؤدى الى اختراق شرائح الأحوال المدنية ، وخاصة عند القيام بأعمال السلب والنهب والقتل ، واختطاف الذراري والنساء ، وخاصة على حدود السودان

---

(٧) انظر البكري ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه من سيرة أهل الصحراء لشتم أن يصعدوا الى عود فيقتل بالكتين ويغمد على صفديه فى متم رأسه ومؤخره فلا يتماثل أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشده .

(٨) الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٩) الادريسي ، ص ٧٩ .

(١٠) ليون الأفريقي ، ص ٣٢٦ فى فاس ومملكته ، ص ٣٣٢ فى جبال القبائل المختلفة

» حيث الكرم والسبل « .

- مورد العبيد :- الذهب الأسود في تلك العصور . وهكذا كانت قبائل  
لطة وجزولة ، أشهر قبائل المثلثين ( الطوارق ) في مطلع القرن الخامس  
الهجرى ( ١١ م ) ، تغير على قوافل التجار الوافدة على السودان والمخارجة  
منه ، وذلك فى منطقة عقدة المواصلات ، ومحطة المياه ، على مسافة ٥  
( خمسة ) أيام ( حوالى ٢٠٠ كم ) شمال أودغست (١١) \* ولا ندرى ان  
كان نتاج مثل أعمال السلب هذه هى التى كانت تدير سوق منطقة جزولة  
فى القرن الـ ١٦ م والتى كانت تستمر حسب رواية الحسن الوزان لمدة  
شهرين ، وإن كانت المنطقة غنية وقتئذ بمناجم النحاس التى كانت تصنع  
منه أوعية بديعة تصدر الى مختلف الأنحاء لمقايستها بالأقمشة والتوابل  
والخيول ، رغم وصفه السكان بأنهم أجلاف لا يعرفون العملة (١٢) . وهكذا  
يلخص الحسن الوزان أحوال المثلثين المعيشية على أيامه ( القرن ١٦ م ) بأنها  
حياة صيد وسرقة ابل أعدائهم ، وأنهم قوم لا يخضعون للنظام - رغم طاعتهم  
لأميرهم واحترامه ، كما يأخذ عليهم الجهل فى الآداب والفنون والمعارف (١٣) .  
وبينما ينصرف الزوج الى حب المتعة والمرح والرقص ، يستنكر الوزان  
عيوب الأفارقة ( البربر ) ، من : الفقر وسرعة الغضب والتعارك ، الى عدم  
العفة والديوثية ، حتى ينتهى قائلا : « أشعر بالخياء لأن أفريقيا كانت  
موطنى » (١٤) - ولا ندرى ان كانت مثل هذه المشاعر تراود زوار أوروبا  
والعالم الغربى من الأفارقة بعامة ، بيشا كانوا أم سودا .

حقيقة أن بعض رواد الإصلاح الأوائل من زعماء المثلثين ، مثل يحيى  
ابن ابراهيم الجدالى قد نص على أن قومه كانوا يعانون من الجهل ، ولا يعرفون  
قراءة القرآن ولا تعاليم الاسلام الأولية التى يدعو اليها القرآن والسنة (١٥) ،  
ولكنه من الواضح أيضا أن الصحراء لم تكن خلوا من الحياة الروحية  
والثقافية ، بفضل مراكز التجارة والحضارة التى كانت بطبيعة الأحوال  
مراكز العلم والدين ، وخاصة سجماسة وأودغست بالنسبة للسودان  
الغربى ، وتادمكة بالنسبة للسودان الأوسط ، فى مقابل مركزى الاشعاع  
الرئيسيين فى قاس والقروان .

(١١) البكري ، ص ١٥٧ - حيث النص : وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان ،  
وهو موضع مشرف تشرف فيه لطة وجزولة على الرقاق ، ويشتدونه رصدا لهم .

(١٢) ليون الافريقى ، ص ١٥٥ .

(١٣) ليون الافريقى ، ترجمة : حميدة ، ص ٦٧ .

(١٤) ليون الافريقى ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(١٥) القزطاس ، ص ١٢٢ - ١٣٢ وما يأتى من ١٧١ .

فسيجلطاسة التي زارها ابن حوقل في سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م ، كانت أكثر بلاد المغرب مشايخ في حسن سميت وممازجة للعلم (١٦) . وأودغست التي يمر بها اليعقوبي ( في أواخر القرن ٣ هـ / ٩ م ) باسم « غشط » ، كانت في حوزة ملك ملحد ( لا دين له ) يحارب ملوك السودان (١٧) ، الأمر الذي أنهى بغلبة ملك غانة عليها . والمعروف أن الزناتية والمرب كانوا يكونون الكتلة الكبيرة من سكان أودغست في مطلع القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) ، وانهم كانوا مياسير يعملون في مرافق التجارة ، ولهم من العاملين في تلك النشاطات الألف رجل أو أكثر ، من الخدم المتمرسين والعيبد الحمالين (١٨) . ولا بأس أن يكون ما يشير إليه البكري من التباغض والتدابير بين الفريقين يعنى التنافس بينهما في الأعمال التجارية ، ومحاولة استئثار كل جماعة منها بالنصيب الأعظم منها .

وهكذا لا نجد لأودغست نشاطا في ميدان العلوم والفنون ، حتى بقعة إن دخلت في طاعة المرابطين . فصاحب الاستبصار ( في أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ) يصف أهل أودغست بأنهم أخلاط من الناس من جميع الأنصار ، يسكنون المنازل الرفيعة (١٩) ، دون إشارة إلى أى نشاط ثقافي أو علمي بينهم ، مما يعنى انشغالهم بأمور التجارة وخدماتها . ومثل هذا يقال عن تادمكة ، شرقي الصحراء على سميت غدامس ، رغم ما يقال من أن اسمها يعنى « شبيهة مكة » ، وأن أهلها مسلمون ، إلا أنهم مشغولون بأمور التجارة وخدمات التجار (٢٠) .

وهكذا لم تكن تسمح طبيعة الحياة الصحراوية البسيطة ، حيث الاشتغال بالرعى أو التنقل على طول طرق التجارة أو حتى الإقامة في مراكزها الكبيرة في حركتها الدائبة ، من الاشتغال بالعلم والثقافة . وهم لذلك لم يعرفوا النشاط الفكري وحياة التأمل الديني إلا في مراكز المغرب الكبرى ، وخاصة في فاس والقيروان ، عاصمتي المغرب وأفريقية .

(١٦) ابن حوقل ط بيروت ( الحياة ) ، ص ٩٦ ، وانظر الطبيب الجياني ، المغرب : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٧٥ ، وقارن ليون الأفريقي ، ص ٥٠٤ - حيث كان أهل فيليق ( على بعد ٢٥٠ كم شرق سبجلماسة ) يتصرف بعضهم بالتجارة في السودان وغيرهم ينهب إلى فاس للدراسة إما لو خطيبا .

(١٧) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ .

(١٨) البكري ، ص ١٦٨ .

(١٩) الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(٢٠) البكري ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .



## فاس والقروان وحركة الاشعاع الاسلامي في مطلع القرن الهـ ١١ م : تمهيد :

والحقيقة أن النظرة الفاحصة في سير علماء الدين والثقافة في الفترة ما بين أواخر القرن الهـ ٤ / ١٠ م ومنتصف القرن الهـ ٥ / ١١ م ، تبين أن كلا من فاس والقسيروان ، كانت وقتئذ مركزا علميا مرموقا ، رغم الاضطرابات السياسية التي عمت بلاد المغرب كنتيجة حتمية لسقوط كل من دولتي الأمويين والفاطميين في الأندلس والمغرب ، وقيام نظام حكومات المدن المتفرقة والمشاتر ، المعروف بنظام الطوائف . ويرجع الفضل في ذلك الى كل من جامع عقبة العتيق بالقروان ، وجامع القرويين العريق بفاس ، إذ كان كل منهما بمثابة جامعة أو معهد علمي عال في أيامنا هذه ، وذلك بفضل نظام القراءة والسماع والكتابة ، والأخذ عن المشايخ . وبفضل نظام الاجازة ( العلمية ) التي تشبه الشهادات الجامعية الحالية ، مما كان يعطى شفاهة بشكل مباشر في أول الأمر ، ثم صار يعطى كتابة عن طريق المراسلة ، لبعض من لم تتيسر لهم الرحلة لطلب العلم أيضا . ولا بأس أن يكون لنظام الاجازة صلة بنظام المدارس الذي كان قد ظهر حينئذ في المشرق الايراني ، مركز العلوم والثقافة الذي كان يرفد مراكز العلم في الشام ومصر والمغرب والأندلس - فضلا عن الحجاز ، وخاصة في موسم الحج .

وبناء على الموقع الجغرافي يكون الوضع العلمي في تلك البلاد متناسبا طرديا أو عكسيا حسب القرب أو البعد من مركز المدارس الذي انتقل الى بغداد السلجوقية مع بناء النظامية في أواخر هذا القرن ( الهـ ٥ / ١١ م ) . وبذلك تصبح بغداد بحر العلم الذي يفيض على ما حوله ، من أهل الشام والحجاز ، ومصر ثم المغرب والأندلس . والمهم في حالة الأندلس أن علماءها لم يكونوا ينتظرون وصول التأثيرات العلمية المشرقية الى بلادهم ، بل كانوا يبادرون بالسير الى مراكزها المشرقية على طريق الحج ، مروراً بالقروان ، ومصر ( الفسطاط والقاهرة ) التي كثيرا ما كانوا يحطون الرجال فيها للأخذ والعطاء ، سواء في طريق الذهاب أو طريق العودة . وهنا تقدم سير رجال الأندلس - الى جانب رجال القروان - معلومات ثمينة عن الأحوال العلمية او الثقافية الدينية ، مما سيكون له اثره الحاسم على قيام حركة التجديد في

صحراوات أفريقيا الشمالية ، وتوايها ، على أيدي أهل الصحراء أنفسهم من المرابطين الملتزمين .

والمهم هنا أن انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر سمح للقيروان وعلماؤها من أهل السنة وخاصة المالكية ، بتنفس الصعداء على عهد الامارة الزيرية التي كان يهيمها التقرب الى أهل البلاد ، ولو بشيء من السתר أو الخفاء عن أعين عملاء الخلافة في البلاد . وهكذا كانت القيروان أول محطة رئيسية ينزلها علماء الأندلس الرحالة في سبيل تحصيل العلم وأداء فريضة الحج ، فكانوا يأخذون من مشايخها في طريق الزهاب ، ويقدمون لهم ما يحصلون عليه من العلم ، سواء في مصر ( الفسطاط ) التي طلت منارة لعوام أهل السنة ، ومقصدا لطلاب المغرب والأندلس طوال العصر الفاطمي ، نتيجة للسياسة المعتدلة التي سار عليها الأئمة الخلفاء ووزرائهم في القاهرة ، والتي جعلت من التشجيع الاسماعيلي مطلبا خاصا لأهل الدولة ، ومن يدور في فلكهم ، دون غيرهم . أما عن مكة ، نهاية المطاف بالنسبة لحجاج المشرق والمغرب ، فكانت مجمع علماء الاسلام جميعا ، من أهل السنة والظاهرين ، أو من أصحاب المذاهب المأروضة المستترين ممن كانوا ينتهزون فرصة الموسم لنشر أفكارهم ، والتعرف على أحوال اخوانهم - خاصة وأن بغداد كانت وقتئذ ، تحت سيطرة البويهيين الشيعة الزيدية . وبطبيعة الحال كان الغالب على مكة هم علماء المشرق الوافدين من العراق وطبرستان وفارس وخراسان ، ممن كانوا يحملون القباب مدنهم أو أقاليمهم ، أو مذاهبهم السنية في بعض الأحيان .

ولا شك أن تعرض المشرق الايراني لقلقلة هجرات القبائل التركية المتواترة ، من : الأوجور والحطا والفرخانية والغز ، مع ما صاحب ذلك من عملية احياء اللغة الفارسية - اعتبارا من القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م - كانت من الأسباب التي أدت الى توجيه هجرة كثير من علماء خراسان وفارس الى العراق والشام والحجاز ومصر ، الأمر الذي انتهى بتميز المدرسة المصرية من حيث اشتغال مناهجها على مقررات من العلوم العقلية الى جانب الدروس النقلية التقليدية ، مقارنة بعلوم المدرسة المغربية الأندلسية ، المحافظة أصلا . ولما كانت رحلة العلم المغربية تنتهي عادة في مكة ، وفي موسم الحج خاصة ، كانت المدرسة الحجازية في الحرمين الشريفين هي الرافد الأول لعلماء المغرب والأندلس ، قبل المدرسة المصرية ، في تلك الفترة السابقة على قيام المرابطين في المغرب ، اعتبارا من أواخر القرن الرابع الهجري ( ١٠ م ) حتى قبيل منتصف القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) .

## المدرسة المكية :

وتتمثل المدرسة المكية كما نرى ، في جمهرة علمائها وفيما يقدمونه من مقررات دراسية ومناهج أو أساليب في طرق التعليم . فمن قدامى الأساتذة بالنسبة لطبقة الأندلس والمغرب وعلمائها ، في الفترة مجال البحث ، الأجرى ( أبو بكر ) الذي يرد ذكره في الرحلة العلمية التي قام بها ( سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ) الأيادي ( القرطبي ) حيث قرأ عليه المدونة المستخرجة ( من الموطأ ) وغيرها (٢١) . كما لقيه الدجاج ( القرطبي ) الذي كان معنيا يعلم الحديث . وإن كان في نفس الوقت متهما باتجاهاته الكلامية وميوله العقلانية نحو مذهب محمد بن مسهر (٢٢) . وائر ذلك أتى الدينوري ( أبو اسحق ) والبلخي ( أبو عبد الله ) والصيدلاني ( أبو يعقوب يوسف بن أحمد ) ، الذين لقيهم ابن الحذاء ( القرطبي ) في رحلة حج سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، وكان محدثا يلقب عليه علم الأثر ، وله كتاب التعريف في ذكر ما في موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء (٢٣) . ولقد سمع من الصيدلاني بعد ذلك ، ابن ميمون الطليطلي سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٢٤) .

ويضاف الى هذه الطبقة : النيسابوري ( أبو أحمد الحسن بن علي ) والمرجاني ( أبو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم ) ، ولهما ذكر في رحلة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م التي لقيهما فيها القناعزي ( القرطبي ) الذي جمع الى تعمقه في علم الحديث والخبرة بالمذهب المالكي حتى أنه جمع تفسيراً للموطأ حشد فيه ما نقله من موطأ يحيى بن يحيى وموطأ يحيى بن بكير ، الاجتهاد بالقرآن والمعرفة بالمستنبط من الرأي ، وفي هذا المجال اختصر تفسير القرآن لابن سلام (٢٥) .

(٢١) الأيادي هو أبو محمد مسلمة بن محمد ابن مسلمة - توفي في ذي الحجة ٣٩١ هـ / ديسمبر ١٠٠٠ م ، انظر ابن القزويني ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٧ ، ترجمة رقم ١٤٢٢ .

(٢٢) الدجاج هو أبو القاسم رشيد بن محمد - ت في آخر رجب ٣٧١ هـ / ٥ نوفمبر ٩٨٦ ، انظر ابن القزويني ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ص ١٢٦ ، ترجمة رقم ٤٢٧ .

(٢٣) والحذاء هو : أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد التميمي - ت ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، انظر ابن القزويني ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٨٧ ، ترجمة رقم ١٦٧٨ .

(٢٤) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم الترجمة ٣٥ ، ص ٢١ ، وانظر فيما يأتي .

ص ١٤٥ .

(٢٥) والقناعزي هو : أبو الحارث عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الأنصاري - ت مولده في ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ووفاته في رجب ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . انظر ابن بشكوال الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ ، ص ٣٦٦ .

أما عن طبقة الجيل التالي - بالنسبة لفترتنا - من المكين فيمثل في المعجفي ( أبو الطاهر محمد بن جبريل ) الذي يرد ذكره في أكثر من رحلة من رحلات الأندلسيين العلمية ، كما في سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلي (٢٦) ، وابن قرقمان الطلمنكي الذي انصرف الى قرطبة بعلم كثير ، جمع فيه ما بين علوم القرآن والحديث ومذاهب السنة ، وأصول الديانات (٢٧) . كما سمع منه ابن ذنين الصدفي ( الطليطلي ) ، وكانت له رحلة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م . وكان الخالب عليه رواية الحديث وكتابه ، وقراءة الآثار والعمل بها ، كما التزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقوم بذلك بنفسه ولا تأخذه في الله لومة لائم - وله كتاب الأمر بالمعروف (٢٨) . وأبو المطرف الصدفي ( الطليطلي ) الذي كانت له عناية كاملة بالحديث (٢٩) .

وإبن جهم ( أبو الحسن ) واحد من أعلام هذا الجيل من المكين ، فله ذكر في العديد من رحلات المسلم ، في سنوات ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ، و ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ، حيث سمع منه ابن ميمون ( ما سبق ) ص ١٤١ . وابن جهور ( سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ) أبو عمرو أحمد بن محمد ( المرشاني

---

(٢٦) وابن ميمون ، هو : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي - ولد ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م وتوفي في ٢٢ شعبان ٤٠٠ هـ / ١٨ ابريل ١٠١٠ م ، تعلم بقرطبة وحل الى الشرق . سنو ٣٨١ هـ / ٩٩١ م بصحبة ابن شظير ، وسمع بسكة والمدينة ومدين وأيلة والقلازم . وعصر وطرابلس والقبروان والمسيلة وتيس ، واستوطن طليطلة - والتزم الرباط بالمهين . وكان فاضلا ورعا يأخذ نفسه مأخذ الأبدال ، وتنسب اليه كرامة عدم احتراق مكتبته عندما احترقت داره وهو في الرباط - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ ، ص ٢١ - ٢٣ . (٢٧) ابن بشكوال ، ترجمة رقم ٩٠ ، ص ٨ - ٢٤٧ - حيث ابن قرقمان ، هو : أحمد بن محمد المافري مولد بطليطلة ٣٤٠ هـ / ٩٥٠ م وسكنه بقرطبة ، ووفاته بطليطلة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م - أحد الأئمة في علم القرآن : قرائته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخة ومعانيه ، كما شملت عنيته بالحديث : نقله وروايته وضبطه وعرفته رجاله وحملته . وكان سلفا مجردا على أهل الأمراء والبدع ، غبورا على الشرية ، شديدا في ذات الله تعالى . أقرأ الناس محتسبا وأسسمهم الحديث ثم خرج الى النفر فتجول وانتفع الناس بسلامه .

(٢٨) وابن ذنين هو : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سميد - وتوفي في ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م ، ابن بشكوال ، الصلة ترجمة رقم ٥٨١ ، ص ٢٥٩ . (٢٩) وهو عبد الرحمن بن عثمان بن سميد - ولد ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م - وتوفي في ذي القعدة ٤٠٣ هـ / مايو ١٠١٣ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ ، ص ٣٠٧ .

- القرطبي - ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م (٣٠) الذي وحصل الى المشرق وحج سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، وجاور أعواماً ، وروى عنه أبو القاسم بن الفرج ابن فارس ( القرطبي - ت ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م أو ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ) ، كما أخذ عنه (٣١) .

ومن أشهر من أخذ عن ابن جهضم : القضاعي ( أبو محمد عبد الله ابن بكر بن قاسم : الطليطلي ، ت ١٠٣٨ / ٤٣١ م ) وذلك في رحلته سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م (٣٢) ، وابن الغرضي ( أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الآزدي : القرطبي - ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ) ، صاحب ابن بشكوال ونظيره في الأخذ معه عن أكثر الشيوخ ، مؤلف تاريخ علماء الأندلس ، الذي توجه الى المشرق في طلب علم الحديث (٣٣) ، والشنتجياي ( أبو محمد عبد الله ابن سميد بن لهاج الأموي - ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م ) الذي جاور طويلاً بمكة ابتداء من سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ولدة ٤٠ سنة ، سمع فيها من المشايخ واهتم بكتابة الحديث (٣٤) .

وثالث المعاصرين من هذا الجيل من كبار علماء مكة ، هو السقطي ، وله ذكر في رحلات ١٩٩١ / ٣٨٠ م ، ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلي (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو بصحبة نظيره في الجمع والآثار : ابن شنظير ( ص ١٤٢ هـ ٢٦ ) ، ولقيه ابن الميراثي البلبوي ت ٤٣٨ هـ / ١٠٣٦ م (٣٥) ، وابن افرانك ( ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ) (٣٦) .

(٣٠) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٩٥ ص ٥٠ . حيث أخذ أيضاً عن السقطي ، كما أخذ عن أبي سعد الواعظ كتاب « شرف المصطفى » من تأليفه .

(٣١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٢٤٩ / ص ١١٢ - حيث النص ( عن ابن بشكوال ) على ان أبا القاسم أصبح كان حافظاً للغة ورأى مالك ، وأنه روى العلم (الحديث) عن ابن جهضم ، وأخذ عنه ، كما كان متاخلاً عند قطاع الطرق على قوافل الحج .

(٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٨٦ ص / ٢٦٣ .

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٧ / ص ٢٤٨ .

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٩٣ ص / ٣٦٧ .

(٣٥) وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى ( القرطبي - ولد ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وتوفي في ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧ / ص ٤٦ .

(٣٦) وهو أبو القاسم حكم بن محمد بن حكم الجذامي ( القرطبي ) ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥١ - حيث النص على انه روى عن جماعة من كبار المحدثين ، كما كان صليبا في السنة ، متشددا على أهل البدع ، ورعا ، منقبضا عن السلطان ، يتميز من نفسه حل بيده ، يضارب له بها بعض ثقات اخواته .

وابن جهور المرشاني ت ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م ( ص ١٤٤ ) ، وابن ذنن الصدفي ( ت ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م ) في رحلته سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩٠ م ( ص ١٤٢ ) ، كما سمع منه الشننجياني في رحلته سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م ( ص أدناه ) ، ويأتي بعد ذلك العبقي ( أبو الحسن أحمد بن فراس ) الذي سمع منه كل من الشننجياني أيضا ، في رحلته ٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م ، وابن الصيرفي ( المقرئ ) ، المحدث في رحلته ( في مطلع القرن الـ ٥ هـ/ ١١ م ) ( ٣٧ ) ، ثم ابن الدخيل ( أبو يعقوب يوسف ) ، وله ذكر في رحلات سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م ، ٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م ، حيث لقيه ابن افرانك ( ص أدناه ) وابن الغرضي ( ص ١٤٧ ) .

ثم أبو الفضل الهروي ( أحمد بن أبي عمران ) الذي لقيه في سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م كل من ابن افرانك ، وابن بنوش ( القرطبي ) المعروف بأنه عدل من أهل العلم والحديث ( ٣٨ ) .

وأبو ذر الهروي ( عبد بن أحمد بن محمد بن ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣ م ) ، الذي لقيه سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م ، ابن بكر الأنصاري ( ٣٨ م ) سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م ، والشننجياني ، وفي رحلة سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٧ م القضاء أيضا ( ص ١٤٩ ) ، كما أخذ عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن طاهر المرسر ( ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م ) ( ٣٩ ) . أما أهم تلاميذه أبو ذر الهروي من الأندلسيين فهو أبو عمرو الصدفي ( ٤٠ ) .

---

( ٣٧ ) وابن الصيرفي ، هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي ( القرطبي ) مولد ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - توفي في ٤٤٤ هـ / ١٠٥٤ م ، ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨ .

( ٣٨ ) وابن بنوش ، هو : أبو محمد عبد الله بن ربيع النخعي ، مولد ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م وتوفي في ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٧٦ / ص ٧ - ٢٥٦ . ( ٣٩ ) هو أبو محمد عبد الله بن الوليد ابن سعيد ، الذي استوطن مصر ، وتوفي بالشام سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م - ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٦٠٩ / ٤٧١ .

( ٤٠ ) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٧٢١ / ص ٣٣٢ - حيث النص على أن مولده كان في ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، فكان رحلته التي أخذ فيها أيضا عن كريمة المروزية بسكة تمت في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري ( ٩٩ م ) .

( ٤٠ ) عثمان بن أبي بكر بن حمود - توفي في ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، انظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧٦ ص ٤٠٠ - وحيث النص على أنه مات وهو في طريقه إلى القسطنطينية سفيرا عن السلطان صاحب القديرون . أما من أهم أعمال أبي عمرو الصدفي =

وبعد عالمى هرات يأتى الجيل ( أبو القاسم سليمان المالكي : نسبة الفد مقاطعة جيلان ) ، وله ذكر فى رحلة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، حيث لقيه ابن سعيد ( ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ / ١٧ يناير ١٠٣٧ م ) (٤١) . والرازى ( أبو العباس أحمد بن بندار ) الذى لقيه ابن عبد المولى الأنصارى ( الطليطل ) فى رحلته المشرقية (٤٢) .

### المدينة :

اما عن علماء المدينة المنورة فيذكر منهم جعفر بن الحسن ( قاضى المدينة ) الذى روى عنه ابن الحداد ( الطليطل سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ) ، وأبو الحسين يحيى بن محمد الحسينى الحنفى ، وأبو عبد الحسن المقرئ ثم أبو محمد الزبيدى ، ولهم ذكر فى رحلة ابن ميمون الذى سمع منهم سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ( ما سبق ، ص ١٤١ ) .

### المدرسة المصرية :

وأهم سمات المدرسة المصرية انها كانت تمثل حلقة الوصل بين مراكز الثقافة الإسلامية فى إيران والعراق والحجاز وبين المراكز العربية فى المغرب والأندلس ، الأمر الذى يعنى رفاة الفكر التقليدى الذى نشأ فى دار الهجرة النبوية ممثلا فى علوم الحديث والذى انتقل عبر مصر الى المغرب والأندلس ، بالفكر العقلانى المتجدد ، والمتمثل فى الاجتهادات الفقهية وأصول استنباط الأحكام ، الأمر الذى جعل من مصر محطة تشد علماء المغرب والأندلس الذين كثيرا ما استقروا بها ليس للدراسة فقط ، بل وللتدريس أيضا - الأمر الذى يعنى نوعا من الربط بين الثقافة المصرية ونظيراتها المغربية والأندلسية .

وأشهر علماء مصر فى تلك الفترة هو ابن رشيق ( أبو الحسن ) الذى.

---

= العلمية فهو ما قام به باصيهان من كتابة ١٠٠٠٠٠ ( مائة الف ) حديث ، أخذها عن ابن نعيم الخافظ ، الى جانب ما أخذ من غيره من علماء المشرق كالفوسى والصاويى والكازرونى وكريمة بنت أحمد السرخسية .

(٤١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٤٩٣ / ص ٢٦٨ .

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن الفرج الذى استقر بمصر ، يدرس صحيح مسلم ، وكتاب الفريفة للأجربى ، وله شعر فى اعتزازه بكتبه التى كان يمز عليه حبسها عنه مستميرها - توفى بالتسلط بالمارستان ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، اثر خيل ألم به فى آخر عمره ، انظر ابن الفريفة تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ١١٥ ، ترجمة رقم ١٧٥٧ .

أخذ عن ٧٠٠ ( سبعة مائة ) محدث ، والذي حمل لقب المعدل الى جانب  
المصري وتعلم عليه عدد كبير من طلاب الأندلس ، خلال ما يقرب من نصف  
قرن ، ما بين ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ،  
٣٩٥ هـ / ١٠٥٥ م . وأول هؤلاء هو ابن فرتون ( أحمد بن خلف المديوني -  
ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م ) الذي روى عنه (٤٢) ثم أبو القاسم بن الأمل  
( القرطبي - ت ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦ ) في رحلته سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م حيث  
أخذ عنه (٤٤) . ومن أشهرهم القنازعي الذي حصل على إجازته له ، في  
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م (٤٥) . ومن كتب عن ابن رشيق في سنة  
٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ، ابن سعيد الحير ( الوشقي - ت في رمضان ٤٢١ هـ /  
سبتمبر ١٠٣٠ م ) (٤٦) ، وابن الحراز ( الهمداني - ولد ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م -  
ت ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ) في رحلته التي روى فيها عنه (٤٧) أبو القاسم  
الأنصاري ( ت في ذي الحجة ٤٠٦ هـ / نوفمبر ١٠٦٤ م ) الذي سمع منه  
وحصل على إجازته له (٤٨) ، وابن خرون ( أبو محمد عبد الله بن سعيد -  
القرطبي ، ت ربيع الثاني ٤٠٣ هـ / أكتوبر ١٠١٢ م ) الذي حصل على  
إجازة ابن رشيق ، وكان يحدث بالمعدونة (٤٩) .

ويستغل في زمرة الحسن بن رشيق من كبار العلماء المصريين : الأدفوي ،  
وأبنا غليون الأب ( أبو الطيب ) والابن ( أبو طاهر ) ، وأبو بكر المهندس ،  
وابن ماهان ، والجوهري وابن سعيد ، والكناني ، وابن النحاس ، والحسن  
ابن شعبان ، وابن التمار ، وغيرهم .

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١ / ص ٤ - حيث يذكر الى جانبه أبو عل  
الاسيوطي .

(٤٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ١٢ .  
(٤٥) أنظر ما سبق بين ص ١٤١ هـ / ٢٥ ، وابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٩١  
ص ٣١٦ - حيث الإشارة الى جماعة من علماء مصر ، من : الحسن بن شعبان ، الى أبي عل  
الطرز ، وأبي القاسم عمر بن المؤمل الطرسوسي وأبي الطيب أحمد الحريري .

(٤٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ٦٧ .  
(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٧ / ص ٣١١ .  
(٤٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - حيث الإشارة الى انه جمع  
في مصر ١٨ حلا من الكتب عاد بها الى الأندلس .

(٤٩) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٥٦٩ / ص ٢٥٣ - حيث الإشارة الى مولد  
ابن خرون في سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ( عن ابن حبان ) ، ووفاته منكويا بسين المطبق  
بقرطبة ، وتسليمه الى اهله في قيوده .



والأدقوى ( أبو بكر محمد بن أحمد المصري ت ربيع ٣٨٧ هـ/مارس ٩٩٧ م ) له ذكر في رحلات سنة ٢٨٠ هـ/٩٩٠ م ، ٢٨٣ هـ/٩٩٣ م ، حيث روى عنه ابن الحداد ( أحمد بن سهل بن محسن الأنصاري - ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م - ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م ) (٥٠) ، وسمع منه ابن الجفري المقرئ ( خلف مولى جعفر الفتي - ت ٤٢٥ هـ/١٠٣٣ م بطرلوشة ) (٥١) ، وأبو القاسم الدقاق ( خلف بن مروان بن أحمد التميمي الوراق - القرطبي - ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ) ، وصديقه : ابن الفرضي (٥٢) ، وأبو القاسم العجبي ( سلمة ابن أمية بن وديع ) (الاشبيلي - الامام - ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م - ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م ) (٥٣) .

أما ابنا غلبون فهما : أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله المقرئ (الأب) الذي روى عنه ابن الحداد سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م (٥٤) ، وسمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد (٥٥) ، وأخذ عنه : ابن حيون القرشي : أبو بكر أحمد بن محمد (٥٦) ، وقرأ عليه القرآن أبو القاسم خلف ( الطليبي ) : مولى جعفر الفتي ، في رحلته التي انتهت بعد إقامة دامت في المشرق لمدة ١٧ عاما (٥٧) ، كما لقيه في رحلة سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ابن ذئب ( ما سبق ص ١٤٢ ، هـ ٢٨ ) وأما ابن غلبون (الابن) فهو أبو الطاهر ، وقد لقيه (مع والده ) أبو العباس الأقلشبي : أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي ، المقرئ ( ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م - ٤١٠ هـ/١٠١٩ م ) الذي كان ملتزماً بتدوين الحديث متمسكاً بمقولة : « كل من كتبت عنه حديثاً فأنا عبد له » (٥٨) . ولقد أخذ

- 
- (٥٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ ، وانظر محمد كامل حسني ، في أدب مصر الفاطمية ، ١٩٦٣ ، ص ١٢١ - حيث النص على أنه أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوي ، وإن له كتاب التفسير وكتاب الاستقصا في علوم القرآن .
- (٥١) الصلة ، ترجمة ، رقم ٣٧٣ هـ / ص ١٦٨ .
- (٥٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٨٣ / ص ١٧١ .
- (٥٣) الصلة ، ترجمة رقم ٥١٠ / ص ٢٢٤ - حيث النص على أنه عند منصرفه من المشرق إلى الأندلس ، وقع أسيراً بين أيدي الروم ، فلم يستنقذ إلا بعد مستتب .
- (٥٤) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ .
- (٥٥) الصلة ، رقم ٣٥ / ص ٢٢ .
- (٥٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥٠ .
- (٥٧) الصلة ، ترجمة رقم ٣٦٩ / ص ١٦٦ - حيث ذكر كلا من بغداد والبصرة والكوفة .
- وإنه عند عودته إلى الأندلس أخذ عنه أبو بكر المصنف قبل سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م .
- (٥٨) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨ / ص ٣٣ .

عنه أبو اسحق إبراهيم بن جعفر الزهرى ( الأشعرى ، السرقسطى ، ٣٧١ هـ / ٩٨١ م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ) الذى جمع بين دراسة المدونة ، وحفظ الراى (٥٩) ، كما لقيه ووالده أبا الطيب ، فى رحلته المشرقية سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م ، أبو القاسم وديع العجيبى وسلمة بن أمية ، المعروف بالامام - ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ( ص ١٤٧ ، هـ ٥٣ ) .

وأبو بكر المهندي ( أحمد بن محمد بنى اسماعيل ) ، له ذكر فى رحلات الأندلسيين سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، حيث سمع منه ابن ميمون ( ص ١٤١ ، ١٤٢ ) ، ولقيه صالح بن عمر بن محمد (القرطبي - ت ربيع الأول ٣٩٧ هـ / نوفمبر ١٠٠٦ م ) (٥٩) م ، وكتب عنه ابن بنوش ( ما سبق ، ص ١٤٤ ، هـ ٣٥ ) ، ولقيه ابن ذئب ( ص ١٤٢ ، ١٤٤ ) ، وأبو المطرف الصندى : عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد ( الطليطلى ، ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ) (٦٠) .

وعن الجوهري ( أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله - ت رمضان ٣٨٠ هـ / نوفمبر ٩٩٠ م ) ، فقد سمع منه ابن ميمون ، وابن قرقمان الطلمنكى ، وابن الجعفرى ، فمن سبق ذكرهم .

وابن ماهان ( أبو العلاء ) الذى يعتبر من الأعلام حيث يميز بقلب الامام . ومن لقيه أبو عمرو بن العارض : أحمد بن عبد الله بن شريسة اللخمي ( الاشبيلى : ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م - ١٠ محرم ٣٩٦ هـ / أكتوبر ١٠٠٥ م ) الذى عرف كواحد من فقهاء المذهب المالكى الأجلاء (٦١) ، وابن قرقمان الطلمنكى ، كما روى عنه ابن الرسان ( ٣١٩ هـ / ٩٣١ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ) صحيح متسلم (٦٢) .

ولقد درس على : ابن الحافظ ( أبو محمد عبد الفنى ) ، فى رحلته سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، ابن المرائى ( ص ١٤٣ هـ ٣٥ ) ، وابن الجعفرى ( ص ١٤٧ ، هـ ٥١ ) ، وابن سعيد ( سعيد بن محمد بن يحيى ) ( ص ١٤٦ )

- 
- (٥٩) الصلاة ، ترجمة رقم ٢٠١ / ص ٩٥ .
  - (٥٩) الصلاة ، ترجمة ٥٣٣ / ص ٢٣٣ .
  - (٦٠) الصلاة ، ترجمة رقم ٦٨٠ / ص ٣٠٧ .
  - (٦١) الصلاة ، ترجمة رقم ١٢ / ص ١٠ .
  - (٦٢) الصلاة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ .

وروى عنه ابن المأموني : قاسم بن حجاج بن هشام الرعيني - ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (٦٣) .

أما الذين درسوا على الكنانى : حمزة بن اسحاق بن محمد (المحافظ) ، فى مصر فمنهم ابن الأموى ( ص ١٤٣ ، هـ ٣٤ ) وابن الرسان ( أعلاه ) الذى حصل منه على الاجازة (٦٤) ، وأبو القاسم بن سلعة الأنصارى ( ص ١٤٦ ، هـ ٤٨ ) . هذا وإذا كان يفهم من ترجمة ابن زاهر : عمر بن عبد الله - البونى ( ت بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) - ان الكنانى ( المحافظ ، المصرى ) كان يحدث فى حضرموت حيث لقيه جماعة من طلاب العلم المغاربة ، فان اسم الجامع الذى كان يخطب فيه وهو جامع ابن لهيعة - أحد أقطاب المدرسة المصرية الأولى فى الحديث والتاريخ - يعنى أن اللقاء كان فى مصر (٦٥) .

وهكذا يتوالى بقية علماء مصر - على طول الصلة - من ابن البنا ، وابن التمار ، وابن النحاس ، وابن الدباغ ، والحسن بن شعبان ، وابن المنير : أحمد بن الحسن ( الأب ) ، وولده : عبد الوهاب (٦٦) ، وبضمنهم مشاهير علماء الاسكندرية كابى القاسم العلاف ، والقاضى أبى على بن سكرة ، ويتوالى عليهم طلاب الأندلس ، من : ابن افرانك القرطبى ، وابن القرشى ، وابن ذنين ، والقضاعى ، وابن الصيرفى ، وابن سلعة الأنصارى ، وأبو القاسم الأنصارى ، والقنازعى ، وابن سعيد العبدى ( الطروشى ) (٦٧) ، وأبى الملاء القشبرى - ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م (٦٧) .

#### مدرسة القيروان وعلمائها :

تعتبر مدرسة القيروان القاعدة الثقافية الحقيقية لبلاد المغرب والصحراء ، حيث علوم الدين من القرآن والسنة النبوية ، ومذاهب الفقهاء

(٦٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٣ / ص ٤٦١ .

(٦٤) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ .

(٦٥) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٦٠ - حيث طلبية العلم المتساربة ، هم : أبو الحسن القابسى ، وأبو موسى عيسى بن سعادة ، وأبو محمد الأصيل . أما موضوع الحديث فهو : الخدر من فراسة المؤمن ( عن سليمان الثورى ) .

(٦٦) الصلة ، ترجمة رقم ٧٨٣ / ص ٣٩٨ .

(٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ٥٢٨ / ص ٣٢ - حيث القاضى ابن سكرة بالاسكندرية .

(٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٣٩ / ص ٤٦٨ - حيث أبو القاسم العلاف بالاسكندرية .

على اختلاف مشاربهم ، من سنة وشيعة وخوارج ، وحيث الدعوة الى التمسك باهداب الاسلام الاصولية ، من الامر بالمعروف ، والدعوة الى الجهاد والرباط في الثغور - وهي الامور التي كانت لها تأثيراتها جنوبا حتى الصحراء والسودان ، وشمالا حتى الأندلس وحدود الممالك المسيحية .

وعلماء القيروان الذين لهم وقتئذ ذكر ، هم : زياد بن يونس ، وابن السرور ، وابن أبي عقبة التميمي ، وأبو بكر هبة الله بن محمد ، وابن عزرة ، وابن الصقلي ( أبو القاسم عبد الرحمن البكري ) ، وابن دحمون ( أبو جعفر أحمد ) ، وابن أبي زيد ( أبو محمد ) ، والقاسبي ( أبو الحسن ) ، وآخر من يهمنا منهم : أبو عمران الفاسي .

ومن قداماء هذه المدرسة ، في فترتنا السابقة على قيام المرابطين ، يذكر زياد بن يونس الذي روى عنه في رحلته العلمية ، الذهبي الأموي : أبو بكر أحمد بن عبد الله بن محمد ( القرطبي ) ، صاحب اختصار تفسير الطبري (٦٨) ، ومعاصره محمد بن سرور العسال ، الذي لقيه في رحلته الى المشرق سنة ٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م ، ابن حجاج : أبو الوليد هاشم بن يحيى ( البطليوسي - ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ) (٦٩) ، وابن أبي عقبة التميمي : أبو بكر هبة الله بن محمد ، الذي لقيه القنازعي في رحلته سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وسمع عليه المدونة (٧٠) . وبعد هؤلاء يأتي ابن عزرة : أبو بكر ، الذي سمع عليه ابن ميمون الأموي في رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٧١) ، كما أخذ عنه ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد التميمي ( ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ) في رحلته المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، التي لقي فيها ابن سعيد السجزي ، وحمل عنه صحيح مسلم (٧٢) ، ومعاصره ابن الصقلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري الذي سمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي ( الطليطلي : ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م -

---

(٦٨) الصلة ، ترجمة رقم ٢٩ / ص ١٩ - حيث « الذهبي » .

(٦٩) ابن الفري ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٣٦ ، ترجمة رقم ٥٣٩ ، وقارن ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - وترجمة سلمة بن سعيد بن سلمة (الأصباري) - توفي في ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، الذي سمع منه وأجاز له في « المشرق » مع اختلاف اللاب : ابن سرور « الدباج » .

(٧٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ / ص ٣١٦ .

(٧١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ / ص ٢١ .

(٧٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ .

ت ٤٠٠ ( شعبان ) مارس ١٠١٠ م ) في رحلته سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م  
( رقم ٣٥ / ص ٢١ ) . كما لقيه بنفس السنة ( ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ) ، ابن  
سميد الخزرجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن ( ت ٤٤٦ هـ /  
١٠٥٤ ) ( ٧٣ ) .

أما كبار الأساتذة من الشيوخ فيبدأون بابن دحمون : أبو جعفر أحمد  
ابن ثابت الذي أخذ عنه ابن محمد الأموي : أبو عبد الله محمد بن قاسم في  
رحلته سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ( رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢ ) ، وسمع منه ابن  
غلبون الحولاني : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ( القرطبي ) سنة  
٣٧١ هـ / ٩٨١ م التالية ( ٧٤ ) ، كما لقيه كل من ابن قزمان الطلمنكي ،  
وابن افرانك في رحلتهما سنة ٣٨١ هـ / ٩٩٠ م ، وكذلك ابن ذنين الصدفى  
وفي نفس السنة ( ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ) ( ٧٥ ) ، وأخذ عنه ابن الفرضى في  
السنة التالية ( ٣٨٢ هـ / ٩٩١ م ) ، وابن بكر الأنصاري الذي كان حجة  
في علوم الحديث ، في رحلة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٥ م ( ٧٦ ) . وأخيرا التقى به  
ابن سميذ الصدفى : أبو المطرف عبد الرحمن ( ت في ذى القعدة ٤٠٣ هـ /  
مايو ١٠١٢ م ) ( ص ١٤٨ هـ ٦٠ ) .

ويأتى الدواودي : أحمد بن نصر نظيرا في الأستاذية لابن دحمون ،  
حيث سمع منه ابن أبي الربيع ( الالبيري ) : أبو العباس أحمد بن أيوب  
( ت جمادى الثاني ٤٣٢ هـ / فبراير ١٠٤١ ) الذي عرف بأنه أديب شاعر  
وسنن ورع ( رقم ٩٨ / ص ٥٢ ) ، والسبتي : أحمد بن محمد بن سميذ  
القيسي ( الاشبيل : ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ) ، في رحلته المشرقية سنة  
٣٧٠ هـ / ٩٨١ م ( ٧٧ ) . وأخذ عنه ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله  
( ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ) ، في رحلته سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، حيث طلب  
الحديث وعنى بعلومه ( ص ١٤٣ هـ ٣٣ ) ، كما أخذ عنه ابن جرج : أبوالمطرف  
عبد الرحمن بن سميذ ( ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ) في رحلته الى المشرق سنة  
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ( ٧٨ ) . وعنه روى ابن فطيس : أبو الحسن كامل بن أحمد بن

- 
- ( ٧٣ ) الصلاة ، ترجمة رقم ٧٠٧ / ص ٣٢٦ .
  - ( ٧٤ ) الصلاة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ .
  - ( ٧٥ ) الصلاة ، ترجمة رقم ٥٨١ / ص ٢٥٩ .
  - ( ٧٦ ) الصلاة ، ترجمة رقم ٦٠١ / ص ٢٧١ .
  - ( ٧٧ ) الصلاة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ .
  - ( ٧٨ ) الصلاة ، الترجمة رقم ٧٠٣ / ص ٣٢٥ .

يوسف القادسي ( ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ) ، كما اخذ عنه أيضا البوني :  
أبو عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطان (القرطبي - ت قبل سنة ٤٤٠ هـ /  
١٠٤٨ م ) وصحبه لمدة ٥ ( خمسة ) أعوام ، حتى صار مرجعا في الفقه  
والحديث ، فكان تاليفه للمختصر في تفسير الموطأ من الكتب الكثيرة التداول  
بين أيدي الناس (٧٩) .

أما أشهر علماء القيروان في تلك الحقبة ، فهما ابن أبي زيد  
( أبو محمد : عبد الله ) ( ٧٩ م ) ، والقاسبي : أبو الحسن علي بن أبي بكر  
محمد بن خلف - الكفيف ( ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ) ، وهما نظيران ، كانهما  
فرسا رهان . وإذا كنا عددنا من تلاميذ ابن أبي زيد ، في صلة ابن بشكوال  
حوالي ٥٠ ( خمسين ) رجلا من الأندلسيين فإن تلاميذ القاسبي الكفيف ،  
منهم بلغوا حوالي ٣٥ ( خمسة وثلاثين ) رجلا . أما عن الفترة التي قضياها  
في التعليم ، فبينما تستغرق أخبار ابن أبي زيد الفترة من ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م  
إلى ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، أي حوالي ٣٥ ( خمس وثلاثين ) سنة ، تستغرق  
أخبار القاسبي الفترة من سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م إلى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م أي  
حوالي ٣٣ ( ثلاث وثلاثين ) سنة ، وهي نفس الفترة ، فكان طول العمر  
الذي وهبها الله إياه كان من أسباب بلوغهما الأمل في تحصيل العلم  
والعرفه - كما يرى الماوردي (٨٠) .

فمن أوائل تلاميذ ابن أبي زيد الذين سمعوا منه في سنة ٣٦٧ هـ /  
٩٧٧ م : القنازعي ( ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م ) الذي حصل على إجازته إله  
أيضا ، وابن سميعة الحبر : خلف بن عيسى ( ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤٢١ هـ /  
١٠٣٠ م ) ، وذلك في رحلته العلمية إلى المشرق قبل سنة ٣٧٠ هـ /  
٩٨٠ م (٨١) ، وابن غلبون الحولاني : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن  
( ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م - شوال ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ ) الذي سمع منه في رحلة

---

(٧٩) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧ .

(٧٩م) أنظر مدارك الفاضل عيانش ، ط الرباط ، ج ١ ص ١١ وهـ ٥ - حيث النص  
على وفاة ابن أبي زيد في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (٩) - وهو الأمر الذي قد لا يختلف مع  
ما يأتي عنه من معلومات صاحب الصلة ، مما يشكك في معلومات الديباج الذي يرجع إليه  
المحقق ، حيث افك في الاسم ( « عبد الرحمن » المفرد بدلا من عبد الله ) .

(٨٠) أدب الدنيا والدين ، فصل العلم ، ص ٤٥ .

(٨١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ١٦٧ .

٣٧٦ هـ/ ٩٧٢ م (٨٢) ، وابن محمد الأموي : أبو عبد الله محمد بن قاسم ( الجالطي - القرطبي - ت ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م ) الذي أخذ عنه في رحلة سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨١ م ، كما أن ابن أبي زيد - نفسه - أخذ عنه ( أي الجالطي ) بدوره كتاب رد الزبيدي على ابن مسرة ( المتكلم ، صاحب القول بالامتطاعة أي حرية الإرادة (٨٣) ، ثم السبتي : أحمد بن محمد بن سعيد القيسي ( الاشبيلي ) ، في رحلته سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨١ م (٨٤) .

أما عن تلاميذ ابن أبي زيد في العقد التاسع ، فمنهم ، ابن سعيد ( الاشبيلي ) : أبو عمر أحمد بن سعد بن محمد (ت بعد ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م) في رحلته التي قام بها في حدود سنة ٣٨٠ هـ/ ١٠٣٣ (٨٥) ، وابن سعيد الحزرجي ( ت ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م ) ، وابن أفرانك ( الجذامي ) الذي أخذ عنه في رحلة سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م ، وابن ذنين الصدفى : أبو محمد عبد الله ( الطليطلي - ت ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م ) الذي سمع منه في نفس العام ( ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م ) وحصل على إجازته له ( ص ١٤٢ ، هـ ٢٨ ) ، وكذلك صالح بن عمر بن محمد ( القرطبي - ت في نهاية ربيع الأول ٣٩٧ هـ/ ٢٤ يناير ١٠٠٦ م ) الذي لقيه في تلك السنة ( رقم ٥٣٣/ ص ٢٣٣ ) ، وكذلك ابن بنوش ( ص ١٤٤ ، هـ ٣٨ ) ، وابن الفرضي الذي أخذ عنه ( ص ١٤٤ ، ١٤٧ هـ ، ٥٢ ) ، وابن وديع العجيبى ( ت ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م ) الذي لقيه سنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٣ م ( ص ١٤٧ ، هـ ٥٣ ) ، وابن بكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله ( القرموني - ت ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م ) الذي أخذ عنه في رحلة سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م ( ترجمة رقم ٦٠٢/ ص ٢٧١ ) .

ومن أسف فإن بقية تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد ، وهم كثير ، لم تكن لهم الحاسة التاريخية فلم يسجلوا تاريخ رحلاتهم العلمية المشرقية ، ولذلك نكتفى بتواريخ وفياتهم التي نتخذها قاعدة للترتيب ، عندما تيسر . فأبو المطرف عبد الرحمن الصدفى ( ت ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م ) لا يحدد تاريخ رحلته (ص ١٤٨ ، هـ ٦٠) ، وابن سلمة الأنصارى (تأول ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦م) والذي أقام بالمشرق حوالي ٢٣ ( ثلاث وعشرين ) سنة ، لقي ابن أبي زيد ،

(٨٢) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ .

(٨٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢ .

(٨٤) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ .

(٨٥) الصلة ، ترجمة رقم ٦٥ / ص ٣٦ .

دون أن يحدد تاريخ ذلك ( رقم ٥٠٨/ص ٢٢٣ ) وكذلك الأمر بالنسبة لأبي القاسم خلف ( المقرئ ) الذي سمع منه ، والذي طالت اقامته بالمشرق لمدة ١٧ ( سبعة عشر عاما ) لا تعرف عنها الا أنه كان يجلس للتدريس سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م ( رقم ٣٦٩/ص ١٦٦ ) . ويقال مثل ذلك عن الكنانى : أبو الحكم منذر بن منذر ( ت ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م ) الذي لقيه - وأخذ عنه ( رقم ١٢٥٩/ص ٥٦٥ ) ، وابن الجعفرى : خلف مولى جعفر الفتى البنى سمع منه ( ص ١٤٧ هـ ، ٥١ ) ، وابن قرقان ( ٣٤٠ هـ/٩٥١ م - ٣٢٩ هـ/١٠٣٧ م ) الذي لقيه ( ص ١٤٢ هـ ، ١٤٨ ) ، وابن دنيل ادموى ( القزوينى - ت جيمادى الأولى ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ) الذي لقيه ( رقم ٩٩/ص ٥٣ ) والزهرى الأشيرى ( السرقسطى ) ٣٧١ هـ/٩٨١ م - ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ) الذى اخضر مدونة ابن أبى زيد ( رقم ٢٠١/ص ٩٥ ) ، والورقاء القزوينى ( القرطبى ) ، ت فى حدود ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وعمره ٨٦ سنة ( رقم ١٠١٣/ص ١٠١٣ ) ، وسمع عليه ( رقم ١٧٨٣/ص ١٧١ ) ، وابن المأمون : أبو محمد قاسم بن حجاج ( ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ) الذى روى عنه ( رقم ١٠١٣/ص ٤٦١ ) .

أما عن أقدم تلاميذ القابسي ( أبو الحسن : ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ) فهو ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم ( الجالطى - ت فى شوال ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م ( رقم ١٠٣٧/ص ٤٧٢ ) . ويأتى بعده فى رحلة سنة ٣٧٣ هـ ، ابن مؤمن الحضرمى : أبو القاسم اسماعيل بن محمد ( الاشبيل ، ت فى صفر ٤٢٦ هـ/ ٥ - ١٠٣٤ م ) الذى أخذ عنه ( ٨٦ ) . وفى رحلة سنة ٣٨٠ هـ/٩٩١ م لقيه ابن سميعة الحزرى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن ( المقرئ ، القرطبى ، ت ٢٦ محرم ٤٤٦ هـ/١٤ مايو ١٠٥٤ م ) ( رقم ٧٠٧/ص ٣٢٦ ) . وفى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٥ م ) ، أخذ عنه ابن يكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله ( ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ) ( رقم ٦٠١/ص ٢٧١ ) . وتنقطع تواريخ الرحلات فلا نجد لها ذكرا الا فى سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، حينما رحل ابن سميعة : سميعة بن أحمد بن يحيى ( ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ/١٧ يناير ١٠٣٧ م ) الى المشرق فجاء ، وسمع القابسي فى طريق العودة بالقيروان ( ٨٧ ) . وكانت رحلة ابن جرج : عبد الرحمن بن سميعة ( ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م - ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م ) التى لقيه فيها سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م ( رقم ٧٠٣/ص ٣٢٥ ) .

( ٨٦ ) الصلة ، ترجمة رقم ٢٣٤ / ص ١٠٨ .

( ٨٧ ) الصلة ، ترجمة رقم ٤٦٣ / ص ٢٦٨ .



أما آخر تلاميذ أبي الحسن القابسي ، فهو ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي ( ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ) الذي قام برحلته العلمية المشرقية سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ولقي القابسي ، وبقي عنده ، ولازمه في السماع والرأى ، الى وفاته في السنة التالية (٨٨) .

وبذلك لا يتبقى من زيارات طلاب الأندلس العلمية للقابسي الا تلك التي لا تحمل تاريخا محددا ، والتي نرتبها حسبما تيسر سنوات الوفاة .  
فالقيري : أبو بكر محمد بن وهب الأزدي ، ( القرطبي - ت ١٣ جمادى الأولى سنة ٤٠٦ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٠١٥ م ) أخذ من القابسي في رحلته المشرقية ، وتفتقه عنده ( وعند أبي زيد ) ، وطالع عندهما علوما من المعاني والكلام . وعندما رجع الى الأندلس أظهر شيئا من ذلك الكلام ، في : نبوة النساء ، ونحو هذه المسائل التي لا يعرفها الصوام ، الأمر الذي أدى الى التشنيع عليه (٨٨ م) . والكناني ( ت ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ) لقيه هو وابن أبي زيد أيضا ( أعلاه ص ١٥٤ ) ، واللخمي المرليشي : حجاج بن محمد ( ت ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م ) الذي روى عنه ( رقم ٣٣٩ ص / ١٥٣ ) ، وكذلك ابن فطيس : أبو الحسن كامل ( ت ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م ) ( رقم ١٠٢٠ ص / ٤٦٥ ) كما لقيه ابن أبي الربيع الالبيري : أبو العباس أحمد ( ت ٢٦ جمادى الثاني ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ) ( ص ١٥١ هـ / ٧٧ ) ، وابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد ( ت ربيع الأول ٤٣٩ هـ / أغسطس ١٠٤٧ م ) الذي أخذ عنه ، وحفظ ملخصه للمدونة عن ظهر قلب ( أعلاه ص ١٥٤ ) ، واليويني : أبو عبيد الملك مروان ( ت قبل ٤٤٠ هـ / ١٠٣٨ م ) الذي عرف بالعبقة والصلاح ، والذي ألف كتابا في شرح الموطأ ، أخذ عن القابسي ، وإن كان قد لازم الداودي طوال ٥ ( خمس ) سنوات ( رقم ١٢٣٥ ص / ٥٥٧ ) ، وابن الصيرفي : أبو عمرو عثمان ( ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ) ، الذي عرف بعمقه في علم الحديث سمع هو الآخر منه ( رقم ٨٧٣ ص / ٣٩٨ ) .

هذا ، كما كان لشاعر أفريقية والقبروان الشهير : ابن شرف ، رواية عن الحسن القابسي ، بعد خروجه الى الأندلس عندما اشتدت فتنة العرب الهلالية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، كما روى عن أبي عمران الفاسي ،

---

(٨٨) في جمادى الأولى سنة ٤٠٢ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م . انظر الصلة ، ترجمة رقم

٣٥٦ / ص ١٥٨ .

(٨٨٨) الصلة . ترجمة رقم ١٠٥٧ / ص ٤٧٩ .

• وصحبهما (٨٩) •

وبذلك نكون قد وصلنا الى الهدف من تلك المقدمات الخاصة بالخريطة الثقافية لبلاد المغرب والأندلس ، وتوابعها من مراكز العلم في مصر والمشرق ، مما يعنى : وحدة الفكر الاسلامي ، الأمر الذى يؤدي - بحكم الضرورة - الى اوضاع سياسية وحضارية متناظرة في الجوهر ، وان بدت أحيانا متنافرة شكلا • فلا شك ان روافد الثقافة المشرقية هي التي أدت الى اكتمال الشخصية المغربية في مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد ، الأمر الذى سمح للمغرب باستكمال استقلاله السياسى ، وهو المقدمة الطبيعية للعمل الحضارى المتميز فى خصوصيته ، وهو ما سيقع على عاتق الملتمين من أهل الصحراء المرابطين - الواعدين - قدوة أهل جبال مراكش من مصمودة الموحدين ، فيما بعد •

## الفصل الثالث

### عملية النهضة المراكشية أبو عمران الفاسي وحركة التجديد الثقافية في صحراء الملثمين

يظهر لنا مما سبق أن القيروان كانت في مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م، العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس، استنادا إلى تاريخها العلمي كمدرسة للمالكية بالامتياز، وإلى موقف بلادها السياسي كجزء من الدولة الفاطمية التي بلغت ذروة قوتها وقتئذ في المشرق، بينما ظهرت فاس التي كانت قد فقدت سندها السياسي في المغرب مع انهيار الأسرة الأموية في قرطبة، بظهور التابع للقيروان على المستوى الثقافي بخاصة.

ويذكر من علماء فاس قبيل ذلك الوقت، أبو ميمونة: دراس بن اسماعيل (ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م)، والصديني، وهما معاصران لأبي العباس تميم بن محمد القيرواني، وأبي الحسن زياد بن عبيد الرحمن النولوي القيرواني<sup>(١)</sup>. وعلاقة ابن ميمونة (الفاسي) الذي عرف بأنه فقيه على مذهب مالك، كانت وثيقة بالأندلس في تلك الفترة من أوائل القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م، على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، حيث كان طالبا للعلم هناك، ومجاهدا بالثغر. وذلك قبل أن يقوم برحلته للحج والدراسة، وهي التي سمح فيها بالإسكندرية كتاب: ابن المواز، على الفقيه: علي بن عبد الله بن مطر، وهو الكتاب الذي حدث به في القيروان فيما بعد، وسمعه منه أبو الحسن الفاسي<sup>(٢)</sup>.

أما عن أشهر علماء العصر من انقيروانيين الفاسيين أصلا، فهو شينغ المالكية أبو عمران موسى الفاسي (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م - حوالي ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م). وينتسب أبو عمران إلى قبيلة غفجومة الزناتية، ولذلك كان يحمل إلى جانب اسمه العربي «موسى» اسما بربريا هو «يحيى»، كما

(١) ابن شكروال، الصلاة، ترجمة رقم ٥٦٠ / ص ٢٤٦.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٢٥، ترجمة رقم ٤٣٢.

اسم أبيه فهو : عيسى بن حاج الففجومي ( الزناتى ) (٣) .

### الرحلة في طلب العلم :

ولهم في سيرة أبي عمران الفاسي انه بدأ في طلب العلم بالأندلس -  
انتى ثلثت فاس تقع وقتئذ في دائرة نفوذها السياسي - حيث زامل واحدا  
من اطلاب الامميين ، وهو ابو عمر بن سب البر ، الذي عرفه بمجالس كبار  
مشايخ قرطبة ، فدرسا سويا على : أبي محمد الأصيل ، وأبي عثمان  
سعيد بن نصر ، وعبد الوارث بن سفيان ، وأبي الفضل أحمد بن قاسم  
اليزاز . واقتداء بطلبة العلم الأندلسيين ، سار أبو عمران الفاسي على  
نفس النهج وقام بالرحلة الى المشرق بدأ بالمرور بالقيروان وحصر ، قبل أداء  
فريضة الحج وشهود الموسم ، والأخذ عن المشايخ هناك ، بعد موسم سنة  
٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ، أي وأبو عمران في الثانية والثلاثين من عمره . وفي  
مكنة أخذ قراءة القرآن عرضا (٤) على الشيخ : أبي الحسين علي بن عمر

(٣) انظر الصلة ، ترجمة أبي عمران الفاسي ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث الجد الثاني  
أبو حاج الففجومي - التي سمحت لي الففجومي . ونحن نميل الى ترجيح الاسم القديم للقبيلة  
البربرية البترية التي كان لها شأن في مقاومة الفتح الاسلامي ، وهي « ورفجومة » ( ج ١  
ص ٣٢٧ وما بعدها ) وقارن ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ - حيث أبو حصص عمر بن عبد الله  
بن زاهر ( البولي : الأندلس اصلا ) ، وحيث يرد الاسم على لسان أبي عمران نفسه :  
« أنا أبو عمران موسى بن عيسى بن حاج » التي وجعناها على « أبو حاج » ، الفاسي ( بدلا من  
الففجومي : الففجومي ) . وانظر ترتيب المدارك للفاسي عياض ( الذي كدنا نلتفت ذكره هنا ) ،  
ط ٤ بيروت ، ج ٤ - حيث يتضح ان مدارك الفاسي عياض هي الأصل الذي نهل منه  
الأندلسيون الذين تميزوا على كل حال بحسن العروض وسلامة المنهج والحرص على الاستقصاء ،  
الى جانب العناية بالترقيع .

(٤) والحقيقة ان قراءة القرآن ، بل وحفظه ودراسته كانت المقدمة الطبيعية لدراسة اللغة  
وعامة لغة المالكية فلبني على الحديث ، وقرأت أبناء الصحابة من التابعين ، انظر الصلة ،  
ترجمة رقم ٦٧٨ / ص ٣١١ - عن ابن الجزار : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن خالد  
( الهذلي ) الوحراني - ٣٢٨ هـ / ٩٤٩ م - ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، الذي وصل في رحلته  
المشرقية الى مرو حيث وجد الفيض الترابي يقرأ المصحف فيعلق على ذلك بقوله : وعند  
أصحاب الحديث ان من لا يستظهر القرآن عن ظهر قلب فهو ناقص . اما عن صاحب الترجمة  
فهو عند ابن يشكوك امام في الحديث - وقارن ترجمة رقم ٩٠ / ص ٤٧ - عن ابن قارلان ،  
حيث النص على انه عاد من رحلته المشرقية بسلام كثير ، وأنه كان أحد الأئمة في علم القرآن  
المطعم : قراءه ٤٧١ واضراها وأحكامه ٥٠ . وأنه جمع كتباً كثيرة النفع على مذهب أهل السنة ٥٠٠ .  
وأنه كان حافظا للسنن على هدي واستقامة ، وانظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة  
الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث القول ان لما عمران ، بدأ بالتعليم =

الحمامى المقرئ وغيره ، قبل أن يتوجه الى بغداد فى نفس السنة ( ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ) حيث جلس للأقراء الى جانب حضوره دروس القاضى أبى بكر بن الطيب (٥) .

ومن بغداد عاد أبو عمران الفاسى الى مكة حيث درس الحديث فى مجلس أبى ذر الهروى ، ولو أن الأمر انتهى بخصومة شديدة بين الطالب والأستاذ ، بسبب حرص أبى عمران على معرفة خبايا مكتبة أبى ذر العلمية ، ولو فى غيبة الأستاذ ودون اذنه ، الأمر الذى أثار غضب هذا الأخير وسخطه ، وأوقع أبا عمران فى الحرج فيما بعد عندما كان يروى عن أبى ذر فلا يشير اليه الا كناية (٦) .

### العودة الى المغرب :

والهم أن أبا عمران انصرف من المشرق بعد اقامة استغرقت عدة سنوات ، حضر فيها أكثر من موسم وحج عدة حجج ، وعندما وصل القيروان أقام فيها للتدريس ( الاقراء ) مدة لم تحدد هى الأخرى فى ترجمة صلة

---

= فى القيروان ( بدلا من فاس ) ، وانه تلقته هناك على « الثابسى » وسمع من أبى بكر الزويل .  
وعلى بن أحمد اللواتى ، قبل ذهابه الى قرطبة ، اعتمادا على كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - وهو ما لا تسمح به المصادر المتقدمة .

(٥) الصلة ، رقم ٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وانظر ابن القاضى ، جلدوة الانبياس ، القسم الأول ١ - ص ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، عند يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ - حيث انه دخل العراق فسمع من أبى الفتح بن أبى اللوارس ، وأبى الحسن بن ابراهيم المستمل ، وأبى أحمد الفرضى ، كما انه ديس الأصول على القاضى أبى بكر الباقلاوى ، والقاضى عبد الوهاب : اعلام مذهب مالك من البغدادية ، وذلك نقلا عن كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف - الذى لا نعرف أصلا له .

(٦) انظر ابن يشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٣ - ٥٥٢ - حيث يروى من حرص أبى عمران الفاسى على الدراسة ونسخ الكتب ما أوقفه فى غضب أبى ذر ، وذلك عندما سمح لنفسه باخذ مفاتيح خزائنة كتب أبى ذر من حارسه المخرج ، أثناء وجود التسخين فى وقت راحة له فى موطنه بجبل السراة ، لكن ينسخ ما شاء له من كتبه . الأمر الذى أزعج له الشيخ ، عندما بلغه الخبر مراسلة من حارس الخزائنة نفسه فلقد اضطر القسح الى العودة سريعا ، ليستعيد مفاتيح خزائنته ، وهو يقسم أنه لن يعلم أبا عمران الحديث بعدها ، أبدا - وهكذا كان أبو عمران ، وهو فى مجالسه ، بالقيروان اذا حدث عن أبى ذر يورى ويقول :  
« اخبرنى أبو عسى » ( حسبما كان يناديه العرب ) .

وقارن مدارك القاضى عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث النص على انه طلبه الكتب من جارة أبى ذر بل وانه أجبرها على ذلك فقامت قيامة أبى ذر .

٥٠ بن بشكوال . والواضح أن الإقامة في المشرق لم تزد على خمس سنوات ،  
بذلك أن أبا عمران كان يقسم بالتدريس في القيروان سنة ٤٠٤ هـ /  
١٠١٣ م ، حيث اخذ عنه وقتئذ أبو القاسم حاتم بن محمد الذي كان ملازما  
لأبي الحسن القابسي حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر  
١٠١٢ م ، والذي عاد بعد ذلك من مصر مسرعا إلى القيروان في سنة ٤٠٤ هـ /  
١٠١٣ م ، لمخالفة كتيبه وانتساخ سماعاته من أصول أبي الحسن القابسي (٧) .

وبعد إقامته تلك بالقيروان ، سار أبو عمران إلى مسقط رأسه فاس ،  
ومحط عشرينته من آل أبي حاج ( انفجوميين الزناتية ) ، ليؤدي حقوقهم  
عليه في التعليم والتضلع في أمور الدين ، وإن كنا لا نعرف تاريخا لتلك  
النقلة ، وللا ملة بقائه في فاس ، قبل الهجرة النهائية إلى القيروان . والواضح  
أنه وولد مركزه في فاس ، ليس كفتيه راسخ في المذهب المالكي فقط ، بل  
وكأمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو الشعار الذي بدأ ينتشر بشكل واسع  
على المشرق الإسلامي اعتبارا من مطلع القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، مع انتشار  
جماعات اخوان الطرق الصوفية ، الأمر الذي بلغ الذروة في أواخر ذلك  
القرن ، الأمر الذي كان له أثره في فكر الغزالي ( في الأحياء ، وفي دعوة  
محمد بن تومرت الموحدية ( في العقيدة والمرشدة ) . وهكذا يكون سبب  
خروج أبي عمران من مسقط رأسه ليستوطن القيروان ، أنه كان يامر  
بالمعروف وينهى عن المنكر ، الأمر الذي أزعج حكومة المدينة المغراوية  
( الزناتية ) ، فكان خروجه من فاس على أيدي « الطغاة » من العلماء العاملين  
عليها لحساب تلك الحكومة (٨) .

---

(٧) انظر الصلة ، ترجمة أبي عمران ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، و ترجمة أبي القاسم  
حاتم ، رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ، حيث رحلته سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ومجالسته لأبي عمران  
سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٢ م .

(٨) انظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير  
١٩٧٠ ، ص ٥٢ ، ٥٣ - حيث النص على أن مفهوم النهي عن المنكر الذي كان يأخذ به  
أبو عمران عن أبي الحسن القابسي ، يعني النهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة الذين كانوا  
يجمعون ما بين قراءة القرآن ، وحكاية قصص الصالحين ، وإنشاد الشعر ، وذلك حسب مقالة  
صاحب كتاب بيوتات فاس المجهولة المؤلف ، الأمر الذي يعني موقف دولة زناتة المغربية المعادي  
وقتئذ ، لمركبة تجمعات الإخوان لنهي العبادة والجهاد . وعن كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان  
فاس في القديم ، مؤلف مجهول ، انظر أحمد مختار البيادي ، الصفحات الأولى من تاريخ  
المرابطين ، مجلة آداب اسكندرية ٦٧/٢١ - ١٩٦٨ - حيث النص على أنه نشر عبد القادر  
زمامه في مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد ٣ - ١٩٦٤ ، وعدد ٤ ، ٥ - ١٩٦٥ ، وفيه  
أن أبا عمران هو الذي وضع الخطوط الأولى مع الزعيم اليربري يحيى بن ابراهيم لقيام دولة  
مغراوية تقضي على الغرض .

### إمامته في الفقه المالكي ومعرفة به علم الكلام :

وفي القيروان ، عاصمة العلوم والثقافة في بلاد أفريقية والمغرب أكد أبو عمران الفاسي إمامته في فقه المالكية ، وأستاذيته كواحد من كبار العلماء ، الأمر الذي حول داره إلى مدرسة لاستقبال طلبة العلم ، وكانت المدارس التي ظهرت في نيسابور وقتئذ لم تعرف بعد في بغداد والمشرق العربي ، فضلا عن المغرب . وهكذا عرف عن أبي عمران الفاسي ( أصلا ) القيرواني ( مسكنا ) انه كان من أحفظ الناس وأعلمهم ، إذ جمع حفظ المذهب المالكي ، وحفظ حديث النبي وكذلك المعرفة بمعانيه ، إلى جانب المعرفة بالرجال : فإلعدلين منهم والمجرحين . ولما كان حفظ القرآن هو الأساس في علم الحديث ، فلم يعرف عن أبي عمران حفظ القرآن فقط ، بل وخبرته به وبقراءاته السبعة أيضا (٩) .

وعلى عكس ما هو معروف من أن علماء السنة المالكية هم أصحاب حديث لا يعرفون الرأي أو الاستحسان ( كالحنفية ) أو الاستنباط أو الاستصلاح ( كالشافعية ) ، فإن رحلات علماء الأندلس والمغرب إلى علماء المشرق والأخذ عنهم ، وهم الذين عرفوا الكلام بل والفلسفة ، فتحت أمامهم نوافذ العلوم العقلية على مصاريحها . وهكذا قيل إن أبا عمران عندما سار إلى بغداد ( ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ) التقى بالقاضي أبي بكر الباقلائي (٩ م) والقاضي عبد الوهاب ، من أعلام فقهاء المالكية ببغداد ، وحضر مجالس المناظرة التي كان يقيما أهل الكلام من المالكية والشافعية ، وكانت أشهرها مجالس أبي بكر الباقلائي . وفيها ظهر عدم خبرة أبي عمران بذلك النوع من الجدل العقلاني الذي يحسنه المتكلمون . فهو عندما سئل من قبل بعض الشافعية عن مسألة في الاستحسان ، أجاب بجواب صحيح - كما تقول الرواية - ولكنه مجرد من الدليل ، الأمر الذي دعا أحد شباب المشايخ البغداديين إلى الدفاع عنه بالتماس المذنب بعدم الخبرة وتطبيب خاطره بالتعبير له عن الاحترام . على كل حال (١٠) .

(٩) الصلة ، ترجمة ٧٢٢٣ / ص ٥٥٤ - ٥٥٣ .

(٩ م) أنظر مدارك القاضي عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ - حيث البص: عن أنه

درس الأصول على أبي بكر الباقلائي ، إلى جانب سماعه من أبي ذر بسكة .

(١٠) أنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير - فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٣ - ٥٤ . حيث أنص - نقلا عن مدارك القاضي عياض - أنه إن أبا صرمان ، كان أستاذا في كل علم ، نافذا في علم الأصول ( موضوع المتكلمين بالامتياز ) . وأنه لما دخل بغداد توقع الناس حضوره مجلس القاضي أبي بكر الباقلائي حيث المناظرات الحارة . وهناك تمت المواجهة بين أبي عمران وبين بعض مشايخ الشافعية من المتكلمين ، الأمر الذي دعا

وهكذا كانت تجربة بغداد العلمية مفيدة لأبي عمران الفاسي على المستويين السني والنقلى والاجتهادى العقل ، الأمر الذى دعا القاضى عياض ينص على امامته فى الحديث وفى علم الأصول ( الاعتقادات ) جميعا . وعن هذا الطريق كان من الطبيعى أن يثبت أبو عمران الفاسي أستاذيته العلمية فى القيروان ، وأن يولد مركزه كرجل دين معتدل له شعبية التى تمكنه من تهدئة فتن العامة فى العاصمة الافريقية ، بفضل تمكنه من حفظ القرآن وتبحره فى علوم الحديث ، الأمر الذى حيا له التفوق فى فنون علم الفتوى ودرويه ، مما سيعرف بعلم الحيل - بمعنى ايجاد المخارج الشرعية لبعض المشتبه فيه من الأحداث والتوازل . والمثل لذلك تلك الحيلة القانونية التى خرج بفضلها من مازق فتنة عامة ، بسبب فداء رجل من العامة ، فى أسواق القيروان : « أنا خير البرية » فكانه أفضل من أولياء الله وأنبيائه ، الأمر الذى كان يشكك فى خروجه عن الاسلام(١١) .

وبذلك يكون أبو عمران الفاسي قد جمع بين الاتجاه السني المحافظ ( المسالكى ) والمعتزلى المجتهد ( المعتزلى ) ، وهو الاتجاه الذى بدأ يسود فى المشرق الاسلامى وبغداد فى ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، والذى يعتبر قاضى بغداد الماوردى ( ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ) من مشاهير من عرف به الى جانب زعمه وورعه ، والذى انتهى بالتطور فى فكر الإمام الغزالي ( المتمثل فى احياء علوم الدين ) (١٢) . وعلى هذا النمط فى الجسم

« أحد الشباب الى المبادرة بالمناجاة عن أبي عمران . وهو يقول : هذا شيخ من كبار شيوخنا . من الجاهل أن تكلمه المناظرة من أول جملة . » كما أعلن أنه ينوب عنه فى الإجابة ، الأمر الذى دعا الى اعتذار السائل الشافعى .

(١١) انظر الفصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ٧٤ - حيث أبو العباس أحمد بن المجبى السبدي ( الباسى ) الذى روى عن أبي عمران الفاسي حادثة ألت بالقيروان بسبب رجل من ( المريدين ) كان يقول : « أنا خير البرية » ، فتمت به العامة وحملته الى أبي عمران الذى قرر الرجل فرف أنه مسلم ( لم يرتد ) : يزدى الفرائض . وبناء على ذلك استطاع أن يهدى من روح الناس ، وأن يطيب خاطرهم بجملة حفظه وحضور بديهة عندما قرأ لهم الآية التى تقول : ( أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » - ( سورة البينة ١٨ ) .

(١٢) انظر للمؤلف ، الماوردى بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الاسكندرية ١٩٧٠ - ص ٤٢ ، ٦٧ - حيث عرف الماوردى بأنه شافعى فى الفروع معتزلى فى الأصول ، وعن تأليف أبي عمران ، انظر عبد الله كنون ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ - حيث النص على أن تأليفه ليست كثيرة ، إذ لا يذكر له الا كتاب التعاليم على المدونة ( الذى لم يكمله ) كما تذكر له فهرسة ( برنامج الأستاذة - عن عبد السلام بن سودة فى مؤرخه الغرب ) . وعن اجابة الغزالي انظر ص ٤١٥ وما بعدها .



بين العلم ( الحديث النبوى ) التقليدى وبين الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام ، عرف عدد من تلاميذ أبى عمران من كبار المشايخ مثل : ابن زاهر ( أبو حفص عمر - ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) الذى كان يعتقد فى ذكاء المؤمن . ويحذر من محاولة التفرير به ، بناء على بعض الأحاديث النبوية التى كان يسندھا الاساتذة ، من أبى الحسن القاسمى ، وحزمة الكنانى (١٣) وابن صالح القيروانى ( أبو حفص عمر - ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ) الذى اعتنى بالأصول ( الاهليات ) والفروع ( العبادات والمعاملات ) جميعا (١٤) . ومن بينهم تميز ابن الريولى ( أبو محمد القاسم بن الفتح بن يوسف - ولد ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م - ت ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ) الذى روى عن أبى عمران الفاسى ، الذى اشتهر بالعلم بالحديث والمعرفة باختلاف الأئمة ، كما اشتهر بأنه صاحب اجتهاد ورأى ، اذ كان يقول بـ « العلة المنصوص عليها والمعتولة ، ولا يقول المستنبطة » ، ثم انه اعمل فكره وغير رأيه ، فبعد ان كان « يقول بدليل الخطاب » ظهر له « فساد القول فيه فنبذه بأطرحة » (١٥) .

وفى مثل هذه الاجتهادات من عقلية أو خطائية تذكر مقالة أبى عمران فى شرح « معرفة الله » عند غير المسلمين ، وهل تشبه معرفته عند المسلمين ؟ فلقد أجاب أبو عمران وهو يستخدم التشبيه فى الخطاب بنفسه ( أى بابى عمران ) قائلا عن الفرق بين الامرقتين بأنه أشبه بالفرق بين من يصفه هو نفسه ( أبا عمران ) بأنه يقال يبيع البقل وغيره من الطعام فى مكانه فى السوق ( وهى معرفة غير المسلمين الحاطنة ) ، وبين من يقول عنه « أبى عمران ) : انه فقيه يعلم الناس ويفتيهم فى داره أو فى المسجد ( وهو الأمر الصحيح المخالف للأول ) ، والذى يجعل البون شاسعا بين معرفة الله عند المسلمين وعند غيرهم مما أنس العامة من أهل القيروان وأرضاهم (١٦) .

(١٣) الصلاة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ .

(١٤) أنظر الصلاة ، ترجمة رقم ٨٦٧ / ص ٣٩٩ .

(١٥) الصلاة ، ترجمة رقم ١٠٦٤ / ص ٤٦٢ .

(١٦) جذوة الاقباس لأبى القاسم ، القسم ١ ( ١ - ص ) ، ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٢٤٤ - بحث مسألة الكفار التى جرت بالقيروان ، نقلا عن عبد الجليل بن أبى بكر الديباجى ، وهل يعرفون الله تعالى أم لا ؟ وهى المسألة التى تنازع بشأنها العلماء والعامة فى الاسواق ، وكان قد تزعمهم مؤذن يركب حمارا وينور ويتناظر المتكلمين والفقهاء ، الأمر الذى انتهى بطلب العامة الفتوى من أبى عمران الفاسى . وبعد أن طلب الشيخ من زعيم العامة أن يحسن الاستماع ، قال له : أرايت لو أنك لقيت رجلا فقلت له إنصرف أبا عمران الفاسى فقال لك =

وبمثل هذا الخطاب البسيط فى شكله والمقتنع فى مضمونه ، وغيره منه سبق ، كان أبو عمران الفاسى يقترب من أفهام العامة ، بحسن سياسته لهم وبالتالى بالنجاح فى تأديهم ، والاستحواذ على حبه له وتقديرهم . ونرى الى جانب ذلك ان تلاميذ أبى عمران من أدباء القيروان ، وبخاصة شعرائها ، مثل : ابن شرف ، أبو عبد الله محمد بن سعيد ( الجذامى القيروانى ) الذى كان له حظوة فى قلوب العامة ولا بأس ، والذى تغنى شجنتا بمساة القيروان على أيدي العرب الهلالية ( ج ٣ ص ٤٢٧ ) ، كان من الأسباب المساعدة فى الرفع من شأن أبى عمران الى مرتبة الزعيم الشعبى - قبل هجرة ابن شرف الى الأندلس سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ( ١٧ ) . والى جانب ابن شرف هناك ذكر لعدد من كبار الشعراء من معاصريه القيروانيين ، مثل : ابن رشيقي ( القيروانى ) ، وابن حجاج ، وعبد الله المطار ، ممن لهم ذكر فى ترجمة الصمدى السفاقي ، الذى غادر القيروان الى قرطبة سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م ، لكى يتوفى بها بعد سنتين ( ٤٤٠ هـ / ١٠٠٩ م ) . وان لم نعرف ان كان لهؤلاء الشعراء علاقة بأبى عمران الفاسى ، الذى لا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة ( انظر ، ص ١٦٥ وما بعدها ) .

#### أبو عمران الفاسى والتنظيم ( الايدولوجى ) للدولة الصعراوية الدينية :

رغم ما قيل من أن صصحراء المثلثين كانت قليلة السكان شحيحة الحيات ، مفتقدة لأهم ضرورات الحياة من مادية وروحية ، فلم يعرفوا الحبز ، كما لم يعرفوا من أمور دينهم سوى أقل القليل كالشهادتين فقط ، فالحقيقة أن مثل هذه المقالة لا تنطبق الا على سواد الناس من طبقات الكادحين . أما الطبقة المتيسرة فكانت على دراية بما يجرى فى العواصم الحضرية ، كما كانت تعرف شعائر الدين ، بل وتحرص على أداء فريضة الحج فى بلاد الحجاز البعيدة ، تحت تأثير الدعاة من التجار ، أو من وجال الدين من العلماء والفقهاء ، من مغاربة وأندلسيين . ففىما يتعلق بأبى عمران الفاسى كان من بين تلاميذه من هم من أهل السوس الأقصى ، على حدود بلاد المثلثين من

= أنه رجل يبيع البقل والزيت فى سوق حسان ويسكن البصرة وكان يعرفنى ؟ فقال لا . ثم قال له فلو لقيت كثر فقال هو رجل يقدس العلم ويبنى الناس ويسكن بقرى السطاح ، وكان يعرفنى فقال ( الرجل ) نعم . وهكذا نجح فى واد الفتنة .  
( ١٧ ) الصلة لأبى بشكوال . ترجمة رقم ١٢٠٨ / ص ٥٤٥ - حيث كانت لابن حرقل الذى هو من فحول الشعراء ، رواية عن القيسى القبطى ، وعن أبى عمران الفاسى ، اللذين صحبهما فى القيروان قبل خروجه منها ، الى الأندلس ، حيث استقر .

جدالة ولطة ، مثل : وجاج بن زلوا مكتشف عبد الله بن ياسين ، المنظر المباشر للدعوة المرابطية ، فكانه التلميذ الروحي لأبي عمران : استأذ معلمه . اما المكتشف الحقيقي لمعلم الصحراء ، وبالتالي المنظر الفعلي للدعوة المرابطية ، فهو الزعيم الصنهاجي الذي كان يقود وقتئذ طائفة من اخوانه الملتزمين على طريق وادي درعه - سجلماسة ، مروراً بالقيروان ، حيث اجتذبه دروس أبي عمران وتعاليمه . فكان الامر تكرر لبداية الدعوة الفاطمية في منطقة القبائل ببلاد الجزائر الشرقية ، وكان أبا عمران الفاسي صنو ابن حوشب ، كبير الدعاة ، وكان يحيى بن ابراهيم صنو الزعيم القبلي الكتامي . وبذلك يكون عبد الله بن ياسين نظير الداعي الفاطمي أبي عبد الله الشيعي (١٨) .

والامر الذي يسترعى الانتباه هو انه رغم ضخامة العمل التاريخي الذي قام به كل من الزعيم القبلي ( الملتزم ) والفقير الديني ( المالكي ) ، وآثره العميق في الشمال الافريقي والسودان الغربي ، فان القموض مازال يحيط بكل من الرجلين اللذين ينبغي أن ينسب اليهما ذلك الانجاز الكبير . فابو عمران انفاسي الذي يظهر في القيروان كزعيم شعبي له دور محوري في تهدئة الفتن بالأسواق ، واستتباب قواعد الأمن في المدينة ، ينتهي نهاية غامضة ، وسط العاصمة الافريقية التي كانت تجمع بالعلماء والشعراء وطلبة العلم ، من كل فج عميق ، الى ما بعد اضطرابها بوصول العرب الهلالية حوالي منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م - وذلك في فترة تمتد ما بين سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م . وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم جماعة حجاج صنهاجة الملتزمين ، الذي تعدى الاختلاف بشأنه الحفود الزمنية التاريخية الى التنازع في اسمه ، بل وفي حقيقة شخصه . ولا بأس أن يكون الاختلاف في تحديد وفاة أبي عمران الفاسي هو الذي أدى الى الاختلاف في شخصية الزعيم الجدالي .

وهنا نرى ان المنهج يقتضي أن نرجع الى مصادرنا المعتبرة متسلسلة من الاقدم فالأحدث ، في محاولة لكشف تنابع الأحداث في مساراتها المنطقية في متواليات في شكل مقدمات ونتائج تترايط فيما بينها بشكل عضوي . هو أصل العملية في عملية التكوين التاريخية .

وفي هذا السياق يكون المصدر المعتمد هو البكري الأندلسي ، المعاصر

لذلك الأحداث • وهو يحدد بداية حركة الإصلاح المرابطية التي قامت بها قبائل صنهاجية في مواطنها المتاخمة لسواحل المحيط الأطلنطي ، بشكل عام فيما بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، حينما قامت « بدعوة الحق » تحت قيادة عبد الله بن ياسين (١٩) ، دونما تحديده لوقت لقاء أبي عمران بالزعيم الجدالي ، رئيس بعثة الحج الصنهاجية : يحيى بن ابراهيم الجدالي في عودته من الحج ، والذي كان حريصا على التعلم في مجلسه (٢٠) • أما ابن الأثير فيجعل بداية أمر الملتجئين في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ويحدد في تلك السنة رحلة الحج التاريخية التي قامت بها بعثة الحج الصنهاجية حيث التقى رئيسها الجدالي الذي يحمل اسم « الجوهر » بقيقه القيروان ، الذي يقال انه « أبو عمران الفاسي » في أغلب الظن (٢١) •

أما ابن أبي زرع ، صاحب روض القرطاس ، الذي يكتب في مطلع القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م ( ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م على عهد المرينيين ) فيجعل سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م هي سنة خروج المرابطين لغزو المغرب ، الأمر الذي يتفق مع رواية ابن الأثير ولكنه وهو لا يحدد سنة لقاء الزعيم الجدالي بالفقيه أبي عمران الفاسي ، يقرر التاريخ لذلك الحدث ضمنا قبل سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٨ م ، وهي السنة التي توفي فيها أبو عمران بالقيروان ، كما يرى (٢٢) • هذا ، وهو يجعل بعد ذلك اللقاء فيما بين سنة ٤٢٧ هـ /

(١٩) البكري ، ص ١٦٤ •

(٢٠) البكري ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم بن بني جدالة وحج في بعض السنين ، ولكن في صدره ( عودته ) عن حبه الفقيه أبا عمران الفاسي ص ١٦٥ •

(٢١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٦١٨ ، وقارن النويري ، نشر أبو خليف ، ص ٣٧٥ و ٢ - حيث بيان المصدر الذي يشترك في الأخذ عنه مع أبي الأثير ، ويمثل في رواية عن الدين بن شداد بن تميم بن الحز بن ياديس ( الزيري الصنهاجي ) في كتابه « الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان » بسند القاضي يعلى بن قنون ( جنون ) : قال في مراكش - حيث محاولة للتوفيق بين رواية البكري ( بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) ، ورواية ابن الأثير ( ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ) ، بالنص على أن رحلة الحج الصنهاجية كانت في العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ ( عشر الخمسين وأربعمائة ) - وحيث رصد الاختلافات ، بين سنة ٤٤٠ هـ ، ٤٤٥ هـ ، ٤٤٨ هـ - وأخيرا سنتي ٤٢٧ هـ ، ٤٢٩ هـ خروج الجدالي إلى الحج ووفاته أبي عمران التي تشير إليها فيما بعد • وقارن نشر دار الكتب ( هيئة الكتاب ) ، تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٣ ، ١ - حيث ترجيح أن يكون « يحيى بن ابراهيم » هو « الجوهر » على أساس أن الجوهر لقبه - وذلك عكس ما رأى حسن أحمد محمود من أنهما رجلان مختلفان • أما عن الفقيه القيرواني الذي التقى به الزعيم الصنهاجي ، فالتألب انه أبو عمران الفاسي • (٢٢) القرطاس ، ص ١١٨ ، ص ١١٢ بعدها - حيث يجعل وفاة أبي عمران في ١٣ من رمضان ( من تلك السنة : ٤٣٠ هـ / ١١ يولييه ١٠٣٩ م ) •

٦ - ١٠٣٥ م ( حيث خروج يحيى بن ابراهيم الى الحج ) وبين سنة ٤٣٠ هـ /  
١٠٣٩ م ، حيث وفاة أبى عمران ، على أساس أن اللقاء كان فى رحلة العودة  
( الصدور ) ( ٢٣ ) •

أما ابن خلدون فيفسر وصول يحيى بن ابراهيم الجندالى الى منصب  
الرياسة بسبب صهره فى جماعة بنى ورنطلق التى تعتبر من طبقة النبلاء  
بين قبائل المثلثين • وعن خروجه لفضاء فريضة الحج على راس جماعة  
جدالة ، فيجمله فى أول الأربينيات من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ( ٤٤٠ هـ /  
٩ - ١٠٤٨ م ) ، أى فى بداية العقد الخامس ، حسب رواية عز الدين بن  
شداد ( الزيرى ) التى يأخذ بها ابن الأثير ، والنسب يخصصها النويزى •  
وهكذا يكون لقاء حجاج كداله بابى عمران فى طريق العودة فى السنة التالية  
( ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ ) ( ٢٤ ) •

وهكذا يكون ابن أبى زرع أول من يحدد وفاة أبى عمران بسنة  
٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وهو فى الحقيقة يأخذ هذا التاريخ من ابن بشكوال  
فى ترجمته لأبى عمران ، نقلا عن أبى عمرو المقرئ الذى يقرر أن عمره كان  
يناهز وقتئذ ، ٦٥ ( خمسة وستين ) عاما • هذا ، ولو أن ابن بشكوال  
نفسه ، يقرر أن وفاته كانت فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، السابقة ( ٢٥ ) •

والذى يؤخذ على تحديد وفاة أبى عمران فى آخر العقد الثالث أو أول  
العقد الرابع ، حسب رؤية ابن بشكوال ، وبالتالي يجعل لقاءه بحجاج جداله  
فى نفس هذا الوقت ، هو ما يترتب على ذلك من طول الفترة اللازمة للاعداد  
لقيام الدولة الماريطية الوليدة ، فرائغا دون أحداثها ، وهى الفترة التمهيدية  
التي يسميها ابن خلدون « بالمطاوله » ، الى ما يقرب من ٢٠ ( عشرين )  
سنة ، الأمر الذى يدعو الى الشك فى صحة أمدها هذا ، ليس بسبب بساطة  
التجهيزات المطلوبة للمطاوله فقط ، بل وبالمقارنة مع التواريخ التى يقدمها

---

( ٢٣ ) القرطاسى ، ص ١٢٢ •

( ٢٤ ) انظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن بما سبق وشعيرة ، الماريطون ، ص ٢٨ •

( ٢٥ ) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ - حيث ينص ابن بشكوال على أنه كان

يأخذ عن أبى عمران بالقيروان ، وأنه تركه حيا ، وعاش بعده الى أن تولى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ -  
١٠٣٧ • أما عن ميلاد أبى عمران فهو فى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، حسب رواية عمر بن عبد البر  
الذى يقول انه وأبى عمران الفاسى ولدا فى تلك السنة • وقارن جذوة الاقباس لابن النافى ،  
قسم ١ ( ص ٣٤٤ ، ترجمة رقم ٣١٤ ) •

تقات المؤرخين الذين اضطروا الى التشكيك في أن يكون لأبي عمران الفاسي دور في ذلك التمهيد ، مما يتعلق بلقاء يحيى الجدالي . فإذا أخذنا بتواريخ البكري وابن الأثير والنويري ، وكذلك ابن أبي زرع وابن خلدون نستخلص منها أن حركة « المطالوة » المبنية على عملية التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي ، بناء على مشورة أبي عمران تبدأ باللقاء مع حجاج جدالة سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ م ، وتؤتي ثمارها سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م بغزو بلاد المغرب ، فكان فترة المطالوة لم تزد على ٦ ( ست ) سنوات أو ٧ ( سبع ) .

#### أبو عمران وليس بعض تلاميذه :

وهنا تبقى مسألة أبي عمران ، هل هو الذي لقيه حجاج جدالة أم أنه أحد تلاميذه ، إذا كان قد توفي حقا في سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م أو سنة ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م التالية . والذي نراه أنه لما كان الواقع التاريخي يؤكد صحة أحداث ظهور الحركة المرابطية في أربعينيات القرن الـ ٥ هـ / ١١ م بالمغرب الأقصى أي الغاء الدور البارز الذي قام به فقيه القيروان أبو عمران الفاسي في تحريك تلك الأحداث . فهنا نقترح ببساطة تعديل تاريخ وفاته الى ما بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ م ، كما تنص على ذلك روايات المؤرخين الأصيلة بدءا من البكري وانتهاء بابن خلدون ، على أن تكون سنة ٤٢٩ هـ / ٨ - ١٠٣٧ م وسنة ٤٣٠ هـ / ٩ - ١٠٣٨ م تصحيحا لسنتي ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، في رواية ابن بشكوال . ويكون سندنا في ذلك التواريخ المتعلقة بميلاد تلاميذ أبي عمران الفاسي ووفاتهم ، وخاصة المتأخرين منهم ، ممن توفوا في أواخر القرن الـ ٥ هـ / ١١ م أو أوائل القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فالذي يستشف من مناهج التعليم الديني في ذلك العصر ، أن من كان يقرأ أو يسمع أو يأخذ عن الشيخ أبي عمران أو يطلب الإجازة منه كان بمثابة طالب الدراسات العليا في أيامنا هذه ، بمعنى أن عمره كان لا يقل عن منتصف العقد الثالث ان لم يتجاوز هذا العقد - والمثل لذلك أبو عمران نفسه ، إذ كان في الثانية والثلاثين عندما بدأ رحلته العلمية في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م .

وهكذا نرى أن واحدا من مشاهير طلبة الأندلس الذين جالسوا أبا عمران الفاسي ، وهو ابن الطرابلسي : أبو حاتم بن محمد بن عبد الرحمن ابن حاتم التميمي ( القرطبي أصلا والطليطلي سكنا - ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م - ٤٦٩ هـ ( ذو القعدة / ) ماية ١٠٧٧ ) يبدأ رحلته العلمية الى المشرق سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١١ م ، وعمره ٢٥ ( خمسة وعشرون ) سنة ، ويجالسي أبا عمران في طريق العودة وعمره ٢٧ ( سبع وعشرون ) سنة ، وانصرف

الى بلاده بعد ان قضى فترة لا نعرف مقدارها ، ولكنها طالت الى سنوات على ما نظن ، حيث جمع فيها ، وهو المجتهد المعروف بأنه كان يكتب بخط متأنق ، وانه كان متأيرا على حصل العلم حتى فى أواخر أيامه - علما كثيرا(٢٦) . واذا كنا نفتقد تاريخ مولد المتأخرين من طلبة أبى عمران الفاسى ، مثل : أبى الحسن طاهر بن هشام الأزدي ، المتوفى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ( رقم ٥٤٠ / ص ٢٢٧ ) ، وأبى بكر محمد بن نعمة ( الأسدى العابر القيروانى المتوفى سنة ٤ - ٤٨١ هـ / ٩ - ١٠٨٨ ) ( رقم ١٢٠٧ / ص ٥٤٥ ) ، فمن حسن الحظ أننا نعرف تاريخ ميلاد آخرهم وتاريخ وفاته ، وهو ابن غلبون الحولانى : أبو عبد الله بن محمد بن عبد الاشبيل ( ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م - ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ) .

والهم هنا هو ان أبا عمران الفاسى أجاز للحولانى بمعنى انه لم يحضر دروس ابن عمران فى القيروان ، ربما لتقسم سن الشيخ أو لرواج الاجازة وقتئذ ، وهو الأمر الذى كان يتنبأ بخطورته بعض العلماء ، على أساس ان الاجازة التى تشبه الدراسة بالمراسلة ، أو عن طريق الجامعة المفتوحة حاليا ، تهدد ببطلان الرحلة ، التى تشبه إيفاد البعثات الطلابية الى الخارج للدراسة . وهنا اذا افترضنا أن سن ابن غلبون الحولانى ، عندما حصل على الاجازة ( الشهادة ) العلمية كان يبلغ الـ ٢٥ ( خمس وعشرين ) سنة ، فان ذلك يعنى انه حصل على تلك الاجازة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وان لم يكن بعدها ، فكان أبا عمران الفاسى كان حيا قريب هذا الوقت ، الأمر الذى يتفق مع تقارير مؤرخينا ، المعتمدين ، من البكرى الى ابن الأثير وابن خلدون ، ومن ساد على دريهم هذا .

وبذلك تنحل عقدة وفاة المنظر الأول للفكر المرابطى : أبى عمران الفاسى ، على أساس أنها تمت فى مطلع العقد الخامس ( الأربعينيات ) من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، فلا يضغط حق الرجل فيما أنجزه من عمل كبير كان له اثره العميق فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى مطلع العصور الحديثة ، ولا ينسب ذلك الى مجهول آخر من تلاميذه ، كما نرى فى ابن الأثير ، ومن أخذ من نفس المصدر ( ما سبق ، ص ١٦٤ وما بعدها ) ، الأمر الذى يماكس تماما مقاصد التاريخ وأغراضه .

وتبقى مشكلة الزعيم الجدالى : وهل هو : يحيى بن ابراهيم ، كما هو

---

(٢٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٦٣ .

متعارف عليه لدى معظم الكتاب والمؤرخين أم هو نفس الشخص الملقب بـ « الجوهري » ، وهو ما أخذ به ابن الأثير في كامله ، نقلا عن ابن شداد ( الزيرى - ما سبق ، ص ٢٩ وما يأتي ص ١٨١ وهـ ٥٢ ) - وله وكتاباه ما لهما من الرسوخ في التاريخ الاسلامى . والحقيقة أن مسألة الجوهري محسومة في مصدرنا الرئيسى عن قيام الدولة المرابطية ، وهو البكرى ، الذى يفرق بين رئيس بعثة الحج الجدلالية فى مطلع العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وهو الشخصية التاريخية الراسخة ، مثل أبى عمران الفاسى ، وبين الشائر ( اللمتونى ) المسمى بالجوهري بن سكم ، الذى كان يسانده فى ثورته رجلان من كبارهم ، أحدهما يحمل اسم « أيار » والآخر اسم « اينتكوا » ( ٢٧ ) .

#### اللقاء بين أبى عمران الفاسى ويحيى بن ابراهيم الجدالى ( ٤٤٠ هـ / ٩ - ١٠٤٨ م ) :

بناء على ما تقدم يكون لقاء يحيى بن ابراهيم الجدالى قائد بعثة حج الملتمين الصنهاجية ، بقيقه القيروان أبى عمران الفاسى قد حدث مرتين ، أولاهما : أثناء رحلة الذهاب ( الورد ) سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، والثانية فى طريق العودة ( الصدور ) سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) . ومن الواضح أن الزعيم الجدالى كان محبا للعلم . فهو اذا كان قد مر سريما بمجالس أبى عمران ، سواء فى داره قرب السماط ، أو فى المسجد الجامع ، فانه أحسن الجلوس فى رحلة العودة . ولا بأس أن يكون قد شاهد بعض مجالس علماء الحجاز فى مكة أو المدينة ، ممن سبقت الإشارة اليهم ( ص ١٤١ ) ، وإن ذلك كان ادعى الى ارتباطه الى بقيقه القيروان الفاسى ، على أساس أنه الأقرب اليه لهجة وتقليدا . والمهم أنه حدث تجاوب بين الزعيم الدينى والشيخ القبل للذين تقاسما شرف التفكير فى عملية الإصلاح الاجتماعى فى صحراء المغرب الكبرى . فالروايات الأولى التى تبدأ بالبكرى تنسب الفضل الى أبى عمران الذى سأل رئيس جماعة الملتمين عن بلده وأحواله ، ومذاهب أهله الدينية . وعندما اتضح له أن الرجل الصحراوى ليست نُدبه

---

( ٢٧ ) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وهذا ما أخذ به حسن احمد محمود ، فى رسالته عن قيام دولة المرابطيين ، وهو ما لم يقتنع به حسين نصار فى تحقيقه للجزء الـ ٢٤ من الزيرى ، دون سنده اعتمادا على أن يكون الجوهري لقباً ليحيى - مما سبقت الإشارة اليه . ص ١٦٦ وهـ ٢١ .



معرفة بالمذاهب الإسلامية ، بل وانه لا يعرف الا القليل عن فرائض الاسلام ، ورغم ذلك فلديه رغبة شديدة فى التعلم ومعرفة واجباته الدينية ، ناقشه فى امكانية سد هذا النقص الخطير ، المتمثل دينيا فى تعلم شريعة الاسلام ، ومدنيا ( فى الحياة اليومية ) فى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهنا اعتذر يحيى بأن من يأتى الى بلادهم من المعلمين مجردين من الورع والتقوى ، جهلة لا علم لهم بمذاهب أهل السنة ، وسأله أن يختار له من طلبته من يقوم بتلك المهمة الشاقة بين الجفاء من أهل الصحراء (٢٨) .  
أما الروايات التالية التى تظهر عند ابن الأثير والنويرى وابن أبى زرع ، فتجعل الفضل فى ذلك الى الزعيم الجدال ، الذى يادر ابا عمران بقوله انه ليس عندهم فى الصحراء شئ من هذا ( علوم الدين ) غير الشهادتين فى العامة ، الى جانب الصلاة فى بعض الخاصة فقط ، مع سؤاله أن يسمت معه من يثق فيه ليعلمهم شرائع الاسلام (٢٩) .

#### اختيار المعلم :

#### عرض الأمر على طلبة القيروان :

ولم تكن مهمة القيروان فى اختيار المعلم المناسب لسكان الصحراء من

(٢٨) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٨ - ٦١٩ ، وقارن النويرى ، تحقيق « أبو حنيف » ، ص ٣٧٦ - حيث ينسب الجزء الأخير من الجدل الخامس بحمل المعلم الى أبى عمران ، وأنظر تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ - حيث النص « فاحمل معك من يعلمهم عقائدهم ، وكامل دينهم » ، وأنظر القرطاس ، ص ٢٢ - حيث يدور حوار بين الرجلين يعرف فيه الجدال بسمة بلاده وما فيها من الخلق الذين غلب عليهم الجهل . وعندما يظهر لأبى عمران أن جهل يحيى بواجبات دينه لا ينقص من رغبته فى التعلم ، ويعرف منه أن أهل بلاده يسيرون الحجر ويسارعون اليه اذا ما وجدوا من يدرس لهم العلم ، ويدعوه الى العمل بالكتاب والسنة ، وانه يدعو الى المساعدة فى تحقيق ذلك ، ليكون له الأجر العظيم ، حيث يكون سببا لهدايتهم . عمل أبو عمران على تحقيق رغبته تلك . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ والترجمة ج ١ ص ٦٧ - حيث الارتفاع بالخبر الفردى الى حالة النشوة الاجتماعى ، اذ يكون الفضل الى جماعة حجاج حذله الذين انبهروا بعلم أبى عمران وفتاويه فسألوه أن يسمت منهم من يرجعون اليه فى قضايا دينهم . وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ١٠٧ - حيث التول - كما هو الحال بالنسبة لـ « كتاب ذكر بعض مشاهير فاس لمجهول » ( ص ٦٣ ) ، بأن يحيى الجدال خرج لطلب الحقيقة وليس للحج فقط ، وانه خرج لارتياح مدارس المغرب ؟

المثمين من الأمور السهلة فلقد اجتهد أبو عمران في البحث عن الرجل المناسب بين المقربين اليه من طلبة حلقته ، بل ومن بين أفراد أسرته . وهناك تفصيلات - تشبه قصصية - اجتهد المتأخرون من الكتاب في رصدتها يستدل منها على أن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الصحراء البعيدة عن عمران لم تكن من الأمور المحببة لرجال الدعوة الناشئين (٣٠) ، وأن التمسنا لهم العذر على أساس أنهم لم يكونوا قد تدربوا على الأصول الفنية المعروفة لدى المحترفين من الدعاة ، وخاصة من ابتداء تنظيمات الحركات السرية ، كالدعوة الغاطمية ( ج ٣ ص ٢٠ ) .

وهكذا لجأ أبو عمران في البحث عن الرجل المنشود - بعد أن تعهد له يحيى بن إبراهيم بـ « حفظه وزنه وإكرامه » - إلى واحد من أبناء أخوته اسمه عمر ، وعرفه بما سيكون له من الذكر الجليل لدى الناس ، والتواب العظيم من الله عز وجل ، حتى أقنعه بالقبول . ولكن طالب القيوان المرف لم يلبث أن استغنى من الغد ، من تلك المهمة التي قد لا تحمد مقببتها (٣١) .

#### دور محمد : وجاج بن زلوى ( السوسي ) :

وإزاء رفض طلبة القيوان دخول الصحراء الموحشة والذي ربما كان مقدمة مصطنعة تهدف أصلا إلى تقرير مستحبة مهمة المعلم الداعي ، رأى أبو عمران أن خير من يقوم بتلك المهمة واحد من شباب العلماء من أصل البلاد ، من صنهاجة الصحراء ، المثمين . وهذا ما أخبر به يحيى بن إبراهيم الجدللي إذ طلب منه أن يصرح ، وهو في الطريق إلى بلاده المتأخرة لساحل المحيط الأطلنطي على بلاد السوس ، حيث يوجد واحد من علماء طلبته المجتهدين ، هو : محمد وجاج ( وكاك ) بن زلوا اللمطي ، الذي كان يقيم

(٣٠) انظر البكري ، ص ١٦٥ - حيث مجرد الإشارة إلى أن أبا عمران لم يجد فيه رغبة ( من تلاميذه ) من يهيئه إلى السير معه ( يحيى بن إبراهيم ) ، فقال له : قد خدمت بالقيوان بختكم .

(٣١) النويري ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٤ - حيث النص على أنه طلب الاستفتاء لأن أهل الصحراء جاهلية لهم عاداتهم التي إذا طلبوا بخلافها لجأوا إلى قتل من طالبهم بذلك ، وقارن الفطاس ، ص ١٢٣ - حيث ينتدب أبو عمران بناء على طلب الزعيم الجدللي - تلاميذه إلى ذلك « فاجتمعوا ، واشفقوا من دخول الصحراء ... » ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث عرض المسألة كفضية عامة يرفضها طلبة القيوان الذين لديهم بها أبو عمران ، حرصا على إيصال الخير إليهم ، ولكنهم استوعروا مسغبة بلادهم .

جبلدة ( ملكوس ) ، والذي اشتهر بعلمه وورعه (٣٢) .

ورود أبو عمران يحيى بن ابراهيم يخاطب الى وجاج - يبدأ بالتسليم والحمدية ، ثم التعريف بالزعيم الجدلي . أما موضوعه فتوصية فقيه القيروان قلميده القديم فقيه السوس ، بأن يبحث مع يحيى الى بلاده واحدا من طلبته ، ممن يتق في دينه وورعه وعلمه ، ليعلمهم ويفقههم في دينهم ، وله الثواب والاجر العظيم . وينتهي الخطاب بالتسليم .

واذا كنا نشك في صحة الكتاب - الذي لا نعرف من أين أتى الى صاحب روض القرباس ، ولا كيف - فان مضمونه لا يختلف عما كان يدور بين أبي عمران وبين يحيى بن ابراهيم بشأن العلم الأمر بالمعروف - وهو ما بين الكيفية (التي تم بها وضعه (٣٣) . والمهم أن الزعيم الجدلي : يحيى بن ابراهيم سار الى وجاج ، الذي كان يكتب في رباط له بنفيس ، حيث كان منقطعاً لأعمال الورع والتقوى وتدريس العلم ، والدعوة الى الخير ( دعوة الأمر بالمعروف ) ، وعرفه بمقصده . من : طلب معلم محتسب يعلمهم شرائع دينهم ، ويهديهم الى الخير ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٠ هـ / مايو ١٠٤٩ م (٣٤) .

(٣٢) البكري . ص ١٦٥ - حيث النص على أنه ربما ظهر عند وجاج بن زكري ببغية ، فوجد ذلك يحيى بن ابراهيم لوكد همه . وقارن روض القرباس ، ص ١٢٣ - حيث النص على أنه « لما يتس ( أبو عمران ) بهم ، قال : اني أعرفم ببلاد نفيس من أرض المصامتة فقيها حاذقاً حنبلاً ورعاً لقيت هنا ، وأخذ عني علماً كثيراً ، واسمه وجاج بن زكري اللطفي ، من أهل السوس الأقدمي . فهو يدعو الناس الى الخير في رباط هناك . . . . . اكتب له كتاباً لينظر في تلاميذه من يبعثه مخلصاً فسر اليه ، فبعثه تجد ما تريد . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٣ - حيث اسم فقيه السوس : محمد وكاف ( وجاج ) بن زكري اللطفي ، بسجلماسة ( وليس بالسوس ) ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٨ - حيث : مصيد و - ( ou - Aggag ) بمعنى محمد بن وجاج ، والذي نراه ان محمداً هو اسمه العربي وان وجاج هو اسمه البربري ، تماماً مثل يوسف : بلكنين قبيلة ، ومحمد : اسمر بن تومرت بعده ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٢١٩ - حيث اختصار ذلك بالقول أن أبا عمران هو الذي أرسل عبد الله بن ياسين مباشرة مع يحيى بن ابراهيم . ومن الزامه أنها رواية عن الدين بن شداد الزبيري الصنهاجي التي ينقلها التويري ( ج ٢٤ ص ٢٥٤ ) - حيث النص على أنه عندما خالف عمر ابن أبي عمران ، عز على ابن ياسين ذلك ، وقال لأبي عمران : ما يا فقه ، أرسلني مع يحيى بن ابراهيم ( والله الحق ) ، فأرسله معه ، وتوجها ( سوياً من القيروان ) الى الصغراء ؟

(٣٣) القرباس ، ص ١٢٣ .

(٣٤) أنظر القرباس ، ص ١٢٣ - حيث النص على أن يحيى الجدلي وصل الى نفيس بوجدل الكتاب إلى وجاج في رجب من سنة ٤٤٠ هـ / ديسمبر ١٠٤٨ م بدلاً من ٤٣٠ هـ /

وانتهى لقاء الرجلين بذلك الحدث التاريخي الذي حول بلاد الصحراء من حال الى حال ، وبالتالي بلاد المغرب والأندلس التي ارتبطت بمصير الواحدة منهما بالأخرى ، فكوتنا امبراطورية عظمى ، ذات حضارة مغربية أندلسية عاشت الى مطلع المصور الحديثة ، وكان لها أثرها في تشكيل البلاد الى ما آلت اليه اليوم . ذلك الحدث هو اختيار عبد الله بن ياسين ليقوم بدور المحتسب في صحراء الطوارق الملتجئين - دور مهدي المرابطين ، كما يحلو لصاحب روض القرطاس أن يسميه - تشبيها بابن تومرت (٣٥) : مهدي الموحدين .

#### عبد الله بن ياسين محتسبا :

عرض محمد : وجاج مهمة الدعوة في صحراء الملتجئين ، بصحبة يحيى ابن ابراهيم ، على تلاميذه في الرباط ، وبين لهم أن حسن الثواب في تلك المهمة الحرة يكون على قدر العمل . وانتهى الأمر بانتداب عبد الله بن ياسين . للقيام بالمهمة الشاقة في بلاد القفر الموحشة ، فكان اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب ، كما يقال في أيامنا هذه . فالرجل أصلا من أهل الصحراء ، من قبيلة جزولة ، أخت جدالة ان لم تكن يمضا منها أو هو نفسها ( ما سبق ، ص ) . فابن ياسين صحراوي مغربي ( يربري ) أصيل . وإذا كان اسم أمه « تين يزاهارن » يربري قح ، فإن اسمه : عبد الله ، واسم أبيه : ي ( ياه ) و ( سين ) ، عربيان اسلاميان تماما (٣٦) . أما عن مسقط رأسه فهو قرية تسمى « تماما ناوت » في طريق صحراء غانة (٣٧) ، من غرب أفريقيا ، على تخوم بلاد السودان .

وهذا الأمر يدعونا الى التأمل في مغزى الرواية التي يفهم منها أنه

---

= ١٠٣٨ م - وهو ما عدلناه حسبما اقتضت اصول المنهج وسلامة المس - مما سبق الإشارة اليه : ص ١٦٦ . وعن وجاج الذي لا يعرفه ان كان من تلاميذ أبي عمران في فاس ام نور القروان - أنظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط ٥ . بيروت ، ج ٤ ص ١٨١ - حيث الاسم اوكاد ( وجاج ) بن زلوة النمطي وان اللقاء كان في دار وجاج بالسوس التي سماها دار المرابطين ، وفارن عبد الله كنون ، أبو عمران القاسي ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ . (٣٥) ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤ . وقارن : ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ط ٥ . بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٠ - ٧٨١ - حيث : « نحن على أن ابن ياسين » ذو الأنباء الطيبة والتقصي الغريبة ، القام بعد : « نرايطين » الذين لدولتهم أول خروجهم » . (٣٦) . « الله أشهر ما عبد من الأسماء ، والى س من الحروف القرآنية الرمزية البجلة التي تبدأ بها بعض السور ( أنظر سورة ي س رقم ٣٦ ، آية ٩ ) . (٣٧) البكري ص ١٦٥ .

عبد الله بن- ياسين كان من تلاميذ أبى عمران الفاسى ، وانه عرض نفسه للقيام بتلك المهمة ارضاء لأستاذه الذى أسف لاعتذار ابن أخيه عمر ( ما سبق ، ص ١٧٢ ) . وهنا يمكن القول أن قصة ابن ياسين فى القيروان هذه يمكن أن تشكك فى حقيقة قصة البحث عن المعلم ( الصحراوى ) بين طلاب أبى عمران أو قرابته ، وما اعترض ذلك من عقبات . وهنا نرجع فكرة ان أبى عمران لم يكن ليفيب عنه أن أصلح المعلمين لأهل الصحراء ، هو من يكون مهم أصلا . وعندئذ تكون محاولة اختيار معلم قيروانى مجرد اجراء شكلى ، الهدف منه محاولة تجميل موقف العاصمة الثقافية الافريقية ، وبالتالي مدرستها المالكية (٣٨) .

### رابط وجاج :

والهم من كل ذلك هو : أين وجدت مدرسة وجاج أو رباطه الذى درس فيه عبد الله بن ياسين ، الطالب الوافد من جنوب الصحراء ، من تخوم بلاد السودان الغربى ؟ وهنا نجد ٣ ( ثلاثة ) مواضع ، أولها : ملكوس ( التى لا تعرف لها مكانا ) ( البكرى ص ١٦٥ ) ، وثانيها : « رباط » نفيس غير بعيد من الموضع التى ستبني فيه مدينة مراكش ( القرطاس ، ص ١٢٣ ) ، وثالثها : بسجلماسة ( ابن خلعون ج ٦ ص ١٨٢ ) . وإذا كنا نستبعد سجلماسة التى لم تعرف بأنها موطن رباط ، فضلا عن بعدها عن العدو البحرى ، وكذلك الأمر بالنسبة لنفيس من حيث كونها من مدن وادى تنسيفت ، وهى المنطقة الوعرة التى لا يطرقها أهل الصحراء من طلبة العلم . وهكذا فلا تبقى الا ملكوس التى نرى أنها تحريف لاسم مدينة ماسمت التى ينسب إليها نهر السوس فهو وادى ماسمت ، والتى كانت وقتئذ على عهد البكرى موطن رباط مقصود ، له موسم عظيم ومجمع جليل ، من حيث كانت مأوى للصالحين (٣٩) .

وكان ذلك الرباط على ساحل البحر ، فى موضع اللسان الأرضى الذى

---

(٣٨) أطر حسن أحمد محمود ، المرابطون ص ١١٢ - حيث انتقاد ما يقال من أن الفقهاء والمالكية أعربوا عن اشتغالهم من السفر البعيد فى الأرض الثفرة ، وحيث فكرة أن أبى عمران فكر فى الرجل الصحيح من أهل المنطقة وهى فكرة لا بأس بها ، ومع ذلك فالذى نراه أن فقهاء المالكية بشر لهم مصالحهم الدنيوية مثل فخرهم ، فهم ليسوا رهبانا رغم استخدام النصوص لكلمات مثل : التنبه والرهبة والتمسك ، على كل حال . وبناء على ذلك فلا بأس أن يكون عرض النزوج من القيروان عليهم الى الصحراء نوعا من التشكيلات التى يجب أن تستوفى .

(٣٩) البكرى ، ص ١٦١ ، وقارن استبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

يلتقي عنده نهر السوس بالبحر المحيط ( الأطلسي ) • والمتصود بالرباط .  
هو ملجأ العباد والمجاهدين على نسق ما هو معروف في ساحل القيروان  
وخاصة في سوسة ( ما بعد ص ١٨٣ وهـ ٢ ) •

### الطريق الى جدالة :

من المهم هنا الإشارة الى أن مادتنا التاريخية الخاصة بعملية تثقيف  
أهل الصحراء هذه ، تتضارب في طبيعتها • فهي تفصيلية مسببة لتراوح  
ما بين المذكرات الشخصية الوثائقية ، والأساطير الشعبية ، فكانها من  
طراز روايات الأيام الشفوية أصلا ، وخاصة فيما يتعلق بالدعوة ونشر  
الاسلام • وهي مختصرة ناقصة أو مفتقدة تماما في مواضع أخرى ، حيث  
افتقاد التوقيت ، مما يقلل من قيمتها التاريخية ، وعدم الإهتمام بتحديد  
الأماكن والطرق مما يقلل من أهميتها الجغرافية والطبوغرافية ، الى غير ذلك  
مما تعرضت له الرواية من التحريف والتقطيع ، على طول تداولها بين أيدي  
النساخ والكتاب ، مما يقتضى محاولة إعادة الترتيب (٤٠) •

وهكذا لم نعرف شيئا عن الطريق من القيروان الى رباط وجاج  
( بالسوس الأقصى ) ، وأغلب الظن أنه طريق الغرب المتعارف عليه الى  
فاس ، وإلى أغصان فالسوس ، فطريق البحر من نول لمطة الى جدالة على  
طول الساحل (٤١) • وكذلك الأمر بالنسبة الى عدد أفراد جماعة المسافرين  
مع عبد الله بن ياسين ، لا نعرف عنهم شيئا ، ولا عن أحداث الرحلة ، وهو  
الأمر الذي يثير الكثير من التساؤل • وإذا كانت هناك بعض المعلومات عن  
نهاية الرحلة بأرض جدالة ، حيث خرج الناس من قبائل جدالة ( كدالة )  
ولتونة ، فالتقوا الفقيه بالسرور وفرحوا به غاية الفرح ، وبالفوا في أكرامه  
وبره (٤٢) ، فانها معلومات عامة ليست ذات يال •

والمهم أن احتساب عبد الله بن ياسين في جدالة وفي لتونة لم يكن

---

(٤٠) أنظر النويري ، نهاية الأرب ، ليو زيفو ، ص ٣٧٧ وما بعدها • حسين نصار ،  
ج ٢٤ ص ٥ - ٢٥٤ - حيث النص خطا على خروج ابن ياسين من القيروان مع يحيى الجدالي  
الذي نزل عن جملة وأمسك بزمام جبل ابن ياسين ، اجلالا وتقديرا ، وهو يقول عنه : هو  
حامل سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمفترض أن يكون هذا المشهد خاصا بالخروج  
من جدالة الى لتونة على عهد وثاسة ابن بكر بن صير •  
(٤١) البكري ، ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ٢٦٠ •  
(٤٢) القزطاس ، ص ١٢٢ •

من الأمور السهلة . فتعليم الجفاة من أهل الصحراء الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، والذين يعيشون على قوانينهم الطبيعية وأعرافهم القديمة التي قد تتفق مع أعراف الجاهلية ، وليس مع شريعة الإسلام ، مما سبقت الإشارة إليه قديماً ( ص ١٢٥ ) ومما عرفه الداعي في تجربته المرابطية .

**أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين :**

#### **في أرض جدالة :**

كان من الطبيعي أن يبدأ عبد الله بن ياسين عملية التجديد الإسلامي ، في صحراء صنهاجة الملتئمين في بلاد قبائل جدالة ، عصبية يحياي بنه إبراهيم ، الرئيس المرموق ، صهر جماعة النبلاء من بني ورتنطق ( ماسبق ، ص ) . فعندما وصل إلى موضع سكنه ، وفضل الدعاية التي قام بها الشيخ الجدالي الثف الناس حوله للتعلم (٤٢ م) . وفي البداية سارت الأمور على ما يرام . فالداعي كان يتحسس طريقه في شبه المجهول ، حيث تقضي أصول الدعوة إلى اتباع حكم الشريعة بالبدن بالكلمة الطيبة مع القدوة الحسنة . ومع مرور الأيام بدأ ابن ياسين يكتشف أنه يحرق في أرض جدبة ، وإن جذور الإسلام في تلك الصحراء سطحية فوق الرمل . وكانت أولى المفاجآت ما عرفه ابن ياسين من أن صاحبه الزعيم الجدالي يحيى بن إبراهيم عنده ٩ ( تسع ) زوجات دفعة واحدة (٤٣) . وكان على الفقيه أن يبين له أصول الشرع في مسائل الزواج والتسرى . وإذا كان يحيى المتحمس للإسلام الصحيح قد وافق بسهولة على تصحيح موقفه بفراق ٥ ( خمسة ) من نسائه ، فإن الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرؤساء القبائل الآخرين . وهكذا كانت مطالبة الناس بالالتزام بإداه الفروض ، من صلاة وزكاة في مواقيتها من المشقات التي استصعبوها ، وخاصة مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهكذا انقسم الجداليون إلى مؤيدين للفقيه ومعارضين (٤٤) . والظاهر أن كفة المعارضين كانت الأرجح بفضل مؤيديهم

(٤٢) م) البكري ، ص ١٦٥ .

(٤٣) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٤ ، وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن البعض يفسر الآية التي تنص على أنه يمكن للمسلم أن يتزوج « مثنى وثلاث ورباع » على جمع هذه الأعداد ( ٢ + ٣ + ٤ = ٩ ) وأن كان ذلك يمكن أن يكون بطنى النكاح التي يقتدر بها أصحاب بهر المذهب على أصحاب مذهب آخر .

(٤٤) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث النص على أن منهم من أطاع ومنهم من عصى .

من الرؤساء الذين رأوا النجاح المتوقع للفتية ضياعا لما لهم من سلطات .  
وذلك أنهم عندما استنفلوا ما عرضه عليهم من الواجبات ، فتنبرأوا منه  
وهجروه ، فكر في الرحيل الى بلاد السودان الاسلامية ، لتابعة نشاطه  
الحزبي (٤٤ م) .

واذا كان أبي زرع يرى أن يحيى بن إبراهيم له الفضل في توجيه  
أنظار عبد الله بن ياسين الى اقامة رباط للتمديد بدلا من الهجرة الى السودان  
فمن الواضح أن ابن ياسين كان في أول مراحل نشاطه في جدالة لم يعرف  
غيرها من قبائل الصحراء الصنهاجية ، من لتونة ومسونة ولطة وغيرها ،  
وهو ما سوف يعود اليه ملخصا بعد تكوين الرباط ، فكانه تقطيع لأوصال  
الرواية وتقديم بين بعض أجزائها وتأخير ، مما يجافى تواصل الأحداث  
وتواترها التاريخي (٤٥) .

والذي نراه هنا هو استكمال قصة الدعوة السنية في جدالة من رواية  
ابن شهاد الصنهاجي التي يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويري ، وإن خالفا  
السياق التاريخي بتقديم الدعوة في لتونة على الدعوة في جدالة (٤٦) .

فمنعما استشعر عبد الله بن ياسين قوة المعارضين الذين التفوا حول  
رؤسائهم في شبه حزب رسمي رأى تحريض أنصاره على التحزب في تجمع  
مضاد ، يعمل على استخدام القوة في الدفاع عن نفسه ، عن طريق اقامة  
جيش مسلح ، واتخاذ رمز خاص لتلك القوة ، ممثلا في رايتها المميزة ،  
واختيار أمير للقيادة وإدارة الحرب ضد « مخالفى الحق » وهو يحيى بن  
إبراهيم الجدالي ، الذي كان يظهر وكأنه المستنصر ( المساعد ) للفتية ، حامل  
أمانة الشريعة (٤٧) .

---

(٤٤) م) روض القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على أنهم عندما تنبرأوا منه وهجروا  
ونافروه ، وتقل ذلك عليهم أراد الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا في الاسلام .  
(٤٥) انظر روض القرطاس ، ص ١٢٦ .

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث البدء بلمتونة ، ص ٦٢٠ - حيث وعادوا الى  
جدالة ، النويري ، أبو شيف ، ص ٢٧٧ ( لتونة ) وص ٢٧٨ ( جدالة ) ، وتحقيق حسين  
نصار ، ص ٢٥٤ ( لتونة ) ، ص ٢٥٦ ( جدالة ) .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، ولأثر النويري ، أبو شيف ، ص ٢٧٨ ، حسين  
نصار ، ص ٢٥٦ .



## في ارض لتونة :

والذى يفهم من رواية البكرى انه عندما قويت جماعة اهل الحق فهم مواجهة المعارضين من الجهاديين نقلت نشاطها الى ارض لتونة المجاورة حيث دخلوا جبلهم الحصين وغنموا اموالهم رغم قلة عددهم(٤٨) الا اذا كان ذلك قد تم بترتيب مسبق مع أعوان « دعوة الحق » في لتونة ، حيث تشير الروايات الى حسن استقبال اللمتونيين لابن ياسين الذى كان يحبى الجهادي يأخذ بزمام جملة تعظيما لشريعة الاسلام(٤٨م) بصرف النظر عن اختلاف ترتيب الأحداث .

وهكذا تنتقل قيادة دعوة الحق من ارض جدالة ، الى ارض لتونة حيث تبدأ حركة التاهيل الاسلامية - فى شكلها المالكى - على نطاق واسع ، وبمفاهيم أعمق ، وامكانيات اكبر ، مع ضوابط عملية ممثلة فى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان من الطبيعي أن يؤدي مثل هذا التشدد فى محاولة العودة بالاسلام الى نقائه الأول الى رد فعل مضاد فيما يتعلق بأمور المعاملات وشئون الحياة اليومية الجارية . فابن ياسين عندما قسم اليهم بصفته الفقيه العارف بشئون الدين ، والمعلم الحامل لسنة رسول الله قبول بما يستحقه من التبجيل والاحترام . وهو عندما طالب باداء الفروض من الصلاة والزكاة ، وافقوه على انه أمر « قريب » أى سهل مقبول . ولكنه عندما طالب بتطبيق شريعة القرآن مما يتعلق بالقانون الجنائى ، من مثل : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ( تقطع يده ) ، ومن زنى يجلد أو يرحم ، رفضوا ذلك ، قائلين هذا « أمر لا يلزمنا »(٤٩) . على

---

(٤٨) البكرى ، ص ١٦٥ - حيث النص على أن غزاة الجهاديين من أعوان ابن ياسين كانوا سبعين رجلا فقط ، الأمر الذى قد يعنى أنهم أخذوا لتونة على غرة . الا اذا كان استخدام الرقم سبعة له مدلول رمزى كما هو الحال عند الشيعة ، حيث نجد - فى روضى القرطاس - ان الجهاديين الذين ابتنوا أول رباط ، رباط لابن ياسين كانوا ٧ ( سبعة ) ، وأن ابن ياسين بعد الخروج من الرباط جمع أشياخ القبائل وظل يدعوهم الى التوبة ٧ ( سبعة ) أيام - الأمر الذى يشكك فى علاقة ما بين تنظيم الدعوة الرابطة السنية والدعوة الاسماعيلية الفاطمية فى منطقة القبائل بقسطنطينة ( ج ٢ ، ص ٥٥٧ ) .

(٤٨م) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويزى ، أبو خليف ٣٧٧ - حيث النص على أنهم انتهبوا الى قبيلة لتونة ، على روية عالية ، وأن أعيان لتونة وأكابرهم خرجوا للسلام على الزعم الجهادى الذى عرفهم ان الفقه هو حامل سنة الرسول ، وانه جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم من دين الاسلام ، وقادرن نشر حسين نصار ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .  
(٤٩) ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦١٩ ، وقارن النويزى ، أبو خليف ، ص ٣٧٧ ، وحسين نصار ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ - حيث « أمر لا يلزمنا ، ولا نلتزم تحت » .

أساس أنهم يرون أن القوانين العرفية ( الطبيعية ) المطبقة عندهم كانت تؤدي الفرض منها (٤٩ م) ، فكانهم يطالبون بالفصل بين الشريعة الدينية وبين القوانين المدنية ، أو الفصل بين الدين والدولة المتمثل في مقولة اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله (٥٠) .

والذي يلفت النظر أن حركة الإصلاح في الصحراء ، تنص بشدة على أداء كل من فريضة الصلاة والزكاة دون إشارة واضحة إلى الصيام (٥١) . ولا ندرى إن كان ذلك يعني أن الصوم في الصحراء كان أمرا هينا بالنسبة لأهلها المعتادين على شظف العيش ، أم أن الجوع في البادية - مع كثرة التنقل والسفر - كان لا يزين لهم التفكير كثيرا في الصوم ، وأنه على العكس من ذلك كان يؤدي إلى إلحاح المسؤولين في جباية الزكاة والصدقات وغيرها من الجبايات ، ممن كانوا يستطيعون ذلك ، وخاصة من أهل الواحات والقرى - وهنا لا بأس من التفكير فقهيا في أن المسافرين يمكنهم أرجاء

والخلاصة أن « دعوة الحق » اصطلمت في لتونة بحركة مقاومة أشبه بتلك التي صادفتها في بلد جدالة . ولكنه إذا كانت بعض الروايات تقول أن اللتوتيين عندما استنقلوا حلبة ابن ياسين قالوا له : اذهب إلى غيرنا ، فخرجل بصحبه الرئيس الجدالي يحيى بن إبراهيم ، فإن من المقبول أن نأخذ

(٤٩ م) أنظر فيما سبق ، ص ١٧٧ ، وفيما بعد ص ٥٢ ص ١٨١ .

(٥٠) وهي المسألة المثارة حاليا في كل من الملتقى العربي والإسلامي ، بين جماعات المسلمين المتضادين الذين يرون أن عملية التناز عالم الإسلام مما دهاء من تدنى لا تتأني إلا بالرجوع بالإسلام إلى ما كان عليه في عصر « السلف الصالح » ، الأمر الذي لا يتحقق إلا في ظل حكومة تطبق الشريعة الإسلامية بأكملها : الدينى للتعلم بالاعتقادات والفراس ، والدنيوى للمعيشة في القوانين المدنية ، وخاصة تطبيق الحدود الإسلامية ، بدلا من القوانين الجسائية المدنية المبنية على قوانين الطبيعة والسياسة العقلية ، وهي التي تتفق مع روح الإسلام ، والصالح العام ، وهي المسألة التي يصل الخلاف فيها - حاليا وهو الأمر المستغرب - إلى حد قطع أسباب الرد ، واستجابة استخدام الصنف بدلا من الحوار والانفتاح بالرأى ، الأمر الذي لا يتفق مع استقرار عصر العلم ، والتطوير والحريية ، عصر حقوق الإنسان كائنا من كان ، وجلا كان أم امرأة مما لا نكره مصلحة ولا شرع ولا دين .

(٥١) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى أبو شيف ، ص ٣٧٧ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ ، القزطاس ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث التركز على أخذ الصدقات .

برواية البكرى التى تقول بشئىكل قصصى ، أن أمر الأنصار الجدد من اللثونيين كان يزداد قوة ، بعد أن استعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين فى الوقت الذى كان عبد الله بن ياسين ، رافضا لطعامهم وشرابهم ، على اعتبار الشك فى أنها حرام غير مشروعة فكانه ضرب عليهم نوعا من الحرمان الكنسى (excommunication) (٥٢) .

#### معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة :

والمهم أن ذلك كان بداية لانفصال جماعة « أهل الحق » عن بقية « المحرومين » ( من رضاء الفقيه ) من أهل لثونة . فلقد قرر عبد الله بن ياسين بناء مدينة خاصة به وأنصاره ، هى التى عرفت باسم « ارتنى » ، والتى تقرر فى عمارتها اتباع شروط المدينة الإسلامية على عهد عمر بن الخطاب ، وهى « ألا يشفت ( يرتفع فيها ) بناء بعضهم على بناء بعض » (٥٣) ، بمعنى تحقيق مبدأ المساواة والأفقية فى عمارة بيوت المدينة ذات الطابق الواحد عادة ، الأمر الذى جعل من الأفقية واحدة من أهم سمات العمارة الإسلامية المبكرة . ويفضل البساطة فى المظهر والتقوى فى المخبر ، أصبحت « ارتنى » رباطا وسط لثونة ، ومركزا للدعوة السنية فى قلب صحنجة الصحراء .

والمهم أن ضغوط الالتزام بالخط الرفيع الذى يفصل بين الحلال

---

(٥٢) انظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث النص : وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم ، متورع من أكل لحماهم وشرب البانهم ، لما كانت أموالهم غير طيبة ، وإنما كان عيشه من صدق البرية . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث الجوهر هو يحيى الجندال ، الذى يطلب من ابن ياسين أن تكون الامارة لأبى بكر بن عمر رأس لثونة وكبيرها ، والذى سماه ، كما نص الرواية بـ « أمير المسلمين » . وقارن التويرى ، أبو خليف ، ص ٣٧٧ - حيث النص على أن زعماء لثونة طلبوا ، ومنهم أبو بكر بن عمر ، من عبد الله بن ياسين أن يملهم ما يلزمهم من الدين . . . . . وانهم رفضوا الحدود من القطع والجلد والرجم ، ص ٣٧٨ - حيث أبو بكر ابن عمر ، والهامش ٧ - حيث نقل القيادة إليه بعد وفاة يحيى بن إبراهيم الجندال ، ص ٣٧٩ - حيث عقد الراية لأبى بكر بن عمر ، وتسميته بأبى المسلمي ، ص ٣٨٠ - حيث حصد الجوهر ( يحيى الجندال ) لأبى بكر بن عمر ، ونشر حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث هلك يحيى بن ابراهيم واقترب أمرهم ، وأطروا عبد الله بن ياسين ، واستصحبوا علمه ، وتركوا الأخذ عنه ، لما تجمهروا فيه مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وذهب ، وتسمك يحيى بن عمر بن فلاكاكين - من رؤساء لثونة .

والحرام أو بين الخير والشر لم يلبث أن فجر سكون الامتثال للأوامر ، والسمع والطاعة . وفي ذلك قالت بعض الروايات أن « أهل الحق » تقموا على ابن ياسين بعض قراراته عندهما وجدوا تناقضا في عدد من أحكامه ، الأمر الذي أدى إلى الخروج عليه . وتقول رواية البكرى أن الذين قادوا الثورة على ابن ياسين فقيه يدعى الجوهر ، بمعاونة اثنين من رؤساء لمتونة : أحدهما يدعى أيار ، والآخر انتكوا (٥٤) . ومن الواضح أن فتنة الجوهر لم تثر خواطر اللمتونيين فقط ، بل جميع الصنهاجيين الذين لم يرتفع لهم صوت عندما هب المعارضون لابن ياسين يجرّدونه - خطوة بعد أخرى - من سلطاته الروحية والمادية التي كان يمارسها جميعا بشكل فعلي . فلقد بدأوا بعزله عن « الرأي والشورى » ، بمعنى تجريده من السلطات السياسية ، ثم انهم « قبضوا منه بيت مالهم » ، والمال عصب السياسة والحرب كما نعرف ، وانتهى الأمر ليس بطرده من المدينة فقط ، بل وبهدم داره بعد نهجها وتخريب أثاثها (٥٥) - حتى لا يفكر في العودة ثانية .

وبذلك انتهى مشروع المدينة الفاضلة التي أقامها ابن ياسين ، بناء على الفكر السنّي المالكي . ولم ترتفع أصوات المعارضة لهذا العمل المناهض للأصولية الإسلامية إلا من رباط وجاج بن زللو في أقصى السوسر على مصب الوادي في البحر المحيط ، حيث أدين الثوار ، واهدرت دماء زعماء الثورة والمساندين لهم (٥٦) .

والحقيقة أن ما تقوله رواية البكرى من أن وجاج أمر ابن ياسين بالعودة فرجع وقتل الذين قاموا عليه ، كما قتل كثيرا من الخلق الذين استوجب الأمر قتلهم ( بحراية أو فسق ) ، فهو يمرر عما حدث بعد إقامة الرباط وتكوين النواة الأولى من المرابطين الذين وقّع عليهم نشر الدعوة بالترغيب والترهيب ، والذين استولوا « على الصحراء كلها » ، كما تختتم بذلك نفس رواية البكرى (٥٧) .

(٥٤) البكرى ، ص ١٦٥ .

(٥٥) البكرى ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥٦) انظر البكرى ، ص ١٦٦ - حيث النص على أن ابن ياسين « خرج مستخفا من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوى ، فقيه ( ملكوس ) فماتهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله ، وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة ، وأن دمه حرام » .  
(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٦ - حيث النص أيضا على أن جميع القبائل أجابت ابن ياسين « ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به ثم نهضوا إلى لجة » .

## الرباط :

### رباط عبد الله بن ياسين :

والأمر المسنوب في بداية حركة المرابطين بمجهودات عبد الله بن ياسين ما قد يظن من أن أهم معالمها وهو الرباط لم يلبث أنظار المعاصرين ، حيث تمر رواية البكري على عمية تأسيس الرباط من اكرام فلا تقدم لنا بعضاً من تفصيلاتها ، وكأنها لا توليها شيئاً من الاهتمام ، وهذا ليس يصبح أبداً ، فالفضل يرجع للبكري المعاصر في تعريفنا بأهم النصليات التنظيمية الخاصة بالرباط ورجائه ، مما يدخل في مجال الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بمعنى أن اهتمام أهل العصر كان منصباً على حركة التجديد الإسلامية ، والتأهيل المنوي لرجال المرابطين أكثر من الاهتمام بالأمور السياسية والعسكرية ، أو النفعية على وجه العموم ، مثل الظروف التي أدت إلى إقامة الرباط ، واختيار المكان ، واعداد المرابطين ، وطريقة معاشهم ، وأساليب تدريباتهم اليومية من مادية ومعنوية .

والهدف الأول من الرباط : في الإسلام كما يرد في الآيات القرآنية هو الدفاع عن حظيرة الإسلام وحماه بتجميع العباد المجاهدين على الحدود وتجهيزهم بالعدد والمتاد ، من أنواع الأسلحة وخاصة الخيل<sup>(١)</sup> ، للدفاع الأعداء ، وخاصة العدو البحري ، في المواضع الساحلية المعرضة للخطر ، التي عرفت باسم الثغور - فكانها فتحات ضعيفة يلزمها التحصين والحماية . وهكذا كانت الثغور في « جزيرة ( بلاد ) المغرب » بحرية ، كما اشتهرت بأنها أربطة للجهاد وللعبادة ، وكان من أشهرها في قرننا الهـ ٥ هـ / ١١ م رباط سوسة ورباط المنستير في منطقة الساحل التونسية<sup>(٢)</sup> وفي السوس

---

(١) سورة ٨ - آية ٦٠ - حيث النص « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم - واخيل في الحروب القديمة كانت بمثابة العربات المدرعة ، للسرعة الحركة ، في الحروب الحديثة »

(٢) البكري ، ص ٣٥ - حيث النص على رباط سوسة الذي عرف بجسر الرباط وأنه عظيم كالدينة ، وأنه مأوى للصالحين وبداخله حصن كان هو القسبة - ص ٣٦ - حيث رباط المنستير كالدينة المستقلة يرافقها من الطواحين الفارسية ( البوائية ) وصهاريج المياه ( الجايل ) - والمصاحبات في حصن الرباط حيث النساء المرابطات .

Manuel d'Art Musulman

وانظر ج . مارسية ، للجلد في الفن الإسلامي

ج ١ ص ٤٧ - ٤٩ - حيث بناء الرباط ( المحرس ) على نسق الجامع من حيث التخطيط للربيع

الأقصى رباط ماسة ( ما سبق ، ص ١٧٥ ) . أما عن أشهر ربط المغرب حاليا وهي مدينة الرباط ( رباط الفتح ) التي أنشئت في القرن التسالي ( ٦ هـ / ١١ م ) - فهي وريثة رباط عبد الله بن ياسين . أما في المشرق الآسيوي فقد تحولت ثغور الشام في العصر العباسي الى عواصم ، جمع عاصمة بمعنى الحصن والحامية ، بينما حملت ثغور أواسط آسيا وبلاذ ما وراء النهر اسم الربط وواحدتها « الرباط » وظلت كذلك حتى بعد أن تحولت الى « تكايا » للمباد أو « فنادق » للقوافل في طريق الحرير<sup>(٣)</sup> .

وعلى هذا الأساس اعتبرنا مدينة « ارتقني » حيث كانت دار عبد الله ابن ياسين مركز الحكم ، وساحتها ( صحنها ) مكان الصلاة على ما نظن ، مكان الرباط الأول الذي اعتكفت فيه جماعة أهل الحق ، لكي تصبح النواة الصالحة للمجتمع السني الفاضل الذي كان يطعم فيه ابن ياسين . وهكذا لم يكن الرجل الذي يوصف بالعلم والورع ، والشهامة وقوة النفس والحزم ، وحسن التدبير والصبر ، إيباس من مجرد الفضل للمرة الثانية في المنونة بعد فضله الأول في جدالة . ولا بأس أن يكون وقوف الزعيم للمتوني يحيى بن عمر بن تلاجاجين الى جانبه مما زاد من صلاته ، وحماة من كآبة الياس والفتور . وهنا ينبغي أن ينسب شرف مؤازرة الفقيه وتشريفه ( الذي يرمز خطأ للزعيم الجدالي الأول ، يحيى بن ابراهيم ) الى الزعيم للمتوني الثاني يحيى بن عمر - وهو الأمر البين<sup>(٤)</sup> .

---

= والصحن المكشوف ( السماوي ) ، ولكنه من طابقت : الأول للسكنى والمخازن ، والأخر ، حيث الحبل للمباعدة والتعلم - أما المنارة المدورة ، حيث استخدام الإشارة الضوئية ، ففتح في الركن الجنوبي الشرقي . وانظر محمد توفيق بطيح ، مطبوعات جمعية الآثار ، بالاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٤٧ ( موسسة ) ، ص ٤٤ ( المستتر ) .

(٣) انظر للمؤلف ، الترك والإسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ ، عدد ٢ ، وانظر محمد توفيق بطيح ، نشأة الرباط وتطوره . مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) انظر البكري ، ص ١٦٥ - حيث من الواضح ان الرئاسة المدنية لجماعة ابن ياسين بعد دخول لتونة مباشرة ، كانت ليحيى بن عمر تلاجاجين - بينما الجوهر وهو أحد الفقهاء ، كما سبق ، ص ١٧٠ ربما كل من وصفهم يحيى بن ابراهيم وهو في الثبوان بأنهم قتلوا العلم ، ضحيفوا الايمان . انظر ابن الأثير : ج ٦ ص ٦١٩ - حيث انتقال الرئاسة من يحيى بن ابراهيم الجدالي ( الجوهر ) الى يحيى بن عمر للمتوني ، وإن كان بشكل غامض ، والنويري ، أبو شيف ، ص ٣٧٧ ، حيث كان أبو بكر بن عمر بين المرجين بالفقيه ومد منه عند قدمهم ( من جدالة ) الى لتونة ، وقارن ص ٣٧٨ - حيث رواية =

### مكان الرباط :

من المهم الإشارة الى أن تاريخ انشاء رباط عبد الله بن ياسين ما زال من الأمور الغامضة في تاريخ قيام دولة المرابطين ، رغم أهميته من حيث كونه الحدث المحوري الذي يدور حوله تاريخ تلك الفترة . هذا ، كما يحيط الغموض أيضا بالمكان الذي أقيم فيه الرباط ما بين مصب وادي السوس الأقصى ومصب نهر السنغال .

وفيما يتعلق بتاريخ إقامة الرباط ، فالمعروف أن إقامته تمت بعد تجربتي فشل الدعوة في كل من جدالة على عهد الرئيس يحيى بن إبراهيم ، ولتونة على عهد يحيى بن عمر . وإذا كنا قد أخذنا بسنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م كتاريخ لبده الدعوة في جدالة ، فلا بأس أن يكون بناء الرباط في سنة ٤٤٣ هـ / ٢ - ١٠٥١ م ، على أساس أن تاريخ غزو جدالة بعد بناء الرباط كان في السنة التالية ٤٤٤ هـ / ٣ - ١٠٥٢ م ، حسبما ينص ابن أبي زرع<sup>(٥)</sup> . وهو ما ينسجم مع تاريخ خروج المرابطين من الصحراء الى غزو درعة وسجل سنة ٤٤٥ هـ / ٤ - ١٠٥٣ م ، حسبما ينص على ذلك ابن خلدون<sup>(٦)</sup> .

أما عن مكان الرباط فترجع الرواية فضل اختياره الى الزعيم اللمتوني

« ابن شداد ( الزيري ) وفيها ان الزعيم الجدالي تنازل عن الرئاسة لأبي بكر بن عمر منذ بدأت الفتنة في جدالة ، أما ابن أبي زرع فهو في محاولته ترتيب الأحداث في سياق تاريخي قصص لا يشوبه اختلافات زمنية أو مكانية أو شخصية جعل يحيى بن إبراهيم الجدال الشخصية المركزية من البداية الى تحقيق النصر النهائي ، فهو الذي بدأ بالدعوة في كل من جدالة ولتونة فلمة واحدة ( ص ١٢٤ ) لكي يبنى الرباط منذ أول اختلاف ( ص ١٢٥ ) . فهو الذي هزم كدالة ولتونة ومسولة ( ص ١٣٦ ) ، كما أخضع بلاد القبلة والحصانة وسائر بلاد المغرب ( ص ١٣٦ ) - قبل أن تأتي وفاته فيقدم عليهم يحيى ( آخر أبي بكر ) بن عمر اللمتوني . أما ابن خلدون الذي يعرف رواية القرباس فهو يقدم ملخصا مفيدا ، يجعل فيه هلاك يحيى الجدالي سبب الفراق أمرهم ، وبذلك يكون صاحب الرباط هو يحيى ( آخر أبي بكر ) بن عمر ابن تلاكين ويكون غزو لتونة وجدالة ومسولة تحت رايته .

(٥) القرباس ، ص ١٣٦ - حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدلناها الى

٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م كما سبق ، ص ١٧٠ .

(٦) المعبر ، ج ٦ ص ١٨٣ .

يحيى بن عمر، الشريك المدني في دراسة «أهل الحق» إلى جانب ابن ياسين (٧).

ومى اختيار الرباط تقول رواية القرطاس - بصرف النظر عن الترتيب الزمني - انه عندما كاد الياس يغلب على عبد الله بن ياسين ، ففكر فى ترك الصحراء والذهاب للدعوة فى بلاد السودان المسلمة جنوبا ، اعترض « يحيى بن عمر » على اقتراحه هذا ، وعرفه بوجود جزيرة قريية فى بلاد جدالة ، تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة للحياة الكريمة ، حسبما تقضى قواعد الدين (٨) . فالواقع حصين من حيث هو جزيرة يحيط بها ماء البحر من كل جانب ، وان كانت فى وقت الجزر ( عندما ينحسر الماء ) يمكن الدخول اليها مشيا على الأقدام ، ولكنه فى وقت المد ( عند امتلاء البحر ) يكون الدخول اليها فى الزوارق . أما من حيث الطعام فيها فهو حلال محض لا شك فيه ، يجمع ما بين خيرات البر والبحر من ثمار الشجر وصيد الوحش والطير والسماك ( الحوت ) - وكل ذلك دون عناء كبير ، الأمر الذى يحقق لهم العبادة دون أن يشغلهم ، هم الطعام الى ما شاء الله حتى الموت (٩) .

وإذا كان ابن خلدون يأخذ برواية ابن أبى زرع فهو يعد لها حسبما يترأى له من أصول المنهج العلمى . فالجزيرة عنده ربوة عالية تتفق مع وصف بلاد لتونة الجبلية ، والماء المحيط بالجزيرة مع نهر النيل ( النيجر

(٧) والحقيقة ان قصة الرباط ليست واضحة فى الروايتين الأساسيتين . وهما : الرواية الأندلسية للبكرى المعاصر ، والرواية الإفريقية لابن شداد الصنهاجى المتأخر قليلا عن البكرى ، لى تكاد تضع فيها فى غمرة الانتفاضة اللمتونية ضد ابن ياسين . والحقيقة انه اذا كان البكرى قد عرض ما أقاره من الخوض بالتفصيلات المدعفة عن الحياة فى الرباط مما يجعله حقيقة ناسمة مغل : الترتيب الدقيق الذى خطط للدخول فى الرباط ، والذرائع المنظمة للمقويات الخاصة بالجرائم المختلفة والتى عادة ما يكون تطبيقها باثر رجس ، كما يقال الآن ، والذي يمكن فى تلك الحال أن يكون الاتهام فيها أمرا مستحتملا وليس أكيدا ، كنوع من التزكية والتطهير ، فان رواية ابن شداد أثارت الجلبلة فى كتابات المتأخرين ، حتى الكبار منه مثل ابن الأثير ، والنويرى . أما عن ابن أبى زرع . صاحب روض القرطاس ورغم ما فيه من الانشغالات فيرجع إليه الفضل فى محاولة ترتيب الأحداث اعتبارا من تأسيس الرباط . وبالتالي محاولة التواء الضوء على ظروف بنائه ، الأمر الذى أخذ به ابن خلدون ، وأكده غيره من المحدثين .

(٨) القرطاس ، ص ١٢٤ - مع ملاحظة جميل يحيى بن ابراهيم الجبدالى مكان يحيى ابن عمر . مما سبقته الإشارة إليه - ص ١٨٤ - حيث النص على انه أى يحيى ( الجبدالى ) لم يتركه بل قال له : هل لك فى رأى أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة ... الخ .

(٩) القرطاس ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .



والسنغال عند الجغرافيين العرب ) الذى يهيم الماء العذب اللازم لشرب الجماعة والذى تقوم عليه بطبيعة الحال حياة الشجر والوحش والطير (١٠) .

والذى نراه أن وصف مكان الرباط بأنه جزيرة فى البحر فى بعض نواحى جدالة ولتونة ، كما يرد فى قرطاس ابن أبى زرع يمكن أن ينطبق على واحد من ثلاثة مواضع على شاطئ الأطلس : أولها جزيرة أيونى أو جزيرة السلاحف البحرية ( الترسا ) عند البكرى ( ما سبق ، ص ٩٤ ) . ولكن تلك الجزيرة لما كانت غير عامرة الا لصيد البحر من الأسماك والسلاحف الى جانب بقايا النهر التى تقذفها الحيتان فى البحر فترسوا على الشط ، فهى اذن ليست صالحة لاقامة رباط يحوى اعدادا كبيرة من الناس لنقص الغذاء فيها ، والماء ، وهى لذلك مستبعدة .

أما عن الموضعين الآخرين فأولهما رباط ماسة الذى رأينا احتمال كونه رباط وجاج ابن زلو ( رباط ملكوس ) افتراضا جيدا ( ما سبق ، ص ١٧٣ ) بسبب كونه فى مصب وادى ماست ، فى تلك المنطقة الفنية بخيراتها الزراعية ، وبوفرة مياهها . ويؤيد افتراضنا هذا وصف ليون الافريقى الذى يكاد يطابق وصف ابن خلدون للرباط ابن ياسين من حيث وجوده فى منطقة جزائر بحرية يحيط بها الماء . فمدينة ماسة عبارة عن ٣ ( ثلاث ) مدن على ساحل المحيط ، ونهر السوس يمر بينها . وهذا النهر يعبر خوصا فى الصيف ولكن لا يمكن اجتيازه شتاء الا فى مراكب صغيرة ليست مهيئة تماما لتلك المهمة (١١) . هذا ، ومما يوجه النظر الى منطقة ماست ، ما تقولوه رواية القرطاس أيضا من لجوء عبد الله بن ياسين الى وجاج

---

(١٠) المبرج ج ٦ ، ص ١٨٣ - حيث النص على حلاق يحيى بن ابراهيم ، وترك الأحذ عن ابن ياسين ، لما نجسوا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم ، وترهب ، وبنسك يحيى بن عمر بن تلاكاتين ، من رؤساء لتونة - « ومن وصف الرباط » يقول : « فبنوا الناس فى روبة يحيط بها بحر النيل من جهاتها شحشا فى المصيف وغمر فى الشتاء ، لتمود جزرا منقطعة . وهنا يكون ابن خلدون قد غابت عنه ظاهرة المد والجزر ، وجعل بدلا منها ظاهرة الفيضان النهري وان وضع الصيف مكان الشتاء - حيث فيضان الأنهار المدارية موسميا فى الصيف ، وهو ما لاحظته - عصبته فى رسالتها عن دور المراكبين فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١١) لسون الافريقى ، ص ١٢٥ ، وه ٦٨ - حيث أحياه ماست الثلاثة هى : جبالو ، واغادير تسوق ، وتاسلنوك .

ابن زللو عقب طرده من « ارتنى » ، رباط لمتونة المحلى وهلم داره هناك ، والقول بانه عاد مؤيدا بمساندة وجاج لكى يقاتل خصومه ويهزمهم يقتصر منهم ، قبل فتحه كل بلاد الصحراء ( ما سبق ، ص ١٨٢ ) .

وفىما يتعلق بالموضع الثالث والآخر ، فالحقيقة أن تحديد ابن خلدون لمكان الرباط فى النيل حاز موافقة جمهرة الباحثين ، وخاصة منذ ترجمة الجزء الخاص بالمغرب ( بلاد البربر ) من كتاب العبر بمعرفة دسلان (De Siane) ، الذى حدد جزيرة الرباط بمنطقة مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى ( ما سبق ، ص ١٨٧ ، هـ ١٠ ) . ويرجع هذا الاحتمال بطبيعة الحال ، قرب مواطن جدالة ولتونة ، بشكل عام ، كما ان منطقة الجنوب الصحراوى المتاخم لفانة كانت موطن آل عبيد الله بن ياسين من جزولة ( ما سبق ، ص ١٧٤ ) بصفة خاصة ، وهذا ما كان يلج عليه فى أن ينقل نشاطه الدعائى جنوبا نحو بلاد السودان الاسلامية ، منطقة التكرور . ولكل ذلك كانت منطقة مصب السنغال هى المنطقة المثالية بالنسبة لابن ياسين ليقم « الرباط » (١٢) .

---

(١٢) انظر العبر ج ٦ ص ١٨٢ ، وترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٩ وهـ ٢ - حيث المقارنة مع وصف القرطاس للرباط . والنس على ان ابن خلدون حق عندما يجعل الرباط فى نهر السنغال . من حيث أن من المعروف ان هذا النهر يصل بين الجنس الزنجى ( الأسود ) والجنس البربرى ( الأبيض ) . ويؤيد ذلك ما لاحظته البرتغاليون سنة ١٤٤٦ . عندما كانوا يقومون باستكشافاتهم الأولى فى الساحل الاfricanى الغربى حيث كانت قبائل الصنهاجى (Assanhti) او الزنيجية (Zanaga) تمشى على الضفة النسيالية لنهر السنغال . بينما كانت قبائل الياوف (Yalof) او الولاوف (Wolof) اى القبائل السودانية تحتل الجانب الآخر ( الجنوبى ) . هذا . كما يجب ملاحظة أن السنغال هو تحريف بكلمة أصناجه (Asnaga) او زنجاين (Zenaguen) . وهى جسيح صسناج ( زنجاج : Zenag) اى صنهاجة . وقارن حسن احمد محمود ، المراكبون ص ١٢٤ - ١٢٥ - حيث اقترح حسين مؤنس ( فى مقصدة رياض النفوس ) أن يكون الرباط فيما يلى تارودانت جنوبا على حدود الصحراء . واقترح ديلاشابل أن يكون الرباط قرب بلدة أولبل فى خليج ارجان (Arguin) قبل ترجيع مصب السنغال الأدنى . وقارن عصمت دلفى ، دور المراكبون فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧٠ وما بعدها - حيث نفس الاختلافات مع محاولة تد موشع الرباط فى « حوض السنغال الذى تسيطر عليه ممالك السودان » ٢ . وازضافة اقترح عنان أن يكون الرباط جزيرة فى منحنى نهر النيجر .

### نظام المراقبة :

الذى يفهم من مجمل الروايات الخاصة ببناء الرباط أن الذين دخلوه بصحبة الفقيه : عبد الله بن ياسين ( الجزولى : الجهدالى ) والرئيس : يحيى بن عمر بن تلاكاكين ( تلاجاجين ) اللمتونى ، كانوا عصابة قليلة لم تبلغ أكثر من ٧ ( سبعة ) أفراد ، وهو الأمر غير المقبول من غير شك . ونحن نقبل رقم الـ ٧٠ ( سبعين ) رجلا الذى يقول البكرى أنهم دخلوا لمتونة ، فكانوا نواة « رباط » « ارتننى » فى أرض لمتونة ، على أساس أنه وضع فى غير موضعه الصحيح (١٣) . فلا أقل من هذا العدد من الأنصار يكونون فى معية الداعى المالكي ، وصاحبه الزعيم اللمتونى بما له من الشأن والجاه ، مهما كانت النعمة على دعوتها ، والنوء بثقل التكاليف التى فرضها على الناس فى كل من بلاد جدالة و لمتونة . وأما القول بأن التصد كان البحث عن ملجأ متواضع من أجل التمدد والتوسع ، فأمرور أن الرباط كان فى الأصل مؤسسة عسكرية جهادية ، وأن هذا ما عبر عنه ابن ياسين عندما فكر فى المسير الى بلاد السودان الإسلامية ( ما سبق ص ١٨٦ ) التى يكون الرباط على حدودها من أجل مجاهدة الكفار منهم والعمل على نشر الاسلام الصحيح بين الجبيح . وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن تكون البداية متواضعة ، وأن يكون الهدف الأول المعلن عن التجمع فى الرباط هو العبادة .

وإذا كان أبى زرع ينص على أن جماعة المؤسسين للرباط من مريدي ابن ياسين كانوا ٧ ( سبعة ) نفر من الجهداليين (١٤) ، فإن هذا النص يمكن قبوله على أساس أن هؤلاء الجهداليين كانوا من الأنصار الأوائل الذين دخلوا معه الى بلاد لمتونة أو لحقوا به هناك ، وأنهم ظلوا أنصارا مخلصين ، فخرجوا مع من خرج معه من جيهور لمتونة تحت أمرة رئيسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين اللمتونى - ولا بأس أن يكون عددهم ٧٠ ( سبعين ) رجلا ، وهو الرقم الذى يقدمه البكرى ، وإن كان متناسبة الدخول الى لمتونة وليس متناسبة الخروج منها ( ما سبق ، هـ ٤٦ ص ١٧٩ ) . والمهم أن جماعة المؤسسين من المراقبة ، اكتفت فى معاشها بالمأكل الحلال المحض من ثمار الشجر وصيد البر والبحر ، وانقطعت الى حياة الزهد والعبادة لمدة ٣ (ثلاثة)

(١٣) انظر فيما سبق ، ص ١٧٩ وهـ ٤٨ - حيث الإشارة الى اصية الرقم ٧ فى الفكر

الفاطى الاسماعيل .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٥ . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص على أنهم

دخلوا فى غياضها ( الروية ) منفردين للعبادة .

أشهر ، وصلت خلالها أخبار تنسكهم الى أبناء القبائل فى المنطقة (١٥) ، الأمر الذى يعنى أن العناية للرباط كانت تسير جنباً الى جنب مع أعمال الروع والتقوى ، ان لم تكن تلك الأعمال التعبدية ، من : قراءة القرآن ، الاستمالة الى الآخرة ، والترغيب فى الثواب ، والتحذير من العذاب ، هى نفسها مادة العناية للجماعة ومصدرها . ففى ذلك تقول رواية القرطاس انه عندما تسمع الناس باخبارهم كثر « الوارد » عليهم «التوايون» (١٦) ، فكان الداخلون فى الرباط ما بين وارد للسقى أى لطلب العلم والخير ، وتائب عن الذنب والشر ، فكانهم طلاب أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو المبدأ الإسلامى المنبثق عن الفكرة الأساسية فى الاسلام ، كما فى الديانات السماوية الأخرى ، مبدأ الحساب والثواب والعقاب ، الذى يعنى أن الحياة الدنيا لم تخلق عبثاً . ومن هنا كان تطبيق مبدأ التوبة كشرط مسبق لدخول الرباط ، وعن هذا الطريق تحول « أهل الحق » الى « توايين » قبل أن يصيروا « مرابطين » .

#### شروط الالتحاق بالرباط :

وهكذا نرى أن نظام الرباط كان يتكامل بشكل طبيعى مع مرور الوقت ، وخاصة بعد أن تهافت المحرومون من أهل الصحراء وفقرائهم ، على طلب ثواب الجنة الذى وجدوا فيه عزاء لهم عن مشاق حياتهم ومتاعها . والحقيقة أن الفضل يرجع الى البكرى فى التعريف بنظام الرباط من حيث تقرير مبدأ التوبة على الداخلين الجدد فى الجماعة وما يقتضيه من العقوبات المختلفة بدءاً من التمييز ، الى اقامة الحدود ، وحتى العقوبة العظمى ، وذلك حسب اللاتحة التى وضعها عبد الله بن ياسين . واذا لوحظ فى تطبيق العقوبات شيء من الصرامة ، مثل تطبيقها بأثر رجعى ، فإن ذلك يعنى حساباً مقتضى الحال بالنسبة لمجتمع الصحراء بماداته الخشنة وأعرافه الحادة مما يسمح لأهل المواضع بوصفه بمجتمع الجاهلية ( ما سبق ، هـ ٤٥ ص ٧٥ ) . وتظهر القسوة فى تطبيق قواعد الشرع بشكل تاريخى سافر فى الصحراء ، عندما انطلق رجال عبد الله بن ياسين من الرباط ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر فى بلاد القبائل ، والمطالبة « بحقوق الله » من أموال أهل القرى

(١٥) القرطاس ، ص ١٣٥ .

(١٦) القرطاس ، ص ١٢٥ وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث النص : وتساخ بهم من فى قلبه مثقال حبة من خمر ، فتسايولوا اليهم ، ودخلوا فى دينهم ، ويغيثهم .

والواحات ، الأمر الذى أثار اشمئزاز وجاج بن زللو : استاذ ابن ياسين ، وقموتة فى المراقبة ( ما يمد ٢٠٦ ) .

وهنا نود الاشارة الى أن بعض ما ينسبه البكرى الى فترة الرباط من أعمال الشدة مع الواردين أو التوابين فى الرباط يمكن أن يكون قد اختلط بما طبق من القوانين بصرامة - ربما كانت مبررة - مع المهزومين وخاصة فى الصحراء ، من الأخوة وأبناء الجيلة ، ممن كان عليهم الالتحاق بصفوف المجاهدين فى فترة التحول الحاسمة هذه ، حيث كانت الحاجة ماسة للرجال قبل الأموال .

### التوبة والتطهر :

وهكذا كان على عبد الله بن ياسين ومن معه من رؤساء الرابطة أن يحسنوا اختيار المرادين بعد أن تزايد عدد الراغبين منهم فى الالتساب للرباط ابتغاء عمل الخير وثواب الجنة . فكان عليهم أن يخضعوا الداخلين الجدد فى زمرة الجماعة لاختبار حسن النية وصدق الإرادة مع قوة العزيمة عن طريق تجربة التحمل النفسى والجسدى . ومن الواضح أن الرباط كان لا يقبل الا الناضجين من الرجال ممن تخطوا مرحلة الشباب ، الأمر الذى كان يبنى تمام الجسم مع كمال العقل ، ويضمن حسن التصرف . ويستنتج ذلك مما كان يعرض على الداخل فى الدعوة بعد أن يعلن التوبة ، من أداء حقوق الله فيما كان يمكن أن يكون قد اقترفه فى شبابه ، من الذنوب ، فيقام عليه حد الزانى ( ١٠٠ سوط ) ، وحد المقترى ( ٨٠ سوطا ) ، وحد الشارب للخمر ١٠٠ سوط ) ، بل وربما زيد على ذلك زيادة فى الحيلة .

أما اذا اتضح من اجابة الرجل المستجوب أنه ارتكب جريمة القتل مثلا ، فانه يقتلونه « سواء أتاها تائبا طائما أو مجاهرا عاصيا » ( ١٧ ) .

وأداء فريضة الصلاة كان خاضعا للرقابة المشددة ، تحت العقوبة الجسدية للمتخلف أو المقصر ، بل وكانت الصلاة تؤدى كاملة مرتين ، مرة أولى بصفة شخصية كصلاة فردية ، ومرة بشكل رسمى كصلاة جماعة ، عوضا عن التفریط . وهنا كان لكل ذنب عقوبته المناسبة ، فالتخلف عن

« الصلاة عقوبته ٢٠ ( عشرين ) سوطا ، وعن الركعة الواحدة ٥ ( خمسة )  
أسواط (١٨) » .

ومن الواضح أن هذه الترتيبات الخاصة بإداء الصلاة وبقائمة الحدود  
مما عرف في الرباط ظلت تطبق في العهد الأول للدولة المرابطية ، عهد  
« صحابة » عبد الله بن ياسين . فإمامة الصلاة في مساجدهم ظلت حكرة أو  
عملا شرفيا لأولئك الذين صلوا وراء ابن ياسين ، حتى ولو وجد بين  
المصلين من هو أكثر علما وورعا (١٩) . وأولئك الذين دانوا «لدولة الرباط»  
سواء بالقهر أو بالرغبة كان عليهم أن يخضعوا للامتحان الجسدي بعد اعلان  
التوبة (٢٠) » .

وهكذا كان عبد الله بن ياسين يمكنه أن يأخذ الموافقة من الأمير يحيى  
ابن عمر لمخلع ملابسه حتى ينزل به عقوبة التأديب الخفيف جلدا . وهو  
ما فعله الفقيه قبل أن يعرفه أن ذنبه الثور أثناء المعركة ومباشرة القتال  
بتفسيه الأمر الذي عرض حياته للخطر ، وفي ذلك تصريح لهلاك  
عسكره (٢١) » .

### الخروج من الرباط والعمل الإيجابي :

رغم النظام الصارم الذي اتبعه ابن ياسين في التأهيل الديني والنفسي  
لأهل الرباط ، فإن النصوص التي بين أيدينا لا تشير إلى أي ترتيبات تتعلق

(١٨) البكري ، ص ١٦٩ - حيث النص على أن أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء  
إذا أصغلهم الأمر جزءا من الضرب » .

(١٩) البكري ، ص ١٦٩ - حيث النص : « وهم الآن ( على عهد البكري ) لا تقدم  
طائفة منهم أحدا للصلاة إلا من صل وراء عبد الله » وإن كان في تلك الطائفة أقرا منه  
وأورع من لم يصل وراءه » .

(٢٠) البكري ، ص ١٦٩ - حيث النص على أنهم « يصلون ( هكذا ) بين تغلبوا  
عليه ولدخلوه في رباطهم ... سواء اتاهم تأييدا طائعا أو غلبوا عليه مجاهرا عاصبا  
لا ينهه توبته ولا يثنى عنه رجته » وقارن القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث القول في توبة  
قبائل سنهابة : « كان كل من أقبل اليه تأييدا منهم ظهره بأن يضربه مئة سوط ، ثم يعلمه  
القرآن » الخ » .

(٢١) البكري ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث عدد الضربات  
٢٠ سوطا - وحيث تخلص واجبات الأمير في الحرب في الوقوف وتحريض الناس وتوبة  
نفوسهم » .

ببإعداد العسكري للجماعة ، في أي من مجالات التأهيل البدني أو الفني أو التقني . والحقيقة أنه لا بأس في أن يكون الم رابطون الأوائل في غير حاجة إلى التدريبات العسكرية من حيث أن أهل الصحراء من الجماعة كانوا معددين للأعمال العسكرية وخوض المارك الحربية بحكم النشأة . أنهم بدو وحالة ، اعتادوا مشاق الطرق الوعرة بأشكالها ، والتوحد في القفر ، كما اعتادوا على أعمال الدفاع عن الديار ، واحترفوا أحيانا الغارة على الجيران . وهكذا انقطعت الجماعة الأولى إلى أعمال العبادة والتنسك . وإذا كان ابن أبي زرع ينص على أن شهرة الجماعة كانت قد ذاعت بين القبائل خلال ٢ ( ثلاثة ) أشهر فقط ، وأنه لما كثرت الوفود على الرباط فكر ابن ياسين جديا في الخروج من الرباط لنشر دعوته - دون تحديد الوقت - فإن الوقائع تدل على أن تلك المرحلة استغرقت ما يناهز الثلاث سنوات وأكثر من سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ( حيث التفكير في إنشاء الرباط - ماسبق ص ١٨٥ ) إلى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ( حيث الخروج لغزو بلاد جدالة - المتأخرة للرباط - تما بعد ، ص ١٩٥ ) .

وإذا كانت الرواية الدارجة تنص على أن عبد الله بن ياسين ، قرر الخروج لمواجهة الأعداء عندما بلغ أنصاره ١٠٠٠ ( ألف ) رجل من أشرف القبائل ، كما يقول ابن أبي زرع ( ٢٢ ) ، بمعنى المحاربين الأشداء ، على أساس أن فرقة عسكرية من ألف مقاتل جيد لا تغلب من قلة ، كما يقول تنص ابن خلدون ، فمن الواضح أن المقصود بتلك المقالة هو موقف الدفاع الذي يتحقق بفضل الاستقلال ، وليس الفتح والغزو ، بل الاكتفاء بالدعوة « لدولة الحق » ( ٢٣ ) . وهذا ما يفهم فعلا من تواتر الأحداث ، كما في تكملة النصين السابقين ، حيث تؤكد رواية ابن أبي زرع أن ابن ياسين وجه الألف رجل من الم رابطين لانتذار أقوامهم ودعوتهم إلى الدخول في « دولة الرباط » ، وتحذيرهم من مغبة الرفض والعصيان حيث يكون الحكم للسيف - وهو حكم الله الذي ينصف « أهل الحق » ( ٢٤ ) . ومثل هذا ما تقولته رواية

( ٢٢ ) القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنه عندما اجتمع له من التلاميذ نحو ١٠٠٠ رجل من أشرف صنحاجة ، فسماهم « الم رابطين » للزوم وابته ، وأخذ يلمهم بالكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة .

( ٢٣ ) أنظر البير ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث النص : « لما كان معهم ألف من الرجال ، قال لهم شيخهم عبد الله : إن ألفا لن تغلب من قلة ... » .

( ٢٤ ) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - حيث النص على أنهم لما تفهروا وكثروا ، وعظم

ابن خلدون ملخصا ، من قول ابن ياسين ، « وقد تعين علينا القيام بالحق ، والدعاء اليه ، وحمل الكافة عليه ، فأخرجوا بنا لذلك » (٢٥) .

#### الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية :

ويؤكد ما نذهب اليه من أن حركة الألف رجل كانت للدعاية « لدولة الرباط » في قبائلهم ، ما تنص عليه رواية القرطاس استكمالا لما سبق . من أن كل رجل من المرابطين سار الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم دون جدوى ، إذ لم يكن منهم من يقبل . وعندئذ خرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وقام بمحاولة أخيرة لاستمالتهم الى دعوته . فجمع مؤتمرا عاما من رؤساء القبائل ، حاول فيه أن يرفهم بأصول مذهبه ، فرغبهم في الثواب وخوفهم من العقاب ، ودعاهم الى التوبة والتطهر ، كما فعل أهل دعوة الحق في الرباط ، وذلك على طول ٧ ( سبعة ) أيام ، وهم لا يلتفتون اليه . وعندما أصابه اليأس آخر الأمر ، أعلن لأصحابه فشل التسوية السلمية وضرورة اللجوء الى القوة (٢٦) .

والذي تنص عليه الرواية هو أن أن الجيش المرابط الذي بدأ يفرض جدالة كان يتألف من ٣ ( ثلاثة ) آلاف رجل ، فهو اذن غير الألف ناسك الذين خرجوا الى القبائل الداعين للدخول في دولة الرباط . أما عن كيفية جمع الرجال فأغلب الظن أنه تم في مكان مؤتمر القبائل الذي كان في أرض مهادية متوسطة بين حصى القبائل المختلفة من غير شك ، وهو المكان الذي أصبح معسكرا جديدا ، في موضع استراتيجي يسمع بحسبه المزيد من الداخلين الجدد من القبائل في حزب ابن ياسين ، بشكل أفضل من رباط مصب السنغال الذي لم يعد من الممكن في الظروف الجديدة العودة اليه .

---

« وشوقهم الى الجنة وأمرهم بتقوى الأوامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم دعاهم الى جهاد من خالهم من قبائل متعاربة ... فقالوا ( له ) : أيها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئتم تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لقمنا » فقال لهم : أخرجوا ... أنزلوا قومكم ... ان تابوا فخلوا عنهم ، وان أبوا ... جاهدوهم حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

(٢٥) المير ، ج ٦ ص ١٨٢ - وإذا كانت القروية تعرض بعد ذلك لقتال المصافح من القبائل ، فإن هذا منا يأتي في سياقه فيما بعد - ص ١٩٥ وما بعدها .  
(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - حيث النص على أنه لم يأت بشيء قاله لأصحابه ... وجب علينا جهادهم ، فأخرجوهم على بركة الله .



## غزو الصحراء :

### خضوع جدالة :

وهكذا بدأ المرابطون تحت قيادتهم الدينية العسكرية المشتركة ، وإن كانت الهيمنة بطبيعة الحال لابن ياسين ، غزو قبائل جدالة لكونها أقرب لساكني صنهاجة إلى الرباط من جهة ، وبصفتها المهد الأول لدعوة عبد الله بن ياسين من جهة أخرى ، حيث يكون للانتصار فيها قيمة معنوية تحو ذكريات الفشل الأليم ، وتفتح آفاق المستقبل المشرقة أمام حركة التجديد الإسلامية لدى صحراء أفريقيا الغربية . ودون تفصيلات مثيرة ، تكتفى الرواية بتسجيل هزيمة جدالة ، ومقتل الكثير من رجالها ، بينما « أسلم الباقون » أسلاما جديدا ، وحسنه حالهم » ، وذلك في صفر سنة ٤٤٤ هـ / يونيو ١٠٥٢ م (٢٧) .

فكان رباط عبد الله بن ياسين يفسل في حقيقة الأمر ضمن حركة التجديد التي قامت بها ربط الطرق الصوفية في المشرق وغاناقاوانها ، والتي سيكون للامام الغزالي عما قريب ، شأن فيها بفضل تجربته الصوفية ، ومن ثم تأليفه « أحياء علوم الدين » مما يمت لتاريخ المرابطين والموحدين بسبب أو بآخر .

### خضوع لمتونة :

ويأتي بعد جدالة غزو لمتونة الذين لم يقاوموا كثيرا كما يفهم من رواية القرطاس . الأمر الذي يبرره وجود زعيمهم يحيى بن عمر على رأس المرابطين إلى جانب ابن ياسين . وهكذا أذعنوا إلى الطاعة ، وأعلنوا التوبة وخضعوا بالتالي لما تتطلبه من التطهر . الجسدي والتركيزي بالوسط .

---

(٢٧) القرطاس . ص ١٢٦ هـ حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ - ١٠٤٢ م التي عدل بداية الدراسة بإضافة ١٠ « عشر » سنوات ، حتى يستقيم مسار الأحداث . (٢٨) ص ١٦٨ ) . وقارو ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٩ - حيث الصورة ( من الرباط ) ذكر صريح في رواية ابن خلدون الصنهاجي ، وهي الأصل ) إلى جدالة ابن ياسين على جهادهم والذريعي ( أبو جنيته ) . ص ٣٧٩ ( نصار ص ٢٥٧ - حيث التجريفي على القتال وتسمية الأصنام بالمرابطين ، ومن جد صا سبق . ص ٦٩ ) .

والأهم من كل ذلك أنهم التزموا بالتوسيع بقواعد الشرع من القرآن  
والتقاليد النبوية (٢٨) .

### موضوع مسوفة :

وكان من الطبيعي بعد أنه خضعت كل من جدالة ولتونة أن يتم ادخاله  
ثالث أكثر قبائل صحراء الملتين الصنهاجية ، وهي قبيلة مسوفة ( ماسبق  
ص ٧١ ) في دولة الرباط . والظاهر أن الأمر لم يتطلب كثيرا من الجهد ،  
اذ أذعن المسوفيون بدورهم على نفس الشروط التي قبلتها جدالة ولتونة ،  
وهي : بعد التوبة والتزكية الجسدية ، الالتزام بالعمل بما يقضى به الكتاب ،  
وما يقرره مذهب عبد الله بن ياسين السني أصلا ، المالكي فرعا .

### دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط والتخلص من بقايا المارغين :

بعد خضوع القبائل الصنهاجية الكبرى لابن ياسين ، وتجديده  
اسلامها حسبما يقضى مذهب المرابطون ، أمام الحماس الدافق من قبل  
الداخلين الجدد في الدعوة ، لم يكن أمام بقية الفروع من القبائل والأفخاذ  
والمشائر الا الاعتراف بنظام الرباط ، وما يقضى به من الالتزام بعمل الخير  
مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهكذا سبىار الجميع « الى التوبة  
والبيعة » مع تجديده دينهم بالتعلم والعمل (٢٩) .

وكان من الطبيعي أن تبقى بعض عناصر المجتمع القبلي الصحراوي على  
ما كانت عليه ، تماما كما حدث في أول الدعوة في جدالة ولتونة ، مما أدى  
الى الاعتكاف في الرباط ، وأن يقف هؤلاء من ابن ياسين وحزبه من المرابطون  
موقف المعارضة . وفي ذلك تقول رواية ابن عبد البر (الزيري الصنهاجي) ،  
التي يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويري أن هؤلاء المخالفين الذين يطلق  
عليهم اسم الأشراذ ، تجمعوا فيما بينهم في أعداد كبيرة كان يخشى بأسها ،  
الأمر الذي دعا كلا من ابن ياسين ويحيى بن عمر عيسى الترمذ ، واللجج

(٢٨) القرطاس . ص ١٢٦ - حيث النص على أنهم « بالجمود على عقائد الكتاب والسنة »  
وعن توبة أنظر ما سبق ص ٦٩ .  
(٢٩) أنظر القرطاس - ص ١٢٦ - حيث النص على أن « كل من لجأ الى الله تعالى منهم  
ظهوره . بأن يطهره ١٠٠ ( مائة ) سوط . ثم يعلم القرآن وشرائع الإسلام » ويأمره بالسلامة  
والزكاة وإخراج العشر .

الى السياسة والمداواة ، بل وربما الى المدعة ايضا ، فى سبيل التخلص منهم باهون الأسباب . وهكذا استعانت القيادة المرابطية بالمسلحين من قبائل هؤلاء الرجال الذين يوصفون مرة أخرى « بأهل البشى والفساد » فى استمالتهم بالترغيب والترهيب ، على ما نظن . ونجحت سياسة « الحاجة تبرر الوسطة » فى استدراج عدد كبير من أولئك الذين كان يشك فى ولائهم « للرباط » على الأقل ، بلغ حوالى ٢٠٠٠ ( ألفين ) الى ساحة كانت تستخدم « زربا » أى حظيرا للابل . وهناك أحيط بهم ، وتركوا أياها بغير طعام . وعندما وهنت قواهم ، أخرجوهم جماعة بعد أخرى لكي يقتلوا عن آخرهم (٣٠) . واتى العمل الترهيبى بما كان يرجى منه فدانت لابن ياسين قبائل الصحراء ، وسادت هيبة المرابطين وقويت شوكتهم (٣١) . الأمر الذى يعنى وضع القواعد التأسيسية لدولة الرباط .

---

(٣٠) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ ، وقارن التويرى ( أبو شيف ) ص ٢٣٨ .

(٣١) نصار ( ج ٢٤ ، ص ٢٥٧ ) .

(٣١) نفس المصدر .



## الفصل الرابع

### قيام دولة الرباطين

#### القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

##### القواعد التأسيسية :

المقصود بالقواعد التأسيسية التي قامت عليها الدولة المراتبية ، هي مجموعة المبادئ العامة التي يلتزم بها المسؤولون في تسييرهم لشئون الحكم ، من أجل تحقيق الأهداف المعلنّة من قبل عبد الله بن ياسين ، المنظر الأول للدولة المراتبية ، والتي تتحقق بها مصالح « أهل الحق » من المسلمين المجدد على كل المستويات ، من دينية روحية أو مدنية مادية . فكان تلك المبادئ التي تعرف في أيامنا هذه بالمبادئ الدستورية أو بالدستور فقط على وجه الاختصار ، وهي التي يتمسك بها جميع أفراد المجتمع على أساس أنها تحفظ حقوق أبناء الوطن وتنص على ما عليهم من واجبات .

والمهم أن ما تقرر في الرباط من واجبات على جماعة « أهل الحق » أصبح من القواعد الملزمة لرعية « دولة الرباط » . وأول هذه الواجبات تتمثل في التوبة ( عما سلف من التفريط في مجتمع الجاهلية ) وما يستتبعها من التطهر وتركية الجسد ، حتى تشف الروح وتسمو النفس . ومن ثم يكون حق النائب في تعلم القرآن وشرائع الإسلام ، من الصلاة إلى أداء ضريبتى زكاة المال وخراج الأرض . ومن ثم يصبح المراتب مواطناً صالحاً ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويصير من أهل الخير المبشرين بالجنة - الهدف الأسمى من الحياة ( ما سبق ، ص ١٩١ - ١٩٢ ) .

##### السياسة المدنية :

##### القيادة المشتركة وتقسيم العمل :

تميز الرباط بقيادته المشتركة - وهو الأمر المقبول من حيث ازدواجية تكوين الرباط كمؤسسة جهادية- تمبديّة . وهكذا تأسس الجيش منذ بداية الدعوة ، وقام قائد الأمير ، ممثل السلطة المدنية إلى جانب الفقيه المنظر ،

تمثل السلطة الدينية ، وله التفوق على الأمير ، من حيث هو صاحب السلطة العليا أو القرار الأخير \* وهو ما أكدته ابن ياسين ، في ساحة القتال فيما بعد ، عندما أدب يحيى بن عمر علي ما بدر منه من التهور في القتال ، قبل أن يعرفه بسبب العقوبة \* وبذلك تحدثت ههنا الأمير القائد في الوقوف وتحريض الجنود على ختم القتال دون مباشرة الحرب ، ففي حياة الأمير حياة رجاله ، وفي هلاكه فناء جيشه (١) . وبذلك تحدثت وظيفته الأمير في مجال الحرب والدفاع ، بينما صارت للفقهاء الأمور الدينية من الأحكام ، فكانت الرئاسة الحقيقية لعبد الله بن ياسين (٢) : شهيد الجهاد في تامسنا ( ما بعد ، ص ٢٢٨ ) ومشروع القوانين التي لم تكن فوق مستوى المعتقد من قبل المثقفين من أهل القيروان (٣) .

#### الجيش :

أما عن الجيش الذي تكونته نواته في الرباط ، فلم يكن جيشا قبليا عربيا على العصبية كجيوش الصحراء الطبيعية . إذا كان أفرادهم يرتبطون فيما بينهم برباط الأخوة في الرباط ، أي في التمسك والجهاد بشقيه : النفس والمال ، تماما كما كان الحال بالنسبة للمسلمين الأوائل السابقين من أنصار ومهاجرين \* فجيش ابن ياسين أشبه بجيوش الدول الحديثة ، ذات النظم المتحدة أو الاتحادية ، الذي يحارب فيه أبناء العصبية المختلفة تحت الراية الواحدة ، رمز الوطنية في الدولة المفردة أو الامبراطورية المركبة - انه جيش دولة الرباط والمرابطين ، دولة العباد المجاهدين ، دون تفرقة عنصرية جدالية كانت أم لتونية مسنوية .

أما عن تسليح هذا الجيش وتقنياته الحربية فالمفروض أنها كانت بسيطة في بداية الأمر بشكل يتفق مع إمكانيات جماعة العباد المحدودة في

(١) البكري ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) القرطاسي ، ص ١٢٧ .

(٣) البكري ، ص ١٧٠ - حيث النص على أنه « ما يحفظ من جهل ابن ياسين أن رجلا اخصم اليه مع تاجر غريب عندهم ، فقال التاجر في يده مراجمته لحصه حاشي الله أن يكون ذلك ، فأمر عبد الله بضره » وقال : لقد قال كلاما عظيما وقولا شديدا يوجب عليه أشد الأدب . وكان بالمطربة رجل قيرواني فقال لعبد الله وما تذكر من مقاتله والله عز وجل قد ذكر ذلك في كتابه فقال حكاية عن النسوة اللاتي قطنن أيديهن في قصة يوسف : « وقلن حاشي الله ما هذا بقرا أن هذا إلا ملك كريم » ( سورة يوسف آية ١٢ ) ، ورفع الضرب من ذلك الرجل .

الرباط ، ولكنها لم تلبث أن تطورت بشكل سريع يتفق مع إيقاع الوحدة المتزايد بين قبائل الصحراء ، الأمر الذى كان له مردوده السريع والمتنامى على المستوى الاقتصادى ، بتوحد ثروات قبائل الصحراء المسيطرة على طرق التجارة مع بلاد السودان ( ما سبق ، ص ١١٤ ) تحت سلطات المرابطين . فحوالى سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م أى بعد حوالى ١٥ ( خمسة عشر ) عاما من توحيد الصحراء تحت علم دولة الرباط ، يمتلئ البكرى صورة جيدة عن نظام القوات المرابطية وتسليحها الجيد ، وخططها الحربية المتقدمة ، رغم ما يقوله من أن سلطة الدولة الناشئة كانت بعد منتشرة غير موحدة ، وأن الالتئام لم يكن قد تحقق بعد بين أطرافها المتفرقة (٤) .

#### الخطط الحربية :

ففرق الجيش المرابطى كانت قد تطورت بعد أن أصبحت تحوى الخيل الى جانب المهارى ، وبعد أن أصبحت الحراب الطويلة والمزاريق القصيرة العمود الفقرى لقوات المشاة ، الكتلة الرئيسية فى الجيش . وهذا التجديد فى التسليح يعنى اخذ المرابطين بأساليب الحرب فى بلاد الحضارة المتأخرة للصحراء مما كان قد وقع بين أيديهم فى أطراف بلاد المغرب ، وخاصة فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد التخصص فى استعمال النشاب أو المزاريق التى كان الرجل يحمل عدة منها دفعة واحدة ، الأمر الذى تطلب اتخاذ خطط حربية تناسب هذا التجديد الحضرى فى التسليح (٥) .

فالكتيبة من المرابطين كانت تسير وراء الراية التى استخدمت بمعرفه عبد الله بن ياسين منذ ما قبل الرباط ( ما سبق ، ص ١٧٨ ) والتى يعتبر حاملها من مساعدى القائد الهامين ، حيث كان يتلقى أوامر تحرك الجند فى المعركة من القيادة ويلفها للجنود عن طريق الراية . فطالما كانت الراية مرتفعة وقف الرجال فى مواجهة العدو بالقتلى ( الرماح ) الطوال للمناوشة والدفاع ، فى الصف الاول ، بينما اصحاب المزاريق يرمون بنشاياتهم التى لا تخطئ . فاذا توجه القائد من خطر هجوم يقوم به العدو ، أمر صاحب الراية بتنكيسها ، وعندئذ يجلسون جميعا على الأرض فى وضعية دفاعى

---

(٤) البكرى ، ص ١٦٦ - عن أسلوبهم فى الحرب ، ص ١٧٠ عن أبى بكر بن عمر وأحوال المرابطين سنة ٤٦٠ هـ .

(٥) البكرى ، ص ١٦٦ ، وانظر اعلاه .

كانهم الهضاب الثابتة ، لا يرفون الفرار . أما اذا انهزم عدوهم فثم  
لا يتبعونه(٦) .

ومما يشير اليه المبكى أنهم لا يستخدمون الكلاب كادوات مساعدة  
فى الحرب ، فى اعمال الاستكشاف مثلا او التصنت ، على أساس أنهم  
يكروهونها(٧) كتعبير عن تشدد الملكية فى مسألة الطهارة ، كما نظن .

### بيت المال :

ولما كان المال عصب الحرب كما يقال ، كان اهتمام عبد الله بن  
ياسين بإنشاء خزانة عامه تحفظ فيها أموال جماعة « أهل الحق » مصاحبا  
لتكوين الجيش وتنصيب الأمير قائد الحرب ، قبل بناء رباط السنغال ، وهو  
ما يظهر واضحا فى مدينة « ارتنى » ، رباط لتونة - حيث قبض خصوم  
الفقيه منه بيت مالهم قبل أن يطردوه ويهدموا داره(٨) . والمهم هنا هو  
تمويل خزانة الرباط عند الخروج لفزو القبائل اعتبارا من سنة ٤٤٤ هـ /  
٣ - ١٠٥٢ م . وكان من الطبيعى وقد خرج المرابطون لأول مرة ، من  
معسكرهم خالين الوفاض ، ناقلين على خصومهم من أهل البغي والفساد ،  
أن يتبعوهم بالقتل والنهب والسلب ، على أساس أن أموالهم - التى أخذت  
من حينئذ ترفد الخزانة المرابطية غير نقية مستباحة(٩) م ، الأمر الذى  
أثار استمزاز فقيه السوس وجاج بن زللو فكتب الى عبس الله بن ياسين  
يعبر له عن أسفه لسفك الدماء ونهب الأموال ، وتقدمه على إرساله اليهم ،  
فاعتذر اليه عبد الله بأنه مأمرة جاهلية لا ترعى حرمة الحرم ولا الدية فى  
الدماء ، ولا توفى عندهم الأموال ، وأنه ما تجاوز حكم الله ولا تعداه(٩) .

(٦) المبكى ، ص ١٦٦ .

(٧) المبكى ، ص ١٦٦ - حيث النص على أنهم يقتلونهم التى غيرناها الى الكرامية ،  
على أساس نجاحتها ، كما يظن . أما عن قتل الكلاب فى الصحراء فالمرور أنها كانت  
تؤكل فى واحات سجلماسة غير بعيد عن السوس الأقصى ، وكذلك فى واحات بلاد الجريد  
فى الجنوب التونسي ، حيث اعتبر لحمها من أطيب اللحوم وأشدها . وهنا لا بأس من الإشارة  
الى أن اقتلاد الكلاب فى شوارع بعض بلاد الخنيج فى أيماننا هذه كان يرمى الى بعض العمال  
من الأسبانيين من الكورين أو غيرهم ؟ الذين يقرمون لحمها .

(٨) المبكى ، ص ١٦٦ ( ما سبق ، ص ١٨٢ ) .

(٩) م) النويرى ( أبو ضيف ) ، ص ٣٨٠ - حيث النص على تتبع المعاندين بالقتل  
والنهب والسلب الا من أسلم منهم وسالم .

(٩) النويرى ( أبو ضيف ) ، ص ٣٨٠ ، ( نصار ) ج ٢٤ ، ص ٢٥٩ .



والذى يلفت النظر فى غزو جدالة ولتونة ومسوفة ، انه لا ذكر لئل اعمال العنف هذه ، فكان المسألة مجرد سوء تفاهم بين الأخوة وأبناء المم ، يمكن أن يزول بمجرد زوال أسبابه .

حقيقة انهم انهزموا ، وقتل كثير منهم ، ولكن رواية القرطاس لا تشير الى أموالهم ، اكتفاء بأنهم أسلموا أو أذعنوا وتابوا ، وأنهم أمروا بالصلاة ، والزكاة وإخراج العشر ، « وإن ابن ياسين جعل لذلك بيت مال يجمعه فيه » ، وأنه « أخذ يركب منه الجيوش ، ويشترى السلاح ، ويفزو القبائل » (١٠) . فكان هذه القبائل الثلاث تمثل الوطن الذى دخل كرها وطوعا فى الدعوة والذى تمثل أمواله رصيد عملية الفتوح فى غيرها من القبائل والأوطان الخارجة عن طوق الحمى .

وهكذا يفهم من رواية البكرى أن غزو قبيلة لمطة ، التى نرى أن اسمها ( لمطة ) هو الاسم الأصل القديم ( الجذم ) للبتونة ( ما سبق ، ص ٦٩ ) ، حدث وكأنه غزو فى أرض اجنبية معادية مثلها مثل درعه : « أول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم » (١١) . فلقد اعتبر ابن ياسين أن أموال لمطة « مختلطة » حلالها بحرامها ، وأنها لى تتطهر أو تنزكى ( بمعنى التنظيف أو التمسيل الدارج الآن بالنسبة للأموال المجهولة المصدر ) يجب دفع ثلثها للمرابطين ، لى « يطيب لهم ( للمطيين ) الثلثان » ، فكان تشريعا جديدا « أفتى به ابن ياسين فى الأموال المختلطة ، وطبقه فى كثير من البلاد المفتوحة » (١٢) . وعن هذا الطريق كانت خزانة أموال المخصصة للغزو والجهاد تقوى من امكاناته فى تحقيق المزيد من الانتصارات . وكان لابن ياسين فى بداية تاريخ الدولة الاسلامية الناشئة خسر قنوة يحتذى بها ، فهو يقسم أسلاب القتلى فيثا للمرابطين (١٣) ، وهو فى السوس يستقط المغانم ولا يجبى الا زكاة المال وخراج الأرض (١٤) ، وبالتالى يؤلف القلوب ويهيبى بداية مضمونة لامبراطورية الصحراء الناشئة .

(١٠) انظر القرطاس ، ص ١٢٦ .

(١١) البكرى ، ص ١٦٦ .

(١٢) البكرى ، ص ١٦٦ ، وشارن القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث النص على ابن ياسين كان يأخذ الثلث ١/٣ من الأموال المختلطة ، ليحلل باقيها ، وذلك شذوذا الفصل .

(١٣) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٩ .

## التوسع الاقليمي خارج الصحراء

### فتح درعة وسجلماسة :

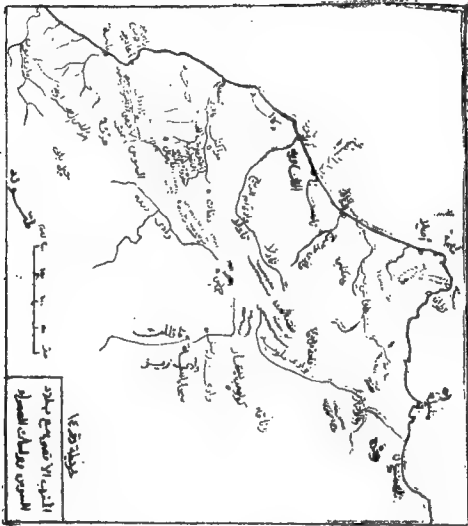
بعد استيلاء المرابطين على كامل تراب الصحراء ، بدخول قبيلة لمطة جنوب السوس الأقصى على شاطئ الاطلنطي ، حيث اكبر مراكزها العمرانية « نول لمطة » : اول محطات القوافل على طريق الساحل نحو غانة والسودان ( ما سبق ، ص ٢٠٣ ) ، كانت الظروف تقضى بأن يوجه ابن ياسين أنظاره نحو الأقاليم المتاخمة ، وكان من الأوفق له البدء بالأقاليم الداخلية على أطراف الصحراء ، لتكون مراكز ارتكاز « لدولة الرباط » القارية أصلا ، قبل توجيهها نحو الأقاليم البحرية العازمة غربا وشمالا ، الى شواطئ المحيط والمتوسط عبر ممرات جبال دون . وهكذا كان البدء بإقليم درعة الوثيق الصلة بمنطقة سجلماسة العريقة ، من جنوب شرق المغرب الأقصى ، وكانت تحت سلطان أسرة بني وانودين المخراوية الزناتية .

وإذا كان ابن خلدون ( الذى يخلص القرطاس ) يحدد تاريخ فتح درعة وسجلماسة بسنة ٤٤٥ هـ / ٤ - ٣ - ١٠٥٣ م بعد فتح الصحراء ، فإنه يفهم من نفس الرواية أن المسألة بدأت بنوع من التفاهم بين الطرفين عندما خرج المرابطون نحو درعة وسجلماسة يعرفون أهلها بأنفسهم ، ويطلبون « حق الله » من الصدقات فأعطوهم ما عن لهم فيها ، لكى يمودوا الى موطنهم<sup>(١)</sup> . وإذا كانت الرواية تملل بعد ذلك غزو درعة وسجلماسة بأنه كان استجابة لشكوى أهل البلدين من جور حكامهم من بني وانودين<sup>(٢)</sup> ، بمعنى أن استيادهم وتشديدهم فى جمع الضرائب من زكاة

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث أذن لهم ( ابن ياسين ) فى أخذ الصدقات من أموال المسلمين ، وسماهم بالمرابطين ، وجعل أمرهم الى الأمير يحيى بن عمر ، فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسة ، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا والقرجة ، ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٧٠ - حيث أمر ابن ياسين شملهم بالخروج الى السوس وأخذ الزكاة ، فخرج منهم نحو ٩٠٠ رجل ، قتلوا سجلماسة ، وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئا له قدر ، وعادوا .

(٢) القرطاس - ص ١٢٧ - حيث النص على أن فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وسجلماسهم ، هم الذين كتبوا الى عبد الله بن ياسين ، مع وضع هذا الفتح فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، وهو ما يشير اليه فى موضع كمال .



خريطة رقم ١٤ - المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات الصحراء

المال أو خراج الأرض وغيرها ، فلا بأس أن يكون ذلك بسبب مطالبتهم بتلك الضرائب كاملة رغم ما أخذه المرابطون من الصدقات \* ولكنه لما كانت رواية ابن خلدون هذه تنسب تلك الشكوى الى فقيه السوس وجاج ابن زللو(٣) ، الأمر الذى ترتب عليه اعتبار سجللماسة من بلاد السوس الأقصى ، فاننا نرجح رواية ابن الأثير التى تقرر هى الأخرى خطأ ، أن سجللماسة من بلاد السوس ، والتى تنص على أن المرابطين « ساروا الى سجللماسة يطلبون الزكاة ( المعتادة ) فامتنعوا ( أهلها ) »(٤) ، فكان ذلك ذريعة الفتح بالنسبة لابن ياسين .

والحقيقة أن هناك ذرائع أخرى لا يجب التقليل من شأنها - من حيث كونها من النوازل الكونية أى الطبيعية ، وإهمها بالنسبة الى الصحراء آفة الجلب والقحط التى يقدمها ابن الأثير على غيرها فى فتح سجللماسة ( من السوس - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ) (٥) ، الى جانب الانفجار السكانى ، كما تقول الآن ، والتى تقدمه رواية ابن الأثير أيضا كمقدمة لفتح السوس الأقصى ( يقصد تامسنا : بلاد برغواطة أيضا ) (٦) فكان اسم السوس يكاد يعادل اسم المغرب الأقصى من شماله ، حيث السوس الأدنى ( فاس وبلاد الريف ) الى جنوبه حيث السوس الأقصى ( ودواخله الصحراوية ) .

ولهم أن درعة التابعة لأسرة بنى واندوين المفاوية الزناتية خضعت سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م لمطالب المرابطين خضوعا يؤكد دفع الجزية ( الزكاة ) ، بينما رفض اجابتهم أهل سجللماسة وعلى رأسهم أميرهم مسعود بن واندوين الذى فوجئ بخطورة ما كان يواجهه من التحدى . فلقد خرج المرابطون بجيش عرمرم ، عدته ٣٠ ( ثلاثين ) ألف جمل سرج(٧) أى من النجيب الأصيلة ( والمفرد نجيب ) وهى المهارى(٨) . واتجهوا نحو درعة حيث كان

---

(٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ .

(٧) البكرى ، ص ١٦٧ .

(٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٠ وهـ ٢ - حيث خرجوه

فى عدد ضخم أكثرهم ركبانا على المهارى ، والمفرد مهرة بمعنى الناقة الأصيلة السريعة العدو ، القرية التحمل على المساق الطويلة فى الصحراء والاسم نسبة الى مهرة بن هيدان ر أول من أنتجها ( التاموس ) .

في حماها نحو ٥٠ ( خمسين ) ألفا من الابل ، الأمر الذي حبل مسعود بين وانودين على ان يخرج سريما في محاولة لانقاذها .

وكان اللقاء غير متكافئ بين النساك المجاهدين الذين لا يعرفون الهزيمة وبين المفرايين من منتجى الابل العاملين في خدمة تجار السودان ، فانتهى بهزيمة اهل سجلماسة ، ومقتل وانودين واستيلاء المرابطين على الحمى بدرع ، ودخولهم مدينة سجلماسة . وبعد ان رتب عبد الله بن ياسين شئون المدينة وأخضعها لنظام حسبته فقتل من وجد بها من نبلاء مفراوة ، وغير ما وجده بها من المنكرات ، فكسر آلات الموسيقى والفناء ، وأحرق المواخير ، وأسقط الفارم ، وبعد أن طمان الى استقرار الأمور قدم عليها عاملا من ثنونة ، وترك معه حامية قليلة العدد ، وعاد برجاله الى بلادهم (١) .

#### فتح أودغست :

واذا كان البكري يقول ان المرابطين قد عادوا بعد فتح سجلماسة ( سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ) الى بلادهم ، فانه ينص بعد ذلك على أن ابن ياسين قام في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م بفتح أودغست جنوب الصحراء ، على مسيرة شهرين ، والتي كانت خاضعة لملكة غانة ، وهو الأمر المقبول . ففي هذه الحالة يكون القصد من الحملة العظمى التي حوت ٣٠٠٠٠ من المهاري ليس سجلماسة لذاتها ، بل كمحطة على طريق السودان الى بلاد الساحل ، منطقة أعشاب السافانا التي يمكن أن تمر هذا العدد الضخم من الجمال بالعلف والماء .

ويُصنف البكري أودغست وقتئذ ، بأنها مدينة كبيرة ، يسكنها بربر زناتة مع العرب الذين لم يكونوا على وفاق فيما بينهم . وإذا كانت رواية البكري تنص على اساءة المرابطين الى أهل أودغست حيث استباحوا حريمهم

---

(١) البكري ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على اخراج عامل ورعة منها ، والاستيلاء على ٥٠ ألف ناقة كانت لمسعود في مراعيها ، وان الحرب العظيمة انتهت بمقتل مسعود وأكثر جيشه وفرار الباقيين ، وان عبد الله بن ياسين اخذ أمواله وأدواتهم وأسلحتهم مع الابل فأخرج الخمس جميعه لفرقه في فقهاه سجلماسة وصلحائها وقسم الباقي على المرابطين . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث اختصار رواية ابن زروق - دون الإشارة الى ذلك . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث النص على المرابطين ساروا الى سجلماسة وطلبوا الزكاة فامتنوا ، فهزموا صاحب سجلماسة وقتلوا بدوخلوها ، وان كان ذلك في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

واستحلوا آكل ممتلكاتهم ، فلا بأس أن يكون ذلك نتيجة للشقاق بينه الزناتية والحرب المترفين الى جانب ما قدموه من تبريرات أخرى كالمضوع الى غير المسلمين من أهل غانة ، وهو الأمر المقبول على كل حال من حيث حماسهم لدينهم الذى جددوه ، الى جانب رغبتهم الصادقة في نشر الاسلام بين قبائل السودان التى لم تكن قد دخلت بعد فيه (١٠) . ولا بأس أن يكون ابتعاد الجيوش المرابطة ، جنوبا على بعد شهرين من سجماسية ، فرصة انتهزها دهاة مفراوة في سجماسية لتحرير بلدهم من نير المرابطين . فلقد نصبوا لحماية النساك شركا في ظهرة يوم جمعة وقت الانشغال بالصلاة في المسجد ، وهي الحيلة التى كانت معروفة لدى مديري الانقلابات على ما نظن ، في دولة الاسلام - حيث كان قواد المرابطين قد تجمعوا حول رئيسهم القاندر « عامل سجماسية » ففقدوا بهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك خلال سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ التالية (١١) .

ولقد تنبه زعماء المدينة الى خطورة المفاسدة التى انفسسوا فيها ، وحاولوا اصلاح ما يمكن اصلاحه ، « فتواترت رسائلهم على عبيد الله بن ياسين ، أن يرجع اليهم بالمساكر ، ويذكرون أن زناة زحفوا اليهم (١٢) . ولم يجد هذا الاعتذار شيئا ، فقد قرر ابن ياسين الأخذ بثأر المفسدين من رجاله .

ولم يكن عبد الله بن ياسين يدرى أن حملة سجماسية الثانية هذه ، ستؤدى الى انشقاق خطير في صفوف المرابطين ، وقيام حرب أهلية بين قطبي قبائل الملتئين : جدالة وملتونة ، فجدة التى كانت لا تنسى أن فضلهم « اسلام الصحراء الجديد » يرجع الى زعيمها يحيى بن ابراهيم صاحب لقاء القيروان التاريخي مع الشيخ الامام أبى عمرانو الفاسي . وترنوا الى الآخر من جديد بزمام القيادة بدلا من ملتونة ، على أمل إعادة توجيه تاريخ المنطقة المستقبل الى مساره الجدال السابق ، وهو ما لم يولد تيسر به حتمية التاريخ

---

(١٠) البكري ، ص ١٦٨ - حيث النص أيضا على أن ابن ياسين قتل في أودغست رجلا من العرب الولدين من أهل القيروان « معلوما بالورع والصلاح وثلاثة القرآن ، رجع اليه ر يسمى زبارة . وأما تقوا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه » ، وعن أودغست انظر فيما سبق ص ١١٦ .

(١١) البكري ، ص ١٦٧ - حيث النص : « ففقد أصل سجماسية المرابطين في المسجد ، وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ص ١١٦ - الخ »

(١٢) البكري ، ص ١٦٧ .

فى أوضاعها المستجدة • وكانت أزمة تهدد كيان البناء المرابطى الذى لم تكن قد تماسكت بعد لبناته اللينة ، لولا حكمة عبد الله بن ياسين الذى لم يظهر بمظهر رجل الدولة المحنك فقط ، بل وبمظهر القائد الموهوب فى علاجه لمشاكل الحرب والسياسة •

### الفقيه رئيسا :

بعد عبد الله بن ياسين يعد الامة لمقاب أولئك المستهترين بدولة الرباط من رؤساء مغاربة ومن يحوم حولهم من أهل سبيلامة ، فنسب المرابطين الى غزوهم • وهنا لم تلق دعوة جهاد المغاربة المساحين من أهل سبيلامة للمرة الثانية القبول من جانب عامة المرابطين فقط ، بل انها وجدت معارضة صريحة من جانب الجدلبيين • ولا بأس أن يكون المثلثون قد حشروا فى هذه المرة مقابلة مع بقايا بنى وانودين المغراويين فى واحات درعة وسبيلامة قد تنقلب الى مواجهة شاملة مع الزناتية قد تكلفهم ثمنا باهظا قد لا يهدد كيانهم فقط ، بل ووجودهم أصلا • فهذا ما يمكن أن نفهمه من انسحاب جدالة الى مواطنها الأولى على ساحل البحر ( المحيط ) ، فكانهم عبروا عن عدم رضاهم عن سياسة ابن ياسين ، بترك مشروع دولة الرباط التى بدأت تتحول من دعوة للجهاد فى الجنوب السودانى الذى لم يدخل بعد فى الاسلام ، الى دولة اسلامية تقليدية ، تبني سياستها على الوقائع الجغرافية السياسية الاقتصادية التى تعنى الحلول مكان دول المغرب السابقة . فى شمال الصحراء •

والظاهر أن نظرة جدالة نحو الجنوب كانت تجد قبولا حسنا لدى بنى جلدتهم على حدود السودان ، وربما من طوائف أخرى من مسلمة السودان الذين لا يحيدون فكرة التجديد الاسلامى ، بل يفضلون مواصلة عملية نشر الاسلام بين ملاحمة السودان •

### انشقاق المثلثين والحرب الأهلية ،

وبله ظهور « أبو بكر بن عمر » :

هكذا اتخذ عبد الله بن ياسين الاجراءات السياسية والعسكرية المناسبة لمواجهة المخاطر المتوقعة من حركة المصيان الجدالية فعزل على تقوية الجهة الداخلية فى مجتمع الرباط ، والتى تتمثل فى جبل لمتونة مركز النقل البشرى والاقتصادى ، فى دواخل بلاد المثلثين • فقد أمر الزعيم يحيى بن عمر بالتمركز هناك فى قصبة الجبل المعروفة باسم أزكى «أزقى» .

وهي عقدة الطرق التجارية الى غانة ، وحيث غابة النخيل العظيمة التي تحوى حوالى ٢٠ ( عشرين ) ألف نخلة ، وحيث الحصن انذى ينسب بناؤه الى يانو بن عمر أخى الأمير يحيى بن عمر الحاج(١٤) ، تحسبا لهجوم محتمل من قبل جدالة .

هذا ، كما اتخذ ابن ياسين اجراءات تضمن سلامة المرابطين فى درعة حيث كانوا مقسمين الى فرقتين احدهما بقيادة أبى بكر بن عمر ، والأخرى بقيادة أحمد بن أقدجتوا ، فجعل القيادة هناك الى أبى بكر نيابة عن أخيه يحيى الموجود فى أرض لمتونة . والظاهر أن فتنة جدالة استمرت لفترة زادت على سنة وأكثر ، الأمر الذى يعنى ان الجداليين كانوا فى حاجة الى الوقت لاعداد العدة لمواجهة الترتيبات العسكرية فى بلاد لمتونة ، وذلك أن الهجوم الجدالى المرتقب على جبل لمتونة لم يبدأ الا فى مطلع سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (١٤) .

ولا ندرى ان كان الهجوم الجدالى قد تم بتنسيق مع المفاويين الزناتية أصحاب سجلماسة أم لا . وذلك أن رواية البكرى لا تحدد تاريخا لعودة عبد الله بن ياسين الى سجلماسة . والرواية هنا تكتفى بالقول ان ابن ياسين صار نحو سجلماسة فى حوالى ٢٠٠ ( مائتى ) رجل من الصنهاجيين وانه نزل فى حصن تامدلت ( ما سبق ، ص ١١٣ ) حيث « اجتمع اليه جيش كثيف من ( حصون قبائل ) سرطلة وترج» (١٥) ، الأمر الذى يفهم منه أن عبد الله بن ياسين استعاد سجلماسة دون قتال أو أعمال عنف فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م التالية ، حسب رواية ابن أبى زرع ، التى تكمل رواية البكرى فى هذا الموضع ، كما نرى . وهكذا يكون خروج عبد الله بن ياسين لاسترجاع سجلماسة ، وأخذ الثار من أولئك الذين غدروا برجاله المرابطين فى ٢٠ صفر سنة ٤٤٧ هـ / ٢٠ مايو ١٠٥٥ م (١٦) .

(١٣) أنظر البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٤) البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٥) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن ما سبق ، ص ٧١ ، ٨٨ من مدينة ترفغة وسجلماسة ، ص ٧١ عن سرطلة وترجة .

(١٦) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن أهل سجلماسة وفقهاء درعة وصلحانهم كتبوا الى ابن ياسين والمرابطين يطلبون قدومهم للقضاء على المنكر والمنسف والجور ، وذلك فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، فكان ذلك هو الفتح الأول ، وهو ما نراه مناسبا لتسكعة رواية البكرى عن الفتح الثانى الذى أعقبه النصر بالحماية الرابطة سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .



أما في جبل لتونة ( ما سبق ، ص ٢١٠ ) فقد سارت الأمور في غير مصلحة ابن ياسين . ففي المحرم من سنة ٤٤٨ هـ / مارس - أبريل ١٠٥٦ م التالية ، حاصرت جدالة وحلفاؤها من صنهاجة ومن السودان ، كما يقتضى السياق ، الجبل في جيش كبير يبلغ عدده زهاء ٣٠ ( ثلاثين ) ألف رجل . ورغم كثرة اللمتونيين الذين كانوا تحت قيادة يحيى بن عمر مع من انضم اليهم من حلفاء المرابطين من مسلمة السودان الذين كانوا تحت قيادة لبي بن وارجاي رئيس التكرور ، فإن المعركة الكبيرة التي وقعت بين الطرفين في تبغريل فيما بين قرية ( حصن ) تاليوين وجبل لتونة ، انتهت بكارثة بالنسبة لحزب ابن ياسين . فلقد انهزم المرابطون وهم المجاهدون الأشداء ، الذين « يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف » (١٧) ، وبقي قائدهم الأمير يحيى بن عمر في أرض المعركة ، كما « قتل معه بشر كثير » . وبذلك أصبحت ساحة تبغريل على حدود السودان مقبرة تذكارية من مقابر شهداء الاسلام على أطراف دولته البعيدة ، مما يذكر بسيدى عقبة . ( تهودة ) سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م ، وبلاط الشهداء ( بواتيه ١١٤ هـ / ١٣٢ ) ، وخاصة بشهداء الاباضية في ورداسة ( بتاورغي ١٤٤ هـ / ٧٦١ م - ج ٢ ص ٢٤٥ ) ، حسبما يفهم من الرواية المرابطية المنقوبة (١٨) .

ويعد استشهاد يحيى بن عمر الحاج بن تلاككين في تلك الحرب الأهلية . كان على الفقيه عبد الله بن ياسين أن يختار أخاه « أبو بكر بن عمر » لقيادة القوات المرابطية ، فكان اختيار الرجل المناسب الذي سيخلفه الرجل المناسب ( يوسف بن تاشفين ) (١٨ م) .

---

(١٧) البكري ، ص ١٦٦ . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٧ ( حيث اسم ملك التكرور السابق : ولجاي بن ياسين ) ، وقارن أمين الطيبي ، تأليف الاسلام في غايه ومالي ، مجلة العلوم الانسانية ، الكويت ، مجلد ٤ عدد ١٥ - ١٩٨٤ ، ص ٢٥٠ - حيث اسم الملك : وارجاي . ابن رابيس ، وانظر فيما سبق ص ١١٩ وهـ ٤٣ .

(١٨) انظر البكري ، ص ١٦٨ - حيث النص : « وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات ، وهم يتصامونه ، ولا يشله احد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ، ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم » وقارن الترطاس ، ص ١٢٨ - حيث النص على وفاة الأمير يحيى بن عمر في جهاد كان ببلاد السودان مع تقديم ابن ياسين لأخيه أبي بكر بن عمر اللمتوني مكانه ، وذلك في المحرم سنة ٤٤٨ هـ / مارس - أبريل ١٠٥٦ م .

(١٨م) نفس المصدر السابق .

### اتحاد قبائل الرباط من لمتونة وحلفائهم ، تحت قيادة عبد الله بن ياسين :

كان لنحرب الاهاية بصساتها الواضحة على النظام المرابطى الذى كان قد تحول الى كيان دينى سياسى على قمته « ثنائى رئاسى » ، من : الأمير القائد والفقيه المنظر ، صاحب الكلمة الأخيرة على كل حال ، هكذا كان عبد الله بن ياسين يلزم جميع المرابطين من قبائل الملتمين ومن بعدهم الداخين الجدد فى حظيرة دولة الرباط من أهل المغرب ، بإعلان التوبة والمنضوع لنقوبة التطهر الجسدى - دونما تفرقة عنصرية .

ولكنه عقب هزيمة تبغريلى ، ومقتل الزعيم الملتونى يحيى بن عمر اكفى عبد الله بن ياسين بالخروج من الكارثة بأقل الحسائر ، حيث علمه درس الهزيمة أن يكون واقفيا فى سياسته : أى أن يرضى بالمسكن دون المستحيل كما يقال ، وأن يدع مجالا للرغبة الشخصية فى عمل الخير أو النهي عن الشر ، دون كسر لارادة الآخرين .

وهكذا تقول الرواية تعقيبا على الهزيمة انه « لم تكن للمرابطين بعد ، كرة الى بنى جدالة(١٩) » بمعنى أن عبد الله ابن ياسين لم يثار « لنكسة » تبغريلى ، فكان جدالة خرجت منذ هذا الوقت من الوحدة المرابطية ( وحدة أهل الحق ) ، وكأنها صارت قبيلة حليفة وليست تابعة ، وكان دولة الرباط الموحدة اقتضرت على قبائل لمتونة التى شاركتها مسوفة فى نوع من الاتحاد .

وهكذا أصبح النظام المرابطى فى معناه وحدة سياسية ممداتها قبائل لمتونة ولحمتها قبائل مسوفة ، وأما غيرها من القبائل فقد صارت قبائل حليفة - فكانها فى اتحاد تتمتع بحقوق المتساوين(٢٠) ، شكليا على الأقل .

---

(١٩) البكرى ، ص ١٦٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث يجعل أول أعمال يوسف بن تاشفين الذى كان على مقدمة أبى بكر بن عمر فى مسيره نحو الموسى ، غزو جدالة .

(٢٠) انظر عن التوح الإسلامية ونظام الحلف مع القبائل والدويلات التركية المجاورة فى المشرق ، محمد عبد الهادى شمسة ، الممالك الحليفة ، مجلة كلية الآداب - الاسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ، المجلد ٤ ص ٤٢ وما بعدها .

وهذا لا يمتنى أن دولة الرباط الوليدة فقلت صبيها الدينية في الوقت المبكر . فطالما عاش الفقيه ، حامل السنة وعالم اشريعة ، ظل لام المارابطى مرنديا عبادة الدين ، كما ظل الهدف من الجهاد والفتح هو يد الاسلام ونشر دعوة الحق بين من لا يعرفونها . وفي هذا المجال قام الله بن ياسين بتنشئة أعداد من الطلبة المقهاء ممن سيساعدونه في نظام الدولة وترتيب الدعوة لنشر الاسلام الصحيح<sup>(٢١)</sup> - الامر اننى كون قدوة لمحمد بن تومرت : مهدي الموحدين . أما عن مسار الفتوح ن منهجيا ، بدءا بشمال الصحراء في المغرب الأقصى وجنوبها في بلاد السودان ، الامر الذى تطلب اقامة قيادتين حربيتين ، احدهما شمالية أخرى جنوبية . وكانت الجبهة الشمالية هي التى استأثرت باهتمام الله بن ياسين ، لقوة بلاد المغرب النسبية بشريا واقتصاديا ، الامر الذى ، يشير بجبال مزدهرة للعمل على كل من مستوى الجهاد والدعوة .

وهكذا تتدرج فتوح المغرب الشمالية فيما وراء درعة وسجلماسة ل يوردها البكرى ، بدءا بأغصات سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ثم بلاد الحصادة سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وانتهاء ببلاذ برغواطة حيث استشهد عبد الله بن ياسين - مقابل سواحل الأندلس : أرض الجهاد وموطن الرباط التى يكون لها رجالها من المارباطين خلفاء ابن ياسين ، سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، هو الترتيب المقبول بشكل عام رغم ما قد يوجد من اختلافات في ترتيب احداث عند من أخذ برواية البكرى ممن أتى بعده من الكتاب . والحقيقة ، اضطراب رواية البكرى عند المتأخرين يرجع الى أحد سببين ، أولهما : أنهم لموها عن غيرهم ممن كانوا يعرضون لها بشيء قليل أو كثير من التحوير التفسير ، والثاني : هو خلط رواية البكرى الأندلسية المعاصرة برواية من شهاد الافرقية المتأخرة بعض الشيء ، والتي تعتبر أقل أصالة من يث كونها صحراوية ذات أصول شفووية معرضة للتحويل الشديد .

رواية ابن الأثير ( ج ٩ ص ٦٢١ ) والنويرى ( أبو ضيف ص ٣٨١ - زيرية أيضا ) تخلط ما بين بلاد السوس الأقصى ( موطن مصمودة ) تامسنا ( بلاد برغواطة - حيث قتل عبد الله بن ياسين ) . ومثل هذا تمال عن اللبس بين بلاد جزولة وجبل لتونة والسودان في قصة وفاة يحيى بن عمر اللصتوني في كل من البكرى ( ص ١٦٧ - ١٦٨ ) والقرواس

( ص ١٢٨ - ١٢٩ ) • وكل ذلك رغم الاجتهادات المحسودة لكل من ابن أبي زرع ، ومن بعده ابن خلدون ، في محاولة ترتيب الأحداث بشكل منهجي مقبول •

والمهم من كل ذلك ان رواية البكرى التي يرجع الفضل الى دسلان (De Slane) في تحقيقها وترجمتها والتعليق عليها هي المعتمدة في ترتيبها الزمني كما نرى ، وان عانت من قلة التفصيلات التي كان يمكن أن تنفث في توقيتها الزمني الجيد نوعا من الحياة •

### فتح أغمات :

#### والقضاء على إمارة البجليين :

وهكذا يكون فتح أغمات قد تم بعد نهاية الفتنة مع جدالة وحلفائها من السودان في جنوب الصحراء ، حيث قتل الأمير يحيى وآلت القيادة الى أبي بكر بن عمر الممتوني ، بعد استرجاع سجلماسة بمعرفة عبد الله ابن ياسين الذي رأى أن يستنفذ طاقة المرابطين الذين بدأت تضيق بهم الصحراء ، في توسيع رقعة دولة أهل الحق ، فكان التوجه الطبيعي نحو أغمات في سفوح جبال درن ، غير بعيد من الموضع الذي سوف تبنى فيه مدينة مراکش ، وحيث كانت السلطة هناك للمفراوين الزناتية ، أقارب أصحاب سجلماسة ، فكان في الاستيلاء على أغمات ( ما يأت ص ٢١٥ ) ضمان لهدوء الأحوال في كل من درعة وسجلماسة •

وهكذا أصدر عبد الله بن ياسين أوامره الى الأمير أبي بكر بن عمر بأعداد جيوشه للمسير نحو السوس الأقصى وجبال المصامدة • وفي شهر ربيع الثاني من صيف ٤٤٨ هـ / يونيه - يولييه ١٠٥٦ م كانت القوات المرابطية بقيادة ابن ياسين وأبي بكر ، تتجاوز حدود سجلماسة نحو سفوح جبال درن ( أطلس ) لكي تخترق دروبها على طول ١١ ( أحد عشر ) يوما الى أغمات (٢٢) • ومن المهم الإشارة هنا الى أن قائد المقدمة وقتئذ ،

---

(٢٢) انظر البكرى ، ص ١٥٢ - حيث الطريق من سجلماسة الى أغمات يستغرق ١١ يوما على طول المسطحات التناحية : ببجلمين ( ٢ يوم ) ، وادي درعة ( ٢ يوم ) ، وزرار : حيث مساكن مسكورة ( ٢ يوم ) ، هزرجة : حيث جبل الياقوت ( ٤ يوم ) وعلى مسافة يوم واحد من أغمات •

المعين من قبل أبى بكر بن عمر ، هو : ابن عم هذا الأخير يوسف بن تاشفين (٢٣) الذى سوف يرتبط اسمه بالامبراطورية المرابطية ، فكان هذا اول ظهور له على مسرح الأحداث - الأمر الذى غاب عن البكرى .

ولا بأس أن كانت منطقة تارودانت فى منتصف المسافة هدفا فى حد ذاته بالنسبة لعبد الله بن ياسين ، اذ كان أهلها يعتقدون مذهب الشيعة الاسماعيلية الذى نشره فى المنطقة بعض دعاة الاسماعيلية المعروف بالبجل الذى تسموا باسمه ، قبل قيام الدولة الفاطمية فى افريقية (٢٤) . ولا بأس أن يكون ذلك الهدف الدينى من الأسباب الرئيسية لتلك الحملة ، الى جانب الهدف السياسى المعلن فى سجل ماسية ، وهو القضاء على حكومة اغمات المرافوية الزناتية التى تمت لبنى وادين أمراء سجل ماسية ، بصلة العرق والنسب . وهذا ما كان يحقق للمرابطين أيضا قاعدة للشراف على مضامدة جبل درن ، وذلك فى الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراکش بمعرفة يوسف بن تاشفين ، والتى ستصبح أكبر مدن المغرب الأقصى الذى سيرفع باسمها أى « البلاد المراكشية » ، اعتبارا من عهد الموحدين .

والمهم انه كان على المرابطين أن يقضوا على إمارة البجلين من الاسماعيلية المتطرفين فى المنطقة وأن يعيدوا اليها السنة المالكية . وفى ذلك تقول رواية ابن أبى زرع : « فقَاتاهم الأمير أبو بكر بن عمر ، وعبد الله ابن ياسين ، حتى فتح مدينتهم عنوة ، وقتل بها من الروافض خلق كثير ، وأخذ أموال القتلى فجعلها فينا للمرابطين ، فكان على الباقيين منهم أن يرجعوا

(٢٣) القرطاس ، ص ١٢٨ .

(٢٤) البكرى ، ص ١٦١ - حيث النص على أن الداعية الاسماعيل محمد بن ورسته ، كان من أهل نقطة من بلاد قسطنطينية ، وأنه دعا بربر المنطقة من بنى لماس الى سب الصحابة ورضه ، وأجل لهم المحرمات كالربا الذى زعم أنه بيع من البيوع ، كما أضاف الى الأذان بعد شهادة : محمد رسول الله : « أشهد أن محمدا خير البشر ، بعد : حى على الفلاح : » حى على خير الصل آل محمد خير البرية » . وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث التماس التبسيط فى تحريف رواية البكرى الى عكس مقصدها حيث النص على أن البجلة متسبون الى عبد الله البجل الرافضى ، وأنه كان قدم الى الموسم أيام قدوم عبيد الله التمشى افريقية ظنا ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم بتشبه على أيدي دعاة الإدارة الزيدية فى فاس من حيث أنهم كانوا - حسب نص رواية البكرى يرون أن الإمامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين ، وهو رأى الزيدية ( الأدرسية ) .

الى السنة (٢٥) . والظاهر أن المرابطين نجحوا فعلا فى استئصال البجليين وذلك أننا لا نجد لهم ذكرا عند صاحب الاستبصار الموحدى فى أواخر القرن الـ ١٢م .

وبعد هذا الانجاز الدينى الكبير كان على ابن ياسين أن يسير مرتاح الضمير نحو أغمات التى كانت أشبه بدويلة صغيرة يحكمها أمير مغراوى هو لقوط بن يوسف الذى ربما كانت له علاقة مشبوهة بحركة الهرطقة البرغواطية فى إقليم تامسنا ، من حيث كانت له دولة سابقة فى كل من سبتة وطنجة قبل الانتقال الى أغمات فى سفح جبال المصامدة (٢٦) . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع عندما ينص بعد فرار لقوط بن يوسف ليلا اثر تضيق الحصار عليه الى تادلا ، التى سار اليها المرابطون وفتحوها عنوة ، فقتلوا من وجدوا بها من أمراء بنى يفرن ، وقبضوا على لقوط الذى أمر ابن ياسين بقتله . وبذلك انتهى الأمر بإسلام أغمات بمعنى عودة أهلها الى السنة ( المالكية ) ، تماما كما كان الحال بالنسبة لمنطقة تارودانت ورغم الاختلاف مع البكرى فى تفصيلات خطوات الفتح المرابطى فى السوس وأغمات يجعل ابن أبى زرع فتح أغمات فى سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م وهو تاريخ البكرى (٢٧) .

### فتح السوس الأقصى :

ومن الواضح ان فتح سفوح جبال درن ( أطلس العليا ) الشمالية والتمركز فى أغمات التى اتخذها أبو بكر وابن ياسين مقرا للمرابطين كان -مضى- التضيق على إقليم وادى السوس الأقصى ، وقطع الطريق بينه

---

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث اسم المدينة رودانه وهى تحريف محتمل لتارودانت والحقيقة أن اسم تارودانت لا يرد فى رواية البكرى ، الأمر الذى يضىء ان اسم تارودانت لم يبدأ فى الظهور الا على عهد الموحدين حيث لها ذكر فى رواية الأدرسى ، بينما يصفها صاحب الاستبصار فى أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م بأنها قرية كبيرة جدا ، فكانها عتق قرى على طول النهر ( الاستبصار ص ٢١١ وهـ ٥ ) .

(٢٦) انظر ج ٣ ص ٥٠٨ - حيث تطلب الحاجب ( لكوت ) أو لقوط بدلا من سكوت ، حسب تصحيح دسلان فى ترجمة ابن خلدون -الذى يعرف بالبرغواطى على سبته ، ص ٥٠٩ حيث موقع المقات فى سلوح جبال المصامدة وإرتباطها بكل من فاس وسجلماسة وكذلك بمنطقة السوس الأقصى ، وأهميتها على طرق التجارة . وأنها مدينتان يفصل بينهما نهر وربكة أو بعض روافده ص ٥١١ - حيث نهاية لقوط على أيدي المرابطين .

(٢٧) القرطاس - ص ١٢٩ ، ( البكرى ، ص ١٦٨ ) .

وبين أقاليم مفراوة. وغمارة وبرغواطة الشمالية ، بمعنى سقوطه الوشيك بأقل الجهد والتكاليف ،

وهكذا اتخذ ابن ياسين من أغمات مقرا حيث استراح المرابطون لمدة شهرين (٢٨) ، من أوائل شتاء سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بدأ الاعداد لاتمام حملة فتح وادي السوس . وكان من الطبيعي أن يبدأ الغزو بفتح تادلة حيث لما لقوط البراغواطي أمير أغمات لدى بني يفرن هناك ، حيث تم القبض عليه وكان مصيره القتل (٢٩) ، وذلك في نفس السنة ( ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ) حسبما يأخذ به ابن خلدون (٣٠) .

ونرى بعد ذلك ان فتح مدينة نفيس كان مطلباً هاماً بالنسبة لابن ياسين من حيث كونها من أول فتوح عقبة بن نافع. في المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ م ، فهي جديرة بتجديده اسلامها قبل غيرها من مدن السوس ، طالما كان مسجدها من أوائل مساجد المنطقة . وبعدها تأتي سائر بلاد جدميوه (٣١) ، وفتح مدينة شيشاوة عنوة ، الأمر الذي دعا قبائل المنطقة من رجاجة وحاجة الى الاسراع الى الحضرة ( أغمات ) لتقديم الطاعة وآيات الخضوع (٣٢) . وإذا كانت رواية القرطاس تذكر فتح مدينة ماست التي تحمل اسم رافد السوس قرب المصب على المحيط ، فالمفهوم أن تمام فتح السوس الأقصى لا يتم الا بفتح « قاعدته » ايجل مركز انتاج السكر الذي تستهلكه « جميع بلاد المغرب » ، وهو الأمر الذي لا يشير اليه البكري أيضا (٣٣) . ولا بأس أن يكون ذلك قد تم في مرحلة أخرى عن طريق حملة تكون قد سارت بطريق المحيط الساحلي ، بدأ من الاستيلاء على نول لمطة ، على ٣ ( ثلاثة ) مراحل من ماست . وذلك أن بعض الروايات تجعل فتح نول لمطة ضمن فتح المرابطين لبلاد السوس .

وهكذا يكون المرابطون قد فتحوا ماعقل بلاد السوس كما يقر

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٩

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٩

(٣٠) المبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ص ٧١ - حيث اسم لقوط في شكل لجوت (Laghou) بن يوسف بن علي الفراوي .

(٣١) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث تكرار فتح جبل درن ، وبلاد دودح ( ؟ : رودانه في تارودانت ) .

(٣٢) القرطاس ، ص ١٢٩

(٣٣) البكري ، ص ١٦١

ابن أبي زرع ، وأطاعتهم قبائلها جميعا ، من المصامدة وغيرهم وذلك في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، بناء على تقرير البكرى ( ص ١٦٨ ) . وبعد الفتح تبدأ مرحلة وضع تراتيب الإدارة ونظم الحكم ، من : اخراج الولاة والعمال الى نواحي البلاد المختلفة مع اصدار التعليمات بأن يكون دستور الحكم على المستوى الدينى ، هو : اقامة العدل وإظهار الحق ، وعلى المستوى المالى والاقتصادى : الالتزام بجباية الزكاة ( ضريبة الأموال والممتلكات ) والعشر ( ضريبة ) ناتج الأرض ، وعلى المستوى السياسى : مما عرفه المتشددون من الفقهاء باسم « المنارم » أو « المظالم » ، على أساس عدم شرعيتها من وجهة نظرهم(٣٤) .

**فتح تامسنا : بلاد يرغواطة :**

#### **تمهيد فى السمات العامة للحركة البرغواطية :**

كان استيلاء ابن ياسين على بلاد السوس الأقصى مقدمة طبيعية لتمدد دولة الرباط الصحراوية نحو السواحل الشمالية لبلاد المغرب الأقصى ، فى منطقة تامسنا الممتدة على طول ساحل الأطلس ما بين كل من وادى أبو الرقراق ( بور جرج ) شمالا ، وحتى مصبه فى سلا والرباط ( رباط القتح ) ووادى أم الربيع جنوبا وحتى مصبه أزموور . وهذه المنطقة الفنية بمياهها وأوديتها المحيطة تشبه أن تكون منعزلة عن بقية بلاد المغرب ، من حيث هى المغرب الأقصى حقا أى التى ليست مشرقا بالنسبة لغيرها من البلاد ، كما تسكنها قبائل يرغواطة المصدودة أصلا من قبائل المصامدة وأن هاجت المنطقة بشيفساء مختلطة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهم(٣٥) .

والهم أن قبائل يرغواطة تمثل اتجاه العزلة التى يوصف بها إقليم تامسنا ، من حيث القول أنهم أندلسيون أصلا ، سكنوا منطقة شريش المواجهة لساحلهم ، حيث منطقة مستنقعات وادى برباط التى كانت فوضع أول نزول للفاتحين العرب بالأندلس . وفى ذلك قيل ان اسمهم يرغواطة

---

(٣٤) انظر القرطاس ، ص ١٢٩ ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ص ٧١ ، القلتندى ج ٥ ص ١٨٩ - حيث الأخذ بتاريخ البكرى ، كما فعل ابن أبى زرع وابن خلدون ، رغم الاختلافات فى التفاصيل مما يظهر أصلا فى رواية ابن شداد التى أخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى .

(٣٥) انظر ج ٢ ص ٤٣٣ والهامش .



تحويل لاسم برباطة ( مفردها بالاصل برباطى أى برغواطى ) (٣٦) •

وتتمثل مظاهر العزلة فى تامسنا فى تمسك قبائل برغواطية هناك بمبادئها القديمة وتمسكها بلغتها البربرية الأصيلة ، الأمر الذى أدى الى اعتناقها مذاهب الخوارج الصفرية ، والمشاركة فى ثورة ميسرة المطبرى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م الأمر الذى انتهى بإقامة إمارة بربرية مستقلة جاهدت فى الاستقلال عن دولة الخلافة فى بغداد ، وعن دول المغرب المستقلة ، سواء فى الأندلس أو المغرب الأقصى •

هكذا كانت دولة برغواطية مرتبطة بدولة مطبرة القمارية التى قام بها خوارج الريف بقيادة ميسرة الفقير ، واستمر أمراؤها يتسلسلون أباً عن جد فى بلادهم المحمية بكل من جبل درن وشاطئ المحيط طوال خمسة قرون الى قيام دولة الرباط ، وبعدها دولة التوحيد ، وهى تقاوم معارضة خصومها على كل المستويات من رسمية وشعبية أو دعاوية وحرية ، الأمر الذى يعنى نوعاً من الصمود الذى يثير فى النفس نوعاً من الاستغراب ان لم يكن من الإعجاب •

هذا ، ولم تكف برغواطية بالقدرة على الدفاع عن كيائها المستقل سياسياً وحضارياً ضد الحشوم فحسب ، بل انها نجحت فى إقامة علاقات ودية أشبه بتلك التى تقوم بين الدول المستقلة فى أيامنا هذه - كذلك الذى حدث بين مملكة برغواطية على أيام السابع من ملوكهم : أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار ، الذى ولى سنة ٣٤١هـ/ ٩٦١م ، عندما راسل الحكم المستنصر الأموى سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م ، فاستقبل رسوله ( صاحب الصلاه عندهم ) : أبى صالح زمور البرغواطى رسمياً فى قرطبة ، استقبل سفير دولة صديقة ( ج ٣ ص ٤٣٦ ) ، فكان مملكة برغواطية فى تامسنا بلغت القمة كدولة مستقلة ذات سيادة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ( ١٠م ) •

ورغم غزو اليفرنيين ( الزناتية ) لتامسنا ، بعد جوالى ٧٠ ( سبعين ) سنة ، أى فى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م ، والقول باستيطان بنى يفرن لبلاد تامسنا التى غزوها ، بل والنص على انقطاع أمر برغواطية فلم يبق لضلالتهم

---

(٣٦) انظر ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها . ومن المنطقة أنظر سيجر سالم بر قادس ...  
فى العصر الاسلامى . ص ١٧ وما بعدها .

باقية ولا من أواخر كفرهم أصرة (٣٧) .

### ماهية هرطقة يرغواطة :

وهنا ، لا بأس من محاولة لقاء الضوء على أحوال اقليمى تادلا وتامسنا الحضارية والثقافية بشكل عام ، وأوضاع قبائل يرغواطة والقبائل الحليفة لها على المستويين الاجتماعى والثقافى والدينى أيضا ، فى سبيل الاقتراب من الحقيقة ، اذا كان الوصول اليها من الصعوبة بمكان . فالمعروف ان أهل الجبال مثل سكان البادية والصحراء يصنفون فى أول درجات السلم الحضارى مع عامة أهل المطالب الضرورية ممن يوصفون بالجفاء والغلظة ، مثلهم مثل العامة من الكادحين أو أهل الشقاء . وهؤلاء مقلون بطبيعة الحال فى أسباب حياتهم اليومية ، من هادية ومعنوية - فمثلما هم قليلوا المال بعامة ، فان بضاعتهم قليلة فى مجالات الثقافة والدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للأعراف والتقاليد ، مما سبقت الإشارة اليه أعلاه ، ومما وصفتهم به روايات المرابطين أو ما جاء على لسان ابن ياسين أو المرابطين مما يأتى .

وأول ما نتهم به يرغواطة ، حسب رواية القرن الـ ٥هـ / ١١م التى يقدمها البكرى ، مع روايتى القرن الـ ٤هـ / ١٠م المنسويتين الى كل من زمور البرغواطى ، وفضل بن مفضل المذبحي (٣٨) ، هى الزندقة المبنية على التنبؤ ، وابتداع قرآن خاص بهم ، يتكون من ٨٠ (ثمانين) سورة ، مقسمة ما بين سور باسماء الأنبياء ، وأخرى باسماء الحيوان (٣٩) . اما ما يوجه الى البرغواطية من انحرافات لا تتفق مع أحكام الشريعة ، فمنها ما يتصل

---

(٣٧) البكرى ، ص ١٤١ ، وانظر ج ٢ ص ٤٣٤ ، فقد طلت الحركة البرغواطية بالية . الأمر الذى قد يفسره قيام المرابطين بجهود إنشائية من اجل القضاء على ذلك الانحراف البرغواطى . وهنا تحسن الإشارة الى ان أقاليم أخرى كانت قد اتهمت بالخروج على الاسلام الصحيح ، سواء فى الصحراء ، من : جدالة الى ثنونة ، وفى اقاليم المغرب شبه الصحراوية كدرة وسجلاسة ، بل والأقاليم المغربية أصلا كبحى موارض من السوس الأقصى ، الأمر الذى تطلب تجديد اسلامها - مما سبقت الإشارة اليه .

(٣٨) البكرى ، ص ١٣٧ .

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٠ - حيث سور الأنبياء : أيوب ( أولها ) . وفرعون ، ومارون ، وحامان ، وياجوج ، وماجوج ، وعاروت ، وماروت ، وأخرها : سورة يونس . ومن سور الحيوان : البجل ، والدليك ، والجمل ، والجراد ، والحمل . وأخرها سورة الحنث : يضاف الى ذلك سورة غرائب الدنيا - وقارن روى القرطاس ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

بالمقائد والعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات الى جانب ما كانوا يتمسكون به من عادات وأعراف قديمة مما يتصل بالأخلاق والجنايات والعقوبات .

### في العقيدة : ما بين التشدد الخارجي والتساهل الشيعي :

فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، ورغم ما تقوله الرواية من ان البرغواطيين اتخذوا قرآنا خاصا بهم ، وأنهم حرفوا شعائر الاسلام ، وخاصة فيما يتعلق بالصلاة والصوم والزكاة ، فإنه يمكن أن يستشف من التفصيلات المتعلقة بذلك ، ان المذهب البرغواطى - اذا صححت التسمية - هو مذهب اسلامى أصيل ، وأنه اذا كانت قد شابته بعض الشوائب ، فتكون من حيث الميل الى التشدد الخارجى والغلو من ناحية أو التساهل الشيعى من ناحية أخرى .

فأما برغواطى الاول صالح بن طريف كان مشتركا بصحبة والده فى ثورة ميسرة المطهرى ، فيكون المذهب فى أصوله صفرى ( خارجيا ) ، ويكون البرغواطيون من أهل القيام والصيام ، رعيان الليل وفسان النهار ، الأمر الذى يفسر ميلهم الى التشدد فى العبادات ، بهذا من الوضوء حيث البالغة فى التطهر - الى جانب اشارة تساهل فى الجناية المعتادة عند صاحبه القرباس (٤٠) .

وفى الصلاة يظهر التشدد فى جعلها ١٠ ( عشر ) صلوات : خمسة بالنهار ، وخمسة بالليل (٤١) ، الى جانب أشياء أخرى فى الصلاة يمكن اعتبارها نوعا من التيسير ، مثل : قصر الصلاة (٤٢) ، الى جانب أقواله

---

(٤٠) البكرى ، ص ١٢٦ - حيث النص على غسل الحرة فى الوضوء ، والخاصتين ، والزراعتين بهذا من الكتفين ، والرجلين بهذا من التشدد يضيفه الاستعجال الى كل ذلك ، فان اشارة التساهل فى التطهر من الجناية الا من الحرام ، التى يضيفها ابن أبى ذرغ الى رواية البكرى لا تتفق مع هذا السياق ، ونرى انها موضوعة ، وخاصة أنه اعتمد جميع اخبار برغواطى فى كتابه الذى سماه « أذهار البستان فى اشجار الزمان » وذكر المجرى صا وقع فى الوجود » ، الذى ربما انصب على تحريم الوضوء وجباية - القرباس ، ص ١٢٦ -

(٤١) البكرى ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . الأمر الذى يذكر بما فرضه عبد الله بن عباس على أهل الرباط ومن لا يهم ، من أداء كل صلاة عرتين . فردا ثم جماعة . فردا لما يكون قد سدت من التفريط من قبل ، ص ١٢٦ .

(٤٢) أو كاداه بعض الصلاة لهما ، أو وضع الجباد من الأرض بمقدار نصف شبر خشية

أخرى مثل صلاة الجمعة في يوم الخميس ضحايا (٤٢) . أما ما يقال عن صوم  
وجوب بدلا من رمضان فالظن انه تحريف يقصد به التشويه من قبل بعض  
المصنوعين (٤٣) .

أما عن توحيد الزكاة وضريبة الأرض ( الحراج ) وجعل كل منهما  
العشر (٤٤) ، فهو يعني أيضا نوعا من التشدد الذي كان يقوم به المرابطون  
عند خروجهم لفتح الصحراء أو بعض أقاليم المغرب ، حيث جعلوا الزكاة  
عشرا ، أو عندما فرضوا زكاة الثلث على أموال القبائل من الماشية حتى  
يزكو لأصحابها الثلثان ( ما سبق ، ص ٢٠٢ ) .

وفيما يقال من أن البرغواطيين جعلوا عيد الأضحى في اليوم الـ ١١  
من المحرم بدلا من الـ ١٠ من ذى الحجة ( البكري ، ص ١٣٩ ) ، فهي مقالة  
لا تعبر إلا عن توجه شيعي بين قبائل تامة سنا كذلك الذي رأيناه في  
تأريخ دانت بالسوس الأقصى ، وذلك ضمن علامات شيعية أخرى ، مثل  
القول بأن أول ملوكهم صالح بن طريف زعم أنه « المهدي الأكبر » الذي  
يظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما (٤٥) . ومثل  
استخدام الرقم ٧ ( سبعة ) الذي له قيمة رمزية خفية عند الشيعة  
الاسماعيلية ، مثل القول بأن صالح يرجع على عهد السابع من ملوكهم  
( البكري ، ص ١٣٥ ) وأن يونس بن إلياس قتل في سوق المدينة ٧٧٧ رجلا  
( البكري ، ص ١٣٥ ) .

وفي المعاملات من زواج وطلاق وبيع وشراء وغيرها ، ينسب إلى  
آل صالح التمسك ببعض العادات القديمة كتلك التي عرفها عبد الله

---

= اجتلاك المياه بالأرض أو بأقلهم المصلين في الصف المتقدم ، أو السجود ثلاثا ، أنظر  
البكري ، ص ١٣٩ . وقارن القوطي ، ص ١٢١ - حيث شرح الصلاة إيماء بلا سجود حيث  
يكون السجود في آخر ركعة . سجدة .

(٤٢) البكري ، ص ١٣٩ ، مما لا يعرف له تبرير إلا إذا كان من تركات الشيعة الذين  
لا يرون بأسا في ترك صلاة الجمعة انتظارا لرجعة الإمام - الأمر الذي قد يقبله بعض الحوارج .  
(٤٣) البكري ، ص ١٣٨ ، وقارن القوطي ، ص ١٣٠ - حيث يقول أن يكون هناك  
الاعتناء بالصوم في وجوب كما شيعيان قبل رمضان - ويؤيد ذلك ما يتوله رواية البكري من  
اجتماعهم بصوم يوم أسبوعيا . والاعتناء بصوم يوم الجمعة على وجه الخصوص - وكل ذلك  
تؤييده في أداء فرائض العبادة .

(٤٤) البكري ، ص ١٣١ - حيث النص على الأمر بإخراج العشر من جميع الثمار .

= (٤٥) البكري ، ص ١٣٥ .

ابن ياسين في مجتمعات الصحراء ( ما سبق ، ص ١٧٧ ) ، حيث الزواج بالنسبة للسادة ، حسب الاستطاعة ، والطلاق والمراجعة حسب المشيئة ، مع وضع بعض الضوابط ، مثل عدم الزواج من بنت العم الى ٣ ( ثلاثة ) حدود ، الى جانب عدم التسرى مما يعادل بطلان زواج المتعة (٤٧) .

وفي شئون الطعام والمطبخ يظهر عندهم بعض التشدد في عدد من المحرمات ، مثل : عدم أكل رأس الحيوان ، وعدم أكل لحم الموت ( السمك ) الا ان يزكى ( اى يذبح حيا ) ، وعدم أكل البيض ، وكراهية أكل الدجاج مع تحريم أكل الديكة ، على أساس أنها تذكر الناس بأوقات الصلاة ، الأمر الذى أعطاها تلك الحصانة أو ذلك التبجيل (٤٨) .

اما في الجرائم والعقوبات فلا بأس أن كان لقبائل برغواطة الجبلية مثل قبائل الصحراء ، قوانينهم العرفية التى تتسم بالشدة من أجل انضباط افراد المجتمع ، والصرامة . فالسرقة عقوبتها الاعدام ، سواء ثبتت بالاقرار أم اتضحت بالبينة . وعقوبة الزنا هي الموت أيضا ، وإن كان رجما بالمجازرة في جميع الحالات . هذا ، ولو أنه عرفت الدية تمنا لحياة الجاني - مع اصلاح الضرر اذا أمكن ، على ما نظن - وتقدر تلك الغرامة الباهظة بـ ١٠٠ (مائة) من البقر . ومن الطريف هنا أيضا ، أنه كان للكذب عقوبته الرادعة في تامسنا هو الآخر ، حيث كان الكاذب يسمى « المخير » ( للحقيقة ) ، وعقوبته النفي من البلاد (٤٩) .

والذى يفهم من هذا العرض لأحوال قبائل برغواطة في تامسنا أنه كان لتلك القبائل عاداتها القديمة التى ظلت محتفظة بها بعد الدخول في الاسلام ، وهو الأمر الواقع بالنسبة للتجمعات البشرية ، وخاصة في البيئات الانعزالية ، مثل تامسنا . كما كان لتلك القبائل مفهومها الخاص

---

(٤٧) البكرى ، ص ١٣٩ - وفي ذلك يقال ان ابا عفير يصعد ( د سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ) الرابع في قائمة البكرى ، ص ١٣٧ ، وكان له ٤٤ ( أربع وأربعون ) زوجة ، وإن كانت بقية الرواية التى تنص هل انهن أنجبن له ٤٤ ولدا ( نفس الرقم ) تشكك في صحة الخبر جسيما . فكانه لون من أدب الطرائف أو الغرائب .

(٤٨) البكرى ، ص ١٣٩ - ١٤٠ - حيث انسافة التبرك بها الى درجة الاستشفاء « بصفاتها » مما يمكن حسبانها في أدب الغرائب .

(٤٩) البكرى ، ص ١٣٩ - وعن القانون العرفي عند قبائل الصحراء ، انظر ما سبق ، ص ١٣٦ .

الشريعة الاسلام وسننه التي تميل الى التشدد منذ البداية بفضل حركات  
الخوارج ، وجهود الردع التي قامت بها الفويلات الموالية لدول المشرق  
أو المغرب والأندلس من سنية أو شيعية .

### برغواطة وترجمة القرآن وشرحه :

#### لأول مرة باللغة البربرية :

والتهمة الكبرى التي تلصق ببرغواطة وهي الزندقة ، عن طريق  
اتخاذ قرآن جديد ، الأمر الذي يتضمن ادعاء النبوة ، هي تعبير حسبما  
نرى ، عن اتجاهات دينية سياسية هدفها الاستقلال عن طريق تكوين كيان  
خاص ، يبنى على التوافق بين روح الاسلام التي تتواءم مع الظروف البيئية  
بمعناها الاجتماعي والثقافي . وأول أسباب المواجهة تتمثل في فهم قواعد  
الاسلام الاساسية ، في نصوصها القرآنية وشروحها في السنن النبوية .  
وهكذا نرى ان ما تسميه الروايات المناهضة لآل صالح « بزندقة » برغواطة ،  
ليس في حقيقة الأمر سوى ترجمة للقرآن الكريم ومحاولة لتفسيره باللغة  
البربرية ، لغة قبائل جبال المغرب الأقصى الشمالية الغربية . ورغم ان  
المحاولة كانت لها أسبابها العملية أو الواقعية بالنسبة لجمهرة المغاربة من  
البربر ، الا أن الوقت لم يكن مناسباً لتنفيذها في تلك الفترة المبكرة من  
تاريخ دولة الاسلام الغتية ، حيث كانت « العروبة » تكاد تعاد الاسلام ،  
من حيث أن انتشار الاسلام كان العامل الحاسم في انتشار اللغة العربية ،  
قبل أن يسير الاثنان جنباً الى جنب يدفع كل منهما الآخر ويقوى انتشاره .  
والحقيقة ان التعريب كما يرى بعض الباحثين ، كان معجزة الاسلام في ذلك  
الزمان . من حيث انه العملية التي لا يدانيها في تاريخ العالم الا ما يقوم  
به الأنجلوسكسون في أيامنا المعاصرة ، من نشر لغتهم الانجليزية دولياً  
(٤٩٩م) وهي العملية المستمرة حتى الآن .

ويتأكد سبق برغواطة في ترجمة القرآن الى اللغة البربرية من  
النصوص الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية في تامسنا على أيام البكري ،  
في النصف الثاني من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م . ويتأكد من حسن النية في  
سلامة تلك العملية التي كان يصعب قبولها وقتئذ ، مما يقال في وصف  
قبائل برغواطة ، ومن صفات ملوكها من آل صالح بن طريف . فبرغواطة

هم أجمل الناس رجالا ونساء ، وأشدّهم أبدا (٥٠) .

وأما عن آل صالح فأول ملوكهم وهو صالح بن طريف يعتبر - رغم ما ينسب إليه من النبوة من أهل العلم والخير - والثاني : إلياس ، فقد كان - رغم ما يسر به ، تقيا - طاهرا ، عفيفا ، زاهدا . ويونس ( الثالث ) كان - رغم عنفه مع رعيته - ورعا ، قام بإداء فريضة الحج دون سائر أمراء الأسرة . أما أبو الأنصار عبد الله ( الخامس ) فقد عرف بأنه سخي ، طريف ، يفي بالمهد ، ويحفظ الجار ، ويكافئ على الهدية (٥١) ، الأمر الذي يعنى أن أسرة ملوك بني صالح ، الذين كانوا ما بين عالم ، وعفيف ، وزاهد ، وحاج ، ورع ، ليسوا إلا من أهل السيرة الطيبة والأخلاق الحميدة . وإن هذا يعنى أنهم مؤمنون مخلصون ، يتمسكون بأصول الشريعة - وما تقضى به قواعد الدين . أما ما ينسب إليه من اختراع قرآن يلفتهم ، فهو لا يكون فى الحقيقة إلا ترجمة للقرآن ، ربما كانت يتصرف فى بعض المواقع أو تفسيرها . لما يحتاجه النص من بيان وشرح . فهذا ما يتضح مما كانوا يقرأونه فى صلواتهم : فكلمة « ياكش » حلت محل اسم « الله » ، تماما كما حلت عند الترك فى المشرق كلمة « تنجرى » محل كلمة « الله » (٥٢) . وهكذا كان افتتاح الصلاة ( الاحرام ) يبدأ بقول « بسمن ياكش » ، مقر ياكوش » ، تفسيره : « بسم الله » الكبير الله » ( بسم الله » الله أكبر ) ، وفى النهاية ، يقولون فى التسليم بالبربرية : « الله فوقنا » ، لم يقب عنه شيء فى الأرض ولا فى السماء ( سبحانه ربى الأعلى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض ) ، ثم يقول : « ايحن ياكش » ومعناه : « الواحد الله » ( قل هو الله أحد ) ٢٥٠ ( خمسا وعشرين ) مرة ، و« ودام ياكش » ومعناه : « لا أحد مثل الله » ، ( ليس كمثله شيء ) ، « مثلها » (٥٣) .

وبناء على ذلك نرى أن ما يقال عن زندقة برغواطة ليس إلا مجرد معارضة لمحاولة استقلالهم السياسى ، الذى حاولوا أن يدعموه ثقافيا عن طريق الدين ، وذلك بترجمة القرآن الى لغتهم حتى يتمكنوا من الاستغناء

(٥٠) البكرى ، ص ١٤٠ - حيث النص على أن الجارية البكر ممن كانت كتب ٢ (ثلاث) حبر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الخمر - وإن كانت الشيب لا تقهر على ذلك .

(٥١) البكرى ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٥٢) انظر المؤلف ، الترك والجهنمات ، التركية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، سنة ١٩٥٦ ، المجلد الخامس ، ص ٨٠ - ٨٢ .

(٥٣) البكرى ، ص ١٣٦ .

( الاستقلال ) عن غيرهم في تعلمهم لقواعد دينهم • وتلك كانت مسألة طموحة ، سابقة لأوانها ، بكل مقاييس ذلك العصر • ولا شك أن إقامة علاقات جيدة بين ملك برغواطة في منتصف القرن الـ ١٠م ، كان يعنى تدعيم الدولة الأموية الأندلسية ، بما لها من سلطان وجاه في المغرب ، لدولة برغواطة التامسنية ، والاعتراف بشرعيتها الإسلامية • وبناء على هذه المقدمات يكون الغزو المرابطي لتامسنا وقبائل برغواطة باسم تجديده الإسلام هناك ليس إلا محاولة جديدة ذات أهداف سياسية ، تماما كما سيكون الحال بعد ذلك ، على عهد الموحدين •

#### ضم تامسنا لدولة الرباط :

وهكذا تقف المرابطون وعلى رأسهم ابن ياسين لغزو تامسنا ، واستقاط حكومتها البرغواطية ( المخراوية ) ، وهم يرفعون شعارات تجديده الإسلام ، تماما كما فعلوا في الصحراء ، وبما تم غزوه من بلاد المغرب • ولنا فيما يقرره البكرى في نهاية تصريفه بأحوال تامسنا على أيامه ، سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملّة الإسلام » (٥٤) ، سند لقلنا هذا •

والمعلومات عن فتح المرابطين لتامسنا ، بلاد قبائل برغواطة وحلفائها قليلة ، ومضطربة بما يتناسب والمعلومات المختلطة عن تنبؤ ملوكهم ، وزندقة اعتقادهم • والبكرى يركز اهتمامه هناك على استشهاد ابن ياسين الذي أصبح ضريحه مزارا مبهجلا ، يؤمه الناس للتبرك وقضاء الحاجات • وابن الأثير الذي يعتمد على رواية ابن شداد الزيرى الصنهاجي ، يخلط ما بين فتح تامسنا وفتح السوس ، حيث يرى هزيمة المرابطين وقتل ابن ياسين • والنويرى يتبع ابن الأثير في مساره هذا مع اختلافات جزئية في التفاصيل • رغم وحدة المصدر • أما ابن أبي زرع الذي يأخذ برواية البكرى عن المرابطين وعن هرطقة ( زندقة ) برغواطة ، فإنه يحاول عرض معلومات البكرى المتفرقة بطريقة « مبرمجة » ( منظمة ) مع إضافة بعض الشروح من لدنه ، أو محاولة كشف ما قد يكتنف بعضها من غموض • وعن هذا الطريق يقدم ابن أبي زرع رواية بعض التفاصيل منذ تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين ، بالوقت ( الساعة ) واليوم والشهر والسنة ، ويتكلم



عن معارك ضارية ، ولكن دون تحديد مواضعها ، الأمر الذي يشكك في أصل الرواية . وعلى نسق ابن أبي ذرع توجد بعض التفصيلات عند ابن خلدون ولكنها معروضة بشكل منهجي ، وإن كانت غير متكاملة ، على كل حال .

#### معالم حرب تامسنا :

وباستعراض تلك الروايات يمكن تحديد بعض معالم حرب تامسنا المرابطية ، التي تبدأ من أغمات ، قاعدة حملة السوس ، بفضل موقعها الاستراتيجي ، فيما بين السوس وتادلا ، على طول الطريق المؤدى غربا نحو المحيط حيث رباط قوز العامر بالصلحين ، والذي يعتبر ساحل أغمات . وإلى الشمال من ذلك ساحل تادلا حيث مرسى أسفى ، والرأس البيضاء التي تعتبر ساحل تادلا . وإلى الشمال من ذلك فيما بين آزموور ، على مصب أم الربيع والرباط على مصب بور جرج ( أبو الرقراق ) يمتد ساحل تامسنى ، حيث جزيرة فضالة ، ساحل برغواطة . ومن الواضح أن بلاد برغواطة ، سواء في الداخل أو على الساحل ، ليس بها مراكز عمرانية كبيرة ، إنما هي قرى جبلية متناثرة في سفوح الجبال الوعرة ، مما يعني صصانتها ( وصعوبة اجتياحها ) .

وهنا يمكن أن تقسم الحرب المرابطية في تامسنا والتي امتدت حوالي ٣ ( ثلاث ) سنوات ، الى مرحلتين يفصل بينهما مقتل عبد الله بن ياسين . فلا بأس أن تكون المرحلة الأولى أقصر من الثانية بعض الشيء ، حيث كانت وفاة ابن ياسين في جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ / يونيو ١٠٥٩ م . أما المرحلة الثانية فتنتهى قبل صفر ٤٥٢ هـ / مارس ١٠٦٠ م بالعودة الى أغمات ، حسب رواية القرطاس<sup>(٥٥)</sup> ، أو في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م - وهو التاريخ الذي يحدده ابن الأثير خطأ لفتح سجلماسة<sup>(٥٦)</sup> .

والحقيقة أن رواية ابن الأثير هنا ، لا تخلط بين فتح تامسنا وفتح سجلماسة فقط ، بل وبين بلاد السوس بشكل عام أيضا ، فكان شمال المغرب الأقصى ( بلاد جبال درن ) يمثل وحدة اقليمية واحدة ، أو بالأحرى وحدة سياسية اقتصادية ، حيث كانت السيادة للزناتية من يفرن و غيرهم

(٥٥) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ .

(٥٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ ، وقارن النويري ، أبو غيث ، ص ٢٨١ - حيث عدم

وجود التاريخ رغم الاشتراك في نفس المصدر .

وتمتد المنطقة اعتبارا من وادي درعة وسجلماصة في الأقاليم شبه الصحراوية حتى الأقاليم الجبلية المحصنة في السوس وتادلا ، وكذلك برغواطة (تاماسنا) حيث الأسرة الجديدة من اليفريين كانت قد بدأت في حكمها منذ حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، حينا غزاهم الأمير تميم اليفرى بعد سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م - أى قبل ثلاثين سنة من الفتح المرابطى للسوس وتاماسنا(٥٧) :

وهكذا ، وفي الاطار الدينى الاقتصادى سارت حرب « المطاولة » ، التى تفرق بين عهدين حسب اصطلاح ابن خلدون ، بين الدولة المرابطية الناشئة ودولة زناتة الفاربة ، صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، يوضع فتح تامسنا فى اطار هجرة أهل الصحراء من بلادهم عندما قحطت بلادهم ، وضاعت بهم فى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م (٥٨) . وينفرد ابن أبى زرع بالحديث عن تقدم ابن ياسين ورجاله تسبقهم دعاية واسعة عن هدفهم النبيل ، من القضاء على هرطقة برغواطة الجاهلية ، وتجديد الاسلام فى تلك البلاد ، ووجوب تقديم جهادهم على غيرهم(٥٩) .

#### مولعة كريفلة ومقتل عبد الله بن ياسين :

ويتم اللقاء الرائع بين ملك تامسنا اليفرى يومئذ ، وبين ابن ياسين ، فى ملامح شديدة هلك فيها الكثير من الجانبين(٦٠) . وكان أشهر أيامها تلك الواقعة التى حدثت فى موضع يعرف بـ « كريفلة » ، فى منطقة الرباط

---

(٥٧) البكرى ، ص ١٤٩ - حيث النص على أنه لم تزل برغواطة فى بلادها مملنة بدينها . صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرى ، وذلك بعد ٤٢٠ هـ / (٥٨) (مقرين وأربمالة) من الهجرة ، فغلبهم على بلادهم ، وسباهم ، وجلا من بقى واستوطن ديارهم وانقطع أرحم ، وعلا آثارهم ، ولم يبق لصلاتهم باقية ، ولا مني كثرهم أسرة ، هذا مع النص على جد وعدالة الأمير تميم الذي لم يتردد فى « قتل بنيه لاغتصابه جارية من التجار بواى » سلا » ، وكذلك على أن « جميع بلاد برغواطة م. ( سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ) على حلة الاسلام » - وانظر ما سبق ، ص ٢٢٣ ) .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١ - ٦٢٠ - حيث خرجوا طلبا للزكاة ، كما حدث فى سجلماصة لأول مرة سنة ٤٤٧ هـ ، ( الترطاس ، ١٢٧ ، ١٢٨ ) .

(٥٩) الترطاس ، ص ١٣١ - حيث النص على أن رواية المؤلف ( ابن أبى زرع نفسه ) تبدأ من الفترة الأخيرة الخاصة بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم .

(٦٠) انظر الترطاس ، ص ١٣٢ - حيث الأمير على برغواطة وقتئذ هو : ابن طريف عبد الله بن أبى هيبه محمد بن مقلد ابن اليسع بن صالح بن طريف ، البربرطلى الكتفى ، فكان أباه مخص هذا من نفس أسرة المؤسسين المتهمين بالكنيسة ، وهو الأمر غير المصحح كونه سبقت الإشارة .

( العاصمة ) ، في نهار الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ / ٩ يولية ١٠٥٩ م ، حيث قتل عبد الله بن ياسين ، الذي أصبح قبره مزارا يحج اليه كثير من أهل المغرب (١٩) \* ومن المهم هنا ، الإشارة الى مقتل عبد الله ابن ياسين في حيز الرباط ( العاصمة المغربية ) يعنى أن ابن ياسين كان قد اجتاح معام مملكة برغواطة من تخوم تادلا الى نهاية تامسنا ، أى من وادى أم الربيع جيوبا الى وادى بور جورج شمالا ، فكانه لم يعد هناك حائل بين المرابطين وبين الأندلس ، أرض الجهاد حقا وموطن الرباط .

#### وصية عبد الله بن ياسين واتخاذ منظر بديل :

وتأخذ نهاية عبد الله بن ياسين في رواية القرطاس شكلا قصصيا مؤثرا ، يعبر عن دقة أوضاع عصره على أواخر أيام الموحدين . فابن ياسين هو مهدى المرابطين ، فكانه النموذج الذى اقتدى به ابن تومرت فيما بعد . وهو لا يموت في التو واللحظة في ميدان الممركة ، بل يدرك وفيه رفق ، فلا يفادر الدنيا قبل أن يترك وصيته في جماعة المرابطين ، مثله مثل عظام الرجال من القادة والآباء . وبصرف النظر عن صحة تلك الوصية أم وضعها فمن الواضح أنها تعبر عن آمال الحركة المرابطية في أوائل عهدها وطموحاتها الدينية والسياسية ، فهي بمثابة دستوره أو برنامجها التأسيسي . فهو يحرض المرابطين على الوحدة فيما بينهم في أرض الأعداء ، ويدعوهم الى التمسك بمبادئ أهل الحق ، والتحذير من المخالفة ، أو التحاسد فى سبيل الزعامة وأخيرا يدعو ابن ياسين الى انتخاب رئيس بدلا عنه يقوم بالأمر ويقود الجيش ويجمع الأموال ، ويقسم الفى (١٢) . وهذا ما يقرر حدوده ابن خلدون - دون غيره - اذ ينص على ان جماعة المرابطين اختاروا بعد ابن ياسين أحد فقهاءهم ، وهو سليمان بن عدوا ، ليرجموا اليه فى قضايا دينهم ، وأنه هلك فى السنة التالية ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م (١٣) ، فكانها دعوة الى

(١١) انظر البكري ، ص ١٦٨ - حيث يوجد على قبره مشهد مقصود ، ورابطة مسمورة . وقارن ابن أبي زرع ، ص ١٢٢ - حيث التحديد الدقيق لمقتل ابن ياسين ، وه ٧٩ - حيث النص على انه ما زال شريح عبد الله بن ياسين مرفوفا ، مزارا بكريلفة ، من أرض قبيلة زهير بحوز الرباط . وقارن ترتيب المداويك للقاضي عياض ، ط - بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٢ - حيث استشهد في تامسنا سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

(١٢) انظر القرطاس ، ص ١٢٢ .

(١٣) السير ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث الاسم سليمان بن حرو ، وابن عروا ، والتصحيح من الترجمة ج ١ ص ٧١ ، وإن وفاته فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م التى عدلناها الى سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠ م فى السنة التالية على وفاة ابن ياسين .

التمسك بالقيادة الثانية من الفقيه المشرع ، والأمير المنفذ ، بمعنى عدم انفراد أبي بكر بن عمر بالسلطة ، الأمر الذي يشكك في صحة الوصية . وقد تكون قرينة ذلك ، ما تنص عليه الرواية بعد ذلك من أن جماعة المرابطين اختارت الأمير أبا بكر بن عمر للمتولى قائدًا للجيش ، مع التركيز على أهليته وشرف محتلة ونبله من جهتي الأب والأم جميعاً(٦٤) .

### الثار لقتل الفقيه وكسر آخر معادل المقاومة البرغواطية :

ويفهم من رواية ابن الأثير أن المرحلة الثانية من حرب برغواطة بدأت فعلاً بانفراد أبي بكر بالقيادة ونجاحه في لم شمل المهزمين في كريفلة من الرجال ، وأنه خرج على رأس ٢٠٠٠ ( ألفي ) فارس ( راكب ) منهم ، يواجه جحافل الخصوم الذين بلغ عددهم ١٢٠٠٠ ( اثنى عشر ألف ) فارس من برغواطة ومن زناتة . وبفضل الثبات والصبر هذه المرة ، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وغنمت أموالهم التي قسمت بين المرابطين . وانتهت المعركة الفاصلة بقتل ملك برغواطة ودخول المرابطين مدينته ، وذلك في ( أوائل ) سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م (٦٥) .

وهنا تقول الرواية ان المرابطين كانوا قد طلبوا من برغواطة التنحي لهم عن الطريق الى الأندلس ، فكان تاملنا كانت محطة أخيرة في طريق المرابطين الى الجهاد في الأندلس ، منذ ذلك الوقت المبكر . وهذا يعني إخضاع برغواطة والقضاء على ما كان لديهم من الميول الانفصالية . وهو ما يعبر عنه بتفرقهم في الصحراء وإذعانهم لدولة الأمير أبي بكر بن عمر ، وأنهم أسلموا إسلاماً جديداً(٦٦) .

---

(٦٤) القرطاس ، ص ١٣٢ ، وكذلك ص ١٣٣ - حيث النص على أن أبا بكر من جماعة بني ردتانلق البيلة ، وأن أمه حرة جهالية اسمها صفية ، وأن أول اتصاله بمد أن آلت إليه السلطة هو دفن عبد الله بن ياسين .

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث اعتبار تاملنا من بلاد السوس وزناتة - مما سبق الإشارة إليه - وقارن النويري ، أبو ضيف ٣٨١ ، حسن نصار ج ٢٤ ص ٢٦٠ .

والقرطاس ، ص ١٣٣ - حيث يلهم ان العمليات العسكرية كانت قد انتهت قبل دخول سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦٠ م التي كانت فيها العودة الى الغيات ، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الأحوال ، الأمر الذي يرجح توقيت ابن الأثير الذي أخذنا به .

(٦٦) القرطاس ، ١٣٣ - حيث النص أيضاً على أنه لم يبق أثر لديانتهم الى اليوم ، وإن ما بكر جمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين .

والحقيقة أنه اذا كانت الروايات تتحدث عن القضاء تماما على اتجاهات برغواطة الانفصالية في آنفا وتامسنا والساحل الغربي(٦٧) ، وان المرابطين بدأوا يطالبون بفتح الطريق أمامهم الى الأندلس ، فان الوقت ما زال مبكرا للتفكير في مثل هذا التمدد ، بعيدا فيما وراء الزقاق . وذلك ان سواحل المغرب الأقصى في السوس الأدنى ( وادي سبو ومنطقة فاس ) ، وفي مرات تازا الى جانب بلاد الريف وسواحل المغرب الأوسط في وهران وتلمسان - فضلا عن سبتة وطنجة ، قمة بر العدة في مواجهة جبل طارق والجزيرة الخضراء - كانت بعد بعيدا عن قواعد المرابطين .

وهكذا كان على أبي بكر بن عمر العودة بجيوشه المرابطية في مطلع سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م الى مدينة أغمات التي أصبحت منذ سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م مركز القيادة اللمتونية ، بمعنى العاصمة الجديدة للدولة المرابطية بفضل موقعها المتوسط في منطقة جبال أطلس الغربية الحصينة ، وارضها المعتدلة في السفوح التي تتحكم في منافذ ممرات تلك الجبال ، وبالتالي في تحركات سكانها من قبائل مصمودة . وهكذا ، فابتداء من هذا الوقت بدأت قبائل المصامدة تنضم الى الجيوش المرابطية ، لاختضاع بقية من لم يكن قد دخل في الدعوة من أهل المنطقة ، وما يليها . ومنذ هذا الوقت دخلت في خدمة القوات المرابطية التي كان يقودها أبو بكر بن عمر جماعات عرقية مختلفة من صنهاجة ، وجزولة أهل الصحراء ، ومن قبائل المصامدة(٦٨) سكان جبال درن ، عصبية الدولة الموحدية فيما بعد ، الأمر الذي يعني أن صنهاجة بقيادة لمتونة هي صاحبة الدولة ، وان جزولة أصبحت قبيلة حليفة ، مثلها مثل مصمودة .

واذا كان غزو السوس الأقصى قد أدى الى دخول المصامدة في الجيوش المرابطية ، فان غزو أقاليم أغمات وتادلا وأنفا وتامسنا كان يسمح هو الآخر بدخول جماعات من الزناتية في خدمة القوات المرابطية ، ليس من بين سادة المغرب القدامي من زناتية بنى خزر ، وأبناء موسى بن الى العافية فقط ، بل ومن المنهممين في سجلماسة وتامسنا من زناتية مقراوة وبنى يفرن .

---

(٦٧) البير ، ج ٦ ص ١٨٣ ، الترجمة ج ١ ص ٧١ .

(٦٨) القوطاس ، ص ١٣٤ .



## الفصل الخامس دولة يوسف بن تاشفين

### يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية :

والحقيقة ان فتح الأقاليم المغربية الشمالية ، من السوس الأدنى ، أى أقاليم فاس ومكناس وما والاها من بلاد الريف ، وسواحل المغرب الأوسط الغربية ، وهى أقاليم دولة زناتة حقا ، توجع الى يوسف بن تاشفين الذى رأيناه عابرا لمنطقة تارودانت نحو أغصات ، فى بداية فتح السوس الأقصى - دون أن نسمع له ذكرا بعد ذلك ، الأمر الذى يبرر سكوت البكرى، المعاصر وصاحب أهم وثيقة تاريخية عن تلك الفترة المبكرة من قيام الدولة المرابطية . هكذا ملا عبد الله بن ياسين وخاصة فاجعة استشهاده ، مسرح الأحداث فى جبهة تامسنا ، ومن بعده أبو بكر بن عمر ، بينما كان يوسف بن تاشفين من أبناء عم أبى بكر الأقرين يتم فى صمت فتوح المغرب الشمالية ، وينتزع الأقاليم واحدا بعد آخر - دون اعلان - من بين أيدي الزناتية ليكتمل الشكل الإمبراطورى لجيوش الدولة المرابطية بانخراط العسكر الزناتى فى صفوفها .

وهكذا بينما كان أبو بكر بن عمر ، على رأس قواته المشكلة من صنهاجة وجزولة ومصمودة يثار لقتل عبد الله بن يوسف ، سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م ، ويقضى على جيوب المقاومة فى تامسنا غير بعيد من الرباط ( العاصمة المغربية ) وسلا ، على الساحل الغربى ، كان يوسف بن تاشفين على رأس قوته الصنهاجية أو المرابطية بمعنى اللاتونية ، يفتح باسم الأمير أبى بكر بن عمر تخوم بلاد زناتة فى السوس الأدنى ، من بلاد فااز وجبالها وتوابع بلاد مكناسة ، أو بلاد لواتة - أشد قبائل زناتة بدواة وأقواها بالتالى شكية - بمعنى اجتياح يوسف بن تاشفين بلاد البدو « الشاوية » ( رعاة الشاة ) المتاخمة للمغرب الأقصى ، على سفوح جبال درن ( أطلس ) الصحراوية . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع التى تنص على اجتياح بلاد لواتة ، واقتحام عاصمتها - التى لا تعرف لها اسما مميزا - بعد حصار خانق ، انتهى باستئصال شأفة كثير من أهلها ، من اليفرنين بعد السيف ، فى آخر ربيع الثانى ٤٥٢هـ/ ٢ يونية ١٠٦٠م ، فلم تقم لها

قائمة حتى أيام ابن أبي زرع في مطلع القرن الثامن الهجري (١٤م) ، على عهد المرينيين (٦٩) .

وهنا لا بأس من الإشارة الى أن فتوح أقاليم السوس الأدنى ، شمال وشمال شرق السوس الأقصى ليست واضحة عند الكتاب ، لا على المستوى الجغرافي الذي تختلط فيه المسميات ما بين سجلماسة والسوس وأغمات ، ولا على المستوى التاريخي ( الحول ) للأحداث ، حيث كانت الدولة المغربية وقتئذ لزناطة بأسرها الحاكمة المختلفة ، من : الحزريين الى المرأويين وبني يفرن ، الأمر الذي يمكن أن يفسر الخلط المشار اليه على مستوييه المكاني والزمني . والى جانب هذا يمكن أن يفسر ما ينتاب أحداث تلك الفترة من الغموض على الجانب المرابطي ، من تزامن ظهور شخصية يوسف بن تاشفين بكل رموزها السياسية والدينية مع شخصية أبي بكر بن عمر رجل الدولة القوي ، الأمر الذي كاد يحول النظام المرابطي الثنوي الى نوع من نظام حكم الرجال الثلاث (Triumvirat) الذي عرفته روما قديما (٦٩م) - لولا استشهاد عبد الله بن ياسين في ميدان القتال .

هكذا تظهر فتوح المرابطين التي قام بها يوسف بن تاشفين ، تحت امرة أبي بكر بن عمر فيما وراء السوس الأقصى ، في رواية ابن شداد التي ينقلها كل من ابن الأثير والنويري ، وكأنها حرب مشروعة في دولة زناتة التي توصف بأنها دولة ردية مذمومة ، سيئة السيرة من حيث لا سياسة ولا دين (٧٠) . أما عند ابن أبي زرع الذي حاول ترتيب الأحداث بشكل مقبول على كل حال ، فإن فتوح السوس الأدنى تنسب أولا الى أبي بكر ابن عمر ، ثم الى يوسف بن تاشفين بأمر من أبي بكر (٧١) ، وذلك قبل

---

(٦٩) القرطاس ، ص ١٣٤ . وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ - حيث فتح لواته على يد أبي بكر بن عمر قبل رحيله .

(٦٩م) هو النظام الذي اتفق فيه كل من قيصر ويومى وكراسوس في روما ضد مجلس السناتور ( الشيوخ ) ، والذي يشبهه البعض بما حدث في خلافة أبي بكر يوم السقيفة ، الأمر الذي يشير اليه فيليب حتى بالنص على أنه « لعل مبايعة أبي بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح - الكتلة الثلاثية التي ادارت شئون الاسلام وهو بعد في مهده » - تاريخ العرب المطول ، ط ١٩٦٥ ج ١ ص ١٩١ .

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٤٢ . وقارن التويري ، أبو ضيف ، ص ٢٨٢ ، حسن نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٢ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث فتوح فازاز ، ومكناسة ، ولواته .



عرضها بشكل تفصيل - وإن شابه التعميم ، تحت عنوان دولة يوسف ابن تاشفين بصرف النظر عما إذا كان يوسف بن تاشفين أميرا ( قائدا ) للجيش ، أم أميرا ( رئيسا ) للمسلمين (٧٢) - وهنا نشير الى أهمية حوليات ابن عذارى الخاصة بتاريخ المرابطين في المغرب والأندلس (٧٣) في امكانية إعادة شيء من الترتيب في مسار تلك الأحداث رغم اختلاطها هي الأخرى .

### دور أبي بكر بن عمر في فتح المغرب قبل الرحيل :

والأمر المستغرب حقا ، هو القموض الخاص بترك الأمير أبي بكر بن عمر لمسرح الأحداث في المغرب والمسير الى الصحراء ، لتسوية ما كان قد قام بين قبائل اللمحين هناك من النزاع على حدود بلاد السودان . والأمر لا يتعلق فقط بالطابع القصصى للرواية التي تأخذ شكل واحدة من مؤامرات الحريم في القصر الملكي ، بل الأهم من ذلك هو التحديد الزمني - أصل التاريخ ومادته الأولى - لذلك الحدث المحوري بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، فهو بمثابة موقعة حاسمة من مواقع التاريخ المصيرية بالنسبة للدولة المرابطية ، اذ يفصل بين عهدين ، أولهما تاريخي بالنسبة لدولة الرباط الدينية الطابع ، وثانيهما مستقبلي بالنسبة لدولة لمتونة ( التاشفينية ) المدنية السعة ، مما نشير اليه فيما بعد ( ص ٤٢٨ ) .

فهناك عدد من الأحداث التاريخية الكبرى مما يتعلق مباشرة بترك الأمير أبي بكر قيادة المغرب **وأولها** : العهد بالإمارة الى يوسف بن تاشفين قريبه ، **وثانيها** : بناء مدينة مراكش وهل تم بمعرفة أبي بكر أم يوسف ، واتخاذها عاصمة للدولة بدلا من أغمت ، **وثالثها** : استكمال فتوح المغرب بفتح فاس والسوس الأدنى ، وسواحل المغرب الأوسط المواجهة للأندلس ، الى جانب السيطرة على عدوة سبتة وطنجة ، بوابة الدخول الى اشبيلية وقرطبة .

(٧٢) القوطاس ، ص ١٢٨ .

(٧٣) وهي التي يرجع الفضل في التعريف بها الى بروفنسال وويشي ، والتي نشرها

امسان عباس كجزء رابع لبيان ابن عذارى - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ .

### من توقيت رحيل أبي بكر الى توقيت فتح المغرب :

وفيما يتعلق برحيل أبي بكر الى الصحراء وعهده بإدارة المغرب لـيوسف بعده ، نفتقد توقيت هذا الحدث في كل ما وصلنا من روايات الكتاب ، من البكري وحتى ابن خلدون ، فلا يبقى لنا الا محاولة الاستنباط عن طريق مقارنة ما لدينا من أحداث تقترب أو تباعد عن تاريخ استقلال يوسف بن تاشفين بالمغرب . وفي هذا المجال ليس لدينا - الا مجموعتين من التواريخ ، احدهما ترجع الى ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس والأخرى تتمثل في حواشي بيان ابن عذارى التي تمثل سلسلة فقرات العمود المحوري في هيكل التاريخ المغربي - الى جانب بعض التواريخ المتناثرة في المصادر الأخرى ، مثل : تاريخ بناء مدينة مراكش الذي يتراوح ما بين عهدي كل من أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين .

### من مناقب الرجال الثلاث :

والتواريخ التي يقدمها ابن أبي زرع لفتح بقية بلاد المغرب خارج السوس الأقصى ، مثل : فازاز وبلاد زناته ومكناسة ، ولوانة في سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م على يد أبي بكر ، قبل سفره (ص ١٣٤) ، وكذلك فتح بلاد ملوية في المغرب الأوسط على يد يوسف سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (ص ١٣٨) لا يمكن قبولها ، من حيث أنها تعني اكتمال فتح بلاد المغرب في وقت كان القتال لا يزال دائرا في أنفا وتامسنا ، كما أنها تسمح لابن أبي زرع صاحبها ، بالقول : ان يوسف بن تاشفين كان قد تقوى أمره وكبر صيته في سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، حيث بنى مدينة مراكش ، وان مدينة فاس (عاصمة الشمال) وضواحيها كانت قد فتحت ، بعد ذلك ، فيما بين سنتي ٤٥٤هـ/١٠٦٢م و٤٥٥هـ/١٠٦٣م ، الأمر الذي يصعب تبريره اقليميا وزمنا . والقرينة على ذلك ان رواية صاحب القرطاس نفسه ، تعود هنا الى تكرار ما بدأت به أولا من فتوح لوانة ومكناسة ومقراوة مع فتوح فاس (ص ١٣٨ - ١٤٠) .

ونحن لا نرفض قصة فتوح بلاد السوس الأدنى ، وأقاليم ملوية في المغرب الأوسط كوقائع تاريخية رغم ما قد يعتريها من خلط أو لبس ، ولكننا لا نقبل مواقيت فتحها المقترحة ، من حيث تركيزها في سنتين أو ثلاث سنوات ، مرتبطة في وقت مبكر بفتح أقاليم السوس الأقصى وتامسنا . فمن الواضح ان صاحب تاريخ المغرب وأخبار مدينة فاس أراد أن ينسب الى عبد الله بن ياسين ، وأبي بكر بن عمر ، ويوسف تاشفين ، أعمالا عسكرية

ديموميين - فى دراسته لنص العبرى عما اذا كان هناك أمل فى العثور على بقايا لدار الخلافة بملحقاتها ، من : دار البلور ، ودار الريحان ، ودار المساء . اما عن الدراسة التى قام بها هنرى باسييه وهـ\* تراس عن جامع الكتبتية ، والتى تصحبها صور توضيحية رائعة ، فهى تحوى فضلا عن ذلك ، رسفا لجامع القصبة ، وهو جامع المتصور . وهى الدراسة التى أعدها للنشر هـ\* تراس بما تستحقه من عناية وتبجيل ( لباسيه ) تحت عنوان : معابد وقلاع موحدية (٩٨) .

والهمم بعد ذلك أو قبله ان الكتاب من مفارقة ومشاركة لم يهتموا الا بالأعمال الانشائية التى تمت فى بناء مراكش ( وكذلك ما صاحبها من الفتوح ) فى سنواتها الأولى فقط - بصرف النظر عما يمتريها من خلط فى التوثيق او فى المضمون - منذ فتح أغصان والسنوس حتى انفراد يوسف بن تاشفين بالولاية ، وهى الفترة التى يركزون فيها معظم الانجازات الكبيرة فيما لا يزيد عن بضع سنوات باستثناء ابن عذارى الذى مدهدا الى ما يناهز ٢٠ (عشرين) سنة ، وهو ما رجحناه واخذنا به .

والذى يلفت النظر ان هؤلاء الكتاب لم يهتموا بما ينبغى أن يكون قد قام به يوسف بن تاشفين من أعمال عمرانية فى مدينة مراكش ، بشكل مباشر أو عن طريق عماله ومعاونيه ، فالوقت كان ما زال مبكرا بالنسبة لحكم يوسف بن تاشفين الذى امتد الى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م بمعنى مزيد من العمل الحضارى على مدى ٤٠ ( أربعين ) سنة ، وخاصة فى العاصمة مراكش ، قاعدة جيوش المرابطين العاملة ما بين المغرب وإفريقيا (السوداء) والأندلس . حقيقة ان الكتاب لا يهتمون الا بأعمال يوسف بن تاشفين الحربية مثل غيره من أبطال الفتوح الاسلامية ، وخاصة فى الأندلس ، أرض الرباط الحقيقى ، والأعمال الحربية الناجحة على وجه الخصوص . ولكن الأندلس كانت ملهمة للمرابطين أيضا فى مجالات الحضارة المختلفة ، وبخاصة فى مجالات العمارة والبناء والزخرفة - رموز الحضارة المادية الملموسة .

---

(٩٨) انظر Sanctuaires et Forteress Almohades من ١٠٣ وما بعدها ، وانظر لارجية ج\* ديموميين للعصرى ص ١٧٩ وهـ\* - حيث نشر العمل باسم كل من هنرى باسييه ، هـ\* تراس فى مجلة سبيرييس عدد ١٩٢٤ - ص ١٨١ ، وعدد ١٩٢٥ - ص ٣١١ ، وتم بالتفصيلين ٢ ، ٣ لسنة ١٩٢٦ .

وهكذا نرى انه ما زال أمام الكتاب والباحثين ، على مستوياتهم النظرية والعملية ، الكثير من العمل في سبيل الكشف عن أعمال المرابطين الحضارية والعمرانية ، على عهد يوسف بن تاشفين ، في مدينتهم مراكش العاصمة ، على وجه الخصوص ، على مدى حوالى أربعين سنة ، هي مدة حكم العاهل المرابطي - رمز دولة العباد المجاهدين التي قامت على أفكار حضارية قبل أن تكون أفكارا جهادية ، والفكرة تسبق الوجود ، كما يقال على كل حال .

## يوسف بن تاشفين امرا لدولة العباد المرابطين :

### الرجل :

#### نسبه وصفاته :

ينتسب يوسف بن تاشفين الى العروق النبيلة من احرار بنى ورتانطق الملتونيين \* فنجدته هو ابراهيم بن ترقوت ( ترجوت ) بن ورتانطق (١) وهو شريف ايضا من ناحية أمه الحرة : فاطمة بنت عم أبيه (٢) \*

اما عن اول صفاته ( التاريخية ) التي تهنا ، فهي أنه كان يبلغ من العمر حوالي ٦٣ ( ثلاث وستين ) سنة عندما ولى أمر المغرب ، بعد رحيل أبي بكر بن عمر ، فكان تجاربه الحياتية وقتئذ كانت تشغل العمر الافتراضى كاملا للانسان العادى ، وكان تجاربه التالية حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، وهو يحتفل بعد ميلاده المئوى ، اضافة تجريبية فى الحكم والادارة ، تميزه عن غيره من سائر رجال الدولة \* فمثل هذا ما نراه عند الماوردى وهو يقرر أن كمال العلم لا يتم الا اذا قدر الله للطالب طول العمر (٣) الأمر الذى يعنى أن طول العمر يعتبر بعدا رابعا فى قياسات الانسان ( النموذج ) السوى \*

وفىما يتعلق بصفات يوسف بن تاشفين الجسمية ، ينفرد ابن أبى زرع بتقديم طائفة من الصفات المميزة ، التى لا نعرف نظيرها لدى غيره من كبار رجال الدولة المرابطية - وإن لم يعرفنا بأصل مصدرها ، وبالتالى فلا نتأكد من حقيقة كونها \* فيوسف ذو بشرة سمراء نقية اللون ، الأمر الذى يعنى

---

(١) انظر القوطاس ، ص ١٣٦ - حيث سلسلة النسب الى الجد العاشر ، وهو الجد الاسطورى - تلميت الحيرى الصنهاجى من ولد عبد شمس بن وائل بن حير ، وفارن ابن عذارى ص ١٧ ، ١٨ - حيث النص على أن جدته هو ابراهيم بد ترجوت أو ( نوريت ) ابن وتاسن ( بدلا من ورتانطق ) ، مع المقابلة مع نص الحلل المشوية ه ١ ص ١٧ - حيث : تورقبت بن ورتانطق \* وانظر ما سبق ( من ورتانطق ) ، ص ٧٠ هـ ٣٤ \*

(٢) القوطاس ، ص ١٣٦ - حيث اسمها : فاطمة بنت سيرين بن يحيى بن وياج بن ورتانطق \*

(٣) الماوردى ، ادب الدنيا والدين ، ص ٤٥ \*

نسبة لا بأس بها من العلماء السوداء التي تجرى في عروقه (٤) . وهو بعد ذلك معتدل القامة ، نحيف الجسم ، بمعنى : الرقة وخفة الحركة ، وهو ما يتجلى أيضا ، في : رقة الصوت وخفة شعر المارضين ( الصدين ) . أما شعر رأسه الجعد فينسدل الى شحمة الأذنين ، بينما تميز حاجباه باقترانهما معا (٥) .

#### معاشه :

اما عن طعامه وشرايه فهو الذي اعتاد عليه أهل الصحراء ، مما لا يزيد عما يتبلغ به من القوت الضروري ، من : خبز الشعير والأذرة ، ولحوم الابل والبانها ، لا يتركها ، الى غيرها طوال حياته ، في بوادي افريقية أو في حواضر الأندلس . وكذلك الأمر بالنسبة للاسبه فقد كان يوسف يكتفي بارتداء ثياب الصوف الخشنه - ملابس الصوفية العباد - لا يزيد عليها مع الاحتزام في اوقات العمل .

اما عن صفاته المعنوية وأخلاقه ، وهي التي هيأته لتقلد سدة الحكم والرياسة فتتمثل في قوة التدين ، وكرم الأخلاق ( الفضل ) ، وأورع والعدل ، والشجاعة والنجدة ، وسداد الرأي والحزم ، وأخيرا يمن النقيبة أو سعادة الطالع ، مع شيء من الحبث أو اللؤم الذي يجعل الوسيلة مبررا مقبولا للوصول الى الغاية المنشودة (٦) .

---

(٤) القرطاس ، ص ١٣٦ ، وقارن ابن علوي ، ج ٤ ص ١٧ - حيث النص على أنه قريبه : ابراهيم بن أبي بكر بد عمر ، لا تعرف أمه ، وأنه كان أسود المجلدة ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمواطن فتوة الجنوبية حيث العلاقات الوثيقة مع بلاد السودان .

(٥) القرطاس ، ص ١٣٦ .

(٦) أنظر القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث عرشت هذه التساائل على أنها مؤهلات يوسف ابن تاشفين التي حققت اجماع المرايين على تقديمه للرياسة ، وأنظر أيضا ، ص ١٣٦ - حيث النص بمد صفاته التي تضمنت أعلاه ، على أنه : بطل ، نجدة ، شجاع ، حازم ، مهيب ، ضابط الملك ، متفقد لأحوال وعسسته ، جواد ، كريم ، زاهد في الدنيا - وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث يوسف يوسف بن تاشفين بأنه : دين ، خير ، حازم ، ذاهبة ، مجرب ، النويري ، أبو خفيف ، ص ١٩٠ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - حيث النص بمناسبة وفاته على أنه كان ديناً حازماً ، مستوما ، ذا دهاء ، إلا أنه أبان عن لؤم لا اعتقله المعتد بن عباد بالغمات ، فإنه لم يجر عليه ما يقوم به حتى كان بنسائه يفرلن بالأجر للناس ... إلخ .

وهكذا يمكن القول أن يوسف بن تاشفين كان في عنفوان الجلفات الوسطى من عمره المديد ، عندما آلت إليه إمارة الصحراء وبلاد المغرب الساحلية ( الأطلسية ) ، وهو في سن الثالثة والستين ، وأنه كان مسلحا بمجموعة من القوى الروحية والعقلية والأخلاقية اللازمة في أمور الحكم والحرب والإدارة الى جانب سلسلة تجاربه في ميدان الحرب والسياسة التي كانت تمكنه من الهداية في طريق أهدافه المقصودة .

#### يوسف بن تاشفين نائبا لولاية المغرب :

ترتبط ولاية يوسف بن تاشفين الأولى ، سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م بخمسة أحداث مهمة ، تعتبر علامات مميزة في حياة الرجل . أولها : استكمال بناء قصبة مراکش القديمة التي كان يشرف عليها الأمير أبو بكر بن عمر ، وثانيها زواجه من زينب النفزاوية ( طليقة أبي بكر ) مما سبقت الإشارة إليه ( ص ٢٣٨ ) . أما الحدث الثالث وهو أخطرها من حيث أهميته بالنسبة لمسير كل من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربي ، فيتمثل في مسير أبي بكر بن عمر لمواصلة الجهاد في بلاد السودان فيما وراء الصحراء . والانجاز الرابع يتلخص في استكمال فتوح المغرب الزناتى في بلاد فاس ومكناس والريف ، وبلاد ملوية وتلمسان في المغرب الأوسط ، كتمهيد طبيعى لضم الأندلس - وهو الحدث الخامس - الى دولة صنهاجة الصحراوية السودانية ، التي تحولت الى مشروع امبراطورية اسلامية اتحادية ، أشبه ما تكون بدولة الخلافة الشرقية ، من حيث البنية الثقافية السنية السلفية - وهو الهدف النهائى للحركة المرابطية ، كما نظن .

ومجمل تلك الأحداث يعنى انجازات العهد اليوسفى التاشفينى خلال الـ ٣٨ ( ثمانية وثلاثين ) سنة ، التي تمثل عهدا لا نظير له في تاريخ ملوك الاسلام - ربما باستثناء محمود الغزنوى فاتح الهند - من حيث الحركة الدائبة ، والنشاط الذى لا يعرف السكون - فكان الماهل المرابطى من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم المصاعب الا توهجا وحامسا .

#### المهد الى يوسف بالولاية :

بينما كان أبو بكر بن عمر يشرف على بناء قصبة مراکش ( سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ م ) ، اذ وصل رسول من لندن زعماء لتوننة بجنوب الصحراء ، يخبرونه بما كان قد قام من الفتنة بين جدالة ولتوننة - بسبب التنافس على أرض السودان ، والعمل على نشر الاسلام بين أهلها كما يظهر

- وأن بنى جلدته من اللمتونيين يطلبون العون لوضع حد لاعتداءات الجذالبيين على ديارهم وعليهم (٧) \*

فما كان من أبي بكر - الذي استعظم الخطب - إلا أن يعقد مؤتمرا لشيوخ لمتونة ووجهائها - وأن يعرض عليهم ما رآه من المسير لنجدة اخوانهم في الجنوب ، والأخذ بئارهم ، ويطلب منهم بالتالي النظر فيمن يروونه أهلا لشغل الولاية نيابة عنه أثناء مفيبه هذا . ولم تكن مسألة اختيار أمير بصفة مؤقتة ، أمرا سهلا بالنسبة لمجمع حكماء لمتونة ، اذ اختلفوا فيما بينهم ، وعندئذ انتهى الأمر بأن قرر الأمير أبو بكر أن يكون نفسه ، صاحب القرار الأخير في اختيار الرجل الذي يخلفه في الولاية . وبعد الاستشارة رأى أن قريبه يوسف بن تاشفين ، قائده جبهة حرب المغرب ، هو أصليح من يقوم بالأمر خلفا له ، ولا بأس أن يكون ابن تاشفين قد قدم الى مراكش الناشئة ، بناء على دعوة من أبي بكر أو أن يكون قد حضر عندما بلغته أخبار اختلاف المشايخ من أهل الحل والعقد حول خليفة الأمير أبي بكر المنتظر ، بل ولا بأس أن يكون يوسف قد فرض نفسه على هلا لمتونة من حيث انه كان الرجل القوي وقتئذ . فهذا ما يمكن أن يفهم من الرواية ذات الطابع القصصي عندما تتحدث عن الاستشارة وعن الهاتف الذي صدم أبا بكر فأنساه التفكير في يوسف وحضور هذا الأخير من الجبهة ليقول لأبي بكر : « أنا أكون خليفتك ان شاء الله - عز وجل » (٨) \*

---

(٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٠ - حيث النص على انه وقف على أبي بكر رجل راكم على فرس ، اشمت الراس ، وقال له « أيد الله الأمير . ان جدالة اغارت على اخوتك فغلوا الرجال وسلبوا الأموال وهزمهم » ، فما كان من أبي بكر إلا أن اسرجع ( فقال : انا لله وانا اليه راجعون ) \*

(٨) انظر ابن عذاري ، ج ٤ ، ص ٢٠ - ٢١ - حيث تأخذ الرواية شكل قصص شعبي ( فلكلور ) يتفق مع طبيعة الحركة المرابطية ، من حيث علاقتها بالتصوف الجهادي ، وما وصف به كل من أبي بكر ويوسف بن تاشفين من التدين والزهد والمباينة ، وخاصة يوسف الذي اتخذ في قصصنا التاريخي شكل الماسيد المجاهد أو حتى الولي المستجاب الدعاء . وهكذا تقول الرواية ان أبا بكر دعا الله أن يسمى له رجلا يستخلفه ... ومع ان الله أنشأ ذكر يوسف بن تاشفين ، فان هذا الأخير وصل من جهة المغرب ( فكانه قد سمع ذلك الهاتف ) لقول لأبي بكر ... « أنا أكون خليفتك انشاء الله - عز وجل » ، ويرد أبو بكر بالقبول : « صدقت يا يوسف ، أنت والله خليفتي » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث الاشارة الى ان رسول بلاد القبيلة قدم على أبي بكر بعد ٣ سنوات ( اشهر في الأصل ) من زواجه بزينة بنت اسحاق ليخبره باختلال الصحراء ، وان الأمير الصالح الورع لم يستحل =



### شروط الاتفاق على النيابة :

وسواء كان أبو بكر هو الذى عين ابن تاشفين خلفا له بمحض رغبته دون موافقة أشياخ لتونة الحكماء ، أو كان يوسف هو الذى فرض نفسه بصفته الرجل القوى فى هذا الوقت العصيب ، سواء بسبب الخلافات الداخلية بين القبائل ، أو المواجهات الحربية مع ملوك زناته فى أقطار المغرب التى لم تكن قد فتحت بعد ، أو بلاد السودان ، مجال نشر الاسلام الصحيح ، أول أهداف حركة الرباط ، فقد كان من الضروري القيام بتسوية سياسية تحقق المصلحة العامة على مستويات العلاقات الداخلية والخارجية . والحقيقة أن التسوية فى مثل هذه الحالة كانت تلتخص فى وصية ولى الأمر ، أى الأمير ، وهى التى عادة ما تتضمن ما يكون متفقا عليه بشكل عام بين المشايخ من زعماء القبائل أو الجماعات . والنموذج لذلك وصية عبد الله بن ياسين ، الذى أصيب فى ميدان المعركة ، ومع ذلك فلم يمت الا بعد وقت من النهار ، كان قادرا فيه على املاء وصيته التى عبرت عن مجموعة من القواعد الدينية السياسية والأفكار ، مما يمكن اعتباره بمثابة دستور لدولة الرباط ( ما سبق ، ص ٢٢٩ ) .

### تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة :

ونقصد بتركة الأمير الخاصة محتويات داره التى عادة ما تؤول لزوجته أم البنين . ولكننا هنا بصدد مجتمع « أموى » لا يعرف تعدد الزوجات الا فى أضيق الحدود ، إذ السيادة فيه للمرأة ( ما سبق ، ص ) . وفى بيت الأمير أبى بكر كان الأمر والنهى لزوجته ( الست ) زينب النفزاوية وهى التى تواصلت هيمنتها على الأمراء ، منذ ما قبل الحكومة الزناتية السابقة فى أغمات ( ما سبق ، ص ٣٢٨ ) . وفى هذا السياق يمكن أن نفهم أن الأمير أبى بكر عندما أخبر يوسف بن تاشفين بأنه سوف يطلق زوجته الرقيقة ، المشهورة الى جانب الجمال بالفهم والرأى والحزم ، ونصحته بفوائد الزواج منها ، إنما كان يقصد ، الى جانب استمتاع خليفته بجمال

---

« قتال المسلمين وسفك دمائهم ، فسار الى الصحراء ليصلح احوالها ، ويقم بها ليجاهد الكفار من السودان ، وابن خلدون ، المبر ، ج ٦ ص ١٩٨٤ - حيث النص على ان الخلاف كان بين لتونة ومسونة ( بدلا من جدالة ) أهل الصحراء ، حيث أعيانهم ووشائج أعرافهم ، ونسج عدوم ، فغشى التوافق الكلية ، وانتظام الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة ، وأكد ذلك فارتحل إلى بكر الى الصحراء . »

المرأة ، وسعادة طالعها ، الاستفادة بمواهبها العقلية والنفسية الأخرى : من حيث تكون خير مرشد ضمن للدولة تواصل الاستقرار في سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية المتوازنة (٩) .

### تقسيم الجيش :

#### نصيب يوسف والعمليات العسكرية في المغرب :

ان تقسيم الجيش الرابطى الذى تشير اليه المصادر ، الى جيشين : أحدهما مفرى شمالى بقيادة يوسف بن تاشفين ، هدفه استكمال فتوح المغرب ، والآخر سودانى جنوبى بقيادة أبى بكر للجهاد ونشر الاسلام جنوب الصحراء ، يعنى أن ابن تاشفين كان قد استدعى من الجبهة على عجل للنظر فى هذا التقسيم ، وانه لما حضر بقواته كان الرجل الغرى ، المذهل للحكم فى المغرب بالنيابة .

وهناك روايتان فى كيفية تقسيم الجيش ما بين نصفين لكل من أبى بكر ويوسف ، فكانها قسمة عدل بالتساوى ، وما بين الـ ١/٣ ( الثلث ) والـ ٢/٣ ( الثلثين ) على أساس أن يكون للأمير ضعف ما لثانيه ، وهو الأمر المقبول شكلا : اذا كان المقصود لتونة فقط - من حيث كونهم مددا لأقاربهم كما تنص الرواية (١٠) . والحقيقة انه ليس من المقبول أن يكون أبو بكر قد سار بمعظم الجيش نحو الصحراء ، والا كان المعنى هو الجلاء عن المغرب ، الى

---

(٩) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ - حيث يحيل أبى بكر الى بلاد القبلة ، ووصيته ليوسف بن تاشفين ، ابن عمه ، الذى خرج بصحبته مشيعا ، وتبريفه بأنه يتولى طلاق زينب تبرئة لثمنه ، ونصحه بالزواج منها « فانها امرأة مسعودة » ، هذا الى جانب رواية أخرى تشير الى ان زينب بما لها من شخصية قوية ، ونظر بعيد - هي التى طلبت الطلاق وقارن النورى ، أبو خليف ، ص ٢٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٥ - حيث النص على انه تزوج زينب ( بنت إبراهيم ) بعد ولايته ، وانها كانت حظية عنده وأمره ( أميره عند أبو خليف ) ، وكذلك جميع الملتصقين يتفادون لأمر نصاتهم ، ولا يسمون الرجل الا بأبه فيقولون لادن ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان ، القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن أبو بكر لما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زينب ، وقال لها : « يا زينب انك ذات حسن وجمال فاتق ، وانى سائر الى الصحراء برسم الجهاد لعل أرزق بالشهادة ... وانت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء ، وانى مطلقك ، فان أتممت عدتك فتزوجى ابن عمى يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتى على بلاد المغرب » - فكان ثمة علاقة سببية بين ولاية المغرب والولاية على المرابطيين وزواج زينب .

(١٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ .

جانب صعوبات شديدة في الامداد والتموين على طول الطريق الفقير .  
بالاضافة الى أنه عندما يصل الى بلاده لن يكون في حاجة الى الرجال ، اذ  
الهدف هو الاصلاح بين المتنافسين . والوطن هناك ، كما يقول ابن خلدون:  
«أصل أعيانهم ، ووشائج أعراقهم ، ومنيع عديمهم» ( ما سبق ، ص ٢٥١  
بقية هـ ٨ ) ، يستطيع أن يحشد منه من يشاء سواء للجهاد في السودان  
ونشر الاسلام ، أو للعودة الى المغرب اذا عن له ذلك .

وهكذا يكون أبو بكر قد سار على راس الفيلق السوداني ، المكون من  
اللمتوينين دون غيرهم ، في أول ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ / ٦ يناير  
١٠٧١ م (١١) ، من أغمات متجها عبر تادلا وبصحبتة يوسف بن تاشفين ،  
على رأس قواته المغربية الى سجلماسة . وهناك أقام أياما ، ينظر في شئون  
المنطقة ويصلح من شأنه استعدادا للسفر . وعندما أذن وقت الرحيل  
استدعى يوسف ، وفوض اليه أمر المغرب ، وأوصاه بما كان يراه . ويقول  
ابن أبي زرع أنه أمره بالرجوع الى المغرب لمواصلة قتال خصوم المرابطين  
هناك ، من : مفراوة وبني يفرن ، وغيرهم من قبائل البربر المختلفة ومن  
زناتة (١٢) .

### فتوح يوسف بن تاشفين في المغرب :

#### التمهيد للأعمال العسكرية :

باستقلال يوسف بن تاشفين تبدأ مرحلة جديدة من فتوح المرابطين  
في المغرب ، تتميز بأنها تمت بتخطيط أكثر دقة ، وبامكانات أكبر من تلكه  
التي تمت من قبل ، حيث أصبح ليوسف الكلمة الأخيرة في شئون الحرب  
والسلام . وهكذا استأنفت قواته التي كانت تحارب في سنة ٤٦١ هـ /  
١٠٦٨ م بني يفرن في قلعة مهدى على الطريق الى مكناسمة ، نشاطها في  
تلك الجهات ولم يستطع معنصر صاحب فاس الذي حاول الدفاع عن القلعة  
الصمود أمام قوات ، يوسف ، فانسحب الى بلده فاس حيث انتقم ممن

---

(١١) نفس المرجع السابق والصحة .

(١٢) الترتاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على أنه أقام بسجلماسة أياما حتى أصلح  
أحوالها . أما عن رحيل أبي بكر من سجلماسة الى الصحراء فيجدد له شهر ذي القعدة  
سنة ٤٥٣ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٠٦١ م ، وهو التأريخ المتقدم عن الموعد الصحيح الذي  
أخذنا به ، بعشر سنوات ( ما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٣٧ ) .

اتهموا بالتعاون مع المتوطينين فقتلهم ، الأمر الذى أدى وقتئذ الى قيام يوسف بعمل انتقامى من زنااتية سدراته ، الذين اتهموا بمالأة معنصر (١٣) .

وبطبيعة الحال لم تسمح الظروف الطارئة هذه ليوسف بالاندفاع نحو الغزو والفتح ، فضلا عما عرف به الرجل من التدين والورع بمعنى الاتزان والتروى فى اتخاذ القرار ، بل وبما عرف عنه من السياسة والدهاء ، مما وصف به أحيانا من اللؤم أو الخبث ( ما سبق ، ص ٢٤٨ وه ٦ ) .

#### مراكش :

هكذا كانت أمام يوسف مهام أخرى غير حرب المغرب ، ان لم تشغله عن تلك الحرب فقد تطلبت منه بعض الجهد والوقت ، مثل : استكمال بناء العاصمة الجديدة مراكش ، من : التحصينات والصور وأبواب قصر الحجر . وهى الأعمال التى ساهم فيها بنفسه ( ما سبق ، ص ٢٤٣ ) ، والتى شارك فيها معه رجاله المجاهدون ، من غير شك ، كما قدمت له قبائل المنطقة من المصامدة ، المعونات اللازمة ، الأمر الذى كان يوثق الصلة بينه وبينهم ويجب الناس فيه (١٤) . والحقية أن اكتمال بناء مراكش يعتبر من الأعمال المدنية ذات القيمة الاستراتيجية ( العسكرية البعيدة المدى ) ، وهذا ما عرفه قدامى الكتاب لمراكش - بشكل مباشر ( ما سبق ، ص ٢٤٢ والهوامش ) .

#### زينب النفزاوية :

ومثل هذا يقال عن تمام زواج يوسف بزينب النفزاوية ، الذى تم بعد ٣ ( ثلاثة ) أشهر من رحيل الأمير أبى بكر ، أى بمسء أن استكملت زينب عدتها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ /مايه ١٠٧١ م . وهنا تقول رواية ابن عذارى ان كلا من يوسف وزينب « سر بالآخر » وأن السيدة البعيدة النظر « أخبرته أنه يملك المغرب كله » ، فكانت صاحبة الفضل ، ليس فى بسط آماله فقط ، بل وفى امداده بالأموال التى مكنته من أن يجلب الخيل الكثيرة حتى صار رجاله فرسانا ، وأن يجمع الجيوش من البربر والحشود من سائر الناس . وهكذا كان لزوجة يوسف الذائمة

(١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٦ .

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

الصيت دور عظيم في تقرير مصيره ، وبالتالي مصير الدولة المرابطية .  
وبذلك يصبح المثل الذي يقول « وراء كل رجل عظيم امرأة » حقا ، وان  
أضافت الرواية امرأة أخرى ، وهي أم يوسف - التي لا نعرف عنها شيئا ،  
كما لا يرد في غير هذا المكان لها ذكر (١٥) .

#### اعمال يوسف بن تاشفين في عهد النيابة :

لم تطل نيابة يوسف بن تاشفين للمغرب الا حوالى فترة سنتين  
تستغرقان سنة ٤٦٤ هـ / ١ - ١٠٧٠ م السابقة ، ثم بعض سنة ٤٦٥ هـ /  
٣ - ١٠٧٢ م التي يعود فيها أبو بكر مدفوعا بالحنين الى بلاد المغرب ،  
والرغبة في شيء من الطبيعة المعتدلة والحياة الناعمة . وخلال تلك الفترة  
كان يوسف بن تاشفين يعمل على توطيد أركان دولته ، ان بالحرب أو  
بالسياسة ، حسبما قضت الظروف .

وأول ما يلفت النظر هو ان يوسف بن تاشفين نجح وهو القائد المحنك  
في اعداد جيش قوى ، يعتمد على سلاح الفرسان من لتونة كقوة ضاربة ،  
وعلى أصناف المقاتلين من مختلف القبائل الحليفة ، من : مدافعين بالحرايب  
الطوال ، ومهاجمين بالنشاب والمزاريق ، أو راشقين بأنواع السهام والنبال ،  
هما يأتي ذكره . هذا ، ولا بأس من الإشارة الى رواية ابن أبي زرع التي  
نجمها في سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م ، التي تقول بشكل عام عن يوسف  
انه « جند الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد » (١٦) .

والأهم من ذلك نجاح يوسف في تدبير ما يلزم لكل ذلك من الأموال -  
مع الاستعانة بمشورة زينب ، زوجته وخير مستشاريه ، التي ظهرت حسبا  
تقضى سلامة الحس في دولته ، واشتهرت بشهرته وتعاظم سلطانه وبالتالي  
كثرة أمواله . وهنا ، اذا كانت بعض النصوص تشير الى اخلاص يوسف  
خلال فترة النيابة هذه للأمير أبي بكر ، ابن عمه الأكبر ، فكان يكتبه بعيدا

---

(١٥) البليسان ، ج ٤ ص ٢٢ ، وقارن الفطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على زواج  
يوسف « بزينب المذكورة » فكانت القائمة بملكه والمديرة لأمره والفاعلة سياستها أكثر بلاد  
المغرب الى أن توفيت ٤٧٤ هـ / ٢ - ١٠٨١ م ( في الأصل : ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م  
التي أصبحت الى ٤٧٤ هـ ) .

(١٦) الفطاس ، ص ١٣٩ - حيث وضع تلك الأحداث في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م  
التي نرى انها متأخرة ١٠ ( عشر ) سنوات عن موضعها الصحيح ، كما سبقت الإشارة  
( ص ٢٥٣ هـ ١٢ ) .

فى جنوبى الصحراء ، ويطلمه أولا بأول على مجريات الأمور ، ويتلقى منه الأوامر (١٧) . فهناك روايات أخرى تشير الى أنه ( يوسف ) كان يكتب بعض اخوانه فى السر من أبى بكر وأن جماعة منهم كانت تصل اليه (١٨) ، وهو الأمر الذى لا تمنع منه أصول السياسة .

### الحرب فى المغرب : تهديد القبائل :

وهكذا كان ابن تاشفين يستطيع ، وهو بعد فى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، التالية لنيابته أن يتحرك بجيش جرار عبر بلاد المغرب ( الأقصى ) الى بلاد وطاط وملوية ، من المغرب الأوسط الى جراوة - حيث دوح القبائل التى دانت جميعا له بالطاعة (١٨) م .

ولا بأس أن يكون هذا الجيش الذى بلغ أكثر من ١٠٠ ( مائة ) ألف فارس من : صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة ( والأغزاز والرمات ) حسب رواية ابن أبى زرع ، هو الذى قصد به يوسف اقليم فاس فى تلك السنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ) وأنه واجه هناك قبائل : زواغه ولمايه ولواته ومصدينه وسدراته ومفيلة وبهلولة ومدبونة وغيرها . ودارت حرب عظيمة انتهت بانتصار قوات يوسف بن تاشفين النظامية على القوات القبلية غير المنظمة . وكانت أكبر خسائر الزناتية تلك التى وقعت فى بعض ضواحي فاس الشمالية ، وحيث انحصر رجال قبيلة صدينه فى مدينتهم ، واقتحمت عليهم القوات المرابطية الموقع الحصين ، وقتلوا فيه ما يزيد على ٤ ( أربعة ) آلاف رجل (١٩) .

هذا ، كما كان يوسف يستطيع فى الشهر الرابع ( ربيع الثانى ) من تلك السنة ( ٤٦٤ هـ / ديسمبر ١٠٧١ - يناير ١٠٧٢ م ) أن يقضى على

---

(١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أنه كان يكتب الأمير أبى بكر بكل ما يصح .

(١٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

(١٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث نقل الرواية أصلا من نظم الجبال لابن القطان .

(١٩) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، التى عدلناها الى ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م كما سبق ، ص ١٦٥ و١٦٦ . وانظر الهامش حيث احتمال أن يكون موضع صدينه فى شمال فاس حيث قبيلة شراكة الحالية ، كما يجوز أن يكون موضع تطوان ، حيث قرية صدينه .

ثورة قامت في جنوب ( قبلة ) سجلماسة بمعرفة جماعات من الزناتية وغيرهم . وكان ذلك على أيدي بعض كتائبه اللمتوتية بقيادة محمد بن إبراهيم اللمتوني الذي قتل الثوار دون رعاية ، وعاد بالكثير من سفانهم (٢٠) .

#### فتح فاس :

ومن صدينة ، التي استكمل بن تاشفين بفتحها السيطرة على أحواز فاس اتجه نحو المدينة نفسها ، حيث ضرب عليها الحصار في آخر سنة ٤٦٤ هـ / أغسطس ١٠٧٢ م ، لمدة ١٠ ( عشرة ) أيام ، اكتفى في نهايتها - على ما نظن - بشراء المدافعين عن فاس رجليه في مقابل تسليم حاكمهم : يكار بن إبراهيم الذي قتله يوسف (٢١) .

ومن الواضح أن رحيل يوسف بن تاشفين كان مجرد خدعة حربية - لم يتورع عن استخدامها في سبيل تحقيق مآربه ، إذ أنه بعد أن سار إلى مدينة صفرو القرية ، ودخلها عنوة ، وتخلص من أمرائها أولاد مسعود المخراوي ، رجع إلى فاس ليضرب عليها الحصار .

وتمكن يوسف من فتح فاس في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / نوفمبر ١٠٧٢ م ، ولم يبق بها إلا أياما قليلة اطمأن خلالها على سير الأمور ، وعهد بالحكم فيها إلى بعض الولاة من لتوتة (٢٢) .

#### ما بين فتح غمارة ، وردة فاس ، وطاعة مكناسة :

وسار يوسف بن تاشفين في مطلع سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م من فاس بعد فتحها نحو الضصال لغزو بلاد غمارة ، ولكنه ما أن توغل فيها حتى عاد تميم بن معنصر ( بن حمامة ) إلى فاس ، ونجح في دخولها من جديد ، بل وقتل عامل يوسف الذي كان بها . وبسبب ما كان من التنافس بين كل من أمراء فاس ومكناسة ، على ما يظن ، رأى صاحب مكناسة وهو المهدي بن

---

(٢٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث وصف ثوار الزناتية هؤلاء بالمرتدين - تبريرا لتلك المماثلة الظلة - على ما نظن .

(٢١) القرطاس ، ص ١٢٩ - أحداث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التي عدلنا ما إلى ٤٦٤ هـ /

١٠٧٣ م .

(٢٢) القرطاس ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

يوسف الجزنائي أن من حسن السياسة أن يقف الى جانب أمير المرابطين القوي ، فاعلن الطاعة ليوسف بن تاشفين . وهنا ثبت ابن تاشفين المهدي ابن يوسف في ولايته ، وبصفته تايما له ، واختبارا لصدقه وحسن نواياه ، امره بالخروج في نفس السنة ( ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م ) معه لاستكمال العمل في تهدين المغرب . ولكنه ما أن خرج المهدي في جيشه من مدينة عوسجة لينضم الى القوات المرابطية ، حتى سارع تميم بن معنصر بالخروج اليه من فاس في عساكر زناتة « وأنجاد مفراوة » ، ليقطع عليه الطريق ، « ويفرقه جمعه » ، بل وليقتله ويبعث برأسه الى لكوت البرغواطي ، صاحب سبتة (٢٣) .

وترتب على مقتل المهدي صاحب مكناسة أن كاتب أهل المدينة يوسف بن تاشفين يمرضسون عليه تسليم بلادهم ، وبذلك تكون دويلة مكناسة الزناتية قد انضمت الى بلاده بشكل نهائي (٢٤) .

وتوالت غارات المرابطين على فاس ، الأمر الذي كان يثير غضب أهل المدينة على تميم بن معنصر بسببه انقطاع المواد وقلة الأوقات . وهنا قرر تميم مواجهة الخطر مهما كانت النتائج ، فخرج الى المرابطين بمن استطاع جمعه من مفراوة ، وبني يفرن ، وكان لقاء غير متكافئ ، إذ قتل تميم بن معنصر وكثير من رجاله . ولكن فاس لم تسقط إذ تقدم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ، سليل موسى بن أبي العافية ، الذي نجح في النار من المرابطين فنهزمهم في وادي صيفير (٢٥) .

وهكذا تطلب الأمر بذل المزيد من الجهد في تهدين المناطق المجاورة واخضاع قبائلها النائرة قبل ضمان الفتح النهائي لفاس ، وضما بشكل أكيد الى الدولة المرابطية . فعندما وصل ثبا هزيمة صيفير الى يوسف بن تاشفين ، ترك حصار قلعة مهدي ببلاد فازار ليعض قواده (٢٦) ، ورأى البدء باخضاع القبائل وتهدين البلاد تمهيدا لأخذه فاس وعندئذ فتح بلاده

(٢٣) الترطاس ، ص ١٤٠ - حيث سكوه بدلا من القوط .

(٢٤) الترطاس ، ص ١٤٠ .

(٢٥) الترطاس ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢٦) الترطاس ، ص ١٤١ - حيث النص على أن قلعة مهدي ظلت تتناوم الحصار طوال

٩ ( تسع ) سنوات طوال ، فلم يدخلها المرابطون الا في سنة ٦٥٥ هـ / ١٠٧٣ م .



بنى مراسن ، وأميرهم يمي بن يوسف . وأتبع ذلك بغزو بلاد فندلاوة .  
٢٠ لأمر الذي استغرق زهاء سنتين (٤٦٦ - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٧٥ م) (٢٧) .  
وعلى نفس الوثيقة استمر يوسف بن تاشفين في تمهيد بلاد غصارة  
وجبالها ، من : الريف الى طنجة ، تمهيدا لفتح فاس للمرة الثانية  
سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، وهو التوقيت الذي يقترب من توقيت ابي  
عذارى (٢٨) .

### القائمة نظم الدولة وترتيبها :

#### الدواوين :

والظاهر ان يوسف بن تاشفين كان في عجلة من أمره في فترة نيابته  
تلك - اذ بدأ بـقيم ترتيب الدولة ونظمها - فلقد بدأ بإنشاء « الدواوين »  
أي ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء ، وثني بديوان الجند ، بمعنى تحويل  
المساكر المتطوعة الى جند نظامي ، تسجل اسمائهم في نوائم اصحاب  
الرواتب الشهرية المنتظمة (٢٩) .

واذا لم يكن في نص ابن عذارى السابق اشارة الى بعض دواوين المال  
والخراج فان النص على طاعة البلاد له تعنى الخضوع للنظام انضباطي الذي  
هو من أعمال السيادة بالنسبة للدولة ، والذي يميز عادة دولة أهل اخضر  
المستقرين عن دولة أهل البادية من الرعاة الرحل .

#### ديوان المال والخراج :

وهنا نجد بين أحداث سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م - الخطيرة في تاريخ  
الدولة المرابطية - ما فرضه يوسف بن تاشفين من ضريبة ثقيلة على اليهود  
في كل بلاد المغرب الخاضعة لسلطانه ، والتي وصلت جبايتها مبلغا عظيما  
مقداره ١١٣ ( مائة وثلاثة عشر ) ألف دينار (٣٠) . وهو المبلغ الذي لا يبرره

(٢٧) الترغاس ، ص ١٤١ - والتاريخ المسجل هو ٤٥٦ - ٤٥٨ .

(٢٨) انظر الترغاس ، ص ٧٤١ - حيث التوقيت المكون هو ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م  
الذي دجمله ٤٧٠ هـ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٨ - ١٩ - حيث فرار مناصر الى فاس  
سنة ٤٦١ هـ / ٩ - ١٠٦٨ م .

(٢٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ .

الا الأعمال الضخمة القائمة وقتئذ ، من : انشاءات حضارية وأعمال حربية . ومثل هذا المبلغ الكبير مما كان ينبغي في السابق قبل انشاء الدواوين المختصة بالجباية ، هو الذى يفسر قسمة كنوز الذهب والفضة والجواهر التى اكتشفتها زينب النفزاوية فى سراديب دار الأمير أبى بكر ، حسبما نرى . ( ما سبق ، ص ٢٥٤ ) .

### الحرس الأميرى من العبيد السود والصقالية البيض :

والأهم من كل هذا وذاك ما أخذ به يوسف بن تاشفين فى مجال الجيش المرابطى ، من حيث دخول العبيد السود فى الخدمة العسكرية بصفتهم حرسا خاصا للأمير ، وكذلك الأمر بالنسبة للعبيد من النصارى الذين اشتراهم من الأندلس ، ثم الفزير الحقيق بالحرس الأميرى من أهل البلاد . وإذا كان استخدام «علاج» النصارى هؤلاء كان محمودا بحيث لم يزد عددهم فى أول الأمر عن ٢٤٠ ( مائتين وأربعين ) علما ، حسب رواية ابن عذارى ، فإن عدد العبيد من رجال الحرس السودانى بلغ بسرعة ٢٠٠٠ ( ألفى ) . رجل . والمهم أنه زود الجميع من بيض نصارى أو سود ميبلمين على ما نظن ، بأخيل فاصبحوا فرسان أشداء يشربون الرهبة فى قلوب الناس ، وهم يحفون به فى القصر ، ويحيطون به فى موكبه وهم يرفعون البندود ويشربون بالطبول . وبذلك غلظ حجابيه وعظم ملكه (٣١) .

### دار السكة :

ومن أهم الدواوين السيادية ، كما يقال الآن ، دار ضرب النقود . والمعروفة بالسكة التى أقيمت فى نفس سنة ٤٦٤هـ/ ٢ - ١٠٧١م . ولما كانت دار السكة هذه قد أقيمت فى مراكش ، فإن هذا يعنى تحول المدينة الجديدة بصفة رسمية الى عاصمة للدولة المرابطية فى تلك السنة ، بمعنى اكتمال مبانيها الحكومية ومرافقها العامة - وخاصة آبار الماء وصهاريجها . وهنا تنص رواية ابن عذارى على أن تلك النقود التى ضربت فى مراكش

(٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٤٣ ، وقارن القرطاس ، ص ٨٣٩ ( أحاديث سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م التى جعلناها سنة ٤٦٤هـ/ ٢ - ١٠٧٤م كما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٥٦ ) - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين جعل فى جيشه الأمازيغ ( وهم الترك بدلا من المالكية الصقالية من نصارى الأندلس ) ، والبندود ، حيث الإشارة أيضا إلى أن يوسف بن تاشفين اتخذ فى نفس السنة كثيرا من الطبول والبندود .

لأول مرة ، كانت دراهم فضة مدورة ، فكان ابن عذارى (٢٢) ، المراكشي ، يخشى أن يظن أن الدرهم المراكبي مربع مثل الدرهم الموحدى الذى ابتكره محمد بن تومرت فقيه الموحدين ، الذى اشتهر بأنه صاحب الدرهم المربع الذى ميز النقود المراكشية عن بقية النقود الإسلامية فى تلك الفترة التى تعتبر العصر الذهبى من تاويخ المغرب العربى وحضارته .

والمهم هنا أن نقود مراكش الأولى ، هذه كانت مدورة ، وزنة الدرهم منها ١١/٤ ( درهم وربيع ) درهم ، على أساس وزن الـ ٢٠ ( عشرين ) درهما أوقية واحدة ، فكان صنتجة الأوقية تعادل ٢٥ ( خمسة وعشرين ) درهما حسب رواية ابن عذارى . هذا ، كما ضرب الدينار الذهبى ( المراكبى ) فى نفس هذا العام ٤٦٤هـ/ ٢ - ١٠٧٢م ، ولكن باسم الأمير الشرعى : أبى بكر بن عمر - الأمر الذى يجعل عام ٤٦٤هـ/ ٢ - ١٠٧١م وكأنه العام التأسيسى للدولة المراكبية فى شكلها المدنى أى الحضرى ، للتفرقة بينها وبين دولة عبد الله بن ياسين وخلفائه السابقين ، دولة الفقيه البدوية ، وإن كانت دولة « الرباط » ، قرين المسجد المدنى أصلا (٢٣) .

وفىما يتعلق بالدينار الذهبى المراكبى ، توجد رواية لابن عذارى تنص على ضربه فى الأندلس بعد انتصار الزلاقة ( سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ) مع الربط بين ذلك وبين حمل يوسف بن تاشفين للقب أمير المسلمين الذى سلم به عليه أمراء الأندلس ، فكان أول من تسمى بهذا اللقب بالمغرب . فالى جانب ذلك تقول الرواية انه ( يوسف ) ضرب السكة ، بمعنى النقود الذهبية من يومئذ ، وجدها أى طورها وحسنها ، مع بيان أن دينار يوسف بن تاشفين هذا ، كان يحمل النقش التالى : على الوجه الوسط :

— سطر ١ = لا إله الا الله .

---

(٢٢) البيان ، ج ٤ ص ٢٢ .

(٢٣) انظر البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على أن هذا الدرهم كان موجودا على أيام ابن عذارى ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى / ١٤ م ، وأنه كان معروفا بالدرهم الجوهري ، وقارن القوطاس ، ص ١٣٧ - حيث تأتى قصة النقود المراكبية عرضا بمناسبة وفاة يوسف بن تاشفين ، وما كان يحويه بست المسال حينئذ من النقود ، وفيها : « ربيع الورق » أى ربيع الدرهم الفضى ، و« ربيع الذهب » أى ربيع الدينار الذهبى . وإذا لم يكن هناك نص على نصف الدينار الذهبى ، فإن ذلك يعنى أن ربيعى ذهبيين كانا يغنيان عن النصف الذهبى .

- سطر ٢ = محمد رسول الله \*

- سطر ٣ = أمير المسلمين يوسف بن تاشفين \*

وفى الدائرة حولها : ومن يتتبع غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه .  
وهو فى الآخرة من الخاسرين \*

ويحمل على الظهر ، فى الوسط :

- الأمير عبد الله العباسى \*

وفى الدائرة حولها : تاريخ الضرب ( كتابة ) ومكان الضرب  
( المدينة ) (٣٤) \*

دولة ابن تاشفين فى مهب الريح :

عودة أبى بكر بن عمر من الصحراء : ١٠٧٢/هـ - ٤٦٥ : ١٠٧٢/هـ

بينما كان يوسف بن تاشفين منهمكا فى توليد دعائم الدولة المرابطية بالمغرب ، عن طريق احياء الدواوين التى كانت فى بلاد المغرب من قبل بطيعة الحال - فكانه كان يحيى تراث النظام المدنى السابق ، المبني على نظام الحكم الوراثى ، وخاصة بعد أن تحقق مثل هذا الحلم ليوسف ، بميلاد أول ولد له من زينب النفزاوية ، فى نفس سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ، وهو الابن الذى لا يعرف الا بلقبه الملكى « المعز بالله » (٣٥) ، دون المدنى \* وفى غمرة هذا الفرح العائلى اذا بيوسف يفاجأ فى أواخر نفس السنة العتيدة ( ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م ) بتاهب أبى بكر بن عمر للعودة ، الأمر الذى كان مجرد تفكير فيه يقضى مضجعه من غير شك \* ولم تطل حيرة يوسف كثيرا ، فلم تدخل سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م التالية ، الا وكان الهاجس حقيقة واقعة ، اذ أتت الأنباء تترى بنزول الأمير السابق - ولى الأمر الشرعى - مدينة سجلماسة ، فى طريقه الى أغمات ومراكش (٣٦) ، بعد حين \* وكان وصول أبى بكر الى أغمات

---

(٣٤) انظر فيما بعد ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ والهامش ، شكل رقم ١٦ ص ٢٧٣ ، وانظر حسن محمود ، المرابطون هـ ١ ص ٢٨٨ - حيث الإشارة الى لافوا (Lafwaix) .

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ \*

(٣٦) انظر التويرى أبو شيف ، ص ٢٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على أنه اقام فى سجلماسة الذى يمكن أن تكون السوس فى حقيقة الأمر - كما سبق ، ص ٢٠٦ - ولكنها مقبولة هنا على أساس أنها أهم محطة على طريق الصحراء المؤدى الى السودان ، مدة سنة كاملة ، والخطبة له وببهاء الأمر \*

فى ٥ ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٠٧٢م ، حيث نزل فى خارجها ،  
ومن هناك اندفع كبار رجاله نحو مراكش ، للسلام على يوسف بن تاشفين ،  
والحصول على صلته (٣٧) .

واستقبل يوسف النبأ بما يناسبه من الغم ، وكان على أم «المعز بالله»  
السيدة زينب التى لم يغيب عن وعيها وفراستها ما كان يعانيه يوسف من  
الهم ، أن تعمل بسرعة على تهدئة روعه وتخفيف حزنه . ولم يصعب على  
المرأة الحبيرة بأحوال الرجال وخاصة عندما يتعلق الأمر بمن عجمت عوده  
منهم . وهكذا ، رأت أن تستقل ما تعرفه فى أبى بكر من الضعف . فعندما  
كلمها يوسف فى مقبة ما قد يقع بينه وبين ابن عمه من الحرب ، طمأنته بأن  
أبى بكر رجل خير لا يجب سفك الدماء ، الأمر الذى بنت عليه خطة التعامل  
مع تلك الأزمة ، والتى تنبئ أساسا على سياسة الترهيب والترغيب  
بدرجاتها المختلفة ، وذلك فى ثلاث خطوات يقوم بها يوسف . أولها ألا يشغل  
باله بوصول أبى بكر ، فيبقى هو فى قصره بمراكش محاطا بحرسه المخلص  
من العبيد السود والبيض ، ويكون الخطاب مع أبى بكر عن طريق الرسل ،  
فكانه خطاب رسمى بين ندين مساويين (٣٨) . وهو ما فسر أبو بكر بن عمر  
بأنه استبعاد بالملكة ، حسب تعبير البيان المغرب ، الأمر الذى جعله يميل  
الى تسليم الأمر ليوسف (٣٩) .

وهنا عرض يوسف هديته الجليلة (أعلاء ، هـ ٣٨) المكونة من مما يحبه  
أهل الصحراء ، من الذهب ، والخلج ، والأفراس ، والسيوف المحلاة ،

---

(٣٧) البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٤ .

(٣٨) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٤ - حيث تلتزم الرواية شكل فصوص الأيام ،  
أو الذكريات الشخصية إذ افتم يوسف غما شديدا به أن ذاق حلاوة الملك ، وإن زوجته  
زينب الغزوية عندما رأت ذلك قالت له : والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبدا ... وأنه  
عندما قال لها لو كان غير ابن عمى لنتلته ، قالت : إذا قدم فلا تخرج اليه ، ولكن بأذنه  
بهديته جليلة فلا يقاقلك ، فإن الرجل خير . وقارن ، القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث النص على  
أن أبى بكر عندما عرف تغلب يوسف على المغرب أقبل اليه من الصحراء ، ليؤمّل ويؤمل  
غيره . وإن الفضل يرجع الى زينب زوجة يوسف ، بتصرف هذا الأخير أن ابن عمه  
أبى بكر ورج ولا يجب سفك الدماء ، وترصيه بالتصريح فى اظهار الأدب له ، بل واطهار  
الغلظة حتى كانه ( يوسف ) مساو له ، مع ملاطفته بالهدايا والخلج ، حيث كل شيء من بلاده  
مستطرف من أهل الصحراء .

(٣٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٤ .

والجوارى ، والحديد ، والدقيق ، والشعير ، والبقر ، والغنم ، الى جانب المطور الثمينة من المسك والعود والصبغ (٤٠) ، الأمر الذى فهم أبو بكر مغزاه ، وهو طلب الرجوع الى الصحراء بأسلوب مهذب - فكانت الخطوة الثانية •

اما الثالثة والحاسمة ، فتجملت فى خروج يوسف بن تاشفين من مراکش نحو أغمات لاستقبال ابن عمه الأمير « المخلوع » ، وهو فى جنده وعبيده • فعندما تم اللقاء فى منتصف الطريق بين المدينتين هال أبو بكر أن يلقاه ابن عمه الأصغر وتابعه راكبا دون رعاية ، الأمر الذى قضى على ما كان يجول من الأمل فى خاطره ، من وجوب الاحترام لزعامته الفيليه إن لم يكن لامارته الشرعية • وفى هذا المكان الذى عرف من ذلك الحين باسم « فحص البرنس » نسبة الى البرنس الذى بسط على الأرض ليقعد عليه الرجلان ، لمتاجيا حول مشكلة ثنائية الحكم أو وحدته الرئاسية ، أتى الحل من قبل رجل الصحراء التقى الدين : أبى بكر ، وكان قد اقتنع بأن خصمه يوسف المتمرس بالحرب والخبرة فى الإدارة مبال الى التمسك بالملك فأعرب عن رغبته فى الصودة من حيث أتى الى الصحراء ، لمعاونة اخوانه هناك ، وأنه يعهد اليه مرة ثانية بولاية المغرب (٤١) •

ومع شكر أبى بكر ليوسف على الهدية ، وعده يوسف بأن يكون دائما مأمورا تحت طاعته ، وطاعة شيوخ لتونة ، فإن الأمر تطلب هذه المرة تنازلا نهائيا عن حكم المغرب ، من قبل أبى بكر • وهكذا ، وفى حضرة المشايخ

(٤٠) انظر ، البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على ٢٥ ألف دينار من الذهب ، ٧٠ فرسا منها ٢٥ بغلر للجهازات ، ٧٠ سيفا مطلاة ، ٢٠٠ من الأشراف ( المهامز - من الخلل ) الذهبية ، ١٥٠ من البشال ، والكثير من الأمتعة والكسب الفاخرة ، ٢٠ جارية أمسكارا وجملة من الغنم ، ٢٠٠ من البقر ، ٥٠٠ من الغنم ، ١٠٠٠ ربيع من الدقيق (الدقيق) ، ١٢٠٠٠ خيزة ، ٧٠٠ مل من الشعير ، ووزن صالح من العود والمصبر والمسك ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٦ - ويلاحظ فيه أن الهدية بسيطة تتفق مع المطالب الضرورية لأهل الصحراء حتى تنسجم مع مقولة أن القصد منها هو الاصلاح السافر لأبى بكر عن طلب عودته الى الصحراء • فالهدية تحوى على ألف بعر قدمها يوسف لابن عمه أبى بكر وهو يقول : أيعيا الأمير جنتك بكل ما مى من مال وثياب وشئ من الأدام والطعام لتستعين به على للصحراء • فسرف حاله ، وعلم انه لا يتخلى عن الأمر •

(٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٥ - وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ - حيث النص على أنهما عندما اتفقا سلم ( يوسف ) عليه ( أبى بكر ) وهو راكب مسلاما مختصرا • وإن أبى بكر عندما سأل : ماذا يصنع بهذه الجبوش الكثيرة كلها ، رد عليه قائلا : أمتعين بهم على المخالفين ، الأمر الذى أثار الريبة من سلامة جوابه •

اللتونيين الذين يعترف لمجتمعهم بالسلطة العليا في المغرب المرابطي ، أعلن أبو بكر بن عمر اعتزاله النهائي للإمارة لصالح نائبه ، وابن عمه ، يوسف ابن تشغافين ، وذلك بشهادة الشهود العدول (٤٢) . وتختتم قصة الاعتزال هذه - عند ابن أبي زرع - بتوصية أبي بكر لابن عمه الذي استغل بالملكة المغربية ، وهو الأمر المقبول . وتعتبر وصية الأمير الذي عرف بالجبر والورع عن أن مسئولية الحكم المعنوية تقع في النهاية على عاتقه ( أبي بكر ) نفسه - من حيث هو ولي الأمر شرعا ، وهو لذلك يطلب من يوسف حسن رعاية المسلمين ( رعاياه ) ليخليه ويخلى نفسه أيضا ، من مسئولية عذاب النار ( يوم الحساب ) ، مع الدعاء له بالصلاح والتوفيق وعمل الخير (٤٣) .

### ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب :

وبعد وصية الوداع ، انصرف أبو بكر نحو الصحراء في رحلة ذات هدف مزدوج ، شبه الأول هو التوفيق بين الاخوة المثنين ، وخاصة من لمتونة وجدالة ، مادة الاسلام بالصحراء ، والشق الثاني الذي لا يتحقق الا بالأول ، هو : غزو بلاد السودان التي لم تكن قد دخلت في الاسلام بعد ، ونشر الاسلام الأصولي الصحيح عند من حرقوه منهم .

والذي يلفت النظر أن معلوماتنا عن رحلة أبي بكر بن عمر - ذهابا وعودة - وعن عمله الجهادي في السودان الغربي ليست أكثر من نتف عارضة أو شظايا متناثرة لرواية مبتسرة أصلا ، الأمر الذي يجعل محاولة إعادة عناصرها في بناء منتظم من الصعوبة بمكان . فإذا كانت رحلة الذهاب الى أغمسات قد تمت عن طريق سجلماسة ، عقدة مواصلات الطريق الدولي الى أودغست ، فأغلب الظن أن أبا بكر مر بسجلماسة أيضا وهو في طريق العودة ، بل ولا بأس أن تكون الرواية التي تنص على بقائه في سجلماسة لمدة عام وهو يصلح من أحوال المدينة وأحوازها ، حيث كان الأمر والنهي له ،

---

(٤٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ص ٢٥ - حيث النص أشيرا على كون « هذا التدبير برأى زينب النزاذية وزوجه » ، وقارن الطراس ، ص ١٣٥ - حيث ابدال أبي بكر لزلل يوسف الذي شاور زوجته ( زينب ) .

(٤٣) انظر الطراس ، ص ١٣٥ - حيث نص الوصية : « يا يوسف ولسك هذا الأمر ، واني مسئول عنه فاني الله في المسلمين ، واعطني واعتق نفسك ، ولا تصيح من أمور رعيك شيئا ، فانك مسئول عنهم ، والله تعالى يصلحك ، ويمكك ويوفئك للعمل الصالح .. وهو شليقتي عليك وعليهم » .

خاصة برحلة العودة أيضا ( ما سبق ، ه ٢٦ ص ٢٦٢ ) ، هذا ، ويمكن أن يكون هذا الخبر متملئا بإبنيه إبراهيم ( بن أبي بكر بن عمر ) ، حيث يكون قد ولاء سجلماسة ، في محاولة أخيرة للتثبيت ببعض أهداب المملكة المغربية . ويؤيد ذلك تلك الدنانير التي حملت اسمه ( إبراهيم ) ، مع سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م (٤٤) .

وهنا لا بأس من الإشارة الى محاولة إبراهيم بن أبي بكر هذا ، المطالبة بملك أبيه بعد ذلك بحوالى ٥ ( خمس ) سنوات ( سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٦٧ م ) . فلقد كانت مفاجأ ليوسف من غير شك وصول إبراهيم الى البلاد ، ونزوله خارج أغصان ، غير بعيد من مراكش ، يحيط به حشد مختلط من اللاتونيين . واكتفى يوسف بالسماع عن أخبار إبراهيم ومطالبه عن بعد ، دون لقاء ، فأرسل اليه القائد مزدي ( ابن بانلوكا ) ، ليعرف منه سبب قعوده ، فأخبره إبراهيم بسذاجة لا ينبغي أن تكون في أبناء الأمراء والحكام ، حيث قال انه جاء يطلب « ملك أبيه الذي غصبه عمه » ( يوسف ) .

ونجح القائد المنك في سفارته المرحمة ، اذ اقتنع إبراهيم بعيشة

---

(٤٤) انظر النويري ، أبو غيث ، ص ٢٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على استخلاف أبي بكر في رحلة النهاب لابن أخيه : أبو بكر بن إبراهيم بن عمر ، وانظر ه ٥ - حيث نص المعلق - قللا عن حسن محمود - على انه « لعل المقصود ابنه إبراهيم بن أبي بكر بن عمر ، الذي ولي سجلماسة ، وسك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وعام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م » وانظر حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢٥ - حيث اتخذ بالفكرة الروحية المثالية التي ترفع كلا من يوسف وأبي بكر - في استطرادات لغوية مطولة - من مستوى دنيا التفكير في الأمور الدنيوية ، كالحكم والرياسة « فلم يكن يوسف يفكر في اغتصاب السلطة ... » وفي المقابل « أكد أبو بكر تولية يوسف على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلائه ، وسمه ملكه ، وحسب الناس إياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسميا ، وينصرف هو الى الصحراء ، لانه كان رجلا زاهدا في الدنيا عزوفا عن السلطان ... » ( والهوامش للحلل المؤشحة ) - أما عن الاستناد الى قول البكري أن أبا بكر كان أمير المرابطين في سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م فهذا صحيح فعلا وليس اسما فقط . وأما قول لافوا (Lavoix) في قوائم التقدود الإسلامية في المكتبة الوطنية في باريس بأن أبا بكر كان حتى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م أمير الدولة وحاكمها الأوحد « استنادا الى العثور على نقود باسمه تحمل هذا الاسم - فهو استدلال لا يدل على واقع الحال » - فهناك اشارات ثالثة ( ص ٢٢٦ وهـ ١ ) الى ملك يوسف للتقدود باسمه ( بل ويطلق أمير المسلمين ) الى جانب اعتباره المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين . وعن نزود المرابطين ، انظر فيما بعد ، ص ٢٦٨ وشكل رقم ١٦ .



عمله ، وعلم جدوى مطالبه ، حيث أن الأمير يوسف هو الرجل المؤهل  
بصفاته وسجاياه للملك - دونه . وانه يمكنه أن يطلب هدية من  
خيل وازد ، يهود بها الى بلاده ، فهذا خير من الضياع في سجن القصر الأميرى .  
وهنا اتضحت النوايا الحقيقية لولى العهد ( الولد ) المطالب بالعرش ،  
ومن معه من اللمتوين أبناء العم ، وهى الهدية والصلات من الأمير : العم  
الأكبر ، شيخ لمتونة الأول . ولا بأس ان كان « للهدية الجليلة » التى  
نالها أبو بكر من قبل ، بنصيحة سيدة القصر : زينب النفزاوية ،  
اصداؤها فى جنوب الصحراء وفى قلوب عامة أهل أغمات ومراكش ، التى  
حركت الرغبة فى نفس ابراهيم على قبول مثلها . وهكذا طاب خاطره لهذا  
الوعد بالهدية وتهنئ بينما قام ابن تاشفين الذى كان يعرف كيف يسترضى  
الرجال ، وخاصة من مقربيه وأهل بيته ، بالزيادة فى الانعام عليه بالمال  
والخيل والكسب ، واكرام من بصحبته بالصلات ، حتى لهج لسانه بالشكر .  
وانتهى الأمر بانسحاب ابراهيم بن أبى بكر بن عمر ، دون أن يجتمع  
بيوسف بن تاشفين أو يراه عائدا الى الصحراء حيث بقى هناك الى أن وافته  
منيته (٤٥) . وكان من حسن طالع ابن تاشفين أن رزق فى هذا الوقت  
( ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ) بابنه الفضل من زينب النفزاوية (٤٦) .

وبرجوع ولى عهد أبى بكر الى الصحراء ( سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م )  
ثم وفاته فيما بعد ، ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٤٦) تخلص مملكة المغرب تماما ليوسف  
ابن تاشفين ، وبذلك استحق التسمية بلقب أمير المسلمين ، الذى قصر بعض  
النصوص على اطلاقه على قائد المرابطين منذ بداية الحركة المرابطية ، وبذلك  
يبدأ العهد التاشفيني وهو الدور الثانى لدولة الرباط - دور الذروة  
والعظيمة .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ - حيث وصف القائد مزمل بأنه « كان حسن  
الساسة صحيح الذهب ، عارفا بخسمة الملوك ، ووصف ابراهيم بلقب « الولد » ، وهو لقب  
ولى العهد فى الدولة المرابطية بالأندلس - الأمر الذى يعنى الأثر الأندلسى فى الحضارة  
المرابطية » .

(٤٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ .  
(٤٦) أنظر أمين طيبي ، أثر الاسلام فى غانة ومالى ، مجلة الدراسات الانسانية  
بجامعة الكويت ( بالانجليزية ) ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٠ - حيث النص على رجوع أبى بكر بن عمر  
الى الصحراء وقتاله للوثنيين من السوفات حتى وفاته فى حملة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .  
ومن القبول أن يكون أبو بكر يتحالفه مع ملك التكرور المسلم قد استعاد أودفست فى نفس  
سنة ٤٦٩ هـ وكذلك الأمر بالنسبة لماصمة غانة فى السنوات التالية ، الأمر الذى استمر  
الى استمهاده فى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .

عهد يوسف بن تاشفين : ٤٦٥ - ١٠٧٢/هـ - ١١٠٦ م :  
الاستقلال والتقسيم :

تعتبر سنة ٤٦٥/هـ ١٠٧٢م ، حيث تنازل أبو بكر بن عمر . في مدينة أغمات ، عن رئاسة دولة المرابطين لصالح قريبه يوسف بن تاشفين الممتنوني ، بمثابة خط فاصل أو علامة مميزة ، ليس في تاريخ دولة لمتونة هذه فقط ، بل وفي تاريخ المغرب الاسلامي على الجملة ، من اوسطه الى اقصاه ، ومن صحرائه الى سودانه ، وحتى بلاد الاندلس عبر المضيق - وذلك على كل المستويات ، من سياسية واقتصادية وثقافية وحضارية ، بعامه .

فعلى مستوى دولة الرباط التي بدأت ثنائية الحكومة ممثلة في اغنييه والأمير ، انقسمت تلك الدولة الى حكومتين منفصلتين ، احدهما جنوبيه قاريه ذات طابع افريقي سوداني ، والاخرى شمالية بحرية ذات طابع مغربي أندلسي . وهذا التوجه الجغرافي سيكون له اثره في تحديد مصير بلاد المغرب في القرون التالية ، حيث ستصبح له عاصمتان ، احدهما فاس ، قاعده السوس الأدنى وبلاد الريف ، التي توجه انظارها نحو الشمال ، واتانيه مراکش ، قاعدة السوس الأقصى التي توجه انظارها نحو الجنوب والتي صارت عاصمة لكل بلاد المغرب حتى أنها أعطتها اسمها ( مراکش ) ثم انها اضطرت بعد فشل عملية الانقاذ التي قامت بها في الشمال بالاندلس، الى أن تكتفي بالتحول الى عاصمة اقليمية للجنوب ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقروان افريقية .

وبذلك أصبح للمغرب مدينتان تعبران عن توجهاته الطبيعية . هما : فاس عاصمة الشمال التي تحتوى على ذكريات عصور التأسيس الأولى ، ويفوح منها عبق الأدراسة الشرفاء ، ومراكش عاصمة الجنوب التي تخذ ذكريات عصور العظمة أيام المرابطين والموحدين ، ويفوح منها أريج الحضارة المغربية الأندلسية ممزوجة بفرائب السودان وعجائبه .

المرابطون والسودان الغربي :

دولة أبي بكر بن عمر الصحراوية :

خرج الأمير أبي بكر بن عمر بعد اعتزاله سنة ٤٦٥/هـ ١٠٧٢م ، الى الصحراء عبر سبجلماسة نحو أودغست ، وهما المدينتان اللتان حنقتا للمرابطين السيطرة على ط : التجارة الغربى بالصحراء ، قاعدة لمتونة

المتاخمة لبلاد السودان . وكان عليه أن يبدأ بتهدين البلاد وإقرار السلام بين قبائل المشتين ، قبل أن يستفيد من نشاطاتهم العدوانية ضد بعضهم البعض ، فيوجه حماسهم للحرب والقتال نحو بلاد السودان ، لجهاد غير المسلمين منهم ، ونشر الاسلام السني بينهم ، وأخذ المحاربين منهم عبيدا أسرى ، يوجهون الى أسواق التخاصمة في المغرب والأندلس ، وربما الى المشرق أيضا - فكانهم ذهب السودان الأسود ، الى جانب ذهبه الأصفر . وفي ذلك تقول الرواية المدارجة ان أبا بكر بن عمر حشد الجيوش وغزا بلاد السودان على طول مسيرة ٣ ( ثلاثة ) أشهر وهي المسافة التي تقوم بأكثر من ٣ ( ثلاثة ) آلاف كم ( ٤٧ ) ، في المنطقة ما بين أعالي كل من نهري السنغال ، ورافد النيجر الغربي - حيث تم الاستيلاء على أملاك كل من دولتي غانة والسونغاي ( مالي ؟ ) غربا ، وأقاليم تادمكة شرقا ( ٤٨ ) .

وحسب رواية ابن عذاري استمر جهاد السودان ٣ سنوات فقط ، انتهت بوفاة أبي بكر بن عمر اثر اصابته برسقة سهم ، وذلك في ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، وهي الرواية التي تنسجم مع الرواية الخاصة بمجيء ابنه ابراهيم ( ابن أبي بكر ) مطالبا بملك أبيه الذي غضبه عمه يوسف ( ابن تاشفين ) - الأمر الذي يجعلنا نأخذ بهذا التاريخ دون غيره ، طالما رجعنا للتواريخ التي حددها ابن عذاري ( السابق ) ٢٥٣ وهـ ١٢ ، وما يأتي هـ ٥١ ( ص ٢٧١ ) ( ٤٩ ) .

( ٤٧ ) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ .

( ٤٨ ) أنظر ليون الافريقي ، ص ٥٢٨ - بحيث النص على ان مملكة مالي ( الماندنج ) حينئذ ٣٠٠ ( ثلاثمائة ) ميل على طول نهر النيجر ، وأهلها أول من اعتقد في الدين المحمدي ، وان ذلك كان على يدي عم يوسف بن تاشفين وهو الذي عاش بعد خروجه من المغرب في منطقة أدرار الموريتانية ، والذي لم يكنف بهرب السودان ، بل حالهم عن طريق الصامرة اذ زوج إحدى بناته الملك من الماندنج الماليتين ، وظلت السلطة بين حدة اخوته من أمه الى وقت متأخر ( هـ ٣٣ ) ، كوليف ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الافريقي ، الترجمة ، ص ٨٧ . ( ٤٩ ) ابن عذاري ، البينان ، ج ٤ ص ٢٦ - حيث النص على أنه ( أبو بكر بن عمر ) أقام بصحرائه ٣ ( ثلاث ) سنوات ، ويوسف يفسد ، الى أن قتله السودانيون الجاورون للبتنة في الصحراء لانه يحاربهم ، حتى قفى الله بوفاته يسهم كان فيه منيته سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م . وقارن ابن الأثير ، حيث ينجل وفاته سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠ م - حيث اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ، وبقوه أمير المسلمين ، النويري ، أبو ضيف ، ص ٨٢٢ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦١ هـ ٦ - حيث الإشارة أيضا إلى ابن تفرى برضى الذي جعل وفاته سنة ٤٨٠ هـ / ٨ - ١٠٨٧ م ، وإشياخ الذي جعل وفاته سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث يحدد تاريخ رحل أبي بكر إلى الصحراء بشهر ذي القعدة سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م ( ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ) ، اما عن

وهكذا يكون أبو بكر قد قبل بذلك السهم ، مسموما كان أم غير مسموم ، في حرب غانه انسى لم يكن أسلم أهلها ، رغم وجود جاليات اسلامية في كثير من أبحاثها (٥٠) . ولا بأس أن كان اسلام التكرور في أسافل موريتانيا وغيرهم من مسلمة السودان الغربى ، وانتشار الاسلام هناك على أيدي المرابطين قد تم بشكل لم يكن له نظير من قبل ، في حركات التبشير الاسلامية التي كان يقوم بها دعاة السنة أو الشيعة الأباضية في المهود السابقة .

والظاهر أن مقتل أبي بكر المفاجي في غانه كانت له نتائج وخيمة على مملكة لتونة الصحراوية وجيشها الافريقى (السودانى) الذى لم يقدر له أن يحتفظ طويلا بفتحاته الفانية التى شملت كل من موريتانيا الحالية ، وامبراطورية غانه التى تعادل اقليم السودان الغربى ، ووصلت جنوبا حتى مناجم الذهب في بامبوك . ومن المقبول أن خلفاء أبي بكر الذين خضعت لهم كل الشعوب السوداء ، وكذلك الفولان ، ودفعوا لهم الضرائب لم يكونوا على مستوى المسئولية ، داخليا وخارجيا . فهم لم يستطيعوا منع النزاعات الداخلية من الظهور الى العلن ، الأمر الذى أدى الى ظهور النزاعات الفردية ، وانكار أن يكون للأمير كل السلطات على رؤساء القبائل ، مما أدى الى فقد الهيبة ، وانتشار الفوضى ، ونزول الأمير الى مستوى شيخ القبيلة

---

= وفاته فيجملها ابن أبي ذر ( ص ١٢٥ ) في شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م ( وهي الرواية التى نقلها ابن بركي يردى ) - حيث النص على انه إمام بالصحراء مدة ( دون تحديد ) يجاهد الكفرة من السودان الى أن استشهد - رحمه الله - في بعض غزواته - رمى بسهم مسموم فمات - رحمه الله - في شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م . بعد أن استقام له أمر الصحراء الى جبل الذهب من بلاد السودان (بمضى انه وصل الى بامبوك جنوبا ، حيث مناجم الذهب) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث النص على أن أبا بكر فتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو سبعة مراحل ( مسيره يوم ) من بلاد المرابطين .

(٥٠) ما سبق ، ص ٦٣ - ٦٤ ، وأطر البكري الذى يكتب سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، ص ١٧٤ - حيث سمى الملك « عاه » اما اسم البلد فهو أوكار ( ص ١٧٥ ) - حيث ملك غانه في ذلك الوقت « نككامين » الذى يوصف بشدة الشوكه وحيية السلطان . اما غانه العاصمة ، فهي مدينتان : واحدة يسكنها المسلمون وبنوا ١٢ مسجدا ، أحدها هو مسجد الجمعة . ولها الآنية والمؤذنون والحكم المرتبون . وفيها فقهاء وحمله علم . والثانية مدنة الملك على ٦ ( ستة ) أميال ونسبى النامة ، والمسكن متصلة ببنها وبنايتهم بالمجارة وشعب السنط ، وللكم قصور وقباب محاطة بسور - وهناك مسجد لصلاة المسلمين في مدينة الملك هذه - وحولها شعراء وغنائات فيها أكواخ ( قباب ) السخرة والتماثيل ( الدكاكين ) وقبور الملوك . وكل ذلك تحت الحراسة الشديدة . وللكم سجون وبيت صال ووزراء وترجمة من المسلمين ... الخ .

المادى (٥١) .

هذا ، كما صاحب الاضطرابات الداخلية بين القبائل ، ثورات الأمراء المحليين فى امبراطورية غانه الذين عجزت لتونة عن قمعهم ، وبذلك انتهى الامر باسترداد السود وخاصة الماليين منهم ، اقاليم تاجانت ، وجنوب ترارزا ، وأخضعوا أهلها لحكمهم (٥٢) .

ولكن الامر المستغرب هو أنه برغم الحسائر العسكرية التى لحقت بلمتونة فان قبائلها الصحراوية كانت تزداد انتشارا نحو الجنوب السودانى مع مرور الوقت . ويظهر ذلك خلال فترة لا تزيد كثيرا عن ربع قرن من وفاة أبى بكر عندما قامت قبائل الملتمين فى سنة ١١١١م/ ٥٠٥هـ ، بتأسيس مدينة تومبوكتو (Tim Bokton) التى حلت محل عاصمة غانة النقدية ، الامر الذى انتهى بأن لم يبق فى الصحراء الموريتانية الا لتونة وجزء من مسوفة (٥٣) . ولا ندرى ان كان التصحر فى تلك الأقاليم يعتبر تفسيراً مقبولا لانسحاب الفلاحين السود جنوبا الى أماكن أكثر خصبا تاركين مناطقهم لتكون مرعى لقطمان الطوارق (٥٤) .

وهكذا كان الاسلام يزداد انتشارا فى الجنوب نحو بلاد الساحل والسودان الغربى مع مرور الوقت ، وهو ما يظهر بشكل واضح على عهد امبراطورية مسالى فى القرن الثامن الهجرى/ ١٤م .

---

(٥١) انظر التاريخ الصغير لبني عيد أو عيسى ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، الكرامسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ - حيث يأخذ المؤلف برواية القرطاس بالنسبة لوفاء أبى بكر بن عمر ( ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ) بدلا من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م التى يقدمها أين عذارى والى رجحانها على غيرها مع الاشارة الى وفاة أبى بكر فى نواحي ايم كيريرى (Im Kiriri) : تاجانت (Tagant) بحالة بضربة سهم من سودانى ثائر .

(٥٢) التاريخ الصغير لبني عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كرامسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ .

(٥٣) التاريخ الصغير لبني عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كرامسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٥ .

(٥٤) التاريخ الصغير لبني عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كرامسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ - وهنا لا بأس من الإشارة الى ما تنسبه الروايات القصصية من انه ينسب الى أبى بكر ابن عمر تقسيم المجتمع المغربى الى ٣ ( ثلاث ) طبقات ، هى : الشرفاء ، ورجال الدين ، ثم الرعاة ؛ وعليهم خمسة الطبقتين السابقتين .

## التوسع الاقليمي على عهد يوسف بن تاشفين :

### استكمال فتوح المغرب :

بدأ استكمال فتوح المغرب منذ عهد النيابة اليوسفية ، بمسح خروج  
أبي بكر الى الصحراء وتقسيم الجيش الى فيلقين : صحراوي ومغربي ، بيد  
الأمير ونائبه في المغرب • ولكنه بسبب ما أثارته رجوة أبي بكر من اضطراب  
في مسار الأحداث سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م ، كان من الطبيعي أن تتوقف  
فتوح المغرب مؤقتا ، لكي تعود قوية بعد استقلال يوسف بالامارة : بنظام  
أفضل وامكانيات أقوى ، خاصة بعد أن نجح يوسف في اكتساب قبائل  
المغرب « فاعنته في جميع أحواله » • وبعد أن ازدادت أعداد جيوشه من  
البربر ( المتطوعة ) ، ومن العساكر المحتشدة ( النظامية ) (٥٥) ، بعد انشاء  
ديوان الجند ، فضلا عن انشاء الحرس الأميري الخاص من العبيد السود  
والممالك البيضا ( الصقالية ) ، الذين كان يزداد عددهم على مر الأيام (٥٦) •

وهنا نلفت النظر من جديد الى ان التاريخ لعهد يوسف بن تاشفين ،  
وهو الشخصية المحورية في تاريخ الامبراطورية ، ما زال يعاني - في مرحلته  
الأولى على الأقل - من الصعوبة في توقيت أحداثه السياسية الهامة  
والمسكورية ، وخاصة ما يتعلق بفتوح المغرب في خطواتها المتوالية •  
ويرجع السبب في ذلك الى نقص الوثائق الرسمية ، واعتماد الكتاب على  
الروايات الشفهية والقصص الشعبية التي لم تدون الا في فترات متأخرة ،  
الأمر الذي لا يضمن الدقة في التوقيت أو في صحة الخبر • وفي إطار هذه  
السياق فان ما وصلنا من الرسائل أو من الخطاب مما ينسب الى المرابطين  
يعاني من الصنعة الى جانب سوء النسخ وعدم سلامة الحفظ ، ناهيك  
عن أن الدولة الصحراوية كانت في بداية أمرها ، وأن دواوينها الناشئة  
وسجلاتها لم تكن بعد تعرف أساليب التنظيم والحفظ •

وهكذا اختلف الكتاب من مؤرخين وغيرهم في تحديد أحداث العصر  
الكبرى ، مثل : بناء مراكش ( ما سبق ، ص ٢٣٩ ) ، وفتح فاس  
وتلمسان والجزائر ، مما يأتي ذكره • والمخلط في الأحداث الكبرى والاختلاف  
في توقيتها لا ترجع مسئوليتها الى الكتاب وحدهم ، بل كثيرا ما يكون

(٥٥) السان ( ابن عذاري ) ، ج ٤ ص ٢٢ •

(٥٦) البيان ، ج ٤ ص ٢٣ •

بسبب طبيعة الأحداث نفسها • فحرب الصحراء والحلاوات حيث يكون أسلوب القتال ، هو الأسلوب البدوي المبني على فن « الكر والفر » أو الفارات التي يقصد بها الاستكشاف قبل الاستحواذ والاستقرار أو الخضوع والحلف العسكري •

وبناء على كل ذلك يختلف الكتاب في تحديد المسار الزمني لأحداث للتوسع المراتبي في بلاد المغرب على عهد يوسف بن تاشفين ما بين الاختصار المخل ، كما في كامل ابن الأثير ، ونهاية التويري • والاسهاب المختلط ، كما في قرطاس بن عذارى ، الذي حاول ابن خلدون ترتيبه - دون الإشارة الى ذلك صراحة - وبيان ابن عذارى الذي نفتقه - للأسف الشديد - بعض أجزائه ، والذي يعتبر بمثابة العمود الفقري بالنسبة لتاريخ المغرب ، منذ بدايته وحتى أيام المؤلف ، في مطلع القرن الثامن الهجري ( ١١٤ م ) والذي نفضل أن نتخذ روايته مصدرا أولا في هذا المقام ، طالما وجدت ، مع المقارنة والمقابلة مع النصوص الأخرى ، حسبا يقضى المنهج ، وعلى قدر الطاقة •

#### فتح الأقاليم البحرية في شمال المغرب :

##### خضوع منطقة سلا :

وهنا نرى أنه كان على يوسف بن تاشفين أن يبدأ بتهدين ببلاد المغرب ، حسب سياسته التي انتهجها بقصد تحبيب القبائل فيه وتحالفها معه • ونسجل أنه لا بأس من تعديل تاريخ الرواية التي يقدمها ابن أبي زرع في تهدين المغرب الزناتى ، من : السوس الأدنى ، بلاد مكناسة وفاس ، الى : غمارة والريف ، من حيث تزامنها مع خروج أبي بكر الى الصحراء في سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ( ٥٧ ) • ففي هذا الوقت تقول الرواية ان ابن تاشفين هدن البلاد حتى ملوية ، في تخوم المغرب الشرقية ، وأنه ميز ( عرض ) جيوشه ، فوجد ٤٠ ( أربعين ) ألفا من المراتبين ، فانتخب منهم النصف ( ٢٠٠٠٠ ) من حرسه الخاص ومن المقيمين من لتونة وجعلهم تحت قيادته ، بينما قسم الآخرين ( ٢٠ ألفا ) الى ٤ ( أربعة ) ألوية ، كل منها ٥ خمسة آلاف رجل حسب تنظيمهم القبلي ، وجعل لكل لواء قائدا • فكان على لواء

---

( ٥٧ ) انظر القرطاس ، ص ١٢٨ - حيث تقديم أبي بكر ليوسف في الإمارة سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١ م الى رأينا أن تقدم ١٠ سنوات فتصبح سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حسب رواية ابن عذارى - انظر ما سبق ، ص ١٦٨ ، ص ٢٥٦ وهـ ١٦ •

جدالة : محمد بن تميم ( الجدالي ) وعلى مسوفة : عمر بن سليمان ( المسوفي ) ، وعلى تلكاتة : مدرك ( التلكاتي ) ، وعلى لتونة سير بن أبي بكر ( اللبتوني ) . وتقدمت الألوكة الأربعة يتبعها يوسف بن تاشفين ، ساقه للامن والحماية ، وهم يغزون قبائل المغرب ، قبيلة بمد أخرى ، وبدا يمد يده ، وقوم يغزون منهم ، وقوم يقاتلون ، وقوم يدخلون في طاعته (٥٨) ، الأمر الذي يمني إقرار السلام المرابطي في تلك البلاد ، بدخول قبائل البربر من الزناتية ( البتر ) في الطاعة ، وقبول دفع الضرائب المقررة .

والحقيقة أن أهمية هذا النص تتلخص في أنه يصف ببناء الجيش لتاشفين في بداية عهد أمير المسلمين ، يوسف ، وكيف أن نواته كان لحرس الأميري ، وتوابعه الرئيسية إلى جانب لتونة ، هي قبائل : جدالة ومسوفة وتلكاتة ( التي ربما كانت من اخفاذ لتونة ؟ ) .

أما عما بعد اخضاع القبائل في إقليم ملوية ، فيفهم من رواية ابن عذاري ، أن أول أعمال يوسف بن تاشفين بعد أن آلت إليه الامارة ، هو التأكد من خضوع قبائل يرغواطة ، في حيز سلا من بلاد تامسنا المتاخمة للسوس الأقصى . ففي شهر صفر من سنة ٤٦٦هـ/ أكتوبر ١٠٧٣م التالية لاعتزال أبي بكر ، وجه ابن تاشفين جيشا ضخما بقيادة الأمير مزدي بن بانلوتكا نحو سلا ، فكان مجرد ظهور القائد المقرب من الأمير كافيا لتقديم القبائل هناك فروض الطاعة ، بما يستتبع ذلك من دفع الضريبة - على ما هو متعارف عليه . وهكذا لم تستغرق حملة استعراض القوة هذه أكثر من ( ثلاثة ) أشهر ، إذ كان خروج مزدي من تامسنا نحو مراکش ، في ٢٥ ربيع الثاني/ ٢٩ ديسمبر من نفس السنة (٥٩) .

#### التوسع في السوس الأدنى : فتح مكناسة :

من الواضح في حوليات ابن عذاري ، أن عملية تهديد تامسنا كانت مقدمة لضم السوس الأدنى إلى الدولة المرابطة بشكل نهائي على يد يوسف بن تاشفين ، بمعنى أن ما قام به المرابطون قبل ذلك في السوس الأدنى كان مجرد أعمال تمهيدية لضم النهائي ( ما سبق أعلاه ) . ففي سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م كان يوسف بن تاشفين ، يوجه حملة عسكرية تحت

(٥٨) القرطاس . ص ١٣٨ .

(٥٩) البيان ، ج ٤ ص ٢٦ - ٢٧ .



قيادة بطي بن اسماعيل ، تهدف الى تأكيد خضوع زناتية مكناسة ، وعلى رأسهم : الحير بن خزر الزناتى . فعندما وصلت الحملة الى قلعة يهت ، بعث القائد بطي رجل يريده عداء ( رقاى ) الى الحير بن خزر يخبره بالمغور عنه نظير عودته الى الطاعة ، ويسلمه الخطاب الخاص بالأمان ، اذا ما سلم مدينة مكناسة ، وسار معه الى الحاضرة مراكش للقاء الأمير يوسف .

وعقد الحير اجتماعا لرؤساء زناتة وعرض عليهم الأمر فهاهم ما سمعوا ، وعبروا عن تمسكهم برؤاسته وبأنهم على استعداد للقتال حتى النصر ، واخراج الجيش للمتونى من بلادهم . وهنا أنهمم الحير أنه لا سبيل الى ذلك ، وأعلمهم أنه سيرسل القائد المرابطى للتفاوض معه . وأوفد فعلا سفيرا من لدنه ، وهو : متفاد بن عبد العزيز الزناتى ، الذى احتفى به بطي وأكرمه . وبعد مشاورات عبر فيها رسول مكناسة عن أن الحير ومن معه هم رجال يوسف بن تاشفين ، وأنهم متمسكون بالاجتماع معه للاتفاق على الشروط الخاصة بتسليم البلاد . وعندما أعلن القائد المرابطى أنه يضمن من جانبه ، تنفيذ تلك الشروط انحلت الأزمة . وهكذا خرج الحير بن خزر الزناتى ومن كان معه من قواد زناتة ، الى موضع القناطر ، خارج مكناسة ، ودخل بطي بن اسماعيل المدينة ، ورتب شتونها كولاية مرابطة ، وعهد بحكمها الى الأفضل للمتونى .

وبعد أن اطمان بطي بن اسماعيل على حسن سير الأمور بمكناسة ، خرج ليصحب الحير ومن معه من الزناتية ، الى مراكش . وهناك حظى الزعيم المكناسى بمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين الذى أنعم عليه بكل ما اراده ، ثم انه أذن له بالانصراف ، فعاد الحير الى وطنه ، ولكنه أقام بخارج مكناسة حيث بقى حتى وفاته (٦٠) . وبذلك تهدنت مكناسة ، واطمانت الى دخولها فى حظيرة الدولة المرابطية ، على عهد يوسف بن تاشفين .

#### فتح فاس :

بعد ضم مكناسة كان من الطبيعى أن يأتى دور عاصمة السوس ، الأدنى ، قيروان المغرب الأقصى ، فاس : مدينة الشرفاء الأدارسة ، ومقر آخر سلالتهم الموحدين ، خلفاء قرطبة بعد المرwanيين . فبعد وصول الحير بن خزر الزناتى الى حضرة مراكش كان أول ما فكر فيه يوسف بن تاشفين

هو اخضاع حكام فاس الزناتية المغراويين بدورهم ، وضم المدينة « المقدسة » الى دولته ، الامر الذي كان يضيف المزيد من البهاء عليها والاجلال . وفي هذا طبلو المغم بروج النصر سير ابن تاشفين « عسكريا جرارا » عهده بقيادته الى قائد من بنى عمه المقربين ، هو : يحيى بن واسينوا اللمتوني ، لمنازلة فاس .

وكان وصول يحيى الى فاس في آخر رجب سنة ٤٦٧هـ / ١٩ مارس سنة ١٠٧٤م ، حيث كان أبناء حمامة الذين حوصروا حصرا شديدا ، لمدة ٧ ( سبعة ) ايام حتى استسلموا في اليوم الثالث ، ودخل رجال يحيى ابن واسينوا المدينة عنوة ، بعد مقتل كثير من المدافعين . واستبيحت فاس لفترة من الوقت ، سلبت في اثنائها الدور ونهبت الأموال ، قبل أن يعلن العفو عن أهلها والأمان لهم . ونجح الفتوح ودوناس ابنا حمامة في الاعتصام بقصرهما بعض الوقت ، ثم انهما طلبا الأمان فعفى عنهما ، وان كان في نفسيهما فقط ، دون الأموال . وأرسلت الكتب باخبار فتح فاس الى حراكش ، فأمر يوسف بن تاشفين باطلاق سراح الأميرين الزناتيين ابني حمامة ، والسماح لهما بالمسير أينما شاءا ، فرغب الفتوح في المسير الى بلاد مغليلة . وبذلك تكون لتونة قد استولت نهائيا على فاس ، وضممتها الى دولتها المرابطية (٦١) .

ولا نعرف ان كانت رواية القرطاس ( الهامش السابق ) تتألف اذ نقول ان يوسف بن تاشفين قتل من أهل فاس بجامع الفرويين وجامع الأندلس

(٦١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٢٨ . وقارن القرطاس ، ص ١٤١ - حيث الفتح الثاني لفاس سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ، مع فتح جميع بلاد غمارة وجبالهم وبلاد الريف الى طنجة . اما عن الفتح الثالث لفاس فكان يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٣ هـ / ١٨ مارس سنة ١٠٧٠ م حيث نزل عليها يوسف بن تاشفين بجمع جيوشه ، وشدد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف ، فقتل من مفراوة بها ، وبني يفرن ، ومكناسة ، وقبائل زنانة حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتل ، وقارن الببر ، ج ١ ص ١٨٥ ، انظر القرطاس ، الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م بتحريض صاحب مكناسة مهدي بن يوسف الجزناني ، ثم الفتح الثاني ( ص ١٨٥ ) - حيث قتل مناصر ، ثم الفتح الثالث ( ص ١٨٥ ) - حيث أخذت عنوة ببدي يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ، وقارن صبيح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . والفتح الثاني ( ص ١٨٨ ) - حيث قتل مناصر سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، والفتح الثالث ( ص ١٨٨ ) ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م - حيث فتحت عنوة ، وهرب الناجون الى تلمسان .

ما يزيد على ٣ ( ثلاثة ) آلاف رجل ، وأنه فر من بقي منهم الى أحواز تلمسان . هذا ، وإن كان لا بأس فيما تقوله تلك الرواية من أن يوسف بن تاشفين قام بنحسب مدينة فاس عندما دخلها ، وإن اعتبرت أن أمره بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين المدينتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، بمعنى توحيد المدينة المفسمة ، وجعلها حاضرة واحدة ، وكأنه نوع من العقوبة التي أنزلت بأهل فاس(٦٤) . أما ما تقوله الرواية من أنه اعتنى بفاس ، وأنه أمر ببنين المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها وأنه عاقب أهل كل زقاق لم يجد فيه مسجدا ، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، إلى جانب أنه بنى الحمامات والفنادق والأرواح ، وأصلح أسواقها وهدب بناءها(٦٥) فنرى أنه من أعمال العمران التي عرفت في فترات الاستقرار التالية بعد تمام الأعمال العسكرية . وربما كان ذلك على أواخر أيام يوسف ، أو حتى في عهد تالية . فذلك بعامة ، من سمات تصور الاسترخاء والترف ، التي تناوأت عصور الانجازات العسكرية والسياسية الكبير(٦٦) .

#### فتح تلمسان :

لما كانت بقايا زناتة المنهزمين في فاس ، قد فروا الى أحواز تلمسان ، حسبما تنص رواية ابن أبي زرع(٦٥) يصبح فتح تلمسان من الأحداث التالية لفتح فاس ، كما يأتي عند ابن عذارى ، وذلك في سنة ٣٦٨هـ / ١٠٧٥م ، التالية . فلقد جهز يوسف بن تاشفين لهذا الأمر جيشا ضخما عهد بقيادته الى قرية القائد مزدي المتونى ، وسيره نحو تلمسان مزودا بخطاب الى أميرها العباس بن يحيى ، كبير زناتة هناك ، يمهده فيه بالمفو اذا ما أذن للقائد المرابطي دون قتال . وخرج ذلك الجيش من مراكش في أوائل المحرم ٤٦٨هـ / أغسطس ١٠٧٥م لكي يصل الى تلمسان في أواخر صفر / منتصف سبتمبر ، بمعنى أن الرحلة استغرقت زهاء شهرين ، الأمر الذى يبرره ضخامة الجيش وصعوبة إمداده وتموينه على طول الطريق .

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٦ ، وفارن المير ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٤) القرطاس ، ص ١٤١ .

(٦٥) إسطر القرطاس ، ص ١٤١ - ١٤٢ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين بعد أن فتح فاس أمام بها الى شهر صفر سنة ٤٦٣ هـ / نوفمبر ١٠٧٠م ( وهو التاريخ السابق على توقيت ابن عذارى بـ ٥ (خمس) سنوات - كما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١ ) . ثم أنه خرج منها الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاطا سنة ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م التالية ، فارن المير ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٥) ما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١ .

والمهم أنه بمجرد أن قدم ساعى البريد ( الرقاص ) الخطاب الأميرى الذى حملة مزىلى الى العباس ، يادر هذا الأخير بمقادرة تلمسان ، ودخلها مزىلى بقواته المرابطية « فى مهلة وحال هدنة » . وبعد أن رتب مزىلى أحوال المدينة ، عهد بولايتها الى ابنه : يحيى بن مزىلى ، وعاد هو وبصحبه العباس الى مراكش ، فوصلها فى ٥ ربيع الثانى/ ١٨ نوفمبر ، فكانه لم يمكث فى تلمسان الا أسبوعين أو ثلاثة ، على حساب أن رحلة العودة كانت أسهل ، من حيث بقاء حامية مرابطية معقولة الحجم فى تلمسان ، خففت من ثقل المسكر المائد الى الحاضرة .

وفى مراكش ، ومثلما حدث للخير صاحب مكناسة ( ص ٢٧٥ ) ، حظى العباس بلقاء الأمير يوسف الذى أنعم عليه بكل خير ، ومن ذلك امتيازات خاصة يتمتع بها فى بلده ، ربما كان أهمها الاعفاء من دفع الضريبة ، بعد أن سمح له بالانصراف اليه والاقامة فيه (٦٦) .

وآخر ما تسجله رواية ابن عذارى التى عثر على أوراقها مؤخرًا فى جامع فاس ، والخاصة بفتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، هو حروبه الشديدة فى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ضد أمير تازا أبو يعلى ( الزناتى ) فى فحص الوادى . وكان يعاون هذا الأخير أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن ابن أبى العافية الذى كان قد غلب على فاس بعد مقتل تميم بن معنصر سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م الذى كان على رأس الزناتية الذين انتصروا على المرابطين بموضع أجريسيف (٦٦) .

ومما يؤسف له أن بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب تنقطع فى ابن عذارى بعد فتح تلمسان حيث يوجد خرم كبير ، ضاعت فيه أخبار

---

(٦٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ ، وفارن القوطاس ، ص ١٤٣ - حيث وضع فتح تلمسان سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، على يدى مزىلى ، على رأس ٢٠ ألفا وظهره بأمرهما ممل بن يعلى المرغوى الذى قتل ، ثم عودته الى مراكش حيث لقي فيها يوسف ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على قتل العباس بن يحيى أمير تلمسان . وأنزل محمد بن تيمضر المستوفى بها فى عساكر المرابطين ، فصاروا فقرا للكل ، واختلط مدبنة تاكراد ( تاجرراد ) بكان محلته ، وهو اسم المحلة بلسان البربر .

(٦٦م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ - حيث النص خطأ على أن أبا القاسم بن أبى العافية كان رأس ثمنونة ( بدلا من زناتة ) ، مع الإشارة الى أن توقيت هذا الحدث ربما كان فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، السابقة .

الأحداث من سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م الى ٤٩٥هـ/١١٠١م (٦٧) ، الأمر الذي يتطلب الرجوع الى قرطاس ابن أبي زرع ، الذى نلاحظ أن توقيتاته الأخيرة للأحداث تقترب من تاريخ ابن عذارى وهو ما يطمئن بمضى الشيء ، الى جانب الاستعانة بغيره من الروايات المتأخرة ، مما فى الحلل الموشية وغيره من كتب التاريخ أو التراجم .

#### تهدين البلاد والتقسيم الإدارى :

والذى يفهم من رواية القرطاس انه عند مستوى هذه الفتوح التى أضاف إليها يوسف بن تاشفين فتح مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، وكذلك جبل علودان بمنطقة فاس ، ثم فتح جبال غياطة وعدد من مستوطنات القبائل ، مثل : بنى مكود ، وبنى رهينة ، من أحواز تازا عند ابن خلدون ، مع ربح المخالفين (٦٨) ، اطمان يوسف بن تاشفين الى اكتمال نمو الدولة المرابطية تحت رعايته ، بمعنى أنها أصبحت امبراطورية متحدة ، يسودها الأمن والسلام ، ويمترف بها رؤساء الأقاليم ومشايخ القبائل ، فلم يبق أمامه سوى اعتراف هؤلاء جميعا بسلطنته وحده دون قرين أو منافس منهم ، فكانه كان يستحق يومئذ لقب « أمير المسلمين » الذى يميزه عن سائر الأمراء .

وهكذا ، وجه يوسف بن تاشفين الدعوة الى « أمراء المغرب ، وأشباه القبائل ، من : زناتة ، والمصامدة ، وغمارة وسائر قبائل البربر ، فقدموا عليه ، وبايعوه ، فكسى جميعهم ، ووصلهم بالأموال » \* وأكثر من ذلك تضيف الرواية أنه « خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر الى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس » (٦٩) . كما كان عليه أن يهيئ نظم الدولة السياسية والعسكرية ، بما يضمن لها الاستقرار ، والاضطراد فى النمو والنجاح .

وهنا كان على يوسف بن تاشفين إعادة تقسيم البلاد الى ٤ ( أرومة )

---

(٦٧) انظر البليان ، ج ٤ ص ٣٠ ، هـ ١ - حيث النص على ان هذا الحرم ضيع بقية فنوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، وانصار جوازاته الى الأندلس ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط أكثر دول الطوائف وذلك ما يمكن ملاحظته فى روض القرطاس والحلل الموشية وغيرها .

(٦٨) القرطاس ، ص ١٤٢ - حيث تم ذلك فيما بين سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م و٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، وانظر البر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٦٩) القرطاس ، ص ١٤٢ .

ولايات ، لكل منها قائد من أهل الخبرة والثقة ، المقربين كالأتي :

- ١ - مكناسة وبلاد مكلاته ، وبلاد فازاز ، ويليها : سير بن أبي بكر .
- ٢ - فاس وأحوازا ، ويليها : عمر بن سليمان .
- ٣ - سجلماسة ودرعة ، ويليها : داود بن عائشة .
- ٤ - مدينتا أغمات ومراكش ، وبلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، وبلاد تامسنا ، ويليها : ولده : تميم بن يوسف بن تاشفين (٧٠) . فكان تلك الولاية التي تمثل قلب الدولة المرابطية ، اقطاع ولي العهد ، أوسمة لمنصب ولاية العهد - تماما كما كانت ولاية ديوان المغرب ( النصف الغربي للدولة العباسية ) ببغداد من رموز ولي العهد على أيام المهدي والرشيد .

#### غزو العدو الإفريقية : سبينة وطنجة :

والحقيقة انه كان قد بقي جزء مهم بالنسبة لدولة الرباط لم يعد في حوزتها ، ألا وهي عدوة الأندلس الإفريقية ، ممثلة في منطقتي سبينة وطنجة . فهذا ما تنبه اليه مؤرخو المرابطين عندما قالوا : ان عبد الله بن ياسين ، عندما دخل تامسنا للقضاء على هرطقة برغواطة ، كان يعلن أنه لا يطلب منهم الا التخلي عن منطقة العبور الى الأندلس ، أرض الجهاد حقيقة ( ما سبق ، ص ٢١٣ ، ٢٣٠ ) .

وإذا كان هذا الأمر وقتئذ بعيدا عن تفكير ابن ياسين وزعماء الملثمين ، فإنه لم يعد كذلك بعد أن وصلت الفتوح في المغرب على أيدي يوسف بن تاشفين الى تخوم كل من سبينة وطنجة ، بل والدخول في صراع مع أسرة لكوت الحاجب ، الذي ورث ولاية سبينة من الحموديين . والظاهر ان ما فعله ابن ياسين ، أعاد سيرته ابن تاشفين من جديد . فهذا ما يفسر رواية ابن أبي زرع التي تقول ان بداية اتصال المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بيوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز يرسم الجهاد ونصر البلاد ، كان في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م . وان رد ابن تاشفين السلبي كان مبررا بأنه لا يملك سبينة وطنجة ، مما دعا ابن عباد الى أن يرض عاياه معونته البحرية لتمكين قواته البرية من تحقيق هذا الهدف (٧١) .

---

(٧٠) القرطاس ، ص ٦٤٢ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٧١) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقرآن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث النص : « ثم استدعاه المعتمد بن عباد الى الجهاد ( سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ) فاعتذر بمكان الحاجب (سكوت) وقومه من اولياء الدولة الحمودية بسبينة ، فاعاد اليه ابن عباد الرسل بالمشايعة اليهم ، فجهر اليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لتونة ... الخ » .

والذي نراه انه لما كان سقوط طليطلة بين أيدي القشتاليين قد وقع في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أي بعد عشر سنين وأكثر ، فإن تبرير فتح سبتة وطنجة بفرض معونة أهل الأندلس في كفاحهم ضد خطر أمراء الدويلات الأسبانية المسيحية وملوكها ، لا ينهض دليلاً مقنعاً في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، حيث كانت فتوح المرابطين في شمال المغرب قد وصلت الى تخوم العدو . فضلاً عن طرد البرغواطيين من آل لقوط من أغمات ( ما سبق ، ص ٢١٦ ) وهكذا كان من الطبيعي أن يبدأوا غز سبتة وطنجة قريب ذلك الوقت ، على يد يوسف بن تاشفين ، بصرف النظر عن الأزمة الأندلسية التي كانت تتراوح مكانها ما بين تقييم فكرتي محاسن ومثالب الاعتماد على الذات ، وطلب المعونة من وراء الزقاق ، سواء من العرب أو من البربر .

#### فتح طنجة :

ففي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، قبل ٨ ( ثمان ) سنوات من سقوط طليطلة ، سير يوسف بن تاشفين قائده صالح بن عمران نحو طنجة على رأس جيش كبير من ١٢ ( اثني عشر ) ألف فارس من المرابطين ( لمتونة ) ، و ٢٠ ( عشرين ) ألف رجل من سائر القبائل الزناتية وغيرهم ( ٧٢ ) . وعندما اقتربوا من تخوم طنجة خرج اليهم الحاجب لكوت الذي كان وقتئذ ، شيخاً معمرًا في الـ ٨٦ ( السادسة والثمانين ) من عمره ، بمن لديه من العساكر . وكان اللقاء في موضع وادي منى قرب طنجة ، وانتهى القتال الشديد بمقتل لكوت ، وهزيمة جيشه . وبذلك دخل المرابطون طنجة بينما بقيت سبتة بين يدي ضياء الدولة يحيى بن لكوت الذي اعتصم بها ( ٧٣ ) .

وأعقب ذلك فتوح بلاد الريف ، من جرسيف الى مليلة ( سنة

---

(٧٢) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥ - حيث اختصار تفصيلات القرطاس . هذا ولقد جعلنا جيش الزناتية رجالة في مقابل فرسان لمتونة ، بناء على رواية ابن خلدون التي يقول فيها بعد بناء مدينة مراکش ( ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ) ان ابن تاشفين سرق عزمه الى مطالبة مفراوة ، وبني يفرن ، وقبائل زناتة المغرب ، وجنب الخيل من أيديهم ، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم ، المير ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٧٣) القرطاس ، ص ١٤٢ - ١٤٣ - حيث النص على تصميم الحاجب لكوت على مقاومة المرابطين حيث قال : والله لا يسمح أهل طنجة بطول اللمتونيين وأنا حي ، الى جانب النص على بقاء الحاجب ضياء بسبتة . وكتابة القائد صالح بالفتح الى يوسف ( فتح طنجة ) .

٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ) وتخريب نكور ، فلم تقم لها قائمة يعلمها ، وفتح وجسم  
وتنس ووهران وجبال وانشرش ، وجميع أعمال وادي شلف حتي مدينة  
الجزائر ( في سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ) ، وكسل ذلك على يد يوسف بن  
تاشفين فيما بين ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (٧٤) . ويكون ختام  
فتوح المغرب بطلب المعتمد بن عباد المونة لمواجهة العدو بالاندلس ، وذلك  
في سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م حيث يرد يوسف بن تاشفين بأنه سيلبى النداء  
إذا فتح الله له سبته ، كما سبقت الإشارة (٧٥) - فكان فتح سبته كان من  
شئون فتح الأندلس ، بمعنى المقدمة الطبيعية لمحاولة انقاذ بلاد المسلمين  
مما كان يتهدها من خطر حرب الاسترداد ، وذلك على أيدي المرابطين .

---

(٧٤) أنظر القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث دجوع يوسف بن تاشفين إلى الجزائر ، عقبه  
فتوح سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، ربيع الثاني ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، وقارن ابن خلدون ،  
العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ .  
(٧٥) أنظر ما سبق ، ص ٢٨٠ وما بعد ، ٢٩٧ .



## الفصل السادس

### المرابطون وحرب الاسترداد في الأندلس :

#### على عهد يوسف بن تاشفين :

كان من الطبيعي ، وقد استكمل يوسف بن تاشفين فتوح المغرب الأقصى بضم طنجة بعد غمارة وبلاد الريف وفاس (٤٦٢ هـ / ٧٠ - ١٠٦٩ م) أن يوجه الزعيم المرابطي أنظاره الى ما وراء المضيق ، الى الأندلس التي كانت تعاني من وطأة حرب الاسترداد (الركونكستا Reconquista)) التي كانت تمثل وقتئذ ، خطرا داهيا على الوجود العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ، الأمر الذي كان يتطلب نوعا من الانقاذ العاجل من جانب الأخوة المغاربة فيما وراء العدة . والحقيقة ان هذا ما كان يدور بخلد عبد الله بن ياسين ، مؤسس الحركة المرابطية ، عندما دخل تامسنا ، وأعلن انه جاء يطلب اخلاء الطريق امامه نحو الأندلس أرض الرباط الحقيقي والجهاد . وبصرف النظر عن صحة هذا الادعاء وقتئذ ، فالمعروف تاريخيا أن هناك نوعا من الربط ، بناء على الواقع الجغرافي بين كل من شبه جزيرتي المغرب والأندلس ، فالتنظيم السياسي الأقوى في أي من البلدين عادة ما يفرض نفوذه الممنون ان لم يكن سلطانه المادي على الطرف الآخر .

وهكذا ، وفي إطار التجربة الاسلامية كان الفتح العربي للأندلس حتمية تاريخية بعد فتح المغرب الأقصى ، ترتيبا على تداعي الأحداث (١) . وعندما قويت كل من دولتي المرابطين بالأندلس ، والفاطميين بأفريقية التونسية ، وارتفعتا الى درجة الخلافة ، ظل الصراع محتما بينهما من أجل السيطرة على العدة المغربية في سبتة وطنجة . وعندما هاجرت خلافة المهدي الى القاهرة ، واضمحلت خلافة قرطبة ، رنا الحماديون ، سلالة الأدارسة في فاس ، بأبصارهم نحو قرطبة في محاولة للملء الفراغ الذي

---

(١) وفي ذلك قبل ان فتح الأندلس كاد يتم منذ أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان . انظر المير ، ج ١ ص ١٦٢ ، كما قيل ان حراكب الفتح أحرقت تمهيدا للفاطحيين ، فكانه استكمل بجلاء المعادين الأوائل من أصحاب طارق ، أو بفوت حاجة الى أسطول : انظر أحمد مختار الملبدي ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ وما بعدها .

تركه المروانيون هناك • وكان فشل احياء حكومة الخلافة في قرطبة - بصرفه النظر عن لونها السياسي أو المذهبي - ايذاناً بعصر الطوائف ، عهد التفتت السياسي وبالتالي الضعف العسكري والمعنوي الذي عانت منه بلاد المغرب الأقصى ايضاً ، فكانت حركة الاحياء المرابطة تحت مظلة الاصلاح الديني والتجديد الثقافي والروحي ، بمثابة المنقذ من « الضلال » ، سمة العصر حسيماً يفهم من عنوان بعض كتب الفزالي ، امام الاسلام المعاصر وقتئذ - وفي كل وقت •

وهنا لا بأس في محاولة تقييم الموقف العام في الأندلس ، في ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس الهجري/ ١١ م ، على المستويات المادية والمعنوية المتشابكة في مجريات الحياة اليومية هناك ، بهدف حسابان أوجه الكسب والخسارة ، وأن كان من الممكن إعادة الاتزان المختل الى كفة الميزان ليعتدل • فمن الجانب الآخر كانت الجبهة المسيحية ، وهي تقود حرب الاسترداد ( الريكونكيستا ) ، تتكثل وتقوى ، في مقابل التفتت والضعف في الجانب الاسلامي ، حيث كانت الطوائف تخسر المعنويات مع خسران الأرض ، وبالتالي تضل الطريق في غمرة الدهشة الى عملية الانقاذ ، وهو طريق الوحدة والقوة فتتمادى في متاهة التقسيم والفرقة ، طريق الأغراض الشخصية من : عارضة وأمانية(٢) •

وفي هذه الظروف التعمسة ومع انكماش الحدود الاسلامية متراجعة نحو الجنوب والغرب يوماً بعد يوم ، أصبحت أراضي الأندلس الاسلامية وكأنها جميعاً جبهات قتال لا صاحب لها (no man's land) ، لا تعرف لها خطوط فاصلة أو حدود • وهكذا ، بينما كان يوسف بن تاشفين يهدن المغرب الأقصى فيضم المداين ويخضع القبائل ، كان فرناندو الأول ( ابن شانجه ) يضم مملكة ليون الى قشتالة ، ويفرض هيمنته على بقية الممالك الاسبانية ، من : شمالية مسيحية ، مثل غاليسيا ( جليقية ) وأراجون ، وجنوبية اسلامية ، تدفع الجزية ، مثل : سرقسطة وطليطلة وبطليوس حتى

---

(٢) انظر جوليان ، تاريخ الفريزية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٠ - حيث عند الطوائف ٢٣ دولة ، وانظر الخريطة ، كذلك ، شكل ١١ ، ص ١١٢ • وقارن زامباور ، الترجمة ص ٨٦ - ٩٢ - حيث تعداد ٢٥ مملكة ، أولها مالقة وآخرها دانية ، ويضاف اليها ميورقة ذات الدولتين : بنو مجاهد وبنو غانية ثم مملكة مينورقة ( رقم ٢٧ ) حيث دولة ابن الحكم النرسي •

اشبيلية وتابعتها قرطبة . وكانت فرصة مواتية لكنيسة روما انتهزها البابا اسكندر الثاني الذى أصدر فى سنة ١٠٦٣ م/ ٤٥٥ هـ ، مرسوماً بالفقران لكل من يساهم من المسيحيين فى قتال المسلمين بالأندلس ، فكان ذلك حافزاً لكثير من الفرسان الفرنسيين على المشاركة فى الصليبية الاسبانية ، بمهاجمة قلاع المسلمين الشمالية فيما وراء الجبال (٣) . بينما كانت جماعات أخرى من الفرسان الاسبان المسيحيين ( أو المستعربة ) مثل : السيد (El-Cid, Mio Cid) عند المسلمين وهو القنيطور (Camplador) بمعنى البطل عند الاسبان ، ممن يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع الثمن ، يثقلون بأحمالهم على صدور المسلمين ، فيزيدونهم وهناً عن وهن ، بانهاكهم عسكرياً واستنزافهم مالياً(٤) .

#### تهديدات الفونسو السادس :

وهكذا ، وفى الوقت الذى كانت قوات يوسف بن تاشفين تدخل طنجة تمهيداً للعبور الى الجزيرة الخضراء ، كانت الأخبار تترى عبر الزقاق ، عن تلك القارة الجريئة التى قام بها الفونسو السادس ( وريث فرناند الأول ) فى سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م ، حيث « شق بلاد الأندلس شقاً ، يقف على كل مدينة فيها ٣ ( ثلاثة ) أيام ، فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ويرتحل الى غيرها »(٥) . وفى تفصيل ذلك يقول ابن أبى زرع ان الملك القشتالى نزل على اشبيلية فأفسد أحواضها وخرّب كثيراً من قرى مزارعها وجناتها المعروفة بالشرف ، وكذلك الأمر بالنسبة لشسونة وأحواضها . وهنا تخرج الرواية من نطاق الواقع التاريخي الى رحاب القصص الشعبي ، فتص على أن الفونسو السادس أدخل قوائم فرسه فى البحر ، وقال « هذا

(٣) أنظر جوليان ، ( ش ١٠ ) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١١ .

(٤) أنظر جوليان ( ش ١٠ ) ، ج ٢ ص ١١٢ - حيث اسم السيد : رددى ( دياز دى ليفار : Diaz De Vivar) وكان له دور سياسى فاضل ، فكان يضع سيفه مرة فى خدمة ملك فشتالة ، ومرة فى خدمة دولة بنى هود بقرقطة ، وكان فى أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية ، وقارن حسن أحمد محمود قيام المرابطين ، ص ٢٥٠ - حيث النص على بلوغ حرب الاسترداد ذروتها بطولية « فرديناند » ليس بانضام المسلمين فقط ، بل وبجلالهم عن البلاد استناداً الى رواية ابن عذارى .

(٥) القوطاس ، ص ١٤٢ - حيث النص على أن جيوش الفونسو السادس كانت لا يصير عدداً ، من : الروم ( الاسبان ) ، والأفرنج ( الفرنسيين ) والبشكنس ( الباسك ) والجلالة ( الغاليسيين ) وغيرهم .

آخر بلاد الأندلس وطائنه ( وطنته ) (٦) ، فكانه يמיד سيرة عقبة بن نافع في اجتياحه الثاني للمغرب (٤٦٢ هـ/ ٧٠ - ١٠٦٩ م ) التي تحل هنا محله بلاد المسلمين الأندلسية (٧) .

ومن الواضح أن الرواية تنصد أن تلك الفارة ابعيدة المدى كانت تهدف الى التظاهر بالقوة ارهابا للمسلمين ، اذ تنص على أنه عندما عاد الفونسو السادس نحو بلاده ، عرج على سرقسطة وضرب عليها الحصار ، مظهرا الزعم على الاستيلاء عليها ، الأمر الذي دفع اميرها المستعين الى ابوابها ، بما كان قد قصر في دفعه من انضريبة السنوية ، مع ما اقتضاه الحال من الزيادة (٨) .

سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م :

#### وحتمية التدخل المرابطي :

والحقيقة أن سقوط طليطلة بين يدي الفونسو السادس ، في سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م ، أتى ليكرس عجز نظام الطوائف عن مواجهة الخطر المسيحي في الأندلس ، بل وينسدر بحلول النكبة ( الفاقة ) ، فكان من الطبيعي أن تتوجه أنظار أهل الأندلس ، حكاما ومحكومين رضوا أم لم

(٦) القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٧) عن عقبة ، أنظر ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٨) القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث النص على أن الملك القشتالي حلف ألا يرحل عن سرقسطة حتى يخلعها أو يموت دون ذلك ، وأنه أراد أن يقدم فتح سرقسطة على غيرها من بلاد الأندلس ، الأمر الذي يعني - حسبنا نرى - أنه أراد ألا تكون شوكة في جنبه عندما يفخر على بلاد المسلمين في الجنوب ، وأن كان يقف دونه قوة تحصينات سرقسطة واستعدادها لمواجهة الحصار الطويل يسوقه المغزون في أمراءها من الطعام ، وهو ما جعلنا نرجح أخذ الملك القشتالي للضريبة التي ربما زيد قمرها بعض الشيء ، رغم مقولة أنه لم يقبل المال من المستعين ، اذ قال له : « المال والبلاد لي » ، التي ربما عبرت عن الاستيلاء على سرقسطة بعد حين ( ما بينه ، ص ٢٨٨ ، ٣٩٠ ) - وانظر جوليان ، الترجمة ج ٢ ص ١١٣ - النص على أن ملك سرقسطة ( ابن هود ) كان يلقى عدا كبريا في الصمود أمام ضراوت ملك الأراغون وكونتات برشلونة ، وقارن ص ١١٢ - حيث النص على أنه أولا الخدائن والصفاء بين السيد القنيطر وبين الفونسو السادس لتحقق النصر لهما على المسلمين ، لاختصار المسيحيين الأجيال ، طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة ، وقارن حسن أحمد محمود ، قيام المرابطين ، ص ٢٥١ - حيث القول ، استفادا الى ابن عسار وأشباه ، أنه بدأ للناس أن أيام المسلمين في شبه الجزيرة صمودات ، وأنه أولا وفاة فريناند سنة ١٠٦٥ م / ٤٥٨ هـ ، وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لزلت دولة المسلمين بالأندلس .

يرضوا ، الى ما وراء المضييق ، تنشد من « أمير المسلمين » العون والنجدة -  
لعل وعسى !

والحقيقة أن تحول طليطلة الإسلامية ، في هذا الوقت الصعب ، الى  
حظيرة اسبانيا المسيحية وإن كانت له أصداء مدوية أو مكتومة ، من حزنية  
أو فرحية في كلا الجانبين ، إلا أن التحول نفسه تم دون ضجة أو كاد ،  
فكانه من أحداث الحياة اليومية في جانب أو آخر . فالحقيقة أن أمير طليطلة  
انقاد بالله ابن ذي النون الذي يوصف بالترف والسرف<sup>(٩)</sup> ، كان تابعا  
متعاوننا لافونسو السادس ، الأمر الذي لا يستريح له عامة أهل المدينة .  
وهنا فكر الفونسو السادس في حل يرضى ظاهريا كلا الطرفين : هو  
والقادر ، وذلك بأن يقايض طليطلة ببلنسة التي كانت للفتيان العامرية  
قبل أن تدخل في طاعته ، الأمر الذي وجد فيه ابن ذي النون حلا لمشكلة  
العامّة المزعجين في بلد<sup>(١٠)</sup> . والحقيقة أن الفونسو كان يترك ببلنسة  
ليتنازل من عبء حليفه غير المضمون ، المحارب القاهر : السيد الكامبيدور  
( ص ٢٨٥ ) ، ليكون تركة « غير مرغوب فيها » بالنسبة للقادر ، الأمر الذي  
سيسفر بعدئذ عن أحداث مأساوية في شرق الأندلس ، مما تاتي الإشارة  
اليه .

---

(٩) بنو ذو النون ، من قبائل البربر الذين كانوا قد دخلوا في خدمة الدولة العامرية .  
ناصل الاسم : « زنون » بربري ، تصحف في شكل عربي فصار « ذوالنون » . ووصل  
منهم : عبد الرحمن بن ذي النون الملقب بالمظفر وهو على ولاية شنتورية الى ملك طليطلة  
عندما طلب منه أهلها - المضطربون دائما - المونة لسير اليها ابنه اسماعيل - الذي أحسن  
حكمها باستشارة أهل الحل والعقد فيها - وعمل رأسهم الفقيه أبي بكر بن الحديدي . وإن  
كان ابن بسام - يعتبره على المستوى العام - جرئمة النفاق والمعيان ، بسبب رفضه  
الاعتراف بإمامة بني أمية في قرطبة . . . وبعد اسماعيل خلفه في الامارة ابنه يحيى ( المأمون )  
فأصبحت طليطلة ملكية وراثية الى أن استول عليها الفونسو السادس ، على عهد القادر  
حبيب المأمون ( ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م - ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م - أنظر ابن عذاري ، ج ٣  
ص ٢٧٦ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢ ( عن ذي النون وابنه اسماعيل ) ، ص ٤٢٦  
( يحيى : المأمون بن اسماعيل ) ، حتى ( فيليب ) ، تاريخ العرب المظلول ، ج ٢  
ص ٦٣٦ .

(١٠) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ( والترجمة ص ٧٦ ) - حيث النص على  
انتهاز الطاغية ( الفوني ٦ ) الفرصة فيها ، بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف ، فحاصر  
طليطلة . وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نال منهم الجهد ، وتسلمها منه مسلحا  
سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م على أن يملكه ببلنسة ، فبعث معه عسكريا من الصراينة فدخل  
ببلنسة ، وتملكها على حين هلك صاحبها أبي بكر بن المزين قبل قليل من حصار طليطلة  
( بين يدى حصار طليطلة ) .

والحقيقة أن ضياع بلنسية من الفتيان العامرين ( الصقالبة ) لا يرجع إلى اعتداءات أمراء قشتالة وليون أو أراجون فقط ، على شرق الأندلس (١١) ، وكذلك الأمر بالنسبة لطليلة ، بل وإلى النزاعات الداخلية مع بني هود أصحاب سرقسطة وغيرهم ، ممن كانوا يلجأون إلى ملوك النصارى وأمرائهم عندما يطلب هؤلاء منهم المونة أو عندما يطلبون هم المساعدة منهم ، حسب مقتضى الأحوال (١٢) . وبذلك لا تقع مسئولية سقوط بلنسية أو طليطة على صاحبها فقط ، إذ المسئولية تضامنية بين زعماء الطوائف جميعا ، وإن أمكن أن يفرد لصاحبى الثغر الأعلى ( ابن هود ) والثغر الأوسط ( ابن دى النون ) نصيب أكبر من المسئولية ، إذ كان لكل منهما - بصفتها حراس الحدود - تحالفات مع المسيحيين ضد بعضهم والبعض ، الأمر الذى كان يندرج بضياع سرقسطة ، عاصمة الثغر الأعلى ومحط أنظار الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ، كما رأينا (١٣) .

#### ما بين الوعى والقبوية :

وبطبيعة الحال لم يكن يخفى على أمراء الطوائف ما يحدث ببلاد المستلمين جميعا ، من الخطر الذى كان يحدث بكل واحد منهم على حدة ، وكثيرا ما كانوا يتوبون إلى رشدهم أو ينوون بشدة وخز ضميرهم ، فيراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى التأزر فيما بينهم للوقوف أمام عدوهم ، ولكننا

---

(١١) من تبدل أحوال بلنسية ، انظر زامبارو ، الأسر الحاكمة ، الترجمة ، ص ٨٩ - حيث الإشارة إلى ملك العامرين لها سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م وفتح السيد القبيطور - لها سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م وفتحها على يد المرابطين سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م . وانظر أيضا حتى ( فيليب ) ، تاريخ العرب المفلول ، ج ٢ ص ٦٤٨ - حيث كان السيد القبيطور ( الميارز ) فى خدمة الفونسو السادس ، ملك ليون وقشتالة ، الذى أقصاه عن بلاده سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ ، وأنه أمرز لقب السيد (El Cid, Mio Cid) وهو فى خدمة بنى هود ملوك سرقسطة ، وأن أشهر أعماله هو اقتحام بلنسية سنة ١٠٦٤ م / ٤٨٧ هـ . (١٢) عن الصراع بين بنى هود ( بسبب استيلائهم على وادى الحجارة ) وبين بنى ذنون أصحاب طليطة الذين لجأوا آخر الأمر إلى النصارى - انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٢٧٧ والصفحات التالية عن غير ذلك .

(١٣) انظر ما سبق ، ص ٢٨٥ - ولا بأس من الإشارة إلى ما تذكره النصوص من قبل ذلك ، من دخول الكونتات ( القومسان (Comes) أيضا شانه إلى بلاد ابن هود ، ظاهريا لحساب ابن ذنون ( المامون ) ، وعساكر ابن هود يتفرجون عليهم من وراء الأسوار ، إلى أن يخرج محصول القمح فيحصده القشتاليون ، الأمر الذى استغرق مدة شهرين « مما أدى إلى طماع العدو فيهم ، فامتدت آماله إلى التئلب على كل بلاد المسلمين » - حسبما ينص ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٧٨ .

لا نعرف ان كان ذلك نوحا من خداع النفس ، اذ لا يظهر بينهم من يحصل التعاضد فيما بينهم أو التوحد مطلباً في حد ذاته ، وهو الهدف الذى كان ينادى به أحيانا بعض رجال العلم والسياسة ممن لا يخشون فى الدعوة الى الصالح العام لومة لائم ، مثل ابن حزم القرطبي ، الذى عاش الفترة الاولى من عصر الطوائف (١٤) ، فكان محاولة إعادة الوحدة الى الجماعة التى فتتها «الفتنة قد أصبحت هدفا صعب المنال ، ان لم نقل من المحرمات» (١٥) .

فيحيى بن ذى النون عندما حاول التصالح مع المعتضد بن عباد كان هذا الأخير مشغولاً بحرب ابن الأقطس صاحب بطليوس . وعندما تم ذلك التقارب أدى الى زيادة تعقيد الموقف ، اذ وثق ابن هود علاقاته بنصارى الشمال وعلى رأسهم فرناندو ( فرزند ) الذى سينجح فى توحيد غاليسيا وليون مع قشتالة ، وبالحق فى اغرائهم بالأموال والهدايا ، تحريضا لهم ضد ابن ذى النون . وهكذا « خرج فرديناند الى ثغر طليطلة ، فافنى حماته ورجاله وعاث فى بلادهم » . وانتهى تكرار تلك الفسارات « بفساد بلاد الثغر ، وذهاب أموال أهل طليطلة ، واحتفاء أهل الريف والضياع حولها بأسوار المدينة » التى انكشفت ، كما ترى فكانها تمرت من ثيابها أمام

(١٤) انظر ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٤٤ - حيث النص على قول ابن حزم : واجمع عندنا فى سلف الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يسلط بالحيلة بالموضع الذى هو فيه ، وذلك فضيحة لم ير مثلهما ، ذلك على الأدبار المزيه . وهم : خلف الحصرى بأشبيلية ، ومحمد بن القاسم الحسنى بالجزيرة ، ومحمد بن أدريس بإلقة ، وأدريس بن يحيى بسبنة ، هذا ، ولو ان ابن حبان - حسيما ينقل عنه ابن بسام فى النسخة ( ق ١ م ١ ) - وهو يشير الى ان علف ابن حزم فى عرشه لأرثه انتهى بتمايز الفقهاء على بنفه فردوا قوله ، واجتمعوا على تفضيله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من لفتته ... ، فطلق الملوك يقصونه عن قريهم ويسعون به فى بلادهم .. وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع الى ما أوردوا ( ص ١٦٨ ) حتى انتهى الأمر باحراق كنيه . ولا بأس ان يكون من أسباب ذلك « تشويه لأمره بنى أمية ، ما ضيحه وياقهم بالشرق والأندلس ، وباعتقاده لصحة امامتهم ... » ( ص ١٦٩ ) .

(١٥) وهنا لا بأس فى عرض تلخيص المرى لهذا الموقف اذ يقول ( تلخ الطيب ، بيروت ١٩٤٩ ، ج ١ ص ١٩٩ ) عن ملوك الطوائف انهم : « صاروا يتيسطون للخاصة وكثير من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشبهه عنه ذلك عند مبادئه فى الرياسة .. » وعندما وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن أيام الجماعة ، وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها كالرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرتوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالفرقة وعداوة بعضهم لبعض بتبيح المنافسة والطمع ... الخ » .

المهاجرين(١٦) .

واضطر أهل طليطلة الى مراسلة ابن هود يطلبون الصلح ، بينما كان اميرهم يحيى بن ذى النون يحاول بدوره التحالف مع غارسية أخى فردينان ومنافسه فى الامارة على غاليسيا . فكان يلاذ للتفر جيمعا من أعلى وأوسط قد دخلت تحت حماية دويلات حرب الاسترداد فى الشمال ، وان كان بشكل تبادلى ، بمعنى أن كلا من ابن ذى النون ، وابن هود الحصين متحالفت مع أمير مسيحي معاد لحليف أخيه المسيحي الآخر . ولقد اعتبر ابن حزم هذا الأمر كرامة أكرم بها الله المسلمين وقتئذ ، والا لما صمدوا أمام الاخوة الأعداء لو اتحدوا(١٧) .

ولكن الذى أضاع موقف يحيى بن ذى النون أكثر ، هو أن أخاه عبد الرحمن ( ابن اسماعيل بن ذى النون ) كان ينازعه سلطانه وينضم الى جانب المحصوم فكان يدلهم على عورات بلد أخيه ، مما أدى الى سقوط كثير من القلاع المحيطة بـ بمدينة سالم ، بين أيدي الأعداء . وأدى هذا الأمر الى أن حرض يحيى حليفه غارسية بالمسال والخائثر ، على تخريب بلاد ابن هود فيما بين مدينتي طليطلة ووشقة ، وبذلك تم للمسيحيين فتح قلعة من ثغر طليطلة سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فكان ذلك يحدث دون محاولة من ابن هود للدفاع عن بلاده ومصالح رعيته ، مكتفيا بالاعتصام بأسوار حصونه ، تاركا الأراضي الزراعية نهبا للعدو . وبدون الأرض الزراعية المحيطة ، ما كان يمكن للقلاع أن تعيش(١٨) .

(١٦) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٨ - حيث وصف الضرورة ابن ذنون الله مخالفة المتضمد بن عباد ، ص ٢٧٩ - حيث مظاهر سليمان بن هود النصارى ، من : فردينان ( فردلند ) بن غارسية ، وريحير بن شاذبة بن غارسية ، وهم الاخوة الذين كان بينهم حدة التنافس والتباعد والمداداة والحرب أشد ما بين أبين ( ص ٢٧٩ ) . ومع ذلك فقد « صب الله على أهل النور من الجبن عن العدو ما لا كفارة له ، فلا يكاد أحد منهم يلقى نصرانيا فهو قرار من الأرض الا ويؤليه الدبر غير مستحيين من الله سبحانه من الفرار أمامه ... » (ص ٢٨٠) .

(١٧) أنظر ابن يسام ، اللخية ، ق ١ ص ٩ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ - حيث النص : « وكان من أعظم ما حيا الله به الإسلام يومئذ عندما بث فتنتهم ( النصارى ) وصحت فرقتهم ، ونشئت كلمتهم ، والفارقة بين من أنظر منهم الشتات والمداداة حتى صاروا أئمة المسلمين جدو النمل بالنمل فى انقراض الكلمة وزوال أمر المملكة ، فان الفتنة باقنا جاءت يومئذ من المسلمين وزعماء الطائفة حضور وفيهم عفو الله شجرة ابن فردلند ... » الخ .

(١٨) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨٩ .



وعندئذ يتلخص الموقف بين ملوك الطوائف المسلمين على الحدود الشمالية وبين جيرانهم ملوك أسبانيا المسيحية ، في أن الأسبان كانوا يمثلون طبقة عسكرية خشنة من أهل الجبال ، صناعتهم الحرب ، كالفاتحين العرب الأوائل . فهم يمشون أما على غزو الأراضي الإسلامية الحصنة ونهبها ، وأما على ما يدفعه ملوك الطوائف من الاتاوات السنوية لهم . بينما كان المسلمون في الجانب الآخر ، مثلما كان أهل البلاد من الأسبان وقت الافتح ، أما زراع أو صناع يقضون وقتهم في العمل من أجل الرزق ، ثم انهم يهبسون للدفاع عن بلادهم اذا تطلب الأمر ، الى جانب قوات أمرائهم الذين كانوا قد فقدوا كثيرا من تخشوتهم العسكرية بانصرافهم الى اللهبس واللعب منذ مدة ، واستكانوا الى دفع الجزية (١٩) .

وهكذا بينما كان يحيى بن ذى النون يحاول الدفاع عن أطراف مملكته في مدينة سالم خرج فرديناند ، حليف ابن هود ، وبصحبة ابن عم يحيى ومنافسه ، نحو بلاد طليطلة ، فغرت أمامه جموع أهلها نحو المدينة التي غصت بهم فاضطربت أحوالهم (٢٠) . وعندما راسله أهل طليطلة من أجل الصلح ، اشتط في شروطه وتنفس . وعندما هددوه بالاستماعة بالمرابطين ( البربر ) أفهمهم أنهم لا يستطيعون ذلك بسبب ما كان بينهم من المداة . وأخيرا كشف لهم عن أهدافه النهائية وهى : استرداد البلاد منهم ، وعودتهم الى بلادهم الأصلية فيما وراء العدو . والمهم أن ذلك حدث قبل ٤٠ ( أربعين ) سنة من سقوط طليطلة ( أى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م ) كانت لأحوال بعدها قد ازدادت سوءا . فعندما توفي سليمان بن هود ، وتنافس يحيى بن ذى النون الصعداء ، كان كل همه الطمع في أملاك بنى الأفطس عى بطليوس ، الأمر الذى أدى الى سوء العلاقة بينه وبين المعتمد بن عباد ، الذى ضم قرطبة الى مملكته ( اشبيلية ) بناء على طلب أهل قرطبة ( أهل

(١٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٥٠ - حيث التذليل على اختلاط الأمور مع قيام عصر الطوائف - بعد قصة سخوية ابن حزم من وجود ٤ خلفاء ، دفعة واحدة على أيامه ( ص ٢٨٩ وم ١٤ ) برواية تنسب الى أبى الوليد بن جهور ، صاحب قرطبة انه قال : وردت على من الكتب في يوم واحد : كتاب من ابن صمداح صاحب المرية ، يطلب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة ، وكتاب من لقوط ( سكوت : سراجيات ) صاحب سبتة ( مول يحيى بن عى بن حمود ) يطلب قارئا يقرأ القرآن ، ويظهر أبو الوليد حبيب من ذلك ويقول ( يلسان الأعاط ) : بجاهل يطلب قارئا ... وهؤلاء يطلبون الأباطيل . (٢٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

الجماعة ) ، بعد ما تناول ابن ذى النون عليهم وحاول اخبر مدينتهم (٢١) .

اما عن آخر بنى ذى النون وهو القادر بالله ( حفيد الميامون : يحيى ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن زنون ) فهو ناعم لين الجانب . يصغره ابن بسام بأنه أجبن من قبره : ان حزم لم يعزم وان سم لم يلحم (٢٢) . وفى مقابل هذه الشخصية الضعيفة الجسم ، الكثيرة المرض ، كان الطاغية أذنفش ( الفولس السادس ) يظهر لوفود الطوائف ، نائر الرأس ، كريمة الوجه ، خبيث النفس ، وسخ الثياب ، درن الأظفار (٢٣) . وهكذا لم يقتنع أهل طليطلة بملكهم المترفع ، لولا فقيهمهم ابن الحديدي الذى كان ما يزال يترأس أهل الحل والعقد . والحقيقة ان السبب المباشر فى ضياع طليطلة هو ما قام به القادر بالله من الحماقة عندما عول على أن يقبض على مقاليد الأمور بكلتا يديه ، فتخلص من أبى بكر بن الحديدي بطريقة مأساوية ، إذ قتل زعيم أهل طليطلة ، وهو يتعلق بأذياله مستجيرا به دون جدوى .

وهنا انحلت أمور طليطلة ، وكانت قيامة أهلها الذين تأمروا مع المتوكل ابن الألفس سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٧٩ م ، ممبا أدى الى فرار ابن ذى النون من طليطلة نحو كونكة (Cuenca) على جبل ، وخروج زوجته العامرية وابنته من المدينة راجلتين . وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك الى تسخّل الفونسو السادس ، حامى ابن ذى النون ، اعتبارا من سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م الى أن انتهت المطالوة بينه وبين الطليطليين الى الاستيلاء على المدينة

(٢١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - حيث دوام الفتنة بين ابن حود وابن ذى النون من سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٤٦ م الى ٤٣٨ هـ / ١٠٥٩ م - وحيث طلب صاحب قرمونة ( من بنى برزال ) المونة من ابن ذى النون ضد ابن عباد الذى كان قابضه عنها ( قرمونة ) بحصن المور . وكيف ان ابن عباد طلب من ابن ذى النون الموافقة على أخذ قرمونة مع الإيحاء له بأخذ قرطبة في نظير ذلك ، ولكنه غدر به ولم يوف له بشئ .

(٢٢) الفتية ، ج ٧ ص ١٤٢ - هنا ولا بأس من الإشارة الى ان ابن بسام يعتبر جدّه : اسماعيل ( ناصر الدولة ) : رئيس الحلاف ورأس الانصار ، وأنه كان أول الثوار المقاتل للجماعة وأنه صار جرمونة النفاق ، وأول من استن سنة الحصان والنفاق من حيث : رفض طاعة بنى أمية اذا كان يقول : « أحقهم بالملك من استقل به والله ما أول غير نفس » .

(٢٣) ابن بسام ، الفتية ، ج ٧ ص ٤ م ٢ ص ٧٩٩ ، وقارن في ١ م ١ ، ص ١٨٤ - حيث وصف شاذيه بن غرسية ، ملك قشتالة ، الذى رآه الكاتب أبو أمية بباب قتيبة يلبس ثيابا من ثياب المسلمين ، مع دجولته وكمال أدواته ، فلا يدرك الا صبره رسميه : شاذيه ابن غرسية صاحب البشكنش .

فى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، بعد أن أرهقهم بالضرائب ، وروعهم بالترهيب . وكان الايذان بسقوط المدينة عندما دخل المدينة المصورة العجيبة ، التى كان المأمون ، جده ، قد جلب اليها كل حسن ، فاتخذ عروشها مرابط لأفراسه وايواناتها ملاعب لأرذلته وأرجافه (٢٤) .

وإذا كانت الرواية تلقى بكل التبعية على أمير طليطلة المترف المسرف ، الذى كانت تميد الأرض تحت قدميه ، وهو مع ذلك يمسك الأصطلاب بيده ليرى فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شئ يعول ، وأى سبيل يمثل ، والناس من نصارى ومسلمين يضحكون من فعله ويتعجبون من جهله (٢٥) . ولكن هذا لا يعنى كما قلنا ابتداء ، أن يلتقى بالمسئولية جميعا على كتفى الرجل الضعيف ، فالخطيئة هى نتاج عصر بأكمله ، والمسئولية تضامنية يشارك فيها كل ملوك الطوائف ، بل كل أفراد العصر ، لا يتصل من تحملها أحد ، كبر أم صغر - فهسته أمثلة التاريخ ، وهى أمثلة إيانا هذه .

#### التدخل المرابطى فى الأندلس :

##### عملية الإنقاذ المرابطة ، ما بين الأمانة والواقع :

كان سقوط طليطلة ( ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) اذن ، بمثابة نذير لكل مسلم على كل من ضفتى الحدود ( المجاز ) وليس بالنسبة لأهل الأندلس وملوك الطوائف فقط ، بأن أراضى المسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا أصبحت فى مهب الريح ، وأن عملية الإنقاذ أصبحت أكبر من أن تقسح على كاهل الأندلسيين وحدهم ، من العرب والبربر والمولدين ، ممن حافظوا على ثقافتهم

---

(٢٤) ابن بسلام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٥٢ - ولا بأس من الإشارة هنا الى ما نقله الرواية عما أنقذه المأمون فى بيان مجلسه الفاخر المعروف « بالمكرم » من الكنوز التى جمعها والده اسماعيل ، وما كان يتحمل فى سبيل ذلك من مضايقات صانعه الفنان المتصرف دون أن يبال بما كانت تتعرض له بلاد ابن الأقطس من غارات فريزاند المبررة . وفى ذلك كان وزيره يقول : انه لم يكن يدري من أى الثلاثة يجب ، من : ابن ذى النون أم من لسه ( أى الوزير ) خدمته مثله ، أم من جرلة الصانع على ابن ذى النون ( الذخيرة ، ق ٤ م ١ ، المجلد ٧ ، ص ١٢٩ - ١٤٧ . وعن اختلاف الرواة فى تحديد تاريخ سقوط طليطلة وغزوة الزلافة أنظر : حسن أحمد حمود ، قام دولة المرابطين ، ص ٢٨١ - حيث الإشارة الى أن آخر النقود التى ضربت فى طليطلة الإسلامية كانت تحمل تاريخ ٤٧٨ هـ .

(٢٥) ابن بسلام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٦٦ .

العرقى أو ممن اكتسبوا الطابع المحلي فأصبحوا أندلسيين أولا وقبل كل شيء - عن قصد أو عن غير قصد - وهذا هو السند الذى كان يتكئ عليه ملوك الطوائف ، على ألوانهم العرقية ، فى تمسكهم بالاستقلال دونما نظر الى تميز العروبة أو التمسك بالقرشية . وهذا الاتجاه الوطنى الأندلسى الذى استفحل كرد فعل لمجيء دفعات المغاربة الجدد من الصحراويين المرابطين ، ومن بعدهم الجبليين الموحدين حتى الوطنية الأندلسية فى العصر الموحدى ، هو ظاهرة لا تخفى على أحد بظهور قادة محليين لحما ودما ، مثل ابن همشك أو ابن مردنيش ، فكان حركاتهم لمن البشائر المبكرة لوطنية العصور الحديثة .

### طلب النجدة من يوسف بن تاشفين ، ما بين القبول والرفض :

وهكذا ، فرغم الحاجة الملحة الى نجدة المرابطين التى كانت تمليها للأخوة فى الدين والمصالح المشتركة بين الأندلسيين ، من عرب وبربر وموالى ، فإن مصالح الطوائف الخاصة كانت تمنع من ذلك الى حد كبير . وهذا ما عرّفه الفونسو عندما هدده ، أهل طليطلة بالبربر ( المرابطين ) فأكّد لهم أن الفرقة بين الطائفتين لا تسمح بذلك ( ما سبق ، ص ٢٩١ ) . وهذه الفكرة هى التى تعبر عنها رواية ابن خلكان التى تقول ان يوسف بن تاشفين عندما تاق الى العبور الى جزيرة الأندلس ( دون دعوة ) ، فأنشأ الشوانى والمراكب للعبور ، كره ملوك الأندلس أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج شمالا ، والمثلثين جنوبا . هذا ، فى الوقت الذى كانوا يخوفون الفرنج بيوسف بن تاشفين(٢٦) ، فكان الاستعانة بالمرابطين كانت مجرد تمويه ليس الا .

والذى يظهر فى رواية ابن الأثير هو أن ملك الفرنج لطليطلة أنشاع الخوف ( بين ملوك الطوائف ) من غلبة التصارى على كل البلاد ، وأنهم عندما تطلّمو الى النجدة من البر الأفريقى ، دار بخلوهم الاستعانة أولا بعرب افريقية ( من هلال ومسلم ) ولكنهم خافوا منهم(٢٧) بسبب فسادهم الذى كان قد ذاع على السنة شعراء القيروان فى العولة الزيرية ، فى كل من صقلية والأندلس ( ج ٣ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ) .

(٢٦) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٢٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥١ .

والحقيقة أن التفكير في الاستماعة بالعرب أولا : يمكن أن ينسب إلى آل عباد بأشبيلية من حيث أنهم من أرومة عربية عريقة (٢٨) . وعلى هذا الأساس تصبح مقولة أن المعتمد بن عباد كان أول من فكر في الاستماعة بمسلمي المغرب مقبولة من حيث المبدأ ، الأمر الذي تؤيده فكرة أنه كان أولى ملوك الطوائف وأحقهم في استيعاب فكرة الوحدة الأندلسية المتقدمة أو الاتحاد ، وهي التي ترمز إليها مدينة أهل الجماعة قرطبة المعنوية ، التي كانت قد انضمت إلى أملاك أشبيلية ، بعد قرمونة (ما سبق، ص ٢٩١-٢٩٢) . هذا ، وإذا كانت مقولة المعتمد بن عباد : أن رعى الجمال في صحراء الملثمين أحب إليه من رعى الخنازير في جبال غاليسيا وقشتالة (٢٩) ، تعنى الشجاعة المعنوية والتضحية من جانب الأندلسي : سليل الرقاهية والعلم ، فإنها تعنى في ذات الوقت منتهى اليأس من فكرة الخلاص كنتيجة محتملة لعملية الانتفاذ المرابطية (٢٩ م) . والمهم أن سفير المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين فيما وراء العدة ، كان قاضي قرطبة : ابن أدهم ( عبد الله بن محمد ) (٣٠) ، سليل قضاة الجماعة ( في قرطبة عاصمة الخلافة ) - فكانه رمز الوحدة في عهد الطوائف والفتنة (٣١) .

(٢٨) ابن عذاري ، ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢٩) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذاري ، ج ٤ ص ١١٤ - حيث اجتماع النص بأن المعتمد عرف أن الفرنج والملثمين ضئيلون له ، ولكن الملثمين أهدون .

(٣٠) أنظر للمؤلف ، عملية انتفاذ المرابطية للأندلس ، ندوة الأندلس بكلية الآداب

بلاسكندرية ، ١٩٩٣ .

(٣١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٩ .

(٣١) وقارن الروض المطار ، عن الزلافة ( ص ٨٣ وما بعدها ) ، وملحق ، البيان ، ابن عذاري ، ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها - حيث استماعة المعتمد يوسف بسبب سوء العلاقة مع الفونسو الذي اشتت في مطالبه المالية والاقتصادية إلى جانب ما تقوله القصة الشعبية من طلب السماح لزواجه بأن تلد في المسجد الجامع في موضع الكنيسة القديمة ، الأمر الذي أدى إلى ثورة ابن عبيد الذي أقسم على قتل سفير الفونسو اليهودي ( الذي قد يبرر ظهور أسطورة الولادة ) مما جعل الفونسو يهدد بفرض قرطبة ، وهو السبب المباشر للاستماعة بإبن تاشفين . وكان مما جفرت به من ملوك الطوائف ابن عبيد من يوسف قولهم له : « السيفان لا يجتمعان في عهد واحد » . وكانت السفارة التي كونها ابن عبيد للقاء يوسف تتكون من قاضي بطليوس وقاضي غرناطة وإيراسهما ابن أدهم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وهؤلاء لوعظ يوسف وترغيبه في الجهاد ، وأضاف إليهم الوزير ابن زيدون ، فنيا لا يرام المعهود الرسمية ( السلطانية ) - مع الإشارة إلى الوفود الشعبية التي أتت إلى يوسف من نفور الأندلسي مستعطفين ، باكين ، مستجدين . وقارن النويري ، أو خيف ، ص ٥٨ وما بعدها - حيث تسلط الفونسو بعد إخذه طليطلة ، ومطالبته بأخذ المعصون فلا يهتدي لابن عباد إلا السهل . أما عن سفير الفونسو فكان وزيره اليهودي شليبي ، ومنه ٥٠٠ فارس ، =

ويتضح من هذا العرض أن ملوك الطوائف بالأندلس كان لهم موقفهم الحذر من دعوة المرابطين الى مساعدتهم في الحد من خطورة حرب الاسترداد المسيحية ، وأنهم لم يفضلوا « رعى الجبال على رعى الحنازير » بمعنى الخضوع للاخوة الأعداء من البربر المرابطين الا تحت ضغط المأمة من أهل الأندلس . وهؤلاء كانوا يستجيبون لتوجيه قيادتهم الروحية الممثلة في العلماء ورجال الدين ، الى جانب أهل الثقافة والأدب من الشمراء والزجالين والقصاصين . أما عن المرابطين في المغرب فكان تمددهم نحو الأندلس أمرا طبيعيا . حسبما كانت تمليه طبيعة الأحوال هناك .

**فتح سبتة وعبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس :**

٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م - ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م :

**سبتة :**

إذا كان الشائع لدى مؤرخي الدولة المرابطية أن عبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس ( ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) يرتبط بشكل عام بفتحه لمدينة سبتة (قلب العدو والمجاز) التي يرتبط فتحها بدورها المثلث بسقوط طليطلة على يدى الفونسو السادس ( ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) فإن تداعي الأحداث يجعل فتح سبتة تاليا لفتح طنجة ( ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ) الذى واكب غارة ألفونسو السادس الكبرى حتى طريقة ( ما سبق ، ص ٢٨٥ ) . وهكذا

---

«وكان يطالب به ١٢ ألف دينار ، ففرلهم المتمد وقتلهم ، كما قتل اليهودى ضربا بالتمال المسمرة حتى خرجت عيناه » . ومن فقهاء قرطبة الذين كانوا يفتشون ضياع بقية مدن الأندلس ، فانهم ساءوا الى القاضي ابن أدهم يعلونه بما هم فيه من الدلة .. وطلبوا منه الكتابة الى عرب افريقية ليصلوا اليهم على أن يقاسمهم في أموالهم ، والخروج معهم مجاهدين . ولكنه عندما أعرب عن خوفه من أن يغربوا الأندلس ، واقترح مكانة المرابطين واقبلوا على أن يأتي يوسف بن تاشفين اليهم .

ووافق المتمد على مقترحانهم تلك . ولم ارسال القاضي اليه مع الكاتب ابن الصيرة . وفارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث كتب أمراء الأندلس ورؤسائها الى يوسف يستنصرونه ، ويطلبون منه الجواز الى الأندلس ، مع اضافة ان المتمد غير بنفسه الى يوسف الذى طلب منه العودة للاستعداد ، وانه يأتي في اثره . وانظر ص ١٥٩ - قصة مسع المتمد الى يوسف في شكل اسطورة ، يلجأ فيها يوسف حتى يظن أن ابن عباد أتى اليه بمسأكره أو إمسايله . وفارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة ، ص ٧٧ - حيث كان حصار سرقسطة سبب مخاطبة المتمد ليوسف لينجز وعده ، وصريح الاسلام بالعودة . كما كتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والحامسة - وهو تلخيص مستوحى من رواية القرطاس المتميزة عن المرابطين .

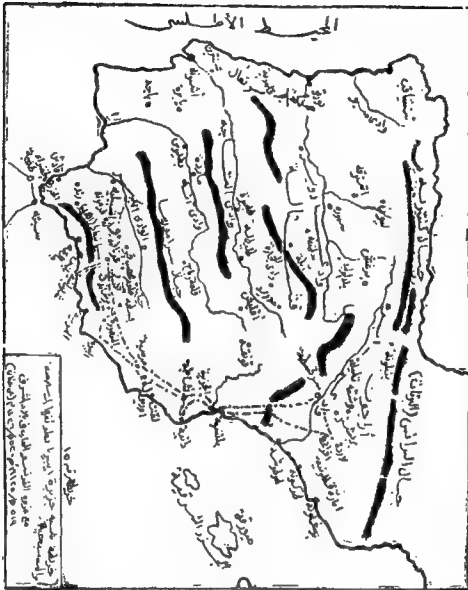
تصبح رواية ابن أبي زرع التي تقدم لنا التاريخ المقبول لفتح المرابطين لسبتة ، وهو : شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / يولييه ١٠٨٤ م ، في حمية المفاوضات التي كانت دائرة بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف من ناحية ، وبين وفود الأندلس الشعبية وبينه من ناحية أخرى ، مقبولة . وكان ذلك الفتح على يد ولده المعز الذي حاصرها بجيش عظيم حتى استسلمت . ووصل كتاب الفتح من المعز الى والده يوسف وهو مقيم بمدينة فاس ، « ينظر في أمر الجهاد ويستنفر له قبائل العرب » ، وان كانت الرواية تستطرد قائلة « فخرج ( يوسف ) ، وخرج من حينه نحو سبتة ليجوز منها الى الأندلس » ، فكانها تربط بشكل تلقائي فتح سبتة ( ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ) بالجواز الى الأندلس ( ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) - الأمر الذي يفرض لابن أبي زرع (٣٢) . ويرجع صحة فتح المرابطين لسبتة قبل سقوط طليطلة ( ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) ، أن وفد المفاوضين الأندلسيين الذي أسرع نحو المدونة بعد سقوط عاصمة النضر الأوسط ، وجد ابن تاشفين مقيما بسبتة (٣٣) .

وهكذا عندما أتت الى يوسف بن تاشفين وفود ثغور الأندلس مستعطفين ياكبن اثر سقوط طليطلة ( ص ٢٨٦ ) ، وقرر يوسف الاستجابة لندائهم كانت سبتة في حوزته منذ أوائل سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م . وكان فتح المدينة قد تم بصفة مشروعة ، بناء على فتوى الفقهاء بجواز قتال صاحبها ( ابن لكوت - ص ٢١٦ ) بناء على امتناعه عن فتح المجاز أمام المجاهدين . وبذلك تم اقتحام سبتة من قبل الجيش المرابطي الذي كان على أهبة الاستعداد للعبور ، وذلك بمساعدة الأسطول وبمعمونة محسوبة من أسطول ابن عباد (٣٤) ، بعد أن تم اجماع الأندلسيين على طلب المعمونة ، منذ اختراق

(٣٢) انظر الفرطاس ، ص ١٤٤ - حيث وضع فتح طليطلة سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فكانه فتح سبتة ، وحيث عزم ألفونسو السادس على دخول سرتسطة بعد أن ملك طليطلة . والصحيح انه كان بعد الفارة الكبرى على طريقه ( ما سبق ص ٢٨٥ ) .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٣٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ - حيث الإشارة الى عبور يوسف مع من طلبه من المساكين من مراكش واقبالها ، وقادر التويري ، أبو ضيف ، ص ١٥٩ - حيث الاشارة نقله ، أمل التاريخ عن القاضي ابن القصيرة ، وفيه أن يوسف كان ينتظر في سبتة مجيء قوة المساكين ، وأنه دخل في آخر فوج منها - الى جانب تلك الرواية التي تقول بأنه (يوسف) فوجيه بدخول ابن عباد عليه بسبتة حتى ظن فزعاً انه ( ابن عباد ) جاء بمسأكره ، مما يعني أنه كان قد جاء مع مراكبه معمونة ليوسف ، مما سبقت الإشارة اليه (ص ٢٩٦ و ٣٠٠) .



خريطة رقم ١٥ - شبه جزيرة يابوتا بطوائفها الاسلامية والمسيحية - مع  
غزو الفونسو المحارب في بلاد الشرق ( ٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م )



طريفه - يحسن نية من كلا الطرفين : المرابطى والأندلسى ، أم يغير حسن نية .

### العبور :

ربيع الأول ٤٧٩ هـ / يونيه ١٠٨٦ م :

فى هذه الظروف المشوشة بالنسبة للأندلسيين على الأقل ، وفى يوم الخميس ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ٣٠ يونيه ١٠٨٦ م كان عبور طلائع القوات المرابطية من ساحل سبتة دون عوائق ، لكى تنزل فى الجزيرة الخضراء ، حيث لقيت استقبالا حارا من أهلها الذين قدموا لهم الأقوات والضيافات(٣٥) . وهنا يمكن التفكير فى أن العبور كان عبثا على أهل العدو الأندلسية ، وهو الأمر المقبول ، إضافة الى ما كانوا يقدمونه من المعونة لضعفاء المتطوعين والمساعدة - هذا ، ولو أن أهل المنطقة كانوا يستفيدون أيضا من وجود هذا العسكر الكثيف ، من حيث إقامة الأسواق لهم ، وفيها يعرضون عليهم ما كانوا يحتاجون اليه مما عندهم من السلع : استهلاكية كانت أم حربية مجهزة(٣٦) ، الأمر الذى كان يؤدى الى رواج التجارة الداخلية ويساعد بالتالى على زيادة الانتاج .

ومن الجزيرة الخضراء ، واصلت القوات المرابطية مسيرتها شمالا ، جيشا وراء جيش ، وقبىلا بعد قبيل(٣٧) . وكان عبور الجيوش المرابطية

---

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ٣٣ . وهنا لا بأس من الإشارة الى ان رواية القرطاسى ( ص ١٤٥ ) تشير الى ان ابن عباد وجميع أمراء الأندلس ورؤسائها كانوا فى استقبال يوسف بن تاشفين ، وهو الأمر المستبعد إذ كان يكفى أن يكون ابن الحشم ( والد الجزيرة الخضراء ) فى استقبال يوسف بينما يكون الأمراء الآخر مشغولين بأعداد الجيوش و تجهيز المؤن اللازمة للحشود - ونسبته بذلك ما تشير اليه رواية الحلل الخرشية ( ص ٤٩ ) من نزاع قام بين يوسف وابن عباد بشأن تملك الجزيرة الخضراء ( معيار العدو الأندلسية ) قياسا على تملك المرابطين سبتة ، وهو الأمر غير المناسب فى هذا الوقت ( وانظر يوسف حوالة ، بنو عباد ، ص ٢٨٦ وما بعدها ) .

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ص ١٣٣ - حيث النص على خروج أهل الجزيرة الخضراء ، وإقامة السوق فى السمط ، مع الاذن للفرقة فى دخول البلد حيث امتلأت المساجد والرحبات ضغفاء المطوعين الذين توافى أهل المدينة بهم جدا .

(٣٧) ابن عذارى ، ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٣ . وقارن القرطاسى ، ص ١٤٤ - حيث النص على انه لقت ببوسف فى سبتة العساكر والجنود ، وقدمت عليه الوفود ، وأما من بلاد الصحراء والغيلة والزاب ، والفيائل والحشود فشرع فى تجهيز الحوش الى الأندلس الى =

الكنيسة في الأراضي الإسلامية بالأندلس يمثل عبثا اضافيا على كل حال ،  
بأنسبة لأهل البلاد الذين كانوا يقاسون من اجتياحات فرسان النصارى  
وجولاتهم الحربية من ردة وتخريرية . فبينما كان ابن عباد يبعث ابنه  
الى لقاء يوسف ، كان عمار البلاد يجلبون الأقوات والضميمات التي كان  
ينوء بحملها أهل البلاد ، وإن لم يمنع ذلك من سرور المرابطين بها (٣٨) .

### التعاضد الأندلسي المرابطي ورد الفعل الإسباني المسيحي :

#### الجهيد لمعركة خاصة :

ولهم ان اللقاء بين ابن عباد وابن تاشفين ، وسط وجوه اصحابهما ،  
كان مجبرا عن الود والصداقة ، التي تأكدت عند انفرادهما بالمصاحبة  
واسنى ، والتمتع على الصبر والرحمة . وكان المعتمد بن عباد قدوة لبقية  
ملوك الطوائف الذين خرجوا برجالهم واعانوا بأموالهم (٣٩) وكان من  
الطبيعي ان تثير حشود المرابطين والأندلسيين المتحالفه تائرة الفونس  
السادس ( ابن فرذند ) واشفاقه ، فقام بدعوة جميع المحاربين من أهل  
بلادهم واثار لرجال الكنيسة من القسيسين والأساقفة ، وكذلك رهبان  
الأديرة ، دورهم في التحريض على الانخراط في صفوف القوات المسيحية ،  
من : غاليسيا غربا ( الجلالة ) الى أراجون ( أرغونة ) شرقا (٤٠) .

وتعتبر روايتنا العربية عن قوة الجبهة المسيحية ، حيث يظهر ألفونسو  
السادس ( ابن فرذند ) الذي يستحق ان يلقبه المسلمون « بالطاغية » ،  
وكانه صاحب شبه الجزيرة الايبيرية جميعا ، بكل أراضيها من مسيحية في  
الشمال حيث كون نواة دولة اتحادية كبرى من : قشتالة وغاليسيا وليون ،

---

= جانب الاشارة الى ان الجيش حوى الى جانب الأندلسيين من الرجال الصالحاء أيضا ، من الذين يعتبر  
ابن تاشفين واحدا منهم . وفي ذلك يقال ان يوسف دعا : « اللهم ان كنت تعلم ان جوازي  
هذا حيرا وصلاحا للمسلمين فسهل على جوار هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه - مني  
لا أجزئه » .

(٣٨) أسطر فيما سبق ص ٢٩٥ وهـ ٢٩٦ - عن صبير الأندلسيين عن ضيق بلادهم عن حمل  
الساكن الكثرة ، وانظر البيان ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٣ - حيث النص على أن يوسف  
ابن تاشفين كان يسر بهذه الضيقات ، ويهدايا ابن عباد والطاقه ، مما كان يرد الى معسكر  
يوسف ( محلته ) - الأمر المقبول بالنسبة للمجاهدين المغاربة في غربتهم .

(٣٩) البيان ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٤٠) البيان ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٤ .

أصبحت تناور في فلكها بقية الإمارات الصغيرة ، أو إسلامية في الجنوب .  
خاضعة لدفع الاتاة السنوية من المال والقلاع ، ابتداء من النفر الأعلى  
حيث بنو هود في سرقسطة ( أقوى إمارات التفور ) ، وانتهاء بأشيبيلية  
مدولة بنى عباد ( أقوى ملوك الطوائف ) اصحاب قرطبة . وبالتالي أصبح  
موكانه صاحب الحق الشرعى فى إعادة الوحدة المفتقدة الى البلاد - الأمر الذى  
كان يتطلب حفا ، عملية الانقاذ المرابطية(٤١) .

والحقيقة ان مبادرة الفونسو السادس الى لقاء الحلفاء المسلمين حيث  
تجمعوا فى عقر دارهم ، تعنى أنه كان على ثقة من النصر ، الأمر الذى أراد  
أن يحققه أيضا بالجوء الى الحرب النفسية التى قد تضعف من معنويات  
المسلمين ، عن طريق التهديد بقواته التى لا تقهر(٤٢) . ولا بأس أن يكون  
المسلمون قد قاموا بدورهم يحرب نفسية مضادة ، فهذا ما يمكن أن يفهم  
من الرواية التى تنسب الى الفونسو السادس رؤيا ركوبه الفيل ونقره  
الطبل ( على طريقة السودان ) فكانه أبرهة الواقى من انتصاره ، ونهايته  
الفاجعة ، كما فى سورة الفيل(٤٣) .

(٤١) وهنا لا بأس من الاشارة الى ما تقوله بعض المصادر من أن الفونسو السادس  
عندما سمع بدوره على كل الملوك من مسيحيين ومسلمين تلقب بالأميراطور ( أمير المؤمنين ) ،  
بلى وسمى نفسه ورئيس المؤمنين المسيحية والإسلامية ، انظر الحلل الخشبية ، ص ٤٠ ، وانظر  
ابن الكردوبس ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ويوسف بن أحمد حوالة ، بنو عباد ، رسالة ماجستير من  
جامعة الملك عبد العزيز ، ص ٣٦٢ .

(٤٢) البنان ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٤ - حيث النص على أن الفونسو برز بالمختار  
من أنجاد جموعه ، وقال ببؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ، وبناء على تلك المقولة  
قدّرت الرواية العربية قوات الفونسو بـ ٤٠ ( أربعمائة ) ألف فارس متقلين بالحديد ( دارع ) ،  
لكل واحد منهم باع أو اثنا ، فكان اجمالى عددهم ١٠٠٠٠٠٠ ( مائة ألف ) رجل يؤيدون  
قللا أو ينقصون - الأمر الذى يشكك فيه صاحب الرواية عندما يقول أن النصارى يمنجبون  
بمن يقول ذلك . كان المسلمون يبالغون فى تقدير القوة المسيحية ، وإن ختم بقوله ان المسلمين  
كانوا اقل من المشركين ( على كل حال ) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث  
قال : « هذا الجيش الذى اله صمد » ، وأنهم عندما اجمعوا نحت قيادة الأدلش ،  
النص على أن حتى الفونسو بلغ ٤٠ ( أربعمائة ) ألف فارس .

(٤٣) القرآن ، سورة الفيل ، آية ١ ، وذلك اثر المراسلات التى تمت بين الفونسو  
السادس وبين يوسف بن بلشقى ، والتى أساء فيها الملك الفرنجى ، المختبر بقوته الى « أمير  
المسلمين على لسان بعض أدباء المسلمين » فأمر يوسف كاتبه ( أبا بكر بن القصير ) « ما  
يختصر اجابته عنه فى ظهر كتابه ، فى جملة واحدة هى : « الذى سيكون ستراه » - تعميلا =

هذا ، ولا بأس أن تكون قصة عبور الجمال إلى الأنفلس التي أمر بها يوسف بن تاشفين ، بعد جوازه ، والتي يوردها ابن خلكان ، ضمن الحرب النفسية التي شنها المرابطون أيضا على الإسبان(٤٤) ، إذ المعروف أنه المرابطون لم يستخدموا الجمال في فتوحهم ، خارج الصحراء إلا في حمل المتاع ، وربما الطعام ، فالمرءف أن الحصان هو آلة الحرب بالامتياز في بلاد الحضر ، وهذا ما حدث منذ بدء حرب السوس الأقصى ، ومن ثم في سائر بلاد المغرب حتى الواحات . ومن الواضح أنه لا ذكر للجمل إطلاقا في الموقعة التي مستور بين الطرفين فيما يأتي سرده .

والحقيقة أن الرواية المتزنة هي التي تقول أن هدف الفونسو السادس عندما قرر المسير إلى لقاء المسلمين في عقر دارهم ، كان الحرص على حفظ بلاده من ويلات الهزيمة ، إذا كانت الدائرة عليه(٤٥) - وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من الاعتراف للرجال بالجرأة والمعنويات العالية ، رغم سمعة المرابطين التي كانت تدوى فيما وراء المضيق ، ربما للثقة في عدم خلوص النوايا في الجانب الإسلامي .

#### موقعة الزلاقة ( ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) في بطليوس :

##### ميلان المعركة : ما بين التلقائية والاختيار :

وفي تكييف أوضاع اللقاء بين الفونسو السادس قائد الحلف الاسباني المسيحي ويوسف بن تاشفين قائد الحلف الأندلسي - المغربي الإسلامي نرى أنه تم بإيقاع سريع خلال عدة أشهر من ربيع الأول ( يونيه ) حيث بدأ

---

عن الثقة في حكم الله وقضائه . الأمر الذي اوتاه له الأدلش فكانت الرؤيا التي حطمت معنوياته ، عندما عرف تفسيرها من بعض المسلمين ، أين الأخير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، وقارن التوبري ، أهر شيف ، ص ١٦٠ - حيث إضافة بيت الشعر :

ولا كتب إلا المشرعة والقنا ولا رسل إلا الخسيس المرمم

(٤٤) انظر ابن عذاري ، ج ٤ ( الملحق ) - عن وثبات الأعيان ، ص ١١٥ - حيث قبل أنه عبر من الجمال بأمر يوسف بعد جوازه ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جمالا ، وأن خيولهم تطلق منها وتذعر - وذلك إلى جانب الإشارة إلى أن فكرة يوسف من استخدام الجمال « أن يحرق بها عسكره » ، أي أن تكون سائرا للمساكر ، وهذا من فن حرب جمالة الصحراء منذ القديم ( انظر قصة سبقه ، ص ٧٦ .

(٤٥) البنان ، ج ٤ ( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

المعبر إلى درجي ( أكتوبر ) حيث كانت الموقعة الكبيرة . وخلال تلك الفترة ، وأثناء الحشد خارج اشبيلية بلغ يوسف بن تاشفين نبأ وفاة ابنه أبي بكر : سبر الذي كان مريضاً بسببته ، الأمر الذي حير ابن تاشفين حتى هم بالانصراف ، كما تهول بعض الروايات لولا أنه أثر الجهاد(٤٦) . والمهم أن اللقاء تم في موضع بأراضي مملكة بطليوس ، وملكها المتوكل : عمر ابن الأفطس ، بعيداً عن أراضي الفونسو السادس ، والمعتمد بن عباد ، وهما طرفا النزاع الأصليين منذ البداية ، على أساس كونهما أقوى ملوك الطوائف في كل من الجانيين ، بصرف النظر عن استنجد الواحد أو الآخر بالحلفاء من خارج البلاد .

والحقيقة أن وقوع المعركة في أراضي مملكة بطليوس يمكن أن يفسر على أساس جغرافي سياسي مزدوج . فمن الوجهة السياسية كانت إمارة بطليوس ، بفضل طموح حكامها ( بنو الأفطس ) ، منافسة لكل من مملكة طليطلة التي آلت إلى الفونسو السادس الذي يريد إعادة الوحدة لاسبانيا المسيحية تحت شعار « الاسترداد » ، ولمملكة اشبيلية حيث ابن عباد الذي يرئس إلى توحيد الأراضي الإسلامية بالأندلس تحت رايات اشبيلية وخاصة أنه كان يملك وقتئذ قرطبة ، حيث صوت أهل الجماعة ، ممثلي الأمة ، كان ما زال مسموعاً - وإن بايقاع خافت - فقبل سقوط طليطلة كان ابن الأفطس يهفو إلى امتلاك طليطلة - عاصمة النهر الأوسط ، التي استحوذ عليها فعلاً لبعض الوقت ( ما سبق ، ص ٢٩٢ ) . وقبل أن يضم ابن عباد قرطبة ، بكل ما ترمز إليه من وحدة التاريخ الأندلسي وعملة حضارته الإسلامية ، كان طموح ابن الأفطس ( المتوكل ) في الاستئثار بها أمراً سهلاً لمنال لا يكلفه أكثر من مدينة قرمونة يقدمها ثمناً لسكوت ابن عباد ( المعتمد ) ، لولا غدر هذا الأخير ، ونكثانه بوعده ( ما سبق ، ص ٢٩١ ) .

وهكذا ، إذا كان ابن الأفطس قد ظهر منذ وقت غير بعيد ، وكأنه المحمم المشترك لكل من الفونس السادس وابن عباد ، فإن لقاء المتصارعين في أرض بطليوس يمكن ألا يكون عفويًا بل اختياراً مسبباً . وإذا صح ذلك فيمكن إعادة النظر في أن تكون تهديدات الفونس السادس للمعتمد نوعاً

---

(٤٦) انظر الملل الموشية ، ص ٦٦ - حيث النص أيضاً على أن ابن تاشفين أنفذ القائد مزدل ( أبو عبد الله مزدل بن سلتانة - ت ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م في حرب قشتالة ) إلى مراكش ، وأنظر للمؤلف ، عملية الانقاذ القرابطي في الأندلس ، أعمال ندوة الأندلس بأداب الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

من الدعاية المصطنعة في الجبهة الأندلسية ، تبريرا للإنسحاب من غيواحي  
اشبيلية نحو أراضي بطليوس في اتجاه مسار الفونس ، الى جانب تحريض  
المسلمين على حسن الاستعداد للحركة - بطليعة الحالو - اما من الناحية  
الجغرافية فان أرض بطليوس ، من حيث كونها آخر الأراضي الإسلامية  
المواجهة لطليطة في منطقة الغرب ، تجعل من موقع اللقاء نفرا أو جبهة.  
قتال طبيعية ، ليست ملكا لأحد من المتحاربين ، فهي : « أرض لا صاحب لها »  
(no man's land) ، حسب المصطلح الحديث . وبذلك يكون موضع اللقاء ،  
حينئذ ، مناسباً لجميع الأطراف ، حسبما كانت تقضي أعرف الحرب والسلام  
في تلك العصور وتقاليدھا .

### وقعة الزلاقة :

وإذا لم تكن هناك نصوص تشير الى اتفاق مسبق بين المتحاربين على  
موضع المعركة في أرض الزلاقة ( ساكر الياس : (Sacralias) ) بمعنى  
السهلة (٤٧) ، فهناك روايات تنص على أن وجود الجواسيس كانت تترى على  
الجانبيين : الإسلامي والمسيحي ، تنقل الأخبار من صبيحة ومظيطة ، كما  
توجد روايات يفهم منها تبادل الرأي حول وقت اللقاء ( السبت أو الاثنين ) .  
ويمكن أن تكون قرينة على نوع من الاتفاق حول المكان أيضا - وإن كان ذلك  
بشكل ضمني . فالمفترض أن الفونسو السباس الذي كان يحاصر  
سرقسطة ، ترك الثغر الأعلى متجها نحو طليطة ، وقد أرسل الى كل من  
وذعير ( سانشو راميرز ، ملك أرجوان وصاحب بنبانة ) الذي كان يحاصر  
طرطوشة ، والبرهانس ( البارفانيث : (Alvar Fanees) ، القائد القشتالي  
وابن أخى السيد القمبيطور ، الذي كان يحاصر بلنسية ، للحاق به  
بجيوشهما . كما لحقت به حشود أخرى من قشتالة وغاليسيا وبنبلونة (٤٨) ،  
وذلك على الطريق الى الزلاقة ، مرورا بطليطة وعبروا وادي تاجه ، الى أن  
وقف في مواجهة الجيوش الإسلامية التي كانت تعرف مسيرته ، وتوجه هي

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ٤٦ ، و ٨٨ - حيث الزلاقة = السهلة ، والإشارة الى أن  
نهر بطليوس كان يحجز بين الفريقين ، وكل منهما يشرب منه وعن الزلاقة ( حديثا :  
(Sagrajas) التي تعني بالعربية الزلقة ، فكانها من نوع السبيغة ، أنظر الحلة السبراء ،  
ص ١٠١ - وه ١ - حيث ينص حسين مؤنس على أن الموضع يقع على أحد نهيرات وادي آنه ،  
ويعرف باسم جريرو (Guerrero) على بعد حوالي ١٢ كم شمال بطلموس ، مع الاشارة  
الى أن الفضل يرجع الى زايبولك (Seybold) في تحديد هذا الموقع .  
(٤٨) القرطاس ، ص ١٤٥ ، وه ٨٦ .

## • الأخرى لفتاته (٤٩) •

وحمل الفريقان كل في معسكره ( محطته ) ، وبينهما مسافة فرسخ  
أى حوالى ( ثلاثة ) أميال . والذى يفهم من الروايات أن العلاقات بين  
الطرفين كانت متصلة بشكل علنى عن طريق السفارات ، وبشكل سرى عن  
طريق الجواسيس (٥٠) . وأن الحرب والسلام كانا موضوعا للمناقشة . وهكذا  
نقول رواية اليباسى التى ينقلها ابن خلكا أن يوسف بن تاشفين عرض على  
الفونسو السادس ( الادفنش ) ، من مركز القوة وكأننا فى عصر الفتوح

(٤٩) انظر الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٠٠ - حيث النص على انه لحق بيوسف خارج  
اسبيلية كل من : صاحب غرناطة ( يلكين بن جومى الصنهاجى ) فى نحو ٤٠٠ ( للامانة )  
نارس ، وأخوه تميم من مالقة فى نحو ٢٠٠ ( مائى ) غارس ، وابن صاحب المرية فى عدد  
مئيل من الجبل . ونصى الرواية على ان ابن تاشفين تقدم مستجيلا فى حركته الى بطليموس ،  
وإن عباد وراه . وأن المتوكل صاحب بطليموس ، خرج اليهم وأوسعهم برا وخسبافة .  
أما الفونسو فكان وصوله عشية الجمعة ، وأنه الترح أن يكون اللقاء بعد يومى الجمعة ( عيه  
المسلمين ) والأحد ( عيه النصارى ) أى يوم الاثنين ( اليوم المفضل عند المسلمين وكذلك  
يوم الخميس ) ، فكان ذلك نوعا من الاتفاق أو على الأقل موضوعا للمناقشة ، وقارن القرطاس  
ص ١٤٦ - حيث قصد الفونسو يوسف الذى قصده هو الآخر (حسبنا تسمح حدود بطليموس) ،  
وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على ان الفونسو ( ابن الفونس ) ملكه  
الجلالة جمع أم النصرانية لفتاله ( يوسف ) بالزلاقة ، وأنظر الترجمة ، ص ٧٨ ، وه ١ -  
حيث النص على ان ابن خلدون يصرح ان اسمه الفونسو وإن أباه فرديناند وأنه ليس ملكه  
الجلالة ( غاليسيا ) لفظ ، بل وليون وقشتالة . وهو يشير الى وجود نقش فى كنيسة  
سان جان دى كومبوستل مؤرخ بسنة ٨٧٤ م / ٧٦١ هـ يبين أن الفونس السادس وقتله ،  
كان ملكا لأشتوريى ( غاليسيا ) ولبون .

(٥٠) أنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث تواجه الجيشان فى الموضع لمدة ٣ ( ثلاثة )  
أيام ، والرسل تختلف بينهم الى أن اتفق وأيدهم أن تكون اللقاة يوم الاثنين ١٤ رجب ٤٧٩هـ /  
٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، كان المتمد « ييجل ( خلايا ) على عسكر المدو عيوناً على شبل سبق  
ياتونه بأخبارهم » ، وأيضا ص ١٥٠ - حيث نص الكتاب الذى يقال ان يوسف أرسله الى  
المدو ، وفيه خبرنا المدو فاختار الحرب . . . . . وأن الاتفاق تم على اللقاة يوم الاثنين ١٤  
رجب . . . . . وأخسر اللعين خلاف شرطنا . . . . . وجعلنا عليهم الميون التى أتنا فجر يوم الجمعة  
١٧ رجب بأن المدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين . وهنا لا بأس من الإشارة الى ان معسكر  
المرايين كان موضوعا تحت رقابة صارمة من المتمد بن عباد نفسه ، والذى كان يستخدم  
البريد الطائر عن طريق الحسام الزاجل ، أنظر الحميرى ، الرؤف المطار ، الصحرة ١٩٣٧  
( الزلاقة رقم ٨٢ ) ، ص ٨٨ - حيث جواسيس كل فريق مترددون بين الجميع ، وص ٩٠ -  
حيث رقابة المتمد بنفسه لمسكر الصيراويين ، وأنظر نفس النص فى ابن عذارى ، ج ٤  
( ملحق ٢ ) ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

الأولى ، الاختيار ما بين : الاسلام أو دفع الجزية أو الاحتكام الى السيف(٥١) ، وهو الأمر المقبول من جانب المجاهد الأصولي ، وهو ما قد يفسر لما ينسب الى الأذنفش ، من ثورة عارمة وتهديدات طنانة ( ما سبق ، ص ٣٠٠ ) .  
ولمهم أن المعركة وقعت في يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م (٥٢) .

### أداة المعركة :

أما عن سير المعركة فالمهم أن ادارتها كانت ليوسف بن تاشفين الذي قسم القوات الإسلامية الى ٣ ( ثلاثة ) جيوش ، أولها : جيش الأندلسيين الذين جعلهم يوسف وحدة واحدة ، ملتفة حول المهتمد بن عباد في مركز القلب ، وهو جيش المقدسة أو الصدام مع العدو(٥٣) . أما عساكر المرابطين فقد وتقسما الى قوتين ، أولاهما : جيش يتكون من ١٠ ( عشرة ) آلاف غارس بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة ، فهو الجيش الثاني الذي كان

(٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ( يوسف بن تاشفين ) ، ط . بيروت ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٦ ( ونفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ ملحق ١ ص ١١٥ ) - حيث البياسي : أبو الحجاج يوسف بن محمد ، وكتابه : « تفكير المائل وتبيين النافل » الذي يورد روايات تفصيلية جديدة عن الزلاقة ، وان لم يشر الى مصدرها ، القرطاس . ص ٩٠ .

(٥٢) ابن خلكان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ ( نفس المصدر في ابن عذاري ، ج ٤ ملحق ١ ) ، ص ١١٦ ، وانظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث الوقعة في ١٤ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، وقارن الروض المطار ، ص ٩٤ - حيث صفور كتاب المهتمد من المعركة الى ابنه في اشبيلية بتاريخ ٢٠ رجب . ولا بأس من الإشارة الى ما قبل من أن الفونسو أراد الفخر بالمسلمين يوم الجمعة ، وكان قد قرر أن تكون السبت ( حسب البياسي ) أو الاثنين بعد الأحد ، عيد النصارى ( حسب ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث الوقعة يوم الجمعة - في الشهر الأول من رمضان ) ، وقارن النويري ، أبو حنيفة ، ص ٣٨٦ ( الشهر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م وهـ ٢٤ حيث الاختلافات في تحديد التاريخ من سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، مع اعتماد الجمعة ١٢ رجب : تاريخ خطاب الفتح ليوسف بن تاشفين ، وقارن ابن خلكان ، ج ٦ ص ١٨٦ - حيث اليوم المشهود ( الزلاقة ) سنة ٨١ (٤) هـ / ٢٤ أكتوبر ١٠٨٦ م ٢ .

(٥٣) حسب رواية ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، على أساس أن الأندلسيين اصحاب خبرة بالبلاد وبالأعداء الأسبان المسيحيين ، وانظر القرطاس ، ص ٤٦ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين أمر امراء الأندلس ، ابن صمادج ( الرية ) وابن جيس ( غرناطة ) وابن مسعدة ( النهر الأعلى ) وابن ذي النون وابن الأفلح أن يكونوا مع المهتمد ، فكانت معلة الأندلس واحدة .



عليه أن يتبع جيش الأندلسيين ، فكانه سائقه لهم حماية ( رده ) \* أمه الجيش المرابطي الآخر فعماده الحرس الأميرى الخاص المكون من الممالك السودان على وجه الخصوص والقرابة المقربين تحت لواء الأمير يوسف القائد العام (٥٤) \*

#### أخبار الجواسيس :

وبناء على المعلومات السرية الواردة الى المسكر الاسلامي . والنتمد عرف منها أن هجوم العدو سيوجه الى ابن عباد أولا في محاولة لكشفه حتى يسهل على العدو التعامل بمد ذلك مع الصحراويين الذين لا يعرفون البلاد ، قرر ابن تاشفين ادخال تعديل على مهام الكمين الذي كان يعمده لمفاجأة العدو . وذلك أنه أمر واحدا من قواده بأن يسير بكتيبة خاصة عينها له يقتحم بها معسكر الفونسو السادس ، أثناء انشغاله بقتال ابن عباد ، فيضرمه . نارا (٥٥) \*

والهم أن أخبار الجاسوسية الأندلسية كانت صادقة في الهجوم الشوكيك للعدو ووجهته ، إذ لم تلبث أن ظهرت « طلائع ابن عباد والروم في اثرها » ، الأمر الذي أدى الى اضطراب المسكر الاسلامي الذي كاد يروح نهبا للفوضى ، وخاصة عندما كثف العدو هجومه حتى غمرت خيله المسكر الأندلسي الذي كادت تحل به الهزيمة التامة \* ويرجع الفضل في صمود الجيش الاول ( الأندلسي ) الى المعتمد بن عباد ، وهو الرجل المترف الذي أظهر من العزم والثبات في تحمل الضربات ، ومن البطولة والقوة في مناجزة الأعداء ، ما صار مضربا للمثل في الشجاعة والصبر على تحمل المكاره .

---

(٥٤) ابن خلكان . وليات الأعيان ، يوسف بن تاشفين ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٧ ( وملحق ١ في ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٦ ) - حيث النص على ان ابن عباد اختار ( بعضي اردونه ) ان يكون المصادم أولا : وان انهزم ويميل عليهم يوسف ، وانذر الروم المطسار ، ص ٩٠ ( ملحق ٢ في ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٦ ) - حيث النص على انه ابن المعتمد الذي عونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكايده ابن فرذكلند ( ألفونس ) إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ... حتى كان يطيف بنفسه بالمحلة ويضع الكراديس من الجبل على أفواه طرق مدتهم \*

(٥٥) الروض المطسار ، ص ٩٢ ، ( ملحق ٢ من البيان ، ج ٤ ص ١٢٧ ) - حيث كان ابن القصيرة كاتب ابن عباد الوسط في تعريف يوسف بن تاشفين بما كان يرد للمسكر الأندلسي من اخبار العدو . وانظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث اعداد ابن عباد كتابه وجزئ عونه على معسكر العدو يأتيونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم \*

والآلام (٥٦) .

### تباطؤ « حركة المرابطين » :

وتميل الرواية الأندلسية المنسوبة الى البياسي ، والنسب ينقلها ابن خلكان ، الى تأخر الجيش المرابطي الثاني الذي كان تحت امره داود بن عائشة في التدخل الى جانب الأندلسيين أصحاب الجيش الأول بقيادة المعتمد بن عباد ، الأمر الذي يثير الشك في كون أصحاب تلك الرواية ممن يرون أن يوسف بن تاشفين ربما فكر في انهالك قوى الجانبيين : الأندلسي والاسباني المسيحي في القتال ، حتى ينتهي الأمر بانفراد القوة المرابطية ، وحدها بالبلاد ، دون منافس . ولكنه يستشف من تفاصيل القتال في رواية صاحب القرطاس التي تظهر موالية للمرابطين ، على أساس أنها تعبر عن الرواية المرينية المناهضة للموحدين خلفاء الأعداء المرابطين ، أن ادارة المعركة التي انفرد بها يوسف بن تاشفين اتسمت بالحنك والذكاء ، وخاصة في تحريك القوات في الوقت المناسب ، الأمر الذي ترتب عليه الانتصار الحاسم (٥٧) .

فمن الواضح أن داود بن عائشة أدى المهام التي كلف بها من القتال الأعلى في وقتها المقرر ، وإذا كان هناك من لوم فانه يقسح على عاتق أمراء الأندلس الذين انتثروا في أول صدام ، بشكل يشبه الهزيمة ، حيث وصلوا في فرهم ( فرارهم ) حتى دشارف بطليوس ، الأمر الذي أدى الى حرج موقف ابن عباد .

(٥٦) أنظر الروض المطمار ، ص ٩٢ - حيث النص على أن « ابن غزلند ( الفونس ) مال على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به ٠٠٠ ( وإن المعتمد ) صبر صبرا لم يعهد مثله لأحد » ، وأنه أنقذ جراحات ، وغرب رأسه - كما تبالح الرواية - ضربة فلققت حاتمته حتى وصلت الى صديقه وجرحته يمين يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ٣ ( ثلاثة ) أفراس ، وهو يضرب يميناً وشمالاً ، ( وقارن نفس الرواية في الملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٣٧ ) ، وأنظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ١٠١ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث النص على أن المعتمد أرسل الى يوسف أن يكون على أهمية الاستعداد لأن العدو صاحب مكر وخديعة في الحرب . وأن يوسف صنعاً علم يزحف العدو في فجر الحزمة ( ١٠ رجب ) أرسل قائمه الظفر داود بن عائشة في جيش عظيم من ثلثة ووجوه المرابطين وأتباعهم ليكونوا طليعة له . (٥٧) عن أدب الزلافة وما قيل فيها ، أنظر حسن أحمد محمود ، قيسام المرابطين ، ص ٢٣٣ ، وعن اختلاف مواقف المشاركين فيها من الأندلسيين والمغاربة ، أنظر نفس المرجع ، ص ٢٨٢ .

### الكهين : الحرم الأثيرى يحسم المعركة :

والمهم أن ابن عائشة التحم مع قنوات البرهانس ( الفارفانيث : Alvar Fan.ez ) الى احاطت بابن عبياد في ذلك القتال المحتدم فلم يقوم بمزانه ، بل ظلت كفته تتأرجح لصالح العدو . وعندما تقدم الفونسو السادس هو الآخر بفواته فوقع في جيش داود بن عائشة الذي كاد حينئذ يساوم ، وهو يحسبه جيش يوسف بن تاشفين ، رأى هذا الأخير أن ينفذ خطة الكمين الذي يفاجئ معسكر الفونس ، وهو مشغول بالقتال ، بالحرق والتخريب . وخرج ابن تاشفين من وراء المرتفع الذى كان يتخفى فيه بحرسه الخاص من ممالك السودان وطبوله التى صدعت الجو ، مع القرين من لمنونة بقيادة سير بن أبى بكر ، لكى يشاركوا فى ضرب محلة الفونس واضرامها نارا تشتعل(٥٨) .

وفوجئ الفونس السادس بالفسارين من محله التى راحت نهبا للحريق والتمتل والتدهر ، فأسرع نحوها بجيشه ليفع فريسه لقوات الحرس الأثيرى المبرية ، التى أطلق منها يوسف عليه ٤ ( اربعة ) آلاف مملوك من السودان الذين يحسمون حرب الالتحام بالمزاريق يصيبيون بها الحيل ، والخناجر يطعنون بها الرجال والفرسان ، فكان نصيب ألفونس طمعة خنجر هتكت دحانات الزرد واصابع الفخذ ، وعوقته مدى الحياة(٥٩) .

(٥٨) الفوطاس ، ص ١٤٧ - حيث ابن عائشة لى جيش عظيم ، طليعة ليوسف بن تاشفين - وحيث قسم الفونس عسكره على فرقتين : واحد بقيادةه وقع بها فى جيش ابن عائشة والاخرى بقيادة البرهانس ( الفارفانيث ) داهوا محله ابن عبياد وهزموا ، فلم يثبت منها الا ابن عبياد وجيشه ، وص ١٤٨ - حيث سار سير بن أبى بكر اغاثه لابن عائشة وابن عبياد ، فى قبائل المغرب وزناقة ، والمصامع وغمارة وسائر قبائل البربر الذين كانوا فى محله ، ومسير يوسف فى لمنونة والمرابطين الى محلة الفونس لاراعها وقتل من بها من الرجال والفرسان .

(٥٩) وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ - حيث نص البيهقي : « وهمهم شيل العدو ففعلت ابن عبياد ... وفر رؤساء الأندلس .. فركب أمير المسلمين ، واحد بن به انجاد خيله .. فمعدوا الى محلة الأندلس فالتصموا وقتلوا حاميتها ، وشربت الطبول فاحتزت الأرض وتزاحمت الروم الى محلتهم .. فقصدا أمير المؤمنين ، فافرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها .. ولم الكرات بينهم تتوال الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فخرجل منهم زهاء ٤ ( أربعة ) آلاف ، ودخلوا المترك بדרך اللط وسيف الهند ومزاريق الزان لطموا الحيل فرمعت بفرساتها .. وتلاحق الأندلسى بأسود لندق مزاريقه بالف ، فأهوى ليضربه بالسيف فاصق به الأسود وقبض على أعنته ، وانفض خنجره كان منتظا به ، فأنثته لى فخذته فهتك خلق دمه ، ومشك فخذته ، مع بداء سرجه ، ... وسدقوا الجملة على =

## الرجح والحسارة في المعركة الفاصلة :

وهكذا انتهت معركة الزلاقة الى صالح المسلمين في الأندلس والمغرب - رغم قلة عددهم النسبية - واعتبرها كثير من كتاب المسلمين وكأنها من الوقائع الفاصلة في تاريخ الاسلام - وهو الأمر الصحيح ، ليس من حيث النتائج المباشرة فقط ، بل والمستقبلية لفترة جاوزت القرن ، وسمحت بتدخل الموحدين في الأندلس بعد حين من تدخل المرابطين ، فتتفلس الصعداء فيها العرب والمسلمون (١٠) .

فلقد كانت الهزيمة تامة على الفونس السادس الذي نجح في الهرب تحت جنح الظلام مسح قلة من المحيطين به ، لا يتجاوز عددهم الى ٥٠٠ ( خمسمائة ) فارس (١١) ، بينما بقي معظم رجاله في أرض المعركة ، لم

= الأندلس وأصحابه فأخرجهم عن محلتهم ، فولوا هورهم ( ونفسه في ملحق البيان ، ج ٤ ص ١١٧ ) ، وقارن الروي المطار الزلاقة ، ص ٩٢ - ٩٣ : حيث : نفس مجيء ابن عائشة ، عن ابن عبيد قبل إقبال يوسف ، وهور ربيع الظفر ونباشير النصر ، ثم رجوع المهزومين حين علموا بالتحام الفتنين ، فالتكسيف الطاغية ، وفر عاريا مدزما ، وقد طعن في إحدى ركبتيه طمعة بقي أثرها ببقية عمره ، فكان يضع لها ( وملحق ، البيان ، ج ٤ ص ١٢٨ ) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٨ - حيث النص : « فاشير ( الفونسو ) يهزى محلتها ونهبها ٠٠ فرد وجهه الى قتاله ( أمير المسلمين ) وكان على فرس أنثى يمر بين صفوف المسلمين يحرصهم ويعوي لغوسهم على الجهاد والصبر ٠٠٠ فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة » . وعندما رأى ابن عبيد وأصحابه انهزام الروم ٠٠ شدوا عليهم وحمل القائد سير ( عليهم ) فاستمرت الهزيمة على الروم ٠٠ وتراجعت الطائفة المهزومة من المسلمين . واشتد القتال على الفونسو حتى أيقن بالفناء .

(١٠) انظر الحلة السيرة ( لابن الأبار ) ، ج ٢ ترجمة المتوكل ( عمر بن محمد ابن الألفس ) رقم ١٢٨ وص ٩٦ وه ٢ - حيث يقول ابن جهور ( عبد الله بن أحمد ) ، أحد مشاهير أدباء وفتهاة أشبيلية في القرن السادس الهجري ٥١٦ - ٥٩٦ هـ / ١١٢٢ - ١٢٩٩ م ) ، في الزلاقة وكأنها معركة العالم العربي وقتئذ :

لم تعلم المجمع اذ جاءت مصمة يوم العرومة ان اليوم للرب وقارن القرطاس ، ص ١٥١ - حيث هذا البيت لأبي جوه ، وأيضا لابن اللانة : يوم العروبة كان ذاك الحوف وأنا شهدت قائم من يستصعب

(١١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ - حيث النص على أن « أمير المسلمين سار الى خلم الفرنج ونهبها فانهزم الفرنج ، وتبع الأندلس في تفرس ، ثم النص ( ص ١٥٤ ) على أنه لم يرجع من الفرنج الا ٣٠٠ فارس . وقارن الروي المطار ، ص ٩٣ - حيث النص على انه الفونسو لجأ ( بعد الهزيمة ) الى قل كان يلى محلتهم ( مسكره ) في نحو الخمسمائة فارس ، كلهم مكلوم ( نفسه : ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٢٨ ) ، القرطاس ، ص ١٤٨ =

ينج منهم الا من لاذ بالفرار ، كما آلت عدده وسلاحه للمسلمين وطيرت كتب النصر مع الحمام الزاجل من ميدان المعركة الى اشبيلية مباشرة ، كما حملت مع رجال الأخبار الى غيرها من المدن ، وعبر المجاز الى مراكش باسم « أمير المسلمين » . ولتأكيد كتب انتصار الزلاقة هذه ، التي يؤيدها قول الشاعر : « السيف أصدق انباء من الكتب » ان نماذج من جماجم قتل الأعداء سيرت الى عواصم الأندلس وكذلك القرب - كشاهد مادي على الانتصار الكبير في الزلاقة (٦٢) .

هذا ، ولا بأس من الإشارة الى أن المسلمين دفعوا ثمنًا باهظًا نظير هذا النصر الكبير في تلك « الغزوة المساركة » . فاذا كانت رواية القرطاس تباليغ ، من غير شك ، في مقولة أن عدد القتلى من « الروم » ( الاسبان المسيحيين ) بلغ ٣٨٠ ألفا ما بين فارس ( ١٨٠ ألفا ) وراجل ( ٢٠٠ ألفا ) ، فغالِبُ الظن أن تلك الاحصائية الحزنية في جبهة العدو ، هي المقدمة المقبولة لفاجعة استشهاد ٣٠٠٠ ( ثلاثة آلاف ) رجل من المسلمين - وهو الرقم الذي نراه قريبا من الواقع (٦٣) .

= حيث : فلما رأى الفونسو ان الليل اقيل مر مهزوما على وجهه في نحو ٥٠٠ فارس على غير طريق ، ( ص ١٤٩ ) - حيث مات منه ٤٠٠ فلم يستحل طليطلة منهم الا ١٠٠ فقط ، وركبهم لرابطون بالسيف يقتلونهم في كل فج وسهل الى ان حال الليل بظلمته بينهم . (٦٢) ونبات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٨ - حيث النص على أن اصحاب الأدفونسى « افلتوا بعد ما نصبت فيهم افكار الفتنة ، واستولوا المسلمون على ما كان في محلتهم من الإلات والآنية والخضارب والأسلحة » وأمر ابن عبيد بضم رؤوس القتل من الروم ، منشر منها امامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عبيد الى ولده الرشيد ، كتابا ، وأطار به الحمام يوم السبت ١٦ محرم يخبره بالنصر ( نفس البيان ، ملحق ج ٤ ص ١١٧ ) ، وفارن الروض المطاير ، ص ٩٣ - حيث القول بشيء من المبالغة انه بعد جولة الأدفونسى الى مرزف : « وأباد القتل والأسر من عداكم من اصحابهم ، وعمل للمسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذون عليها ، وابن فرزند ينظر الى موضع الوقعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محملا به واصحابه » ( نفس البيان ملحق ٢ ، ص ١٣٨ ) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث : وبات للمسلمون على خيولهم تلك الليلة يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وأنهم صلبوا صلابة الصليب وسط الفتنة . وأن ( أمير المسلمين ) أرسل من جماجمهم ١٠ ( عشرة ) آلاف الى اشبيلية ، ومنهنا الى : قرطبة وبلنسية وسرقسطة ومرسية ؟ كما بحث الى بلاد المدرة ٤٠ ( أربعين ) ألفا قسمت على مدنها ؟

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث يتفرد ابن أبي زرع بهذه الاحصائيات الكبيرة العدد ، وان كانت مقولة نظرا للامتحانات الصعبة التي واجهها المسلمون أمام قوات الأدفونسى والبرهانس وحلفائنا ، التي جعلت من النصر وكأنه - حتى آخر ساعات « يوم الزلاقة » - أمية صعبة =

### التقييم المحتمل للزلافة :

ودون محاولة استقصاء تعصيب كل من الأندلسيين والمرابطين في تلك التضحية الباهظة بالدم ، أو التساؤل عما حصل عليه كل من يوسف بن تاشفين وأمرء الأندلس من المكاسب المادية والأدبية ، نرى أن المعركة بوقائعها السلبية كانت خسارة مادية - بشكل أو بآخر - لكل الأطراف المتحاربة . وإذا كان الطرف الإسباني المسيحي هو أكثر الأطراف خسارة في الرجال والمتاد ، فإن المرابطين بدورهم كانوا أكثر الخاسرين في الجهد والنفقات ، من حيث طول مسيرتهم ذهابا وإيابا من الجنوب المراكشي ، وركوب البحر ، وتجشم القتال في بلاد غريبة - وأكثر من ذلك تلك الصدمة النفسية التي أصابهم لما عاينوه بالأندلس من الترف الذي لم يصيبوا منه شيئا طالما تحدثت مهمتهم في المعركة وحدها دون مقدمات في التعرف على البلاد ، أو عائدات مادية تقابل ما بذل من الجهد والعطاء . حقيقة أن الأندلسيين قدموا لهم الترحيب والضيافات ، قبل أن تكفل هاماتهم هالات النصر والفخار ، ولكن ذلك لا يكفي وزن الغداء ، على كل حال .

والحقيقة أيضا أنه لكي تتم الفائدة من دعوة المرابطين إلى الأندلس كان ينبغي أن يستثمر النصر إلى أقصى حد ، بمعنى أن يدفع المهزوم تكاليف المعركة ، من الأموال والأراضي وناتج العمل . وهذا ما كان يراه المعتمد بن عباد عندما طلب من يوسف بن تاشفين استئصال شافة الأذفونش بسد هزيمته ، وهو ما لم يستجب له أمير المرابطين . ولقد فسر الجانب الأندلسي إصرار ابن تاشفين على عدم متابعة الأذفونش ، بأنه خاف أن ينتهي بهلاكه السبب في دعوة المرابطين إلى الأندلس ، فكان الأندلسيين كانوا يرغبون في استقلال المرابطين لتحقيق أهدافهم الأنانية ، في الوقت الذي رأى فيه ابن تاشفين أن اقتاذ الأندلس واجب سياسي ديني لا مناص منه في كل وقت وحين (٦٤) .

---

٦٤ - المثال . وانظر فيما سبق ، ص ٥٩ ص ٣١٠ - حيث نعرض ابن تاشفين - في آخر لحظات القتال - على الشهادة والجبن ، وقال المسلمين قتال من يطلب الشهادة - وانظر الرمز المطار ، ص ٩٤ - ٩٥ - حيث النص على أنه كان من بين كبار الشهداء : ابن ربيعة ، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهم .

(٦٤) انظر الروض المطار ، ص ٩٣ ( ملحق ٢ في البيان ، ج ٤ ص ١٣٩ ) - حيث النص على أن شيع بن عباد قالوا يخوف يوسف من هلاك المو فيقع الاستنفاد عنه ، وقال شيع يوسف إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود إلى الأندلس ، بينما قال الحايديون أن كلا من الرجلين أسر حشوا في ارتفاع ، وأن كان ابن عباد أخرى الصواب .

وهكذا تكون وقعة الزلافة ( المباركة ) قد فشلت ، رغم تحطيم قوات العدو الاسباني ، في تحقيق أهم أهدافها ، وهو استرجاع الأراضي الإسلامية المفقودة في طليطلة ، وهي سبب استدعاء المرابطين . والحقيقة أن الفاء تبعة ذلك الفضل على نوايا كل من الطرفين ، حسنة كانت أم سيئة مشتركة بينهما ، فالصحيح أن عملية الانقاذ لم يكن يكفيها جبهة موحدة أو متحدة ، بل جبهة واحدة ، الأمر الذي يعنى انفراد المرابطين بالأمر في الأندلس ، حتى تركز موارد البلاد جميعا لمواجهة حرب الاسترداد ، بدلا من تبديده تلك الموارد في أعمال الترف والفساد في بلاط الأمراء ، الأمر الذي كان يميح أفراد الطبقة المثقفة مثل القاضي أبى الوليد الباجي<sup>(٦٥)</sup> ، بل وأمراء الأندلس أنفسهم ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد عندما فضل رعى الجمال على رعى الخنازير ( ما سبق ، ص ٢٩٥ ) .

### حرب الاحلال والتجديد المرابطية :

وبذلك تكون حرب احلال وتجديد اسلامية قد قامت من قبل المرابطين ، الى جانب حرب الاسترداد المسيحية ، ضد أمراء الأندلس . وإذا كانت بداية تلك الحرب ، وهو الأمر المستغرب ، هي عودة يوسف بن تاشفين الى المغرب ، فالحقيقة التي نراها هي أن الأحوال الجوية في الأندلس في تلك الفترة الحرجية من نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ، كانت تملئ على المجاهدين العودة الى بلادهم ، انتظارا لتحسن الأحوال الجوية في فصل الربيع ، حيث يكون استدعاؤهم من جديد الى الأندلس ضرورة حتمية لمواجهة العدو المطلب بالثار . وهذا يعنى أن تلبية الدعوة للقتال في معركة الزلافة تمت

---

(٦٥) انظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٩٨ - حيث كان القاضي أبو الوليد الباجي يطوف على رؤساء الأندلس ويندبهم الى لم الفصل ومعالجة العدو ، وإن اختلف الأمر في اصنافهم الى وعظه أو استيرادهم نزعه ، وانظر وليات الأعيان ، ج ٧ ترجمة يوسف بن تاشفين ، رقم ٤٤ ، ص ١١٨ - ١١٩ ( ملحق ١ في البيان ، ج ٤ ص ١١٨ ) - حيث « أمير المسلمين » يطلب المونة من المارية ، والفنوى من قبل جماعة من الفقهاء بجواز الاقتداء بصر بن اخطاب ، ففوتى القاضي أبى الوليد وغيره من القضاة والفقهاء بالدعوة ( المغرب ) والأندلس وتفيد ذلك بأن يكون أمير المسلمين في حاجة ماسة الى المونة المالية ، الأمر الذي يتأكد بحلفائه ، وأن يكون ذلك من أجل الجهاد . وهنا تنص الرواية على أن « أمير المسلمين » أقام بعد الرقعة بشن الغارات على بلاد الفرنج - الأمر الذي يعنى بقاء الحامية المرابطية بقيادة سير بن أبى بكر . كما تأتي الإشارة بعد ذلك الى تملق يوسف بن تاشفين على ما شاهده من ترف بن عباد في منطقة الشرق ، من غرب إسبيلية ، بقوله : « يلوح انه مضىح لما بين يديه من الملك » حيث تؤخذ أمواله بالظلم والاستهتار .

فى غير موعدها الصحيح ، فى مطلع فصل الصيف حيث تطول العمليات العسكرية على مدى شهور هذا الفصل ، حيث تسمى صائفة \* ولا بأس أن كان ذلك محسوبا من قبل المرابطين بالنسبة للقاء بعيد ، غير مضمون النتائج مع المجهول \* ولكنه بعد أن نجحت التجربة فى الزلافة لم يكن بد من مواصلة العمل من أجل الحفاظ على بلاد المسلمين فى الأندلس ، الأمر الذى لا يتأتى الا بوضعها تحت سلطان واحد : تحت هيمنة امارة المسلمين المرابطية \*

### يوسف بن تاشفين اميرا للمسلمين :

وهكذا كانت الدولة المرابطية تتحول على يدى يوسف بن تاشفين من دولة اقليمية صفرى الى دولة عالمية كبرى ، أشبه بدول الخلافة الامبراطورية ، التى تافست خلال القرنين السابقين خلافة بغداد ، مثل : دولة الأمويين فى قرطبة أو دولة الفاطميين فى المهدية ثم القاهرة \* والحقيقة أن الدولة المرابطية بتمدها جنوبا الى تخوم السودان وشمالا الى ما وراء المضيق ، استعقت أن تكون امبراطورية ( متعددة الأقاليم والأجناس ) ، مثل دولة الخلافة \* ولكنها لما كانت دولة سننية سلفية تعترف بالخلافة العباسية ، لم يكن لها أن تخرج - قانونا - عن طاعة خليفة بغداد : أمير المؤمنين (جميعا) \*

والحقيقة أنه اذا كان ما تقوله الرواية الدارجة من أن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين به انتصار الزلافة (٦٦) ، وكأنه مكافأة على الانتصار العظيم الذى حققه لجساعة المسلمين - تماما كما تعطى حديثنا رتبة (المارشالية : المشير ) مكافأة لكبار القواد على انتصاراتهم فى المعارك العالمية الكبرى \*

واذا كان هذا الأمر مقبولا بالنسبة للمعاصرين ، فانه لم يكن كذلك بالنسبة لمؤرخى الدولة المرابطية ، من قدامى ومتأخرين \* اذ لما كانت الدعوة المرابطية بمثابة تجديد للإسلام فى صحراء المغرب ، اعتبر القانون بها أصحابهم وكأنهم المسلمون حقا ( أو أهل الحق ) ، وهو أقل رتبة من لقب « أمير المؤمنين » الخلافي \* وفى ذلك قيل ان أول من حمل هذا اللقب هو الأمير أبو بكر بن عمر (٦٧) ، فكانه لقب عريق فى دولة المرابطين \* وهذا

---

\* (٦٦) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث وفى هذا اليوم ( الزلافة ) تسمى يوسف بن تاشفين « بأمير المسلمين » \*

(٦٧) انظر النويرى ، ط \* نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٧ - حيث النص على أن الذى سمى أبا بكر بأمير المؤمنين هو عبد الله بن ياسين \*



ما يفسر اطلاق لقب أمير المسلمين على يوسف بن تاشفين منذ بداية ظهوره كشخصية تاريخية ، وخاصة عند المتأخرين . وبطبيعة الحال فإن عدم معرفة الكرى ( حوالى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ) بيوسف بن تاشفين ، أو بلقب « أمير المسلمين » ( ما سبق ، ص ٢١٥ ) ، يرجع فكرة عدم معرفة المرابطين بذلك اللقب قبل وقعة الزلاقة ، الأمر الذى يؤيده خلو النقود المرابطية ، التى ضربت ما بين سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، و ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من لقب أمير المسلمين (٦٨) .

وهكذا تصح الرواية التى تربط بين اللقب السلطاني الرفيع ( أمير المسلمين وناصر الدين ) ، وبين الانتصار الكبير فى موقعة الزلاقة (المباركة) ، وان لم تجعلها مكافأة للمجاهد الكبير على جهده ، فى خدمة الاسلام بالأندلس ، بل أعطتها شكلا رسميا ، على قاعدة القانون والشرعية . وفى ذلك تقول الرواية ان فقهاء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين انه لا تجب على المسلمين طاعته الا بعهد من الخليفة ، الأمر الذى دعاه الى ارسال سفارة الى بغداد ، تقدم هدية وتعرف بما فعل ( يوسف ) بالفرنج ، وما قصده من نصرة الدين والجهاد فى سبيل الله ، وان ديوان الخليفة المستظهر بالله ( ولايته : ٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م ) رد على طلبه بهدية وكتاب وتقليد وخلع (٦٩) .

.....

(٦٨) انظر حسن محمود ، المرابطون ، ص ٣٣٣ وما بعدها ، وه التالى .  
(٦٩) انظر النويرى ، أبو حنيف ، ص ٣٩٠ ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ ( والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢ ) - حيث النص على انه تسمى بأمر المسلمين ( كما فى القرطاس ، ما سبق ، ه ٦٦ ص ٣١٤ ) ، وانه خاطب المستظهر ( المستنصر ) المباسى ، الخليفة ببغداد لعهد ، وبعت اليه عبد الله بن محمد بن الرسمى ( العرب ) الأشبيل ، وولده أبا بكر ( القاضى ) فتلقا فى القزل ، وأحسنا فى الإبلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يمتد له على المغرب والأندلس ، فمعه له . وتضمن ذلك مكتوب الخليفة ، متوقفا فى أيدي الناس . وانتقل اليه بتقليد الخليفة وعهده ، على ما الى نظره من الاقطار والأقاليم . هذا وتضيف الرواية الى ذلك : « وخاطبه الامام الزنالى ، والقاضى أبو بكر الطرطوشى ، يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، وبختابه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله » ، وقارن أحمد مختار البساذى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٣ - حيث النص على ان ما ظهر من وثائق ( خاصة بالمرابطين والخلافة المباسية ) يتفق مع رواية ابن خلدون ، وصحة سفارة ابن الرسمى . وقارن ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٥ - حيث أرسل ( يوسف ) الى المتتدى ناصر الله ( ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م ) ببغداد فاتاه الحلق والاعلام والتقليد ، ولقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٣٣٥ - حيث النص على ان اسم الخليفة المباسى المتغوش على السكة المرابطية =

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن لقب « أمير المسلمين » لقب شرفي حظي به يوسف بن تاشفين بعد انتصار الزلاقة في الأندلس ، فكانه تكريم شعبي من قبل العلماء والفقهاء الذين ينفاد لهم عامة الناس ، الأمر الذي جعل المتأخرين من الكتاب يصفونه على يوسف بن تاشفين بأثر رجعي ، كما يقال ، فشرّفوه بحمله منذ بدء ظهوره على مسرح الأحداث ، حتى أصبح لقب « أمير المسلمين » مفردا ، مرادفا لاسم يوسف بن تاشفين ، دون غيره من الناس - وخاصة في الأندلس التي أعاد إليها الأمل في الصمود والبقاء - فكان عهده بها تجديد لعهد الناصر « أمير المؤمنين » ، أو ابن أبي عامر « المنصور الحاجب » .

#### إعادة المسلمين تنهي نظام أمراء الطوائف :

والهم أن يوسف بن تاشفين كان في بر المدوة بعد وقت قصير من الزلاقة . وعندما دخلت سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م كان مقيما في قصره بالحضرة مراکش . وعندما دخل الصيف وتحسنت الأحوال الجوية خرج في دفة ربيع الثاني/ يولييه ، في جولة تفقدية طاف خلالها أرجاء بلاده المغربية . وهو ينظر في أحوال الرعية ، ويطمئن على حسن سير الأمور ، من استقامة العمال وعدالة القضاة (٧٠) - مؤكدا اهتمامات أمير المسلمين الجديدة - بصفته رأس كل من السلطتين التنفيذية والقضائية ( التشريعية ) الى جانب قيادته الحربية ، فكانه بذلك أصبح صاحب السيف والقلم جميعا ، كما تقضى بذلك أصول النظم السلطانية في دولة الإسلام .

#### مشكلة التوقيت :

ومن شذرات التاريخ الخاصة بالتدخل المرابطي في الأندلس الذي انتهى بالقضاء على نظام الطوائف يتبين أن هذا الأمر استلزم من أمير المسلمين ( يوسف بن تاشفين ) العبور ٣ ( ثلاث ) مرات أخرى الى الأندلس ، خلال فترة وجيزة لا تتجاوز ٤ ( أربع ) سنوات فقط ، فيما بين ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، حيث الجواز الثاني ، وسنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م تاريخ الجواز الرابع الذي أنهى نظام الطوائف ، فأصبحت بلاد الأندلس بموجب هذا

---

= هو : « عبد الله أمير المؤمنين » ، الأمر الذي أثار جدلا حوله عند بعض الباحثين ، وهو الأمر الذي لم يتأكد بعد ( وقارن أيضا ص ٣٣٣ - ٣٣٤ - حيث الإشارة الى نصوص تؤيد اعترافه المرابطين بالخلافة الباسية قبل الزلاقة والحصول على اللقب ) .  
(٧٠) انظر الترطاس ، ص ١٥٢ .

الوضع الجديد ، الولاية الثالثة في امبراطورية الاتحاد المرابطي ، بعد : الصحراء والمغرب ( الأقصى ) . واذا كان تاريخ العبور الرابع والآخر أكيد بسبب أحداثه المعروفة في الأندلس ، فان العبور الثاني يوضح في سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م بناء على ترجيح رواية ابن أبي زرع الواضحة رقما ( ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ) وكتابة ( بعد سنتين من الزلافة ) على رواية كل من ابن الأثير والنويري التي يشوبها الغموض عندما تتكلم عن عودة أمير المسلمين الى العدو بعد الزلافة ، وترد ذلك بوضع العودة الى الأندلس في العام المقبل ( الكامل ) والعام الآتي ( النهاية ) ( ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ) ، وهو الأمر غير المقبول ، حيث كان يوسف يطوف في البلاد المغربية في شبه نزهة ترويحية - يستحقها هو ورجاله - مع الأخذ في الاعتبار بأحوال المعسكر المعادي بأسبانيا الذي كان ما زال بعد ينفذ عن نفسه غبار الهزيمة ( ٧١ ) . أما الجواز التالي وهو الثالث فلا بأس في تاريخه بعد سنتين أي في سنة ٤٨٣ هـ كما تقول رواية الحلل المشوية ، المدعمة برواية القاضي أبي بكر بن عقاب ( ٧٢ ) .

#### الحامية المرابطية الأولى :

ومن المهم الإشارة هنا الى انه رغم الوحشة التي لفت العلاقات الأندلسية المرابطية عقب انتصار الزلافة ، الأمر الذي يظهر في عودة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى بلاده مباشرة وبشكل مريب ( ما سبق ، ص ٣١٣ ) ، فمن الواضح أنه كانت قد اتخذت ترتيبات ثنائية للبقاء على جبل المودة موصولا بين الجانبين ، احتسابا لطائفة يلم أو نازلة تقاومه طرفا أو الآخر . من ذلك ابقاء حامية مرابطية في الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر ( الممتوني ) ، أقامت في بعض القلاع على حدود النضر الأدنى من

---

( ٧١ ) الترطاس ، ص ١٥٢ - حيث سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، ولها جاز أمير المسلمين الجواز الثاني الى الأندلس ، بوسم الجهاد ، وانظر الحلل المشوية ، ص ٦٦ ( وملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٩ ) - حيث التاريخ ( ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ) مدعم برواية الوزير أبي بكر ابن عقاب حيث لفظ سنتين محرف الى سنتين . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث النصر بعد الزلافة على انه في العام للقبيل عاد ( أمير للمسلمين ) الى الأندلس . وانظر النويري ، أبو ضنف ، ص ٣٨٧ ، ( نصار ، ج ٢٤ ص ٣٦٧ ) - حيث رجوع يوسف من الزلافة الى مر؟ كما فاقم بها الى العام الآتي ، ثم دخل الى الأندلس ( وهي الرواية المحورة عن الخروج للطراف في المغرب سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، كما في الترطاس - ما يأتي ، ص ٣١٨ وهـ ٧٧-٧٧ ) . ( ٧٢ ) انظر الحلل المشوية ، ص ٧١ ، والملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٣ .

غرب الأندلس . وهذه الحامية التي لا يعرف عددها على ما نظن هي التي قامت ، بما سينسب الى أمير المسلمين القيام به بعد الفزوة ، من : مهاجمة بعض حصون العدو في المنطقة ، و احراز بعض المكاسب في الأراضي المسيحية المتطرفة (٧٣) .

ومن الأمور التي تستدعي التأمل ما تقوله الرواية السابقة من احتياج أهل رابطة سير هذه حياة الخشونة والضنك التي عاشوها مدافعين عن الحدود ، بينما ينعم أمراء الأندلس برغد العيش ، الامر الذي جعل ابن تاشفين بأمر سير بن أبي بكر بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم والحاقهم بالعدوة . وإذا كان ذلك يعني أن ضم الأندلس الى امبراطورية المرابطين كان أمرا محسوما منذ العبور الأول سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وانتصار الزلاقة ، فمن الواضح أن بقية الرواية ، تعني رسم خطة الاستيلاء على البلاد خطوة بعد خطوة ، كما يقال الآن ، بدءا بمجاوري الثغور الذين يحل أمراء الماساكر المرابطين محلهم وأكابرهم ، وانتهاء بأشبيلية وابن عباد (٧٤) .

وهكذا تعبر تلك الرواية عن أن التخطيط لانهاء نظام الطوائف كان قد ارتسم في حرب الزلاقة التي تكون بمثابة مرحلة استكشافية أولى تتلوها مرحلة ثانية يتم فيها القضاء على أمراء الحدود ( الثغور ) ، وبذلك تسقط أشبيلية وصاحبها المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، ثمرة ناضجة دون جهد - في آخر الأمر .

#### العبور الثاني وحصار حصن لبيب ( ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ) :

##### استيلاء الأسبان على حصن لبيب :

إذا كان عبور يوسف بن تاشفين مرة ثانية الى الأندلس بعد سنتين

---

(٧٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ ، ( ملحق ١ في البيان . ج ٤ ص ١٢١ ) - حيث يحيط الرواية بروع من الفوضى ، إذ تقول ان سير بن أبي بكر ، بعد أن يمث بما حصل عليه من المناسم عقب الزلاقة الى بر العدو ( المغربية ) استأذن من يوسف بن تاشفين في البقاء في الأندلس ، وقال له : انه افتتح مقل في الثغور ، ورتب فيها مستحفظين ورجالا يفتنون فيها . وانظر جولييان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٤ - حيث النص على عودة ابن تاشفين الى المغرب « ولم يترك للمتمسدة الا ثلاثة آلاف من البربر » .

(٧٤) وفيات الأعيان ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ .

فقط من الزلافة ، يطلب من الأندلسيين حكومة وشعبا ، كما يقال الآن ، وممثلهم المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، يمكن أن يثير الشك حول نتائج الزلافة بالنسبة لاستقرار الأمور في الأندلس ، وبالتالي الشك في نوايا أمير المسلمين الذي لم يستثمر النصر كما كان يرجو الأندلسيون . فالحقيقة أن المشكلة الأندلسية كانت أكبر من أن تحل في معركة واحدة مهما كان حجمها ، أو بمعرفة رجل واحد مهما كان قدره أو إمكاناته . فالإصابة في طليطلة التي لم يتحقق علاجها في الزلافة ، كانت في موضع القلب ، بمعنى أنها تقطع سبيل الاتصال بين أرجاء البلاد ، وبالتالي تتركس التفتت وما يترتب عليه من مظاهر الضعف والاضمحلال ، مثلها مثل التوبه الذي ينسل من وسطه ، كما قال الشاعر(٧٥) .

وهكذا اذا كان نصر الزلافة قد نجح في تهديد غرب الأندلس لمدة ٦٠ ( ستين ) عاما ، كما يرى ابن أبي زرع(٧٦) ، فانه لم يكن له اصداء تسمع في الشرق . فالحقيقة أن حرب الاسترداد المسيحية كانت قد حققت معظم اهدافها في غرب الأندلس قبيل الزلافة ، حتى كان الفونس السادس يستطيع أن يصل عبر الحدود النازلة جنوبا بغرب ، وهي الجبهة المفتوحة على المحيط ، بعيدا عن قواعد الاسلام الشرقية ، كما كانت تتلقى فوق ذلك مساعدات الصليبيين البحرية ، وهم في الطريق الى شرق المتوسط الى طريفة ( ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ) ( ما سبق ، ص ٢١٥ وما يأتي ٣٥١ ) الأمر الذي مكّنه من اخذ طليطلة ، وكانها ثمرة ناضجة دائية القطف . وبذلك كان بدء الضغط على شرق الأندلس أمرا طبيعيا ، بعد أن دجنت بلاد بني هود في الثغر الأعلى ( سرقسطة وأعمالها ) ، بفضل تطبيع علاقاتها بدول الاسترداد ، والضغط جنوب برشلونة على بلنسية ومرسية ، حيث ظهر أعداء جدد من أمراء الاقطاع الأحرار ، الذين يعملون لحسابهم الخاص ، ويقدمون سيرفرهم لمن يدفع لهم الثمن - والمثل لذلك : السيد القمبيطور ( ما يأتي ،

---

(٧٥) عن موقع طليطلة وسط الجزيرة الأيبيرية ، انظر الروض المطار ، ص ١٣٠ - حيث طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وسط بين كل من قرطبة وبلنسية والمرية (١مراحل)، وهي عظمة القطر ، ودار الملك القديسة ، وانظر للتوثق عملية الانقاذ المرابطية ، ندوة الأندلس بأداب الاسكندرية ١٩٩٣ . وانظر يوسف بن حوالة ، بنو عباد في اشبيلية ، ص ٢٦٣ - حيث بيت الشاعر ابن الصال الجصبي ، الذي يقول فيه :  
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط  
(٧٦) القزطاس ، ص ٤٩ - حيث النص على انه « لم تقم للشرك قائمة نحو ٦٠ ( ستين ) سنة » .

ص ٣٥٨ ، ٣٦٠ ) . وهؤلاء إذا كانوا قد سمعوا عن انتصار المسلمين في الزلافة ، فانهم لم يشعروا بصداه حيث كانوا في الشرق ، بل وربما عملوا متآثرين بما أصاب اخوانهم في الغرب بنواحي بطليوس .

وهكذا هدد السيد القمبيطور بطنسية ، ونجح في انتزاعها من ابن ذى النون الذى كان قد استبدلها بطليطة . والخطر من ذلك أن الاسبان المسيحيين بدأوا يفرضون هيمنتهم أيضا على أهل مدن لورقة وبسطة ، ويرهقونهم بالأتاوات والضرائب ، بعد أن استولوا من المسلمين بتدبير ألفونسو السادس على حصن الليط ( Alédo ) على بعد ١/٢ ميل من لورقة ، ذى الموقع الاستراتيجي الهام وسط الأراضى الإسلامية ، واستخدموه في استنزاف موارد أهلها (٧٧) .

وراحت الشكوى تترى الى المعتمد بن عباد ، كبير الأمراء ، الذى أصابه الهلع ، اذ تبين له أن التضحية الكبيرة في الزلافة لم تؤت ما كان يرجى منها ، وبلغ به الأمر الى حد تحشم أعباء السفر بنفسه الى المغرب مستصرخا أمير المسلمين . ولم يستجب ابن تاشفين لنداء الملهوف الا بعد أن استوثق من حسن نواياه تجاه المرابطين ، على أن يكون عبوره الى الأندلس من جديد عندما يعتدل الجو تماما يتمكن فصل الصيف . وعاد المعتمد الى اشبيلية لكي يجهز العساكر ، وينشط في صنع آلات الحرب من السهام والمطارد والرعايات وغيرها ، الأمر الذى وقع عبؤه على أهل المملكة كل على حسب طبقته . وعندما جاز أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء ، كان على ابن عباد أن يقدم لجيشه الميرة والضيافات على قدر طاقته . ومن الجزيرة الخضراء وجه أمير المسلمين الدعوة الى أمراء الأندلس في مائدة وغرناطة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ، قبل أن يغادر الخضراء فى ربيع الأول ٤٨١ هـ /يونيه ١٠٨٨ ، على أن يكون اللقاء معه بمساکرم على حصن لييط

---

(٧٧) انظر القرطاس ، ص ١٥٢ وما بعدها - حيث النص على أن ألفونسو السادس ، عبد بعد هزيمته في الزلافة الى حصن لييط ( لييط ) الموالي لأمير بن عباد فشنه بالجل والرجال والرمات ، وأمر بالفارة على بلاد ابن عباد ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ ( ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤١ ) ، وانظر الروض المطار ، رقم ٤٦ ص ٤٤ ( عن بسطة القرية من وادى آش ، وعلى مسافة ٣ مراحل من جيان ) ، لورقة ، رقم ١٦٢ ص ١٧١ وما بعدها - حيث تفسير الاسم ( لورقة ) باللغة اللاتينية الزرع المحصب ( ص ١٧٢ ) ، وهى من بلاد تميم ( مرسية ) بينهما ٤٠ ميلا .

» من شرق الأندلس « (٧٨) »

حصار حصن لبيب (Alédo) :

حب دون هودة وصمود دون نهاية :

رغم اتفاق بعض الروايات المعاصرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله ( رئيس غرناطة ) والمتأخرة ، مثل : الحلل الموشية ( لمجهول ) على أن رؤساء الأندلس جميعا ، شاركوا في حصار حصن لبيب ، فإن الذي يفهم من مسار الأحداث ، الأمر الذي يرجح رواية ابن الأثير التي تظهر اصداؤها عند ابن أبي زرع ، هو أن الحضور إلى الموعد على حصن لبيب حسبما طالب أمير المسلمين ، كان فاترا . وفي ذلك يقول ابن أبي زرع انه لم يحضر ذلك الموعد من الرؤساء غير المتضرر الأول من عدو لبيب وهو صاحب مرسية : عبد الرحمن بن رشيق ، إلى جانب المعتصم بن عباد الذي كانت تحركه أغراض إنانية ، إلا صاحب غرناطة الأمير عبد الله (٧٩) ، الأمر الذي كان

(٧٨) انظر الترماس ، ص ١٥٤ - وتتميز رواية ابن أبي زرع هذه ، والتي يملئها صاحب الحلل الموشية مع التعريف ، بأنها أولى الروايات الخاصة بحصن لبيب وأوصفها ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ ( ملحق ٣ في البيان ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث الخلط مع فتح غرناطة ، وقارن النويري ، أبو شيف ، ص ٢٨٦ - حيث الحصن « لبيطة » مع الإشارة إلى حصره - وعدم القدرة على فتحه - وعن شقورة انظر : الروض المطار ، رقم ٩٥ ص ١٠٥ - حيث هي من أعمال جيان ، وفي جبلها شجر الطخش الذي نتخذ منه القسي . وبها أيضا قبر على ابن هملك .

(٧٩) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث : وفي العام الثالث ( بعد الزلافة ٤٨٨هـ / ١٠٨٧ ) عاد ( يوسف ) إلى الأندلس ومعه المعتصم وعبد الله بن بلكين الصنهاجي ، صاحب غرناطة وأنهم ساروا حتى نزلوا على حصن لبيب . وقارن النويري ، أبو شيف ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، الترماس ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه « لم ياته ممن كتب إليه » منهم غير ابن عبد العزيز « والصحيح هو ابن رشيق الذي حل محله ( صاحب مرسية ، والمعتصم بن عباد ، وأنهما نزلا على الحصن ، وشرعا في قتاله ، بينما شن يوسف الفارات على بلاد الروم في كل يوم » ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ - ٦٩ - حيث النص على أن يوسف بن تاشفين اجتاز على عاتقه واستنصر صاحبها تميم ( المستنصر بالله ) الذي تلاحق به أخوه عبد الله ( المظفر ) صاحب غرناطة ، و«لقتهم ( ابن صمادح ) صاحب المرية ، إلى جانب رؤساء شتورة وبسطة وجيان ، وغيرهم من الرؤساء بشكل عام . من كل مكان ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٠٨ - حيث النص على أن تحرك ابن عباد في هذه الغزوة كان لأغراض شخصية ، هدفها وضع ابنة الرافضي في مرسية عوضا عن الجزيرة المطهرة ، مع النص على مشاركتها ( نفسه ) في قتال كيبك مع غيره من الرؤساء « كل رئيس يقابل على حسب

يسى. ظن أمير المسلمين يرؤساء الأندلس ، من غير شك \* والمهم أن عبيد اعداد آلات الحصار وقع على عاتق ابن رشيق ، أمير مرسية الذى أحضر من بلده ( مرسية ) التجارين والبائعين والحدادين ، فأحاطوا بها الحصن \* وسدوا المنافذ على من كان بداخله ، وكانوا ١٠٠٠ ( ألف ) فارس و١٢ ( اثني عشر ) ألف راجل (٨٠) \*

وتلخصت خطة الحصار من جانب أمير المسلمين والمعتد بن عباد في إرهاب أهل الحصن بالحرب المتصلة ليل نهار ، بهدف تحطيم معنوياتهم \* وهكذا اقتسمت الحرب مداولة بين الأمراء الثلاثة (٨١) واستمر الحصار طوال ٤ ( أربعة ) أشهر الصيف من يولييه إلى أكتوبر دون طائل حتى يأس كل من يوسف بن تاشفين والمعتد بن عباد من سقوط الحصن (٨٢) \*

والواقع أن أمير مرسية ( ثالثهم ) كان في الحبس متقفا في الحديده \* ولا بأس أن كان طول الحصار والانشغال بالجدل في قلب الأحوال ، قد ساعد على إثارة ما كان من صفات بين ابن عباد وبين ابن رشيق ، الذى أنهم بالتعاون كما كان في الماضي ، مع الفونس السادس \*

والحقيقة أنه كان للفقهاء الذين كانوا يتقربون من أمير المسلمين ويصاحبونه في جولاته العسكرية أو التفقدية ، دورهم الهام في تقرير مصير رؤساء الطوائف ، بالشكل الذى أدى إلى نهاية نظمهم في الأندلس بشكل عام ، وكانت حالة ابن رشيق في لينيط هي البداية لتلك النهاية ، فممنز أتى ذكرهم في معسكر لينيط من الفقهاء : عالم غرناطة الشهير القليبي الذى

---

= مجهوده « ، وانظر الذخيرة لابن يسلم ، ج ٥ ( ق ٣ م ١ ) - عن عبد الرحمن ابن رشيق الذى قبضه الله ليكون للمعتد « عدو في ثياب صديق » - حيث أخرجه من مرسية ، ج ٢ ( ق ١ م ٢ ) ، ص ٧٣٣ - حيث دخل ابن صبادح في شمار الأمراء الخارجين إلى لينيط يجر جيشا ويعرض نفسه على أمير المسلمين \*

(٨٠) الحلل الموشية ، ص ٦٩ \*

(٨١) الحلل الموشية ، ص ٦٩ ( ملحق ٢ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢ ) ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٩ - حيث نصبه المطائق ، وإن أمير لقرية ابن صبادح أتى « بليل ه ( دبابه ) إقامة ، خرق به السادة ، وإن « أحرقه لمل الحصن » \*

(٨٢) القرطاس ، ص ١٥٣ ، وقارن الحلل ص ٦٩ ( ملحق ٢ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢ ) - حيث استمر الحصار إلى مدة شهر فقط ، وقارن الكويرى ، أبو حنيف ، ص ٢٨٧ - حيث النص على أنهم حاربوا الحصن أياما فلم يلقوا فتحة فراحوا به مدة \*



تكان في صحبة الأمير عبد الله - وكان أكثرهم توددا الى أمير المسلمين - كما يظهر من رواية أمير غرناطة الذي يصف خياه ( خيمة ) ابن القليعي بذلك المحلة ، بأنه قد صار « مفناطيسا » ( جذابا ) لكل صادر ووارد .

وهنا يشكو الأمير عبد الله من تأييد ابن القليعي لرعيته ، بل ومن منحهم على الامتناع عن دفع الضرائب المعتادة ، على أساس انها من المغارم غير الشرعية ، بينما كانوا يفومون بما يكلفون به من تقديم الطعام للجيش المرابطي ، وما كان يلحق بذلك من المجاملات وحقوق الضيافة وكان ذلك رصيب أمير غرناطة - كما يقول بالضرر الشنيع (٨٣) .

والمهم انه رغم ما قام به ابن رشيق من بذل الأموال للمرابطين ، بواسطنتاعه للأمير سير ، كبير القواد ، والدعوة لأمير المسلمين من على منبر مرسية ، الأمر الذي جعله يتيه على المعتمد ابن عباد ، ويزيد في حسرته ، احتجاجا عليه بأحكام السنة ، فقد انتهى الأمر بوقوف أمير المسلمين ، كما تقضى السياسة ، الى جانب كبير رؤساء الأندلس ضد ابن رشيق (٨٤) . وفى ذلك تقول رواية الأمير عبد الله انه عندما استفتت ابن رشيق بأمير المسلمين ، أجابه : « انه لو كان الأمر عندي لوهبتك لك ، غير انها أحكام السنة ، لا أستطيع ازلتها عن مراتبها (٨٥) » .

وما كان من أمير المسلمين الا أن استفتى الفقهاء فى أمر ان رئيس « المتعاون » ، فجرموه ، وكان عقابه التثقيف ( التأديب ضربا ) والحبس . وكان لهذا العمل رد فعل سيء لدى عسكر مرسية والعاملين من أهلها فى خدمة المسكر الذين تسللوا الى بلدهم . وهناك لم يكتفوا بأظهار السخط ، بل أعلنوا الثورة ( على أمير المسلمين ) فقطعوا الميرة عن المسكر المضروب أمام ليبسط حتى اختلت أموره وغلت الأسعار فيه ، وصعب المعاش على الناس فيه (٨٦) .

(٨٣) مذكرات الأمير عبد الله . ص ١٦٠ . وهنا لا بأس من الإشارة الى جهود الفقيه العاضى ابن الوليد الباجي ( ٤٧٤هـ/١٠٨١م ) فى سبيل لم الشمل بالأندلس حتى قال فيه ابن بسام انه « مكى بين حلوك أهل الجزيرة » وكانت مؤمن آل فرعون - الذئيرة ، ج ٣ ق ٢ م ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، وكذلك الأمر بالنسبة للوزير أبى العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر الذى شخص مع أمير المسلمين من شرق الأندلس الى حصن ليبسط ( ص ٢١٨ - ٢٢٠ ) .

(٨٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٢٠ - ١١٢ .

(٨٥) نفس المصدر .

(٨٦) الحفل الوحشية ، ص ٦٩ - ٧٠ ( كيسان ملحق ٣ ، ج ٤ ص ١٤٢ ) ، وقارن =

وهنا وجد ألفونسو السادس أن الظروف مناسبة لإعلان تمام نفذه غبار هزيمة الزلاقة ، وأنه يمكنه إعلان القوة عن طريق الاستجابة لطلب النجدة من المحاصرين في لبيط الذين كانوا يسانون من طول الحصار والجوع ، فحشد رجاله وسار نحو حصن لبيط ، وكانت فرصة انتهازها أمير المسلمين للتعبيل بالرحيل عن الموقع الحصين ، فتنحى عن طريق ألفونسو إلى طريق لورقة - المرية - الجزيرة الخضراء ، ثم جاز إلى العدو . وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأت أحد إلى نزال حصن لبيط (٨٧) ، ولكن دون أن ينسى إرسال حامية إلى بلنسية لحمايتها من العدو (٨٨) ، فكان أمير المسلمين يستطيع اثبات وجوده ، وهو يقبض منسحبا . وفي مقابل ذلك يقوم ألفونسو السادس بعمل مماثل ، فهو يخلى الحصن ويقوم بإحراقه بعد أن أخلى أهله ، فكانه أراد تحريرهم من معاناة ذكريات الحصار والشدة ، وعاد بهم إلى طليطلة (٨٩) .

وهكذا انتهى حصار لبيط دون تمكن أحد طرفي الصراع في الأندلس من إملاء إرادته على الآخر ، بل وبنوع من إعلان كل من الطرفين وكأنه غير حاجة إلى شيء من الهدنة التي تسمح له بلم شعثه واعداد معسكره قبل مواصلة الصراع المحتوم . وكان على أمير المسلمين أن يبدأ بتصعيد حسمه مع أولئك المتخاذلين من أمراء الأندلس ، حتى تتوجه الجبهة الأندلسية ، تحت رايات المجاهدين المرابطية استعدادا لمواجهة العدو المتنام - صفة واحدا - تحت قيادته الراشدة .

= القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث أدى النزاع بين ابن عبد العزيز (٩) أمير مرسية وابن عيسا إلى أن قبض الثالث سري بن أبي بكر على « ابن عبد العزيز » ( ابن رشيق ) وتسليمه إلى المعتد ، وإن اختلال المحلة كان سبب الفشل ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ - ١١٣ - حيث الإشارة إلى المشاجرات بين المعتد وصاحب المرية « المعتصم » ، وسله هو نفسه وبين أخيه صاحب مالقة ، وإن سبب الفشل النهائي في لبيط كان ورود الخبر بقصور الفونس .

(٨٧) انظر القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث نزول حمريفا لنزال ، وقارن الحلل الرشية ، ص ٦٩ ( ملحق في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢ ) .

(٨٨) الحلل الرشية ، ص ٧٠ ( ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢ ) - حيث النص على أن حامية بلنسية كانت مكونة من ٤٠٠٠ ( أربعة آلاف ) رجل ، مع الثقل أيضا بأنه أوقف بعد عسكرا عظيما بقيادة محمد بن تاشفين إلى بعض الجهات ؟

(٨٩) القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على أن ابن عباد أخذ الحصن بعد احتلاله وفناء من كان به بالقتل والجوع ٠٠٠ حيث لم يبق فيه غير مائة من الرجال ، وهم الذين عام بهم ألفونسو ، وقارن الحلل الرشية ، ص ٧٠ ( ملحق ٣ في البيان ، ج ٤ ص ١٤٢ ) .

### توحيد قيادة الجبهة الأندلسية تحت إريات أمير المسلمين :

انتهاء نظام الطوائف : فتح إسلامي جديد :

٤٨٣ - ٤٨٤هـ / ١٠٩٠ - ١٠٩١م

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن فشل حصار حصن لبيط في شرق الأندلس في الجواز الثاني لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، في صيف سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، قد أثبت حقيقتين تتعلقان بقضية أزمة « الجماعة والطوائف » لدى المسلمين في الأندلس . وتتمثل أولاهما في أن انتصار الزلافة لم يحقق الهدف المأمول منه ، في إيقاف خطر حرب الاسترداد الأسبانية ، والثانية تعني بالتالي ، فشل مشروع التحالف المغربي - الأندلسي في مواجهة الخطر المسيحي ، الأمر الذي كان يستدعي انفراد الطرف المغربي الناهض بعملية الانتفاذ ، دون الارتباط بمواقف انطرف الأندلسي المتهالك . وهذا ما كان يفكر فيه زعماء المرابطين الأوائل منذ دخولهم إلى بلاد السوس ، وحريهم لبرغواطة التي شنوها تحت شعار فتح طريق الجهاد في الأندلس ( ما سبق ، ص ٢٣٠ ) .

والحقيقة أن الأندلسيين بدورهم ، كانوا يرون أن زوال نظام الطوائف حتمية تاريخية منذ أن فتحوا الحوار مع يوسف بن تاشفين ( ما سبق ، ص ٢٩٥ ) ، وأتى القضاء على ذلك النظام في جواز أمير المسلمين الثالث ، الأمر الذي لم يستغرق إلا « صائفتين » في سنتي ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م - ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، ليؤكد على أرض الواقع صحة فرضية تلك الحتمية التاريخية . وهنا يمكن القول أن ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية - بهذا الشكل لم يكن فتحاً بالمعنى المتعارف عليه ، بل كان أقرب ما يكون إلى عمليات التسليم والتسليم بين كبار الموظفين ، أو بين رجال الحكم والإدارة ، عندما يشغل الواحد مكان آخر - عن طريق التعيين أو عن طريق الاختيار ، فتشوب فرقة المتسلم القادم مرارة « المستسلم » الراحل . وإذا كان البعض يعتبر هذا التغيير بالأندلس بمثابة فتح إسلامي جديد ، فالحقيقة أنه كان نوعاً من التجدد الإسلامي - الذي كان يتم عادة مع مطلع كل قرن ، معبراً عن حيوية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ، حسبما اعتقلت أوساط المتفائلين من المفكرين الإسلاميين .

### شرط الأحداث :

اما عن « سيناريو » ( أحداث ) التغيير فقد تم على الوجه التالي :  
دولة صنهاجة الزيرية في غرناطة وفي مائة وتوابعها كانت اول دويلات  
الطوائف المستسلطة لأمر المسلمين . وإذا كان ذلك قد تم في ظروف غامضة  
فيمكن تفسير ذلك على أساس القرابة العرقية بين لمتونة الصحراء الصنهاجية  
( المرابطية ) ، وبين صنهاجة افريقية الزيرية ( الفاطمية ) ، أصحاب غرناطة ،  
حيث أخذ التغيير - على استحياء وبدون تكلف - شكل التسليم والتسلم .

وهذا ما يفسر ظاهرة الخلط في توقيت واقعة تنحية الأمير عبد الله ،  
صاحب غرناطة ، وتقديما الى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، مباشرة بعد عام  
الزلافة ، او سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، بعد لبيط بدلا من وضعها الصحيح  
في سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، حيث يكون الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين ،  
الذي يتم فيه أخذ غرناطة ، وحدها دون بقية الممالك التي تسقط في السنة  
التالية ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، بين يدي قواد أمير المسلمين الذي كان يشرف ،  
من سببة ، على عبورهم الى الأندلس ، وهنا يسود نوع من القموض على  
أحداث ذلك العبور ( الثالث ) حتى ليخيل الى الباحث في هذا الأمر وكان  
سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م كانت سنة عبور رابع (١) ، لولا ما سنترفه فيما بعد  
من أن جواز أمير المسلمين الرابع يقع في سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م وأنه  
لم يكن عبورا عسكريا ، بل جوازا تفقديا للنظر في أحوال البلاد والعباد ،  
وأصول الحكم والإدارة حسب مفهوم النظم المرابطية وترتيبها (ص ٣٦٤) .

### الأسباب العامة :

والحقيقة ان القموض لا يحيط فقط بتوقيت ضم مملكة غرناطة قبل  
غيرها ، بل ان الأسباب من أساسية واثنية لهذا الضم تتكاثر فيما بينها

---

(١) انظر ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٤ - حيث يجعل أخذ غرناطة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م  
« او في نوبة الزلافة - ص ١٨٩ » ، او بعد حصار لبيط ، ( سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ) ،  
واله حدث دون حرب بطريق اللحد عندما دخل يوسف بن تاشفين المدينة ولم يخرج منها .  
بل أخرج صاحبها ، ص ١٥٥ - حيث كانت فرنطة أول ما ملكه من الأندلس ، ص ١٨٧ -  
حيث ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين ( سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ) ، وقارن  
الأنويزي ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ثم ص ٢٦٩ - حيث  
النص على أنه في سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ملك في جزيرة الأندلس ما كان بقى من بلاد المسلمين  
يها ، وذلك أنه سار في هذه السنة من مراكن الى سببة ... الخ .

وتتشابك بما يجعل تجليتها للعيان من الصعوبة مكان - وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقارنة بين مواقف رؤساء الطوائف فيما بينهم أو بموقفهم من أمير المسلمين الذي كان يستطيع أن يتساهل في حقوقه إزاء بعضهم إلا أن يكون الأمر تفريطا في حقوق الله أو ممنن رسوله ( ما سبق ، ص ٣٢٣ ) . وهنا نبدا بمذكرات الأمير عبد الله ، لنقلب النظر في رأيه على وجوه المختلفة فيما أصابه من الخلع ، وهو ما يعنى النظرة السياسية الواقعية في مقابل الرؤية المثالية الشاملة ، فى الجانب الآخر . وهنا نتلخص الرؤية المستقبلية لحتمية الخلع ، كما رأها صاحب غرناطة ، فى عدد من الأسباب غير المباشرة التى رتبها ذهنيا بشكل مقبول وهى :

١ - الأهمية النسبية لموقع غرناطة مقارنة بموقع مالقة ، من حيث كون الأولى على طريق الفزو المراتبى .

٢ - التجربة الفاشلة فى العمل المشترك فى حصار حصن لبيب - حيث قال أمير المسلمين للرؤساء : « أصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم » ، ورض أن يطيهم عسكريا لئلا يذنبوا العدو .

٣ - جزاء سمنار الذى نفىه ابن رشيق أمير مرسية ، بعد المحاولات التى قام بها من أجل التقرب من المرابطين وعلى رأسها ما انفرد به من اعلان خطبة الجمعة باسم أمير المسلمين .

٤ - تهديد الفقيه ابن القايى بالنار لما أنزله به ( عبد الله ) من التثقيف ، بسبب موقفه المادى له فى لبيب ( اليدو ) ، الأمر الذى تحقق بشكوى الفقيه فعلا الى أمير المسلمين - الى جانب شكوى فقيه غرناطة الآخر أبى بكر بن مسكن .

٥ - طمع الرعية بسعيهم فى حط ( إسقاط ) المغارم ( الضرائب المستجدة ) اكتفاء بالزكاة والعشر عند المرابطين .

٦ - المصالحة الحفية التى عقدها عبد الله مع الفونس السادس ، وقضت بدفع الأموال المتأخرة منذ سنة الزلافة - تماما كما فعل صاحب سرقسطة .

هذه الأمور هى التى أثارت اشتفاق الأمير عبد الله من مصير مجهول على يدى أمير المسلمين أو الفونس السادس الذى اضطّر عبد الله الى مصلحته على أساس علاقات الحماية السابقة ، الأمر الذى دفعه الى النهاية بتأمين بلده

بيناه الحصون المنيعه والأسوار الدفاعية(٢) .

#### الأسباب المباشرة :

لا شك أن أخطر الأسباب التي قطعت جيل الود بين رؤساء الطوائف ويوسف بن تاشفين ، بعد فشل لبيب الذي هبط بانتصار الزلافة الى مستوى الحضيض ، كانت عودة العلاقات بين عدد من أمراء الأندلس وبين ألفونس السادس الى سابق عهدها ، من : التبعية ودفع الجزية السنوية - بما فيها ضريبة سنة الزلافة ، كما فعل كل من أمير سرفسطه ( ابن هود ) وأمير غرناطة ( ابن بلقين الصنهاجي ) : « قريب » ابن تاشفين ( الهامش السابق ) .

والحقيقة أن أمير غرناطة كان يعرف خطورة هذا العمل ، اذ يحاول استرضاء أمير المسلمين أثناء عبوره الثالث عن طريق السفراء الذين أرسلهم الى سبته على أمل أن يقبل يوسف الأمر الواقع ، ولكن دون جدوى(٣) .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ - ١٢٥ - حيث النص أخيراً على القول : « وصرفت بوجه احتيالي الى تشييد الحصون ، فان غلب الرابط لم يفتنا المدبول في طاعته ... وان غلب الرومي كنا منه على حذر » . وهذا يقرر الصنهاجي انه كان مضطراً الى أن يدفع لألفونس جزية ٣ ( ثلاثة ) أعوام بما فيها سنة الزلافة والتي تلتها ، وقدمها ٣٠ ألف دينار . مما يمل ، دفعها من مذكراته وليس من أموال الرعية ، خشية الشكوى الى مراكنش (مروكنش) ، والقول : « أخذ أموالنا ، وأعطاها للصنهاجي » ، وقارن القرباس ، ص ١٥٣ - حيث النص على ان سبب نزوة غرناطة أن صاحبها عبد الله بن بلقين بن باديس بن جيوس كان قد صالح اللونسو الـ ٦ ، وظاهره على يوسف ، وبعت اليه بالمال ، واشتغل بتحصين بلنم . وفي تحصيل الجدل قال بعض الأدباء المعاصرين .

يبني على نفسه مسلحاً كأنه دودة الحسيري  
دعوه يبني فسوف يدعى اذا أتت قدرة القهري

هذا كما يشير الأمير عبد الله الى مسائل ثانوية أخرى ، مثل : تهديد الفونس للمحتدم ( ص ١٢ ) ، ولفاق يهود البيسانة (Laiçena) شاحبة غرناطة ، الألفباء ، الذين كان يقع عليهم عبء الكثير من الضرائب الطائلة ( ص ١٣٠ - ١٣١ ) ، وقصة زواج الأميرتين أخشي عبد الله من بعض رجال الدولة ، دون عرض ذلك أولاً على أمير المسلمين ( ص ١٣٩ ، ١٤٣ ) ، وقارن الملل الموشية ، ص ٧١ - حيث الجواز الثالث سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، وان السبب : ما كان على حصن لبيب من ملوك الأندلس مما أحفظه ( يوسف ) وأوغر صدره عليهم . وأنهم لما علموا ذلك نظر كل منهم لنفسه بغاية عزمه . وأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المظفر ( عبد الله بن بلقين ، صاحب غرناطة ) ، وغضب يوسف بن تاشفين لذلك . (٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٤ - حيث تكونت السفارة من ابن سهل القاضي ، =

وهكذا فعندما التقى يوسف بن تاشفين بالعمد بن عباد بقرطبة ( ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ) وتأكدت لديه شبهة العلاقة بين الفونس السادس وعبد الله بن بلقين ، أرسل الى هذا الأخير يأمره بالخضوع لديه في التو واللحظة . وعندما اعتذر اليه عبد الله عن طريق الرسل ، أساء أمير المسلمين الى السفيرين ، وأخبرهما بعزمه على غزو صاحبهما ، تماما كما يغزو الفونس « والذى يقدر عليه ( عبد الله ) فليصنعه » (٤) .

#### غزاة أول : :

وبدأت كتب يوسف بن تاشفين تصل الى أهل البسانة (Lucena) وقواد الحصون يطلب منهم الخضوع له (٥) . ولم تمض الا أيام قليلة ، قضاهما عبد الله بن بلقين متفجدا مدهوشا ، حتى وصل العسكر المراتبي الى غزاة ، يسبق أمير المسلمين . وفشل رسل عبد الله ، من فقهاء حاشيته في اقناع يوسف بن تاشفين بقبول الهدية المالية ، اعتبارا لرابطة الدم بينهما ، حيث اعتبر عبد الله نفسه بمثابة ابن له . وأصر يوسف على خروجه اليه ، مع اعطائه الأمان في نفسه وفي أهله ، دون المال (٦) . وهكذا ، وبمجرد

---

« وباتيس بن زاوي الملكاني ، وحيث قال لهما أمير المسلمين : « يصنع ما شاء ! است من يكلف احدا الا طائفه » - ويملق عبد الله على ذلك قائلا : « فكان ذلك منه دعاء وحدها » . ولا بأس ان يكون ذلك ردا على اصراح الأمير عبد الله بأنه كان مستعدا لتقديم المساعدة العسكرية لأمير المسلمين أو المالية ، ولكن دون أن يخرج بنفسه للمشاركة في العمليات العسكرية المنجدة ( ص ١٢١ ) .

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٧ - حيث أهد الرسل : ولد حجاج ، والآخر ابن ما ساء الله ، اللذين قرعا وقتلا في الحديد .

« - مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٨ - حيث كان محتوي خطابات يوسف بن تاشفين : لآلة من سورة الاسراء ( رقم ٨١ ) التي تقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٩ - حيث إضافة اسباب أخرى مؤذنة بالروال ( ص ١٥٠ - ١٥١ ) - من ابتهاج الجند من البربر بأقاربهم المراتبين ، وعجز المسلمين من النجار وأهل البلدة عن الحرب ، وطمع الرعية في الحرية . وفي التخلف من الفرائض باستثناء الزكاة والمشر . وهكذا كان الجيوش يأمل في مستقبل أفضل ، من : حماة الحشد من « الرقاصة » ، والعبيد الصنالية ، بل ولخدم من النساء والخصيان ، كل طامع في اقبال الدنيا علىه والمخرج من ثغاف العصر الى راحة السريخ ، والامتياز بالرجال ، وما أسسمه ذلك . ومن « الرقاصة » من حراس الحصون من العبيد السودان الذين كانوا يحملون البرد ايضا أنظر دوزي (Dozy) . ملحق التوامس العربية بالفرنسية ، ج ١ ص ٥٤٧ ( حيث ناقص الفرنسية : تبادل ساع المشرقة ) .

وصول أمير المسلمين خرج عبد الله بن بلقين إليه متوكلا على القدر ، حيث يقول : « وكأنما نساق الى الموت » . وإذا كان عبد الله قد اطمأن بتأكيد الأمان له ولأهله فقد كان عليه ان يقدم ما لديه من الاموال ووثائق الممتلكات ، بعد ما صودر ما كان قد أخرجه بصحبته من الذهب والجواهر ، والدنانير المرابطية ، وذلك بمعرفة قرور : « أمين السر » الذى يشكك عبد الله فى أمانته التى قد لا تقاوم اغراء تلك الذخائر والكنوز (٧) .

والذى نراه أن رواية الأمير عبد الله تمثل التحليل الدقيق ، وبالتالى الواقعى الصحيح ، لموقف أمراء الأندلس جميعا وبلااستثناء ، من يوسف بن تاشفين : أمير المرابطين ( المخاربة ) وأمير المسلمين ( الأندلسيين ) - وهو باختصار موقف التمزق ما بين هاجس الحسرات الفردى والآنى وأمل المستقبل الأفضل للأمة والجماعة . ولا شك أن صلة القرابة الصنهاجية كان لها دورها فى وقوف عبد الله بن بلقين ذلك الموقف المتوازن ، الذى يعبر فى الحقيقة عن الواقع الغامض ما بين شك الخوف ويقين الرجاء .

والى جانب تلك الرواية المتوازنة ، يمكن أن نرى روايتين مختلفتين من حيث وقوف احدهما الى جانب اليمين المرابطى ، والاخرى الى جانب اليسار الأندلسى . والأولى هى رواية ابن أبى زرع التى لا تريد أن يكون الهدف الأول لأمير المسلمين ، فى جوازه الثالث سنة ٥٨٣هـ / ١٠٩٠م ، هو الاستيلاء على أملاك المسلمين فى الأندلس ، بل تحطيم العدو الأسباني المسيحي فهو يرى هنا أن ذلك العبور كان يرسم الجهاد ، وأنه نزل على طليطلة وحاصرها وبها الفونس ، وخرب نواحيها وقتل أهلها . أما عن غزوة غرناطة فكانت ثارا من أمراء الأندلس الذين لم يستجيبوا لندائه للحاق به - الأمر الذى لا سند له فى مذكرات الأمير عبد الله أو غيرها من المصادر . والحق ان نص ابن أبى زرع بعد ذلك ، على ان يوسف بن تاشفين سار من حرب طليطلة الى منازلة غرناطة لأن صاحبها كان قد صالح الفونسو السادس ، وظاهره على

---

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٥ - ١٥٨ - حيث التفتيش الدقيق الذى يبلغ حد حفر الأرض ، والبحث عن الودائع عند الناس ، ومصادرة كل شيء ، والمهم ان عبد الله وجد المزاء عن كل ذلك فى ثقافة جيدة اذ يقول لأمه بتلك المناسبة : « لیس یدخر المال الا ثلاث : سلطان ، أو فتنة ندم أو عمر يطول » . وعن ذخائر قصور غرناطة المصادرة ، أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٥ - حيث السبحة التى تحوى ٤٠٠ جوهرة من الواحدة منها ١٠٠ ( مائة ) دينار ، وقارن النویری ، أبو خسیف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٣٦٨ .



يوسف ، وبعث اليه بالمال ، واشتغل بتحصين بلده (٨) ، يشكك في أن يكون ابن تاشفين قد مر بقرنطة مرور الكرام ، وأنه ترك فتحها حين العودة من الجهاد .

أما عن رواية الحلل الموشية التي تعبر عن وجهة النظر الأندلسية بعامة ، فهي ذات قيمة تاريخية عالية ، من حيث أنها تنص على أن يوسف ابن تاشفين بدأ باخراج تميم ، أخى عبد الله بن بلقين الأصغر من مألقة ، وهو على الطريق الى قرنطة . ولما كان عبد الله لم يعرف بمصير أخيه الا في مدينة مكناسة بعد نفيه الى المغرب (٩) ، فإن ذلك يعنى اختلاق قصة مهاجرة طليطلة ، كما ترد في القرطاس قبل فتح قرنطة .

والهم أن الأمير عبد الله استقبل أمير المسلمين خارج المدينة لتسليمه البلد ، وهو الأمر الذى يأخذ فيه صاحب الحلل الموشية برواية الأمير عبد الله - أهم وثيقة وصلت إلينا فى هذا الشأن (١٠) .

وهكذا تكون مملكة قرنطة الصنهاجية قد سلمت بشقيها فى سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م الى أمير المسلمين بمحض ارادة أصحابها ، أقارب لثبوتة أصلا دون حرب . أما عن تحديد اقامة الأميرين عبد الله وتميم بعيدا فى أغسات ، بعد التعرف على أحوال البلد وتوطيد أمورهما (١١) ، فهو أمر مشروع من حيث تأمين الأوضاع فى الاقليم الشمالى ( الأندلسى ) الذى دخل جديدا فى حظيرة المغرب ، الذى صار الاقليم الجنوبي من الدولة المرابطية ( المتحدة ) .

---

(٨) القرطاس ، ص ١٥٣ .

(٩) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٢ - ١٦٣ - حيث أبعث تميم الى السوس ، وأنه زار أخاه عبد الله على طريق مكناسة ، فاختبره بهول ما قاسى - رغم أنه كان أول من أطاع يوسف بن تاشفين ، وضرب الدرامم المرابطية .

(١٠) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، وما سبق ص ٣٣٠ أما عن رواية القرطاس التحزبة للمرابطين فتجصل استسلام قرنطة بعد شهرين من الحصار ( القرطاس ، ص ١٥١ ) .

(١١) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والقرطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على خسوفه ابن عباد ، واتقياضه عنه ومضى الوشاة بينهما بالتنامن ، وتفرغ عليه يوسف .

### استسلام بقية امراء في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م :

سير بن أبي بكر نائباً للأمير المسلمين بالأندلس :

كان استسلام الأمير عبد الله وتسليمه غرناطة للمرابطين يعني بداية النهاية بالنسبة لبقية رؤساء الطوائف بالأندلس . وهذا ما كان أعنه تقريباً ، أمير المسلمين بعد دخوله غرناطة ، عندما أتاه المعتمد بن عباد ، صاحب أشبيلية وكبير الرؤساء ، وبصحبته المتوكل بن الإفطس ، صاحب بطليوس للتهنئة بأخذ غرناطة ، فكان استقباله الفاتر لهما أشبه ما يكون بالرفض لمساعهما(١٢) ، فكانه الانذار النهائي ، كما في المصطلح الحديث .

وهكذا بدأت الوحشة بين يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس بضم مملكة غرناطة الصنهاجية الى الدولة المرابطية ، وتمثلت القطيعة التامة بين الطرفين في عودة أمير المسلمين الى مراكش في رمضان ٤٨٣هـ/أكتوبر ١٩٩٠م(١٣) ، في أثر الأميرين عبد الله وتميم ( ابن بلقين ) ليطمئن على حسن عزلهما ، كما نظن ، بعد أن ترك زمام الأندلس ، وتقرير مصير بقية رؤسائها الى القائد سير بن أبي بكر ، الذي صار من وقتئذ بمثابة نائب الملك - بالنسبة للأمير المسلمين(١٤) .

والحقيقة أنه كان لطرده أمير غرناطة من الأندلس رنة حزن في قلوب أمراء أشبيلية(١٥) ، ولم يكن أمام المعتمد سوى أن يعيد سيرة أمير غرناطة ، إذ أخذ في بناء الأسوار وترميم ( عمل ) القنطرة(١٦) . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بحلول صيف سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، أخذ يوسف بن تاشفين من سببته مقراً له ، حيث جمع جيوشه التي أعدها لانتهاء نظام الطوائف ،

---

(١٣) القوطاس ، ص ١٥٤ .

(١٤) أنظر القوطاس ، ص ١٥٤ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين عندما جاز الى المدونة قاصداً مراكش قدم على الأندلس قائمه : سير بن أبي بكر اللطوني ، وفوض اليه جميع الأمور كلها ، ولم يأمره في ابن عباد بشيء .

(١٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٧ - ١٨٨ - حيث كان الرشيد بن المعتمد يتوجع في مجالس أسسه عندما يجري ذكر غرناطة وقصرها ويتطير بذلك . وقارن الحلل المرشبة ، ص ٧٣ - حيث اضرف المعتمد والمتوكل الى بلادهما اثر عودتهما من غرناطة وأدرك ابن عباد التمد على استدعاء يوسف .

(١٦) الحلل المرشبة ، ص ٧٣ - الأمر الذي جعل الرشيد يذكر والده المعتمد بما كان من اعتراضه على دعوة الصحرأوى الذي يخرجهم من بلادهم .

مكتفياً بالإشراف على جواز العساكر إلى الأندلس حيث كان سير بن أبي بكر ،  
دون أن يمر بنفسه (١٧) . فكان الأمر يتعلق بفترة لا يصح أن ينغمس فيها  
أمير المسلمين .

ولقد اقتضت « فتوح » المرابطين في الأندلس أن يترك أمير المسلمين  
مراكش العاصمة ليتخذ رباطاً ثانياً في سبتة - كما سيتخذ الموحدون  
رباطاً ثالثاً لهم في الرباط الحالية ، ولكن من أجل فتوح برغواطة . وتطلب  
الأمر تطوير سبتة وما فيها من المرافق بحيث تقدم الخدمات اللازمة لحشود  
العساكر من مقيمة فيها وواردة ومصادرة . ولقد قام يوسف بن تاشفين  
بترميم جامع سبتة والزيادة فيه من جهة الشمال حتى أشرف على البحر ،  
كما اعتنى ببناء بلاط المحراب الأعظم ، وزخرفته (١٨) بما فيه من المحراب  
والمنبر ، على ما يظن .

هذا كما تطلب الأمر العناية بميناء سبتة حيث رمت أسوارها  
السفلى ( الستارة ) ، الأمر الذى كان يؤمن مخيمات العساكر التى كانت  
فى حالة استرخاء ، من مخاض السفر ، انتظاراً للمعبور (١٩) .

#### مسار الأحداث :

وهنا نشير إلى أن سرد أحداث هذا الفتح الجديد للأندلس ، منتظمة  
فى مسارها الزمنى الصحيح ، ليس أمراً سهلاً بسبب فقدان الوثائق  
الأصلية وخاصة من الرسائل الرسمية ، التى أصابها التحريف على مر الزمن  
وتوالى الدول من صديقة ومصادرة ، وكذلك الأمر بالنسبة للروايات  
التاريخية التى تفتقد الكثير منها ، كما تعرض ما وصل إلينا منها إلى أعمال  
البتر والزيادة والتصحيف ، بل والتشويه ، بقصد أو بغير قصد ، حتى  
بعدت فى كثير من المواضع عن أصولها الأولى . وإذا كان الفضل يرجع إلى  
قدهامى الأساتذة من المحدثين فى توطئة دراسة هذه الفترة وتمهيداً عن  
طريق الكشف عن مغايىء المصادر المخطوطة ثم التحقيق والنشر والبحث ،  
مما ظهر فى عمل جوزيف أشباح ، وبخاصة أعمال رينهارت دوزى ، وخليفة

(١٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ( التويرى ، ص ٣٨٧ ) - حيث التول - وما -  
أنه سير العساكر مع سير عبر الشقيق .  
(١٨) الملل الموشية ، ص ٧٢ .  
(١٩) الملل الموشية ، ص ٧٤ .

هذا الأخير : ليفي بروفنسال . كما كان يسميه الأستاذ عبد الحميد المبادي - ومن اهتمنى بخطاهم ، مثل : عنان ومؤنس ، فإن الأمل ما زال مرجواً في مواصلة الكشف عن وثائق جديدة ، والجهد في البحث والتقصي ، حتى تتلاحم أجزاء الموضوع ويضم الضوء ما يكتنف أحداثه من الغموض ، فتتجلي الحقيقة واضحة للعيان .

وهنا نرى أن كتاب التبيان لصيد الله بن بلقين الصنهاجي الذي نشره بروفنسال تحت عنوان « مذكرات الأمير عبد الله ، أمير غرناطة المعاصر ، الذي عاش الأحداث ، وشارك في تسريح سدايتها ولحمتها ، هو أفضل وثيقة وصلت إلينا في موضوع الطوائف . والحقيقة أنها شهادة اعتراف أخيرة من رجل يتقدم بخطى ثابتة وعقل متفتح نحو نهايته الفاضلة ، وهو لا يريد من سميحه هذا إلا حكم التاريخ . فهو رغم مشاهدته لحلع بقية ملوك الطوائف بشكل مباشر ، فإنه يذكر ما بلغه نقلاً مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس » (٢٠) .

#### الوحدة تحت الراية المرابطة : بداية لعملية الانقاذ :

والسبب الرئيسي لحلع بقية ملوك الطوائف ، هو نفس السبب الذي تم به خلع عبد الله من إمارة غرناطة ، وهو خوف يوسف بن تاشفين على « بلاد المسلمين » بالأندلس من الرومي ( الفونس الـ ٦ ) . فأمر المسلمين لا مطيع له في مال أو بلاد (٢١) ، فكان روايته موالية للمرابطين - ربما يحكم القراءة مما سبقته إليه الإشارة ( ما سبق ، ص ٣٣٠ ) . وهذا ما يؤكد أيضاً قول عبد الله في مذكراته : إن أمير المسلمين ما كان يخاف ابن عباد إلا بذنب ، وأنه كان قد عرض عليه السماح والحقو شريطة التزام الرابطة والجهاد ، واسقاط المغارم ، ولكن ابن عباد لم يرض بذلك (٢٢) .

والى ذلك فلا شك أن فكرة توحيد المسلمين في الأندلس تحت راية

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ .

(٢١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ . حيث النص على أن أمير المسلمين ، قبل مجئته إلى غرناطة وقد وعد المعتد بها ، إذ قال له : « أنا رجل مفرى وليس قلعتي أخذ مال ولا بلاد إلا الخوف على غرناطة من الرومي » . وكذلك كان موقف ابن الأنطري وصلحه الحرية » .

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

أمير المسلمين ( المرابطية ) في مواجهة حرب الاسترداد المسيحية الى جانب تخفيف عبء الضرائب عن كاهل الناس ، كانت تحظى بموافقة المجاهدين في الحصون ، والرعية من التجار وأهل الأسواق ، وتزيد في ارتباطهم بدعوة أمير المسلمين ، وترجع كفة انصاره المرابطين . وهكذا كان المرابطي يستميل حماة المعقل ويثير الرعية بكل قطر ، الأمر الذي كان يضعف من قدرة ملوك الطوائف على المقاومة والصمود ، ويجعل المواجهة وما يتبعها من الاستسلام أشبه بأعمال التسليم والتسليم بين كبار رجال الدولة انواحدة ، سقيا .

#### خطة شاملة لغزو ملوك الطوائف :

من الواضح أن يوسف بن تاشفين عندما رجع بعد الاستيلاء على غرناطة الى مراكش ، في خريف سنة ٤٨٣هـ / ١٠٦٠م ، كان يهدف الى اعداد المدة لنتضاء - دفعة واحدة هل بقية ملوك الطوائف المتحالفين مع الفونس السادس كسابق العهد بهم ، وبدون استثناء رئيسهم ، المعتمد بن عباد وبنيه الذين كانوا يسيطرون على معظم أراضي الوسط والجنوب الأندلسي ، في : أشبيلية وقرمونة ورندة الى حدود الجزيرة الخضراء جنوبا ، وشمالا الى قرطبة وحتى قلعة رباح - آخر امتداد الأراضي الاسلامية في اتجاه نهر تاجه (٢٣) .

والذي يفهم من الخطة التي قضت ببقاء أمير المسلمين في المغرب ، واتخاذ سبينة قاعدة للحشد ومركزا متقدما للإشراف على سير العمليات الحربية فيما وراء المضيق ، هو اعطاء يوسف بن تاشفين الفرصة لمواجهة ما قد تتطلبه الجبهة الأندلسية من حشود وامدادات من مراكش ، في الوقت المناسب . كما كان ابتعاده عن ميدان المواجهة صونا لذاته من التعرض لتجريح الغيبة والنميمة ، وحفظا لشخصه من التعرض لمخاطر القتال ، كما حدث في الزلاقة ، وهو الأمر الذي لم تكن تسمح به النظم المرابطية الأولى ، والدولة في بداية أحرأ على عهد عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر فما بالنا وقد أصبح أمير المسلمين مركز الدائرة ، ومعقد الآمال في كل بلاد الأندلس ، فضلا عن المغرب (٢٤) .

(٢٣) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٦ - حيث التعليل على استيلاء السيد (El-Cid) على مدينة بلنسية بقوله : وأول ما يجب أن أفعل به : اخلاص النية لأمر المسلمين - أي لله ، لأن صلاح المسلمين بصلاحه .

ورغم ما يوجد من تقديم وتأخير في فتح مدن الأندلس وترتيبها خضوعها لحكم يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد غرناطة ، فإن مملكة العباديين كانت الهدف الأول بالنسبة للقائد سير بن أبي بكر ، من حيث كونها في مركز الوسط ، أشبه بحجر الزاوية الذي تسقط بسقوطه أركان البناء . أما مقولة أن أمير المسلمين لم يأمر نائبه القائد سير بن أبي بكر بشيء في ابن عباد (٢٥) ، فهذا ، كما نرى تجميل موقف يوسف بن تاشفين الذي كان يرى ابتداء ، أنه من حسن السياسة أن يقرب المعتمد من نفسه حتى يسهل عليه التخلص من صفار المشاغبين من الأمراء كإبن رشيق ( صاحب مرسية ) أو قريبيه الصنهاجيين : تميم وعبد الله ( صاحب مالة و غرناطة ) .

وفي محاولة تلخيص الأعمال الحربية التي قامت بها حامية الأندلس الرابطة بقيادة سير بن أبي بكر ، والجيش الأخرى التي أرسلها يوسف ابن تاشفين من سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، يتراوح الأمر بين ٤ ( أربع ) عمليات كبيرة استهدفت ٤ ( أربع ) مدن هي : أشبيلية والمرية وقرطبة وبطليوس (٢٦) ، أو ٦ ( ستة ) بالإضافة : قرمونة وجيان (٢٧) .

وإذا كان مما يحمد لصاحب كتاب الحلال الموشية ( المجهول ) اجتهد في محاولة تلخيص عمليات استيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس ، وضمة إلى البلاد المراكشية في السنة الثانية من لعبور الثالث ( ٨٤هـ/١٠٩١م )

(٢٥) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٢٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٧٧ ، ٩٩٢ ، وقارن النويري ، أبو خليف ، ص ١٦٢ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٥٤ - ١٥٦ ، وقارن ابن خلدون ( الذي ينقل عن القرطاس دون أن يشير إلى ذلك ) ، ج ٦ ص ١٨٧ وما بعدها - حيث الجواز الثاني سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م خطأ وهو مصحح إلى ٤٨١هـ/١٠٨٨م في ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٧٩ - حيث الحطاب بن جواز لسل ( البلي ) ٤٨١هـ/١٠٨٨م وفتح غرناطة ومالة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وص ١٨٨ - حيث الجواز الثالث في سنة ٤٨٠هـ/٧ - ١٠٩٦م بدلا من ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ثم جواز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠ - ١٠٩٩م ، وانضمام محمد بن الحاج إليه مع سير بن أبي بكر - حيث اقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوكها ، وذلك بدلا من سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وقارن ص ١٨٨ ، والترجمة ص ٨٢ - حيث الجواز الرابع في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م - وهي السنة التي رزقه فيها المنصور من ناصر الحسدي للز تلمسان .

في ٤ ( أربع ) حملات موجهة بشكل متوازي الى :

- ١ - اشبيلية ثم بطليموس ، بقيادة نائب الأندلس سير بن أبي بكر .
- ٢ - قرطبة بقيادة أبي عبد الله محمد بن الحاج .
- ٣ - المرية بقيادة أبي زكريا بن واسينوا (٢٨) .
- ٤ - رندة بقيادة جؤذر الحشمي .

فانه مما يؤسف له اعتذاره عن هذا الاختصار بأن الأمر مشهور ، ولا داعي اذن للتقصي (٢٩) . و هنا يحسن أن نشير الى أن رواية القرطاس وهي اوفى الروايات من حيث اهتمام صاحبها ابن أبي زرع ليس بالتقصي فقط ، بل وبالاعاية بتدعيم الأحداث بما أمكنه من التواريخ الدقيقة .

اما عن رواية الأمير عبد الله فهي الأجدر بالثقة من غير شك . هذا ، كما يتضح من الروايات جميعا أن اهتمام المؤرخين منصب على بلاد الوسط والغرب من الأندلس ، بينما تأتي أخبار شرق الأندلس شبه غابرة ، ربما بسبب عدم دخول بني هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى في مشروع النضم ، لتطرف الثغر المجاور للبلاد الأسبانية المسيحية في الشمال الشرقي . وساعد على ذلك أيضا موقف ابن هود المتزن من ألفونسو والمرابطين ، والذي كان مقبولا من أمير المسلمين ، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأمراء الوسط والجنوب ، لقربهم من العدو المغربي .

وعلى أساس القرب أو البعد من قاعدة الحشد العسكري المرابطي في سببة ، حيث كان مستقر أمير المسلمين ، توجد معلومات متناثرة ، تنقصها التواريخ الدقيقة ، عن شرق الأندلس والثغر الأعلى مما يتعلق بترك ابن هود في مملكته لأنه كان من الشجعان (٣٠) ، الى جانب أخبار عن عواصم

(٢٨) وهو في القرطاس ، محمد بن عائشة وانظر ما يأتي ، ص ٣٤٢ هـ ٣٦ .

(٢٩) الحلل الوثنية ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - حيث اضطراب النص الذي يبدأ ( في ص ١٨٧ ) عن ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس الذي للمسلمين بالكلام عن أخذ قرطبة واشبيلية في رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م لكي يجعل به ذلك ( في ص ١٨٩ ) مسيرة سير بن أبي بكر بهد بدوره الخلع ( خطأ ) مباشرة الى انضاع كل من مرسية وشاطبة وبلنسية ( وهو الأمر المستغرب ) وان فسر ذلك بأن تلك الحملة الشرقية وقعت أثناء حصار اشبيلية ، فكانها كانت لمواجهة الجيش الذي أرسله ألفونسو الـ ٦ فجعلت للمحتدم والحقة أن الأمير عبد الله يقول بعد سقوط نظام الماربات في اشبيلية وبطليموس انه « تقاضى به ذلك أمر بلنسية » =

«الشرق من : طرطوشة ودانية وشطابة وشقورة وبلنسية ، في مرحلة بما بعد تهدين اشبيلية والغرب» (٣١) .

### نهاية مملكة العباديين باشبيلية وتوابعها :

رغم قلة المصادر اللازمة لدراسة نهاية عصر انطوناف ، من حيث ان الاساسى منها قد لا يتجاوز كثيرا أصابع اليدين عدا ٠ ورغم قصر انقرة الزمنية التى قد لا تتجاوز ربع القرن من اواخر عهد أمير المسلمين يوسف ابن ناشفين ، وهو انشخصية المرموقة بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا وشبه جزيرة آيبيريا على الأقل ، فان ترتيب أحداث تلك الفترة بشكل منهجى من الصعوبة بمكان ٠ فالوثائق الأصلية ما بين مفتقدة فى غمار ما مر بالبلاد من الاضطرابات السياسية والدينية أو ممسوخة بسبب ما اصابها من آفات البتر والزياة والتشويه ، باستثناء القليل ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله التى يرجع الفضل فى اكتشافها الى الأستاذ ليفى بروفنسال ( مثلما اكتشف مذكرات البيديق ، فى أخبار مهلى الموحدىين ابن تومرت ) ٠

فبفضل آراء الأمير عبد الله بن بلقين ( صاحب غرناطة ) يمكن التعرف على بواطن الضعف فى نظام رؤساء الأندلس فى مواجهة المرابطين ، مما يلخصه فى مقولة : ان « صلاح المسلمين بصلاح أمير المسلمين » (مما سبق ، ص ٣٣٥ ، هـ ٢٤) ٠ وبفضل حاسته التاريخية العلمية التى تقضى باستبعاد ما لا يقبله العقل من تخليط الناس ، والتوقف عن اثبات ما لا يصح من الأخبار ، يمكن الاسترشاد فى محاولة إعادة شيء من الترتيب لنهاية الطوائف ٠ ويظهر ذلك فى عرض الموضوع فى شكل ممالك مستسلمة وليس فى شكل بلاد منهاره تماما ، كما حدث فى غرناطة الصنهاجية وتوابعها ، مما كان قدوة يحتذى بها ، حتى تتسقى بداية الاستماتة بالمرابطين مع النهاية

---

= وبين ان الصراع كان ما زال سجلا بين المرابطين والنصارى فى هذا الشأن ، وأنه يتركز التأليف ناقصا الى أن يتم ما يرجوه من « أن يكون الظهور للمسلمين » ٠ وانظر بعد ، ص ١٩٣ - حيث النص الى جانب شجاعة بنى هود ، استمداد حديثهم روية لمقاتلات الحصار ، وقائد التويرى ، ص ١٦٨ - حيث النص على انه بعد انقضاء المدة المبادية صار ملك الأندلس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وص ١٦٩ - حيث النص على ان سرقسطة والفر الأغل « فكانا بيد ابن هود » ( منذ بن يحيى ) ٠

(٣١) انظر القراطس ، ص ١٥٦ ، المبر ، ج ٦ ص ١٨٨ - عن سرقسطة وبلنسية وبرشلونة .



المتوقعة لرؤساء الأندلسيين - وهو الأمر الذي كان يستوعبه المعتمد بن عباد ، عندما فضل « رعى الجمال على رعى الخنازير » ( ما سبق ، ص ٢٩٥ ) ، وإنذرى ربما كان القصد منه ، فى حينه مجرد الحوار .

### قيادة الحامية المرابطية :

#### مقر نيابة الأندلس :

الذى يفهم من الروايات الخاصة بالحامية المرابطية فى الأندلس أنها كانت موزعة على العواصم الكبيرة ما بين ٣ آلاف وألف رجل ، بينما كانت حاميات الحصون على الحدود ( الثغور ) تمتد بالمئات وربما العشرات (٣٢) . وعندما عبر المعتمد بن عباد فى السنة التالية للزلافة ( ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ) عن الشكوى من نصارى حصن لبيب ( Alédo ) ، يفهم من بعض الروايات أنه أمير أشبيلية ، كبير الرؤساء ، كان يأمل أن يبعث معه أمير المسلمين حامية ينفودها بنفسه الى لبيب ، وربما لتكون تحت تصرفه بعد ذلك (٣٣) . وإذا كان يوسف بن تاشفين قد رفض ، بعد فشل حصار لبيب ، مطالبه الأمراء بترك حامية لديهم ، فإنه خص بلنسية التى كان يهددها الأسبان بحامية من ٤ ( أربعة ) آلاف رجل ( ما سبق ، ص ٣٢٤ ) فكان عساكر المرابطين كانوا متفرقين فى العواصم والثغور ، الأمر الذى دعا الى تملطل المجاهدين منهم ، مما كانوا فيه من الجهد والتعب ، بينما كان السادة الأندلسيون ينعمون بحياة الرفاه والترف ( ما سبق ص ٣١٨ ) .

أما بعد سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ودخول غرناطة الصنهاجية فى الدعوة المرابطية ، فكان من الطبيعى أن تصبح « حصون الحمراء القديمة » مقرا للحشد الكبير من المرابطين فى الأندلس ، بمعنى أن غرناطة كانت بمثابة مقر القائد ، نائب أمير المسلمين ، سير بن أبى بكر ، منذ تلك الفترة السابقة على صيف سنة ٣٨٤هـ / ١٠٩١م . أما عن مقولة أن سير بن أبى بكر كان على رأس الجيش الأول ، الذى عبر من سبته فى صيف ٤٨٤هـ / ١٠٩١م

---

(٣٢) ما سبق ، ص ٣١٨ و٣١٩ ، وانظر السير ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢ - حيث النص على أنه عند رجوع أمير المسلمين الى المغرب بعد الزلافة ، خلف عسكريا ناشبيلية تحت قيادة محمد ومجير ( ابن مجبور (ou-Meggoun) بن سميون (Semouin) بن محمد بن وركوت ( ابن وركوت (ou-Reggout) من عشيرته ويعرف أبوه بالهاج - وكان محمد من بطانته ، وأعظم قواده .

(٣٣) انظر يوسف أشباج ، ترجمة عثمان ، ج ١ ص ٩ .

« ما سبق ، ص ٣٣٦ ) ، فأغلب الظن أنها تعنى إشراف سير بن أبي بكر من الجزيرة الخضراء على عملية العبور ، بينما كان أمير المسلمين يصدر إليه الأوامر من سبتة . وكان من بين تلك الأوامر بده سير بالتوجه لأخذ أشبيلية .

#### • الشروع في غزو أشبيلية :

والذى يفهم من الرواية المرابطية ان الأوامر قد صدرت من سبتة إلى سير بن أبي بكر بأن يبدأ بالشروع فى إنهاء نظام الطائفة الأشبيلية ، وذلك مع بداية صيف سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م . ومن الواضح ان الحطة كانت تقضى بأن يرمى استخدام العنف الى آخر وقت ، وفى أضيق الحدود . ولا بأس أن كان نموذج دخول غرناطة سلميا هو الأفضل ، بصرف النظر عما يقال من القدر أو الحديعة ( ما سبق ، ص ٣٢٧ ) . فهذا ما تعنيه رواية القرطاس التى تنص على أن الأمير سير بن أبي بكر كان يتوقع عندما أقبل على أشبيلية أن يخرج إليه المعتمد بن عباد بما كان متعارفا عليه من الترحيب بنائب أمير المسلمين وتقديم الضيافات لمسكره ، وكان الواجب ما زال متصلا بين المعتمد وبين أمير المسلمين .

وهنا وجد سير اعلان المعتمد بضرورة تسليم بلاد مملكته (٣٣م) التى كانت تشمل على كل من : قرطبة وقرمونة ورنسة ، كما كانت تخضع لها جيان ، وعدد من الحصون والقلاع ، التى حكمها بعض أبناء المعتمد الذين بلغوا مائة ذكر غير الاناث (٣٤) ، والمقربون منه من رجال الدولة . ولم يستجيب المعتمد للدعوة الموجهة اليه باسم أمير المسلمين فقط ، بل انه حذر ابن الأفطس فى بطليموس ، وأخذ فى مراسلة الفونسو السادس طالبا منه النجدة (٣٥) .

وعندما وجد سير ان أعمال التحصين أخلت تسير على قدم وساق فى المدينة ، كان عليه أن يتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة لاحكام الحصار .

---

(٣٣م) القرطاس ، ص ١٥٤ ، المبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله .

ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣٤) أنظر التويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ ، وأنظر فيما بعد ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث يسمى الفونسو « بالرومي » ، وينس

على انه « قد عنه » خيفة من التفرير بمعنى أنه آثر السلامة خشية التورط فى ذلك .  
الامر .

حولها ، بهدف إرغام المعتصم الذي كان محتصما بقلة تصوره المعروفة بالقصبة على طاعة أوامر أمير المسلمين(٣٦) . ولما كانت مدينة أشبيلية مفتوحة من جهة الغرب على نهر الوادي الكبير ، حيث كان مرسى الأسطول الذي كان يحميها من ذلك الجانب ، ويخفف من وطأة الحصر المفروض على الضفة الشرقية للنهر ، كان الأمر يتطلب أعداد جيش ثان لمواجهة الأسطول .

ودون تخصيص الوقت انتظارا لاستكمال الحشود والعدد كان على سير أن يلجأ الى إثارة أهل البلاد على حكامهم العباديين في كل مكان ، واستخدم في ذلك الفقهاء والعلماء الذين كانوا يرون أن غزو المرابطين لبلادهم أمر مباح ، وذلك ما سهل سقوط الكثير من عواصمهم ومعاقلهم دون جهد كبير(٣٧) .

#### أخذ المرية :

وهكذا كان دخول المرابطين الى المرية بغير قتال على يدي القائد محمد بن عائشة(٣٨) ، إذ تقول الرواية أن أميرها محمد بن صمادح مات غما ، وهو على سرير المرض ، عندما علم بتقدم المرابطين بينما فر ابنه المعز في رمضان سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م في البحر لاجئا الى بجاية في كنف المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي(٣٩) .

---

(٣٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ ، الفرطاس ، ص ١٥٤ .

(٣٧) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على ذهاب كثير من معانل ابن عباد بالطاعة ، وفارن النخيرة لابن بسام ، ق ١ م ٢ ، ص ٦٥١ - حيث القاء تينة الفتنة منذ بدايتها الأولى على المعتصم - حيث القول : « وأخذ هذه المصابة المشفوعة ابن عباد الذي سسل سيف الفتنة والخبى من قرابة ... ففزا على الاسلام في عمر دارهم ... واستمار اثم الصهيد هشام المؤيد لغير أهله » .

(٣٨) انظر الفرطاس - ص ١٥٥ ، وهو في الحلل الموشية : أبو زكريا بن واسبنوا

( ما سبق ، ص ٣٣٧ ) .

(٣٩) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٧ - حيث النص على أنه مات عندما وصل المرابطون الى باب المدينة ، مع الاشارة الى أنه كان قد أوصى ابنه وولى عهده المعز بأن يبقى محتصنا بالمدينة طالما بقي المعتصم صاندا في القصبة ( القلعة ) . فإذا ما خرج من أشبيلية فعليه أن يفادر المرية في التو واللحظة على أن يلجأ الى الجزائر في كنف بني حساد .. وهذا ما فعله المعز فعلا ، إذ خرج عندما تأزم الموقف في مركب فسحبه بجميع ما يدر عليه من ذخائره ، بل وكان ذلك في السر ، وعلى أنه « ناهض الى أمير المسلمين بهدية ، ليهنئ بذلك أهل المرية » . وقارن ابن بسام ، النخيرة ، ج ٢ ق ١ م ٢ ، ص ٧٣٤ - حيث النص على أن ابن صمادح - مثل المعتصم - كان قد جاهر بالمصيان =

### مسقوط جيان وقرطبة :

وهكذا رأى سير بن أبي بكر ألا يضيع كل جهده فى حصار اشبيلية ، وأن يحسن استغلال نجاح الدعاية المرابطية فى اكتساب شعب الأندلس الى جانب سياسة أمير المسلمين التى قد تؤمن لهم عملية الانقاذ حقا ، وأن تبدأ بأخذ ما يمكن أخذه من البلاد بأيسر السبل . وأصدر سير أوامره فعلا الى مرهوسه القائد بطى بن اسماعيل بالمسير الى جيان التى كان صاحبها عبد الله بن بكر من أتباع ابن عباد ، وأخذها . وبعد أن حاصر بطى المدينة نجح فعلا فى دخولها صلحا(٤٠) .

ورأى سير أن يستغل الظروف الحواتية ، فأسرع وهو يزف الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خبر خضوع جيان ، بالكتابة الى بطى بن اسماعيل يأمره بترك تلك المدينة ، والمسير لأخذ قرطبة التى كانت تحت امره المأمون بن المعتمد بن عباد(٤١) . ولم يطل حصار مدينة الخلفاء طويلا فلقد سقطت بفضل مداخلة أهلها ، وذلك فى ٣ صفر ٤٨٤هـ/ ٢٦ مارس ١٠٩١م . وكانت عقوبة المأمون بن المعتمد هى القتل ، وكذلك الأمر بالنسبة لوزيره ابن زيدون(٤٢) .

---

= أما من ميته فكانت أدبية تناسب موضوعات الكتاب . فتلما سمع جلبة أصوات المرابطين ، وهو مريض قال : لا اله الا الله ، نفس علينا كل شيء حتى الموت . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على حرب صاحبها ( صهر الدولة ) فى البحر الى افريقية بأمواله اله ، واسلم له الولد ، فسلحها المرابطون ، وكتب محمد بن عائشة بالفتح الى أمير لمحني ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ص ٧٩ - حيث النص انه بمجرد بدء المعاداة مع المعتمد ابن عباد يست ( يوسف بن تاشفين ) جيشا الى مرية ، ففر عنها ابن صمادح ، ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية ( وان وضع ذلك خطأ فى الجواز الثانى ) سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م بدلا من ( ٤٨١هـ/ ١١٨٨م ) . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٢ - حيث يجعل فتح المرية ، بدس سقوط اشبيلية وعمل يد سير بن أبي بكر نفسه ، وأن واليها محمد بن من بن صمادح مات بها ، وأن ولده خرج بأخوته وأهله فى مركب الى الجزائر ( بأمواله ) والتحق ببني حصاد فأحسنوا إليهم ، وقارن التويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث نهاية النص : والتحق ببني حصاد ، الذين استنوه تدلس ، وهو تحريف كما ترى .

(٤٠) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤١) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤٢) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على قتل من يسمى ان بكر ( مع الوزير ) وأغلب الظن انه عبد الله بن بكر والى جيان السابق الذى قد يكون لجأ الى قرطبة .

### تهديد أعمال قرطبة وموقف المعتمد من الفونس :

وكان على بطى أن يهتد ببلاد قرطبة بالاستيلاء على أعمالها من البلدان والقرى وما يتبعها من الفلاح ، من : بياسة الى ابدة أو حصن البلاط والمدور والصخرة وشقورة \* ولما كان ابن أبى زرع يذكر بشيء من المباخة ، كما نرى ، أنه لم ينته شهر صفر الذى فتحت قرطبة فى اليوم الثالث منه ، حتى لم يبق بيد أبى عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ، ما عدا قرمونة وأشبيلية (٤٣) ، فأغاب الظن أن هذه الرواية تحمل فى ثناياها فكرة سقوط تلك البلاد والحصون بمدخلة من أهلها ، والطاعة لأمر المسلمين ، حسبما ينص عبد الله بن بلقين على أن « المرابط داخل معاقلة ( المعتمد ) فقامت عليه الرعايا بكل قطر » \* وهنا يكون استنجد المعتمد - الذى كان يرى قرب نهايته - بالفونس حسب تقرير الأمر عبد الله ، فى موضعه الصحيح (٤٤) ، كما تضع الرواية الأخرى التى يأخذ بها ابن الأثير ومن تبعه من الكتاب ، وهى التى تقول أن الأفرنج ، والمقصود الفونس السادس ، كانوا قد قرروا منذ البداية تقديم المساعدة للمعتمد ، ليس حبا له ولكن خوفا من المرابطين (٤٥) \* هذا ، ولا بأس أيضا أن يكون التفكير فى المساعدة العسكرية للمعتمد قد حدثت بعد أن طلبها المعتمد إثر سقوط قرمونة فيما بعد ، أى فى يوم السبت ١٧ ربيع الأول ٨٤٤هـ/ ١٠ مايو ١٠٩١م ، كما يرى ابن أبى زرع (٤٦) \* وما يتبعها من سقوط رندة ، التى استولى عليها قرور من الراضى بن المعتمد خدعة ، بعد أن مناه بالأمان فى نفسه دون المال ، ثم قتله (٤٧) .

---

(٤٣) القوطاس ، ص ١٥٤ ، وأنظر الروش المطار ، ص ٥٧ - حيث بياسة على ٢٠ ميلا عن جسان ، ص ١١ - حيث ابدة على ٧ أميال من بياسة ، ص ٨٥ - حيث الحصن المدور قرب بياسة ، ص ١٠٥ - حيث شقورة من أعمال جيان \* .

(٤٤) المذكرات ، ص ١٦٩ ، وما سبق ، ص ٣٣٧ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤٦) القوطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على دخول قرمونة عنوة من قبل سير بن أبى بكر ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أنها فتحت قبل سقوط أشبيلية ، ومات فيها عالم كثير \* .

(٤٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أن قرور تخلص من الأمير المصايدى الراضى دون إذن من السلطان ( أى أمير المسلمين ) ، وقال ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٧ - حث النص على غلبة ( والى الأندلس الأمير ) سير ( بن أبى بكر بن محمد ابن وركوت ) على كل عمله ( ابن عباد ) ، واستنزل أولاده : المأمون من قرطبة ، ويزيد الراضى من رندة وقرمونة - واستولى على جميعها وقتلهم \* .

### تحديد القشتاليين : هزيمة البرهانس :

وهكذا سارت خطة تصفية مملكة بنى عباد على ما يرام ، وكان الأمير سير بن أبى بكر فى موقف يسمح له باجهاض أية عملية مساندة من قبل القوات الأسبانية المسيحية ، قد تمكن المتمد من الصمود . فعندما علم سير بقدوم القائد ( القومس : الكونت ) المسيحى البرهانس ( Alvar Hanez ) على رأس حملة كبيرة يزيد عددها على ٢٠ ( عشرين ) ألف رجل ، بن فارس وراجل لمساعدة المتمد على فك الحصار حول اشبيلية ، أسرع سير بانتخاب ١٠ ( عشرة ) آلاف فارس من خيرة الرجال ، وسيرهم تحت قيادة الأمير ابراهيم بن اسحق اللمتونى ، الذى التقى بالأسبان فى منطقة حصن المدور حيث دارت واحدة من ملاحم المرابطين المشهورة فى الأندلس . فلقد انتهت المعركة التى صبر فيها الفريقان الى حد الفناء ، بانتصار دفع المرابطون فيه الكثير من الشهداء ، بينما استوصل رجال البرهانس ، فلم ينج منهم الا العدد القليل - الأمر الذى قطع الأمل تماما ، فى امكانية صمود ابن عباد(٤٨) .

### الثغر الأقصى : قلعة رباح :

والمهم من كل ذلك أن بطى بن اسماعيل نجح فى المهمة التى كلفه بها سير بن أبى بكر ، وهى دخول قرطبة وتهديد أعمالها ، الأمر الذى سمح له بالاستقرار فيها ، من حيث كان يشرف على رم ثغورها . وهكذا اهتم بطى بن اسماعيل بأعمال قلعة رباح ، آخر حصون بلاد قرطبة على الحدود مع قشتالة ، فخصها بحامية مرابطية من ألف فارس من المرابطين يرأسهم قائد لمتونى مكلف بالنظر فى حسن سير العمل فى القلعة ، وضبطه الأمور على طول الجبهة(٤٩) .

### نهاية المباديين فى اشبيلية :

وهكذا كان يمكن لسير وقد تخفف من هاجس معونة محتملة يقدمها

---

(٤٨) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص بشئ من المبالغة على تكوين حملة البرهانس ، من ٢٠ ألف فارس و٤٠ ألف وراجل . الأمر الذى اوجب الإكفاء بالرقم الأول دون الثانى حتى يتسجم مع عدد الحملة المرابطية ، وفارن ابن الأمير ، ح ١٠ ص ١٦٠ ( والنويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣ ) . وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٦ - حيث خاف الأندلس من التورط فى ذلك الأمر .

(٤٩) القرطاس ، ص ١٥٥ .

الفونس السادس الى المعتمد ، أن يحكم الحصار حول اشبيلية ، عن طريق جيش جديد يهاجم الضفة الغربية للمدينة عبر النهر \* . وفعلا استولى الجيش الثانى على الاسطول الاشبيلي فى نهر الوادى الكبير ، وتمكن من اعتلاء الاسوار ودخول المدينة بمخامرة أنصار المرابطين من اهلها ، وذلك فى يوم الاحد ٢٢ رجب سنة ٤٤٨هـ / ١١ سبتمبر ١٠٩١م (٥٠) .

وتظهر فى رواية ابن الأثير نزعة أندلسية عندما تتحدث عما لحق بأهل اشبيلية على أيدي الغزاة المرابطين من أعمال النهب والسلب - وانتهاك الحرمات ، بمعنى فتح العنوة واستباحة المدينة المفتوحة ، وقد يؤكد ذلك ما تنص عليه رواية موازية من ان المعتمد بن عباد سلم البلد بالأمان ، وأنه كتب نسخة العهد ، ولكن المرابطين لم يوفوا له (٥١) . أما عن الرواية المبرية التى يصلها ابن أبى زرع فتقتصر على استمرار سير ( والمرابطين ) فى حصار اشبيلية حتى دخلها على المعتمد ، فأمنه فى نفسه وأهله وولده (٥٢) فكان الأمان تفضل كريم على المعتمد ، من قبل نائب أمير المسلمين .

والحقيقة أن الرواية الأندلسية النزعة تتبلور حول شخصية المعتمد ابن عباد ، الذى يشغل بالحرب والشرب والذى يقول الشعر ويعشق

(٥٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث ينص المؤلف الغرناطى على أن دخول اشبيلية كان بعد عام من دخول غرناطة ، مدينته المفتوحة . وقارن القوطاس ، ص ١٥٥ - حيث نلن التاريخ ٢٢ رجب ٤٤٨هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩٦م ، عن طريق الوادى ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث نلن رواية ابن الأثير مع مزيد من بعض التفاصيل ، النخبة لابن بسام ، ج ٣ ( ق ٢ م ١ ) ص ٥٦ - حيث دخل عليه البلد فى ٢٠ رجب ( ٤٤٨هـ / ٩ سبتمبر ١٠٩١م ) فخطب ، منجسه ( أيا بكر الحولاني ) شعرا .

أرسلت ام بنجورك الرمد قد عاد غدا كل ما تعد

(٥١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ - حيث التزل ان الفاتحين سلخوا الناس ثيابهم ، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، ... وسبيت المهنات وانتهكت الحرمات - وكان الأمر يمتلئ بأعمال اللعن التى كانت تثار قديما بين العرب والبربر أو بين المساك وأهل المدينة ، وخاصة فى قرطبة العاصمة التى حلت محلها الآن اشبيلية . وقارن النويرى ، أبو ضيف ص ١٦٣ - حيث النص على أسر المعتمد ومعه أولاده الذكور والبنات ، بعد استئصال جميع أنوالهم . وقيل ان المعتمد سلم البلد بأمان ، وكتب نسخة الأمان والهد واستطاعهم على نفسه وأهله وماله وصبيده ... فلما سلم العهد اليهم لم يوفوا له ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث اختلاف الرواية المبتصرة هنا عن السابقة .

(٥٢) القوطاس ، ص ١٥٥ .

النساء<sup>(٥٣)</sup> ، في مقابل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي يوصف بالبساطة والورع ، والتمسك بتعاليم الدين ، فلا يقلل من شأنه إلا إساءته للمعتد ، التي تعتبر مدخلا لوسمحه بشيء من الحسنة والوهم ( ما سبق ، ص ٢٤٨ ) . والحقيقة أن المعتد بن عباد الذي تنسب إليه ضروب من الشجاعة في الدفاع عن مدينته ، لا تقل كثيرا عما نسب إليه يوم الزلاقة<sup>(٥٤)</sup> ، كان ما يزال يقاوم الاستسلام بعد سقوط اشبيلية ( المدينة ) ، وهو معتصم بالقصبة ( القلعة الكبيرة ) التي كانت تعتبر بمثابة الحصن الملوكي في اشبيلية ، يتوسطه القصر ( Alcazar ) والجامع ، ويحيط بهما معسكرات الحرس الخاص ، ومقار كبار القواد .

ولهم أن مقاومة المعتد انتهت ، كما تقضى أصول السياسة ، تحت الحاح أهل الحاشية والمقرين بالاستسلام<sup>(٥٥)</sup> ، وذلك نظير الأمان في النفس ، دون الأموال والعبيد والخدم والحشم - تماما كما حدث في غرناطة قبل

(٥٣) هذا وإن كان وراء هذه الواجهة الناعمة غلظة قلب لا مزيد عليها ، لا تشمل لقط في القتل وازاقة الدماء في الحرب ، بل التي تصل في حب الثار والتشفي إلى حد الاحتفال برؤوس القتل مصبرة في بعض الخزائن وكأنها تحف أثرية ، أو التوسع في ذلك ونصبها في رؤوس العيذان وكأنها حديقة الموت - أنظر اللبيرة لابن يسلم ج ١ ( ق ١ م ١ ) . ص ٢٨٨ - حيث رؤوس أمراء بطليوس المختزنة ( من حرب سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ) عند ابن عباد بأشبيلية ، ج ٣ ( ق ٢ م ١ ) ، ص ٢٧ - حيث النص على وجود حديقة ، بباب المنضد بن عباد ، تطلع كل وقت لمرأ من رؤوسهم ( الأعداء ) المهداة إليه مفرطة الأذان برفاع الأسماء ... تراج نفسه لما يفتتها ... وكان محمد بن عبد الجبار المهدي ، مفرق الجماعة بقرطبة سبق ابن عباد إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلمة لرؤوس أعدائه . وفيها قال صاعد ابن الحسين :

جلاء العين بهجة النفوس حدائق الخلفت لمر الرؤوس

ص ٢٨ - حيث النص على أنه لما خلع المعتد ، وجد جوائق مطبوع عليه ، وطن أنه مال أو ذخيرة ، فإذا هو ملوؤ رؤساء ( منها ) : رأس يحيى بن علي بن حمود ، ثابت الرسم مخير الشكل ، فذفع إلى بعض ولده فلفته .

(٥٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ، وقارن التويري ، أبو ضيف ، ص ١٦٣ ، وما سبق ( عن الزلاقة ) ، ص ٣٠٧ .

(٥٥) اللبيرة ، ج ١ ( ص ٢ م ١ ) ، ص ٥٢ - حيث تقول الرواية أنه يوم دخل عليه المدينة ، في منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ / ٤ سبتمبر ١٠٩١ م قال في ذلك شعرا منه :

قالوا الخضوع سامة فليبد منك لهم خضوع  
والد من طعم الخضوع على لسان السم النافع



عاصم (٥٦) . وهذا ما يفسر تلك الرواية التي تقول ان المعتمد سلم البلد بآمان ٠٠ وأنه كتب نسخة العهد ٠٠ فلم يوفقوا له ( ما سبق ، ص ٣٤٥ ) .  
بمعنى ازدواجية فتح اشبيلية : عنوة ( بالنسبة للمدينة وأهلها الذين نكل بهم ) ، وصلحا ( بالنسبة للمعتمد وأهله ، حسيما قضت شروط الصلح )  
- وهو الأمر الدارج في كثير من الفتوح الاسلامية الأولى .

وتمثل انتهاك آمان المعتمد في مقاتل أبنائه ممن كان يخشى خطرهم ، سواء في اشبيلية أو أعمالها من قرمونة ورندة ممن تزخر أشعاره برثائهم (٥٧) . والقبض عليه بعد اطلاق أمهات الأولاد من نسائه ، ومن كان لا يخشى منه من أبنائه الذين بلغوا حوالي المائة عدا (٥٨) ، ثم حمله مع الأبناء الصغار الى جانب البنات ، بحرا عبر المجاز (٥٩) الى سبتة ، ومنها ساروا الى مكناس موضع تجمع الأمراء المنفيين من الأندلس ، حيث التقى بهم صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، قبل نقل الجميع الى الغمات (٦٠) .

#### نهاية المعتمد بن عباد في الغمات :

والذي نراه أن نفى المعتمد الى بلاد البربر على يد أمير المسلمين ، هو الذي فجر طاقات الأمير المحارب ، شاعر المناسبات الموهوب ، وجعلته

---

(٥٦) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على انه : « لما ظفر بابن عباد فبا الأمير سير خدمه وعبيده ( أى اعتبرهم فينا يقسم كالغنيمة ) ، حاشى أمهات الأولاد . وفي قول يوسف بن ناشئ بعد ذلك ( من سبتة ) الى مراكش ، تقول نفس الرواية : « بعد الفتح انصرف أمير المسلمين الى مراكش ( وقد ) احتلات يدها بالمال ( الذي ) قسمه على أجناده ، وأهدى الى الصحرارى معه من تلك اللخائر » .

(٥٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩١ - حيث النص على مقتل ولديه الفتح ( صاحب فرطية ) ، ويزيد ( الرافى صاحب رندة وقرمونة ؟ ) بن يديه ( في اشبيلية ) صبرا . وقادرو التويرى ، أبو شيف ، ص ١٦٦ - حيث يقول المعتمد في رثاء ولديه اللذين ذبحا بن يديه :

يولون صبرا لا سبيل الى الصبر  
سأبكي وأبكي ما يطاول من عبرى  
ولو عدتنا لاخرتنا السود في الترى  
إذا انتصا أبصرتماني في الأسرى

(٥٨) انظر التويرى ، أبو شيف ، ص ١٦٤ .

(٥٩) انظر الفتية لابن بسام ، ج ٣ ( ق ٢ م ١ ) ، ص ٥٦ - حيث النص على أنه أطلقت أمهات أولاده وبنيه ٠٠٠ وعمر بهم مراكيا ، فركبوا البحر ورزقوا السلامة فيه الى أن وصلوا الى أمير المسلمين ٠٠٠ وبقوا هناك في كتفه ، تمت احسانه عليهم الى أخريات أيامه سنة ٤٨٨ هـ / ١١٠٤ م .

(٦٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ .

يصنع من نهايته المحتومة ، ماساة فاجمة أشبه بمآسى اليونان القديمة  
أو مقاتل الطالبين الإسلامية ، كما شاركه فى هذا الصنيع ندماؤه من  
الأدباء والشعراء الذين نعوا مجالس أنسه ، بنفس الإيقاع الذى كان يعنى  
به نفسه . ولا نعرف ما اذا كان بعضهم وهو يرجو أخذ عطاء الأسير ،  
كما كان يفعل وهو أمير ، كان يحسن الظن بما يكتنزه من المال أم كان  
لا يهتم باستنزاف بقية ما كان يدخره لبناته - اللاتى اضطرن الى الفزل  
بالأجر .

والمهم ان اقامة المعتمد ، مثقفا باغمات كما تقول بعض الروايات ،  
كان موضوعا لذلك النوع من الشعر الشجنى الذى ساد فى ذلك العصر ،  
والذى كان يمالج أشياء من أحوال البلاط ومجالس الأنس ، على وجه  
الخصوص . فمما نظمه المعتمد فى أسرهِ باغمات ، تلك الأبيات التى وجهها  
الى الشيخ عبد الجبار بن أبى بكر بن حمد يس ، بالمهدية :

غريب بأقصى المغربين أسير      يمسى عليه منبر وسرير  
أذل بنى ماء السماء زمانهم      وذل بنى ماء السماء كبير (٦١)

وقريب من هذا ما قاله المعتمد أيضا فى يوم عيد ، وهو بالمعتقل  
أسير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا      فصرت كالعبد فى أغمات ماسورا  
قد كان دهرى ان تأمره ممثلا      فردك الدهر منهيأ ومأمورا (٦٢)

ومن شعر وزير المعتمد الشهير : أبى بكر محمد بن اللبانة ، الذى  
ذهب اليه باغمات ، ومدحه وهو فى سجنه فقال :

انما أنت درة للمعالي      ركبت الدهر فوقها أهدافا  
أنت للفضل كعبة ولو انى      كنت أستطيع لالتزمت الطوفا

---

(٦١) النخبة ، لابن بسام ، ج ٣ ( ق ٢ م ١ ) ، ص ٧٥ ، التويرى ، أبو خيف ،  
ص ١٦٧ - حيث النص على ان ابن حمديس كان قد توجه الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ / ٩ -  
١٠٧٨ م قصد المعتمد وأقام عنده الى أن خلع ، وكان مما رد به على المعتمد ، فى أغمات ذلك  
البيت :

جرى لك جد بالكرام عثور      وجار زمان كنت منه تجير

(٦٢) التويرى ، أبو خيف ، ص ٢١٦ .

وكانت هدية المعتمد التي حملها ابنه شرف الدولة الى الشاعر ( الوزير السابق ) ٢٠ ( عشرين ) مثقالا مرابطية ، وثوبين من القماش ، وبضعة أبيات شعر من نظمه يعبر بها عن الاعتذار عن قلة الهدية التي لا تتناسب وقدر المهدي ، ومنها :

اليك النزر من كف الأسير      وأن تقنع تكن عين الشكور  
ثفيل ما يذوب به حياءه      وإن عذرت حالات الفقير (٦٣)

وفي حفيد المعتمد « فخر الدولة » الذي عمل بصناعة الصاغة بعد نهاية الدولة ، قال أبو بكر الداني ، وقد رآه وهو ينفخ النار بقصبه الصائغ :

صرفت في آلة الصواغ انملة      لم تدر الا لندى والسيف والقلما (٦٤)

اما اجمل ما قيل في ابن عباد ، فهو ما أنشده وزيره ابن اللبانة على قبره يرثيه في يوم عيد :

ملك الملوك أسامع فأنادي      أم قد عدك عن الجواب عوادي (٦٥)

#### غزو بطليوس : آخر ممالك الوسط والغرب :

وبسقوط اشبيلية لم يبق أمام سير الا بطليوس ، التي تمتد أعمالها غربا حتى أشبونة ( لشبونة ) وشنترين ( Santarem ) من جنوب البرتغال حاليا (٦٦) ، وكان صاحبها : المتوكل عمر بن الألفس يساعد المعتمد بن

(٦٣) النويري ، أبو خفيف ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦٤) النشرة ، ج ٣ ( ق ٢ م ١ ) ، ص ٧٩ ، وقارن النويري ، أبو خفيف ، ص ١٦٨ - حيث نذر الدولة ابن المعتمد ( وليس حفيده ) وأنه تعلم حرفة الصياغة بناء على طلب حبيبه الحجاز ، الذي رفض أن يزوج ابنته الجميلة « الا من له صناعة يستتر حاله وحالها بها أن احتاج لها » . وفي ذلك قال المعتمد « هذا رجل عاقل ، فأمر بأحضار الصناعة الى القصر ، وعلم نذر الدولة الصياغة ... الخ » .

(٦٥) النشرة ، ج ٣ ، ( ق ٢ م ١ ) ، ص ٤٩ ، النويري ، أبو خفيف ، ص ١٦٧ .  
(٦٦) انظر عبد الله عتار ، الطوائف ، ص ٣٦٩ ، عن استمادة اشبونة ( نوفمبر ١٠٩٤ / ذو القعدة ٤٨٧هـ ) ، وص ٣٨٣ عن نفوذ فردلند ( غرناطة ) سنة ١٠٥٧م / ٤٤٩هـ الى شمال البرتغال ، وإلى أطراف بطليوس الشمالية الغربية وحصاره مدينة بازو ( Vizeu ) واقتحامها على أهلها المسلمين ، واستيلائه على لاسيجو ( مليقة ) شمالها واسكان النصارى بها ، دون أن يتحرك ابن الألفس .

عباد على الصمود في مواجهة المرابطين ، ولا يدارى في التعاون مع الفونس السادس . ورغم أن ابن الأفطس لم يكن يستطيع الوقوف وحده أمام القوات المرابطية المظفرة في كل الجبهات ، كما تحظى بتأييد أهل البلاد الساخطين على أمرائهم في كل مكان ، فإن سير بن أبي بكر رأى استخدام الحيلة في أخذ بطليوس بإسر السبل ، عن طريق استخدام خصم بن عباد ، صاحب مرسية السابق : عبد الرحمن بن رشيق ، بصفته أندلسيا خيرا على تدبير المكائد ، نظير استعادته لمدينته مرسية ( ما يأتي ، ص ٣٥٣ ) . فأطلقه من حبسه - الأمر الذي أثار وقتئذ الكثير من التخمينات - وتبعه للخطة المدبرة دخل ابن رشيق بطليوس كخصم للمرابطين - على ما نظن . وعن هذا الطريق نجح في مداخله أهل البلد ، بل وفي إشرائه حرس القصة ( القلعة الأميرية ) في تدبيره ، وبذلك تم له القبض على « الشيخ » : المتوكل عمر بن الأفطس ، وابنيه الفضل ولي العهد ، والمباس ، اللذين قتل ، بين يدي أبيهما دون رحمة أو شفقة (٦٧) .

والحقيقة أن ابن الأفطس لم يؤاخذ بذنب التحالف مع المعتمد بن عباد ، بل بمغالاته وبعض بنيته في التثبيت بالملك إلى حد انوقوف في صف ألفونس السادس ، دون مواربة . وتظهر هذه النزعة - انتهى لا تفسرها إلا العلاقات الوثيقة بين بني الأفطس وجيرانهم الأسبان من البرتغاليين والقشتاليين . فلقد بلغ الأمر إلى حد أن عرض ولد ابن الأفطس على أبيه المتوكل الاختيار بين التخلي عن الرئاسة للمرابطين أو الفرار إلى « الرومي » ، « الفونس السادس » والسكنى في بعض البلاد ( الإسلامية ) التي في طاعته . وأنه عندما رفض المتوكل هذا الاقتراح ، خرج الابن هو نفسه ، بماله وولده مهاجرا من بطليوس (٦٨) .

وبسقوط بطليوس (Badajoz) يكون المرابطون قد ضموا إلى دولتهم كل أراضي الوسط والغرب من الأراضي الإسلامية الأندلسية ، ولم

---

(٦٧) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٤ - حيث النص على أن الأمير سير أمر بقتل المتوكل مع ابنه . ولاردن ابن الأمير ، ج ١٠ ص ١٦٣ - حيث النص على أن ابن الأفطس طلب أن يقدم ابنه ( ولي العهد ) قبله ليكون في صحيفته ، والنويري ، أبو خنيفة - ص ٣٨٨ .

(٦٨) انظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٢ - حيث الإشارة إلى أن الفقيه ابن الأحنس المسلماني أصلا ، والبطليوسي إقامة ، والذي كان متربيا من الأمير المتوكل ، كان يعلم أن « كونه في التفرقة ينفع المسلمين » ، وهو يعمل ( حقيقة ) في خلق صاحب بطليوس .

يبقى أمامهم الا اقليم الشرق الذي كان موضع الشد والجذب بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا منقسمين بدورهم على أنفسهم ، مما كان يزيد في تعميق المواقف ، وبالتالي في صعوبة الوصول الى ترتيبات أمن واستقرار في أحد الجانبين أو الآخر .

#### المرابطون في شرق الأندلس :

ويتميز تدخل المرابطين في الشرق ، حيث : مرسية ودانية وبلنسية ولرطوشة ثم سرقسطة بالصعوبة الشديدة ، مقارنة بسهولة استجواهم على اقاليم الغرب . ويمكن تفسير ذلك بأنه رغم وطأة الضغط المسيحي على الشرق ، فإن ما حققته حرب الاسترداد من نجاح هناك كان أقل كثيرا مما تحقق في الغرب . ولا شك أن بدء المقاومة المسيحية ، في مناطق ليون واشتوريش وغاليسيا في الركن الشمالي الغربي من أيبيريا ، حول مركزي شنت ياقب ( سنتياجو دي كومبوستيلو ) وافيدو ( Oviedo ) ، سهّل استرجاع الأراضي الغربية الموازية لساحل المحيط الأطلنطي من الشمال الى الجنوب ، حيث غابت الأساطيل الاسلامية عن تلك السواحل التي صارت مسرحا لمراكب المجوس ( النورمان ) منذ القرن الثالث الهجري ( ٩ م ) قبل أن تصبح المياه الاقليمية فيها ، منذ القرن السادس الهجري ( ١٢ م ) ، ممرا عموميا لمراكب الفرنسيين والانجليز الصليبية ، الذاهبة الى شرق المتوسط ، والتي كانت تمتد يد العون لصليبية الاسترداد الاسبانية . وهذا مما يسر نزول النفر الأدنى جنوبا بغرب الى حدود لشبونة شنترين ( ما بعد ، ص ٣٦٩ ) .

وعلى العكس من ذلك كان الوجود الاسلامي في الجزر الشرقية ( ميورقة : البليار ) بصفة خاصة ، الى جانب الوجود الاسلامي في صقلية وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا ( البروفانس والالب ) ، من العوامل التي ساعدت على ثبات المسلمين في شرق الأندلس ، مقابل : دانية وشاطبة وبلنسية ، وعلى بقاء النفر الأعلى شمالا في سرقسطة وأعمالها ، بحيث صارت الحدود الاسلامية تسير من الشمال : جنوبا بغرب ، من سرقسطة ( النفر الأعلى ) ، الى طليطلة ( النفر الأوسط ) الى بطليوس النفر الأدنى الذي لم يلبث أن انزلق ، بعد سقوط طليطلة ( النفر الأوسط ) ، سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م الى قلعة رباح ( أقصى تفور قرطبة ) ، الأمر الذي كان يسمح في قرننا ( ٥ هـ / ١١ م ) هذا ، بغارات مسيحية تهدد الأراضي الاسلامية الى طريفة ، على شاطئ المجاز ( ما سبق ، ص ٢٨٥ ) حتى قدرت الأراضي المسيحية بـ ٧/٨ ( سبعة أثمان ) مساحة إيبيرية ، مقابل الـ ١/٨

» الثمن ) فقط للمسلمين عندما فكر المرابطون فى الجواز الى الأندلس  
( ما سبق ، ص ٣٠٠ ، والحلل ، ص ٤٩ ) .

وهكذا اذا كان يوم الزلاقة قد جدد الأمل فى رفق فتق طليطلة ،  
وتهدين الغرب فى اشبيلية وبطليوس ، فان ما وقع فى لبيب (Alédo)  
غداة الزلاقة كان معنى خرقا جديدا قد ظهر فى اشرق ، فى مرسية التى  
سُرجت على أمير المسلمين ، وفى بلنسية التى أرسل اليها ابن تاشفين ٤  
( أربعة ) آلاف فارس من المرابطين ( ما سبق ، ص ٢٢٤ ) . وبذلك يكون  
المرابطون قد انغمسوا فى مشاكل الشرق قبل غزوهم للغرب ، اذا لم تكن  
مسألة لبيب الشرقية هى السبب المباشر للقضاء على أمراء الأندلس فى  
الغرب .

والظاهر أن هذا التدخل المبكر من قبل المرابطين فى شئون شرق  
الأندلس ، كان السبب فيما يظهر لدى بعض الكتاب من اختلاط الروايات  
المتعلقة بفتح الشرق ، بتلك التى تتعلق بغزو الغرب السابقة عليها ، مما  
كراه فى محاولة رسم الخطوط العريضة لمضجوع اقليم الشرق لسلطان  
المرابطين . وهنا لا بأس من الإشارة الى أن اختلاط الروايات هو الصدى  
الطبيعى لاضطراب الأحوال .

فالذى يفهم من رواية ابن الأثير أن فتح المرابطين لاقليم شرق الأندلس  
جميعا ، من مرسية الى دانية وشاطبة وبلنسية ، قد تم دفعة واحدة بمعرفة  
سير بن أبى بكر ، وكأنه تكلمة لفتوحه فى الوسط والغرب ، خلال العبور  
لثالث ليوسف بن تاشفين ، وأنه كان فى السنة الثانية لذلك العبور وهى  
سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م أى مع غزو اشبيلية وبطليوس (٦٨ م) . أما النويرى  
الذى يشارك بن الأثير نفس المصدر ، فهو عند نهاية ملوك الطوائف ، وحيث  
يذكر نهاية غرناطة ، يقول : «واقترضت جميع هذه الدول ، وصارت الأندلس  
جميعها للمسلمين ، على ما نذكره - ان شاء الله عز وجل - فى أيام أمير  
المسلمين : يوسف بن تاشفين» (٦٩) . ولكنه فى ملك أمير المسلمين لجزيرة  
الأندلس لا يشير الى شرق الأندلس ، ولا يقول فى نهايتها الا : « وتتابعت

(٦٨) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ .

(٦٩) النويرى ، أبو شبيب ، ص ١٧٢ - حاشى النص على فتح غرناطة سنة ٤٨٤هـ /  
١٠٩٢م بدلا من ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م .

الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين ١٠٠ وفتح في بلاد الفرنج فتوحا كثيرا (٧٠) . ولما كان صاحب الحلل الموشية قد أعرض عن تفصيل غزو المرابطين لمالك الطوائف (٧١) ، لا يبقى لنا الا قرطاس ابن أبي زرع ، وعبر ابن خلدون الذي ينقل عنه ويضيف اليه ، مع محاولة ترتيب الأحداث ، وان تعرضت روايته الى التحريف مما يظهر في ترجمة دسلان (Du Slane) .

اخذ قبرة ومرسية : شعبان ٤٨٤ هـ / سبتمبر ١٠٩١ م :

وآخر ما عرفناه عن مرسية ، ثورتها التي أدت الى فشل حصار حصن لبيط حيث ثارت المدينة على يوسف بن تاشفين اثر مجاملته للمعمد بن عباد ، عندما امر سير بن أبي بكر بالقبض على ابن رشيق أمير مرسية وتسليمه بعد تنقيفه الى ابن عباد الذي سجنه في اشبيلية ( ما سبق ، ص ٣٢٣ ) . أما آخر ما عرفناه عن ابن رشيق ، فهو أنه كان وصيلة سير انذى أطلقه من السجن لكي يحيك مؤامرة سقوط قرطبة - نظير استعادته لمرسية ( ما سبق ، ص ٣٤٢ ) . ولما كان سقوط قرطبة قد تم في شهر رجب ، وتبعها سقوط مدينة « قبرة » في شهر شعبان بين أيدي المرابطين ، وذلك قبل قليل من سقوط مرسية في شهر شوال التالي ، بين يدى يوسف بن داود بن عائشة ، وكذلك أعمالها - حسبما ينص ابن أبي زرع (٧٢) . ولما كانت قبرة القرية من شرق قرطبة ، على بعد ٣٠ (ثلاثين) ميلا ، في منتصف الطريق المؤدى جنوبا بشرق من شقندة : صاحبة قرطبة الجنوبية الى البيرة المتاخمة لغرناطة ، من حيث يكون الطريق ، عبر بسطة ولورقة الى مرسية (٧٣) ، فبفضل الموقع الاستراتيجي لقبرة ما بين مرسية

(٧٠) النويرى ، أبو شبيب ، ص ٢٨٧ - حيث قرطبة واشبيلية والمرية وبطلبوس ، ص ٢٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٣٦ - ٢٧٠ .  
(٧١) الحلل ، ص ٧٣ - حيث النص على انه « كان ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم . والادلة على مالكم ، وليس هذا موضع التلصص » .  
(٧٢) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث اسم المدينة نبرة ، وهو تحريف لقبرة ، كما نرى . وذلك بصرف النظر عن اختلاف كل من المذكرات ( ص ٢٤٢ ) والقرطاس ( هنا ) في تحديد شهر سقوط قرطبة .  
(٧٣) أنظر الحيزرى ، ألروض الحكار ، ص ١٤٩ - حيث منطقة قبرة كثيرة الماء ، وجعلها غنى بشروب النواوير واسناف الأزاهر واجتناس الأفاقية والمقابر ، كما تحسن بها شروب الغراسات ويكثر الزيتون . أما سواها الجامع فيوم الخميس ، وأما مسجد الجاهل فله ٣ ( ثلاث ) بلاطات . وعن موقع قبره « أنظر عبد الله عنان ، الآثار الباقية ، الخريطة تمام ص ٦٦ » .

وقرطبة ، نرى أن يكون عبد الرحمن بن رشيق قد قام بدور مهم في دخوله مرسية في شعبان سنة ٨٤هـ / سبتمبر ١٠٩١ م ، في طاعة المرابطين ، مثلما دبر استسلام قرطبة خدعة بغير قتال . ولا بأس أن يكون ذلك مدعاه لما تنوله الرواية من أن القائد يوسف بن عائشة « كان عادلا ورعا فاجبه الناس » (٧٤) .

وهكذا عاد عبد الرحمن بن رشيق إلى رئاسة مرسية تحت رايات المرابطين ، ولا بأس أن يكون ما تقوله بعض الروايات من أنه دعا في الخطبة لأمير المسلمين « ما سبق » ( ص ٣٢٣ ) يعني بعد رئاسته الثانية هذه ، والتي استمرت إلى وفاته بمرسية سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ (٧٥) .

### دخول دانية وشاطبة :

وبعد أن قضى الجيش المرابطي في مرسية أشهر الشتاء الأخيرة من سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، خرج يوسف بن داود بن عائشة ، عندما تحسنت الأحوال الجوية في سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ليستكمل فتح الشق الأوسط من ساحل الشرق ، مما وراء مرسية ، حيث مدينتي دانية - دار صناعة الأسطول ، وقاعدة الغزو ، في جزر البحر الشرقي - وشاطبة (٧٦) . وكانت دانية قد آلت ، منذ رمضان سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ( عام طليطلة ) ، بعد العامرين : بنى مجاهد أصحاب الجزائر الشرقية ، إلى المنذر بن أحمد المقتدر بن هود صاحب طرطوشة (٧٧) ، فانتهزها منه ابن عائشة دون مقاومة . ومن دانية على الساحل سار ابن عائشة نحو الداخل غربا إلى شاطبة القريبة ، التي دخلها المرابطون دون قتال أيضا ، سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، بعد أن فر صاحبها ابن منقذر (٧٨) .

(٧٤) القوطاس ، ص ١٥٥ .

(٧٥) اللبيري ، أبو خليف ، ص ١٣٠ .

(٧٦) القوطاس ، ص ١٥٦ ، وعن دانية أنظر الفروض المطار ، ص ٧٦ - حيث النص على أن السفن واردة عليها ، وأن الأسطول كان يخرج منها إلى الغزو ، وبها ينشأ أكثرهم لأنها دار الشتاء ، ومن أهل جبلها في الجنوب كانت تظهر جبال يابسة تالفة جزر مبرقة - في البحر .

(٧٧) حسين مؤنس ، النشر الأمل في عصر المرابطين ، ص ١٤ .

(٧٨) القوطاس ، ص ١٥٦ - أما ما تقوله رواية ابن أبي زرع من أن ابن عائشة سار بعد ذلك إلى مدينة شقورة فذكر أنه تكرر لا داعي له - حيث أنه سبق النص على فتح شقورة مع بباسة وأبنة ، بعد فتح قرطبة ، وهو الأمر المنهول ابتداء ، من حيث أن شقورة كانت من أعمال جبلان ، كما نص المبري في الفروض المطار ( ما سبق ، ص ٢٤٣ وهـ ٤٣ ) .



## غزو بلنسية :

### نهاية القادر بن ذى النون :

وبعد شاطبة يأتي خضوع بلنسية للمرابطين في خريف سنة ٤٨٥ هـ / سبتمبر ١٠٩٢ م ، مكملا ( لصانفة ) ابن عائشة المظفرة . والحقيقة أن الأوضاع في بلنسية وقتئذ ، كانت أشبه بتلك التي عرفتها طليطلة قبيل سقوطها بين يدى الفونس السادس سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وذلك أننا لا نعرف شيئا عن مصير الحامية التي كان قد أرسلها يوسف بن تاشفين بعد طييط الى بلنسية للدفاع عنها ، والتي بلغت ٤ ( أربعة ) آلاف فارس ( ما سبق ، ص ٣٢٤ ) ، وهل كانت قد دخلت المدينة حفا ، أم أن مآلها كان المراقبة في غرناطة ، قاعدة المرابطين الصنهاجية ، حقيقة ! فالقادر بن ذى النون كان يملك بلنسية التي استبدلها ، بمعرفة الفونس السادس ، بطليطلة - بمعنى أنه كان أميرا تابعا ، وأن الحكم كان لعملاء الفونس السادس الذين كانوا يفرضون الضرائب والاتاوات على سائر أعمالها ( ٧٩ ) . والحقيقة أن منطقة بلنسية كانت واقعة تحت حماية السيد El Cid, El Campeador, Alvar Roderigo او ميوسيد ( Mio Cid ) الذي كان قد سخط عليه الفونس السادس ، فصار يعمل في شرق الأندلس لحساب بنى هود أصحاب سرقسطة والنفر الأعلى ( ٧٩ م ) ، الذي تجحوا في مد نفوذهم حتى دانية ( ٨٠ ) قبل أن يعمل ( السيد ) لحسابه الخاص . وكان أهل بلنسية ساخطين بطبيعة الحال على هذه الأوضاع ، كما فعل قبلهم أهل طليطلة ، بفضل تحريض أهل العلم والدين ، وكان على رأسهم قاضى

( ٧٩ ) ابن عذارى ، ص ٣١ - حيث النص على أن « التبيطور » ( التبيطور ) أخذ يبتغي بلنسية يجيب رعيها وينتقلها : حاضرة وبادية . وقد استضعف ابن ( حفيد ) ذو النون ، ملكها المقتنوم ، وانظر القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث النص على أنه كان بها ( بلنسية ) القادر بن ذى النون ، والحاكم فيها من التصارى يجبرون خراجها ، وقارن ميهور ، في ابن عذارى ، ج ٤ ( ملحق ٤ ) ، ص ١٤٧ - حيث النص على أن القادر بن ذى النون صادق الفونس ( الملقب ) ، وعاداف فقال أهل بلنسية أن يملكها ( الفونس ) كما ملك طليطلة .

( ٧٩ م ) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٦ - حيث النص على أن ابن هود كان يبيع لزريق وأصحابه ويقصده بالسلفة ، وأنه كان في شعبان سنة ٤٨٥ هـ / سبتمبر ١٠٩٢ م مستقرا بسرقسطة وقد استخلفت على أخصته المظفرة وضرائبه المقرضة ببلنسية ، فتتس مخنق عليها ، وانفجرت الشبهة عنها .

( ٨٠ ) حينئذ يؤمن ، ٢٢ لتمر الأعلى ، ص ١٣ - مع ملاحظة اضطراب بعض التواريخ .

المدينة الشهير : ابن جحاف ( أبو أحمد جعفر بن عبد الله ) الذى ينسب اليه حث المرابطين - عندهما وصولوا الى مرسية - على تقديم المعونة العسكرية لبليسية ، الأمر الذى يذكر بالمفاوضات الأولى مع المعتد قبل الزلافة ، مع الاستعداد للاعتراف بسيادة أمير المسلمين على المدينة وأعمالها(٨١) .

وهكذا تكون بليسية التى استقبلت - على دفعتين - عددا قليلا من رجال ابن عائشة لم يزد عددهم على ٣٠٠ ( ثلاثمائة ) (٨٢) ، قد دخلت طوعا فى النظام المرابطى بالأندلس ، ولم تفتح عنوة أو صلحا مثل غيرها من الممالك الغربية ، وإن كان القادر بن ذى النون قد دفع حياته ثمنا لذلك على يدى ابن جحاف الذى قبض عليه مختبئا فى بعض دور المدينة ، ليلة الجمعة ٧ رمضان ٤٨٥ هـ / ١٢ أكتوبر ١٠٩٢ م (٨٣) .

#### ابن جحاف رئيسا تحت الحصار :

وبالتخلص من ابن ذى النون آلت الرياسة الى ابن جحاف الذى حاول أن يعيد سيرة القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد فى اشبيلية ، فكان يجلس محاطا بالوزراء والفقهاء ، ويركب فى موكب من العبيد والجند ، فكانه ملكا جديدا من ملوك الطوائف(٨٤) ، لولا عودة السيد الكبيبادور الذى طالب بتركة القادر والنار له ، وأحاط المدينة برجاله فى محاولة لعزلها ، على أمل خروج فرسان المرابطين - بعد أن استنقلهم ابن جحاف - منها(٨٤) .

---

(٨١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٦ - حيث النص على انه كان الى جانب القاضي ابن جحاف ، فى الترحيب بمجيء اول دفعة من فرسان المرابطين صاحب الأحكام : ابن واجب ، وأمل المقد وأهل من أهل بليسية .

(٨٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٢ - حيث النص على ان قتل القادر بن ذى النون كان ثارا أو نوعا من القصاص للقتل الزعيم الطليطل أبى بكر بن الحديدي ، اذ تولاه فتي من أوليائه من بنى الحديدي ، وقارن ملحق ٤ ص ١٤٧ ( ليجول ) - حيث ذل القادر ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان / ٢٨ أكتوبر ويوبع ابن جحاف ( بالامارة ) فى صبيحة الثلاثاء نفسها ٢٤ رمضان / ٢٩ أكتوبر ، ودخل بعدها القصر لكى يستمتع بكل ما فيه من ذخائر ورياشير ومشاع .

(٨٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ - حيث النص على ان ابن جحاف استنقل المرابطين ، الأمر الذى سمح بمخالطة الكبيبادور اياه فى اخراجهم من المدينة - واستبداده ( ابن جحاف ) بالملك - الأمر الذى لم يكن فى مقدور ابن جحاف قبوله ، وقارن ملحق ٥ ( أعمال الاعلام ) -

ومن الواضح أن القوات المرابطية التي كانت تحت قيادة ابن عائشة ( يوسف ) كان قد أصابها الهزال والوهن بعد ما قامت به من جهد طوال « صائفتي » ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م و ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وعلى طول الجبهتين : الغربية والشرقية ، وعرضهما . فهذا ما يستشف من قلة عدد الحامية المكونة من ٣٠٠ ( ثلاثمائة ) فارس ، التي أرسلت الى بلنسية ، وأيضا على دفعتين . وإذا التمسنا العذر لعدم التقدم لمواجهة « السيد » في حينه ، بدخول فصل الحريف ثم الشتاء ، فإن عسدم الاقدام على مواجهته في السنة انتالية ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، بعد تحسن الأحوال الجوية ، يؤكد افتراض ما حل بجيش الشرق المرابطي من الضعف والتعب ، الأمر الذي جراً قوات الكونت ( القمط ) المغامر على احكام الحصار حول بلنسية وقطع الميرة عنها نهائيا ، والمحدد(٨٥) .

ولكن ما هو أغرب من ذلك هو عجز القوات الكبيرة التي تجمعت من كل بلاد الأندلس ، من مغاربة وصحراويين وبلديين ، في شاطبة بأمر يوسف بن تاشفين ، تحت قيادة الأمير أبي بكر بن ابراهيم اللمتوني ، عن مواجهة العدو الذي قسم جيشه الى فرقتين ( حتى تسهل له المناورة ) . الأمر الذي ربما أثار مخاوف القائد المرابطي ، الذي عاد ادراجه الى معسكره في شاطبة ، بعد ما كانت قواته قد أشرفت على بلنسية - وبذلك انقلب أمل الفرج عند المحاصرين وراء الأسوار الى يأس وقنوط من النجاة .

#### عودة السيد الى بلنسية :

وهكذا قدر لأهل بلنسية أن يقضوا مطلع سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ما بين هم القحط والجوع ، ويأس الرضا بالموت في المدينة ، الأمر الذي كان يضاعف حقد العدو وغضبه(٨٦) ، ففي أوائل السنة ، في ربيع الأول

---

ص ١٥٠ - حيث طالب الكامبيادور بما كان له من حق «الاطعمة» التي كانت له بحصون بلنسية وإن ابن جفاف رد عليه بأن البلد « لأمر المسلمين » . هنا ، ولو أن الرواية تقول بعد ذلك ان السيد الكامبيادور خدع ابن جفاف حتى أنه صرف اللمتونيين الذين استنقلهم ، كما شاق بمؤنتهم .

(٨٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٢ - ٣٤ .

(٨٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٣ - حيث النص على أنها زانت على أزمة طليطلة أضمانا ، إذ ملك أكثر الناس جوعا ، وأكلت الجلود والدواب ، وقارن الملحق (لجهول نشر بروفنسال) . ص ١٤٧ - حيث عرض لبعض ما ذكره ابن عذارة ( أبو العباس أحمد ) كشاهد عيان في =

٤٨٧ هـ / فبراير ١٠٩٤ م ، بلغ ثمن رطل القمح ١ر٥ مثقال والشعير ١ مثقال ، وأوقية الجبن ٣ ( ثلاثة ) مثاقيل ، وبيضة الدجاجة ٣ دراهم ، ورطل الجلد البقرى ٥ دراهم ، ورطل اللحم البغلي ٦ دنانير (٨٧) .

وفى جمادى الأولى علمت الأقوات وهلك الناس واستحكم الوباء ، ولم يبق حيا من دواب الركوب الا ٤ ( أربع ) : اثنتان للقاضي الرئيس ابن جحاف وابنه ، واثنتان لابن الربرير ( الربرير ) : قائد جماعة المرتزقة من المسيحيين . ولقد ثمن فرس ابن الربرير بـ ٢٠٠ ( مائتي ) دينار دفعها له الجزارون الذين باعوا الرطل من لحمه بعشرة دنانير ، بينما بيع رأس الفرس بـ ١٥ ( خمسة عشر ) ديناراً .

وامام تفاقم الأزمة ، واليأس من وساطة محتملة من ابن هود ( صاحب سرقسطة ) أو نجدة تأتي من مرسية ( حيث المرابطون ) انتهى الأمر باستسلام القاضي ابن جحاف بالأمان ، على أن يحتفظ بمنصبه كقاض للمدينة التي تتفق على أن يقدم ابن عديس مشرفاً لها ، على أن تكون أبوابها بيده للمستعربة ( المسيحيين ) من أهلها . وفى آخر جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١١ يونيه ١٠٩٤ م خرج القاضي ابن جحاف لاستقبال السيد الكمبيادور (٨٨) ، الذى ظهر بمظهر السياسى الرشيد حتى انتشطت الأنفس ، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس (٨٩) ، بينما كان على أهل دانية وأعمالها أن يقاسوا من الغارات التي أخذ يشنها « السيد » على بلادهم .

---

« تاريخه عن حصار تلنسبة هذا - حيث شاق الكمبيادور المدينة لحصرها ونصب عليها المجانيق حتى عجم الناس الطعام وأكلوا الفئران والكلاب والجياث إل أن أكل الناس الناس . الأمر الذى يمكن أن يكون قد استفاد منه ابن خلدون فى وصف حصار تلمسان بمصرفة الرنينين سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م .

(٨٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٨ . وعن حصار تلمسان سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، انظر ابن خلدون ج ٦ ص ٩٥-٩٦ - حيث قائمة الأسعار فى المدينة التي كانت تنامي من الجوع أثناء الحصار كالآتي : بعد لحم الجيف : رطل لحم البغال ولحمير ١ر٨ مثقال ، رطل لحم البغل ١٠ دراهم ، ثم الجلد البقرى ميتة أو مذكى ٣٠ درهما ٠٠٠ الخ من الحنظل والفاكهة والأدم . (٨٨) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٦ - حيث النص على أن قائمة الأسعار فى يوم ١٥ من هذا الشهر كانت كالآتي : رطل القمح : ٣ مثاقيل ، الشعير : ٥ر٥ مثقال ، أوقية الجبن : ١٠ دراهم ، بيضة الدجاجة : ٨ دراهم . (٨٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٤ .

### أمير المسلمين يعود بنفسه للإشراف على العمليات الحربية :

وأمام استعصاخ الناس لأمير المسلمين وهو بمراكش من أجل انقاذ الشرق ، كما سبق له تهديد الغرب ، قرر أن يماود الكرة . وانتقل يوسف ابن تاشفين فعلا من مراكش الى سببته التي صارت مرة أخرى قاعدة العمليات الحربية في الأندلس ، حيث حشدت بها الجيوش من أجناد نظامية ، وقبائل متطوعة ، وعهد بقيادتها الى الأمير أبي عبد الله محمد بن تاشفين ( ابن أخيه لأمه ) وعاونوه كقائد ثان ابن أخيه الآخر : أبو بكر ( ابن أخيه لأمه أيضا وابن عمه في نفس الوقت ) .

وكان عبور هذا الجيش الذي تكون من ٤ ( أربعة ) آلاف فارس وما يقدر بأكثر من ضعفهم من الرجالة في شهر رمضان ٤٨٧ هـ / سبتمبر ١٠٩٤ م ، على أن يلحق بهم على مشارف بلنسية قوات غرناطة بقيادة الوالي اللطوني ، وشنتيرة حيث بنو رزين المغاربة أيضا ، وكذلك الأمر بالنسبة للشنياطي : المحارب الشجاع الذي كان من أصل اشقة من قواد الحصون بالشرف الأعلى (٩٠) . وإلى جانب القوات أقبلت قوافل التموين تترى من كل البلاد على مشارف بلنسية ، حيث تضخم المعسكر فصار كالمدينة المظيطة أو البحر المحيط (٩١) ولكن السيد انكبيادور الذي كان قد خبر المرابطين في السنة الماضية ، لم يرعه ذلك الجمع ولا عبأ به . ويصفته عازفا بأحوال البلاد والعباد ، اكتفى بأن يطرد من بلنسية ، نحوهم : « الضعفة من النساء والولدان » الذين تلقفهم ضعفة النفوس من السودان والسفلة من سياس الدواب ، ومن الباعة بأعمال الفسق والفجور ، الأمر الذي أثار الاضطراب في المعسكر ، وأدى الى افتقاد النظام والضغط ، مما انتهى الى اختلال الجيش ، وبالتالي الانسحاب الى دانية - وبذلك صبح ما توقعه « السيد » ، وكأنه صار خبيرا في شئون المسلمين .

---

(٩٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ ، وانظر ص ٤٠ - حيث النص على أنه في نفس الوقت ( رمضان - شوال ) كانت محلة الأمير محمد بن تاشفين ( ابن أخي أمير المسلمين ) تستقبل الى جانب الممالك المغربية والصحرانية ، جميع عساكر الأندلس والشرف الأعلى ، من قبل : تأييد الدولة ( لاردة ) وسند الدولة ( طرطوشة ) وحسام الدولة ( شنتيرة ) ونظام الدولة ( البونيت ) والقيطاني ( الشرف ) وابن ياسين ( شرب ) وابن يملول ( حسن الأشرف ) ، وهو الجمع الذي جعل العساري للمسلمين يتصنون ( بدارون ) لأن كان بالمدينة من المسلمين . ومن الواضح أن في ذلك خلط مع أحداث فتح بلنسية سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، التي سيؤدى الى فتح المرابطين لسرقسطة بعد ذلك .

(٩١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ .

والهم أن الموقف ازداد سوءا بوصول الفونس السادس الذي كان قد استجاشه السيد ، إذ أصبح الجيش الإسلامي الكبير صيدا سهلا للمال بالنسبة لرجل الريكونستا (١٢) . فالكامبيادور ( السيد ) كان يستطيع أن يخذل الأمير محمد بن تاشفين بسهولة ، فيخرجه من المعسكر ( المحلة ) ليخلو له الجو لنهبه ، وسد حاجاته منه (٩٢ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونسو السادس ، فاكسح جيشه وادي آش من نظر غرناطة ( مقر صنهاجة ) لكي يعود من هناك وبصحبته جماعات من المستعربة لعمارة أرض طليطلة . ورغم غضب يوسف بن تاشفين لما حدث ، وسخطه على ابن أخيه الهزيل ، فلم يكن يوسع الا قبول الأمر الواقع ، والعمل على التثبيت بشاطبة ، وقطع الطريق على بلنسية التي كان على أهلها أن يعانون حصار اخوتهم المسلمين - « فكانت همدنة على دخن » (٩٣) .

#### « السيد الكامبيادور » أمير بلنسية : التخلص من ابن جحاف : والصمود أمام المرابطين :

وهكذا انتهت الجولة الأولى من أجل السيطرة على بلنسية بانتصار للسيد على المرابطين ، وغلبته التامة على المدينة ، فكانه أمير جديد من رؤساء الطوائف ، وذلك عندما تخلص من القاضي ابن جحاف ، ليس بالقتل ثارا للمقادير بن ذي النون ، بل حرقا بالنار في مأساة فريدة من مآسي عصور انحطاط المسلمين في أسبانيا (٩٤) ، تلتها مأساة أهل بلنسية الذين كان عليهم أن يعانون بعد ذلك حصار المرابطين - بعد نزع سلاحهم .

---

(٩١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦ - حيث اختيار ما حدث تقريبا مكتوبا يلتصق له «القدر ، سواء من ضعف الرجال أو من خور محمد بن تاشفين ( ابن أخي أمير المسلمين لاه ) ، الأمر الذي لم يتطلب من العدو استخدام السيف أو إراقته للدم .  
(٩٢) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٠ - حيث استهلال شهر شوال وصلاة العيد بمنزل عطاء بساقية هواره . وإعلان السيد في ٨ شوال ٤٨٧ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٩٤ م أن ملك أرغون ( ابن ديمر ) آتاه مدحا ، وإيهام المرابطين أنه ( السيد ) خرج لنواشتهم ، وتمكنه من مفاجاته للمعسكر المرابطي ونهبه - فكانه تعلم درس يوسف ابن تاشفين في «الزلافة» .

(٩٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .  
(٩٤) عن نهاية ابن جحاف في بلنسية وتعرضه لوحدة من عمليات التنقيب بالنار =

ففى شهر شعبان ٤٨٨ هـ/أغسطس ١٠٩٥ م ، عندما نحسنت الأحوال الجوية وأتت الأنباء بيسير المسلمين من مرسية نحو بلنسية ، كان على أهل المدينة أن يتخلصوا تحت التهديد بالقتل ، من كل ما لديهم من الآلات الحديدية ، فسلموا كل ما لديهم مما يمت للحديد بصلة ، حتى الابواب والمسامير - على باب القصر ( القلعة ) . كما كان عليهم أن يعرضوا بعد ذلك فى ساحة القصر للتمييز . ولما كان الضعفاء والفقراء قد طردوا قبل ذلك فى حادثة اضطراب المسكر الاسلامي ، فانه تم فى هذه المرة طرد من يخشى بأسهم من ذوى القوة والهمة ، وربما بلغ الأمر الى حد قتلهم ، اذا أقيمت ماتم العزاء فى دورهم وبين أهليهم . وبذلك لم يبق فى بلنسية من المسلمين الا التيسرين الذين أخضعوا بعد مساومات من اليهودى وزير السيد الكمبيادور ه الى جباية بلغت ٢٠٠ ( مائتى ) ألف دينار ( مئتا ) ، جمعت تحت التهديد من قبل نواب الجباية ، من : الموكلين والمتصرفين وأصحاب الرسوم ، كما كان على أهل المدينة بعد ذلك جر القطع البحرية من الماء الى البر - خشية أن تفاجئهم مراكب المسلمين فتستولى عليها ، وتحكم الحصار من جهة البحر أيضا - كما نظن(٩٥) .

#### فتح بلنسية : وجب ٤٩٥ هـ/ابريل ١١٠١ م :

والمهم أن صمود بلنسية أمام محاولات استرجاع المرابطين استمر تحت حكم « السيد الكمبيادور » لمدة تزيد على ٨ ( ثمانى ) سنوات ، وذلك أن استخلاصها لم يتم على يدى القائد مزدلى الا فى مطلع شهر رجب من سنة ٤٩٥ هـ/أواخر ابريل ١١٠٢ م . واذا كنا نفتقد أحداث تلك الفترة بانقضاء الجزء من بيان ابن عذارى الخاص بالمرابطين ، فانه من حسن الحظ أنه بقيت لنا منه القطعة الخاصة باستعادة بلنسية ، وإن كانت فى حالة رثة . والذى يفهم منها أن المدينة كانت تثنى وتقتنذ تحت وطأة الحصار المرابطى - لا فرق فى ذلك بين المسيحيين ، ومن كان قدر له البقاء فيها من المسلمين - بعد أكثر من سنتين من وفاة السيد « الكمبيادور » (ت ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م) ،

= التنبيه ، التى تذكر بمصلحة السمل بالحديد الحمى - حيث وضع الرجل قائما فى ساحة وأوقد الحطب حوله فى محاولة لا يجاربه على الاقرار بما كان لديه من ذخائر القادرين ذى النون ، وشجاعة القاضي البلسى الذى كان كل همه أن يحكم بلنسية بمعونة المسلمين أو النصارى ، وكفى أنه يطلب الشهادة وهو يضم ما تحصل اليه يده من الحطب المشتل الى جسمه . انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨ ، والملحق رقم ٥ ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٩٥) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠ .

يفضل اصرار زوجته وخليفته « شيمين » التي استنجدت بملك قشتالة  
انفونس السادس(١٦) .

والظاهر أن الفونس كان قد قرر أن يضع حدا لتلك المطاولة المدة  
بين المسلمين والمسيحيين ، بأن يتم الجلاء عن بلنسية ، فصار هذه المرة  
بجيش أكثر عددا ( اخشن ) من المعتاد ، مما دعا مزدل الى أن يتسرع له  
الطريق الى المدينة ، بينما يعود هو الى معسكره في قليرة . ومن الواضح  
أن الفونس السادس كان يرغب في اجلاء المسيحيين من بلنسية ، كما  
سبق أن أجلى أهل ليبيط(١٧) . ولكنه أمام إلحاح أهل المدينة المسيحيين ، قرر  
أن يستكشف بنفسه القوة الحقيقية للمرابطين على مشارف بلنسية فخرج  
بجيشه نحو الأمير مزدل بقليرة . وعندما تواجه الجيشان وعابن الفونس  
كثرة كتائب خصمه وحسن كفاحها في القتال ، انتهر فرصة غروب الشمس  
لكي ينسل من ميدان المعركة ، عائدا أدراجه نحو بلنسية ، وقد قرر ترتيب  
الجلاء عنها ، ولكن بعد تحريقها بالنار . وبذلك دخل مزدل بلنسية ، مدينة  
الاطلال في شهر رجب ٤٩٥ هـ /مايه - يونيه ١١٠٢ م - بعد ثمانية أعوام  
وشهر ونصف(١٨) . وتم إخطار أمير المسلمين في مراكش بذلك الفتح

---

(١٦) البيان ، ٤ ص ٤١ - حيث يتضح مما بقى من الرواية أن القائد مزدل كان  
قد ضرب معسكره في بلدة قليرة : *Cañada* : قليرة أصلا ) جنوب بلنسية ، من حيث  
كان يقوم بالفارات على بلنسية ، ما بين الحين والآخر ، وانه في مطلع سنة ٤٩٣ هـ /نوفمبر  
١٠٩٨ م ، وربما بسبب ضعف ردود الليل من جانب أرملة « السيد » قرر مزدل أن يستكشف  
حقيقة الموقف ، لتتقدم بمعسكره الى قرب بلنسية الأمر الذي دعا الى طلب العجدة من الفونس .  
وانظر دوزي ، تاريخ المسلمين بالأندلس ، بالفرنسية ، ج ٣ ص ١٥٣ ، وقارن اشباح  
( يوسف ) ، المرابطون والموحدون ، ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ - حيث سقوط بلنسية بين أيدي  
السيد (ص ١١٤) ، واسترجاع المسلمين لها بعد ٣ ( ثلاث ) سنوات من وفاته (ص ١١٥) ،  
محمد عبد الله عثمان ، الطوائف ، (ص ٣٦٨) - حيث حصار بلنسية في أواخر سنة ٤٨٨ هـ /  
ديسمبر ١٠٩٥ م ، وعدم تمكن المرابطين من دخول المدينة الا في شبان سنة ٤٩٥ هـ /١١٠٢ م ،  
وأيضا ص ٤٠٠ - حيث استيلاء السيد على بلنسية في ١٠٩٤ م ، ودخول الفونس إليها بعد  
استغاثة أرملة السيد في مارس ١١٠٢ م واسترجاع المرابطين لها في مايه ١١٠٢ م /جمادى  
٤٩٥ هـ .

(١٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص : « لاقام الأدفونش ببلنسية نحو شهر  
والروم تزومة على التمسك بها ويرغبونه فيها ، ويهتدون عليه أمر جيوش المسلمين ، وعن  
ليبيط انظر ما سبق ، ص ٣٧٤ .

(١٨) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على إضرام النار في الجامع والقصر  
وبعض الدور ، وقارن ابن بسام ، النخبة - حيث أخذ بلنسية في شهر رمضان من نفس  
السنة .



السعيد (١٩) .

ومن المهم الاشارة الى ان القائد مزدلي لم يبق في بلنسية الا حوالى ٤ ( اربعة ) اشهر انتهت بان حل محله في ولايتها ، في مستهل ذى الحجة ( ٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م ) ، القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة - والظاهر أن تنحية مزدلي عن قيادة بلنسية يعنى تغيرا فى طبيعة العلاقة بين يوسف بن تاشفين وبين أمير سرقسطة وقتئذ المستعين ابن هود . وذلك ان ابن فاطمة كان عليه أن يترك كرسى اماره بلنسية ، نيابة لأحد قواده ، وأن يسير الى سرقسطة على رأس ١٥٠٠ ( ألف وخمسمائة ) فارس ، بناء على طلب للمساعدة ضد الاسبان فى الثغر الأعلى ، كان قد تقدم به ابن هود ، ليدخل سرقسطة فى ١٢ من ذى الحجة / ٢٧ سبتمبر ( ثانى أيام الاضحى ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ) . وبهذا يكون ابن هود قد انتهج سياسة مدارة أمير المسلمين ، جازره الجديد فى الجنوب ، على حساب جيرانه الاسبان فى الثغر ، وعلى رأسهم الفونس السادس ( ١٠٠٠ ) . وهكذا تكون ولاية سرقسطة قد بدأت مرحلة الدخول الجدى فى طاعة المرابطين ، وبذلك تكتمل وحدة المسلمين فى شرق الأندلس وفى الغرب ، وتحت رايات أمير المسلمين .

#### اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة المرابطية فى الأندلس :

بدخول سرقسطة والثغر الأعلى فى الطاعة المباشرة للمرابطين ، تكون بلاد المسلمين فى الأندلس جميعا ، قد توجت فى أواخر سنة ٤٩٥ هـ / سبتمبر ١١٠٢ م تحت رايات يوسف بن تاشفين الذى كان يدبر شئونها من مراكش منذ عودته من العبور الثالث سنة ٤٨٤ هـ / ١١٠٢ م . وهكذا

---

(٩٩) القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث قطع واية ابن ابي زرع فتح بلنسية ( خطأ ) فى سنة ٤٨٥ هـ ، مع النص على فرار القادر من ذى النون ، وأخوانه المسيحيين من جباله الفرائب ، ودخول القائد ابن عائشة ( خطأ ) المدينة ، فكان فتح بلنسية هذا من توابع الجواز الثالث لأمير المسلمين . أما عن اختار أمير المسلمين فهو الأمر المقبول . أما عن فتح المرابطين لمدينة « أفراغ » من بلاد شرق الأندلس فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م فالتالى ، فاعلم القن ان هذا سوف يحدث فيما بعد ، على عهد على بن يوسف ، ضمن الصراع وقتئذ بين المرابطين وبين أصحاب الريكونتسكا فى الثغر الأعلى .

(١٠٠) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على ان ابن فاطمة ولى بلنسية فى مستهل ذى الحجة ، وأنه استتاب ونهض الى سرقسطة ، لما وصل ولد ابن هود من العودة بكتاب من أمير المسلمين .

كان أمير المسلمين يمكنه الاطمئنان الى استقرار الأمور في الأندلس ، ويعمل بالتالى على أن يستكمل ذلك بالاطمئنان على مصير الدولة المرابطية بعده ، عن طريق تعيين ابنه أبى الحسن على بن يوسف وليا لعهد ، وهذا ما كان قد حسمه فعلا في مراكش ، فى ذات السنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، حسبما يرد فى الكتاب الرسمى لولاية العهد (١٠١) . وبسبب الأهمية الخاصة التى اكتسبتها أخبار الأندلس ، رأى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وله الحق فى ذلك ، أن يقوم بجسوازه الرابع الى الأندلس فى سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م (١٠٢) ، ليس بهدف الفتح والجهاد هذه المرة ، بل من أجل القيام بجولة تفقدية فى البلاد بصحبة ولديه أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على الذى كان أصغر سنا من أخيه تميم (١٠٣) .

وفى ذلك ينص الخطاب الرسمى الخاص بولاية عهد الأمير على بن يوسف ، على أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وجد تعيين خليفة له من واجباته الدينية ، بصفته راعى عباد الله المؤمنين . وفى ذلك رحمة بهم وتأكيد لوحدة الجماعة والائتلاف فيما بينهم . أما عن تبرير اختيار على بعده فلأنه الرجل المناسب ، وهو الأمر الذى يقره أهل الرأى على القرب والناى (١٠٤) .

والمهم أن غرناطة التى عهد بولايتها الى القائد على بن الحجاج ، الذى تجمع حوله قواد المرابطين وكبار رجالاتهم الى جانب رؤساء الأندلس ، كانت موضع بيعة الأمير على بن يوسف بولاية العهد ، حيث قام هؤلاء الأعيان من مغاربة وأندلسيين ، فى حضور أمير المسلمين بالبيعة لولى العهد برئاسة الدولة بعد والده (١٠٥) . فكان غرناطة الأندلس أصبحت قرينة العاصمة

(١٠٦) أنظر الحلل المشوية ، ص ٨٠ ، وأنظر أيضا ص ٧٩ وهـ ٦٨ - حيث يورد ابن الخطيب فى الإحاطة نصا آخر لولاية العهد كتيبه محمد بن سليمان ( ابن القصيرة ) بقرطبة ، وهو مؤرخ بنى الحجة ٤٩٦ هـ / سبتمبر ١١٠٣ م .  
(١٠٧) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث وسم هذا العبور من حفرة مراكش بإولاج الى الأندلس ... الرسوم بالانوار الجليلة .  
(١٠٨) أنظر الحلل المشوية ، ص ٧٧ - حيث تبرير تفضيل الأمير على الأصغر سنا ، واذا يقول شعراء الأندلس :

وإن كان فى الأسنان يحسب نائلا      على ففى المليساء يحسب أولا  
كذلكم الأبدى سواء بناتهما      وتختص فيهن الغنصر بالخلا

(١٠٩) الحلل المشوية ، ص ٧٩ .

(١١٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

الرسمية للدولة المرابطية مراكش ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، ذلك التقليد الذى أخذ به منظروا النظم الاسلامية ، اعتمادا على الأمر الواقع الذى يقضى بأن مكان البيعة بالخلافة عادة ما يكون البلد الذى يتوفى فيه الامام (١٠٦) ، والذى عادة ما يكون العاصمة . واذا صحت هذه المفولة تكون الأندلس قد أكملت غلبتها المضارية على المغرب بالغلبة السياسية - وهو الأمر المقبول على كل حال .

وهنا كان لسرقسطة والثغر الأعلى تحت قيادة بنى هود ، دورهما فى دفع رايات الأندلس عالية فى حفل تنصيب على بن يوسف وليا للعهد ، اذ وجه المستعين : أحمد بن هود ، ابنه عماد الدولة عبد الملك الى ( غرناطة ) بهدية ثمينة ، منها مجموعة من الأواني الفضية المنتقاة من ذخائر قصره بـ « رولة » والمنقوشة باسمه ، والتي رأى يوسف بن تاشفين أن تحول الى قطع من النقود الصغيرة برسم الاحتفال الأميرى . وفلا ضربت أواني الفضة « اليهودية » الى قراريط نقدية ، وفرفت فى قواد المرابطين بمناسبة عقد ولاية العهد للأمير على بن يوسف ، وذلك فى ليلة عيد النحر من سنة ٤٩٦ هـ / ١٤ سبتمبر ١١٠٣ م ، وكان كاتب العهد الوزير أبابكر بن القصيرة ، بينما كان ضيف الشرف ولّى عهد الثغر الأعلى عماد الدولة : عبد الملك بن المستعين (١٠٧) .

### العودة الى مراكش ونهاية يوسف بن تاشفين :

بعد أن تآكلت البيعة بولاية العهد للأمير على بن يوسف بن تاشفين فى غرناطة ، فى أواخر سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، كان دخسول اقطاع بنى وزين فى كورة شنتبرية (Santaver) من الثغر الأوسط بعد ذلك ، أى فى السنة التالية ٤٩٧ هـ / ٤ - ١١٠٣ م ، فى طاعة المرابطين اثر وفاة يحيى بن ( ذى الرياستين ) حسام الدولة بن هذيل بن عبد الملك بن خلف ، وأيلولة تلك الولاية الى يوسف بن تاشفين (١٠٨) . فقد أخذ أمير المسلمين

(١٠٦) الأحكام السلطانية للمواردى ، الفصل الأول ص ٤ .

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ - حيث صاحب رولة (Rueda) والثغر الأعلى . هو المتصد ياقه ( بدلا من المستعين ) - وحيث المسير بالهدية الى قرطبة ( بدلا من غرناطة ) ، وانظر هـ ٥ - حيث اسم الكاتب فى احاطة ابن الخطيب ، هو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور . بدلا من ابن القصيرة ) .

(١٠٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ والهوامش - حيث تعرف شنتبرية أيضا باسم « سهلة بنى رزين » نسبة الى أول المختزين بها وهو هذيل بن خلف بن رزين .

فى الحركة الى حضرة مراکش بعد أن اطيح إلى ضبط أحوال بلاد  
الأندلس (١٠١) التى تركها أمانة فى عنق ولى عهده على بن يوسف . وفى  
ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه خصص لضبط الأندلس ١٧٠٠٠  
( سبعة عشر ألف ) فارس من المرابطين ، يوزعون كآلاتي : ٧٠٠٠ ( سبعة  
آلاف ) لاشبيلية ، و ١٠٠٠ ( ألف ) لكل من قرطبة وغرناطة ، و ٤٠٠٠  
( أربعة آلاف ) للشرق ، والـ ٤٠٠٠ ( أربعة آلاف ) فارس الباقية توزع  
للمرابطة فى الثغور والحصون المصاحبة للحدود (١١٠) . ولا بأس أن كان يهود  
غرناطة ، أثرياء صاحبة اليسانة (Lucena) ، قد خضعوا لتلك الضريبة  
التي تتناسب مع يسارهم . فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن اليهود  
خضعوا لتلك الضريبة تحت التلويح بإدخالهم قسرا فى الاسلام فى سنة  
٥٠٠ هـ / ٧ - ١١٠٦ م التي كانت على الأبواب وهي سنة وفاة يوسف بن  
تاشفين الذى كان مريضا منذ سنتين ، ( وذلك اذا لم تتحقق نبوءة منسوبة  
اليهم ، تقرر ظهور نبي منهم فى تلك السنة ) (١١١) .

وإذا كان الأمر كذلك يمكن القول أن غرناطة كانت قد صارت مركز  
الحكومة المحلية أو النيابة فى الأندلس ، بمعنى أنها صارت منافسة لكل من  
قرطبة واشبيلية كمركز للحكومة ، كما أصبحت خزانة البلاد العامة حيث  
كانت اليسانة أهم مركز لتجمع الأثرياء من اليهود فى البلاد . أما اشبيلية  
حيث تمركز أكبر حامية مرابطية فتصبح بناية مركز القسيادة المرابطية  
العامة ، المسئولة عن حماية الثغور ، حيث القائد الأعلى ، وقتئذ : أبو محمد  
عبد الله بن فاطمة (١١٢) .

### الموقف فى شرق الأندلس :

والمهم أن أوضاع المرابطين اذا كانت قد استقرت فى الغرب ، فأن

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ .

١١٠ - الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

(١١١) انظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ - ٨١ ج . حيث النص على نسبة تلك النبوءة الى  
ابن مسرة بمعرفه أحد فقهاء قرطبة ، أو بناء على فتوى قاضى الجماعة : أبى عبد الله مسمر  
ابن أحمد الحلبي ، مع الإشارة الى أن القدوة فى ذلك كان يهوى عمال البحرين قديما ،  
الأمر الذى يسمح باعتبار الرواية من القصص الشعبي ( الفولكلور ) والذى كان يسمح من  
جهة أخرى بتفسير تلك القصة على أنها رمز لسيود استغلال الجالية اليهودية سواء فى المغرب  
أو فى الشرق - يحق أو يغير حق .  
(١١٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ .

موقفهم في الشرق كان هـا زاك غير أكيد رغم دخول منطقة الشرق الأعلى مرسقطة في دائرة نفوذهم . فمنطقة بلنسية قرينة طليطلة ، ظلت قلعة رغم استعادتها من خلفاء السيد الكمبيادور ، اذ ظلت واقعة في دائرة نفوذ طليطلة وصاحبها الفونس السادس ، الذي حصل لقب الامبراطور ، وان رفض لبس التاج حتى يأخذ قرطبة مما سبقت الاشارة ايه ( ص ) .

وعكذا ، وبينما كان يوسف بن تاشفين يعبر المضيق نحو العدو المغربية كان يصدر الأوامر الى واليه ( النائب ) على غرناطة الذي كان منصرفا من وداعه ، وهو أبو الحسن علي بن الحاج ، بالنفوس الى شرق الأندلس ، ويستحثه على سرعة المسير . فكان العملية العسكرية المنوطة بإبن الحاج كانت سرية مفاجئة ، تتفق مع « تكتيك » الكمان المروف عند البدو ، والذي كان يجيده أمير المسلمين . والمهم أن الرسالة الخطية لم تصل الى ابن الحاج الا وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ، من حيث توجه الى ما أمر به من سرعة المسير الى بلنسية . التي وصلها ابن الحاج في شهر صفر من سنة ٩٩٨ هـ / اكتوبر ١١٠٤ م . ولا بأس أن تكون مرابطة ابن الحاج في بلنسية قد أحييت ما كان يتوقعه أمير المسلمين من أعمال عدوانية أزفة من قبل العدو ، وذلك أن أول أعمال عدائية قام بها الفونس السادس لم تصل أخبارها الى بلنسية الا في شهر رمضان ، بعد أكثر من ٦٠ ( ستة ) أشهر ، وكان هدف هذا العدوان مدينة سالم ( مدينة الفرج ) من أعمال مرسقطة والشرق الأعلى .

ولم يتردد ابن الحاج في المسير للقاء الفونس السادس على رأس حملة قوية من المشاة والخيالة ، وعرج في طريقه على قلعة أيوب حيث استمد القائد الأعلى : أبا محمد عبد الله بن فاطمة ، الذي سار برجاله معونة له . والظاهر أن الملك القشتالي ترك منازل مدينة سالم عائدا الى طليطلة ، وذلك أن القائد المرابطين قررا اثر اجتماع بينهما ، متابعة العدو نحو طليطلة وغزو بلاده في حملة تاديبية رادعة . والذي يفهم من نص ابن عذاري المقطع الأول - للأسف - والخاص بتلك الحملة ، ان التكتيك الذي كان يتبعه طرفا النزاع في الأندلس وقتئذ ، من المرابطين والقشتاليين كان يبنى على مبدأ الفس والخذاع ، أي انتهاز الفرصة من العدو - الأمر الذي يعنى استثمار تكافؤ ميزان القوى بين الطرفين ، بمعنى استحالة تفوق طرف على الآخر الا اذا أحسن استخدام عنصر المفاجأة والتخفى ، وهذا ما كان يريجه الفونس السادس عندما ترك مدينة سالم ، وسار نحو طليطلة ، واتجه منها نحو طليطلة من حيث يكون الدخول الى الثغور الاسلامية لكل من مملكتي قرطبة

وبطليوس(١١٢ م) التي رأى الفونس أن ينقل إليها ميدان القتال . والمهم ان الحرب كانت تدور سجالا على طول الطريق ، فلم تتوقف المطاردة إلا عندما انتهت بعض الاشتباكات بوفاة قائد غرناطة : الأمير على بن الحاج ، الذي وجد ميتا بكامل سلاحه ودرعه ، لا أثر فيه لضربة واحدة ، فانقض اللقاء ، وعادت قوة غرناطة تحمل تابوت قائدها الأمير ، الذي دفن في تطيلة مدينة النغر الأعلى ، في قبلي جامعها أي في اتجاه القبلة(١١٣) .

### مرض يوسف والتطاول على القرب :

وبينما كان يدور هذا النزال الحفيف بين القوات المرابطية في الأندلس وبين خصومها من قوات العدو القشتالي ، في خلال سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، انتشر خبر مرض أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، وما كان يعانيه من آلام ذلك المرض ( الفالج ؟ ) الذي لا أمل في البرء منه - الأمر الذي شغل أهل الدولة ، وأثار القلق بينهم والشقاق(١١٣ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونس السادس لكي يماود فرض سلطانه على بلاد المسلمين . وبدأ بعملية جس نبض عسكرية في منطقة اشبيلية الفنية بخيراتها الزراعية ، اذ جاسها على رأس قوة بلغت حوالي ٣٥٠٠ ( ثلاثة آلاف وخمسمائة ) فارس ، هاجمت القرى في منطقة « متاطع » ، وعادت « بالمغانم الوفيرة والأسلاب الكبيرة » ، في وقت كانت تسود فيه المجاعة . ولكنه عندما خرج أمير اشبيلية الى بعض الحصون هناك ، انتظارا لمجيء الامداد من عسكر غرناطة الذين وافوه بقيادة الأمير أبي محمد بن الحاج ، « هرب جميع الكفرة » ، ولوا أمامهم فارين مهزومين ، وكانت فرصة انتهزها العسكر المرابطون لكي يشفى غليله منهم ، قتلوا واستلحاما حتى كادوا يستاصلون(١١٤) . ورغم ما تنص عليه الرواية من استئصال العدو ،

---

(١١٢ م) انظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ .

(١١٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث الإشادة بالأمير على بن الحاج ، الذي اشتهر اثر أبيه في تطمين الحق وانصاف المظلوم وتأمين الخائف ، وسد النفور ونكابة العدو . هذا كما كان أخشى الناس به أبو محمد عبد الله بن أسباط الذي نال به الأمال ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال .

(١١٣ م) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - حيث النص على خوض أهل الدولة في أمر مرضي أمير المسلمين ، فكانوا يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق .

(١١٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ - حيث النص على انه قتل منهم ١٥٠٠ لحد . في ذلك الوقت من سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م الذي كان يعم فيه التحط بلاد الأندلس والمغرب من الأمر الذي يبرر عنف البار من العدو القشتالي .

فالأظهر أن ابن الحاج دفع منصبه ثمنا لتلك المفاجأة غير السارة التي دبرها النونس السادس لمنطقة أشبيلية ، إذ أنه عزل في سنة ٤٩٩ هـ/٦-١١٠٥م التالية من ولاية غرناطة ، التي آلت إلى القسائد أبي بكر بن إبراهيم اللمتوني(١١٥) .

هذا ، وما لا شك فيه أنه ما زاد في كلب العدو الإسباني على بلاد المسلمين اعتبارا من سنة ٤٩٩ هـ/٦ - ١١٠٥ م ، هو بداية الحروب الصليبية ، التي كانت حملاتها البحرية المارة بسواحل الأندلس الغربية ، تغرم العون والمساندة للأسبان في حريهم ضد المسلمين ، فكان الريبكونكستا في الأندلس كانت الشرارة التي أشعلت الحروب الصليبية في المشرق البعيد(١١٦) .

والى جانب القحط ، ومرور الصليبيين بالمياه الإقليمية الغربية وتعمدهم على السواحل الإسلامية كانت علة أمير المسلمين تزداد عليه شمة ، الأمر الذي دعا إلى عودة الأمير تميم من شرق الأندلس وكذلك الأمر بالنسبة لولي العهد الأمير علي ، إلى مراكش العاصمة ، لالقاء نظرة الوداع الأخير ، على الوالد المجاهد الذي قضى أجله في مستهل سنة ٥٠٠ هـ/٢ سبتمبر ١١٠٦ م(١١٧) . وهكذا توفي أكبر مجاهدي مصر ، وأكثرهم ألفه مع ميادين القتال ، على سريريه ( أي رغم أنفه ) ، وهو على أوله في العدل والجد ، وفي نصرة الدين وعضد الإسلام ، وإظهار كلمته . ودفن بنصره بالحاضرة مراكش(١١٨) .

---

(١١٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، كما ينص ابن عذاري على عزل الفاضل ابن منظور عن قضاء أشبيلية بأمر من ولي العهد علي بن يوسف .  
(١١٦) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على خروج ٧٠ ( سبعين ) قطلة من البحر الغربي ( الأطلنطي ) ، قصعت بيت القدس ، ولكن « الريح فرقنها وأغرقتها ، فكفى الله المسلمين شرها » .

(١١٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على أنه في سنة ٥٠٠ هـ/٧ - ١١٠٦م استأنف الله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في يوم الاثنين مستهل ، شهر الحرام من السنة ، وقارن الحلال الموشية ، ص ٨٣ - حيث النص على أنه حضر موته ابنه : أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، مع من حضر من عترة الصنهاجية وأسرتة اللمتونية .  
(١١٨) الحلال ، ص ٨٣ .

### وفاة يوسف : نهاية مرحلة القوة المرابطة :

ب وفاة يوسف بن تاشفين تنتهى مرحلة القوة التى عرفتها الدولة المرابطة والفتوة ، وهى المرحلة الثانية فى حياة الدولة بعد مرحلة التنظيم والتأسيس ، وهى المرحلة الأولى لدولة الرباط ، والتى تبدأ بعبد الله بن ياسين وصاحبه الأمير يحيى بن إبراهيم ، وتنتهى بظهور يوسف بن تاشفين فى فتوح المغرب وتامسنا ، والتى تعتبر عهد تمدد الدولة المرابطة فى الأندلس وفتوتها . وذلك أن مرحلة حكم على بن يوسف انالية تعتبر عصر الذروة فى تاريخ الدولة المرابطة حيث تبدأ عملية التحضر والازدهار ، نذير التدهور والانحدار ، حيث تدخل الدولة والجماعة فى مرحلة الترف المؤذنة بفساد « العمران » ، كما يرى ابن خلدون بحق - وحيث تبدأ مرحلة المطاولة ( أو الصراع ) بين الدولة وبين خصومها الذين يتآمرون ضدها ويخططون للحلول مكانها(١١٩) .

والصورة المبجلة التى يرسها الكتاب ليوسف بن تاشفين ، تبرز فيه صفات الرجل المثالى ، الذى يمكن أن تقارن صفاته بصفات عمر بن الخطاب، مؤسس الدولة الإسلامية حقاً ، وواضع نظمها ، والمنظر لثقافتها . فيوسف : حسن السيرة ، خير ، عادل ، فاضل ، زكى ، فطن ، حاذق ، نبه ، زاهد ، عزيز النفس يأكل من عمل يده ، كثير الحسوف من الله ، ينيب الى الخير والصالح ، كاتم لسرّه ، مقبل على الصلاة ، كثير الدعاء ، والاستخارة ، محب لأهل العلم والدين والصالح ، متواضع كثير الحياء(١٢٠) .

أما عن صورته الطبيعية فلا نعرف عنها إلا أنه كان أسمر اللون نحيف القد معتدل القامة . أما عن القول بأنه لا يعرف العربية(١٢١) فربما كان المقصود به أصول اللغة ومعرفة الأدب والشعر .

أما عن أخباره ، فهو محب للفقو والصفح فى الذنوب(١٢٢) ، فأكثر

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، الباب ١ الفصل ١٨ - فى ان من عرائق الملك حصول الترف .

(١٢٠) انظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ ، الملل للرشية ، ص ٨١ - ٨٢ ، روض القرطاس ، ص ١٣٧ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ ، النويرى ( أبو شيبه ) ، ص ٣٩٠ .

(١٢١) انظر محمد الحلى ، تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥٨ .

(١٢٢) انظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث قصة الثلاثة رجال الذين تمنى أحدهم ١٠٠٠ دينار والثانى عملاً والثالث زوجة يوسف بن تاشفين التفزاوية ، وكيف أنه أحضرهم =



عقابه الاعتقال الطويل - الا من انتزى وشق العصا \* فالسيف حسم لانتشار الداء» (١٢٣) . كما كان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور اليهم ، ويقضى على نفسه بفتياهم ، تماما كما كان يفعل يحيى بن ابراهيم الجدلأى أول أمرائهم مع عبد الله بن ياسين المنظر الأول .

وفى هذا السياق يرى صاحب الحلل الموشية ، ان بلاد الأندلس اقامت فى مدته سميدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، بمد أن احيا الجهاد الذى كان قد انقطع بها منذ ٧٩ سنة - من مدة آل عامر . فقد قام أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما « ربهم الصحراء » نيتهم صالحة ، لم تقسدها الحضارة» (١٢٤) .

ومما يذكر لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين من الأعمال الخاصة بالأندلس ، عنايته الفائقة بمدينة العبور فى العدو المغربية وهى سبتة . فبعد أن استقرت أمور الأندلس بمد دخولها تحت المظلة المرابطية ، عهد يوسف بن تاشفين الى القاضى ابراهيم بن أحمد ببناء سور الميناء تأمينا لجواز القوات المرابطية وهى واردة الى الأندلس وصادرة عنها . وبعد ذلك بأعوام ، وفى سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م قرر أمير المسلمين ترميم مسجد سبتة الجامع وزيادة سمعته حتى يستوعب أعداد الجنود ، الوفيرة من الصابرين ، وحتى يلقى بدولته التى أصبحت امبراطورية عالمية عظيمة . فعلا قام القاضى محمد بن عيسى الذى عهد اليه بالاشراف على تلك المهمة فرمم الجامع وزاد مساحته من جهة الصحن شمالا حتى اشرف على البحر - الأمر الذى يظن معه أن صحن جامع سبتة على الأقل ، كان وقتئذ بارزا على البحر ، خارج السور» (١٢٥) .

هذا ، كما كان من شواهد سمادة عصره أن ديناره تبر ( أى خام ذهب خالص ) ، فى احدى صفحته :  
 « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .

= ولوى رغبة الأولين بينما ارسل الثالث الى زوجته التى تركته فى خيبة لمدة ايام يأكل مد نفس النظام ثم قالت له كل النساء شىء واحد . وأمرت له ببال وكسوة والملاحة .  
 (١٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ .  
 (١٢٤) الحلل الموشية ، ص ٨٢ .  
 (١٢٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٨ .

وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » .

وفى الدير : « ومن يتنح غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه » - الآية .

وفى الصفحة الأخرى : اسم أمير المؤمنين العباسي (١٢٦) . أما عنوان كتبه : فـ « من أمير المسلمين وناصر الدين » الى فلان (١٢٧) ، وهو اللقب الذى تقول الرواية انه حصل عليه من ديوان الخلافة ببغداد ، بعد انتصار الزلافة بالاندلس على عهد الخليفة أبى العباس : أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م ) (١٢٨) .

وأما ما توج به أعماله ، كما يرى محمد بن الخلف فى البيان الواضح ، فهو : « تولية الأمر فى حياته لابنه الأمير أبى الحسن ( على بن يوسف ) ، شىء العقل الرصين ، والرأى الحسن - قدس الله روحهما ، وبرضىهما (١٢٨) .

~~~~~

(١٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ - حيث النص على أن كتابة اسم يوسف بن تاشفين على السكة لأول مرة كان فى سنة ٤٧٣ - حيث يدل السكة على كل أرجاء المملكة ، وأيضا ص ١٢٧ - حيث تجديد السكة بمناسبة انتصار الزلافة ( ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) ، واتخاذ لقب أمير المسلمين ( وناصر الدين ) - حيث كلمة الآية بـ « وهو فى الآخرة من الحاسرين » ، ثم الأمير عبد الله العباسي ، وبعد ذلك « تاريخ ضربة وموضع سكته » ، وقارن حتى : فليبي ، تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ص ٦٤٥ - حيث الإشارة الى قيام الفونس الثامن ملك كاستيل ( قشتالة : ١١٥٨ - ١٢١٤ م ) بتقليد هذه النقود - حيث احفظ بالكتابة العربية إلا أنه طبق اللفظ على المقائد النصرانية ، فأورد لقبه هكذا : « أمير القنولقن ( الكاتوليكيين ) » واسم بابا روما جاء هكذا : « امام البيعة المسيحية » . وقد صدرت السكة باسم : الأب والابن والروح القدس ، اله واحد ، يدل الشهادة ، واستعملت الآية : « فمن آمن واعتمد يغفر الله له » وعن الآية : « ومن يتبع غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الحاسرين » ( البقرة ٧٩ ، ٢ ) . وقارن فيها سبق ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، وفيما بعد ، ص ٢٧١ - ٢٢٧ .

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وانظر عن النقود المرابطة ، مجموعة ولهم قازان ، المسكوكات الإسلامية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٦٦ ( عن دنانير الأميرين : أبو بكر بن عمر ، وإبراهيم بن شكر ) ، ص ٢٦٨ ( عن دنانير الأميرين : يوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف ) ، وانظر شكل ١٦ .

(١٢٨) النويرى ( أبو حنيفة ) ، ص ٣٩٠ - حيث النص على أن فقهاء المسلمين قالوا : « لا تجب ليوسف طاعة إلا بعهد من الخليفة » ، فأرسل قوما من أهله بهدية الى بغداد ، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالقرنج ، وأنه جاءه رسول من أمير المؤمنين المستنصر بالله بهدية وكتاب وتلميد خلع .

(١٢٩) الحلل المؤشبة ، ص ٨٣ - حيث النص على أن توليته لانه التى توصف بالنظر الجمل والرأى الاصيل كانت « مما سلى النفوس كل التسلبة ، وأطلقا نار الرزية » .



شكل رقم ١٦ - نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ،  
المسكوكات الإسلامية ، بيروت ١٩٨٤

وهكذا فإذا صحت مقارنة ولاية يوسف بن تاشفين بخلافة عمر بن الخطاب بصفتها رمز مرحلة التأسيس تصبح مقارنة عهد علي بن يوسف بخلافة عمر بن عبد العزيز من حيث ما كانت عهد العدل وسيادة الفضيلة .  
وهنا لا ندري ما إذا كان ما يورده ابن عشاري من خبر النجم المنظور الضوء ، ذي الذؤاية الطويلة ، الذي يسجل آخر أحداث سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ ، يمكن أن يرمز إلى البشارة ، بولاية علي بن يوسف في مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (١٣٠) .

(١٣٠) ابن عشاري ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، ولا بأس من الإشارة هنا إلى واحدة من المرائي المبهرة التي انشجعت على قبر يوسف بن تاشفين ، وهي قصيدة ، أبي بكر بن سواد ، التي يقول فيها ( ابن عشاري ، ج ٤ ص ٤٧ ) :

|                              |                           |
|------------------------------|---------------------------|
| ملك الملوك وما تركت لصالح    | هلا من النوى يشارك فيه    |
| يا يوسف ما أنت إلا يوسف      | والكل يعقوب بما نطويه     |
| اسمح أمير المؤمنين وناصر الـ | سدين الذي بنفوسنا نقدية   |
| في كل عام غزوة مبرورة        | تردى عديد الروم أو تغنيه  |
| ولقد ملكك بملك الدنيا وكم    | ملك الملوك الأمر بالتبويه |
| أنا الخجوعون منك مواسد       | حمت خصال الخلق أجمع فيه   |
| ومضى قد استرعى وعينه ابنه    | فأقام منهم حق مسترعيه     |
| وإذا ( علي ) كان وارت ملكه   | فالسهم ملقى في يدي ياربه  |

## الغصن السابع

على بن يوسف بن تاشفين

٥٥٠ هـ / ١١٠٦ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م

### خزوة العصر المرابطي : بداية الانحلال :

لم يكن من المستغرب أن يتحول تاريخ الدولة المرابطية عند الكتاب من مغاربة وأندلسيين الى تاريخ الأندلس فقط ، منذ بدأت عملية الانقراض المرابطي لتلك البلاد بعبور يوسف بن تاشفين لمضيق جبل طارق الى الجزيرة الخضراء ، وهو « الجواز » الذي تكرر على حياة ابن تاشفين لأربع مرات على مدى ١٦ ( ستة عشر ) عاما ، كان آخرها جواز سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ، بقصد تفقد أحوال بلاد المساحين في الأندلس ، وتأكيدا للعلاقة العضوية بين القطرين الإسباني والمغربي بتجديد ولاية العهد للأمير علي « ولد » أمير المسلمين يوسف ، في العدوة الأندلسية . ولا شك أن تجديد الاحتفال بولاية العهد بالأندلس يعنى اعترافا ضمنيًا من أمير المسلمين بالدور المتفوق الذي أصبحت تقوم به بلاد الأندلس في توجيه مسار الأحداث في الدولة المرابطية ، الأمر الذي كان يتمثل وقتئذ في هيمنة الكتاب أو الوزراء الأندلسيين على الشؤون الإدارية في الدولة التي أصبحت مقسمة بين هؤلاء الوزراء الأندلسيين وبين رجال الحرب من القواد ( الأمراء ) المرابطين . هذا ، بينما أصبح أمير المسلمين وكأنه الحكم الذي يقع على عاتقه تنظيم أداء كل من الطرفين ( الأندلسي والمغربي ) بما يحقق التوازن في أداء كل طرف منهما لدوره سواء في أمور الحكم والإدارة في الجانب الأندلسي أو في شؤون الحرب والمال في الجانب المرابطي .

وبطبيعة الحال كان للأندلسيين دورهم الحضاري المؤثر في ميادين الثقافة في مجالات الكتابة والأدب والشعر الى جانب مجالات الفن من العمارة والزخرفة ، وترتيب الأثاث والرياش ، وفي كل أسباب الحياة اليومية من التقاليد والعادات ، مما يتعلق بأحوال الطعام والشراب ، ومجالس الفرح والأنس والتسلية ، وهي الأمور التي جذبت انتباه المغاربة حتى تحول الكثير من المرابطين الملتزمين ، في مجالات الترف الى نوع من غلاة الأندلسيين من هواة الحياة الناعمة . والنموذج لهؤلاء هو حاكم سرقسطة

المرابطي : أبو بكر بن إبراهيم النذى بالغ فى تقليده لبنى هود ( أصحاب المدينة السابقين ) فى الشراب ولبس التاج ، وفى رعاية الفلاسفة ، كما فعل مع ابن باجه الفيلسوف « العلماني » ( المتحرر ) ، حسبما يقول دوزى<sup>(١)</sup> . الأمر الذى يؤكد مقولة ابن خلدون فى أن الحضارة بعلاماتها المميزة من الترف والأخذ بمباحج الحياة ، هى نهاية العمران ومؤذنة بفساده<sup>(٢)</sup> .

وهكذا حق لعبد الواحد المراكشى أن يقول : انه حين ملك يوسف بن ناشقين ، أمير المسلمين جزيرة الأندلس عد من يومئذ فى جملة الملوك ، على أساس أن « جزيرة الأندلس : حاضرة الغرب الأقصى وأم قراء ومعدن الفضائل منه ... واستحق اسم السلطنة ... فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحول ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » . هذا ، كما عمل أعيان الكتاب ( الوزراء ) فى دولة المرابطين ، مثل : ابن القصيرة وابن عبدون النذى كتب لسير عند دخوله أشبيلية ، قبل أن يتصل بأمير المسلمين<sup>(٣)</sup> .

#### صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين :

والهم أنه اذا كان الكتاب قد رسموا صورة لعل بن يوسف ، أمير

(١) المسلمون فى اسبانيا ( بالفرنسية ) ، ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) المقصود ، ط . تجارية ، باب ٤ الفصل ١٨ - فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره . . .

(٣) المعجب ، ص ١٦٣ - ١٦٨ - حيث عرش رسالة ابن عبدون الوزير فى فتح شنترين عن الأمير الذى فتحها على عهد أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، فكان الكتاب من داخل مدينة شنترين ، وفتح المقل الحصين ثم بحسن سيرة أمير المسلمين « فامكننا الله تعالى من ذروتها ، وأنزل ركابها لنا عن صهوتها » ، وأنظر أيضا (المعجب) ، ص ١٧٣ - حيث النص على أعيان الكتاب فى عهد على بن يوسف ، ممن تم استدعائهم من الأندلس ، ومنهم أبو القاسم بن الجند ( المعروف بالأحجب ) ، وأبو بكر محمد بن محمد ابن النبطونة ( الرأس المستديرة ) ، وأبو عبد الله بن أبى الحاصل وأخوه أبو مروان ( وهو أنبهم ) ، ثم أبو محمد عبد المجيد بن عيكون ، ص ١٧٦ - حيث فقرات خاصة بأبن عبد الله ابن أبى الحاصل وأبيه أبى مروان اللذين ظلا فى خدمة على بن يوسف الى أن أخرهما لوجبة كانت منه عليها عندما أمرهما بالكتابة الى جند بلنسية المرابطى اثر هزيمة قبيلة لغت بهم من ابن رديم ، فانتهزا الفرصة ولغظا لهم فى القول أكثر من الحاجة مما شككه فى بنفى أبى مروان للمرابطين ، الأمر الذى دعا أبى عبد الله الى الاستفتاء بمد وفاة أخيه أبى مروان بمرآكش ، والعودة الى قرطبة حيث توفى فى أول الفتنة الزائمة فيها على المرابطيين . ( سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ما يأتى ، ص ٣٨٤ ) .

المسلمين الثاني تختلف الى حد كبير عن صورة والده يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين الأول ، فان البعد الزمني الذي يصل الى ٧٧ ( سبعة وسبعين ) عاما بين الأب الصحراوي أصلا والابن الأندلسي منشأ يمكن أن يبرر الفارق بين الصورتين . والحقيقة أنه رغم أن الكتاب يتفقون على رسم صورة معنوية لعل تكاد تكون نسخة طبق الأصل ، كما يقال ، من صورة والده يوسف ، من حيث المشاركة تجريديا في كثير من الصفات الأخلاقية والدينية السامية التي ترفعهما عاليا في درجات الانسانية ، فان عليا وهو الشخصية المدنية يتفوق على والده ، رجل الحرب بالامتياز ، باهتماماته الدينية المتميزة ، وفي انفراد بصورة طبيعية ( فوتوغرافية ) واضحة ، خصه بها ابن أبي زرع ، تتفق ونصف الدم الاسباني الذي كان يجري في عروقه .

فالأمير علي بن يوسف الذي ولى وعمره ٢٣ ( ثلاثة وعشرون ) سنة يوصف بأنه أبيض اللون مشرب بخمرة تام القصد ، أسيل الوجه ، أفلج اثنى ( الأنف ) ، خفيف العارضين ، سبط الشعر ، أكحل العينين(٤) - ومثل هذه الصورة مفتقدة بالنسبة ليوسف الوالد ، وهو الشخصية التاريخية العارمة .

والحقيقة انه اذا كانت صورة يوسف بن تاشفين تمثل الفارس المحارب فان صورة علي ابنه تمثل الراهب العابد . وفي ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه كان في طبعه منذ مولده مثل كاهن يأتي بمعجائب الأخبار(٥) . وهو أقرب عند عبد الواحد المراكشي أن يعد في الزهاد والمتبتلين منه الى أن يعد في الملوك والمتغلبين(٦) . فعلى منذ ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ظهرت عليه مخايل النبيل والفهم والذكاء ، الأمر الذي جعل والده يسند اليه النظر في نظام الشكايات المعروف « بالمظالم » ، مما حقق النفع للناس ، والخير للصالح العام(٧) . وفي ذلك عرفت عنه البراعة في الاضطلاع بما يمهده اليه من الأعمال والقيام بها مقاما محمودا ، حتى أحبه الناس جميعا حبا مشوبا بالهبة . هذا ، كما عرف عنه الذكاء وحسن السيرة ، وجودة الطوية ، ونزاهة النفس والبعد عن الظلم(٨) ، وعلو الهمة ، من حيث :

(٤) روض القرطاس ، ص ١٥٧ .

(٥) الحلل ، ص ٨٤ ( حيث في طبعه ومولده ) بدلا من منذ مولده ) .

(٦) المعجب ، ص ٧١ .

(٧) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٨) المعجب ، ص ١٧١ .

محبة الأشراف ، وتقليد العلماء ، وإيثار الفضلاء ، مما حقق له اتفاق الكلمة واجتماع الأمة (١) .

أما عن أفراد أسرة علي بن يوسف فإن صاحب الحلل الموشية يعرف بشمانية من أبنائه الذكور هم : تاشفين ( ولي عهده ) وأبو بكر ( بيكور ) وعمر ( الكبير ) وإبراهيم واسحاق وتميم وداود ، وعمر الصغير (٢) .

### وصية يوسف بن تاشفين لولي عهده الأمير علي : في أصول الحكم :

رغم ما هو معروف من أن يوسف بن تاشفين كان يعاني في السنتين الأخيرتين ( ٤٩٨ - ٤٩٩ هـ / ١١٠٤ م ) كثيرا من آلام المرض الذي ألم به ، الأمر الذي دعانا إلى التفكير في أن يكون مرضه الذي مات فيه ربما كان الفالج ( الشلل النصفي ) أو الدرن السرطاني ، فهناك رواية في الحلل الموشية تجعل أمير المسنيين يوسف في تمام وعيه وهو في ذروة أزمته الصحية ، إذ تنص على أنه ترك خليفته علي وصية تعبر عن البرنامج السياسي المثالي الذي يجب أن يقتدى به في إدارته للدولة ، والذي يتلخص في ٣ ( ثلاثة ) مبادئ هي :

١ - ألا يهيج أهل جبال درن ( أطلس - بعامة ) والمصاعدة (بخاصة) .

(١) ابن عشاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، الحلل ، ص ٨٤ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث النص على أنه : ازداد في أكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم ، وأنه كان يخشع عندما يظه أحدهم ويلين قلبه ، المصعب ، ص ١٧١ - حيث النص على إنبارة لأهل الفقه وأنه كان لا يقطع أمرا دون مشاورة الفقهاء ، وأنه إذا ولي قاضيا يمهده إليه ألا يقطع أمرا ولا يبيت في حكمته في صغير أو كبير من الأمور إلا يحضره ( أربعة ) من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في العصور الأولى من فتح الأندلس ، وانظر أيضا ص ١٧٢ - ١٧٣ ، حيث الاهتمام بالفروع أي فروع مذهب مالك والاكثار من ذلك حتى تسيان النظر في كتاب الله ، واعتبار علم الكلام بدعة ، وتكثير كل من ظهر منه الخوض فيه ، والتشديد في ذلك حتى الاجترار على إراق كتب الغزالي بخاصة والتهديد بسفك دم كل من وجدت عنده ، وقارن دوزي ، المسلمون في الأندلس ، ج ٣ ص ١٥٥ - حيث النص على أن علي بن يوسف أكثر بني تاشفين استحقاقا للمديح ، وأنه لم يولد للحكم ، بل الأوفى لو كان راهبا ( ناسكا ) يكرس أعماله للخير والصلاة والصوم .

(٢) الحلل ، ص ٨٤ - حيث النص على أن أيا بكر ( بيكور ) كان ذا حدة ونجدة ، وأن أباه مسجته مكبولا بالجزيرة الخضراء إلى أن مات والده ، وهو ابن ١٦ سنة ، وأن إبراهيم هو الوحيد الذي ( حج ) يفكر له حبة منهم ، أما تميم فقد ناز على أخيه إبراهيم وقتل في حربه ، بينما كانت أم عمر ( أصغرهم ) رومية تسمى بـ « رياض الحسن » .



٢ - أن يهادن بنى هود بالأندلس ( بالنظر الأعلى ) ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم ( الاسبان ) \*

٣ - أن يدارى أهل قرطبة فيقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن عسيئتهم(١١) \* وهو الأمر الذى يذكر فى وصية المهز لدين الله الفاطمى لنائبه فى حكم أفريقية : بلقين بن زيرى مؤسس أسرة بنى زيرى الصنهاجية(١٢) ، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة أن تلك الوصية تبصر عن الصعوبات التى كانت تعرض لها الدولة فى بلاد المغرب وقتئذ ، والمبادئ الأساسية التى ينبغى أن تسير عليها أية حكومة مغربية فى تلك المصور \*

أما عن الامبراطورية التى ورثها يوسف لابنه على ، فكانت تحتوى على ثلاثة أقطار عظيمة الجرم ، وهى :

١ - جميع بلاد المغرب ، من : مدينة بجاية ( فى المغرب الأوسط ) الى بلاد السوس الأقصى \*

٢ - جميع بلاد القبلة ( الصحراوية ) من سجلماسة الى جبل الذهب من بلاد السودان ( إقليم بامبوك ) \*

٣ - بلاد الأندلس ( الاسلامية ) من شرقها الى غربها ، كما ملك الجزائر الشرقية : مبورقة \*

وهكذا خطب له على أكثر من ٢٣٠٠ منبر ، على طول تلك البلاد وعرضها(١٣) \*

**مبايعة رؤساء القبائل لعل ، وتوزيع الحكام على الولايات الهامة :**

بعد احتفال الجنازة والدفن الذى أقيم ليوسف بن تاشفين كان علىولى العهد على ابنه ، أن يأخذ البيعة من جديد على زعماء القبائل الموجودين

(١١) المجلد ، ص ٨٢ ، وانظر فيما ياتى ص ٤٠٣ \*

(١٢) انظر كتابنا ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث تفصل الوصية على المبادئ اللازمة بوقتئذ للحكم ، وهى ألا يرفع بلقين السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يقبل مع أهل الحاضرة خيرا ، الى جانب ألا يؤل أحدا من اخوته أو بنى عهدهم \*

(١٣) روض القرطاس ، ص ١٥٧ \*

بالعاصمة مراكش ، وأن يقوم بعد ذلك بجولة تفقدية بصحبة أخ  
الأسن : تميم ، على القبائل القريبة من لتونة وغيرهم من قبائل المثلثين  
وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل المصامدة في بلاد السوس الأقصى ، حي  
نميا « أمير المؤمنين » الوالد ، وأخذا البيعة لعلي كأمير للمسلمين  
« خليفة » للوالد . وكان علي تميم أن يجدد هو الآخر البيعة لأخيه  
حضور زعماء تلك القبائل - أي بشكل نهائي .

وكان أول ما أمضاه الأمير علي بن يوسف هو تقليد كبار القو  
( الأمراء ) للولايات الهامة وتسييرهم على رأس قواتهم إليها ، لحفظ النظم  
واقترار الأمور . وهكذا عين الأمير أبو الطاهر تميم ( الأخ الأسن لعلي  
واليا لمنطقة مكناسة ، والأمير يحيى بن أبي بكر واليا لمنطقة فاس بالمغرب  
الأقصى ، والأمير مزعل قائد لمنطقة تلمسان بالمغرب الأوسط ، كما جدد  
ولاية الأمير سير بن أبي بكر الذي كان قد أعلن الطاعة وتجديد البيعة  
لمنطقة أشبيلية ، بينما أمر الأمير أبو بكر بن إبراهيم ( بن تيفلويت  
بالإسراع إلى مركز ولايته بفرناطة التي وصل إليها في ربيع الأول  
السنة ( ٥٠٠ هـ / أكتوبر ١١٠٦ م ) (١٤) .

ومن الواضح أن أبا بكر بن إبراهيم ( ابن تيفلويت ) كان يشغ  
ولاية غرناطة كنائب للأمير المسلمين على الأندلس ، فهذا ما يفهم من روا  
ابن عذارى التي تنص على أنه تلقى التهاني بولاية أمير المسلمين علي  
يوسف من زعماء الأقطار والمدايح من الشعراء الذين أجزل لهم المعطاء  
والظاهر أن احتفالات غرناطة بالحفلة السعيدة استمرت طوال شهرين  
وذلك أن أبا بكر بن إبراهيم ( ابن تيفلويت ) لم يخرج من غرناطة إلا  
شهر رجب / فبراير من السنة (١٥) .

### الإدارة المدنية بالمغرب والأثر الأندلسي :

والحقيقة أنه إذا كان لأسلوب الحياة الأندلسية الراقية تأثيره عم

---

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر النشرة ، ج ٦ ( ق ٣ م ٢ ) ص ١٢  
والهامش - حيث ( ابن تيفلويت ) ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وأنه ولي غرناطة سنة ٤٩٩ هـ  
١١٠٥ م ثم سرقسطة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وأنظر ص ٦٢١ - حيث رثاه ابن با-  
الفيلسوف الذي كان في خدمته له شعرا -  
(١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

المرابطين في الأندلس . فان هذا التأثير كان محدودا في بلاد المغرب ، على كل حال . فاذا كان عدد من وزراء الطوائف كان لهم الظهور على عهد يوسف ابن تاشفين فذلك لان أحداث الأندلس كان لها الأولوية وقتئذ . ولكنه بعد ان استغرت أوضاع المرابطين في الأندلس عادت الأمور في المغرب لمجاريها الطبيعية على عهد أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف ، وبدأت أخبار العاصمة مراكش من سياسية وعسكرية ومدنية في الظهور في عناوين الأحداث . فابن أبي زرع في تعريفه الأولى بدولة علي بن يوسف ينص على ان كاتبه الذي يظهر وكان له دور في أخذ البيعة لسيده الأمير في مراكش هو : أبو محمد بن اسباط (١٦) الذي ربما كان من قبيلة الأمير لمتونة . واليه ، على ما يظهر ، كان واجب الكتابة الى جميع بلاد المغرب والأندلس ، وبلاد القبلة ، يعلمهم ( باسم الأمير علي ) بموت أبيه واستخلافه . . ويأمرهم بالبيعة (١٧) .

وكذلك الأمر بالنسبة لأول وزراء الأمير علي بن يوسف : ينتيان بن عمر بن ينتيان ، الذي يظهر من اسمه انه بربري أصيل ، والذي كان يمكن أن يكون باكورة أسرة وزاوية مرابطية ، لو قدر لمولة الملتمين أن يطول عمرها بعض الشيء ، وذلك انه خلف ينتيان في الوزارة ، على أواخر أيام علي بن يوسف ابنه : اسحاق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان (١٨) .

أما عن أول رياح أندلسية هبت على المجتمع المغربي في مراكش فتتمثل في ظهور الاسبانيات ( الروميات ) في بلاط الأمير ، حيث كانت أم الأمير علي بن يوسف ، وهي « قمر » الرومية التي كانت تكنى «بأم الحسن» ( ص ٢٧٧ ) ، بينما كانت ظل ابنه عمر ( الصغير : أصغر أبنائه سنا ) اسبانيا أيضا ، وهي : « رياض الحسن » (١٩) .

وعلى مستوى نظم العولة كان الأمير علي بن يوسف أول من استعمل الاسبان ( الروم ) في المغرب كحرس أميري من الحيلة ، بمسء استخدام السودان والأغزاز ( جمع غزى ) الترك . هذا ، كما عهد اليهم بجباية

(١٦) روض القرطاس ، ص ١٥٢ .

(١٧) روض القرطاس ، ص ١٥٨ .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

الضرائب في أحواز مراكش العاصمة ، وبلاد السوس - الأمر الذي سيثير نعمة محمد بن تومرت المرقية ، عما قريب . وهنا تحسن الإشارة الى أنه لما كانت تلك الضرائب يطلق عليها البعض اسم المغارم ( بمعنى المظالم ) (٢٠) ، فكان الدولة المرابطية - في نظرهم - قد حادت عن سياستها الأصولية في إنكار ما زاد عن الزكاة والخراج من اضطراب ، على اعتبار أنها غير مطلوبة بالنص الشرعي - إلا اذا كان ذلك دعاية مفرضة من خصوم الدولة من الموحدين الذين ظهروا على عهد علي بن يوسف اعتبارا من منتصف العقد الثاني لولايته .

#### أحوال الأندلس تثير اهتمام علي بن يوسف منذ ولايته :

والحقيقة أن اهتمام الأمير علي بن يوسف الشخصي بشئون الأندلس يظهر منذ بداية ولايته ، وهو الأمر الذي تكرر لأربع مرات على طول عهده خلال ٣٧ ( سبع وثلاثين ) سنة ، كما كان الحال على عهد والده يوسف بالأندلس ، على طوال حوالي عشرين سنة . والمهم أنه كان ثمة خلل قد طرأ على أحوال الأندلس وقتما ولى عهد إمارة المسلمين في مراكش ، في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م . فهناك إشارة في ابن عذاري الى أن والي قرطبة وقتئذ ، وهو محمد بن الحاج ، ظل خاملا في بداية عهد الأمير علي ، بل أنه وقع تحت الاعتقال لفترة من الوقت الى أن رضى عنه الأمير فولاه مدينة فاس في المغرب ، حيث بقى الى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، عندما أعاده الى الأندلس واليا لمدينة بلنسية (٢١) .

ويشرح ابن الأبار سخط الأمير علي على الوالي والقائد الكبير ( سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ) بأن ابن الحاج تلكا في مبايعة ، بل وأنه « رام القيام عليه » ، الأمر الذي لقي قبولا من أعيان أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها (٢٢).

(٢٠) الحلال الموشية ، ص ٨٤ .

(٢١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ - ٤٩ - حيث توقيت هذا الحدث تحت رواية سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م .

(٢٢) أنظر ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ١ - حيث الإشارة لرواية ابن الأبار في « أصحاب الصدى » . أنظر ط . مدريد ١٨٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٠ - حيث أبو بكر محمد ابن عبد الملك اللخمي الاشبيل نزيل قرطبة ، الكاتب الجليل ، المعروف بابن المرخي ( ص ١٣٢ ) . ولأبي بكر أيضا رواية عن أبي علي الصديقي الذي لثبه بمرسمة ٠٠٠ وكان سبب ذلك اختصاصه بأمير قرطبة أبي عبد الله محمد بن الحاج داود اللخوني هو وأبي عبد الله بن أبي الحصال أن رام القيام على بن يوسف بد تاشقين . ودفع أمرته -

- دون الإشارة الى السبب ، وهل كان الأمر يتعلق بحدّة مزاج أهل قرطبة وميهمهم الى الفتنة ، مما رأيناه في وصية يوسف بن تاشفين الى ولي عهده على ١٠ م تتعلق الأمر بالميل الى أبي الطاهر تميم أخى الأمير على بن يوسف الأسن : ٠ وهنا لا بأس من الإشارة الى أن موقف قرطبة الفاتر واليهما ( ابن الحاج ) من على بن يوسف كان من الأسباب التي دفعت الأمير الى تجديد ولاية القائد سير بن أبى بكر على مدينة أشبيلية المجاورة لقرطبة ، ودفعه الى المسير بسرعة على رأس قواته الى الأندلس فى ذلك الوقت من فصل الحريف ( من أوائل سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ) ، حيث كان وصوله الى مفر ولايته فى شهر ربيع ( نوفمبر ) ٠ ولا شك أن هذا الأمر أثار قلق الأمير على أحوال الأندلس ، فكان دافعا له على بداية عهده بالجواز الى الأندلس بمجرد تحسن الأحوال الجوية فى الشهور الأخيرة من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، أول سنّى حكمه - وفى ذلك تقول الرواية انه تحرك الى الأندلس « لتفقد أهلها ، وسد خللها » ( ٢٣ ) .

#### العبور الأول للأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين :

وإذا كانت الروايات الخاصة بهذا العبور الأول تكتفى بتحديد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م دون إشارة الى الشهر أو الفصل من السنة ، فمن الواضح أن هذا الجواز كان فى الشهور الأخيرة من ذلك العام ، وأغلب الظن فى شهر شوال بعد عيد الفطر أى فى بداية الصيف من شهر يونيه ٠ وكان خروج الأمير على فيما يشبه الحملة الحربية ، إذ تقدمته الجيوش من المرابطين : أهل الدولة ، والمصموديين أتباعها من أهل السوس ، كما أحاطت به الجنود من الحرس الأميرى الذى دخلت فى تشكيله ، الى جانب الأبحاش السود

= ( تلسكا ص ١٣٣ ) عن بيته لأول ولايته سلطان أبيه . ومالاه الملا من أهل قرطبة : مشبختيا وفقهايا ، وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م . ثم تكب وقبى عليه ، ولقد تدبره ، فهرب أبو بكر سنثذ الى شرق الأندلس وسج من أبى على كثيرا ٠٠ ولم يغادره الى أن رضى على بن يوسف على ابن الحاج وأخيه وقومه ومن عليه وصفه عنه ، وولاه مدينة فاس ، وما إليها من أعمال المغرب ، فلفق به أبو بكر وصحبه هناك ، وبسرقة اذ ولها مع دلفسه بعد ذلك ، حتى استشهد بالموضع المعروف « بالبوروت » ونفسمه بالعربة «الجاب» سنة ٥٠٨ هـ / ١١٠٨ م ( ص ١٢٤ ) - توفى ١٧ من كى الحجة ٥٣٦ هـ / ١٤ يولية ١١٤٢ م ، وهو ابن ٧٠ سنة ودافى بمقبرة أم سلمة وصل عليه انه أبو الحكم ، وكانت جنازته مشهودة ، وحضرها الرئيس أبو محمد بن الزبير بن عمر الفستونى ، ومولاه فى صفر سنة ٤٦٨ هـ / سبتمبر ١٠٧٥ م ، ( ص ١٣٥ ) .

( ٢٣ ) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

والأغزاز من الترك البيض ، وجماعات من العسكر الإسباني المسيحي ممن عرفوا باسم « الروم » ، كما تبعته أعداد من المتطوعة الوافدين من مختلف القبائل من سائر الأمصار ، ممن عرفوا باسم الحشود .

وكانت المسيرة سريعة نحو سبسة من حيث كان العبور الى الجزيرة الخضراء - حيث استقبل أمير المسلمين الجديد : علي بن يوسف بن تاشفين بما يليق به من تجميل واحترام ، من كل فئات الخاصة من أصل الأندلس على مراتبهم ، وفي طليعتهم رجال الدين ، من : القضاة والفقهاء ، يتبعهم الأعيان المدنيين ، من : الزعماء والرؤساء ثم بطانة هؤلاء ، من : الأدباء والشعراء ، الذين احتفلوا به بمدائحهم ، ونالوا عطاء . وتبع ذلك أن اجتهد الأمير على في اكتساب رضا الجميع « ففضى لمن كان ذا ارب اربه ، وسنى لكل ذى مطلب مطلبه » (٢٣ م) ، فكان ذلك مما حقق له الشعبية العارمة ، من : « اتفاق الكلمة واجتماع الأمة » ( ما سبق ، ص ٣٧٨ ) .

وبدأت الحملة التفقدية ( الرادعة ) في الأندلس بصدر الأمر بتعيين أبي الطاهر تميم ، أخي أمير المسلمين على بن يوسف ( الذي كان موجودا في المغرب كنائب للأمير المسلمين ) ، واليا لفرناطة فكانها ظلت محتفظة بمركزها المتفوق كمقر لنيابة الأندلس وولاية العهد ، من حيث كانت قاعدة صنهاجية أصلا . أما عن محمد بن الحاج ، والي قرطبة المنهم بسوء النية ، فانه عزل من موقعه هذا وحل مكانه : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر اللحتوني (٢٤) من عصبية الأمير .

هذا ، كما أصدر الأمير قرارا بعزل قاضي أشبيلية ابن منظور اثر التشكيك في ذمته ، من قبل الوزير : الطبيب الشهير أبي الصلاء بن مزهر (٢٥) .

(٢٣ م) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، وانظر الملل الموشية ، ص ٨٥ - حيث نفس النص تقريبا .

(٢٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٥٩ - حيث الإشارة الى عزل الأمير تميم عن بلاد المغرب في السنة التالية ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ م ( بدلا من النص على تعيينه على بلاد الأندلس ) وتعيين الثالث أبي عبد الله محمد مكانه ( بدلا من القول بعزله عن قرطبة - مما يأتي ذكره ) واليا على فاس وسائر أعمال المغرب سنة ٦ ( ستة ) أشهر قبل توليه بلنسية من حيث يكون دخوله الى قرطبة سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م .

(٢٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ٢ - حيث شرح سبب الخصومة بين الطبيب الوزير ابن زهر والفاضل الشهير ابن منظور ، وهي التي أدت الى عزل الأخير ، نقلا عن كتاب « تقيي »

وهكذا تحققت أهداف جواز الأمير على بن يوسف الى الأندلس ، إذ تفقد أمورها « وعمت البيعة دانيها وقاصيها » حسبما سمحت الظروف ، إذ من الواضح أن أمير المسلمين كان في عجلة من أمره خشية نهاية الصيف واقبال فصل الشتاء ، وأنه كان عليه أن يصدر الى سبتة ، قبل نهاية العام ( ذو الحجة ٥٠٠ هـ / أغسطس ١١٠٧ م ) ، ومنها الى مراكش ( العاصمة ) ( ٢٦ ) .

وبمجرد وصوله الى الحاضرة كان على أخيه أبي الطاهر - نائب الملك - أن يخرج الى ولايته بفرناطة ، حيث كان وصوله الى الأندلس في مطلع سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م دافعا الى اطمئنان النفوس وراحة البال ، وبذلك تم له الفرح « بمملكته ، وظهر به جمال دولته » ( ٢٧ ) . وكان على أبي الطاهر تميم أن يؤكد ولايته لفرناطة وبالتالي لسلطانه على كسل الأندلس بتأييده سيطرته على بلاد المسلمين ، وفرض هيمنته على الجيران الاسبان المسيحيين .

#### فتح أقلش :

وهكذا كان عليه أن يهيء نفسه للفرز ، عن طريق حسن سياسة الجند ، والترتيب للعمل الجماعي مع القريين منه ، من سائر التواد ، وكان حصن أقلش ( Ucles ) من كورة شنتيرية - على منابع وادي آنه قرب وبده من شرق طليطلة - هو هدف حملته التي قادها في أواخر شعبان / ١٣ ابريل ١١٠٧ من نفس العام . وكانت مدينة جيان مكان التجمع بين قواتها وجيوش الحملة ، وكذلك القوات الوافدة أيضا من قرطبة ، ومن غيرها من البلاد ( ٢٨ ) . والتي كان من كبار قادتها عبد الله بن محمد بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة اللذين كانا أقرب المستشارين الى الأمير

---

= الأنباء في سياسة الرؤساء « لابن الصوفي ( الذي لم يصل اليها ) ، وفيه أن الطبيب مرض ذات يوم فسخر من ذلك القاضي ابن منظور قائلا : « طبيب ماهر يمرض » . لما كان من ابن زهر الا أن رد على ذلك بكلام يقول فيه : ان أبا الطب والأطباء جالينوس كان يمرض دائما ، الى جانب شعر ، قال فيه انه :

« كما : قد يمرض من متى قد يكون من الفقيه أكل الرشا »

( ٢٦ ) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ .

( ٢٧ ) نفسه ، وانظر ما سبق ، ص ٣٨٤ والهامش ٢٤ - حيث الاشارة الى نص روم لآلترطاس ، ص ١٥٩ عن عزل الأمير تميم عن المغرب وتولية ابن الحاج فكانه بديل عن القول بعزله عن قرطبة ( سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ) .

( ٢٨ ) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٩ - ٥٠ .

تميم (٢٩) :

وخرجت القوات المرابطية بقيادة الأمير تميم ، أنشئ أمير الميملحين والمه غرناطة ونائب الأندلس ، الى المنطقة طليطلة لتضرب الحصار على حصن أفايش ، وتمكن بعد نزال عنيف من إقتحامه لحيو يلجأ سكانه الى قصيته. الحصينة ، يحتمون بها انتظارا لمجيء النجدة من قبل الفونس السادس . ورأى الملك المعني الذي كان يعيش وقتئذ أيامه الأخيرة ، أن يواجه نائب الأندلس الأمير تميم بن يوسف بقرين له هو الأمير ولي عهد « الفنت » (Infante) سانجه (Sancho). ابنه من زوجته زائدة ( زوجة الماسون بن المعتمد بن عباد السايقة ) التي كانت قد تنصرت (٣٠) .

ووافى الأمير القشتالي الذي كانت تجرى في عروقه بعض الدماء العربية - في جيش انقاذ مسيحي كبير ، يبلغ عدده حوالي ٧ ( سبعة ) آلاف رجل ، على رأس كل ألف منهم واحد من قوادهم المروفين بالفوامير ( جمع قومس : Comos ) أو قومط : كونت (٣١) . ومن الواضح أن.

(٢٩) أنظر نظم الجمان لابن القطلان ، ص ٨ ، ص ٩ ( من ابن عائشة ) صاحب مرسية وح ٢ ( من ابن فاطمة ) صاحب بلنسية ، اللذين يتسبب اليهما تقويم المواقف عدد انهزام عسكر قرطبة لعدة أميال لتمام مهاجمة محلة النصراري وطاردوهم ثم تبهم الأمير تميم (ص ٩) . ولما الأسبان الى حصن بلشون ( ص ٣ (Bellinchon) - حيث رعبتهم من المسلمين ، ولكنهم أخذوا ابن الفونس وقتل ، ووضى القرطاس ص ١٦٠ . وقارن الرسالة الرسمية ، لفر حسين مؤنس ، الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ٤٠ وح ٤ - حيث النص على أنه « لم نعلم الا من هذه الوثيقة ان هذين القتالين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة » ( ص ) ، وقارن ابن القطلان ، نظم الجمان ، ص ٦ - حيث النص : كان مدير الحملة هو أمير قرطبة ابن رنفي ٤ وجماعة عن الرؤساء بالأندلس ، ص ٨ - حيث مشاركة ابن عائشة وابن فاطمة في تلك الحملة .

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٩٥ - ١٩٠ - حيث اسم الوثيقة اقلج ، وناريخها ، فير سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، وإن الفونسو عندما استمد للخروج اعانة لبلعه أشارت على زوجته أن يوجه ولده بدلا عنه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وساقشو ابن ملك الروم . فبعثته في جيوش كبيرة ، وقارن حسين مؤنس الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ٢٠ - حيث رواية ابن أبي زرع هذه ، وقارن ابن القطلان نظم الجمان ، ص ٧ وح ٥ - حيث عن الشاهب ولي العهد ١٥ سنة ، وإن رواية القرطاس مقتبسة من نظم الجمان .

(٣١) قارن حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ - حيث تسمى الوثيقة بروقة الأكناه السبعة بالاسبانية (Los Siete Condes) وأنظر الرسالة الرسمية الخاصة بالروقة ( الوثيقة الأولى ) ، ص ٣٥ - حيث تبدأ الرسالة بموتان « رسالة كتب بها ... ابن شرف عن بطي »



البحرطين بالأمر القسطل الصغير . من كبار القواد أو المستشارين لم يكن لهم مثل دراية الفونس السادس في أمور الحرب والسياسة . وذلك ان الحرب التي لا تعرف من تفصيلاتها عند المؤرخين سوى أنها كانت طويلة يصعب شرحها (٣٢) . بينما لا تظهر تلك التفصيلات في الرسالة الرسمية بسبب عناية الكاتب بالمحسنات اللفظية والسجع على حساب الموضوع ، الى جانب تحريفات النساخ ، انتهت بهزيمة مؤلة للمسكر الاسباني ، اذ قتل الشاب الصغير سانكو ( ولى العهد : الانفانت ) وعدد من كبار القواد ( الأقطاط ) ، منهم : غرسية أوردونش ( Ardonez ) وغرسية بقبدره ( De Carba ) بينما أتيح الهرب للقائد البرهانس ( Alvar Hanes ) ابن عم السيد ( El Uld ) ونصير الفونس السادس (٣٣) . أما من بقوا في لروض المعركة من الرجال فقد اجتز من رؤوسهم على ٣ ( ثلاثة ) آلاف رأس ، جعلت أكواما من أجل الأذان عليها (٣٤) ، مما يذكر بمعركة الزلاقة .

« رؤساء الغرب » في فتح اقلش أعادها الله « وهو العنوان الذي يطلق عليه مؤنس في الهوامش - حيث يقول في ( ص ١ ) ان كلمة « الغرب » تعني المغرب وانه كان يطلق أيضا على الأندلس في ذلك الزمن (٣٥) . وفي ( ه ٣ ) انه لم يتم فتح اقلش في هذه الحملة . اذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ، كما سنرى ولهذا يقول : « أعادها الله » . والذي نراه ان هذا العنوان ليس من صلب الرسالة بل انه من وضع الكاتب الذي نقل الرسالة في وقت متأخر ( كما هو الحال بالنسبة للتلخيص في صبح الأعشى ) فهو الذي يدعو : « أعادها الله » . اما تفسير اغفال سقوط القصبة في الرسالة فلان الرسالة يمكن ان تكون كتابتها في اليوم التالي للمعركة : كما يرى مؤنس ( ص ٤٢ هـ ٣ ) ، أي بقل استسلام القصبة صلحا ، كما تشير بعض النصوص التاريخية . وهذا ما يبرره أيضا . ما كان يصيب مثل هذه الرسالة من الحرم والتحريف والتبديل على أيدي النساخ . ( وانظر ص ٢٧ والهوامش ) . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ - حيث تزول عساكر المسلمين على المدينة الحصينة . . . . . فارسل أدفونس ( ابنه بنحو ١٥٠ سنة ) آلاف فارس لأغالة اقلش . (٣٦) ابن طناري ، ج ٤ ص ٥٠ ، القرطاس ، ص ١٦٠ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ - حيث النص على ان اقلش من غر الوقائع وجلبها . ثم ان عساكر المسلمين اتحتموها فلجأ من كان أسفلها آل القصبة العليا . (٣٧) الرسالة رقم ١ في النشر الأعلى . حسين مؤنس ، ص ٣٩ وهـ ٢٠ ، وقارن : نظم الجمان لابن القطان ، ص ٧ وهـ ١٠ .

(٣٨) الرسالة رقم ١ ، حسين مؤنس ، النشر الأعلى ، ص ٤٢ وهـ ٢٠ ، ص ٣٩ وهـ ٢٠ ، وقارن : روض القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث المتألفة في عدد قتل العدو الذي بلغ زيادة عن ٢٣ ( ثلاثة وعشرين ) ألفا ، نظم الجمان لابن القطان ، ص ٩ - حيث النص على انهزام المشتركين الذين قتلوا قتلا ذريعا مع ذكر استشهاد الامام الجزولي في الجانب الاسلامي ، و«جذاعة» من الاعيان والبريان ( الهولكية ) .

وكانت كارثة مؤلة بالنسبة لألفونسو السادس ، اذ يفسيب اليها وفاته و  
وان كان في شهر ذى الحجة من سنة ٥٠٢ هـ / يولييه ١١٠٨ م التالية (٣٥) .  
أما بالنسبة للجانب الاسلامي فكان هذا النصر في أول حرب ضد الاسبان  
المسيحيين ، من يشائر السعد بالنسبة لباكورة عهد علي بن يوسف بن  
تاشفين في الأندلس (٣٦) .

### العبور الثاني للمسلمين على بن يوسف الى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م :

وهكذا ، بوفاة كل من يوسف بن تاشفين ( سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م )  
والفونس السادس ( سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ) في مطلع القرن السادس  
الهجري ١٢ م . يظهر وكأن الزمن كان يعمل لصالح الدولة المرابطية وذلك  
باعتدال ميزان القوى في أول سنة للملك الأمير علي بن يوسف ، وهي السنة  
قبل الأخيرة لألفونس . والظاهر أن أمير المسلمين الثاني ( علي ) استبشر  
بما حققه أخوه تميم في أقليمش ، ورأى أن يكون له نصيبه هو الآخر فهو  
أحداث مخافز الغزو والجهاد في الأندلس ، فقرر أن يكون عبوره الثاني الى  
الأندلس في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م التالية - وهو الجواز الذي تحقق فيه  
فتح مدينة طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بالنسبة لمنطقة طليطلة  
ومدينتها المتميزة . والحقيقة انه إذا صبح يوم الخميس ١٣ محرم ٥٠٣ هـ  
الذي يعادل ١٢ أغسطس كتاريخ لبه فتح طليطلة يكون عبور الأمير علي قدم  
تم قبل ذلك في شهر ذى الحجة المبارك الذي يصادف يولييه من شهور  
الصيف (٣٧) .

(٣٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٠ ، وقارن دوش القرطاس ، ص ١٦٠ - حيث النص على  
ان الفونس اختنم لقتل ولده وعلاق عسكريه ، ليرش بالفتنة ومات لـ ٢٠ ( عشرين ) يوما  
من الكائنات ، وانظر هـ ٩١ - حيث تصحيح المحقق بالنص على أن وفاته كانت بعدما بنحو  
عام ( ٣ يونيو ١١٠٩ م ) .

(٣٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٠ - حيث النص ، ورجع الأمير أبو الطاهر الى غرناطة ،  
فكان ذلك حسب مقالة ابن الصوري في كتابه « تعري الأئمة في سياسة الرؤساء » ، دليل  
البن والبركة ولولاية علي بن يوسف في أول دولته . وقارن هـ ١ - حيث النص على أن  
انتصار أمير الطاهر كان في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٠ م حسب دوش القرطاس ، ونظم الجسان  
( هـ ٢ ) - حيث النص على زائدة زوجة ألفونس بن التمدد .

(٣٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن الصلح ، نظم الجسان ، ص ١٢ - حيث  
حصل الرواية ، على أساس ان ١٣ محرم ٥٠٣ هـ هو يوم للوصول الى طليطلة ، وانه أول

والمهم أن الأمير على خرج من الحاضرة مراکش إلى الأندلس في أواخر سنة ٥٠٢ هـ / صيف ١١٠٩ م أو أوائل سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م يرسم الغزو الصيفي ( الصانعة ) ، وأنه بعد أن أجاز يمم شطر غرناطة حيث أقام بعض انوقت ، ريثما تلحق به بقية كتائب الحملة المغربية ( العدو ) ، من العساكر والحشود والمطوعة ، وحتى تتأهب بدورها القوات الأندلسية . ومن غرناطة سارت الجيوش بقيادته نحو قرطبة حيث أقام أياما حين اكتمال تجمع الرجال ، وعندئذ سار بصحبته القاضي ابن حمدين نحو الهدف ، وهو طليبة : بوابة الدخول إلى طليطلة (٣٨) .

### فتح طليبة واجتياح منطقة طليطلة :

ولا ندري إن كان وصول القوات الإسلامية كان مفاجأة لأهل طليبة ، أم أنهم فضلوا عدم مواجهة المرابطين ، تاركين الدفاع عن المدينة لرجال الحامية الذين اكتفوا بدورهم بالنجو إلى القسبة والاعتصام بها . وهكذا سنحت الفرصة بدخول القوات المرابطية طليبة ونهبها واستنقاذ أسرى المسلمين فيها ، بينما هرب العساكر من أفراد الحامية الأسبان ليلا عن طريق النهر الذي كان يحيط بالمدينة كالتندق ، ومن ثم عبر المجلات المحيطة بها وبذلك نجحوا في الإفلات من الحصار (٣٩) .

وهكذا كان فتح طليبة سهلا فكانها مدينة مفتوحة ، إذ لا نجد الا ذكرا للمغانم التي امتلأت بها أيدي المسلمين من سبقت المناع ، من : الثياب

---

= يوم من أيام الحركة التي استغرقت عدة أيام ، وقارن روض الرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز ( دون تحديد ) يوم ١٥ محرم / ١٤ غشت المسطى ١١٠٩ م بدلا من تاريخ الانتصار في طليبة التي تظهر خطأ في شكل مدينة طلايوت ، وأنظر أيضا الحلل المرشبة ، ص ٨٥ - حيث الجواز الثاني ويرسم الجهاد ونصر الملة وقصد طليبة .

(٣٨) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، ص ١٣ ، الرطاس ، ص ١٦١ - حيث الجواز من سبقة ، والإقامة في قرطبة لمدة شهر ( الأمر الذي يزيد في تأخر الصانعة ) ، الحلل ، ص ٨٥ - حيث اليده بقصد طليطلة .

(٣٩) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجبان ، ص ١٣ - ١٤ - حيث الرواية التفصيلية من احاطة المسلمين بالمدينة ليلا ، وغرهم الوادي الذي كان يحيط بالمدينة ليهرب الماء ويمكن الوصول إلى السور يوم السبت - حيث تم اقتحام المدينة واستغلال أسارى المسلمين . هذا كما كان في محبة الحملة القاضي ابن حمدين في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وكان يحرض الناس على القتال ، الرطاس ، ص ١٦١ ، والحلل ، ص ٨٥ - حيث لفتت عترة بالسيف .

والمناشئة والأسلحة . هذا ، كما ظهر المسجد الجامع ، ورد الى ما كانت عليه هيئته أيام المسلمين . ويحسد أن رتب الأمير علي بن يوسف حامية مناسبة من الرجال والفرسان والرماة تحت امره قائد من المرابطين ، غادر المدينة ، وسار غربا نحو طليطلة (٤٠) .

ومن الواضح أن النزول على طليطلة لم يكن لحربها بل لمجرد ترهيب أهلها ، وبالتالي ردع المستوليين من خلفاء الفونس السادس . وذلك أنه بعد الاقامة حولها لمدة ٣ أيام ، عادت الجيوش الاسلامية أدراجها صوب غرناطة بعد أن سمعت ظنون أهل طليطلة - مع ما هي عليه من الحصانة والمنعة (٤١) . وبذلك تكون حملة الأمير على الثانية بالأندلس قد دامت حوالي ٤٠ (أربعين) يوما ، ويكون الهدف قد تحقق من ردع العدو وترهيبه (٤٢) .

#### سرقسطة ما بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

##### الدخول تحت الظلة المرابطية :

ومن المهم أيضا ما حققته القوات المرابطية في منطقة الشرق ، من دخول سرقسطة ، قاعدة الثغر الأعلى في نفس سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، في طاعة المرابطين - رغم ما كان معروفًا منذ بدء التدخل المرابطي في شتون الأندلس ، من موافقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على الحفاظ على استقلال امارة بني هود في الثغر الأعلى ، متميزة على غيرها من رئاسات الطوائف ، من حيث كونها امارة فاصلة بين الممالك المسيحية في الشمال وبين بلاد المسلمين في الأندلس ، وهو ما أوصى به ولي عهده عليا ، على أنه قاعدة سياسية ذهبية لا يصح الإخلال بها (٤٣) .

(٤٠) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ .

(٤١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ - حيث فتح ٢٧ حصنا من أحواز طليطلة ؛ ثم وصل إلى طليطلة وحاصرهما شهرا ، وقطع ثمارها ، وبلغ فيها من النكابة كثيرا ؛ ثم قفل إلى قرطبة ، لجلل الوضعية ، ص ٨٥ - حيث قصد طليطلة ( قبل طليطلة ) ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة بشاربها ، وانتشرت جيوشه على تلك الأقطار . ودوخ بلاد المشرقيين ، فلادوا بالفرار إلى الماقل واعتصموا بالحصون المنيمة ٢ -

(٤٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٢ - حيث النص على أنه لم يمهد في ذلك الوقت مثل هذه الفزوة قوة وظهورا وعمة وولورا ، وقارن لجلل الوضعية ، ص ٨٥ - حيث النص على أن غزوة طليطلة لم يمهد ملتها « قوة وظهورا وعمة وولورا » لكأنه منقول عن ابن عذاري .

(٤٣) انظر لجلل الوضعية ، ص ٩٨ - ٩٩ - حيث كتاب عماد الدولة عبد الملك إلى أمير المسلمين على بمناسبة التفكير في أخذه بلاده وفيه : وكان المستعين بالله خابط أبانك ...

ففي سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م كان المستعين أحمد بن هود أمير مملكة سرقسطة يتخذ حصن روضة (Rueda) مقرا له ، وعندما قرر في تلك السنة أن يعهد بولاية عهده الى ابنه عبد الملك نزل الى مدينة سرقسطة حيث جدد البيعة عن أهلها قبل أن يقوم بفزو أراضي مجاوريه من الاسبان المسيحيين ، وذلك في شهر جمادى الثاني/ديسمبر من تلك السنة .

وكان من بين المدن والقرى المحصنة التي داهمها المستعين أحمد بن هود تطيله وارنيط التي صالحه أهلها على دفع الجزية السنوية وأخذ منهم الرهائن ضمانا لذلك(٤٤) . وإذا كان من الواضح أن الرواية تباليخ فيما أنزله بهذا الصقع المجاور لمملكة سرقسطة من الهدم والحرق والسبي ، قبل أن يعود الى بلاده ، فلا بأس أن يكون ذلك من الأسباب التي دعت الى ملاحقة كتيبته الفرسان التي تجمعت من أنحاء المنطقة للمستعين ، ونشوب معركة حامية بين الطرفين انتهت بهزيمة مروعة لجيش سرقسطة ، اذ استشهد المستعين أحمد بن هود ، وتبدد رجاله بعد أن بقي الكثير منهم في أرض المعركة ، وذلك في أول رجب سنة ٥٠٣ هـ/ ٢٤ يناير ١١١٠ م(٤٥) .

ومع أن عبد الملك بن أحمد بن المستعين خلف والده في امارة سرقسطة متخذا لقب عماد الدولة الا أن هزيمة أول رجب هدمه كانت نذير شؤم لمملكة سرقسطة ، اذ اضعفت موقف الأمير الجديد بالنسبة لأهل سرقسطة ، الأمر الذي مهد لقاعدة النفر الأعلى الدخول في طاعة المرابطين بشكل سافر دون موارد أو مدارة . فعندما طلب عبد الملك البيعة من أهل سرقسطة اشترطوا عليه ألا يستخدم عسكريا من الاسبان المسيحيين ، بل وأن يقطع علاقاته بهم(٤٦) . هذا ، في الوقت الذي كان فيه والي بلنسية المرابطي

---

= يسأله المعة ويرغب في الهدوء والاستماعة على الهدوء ، فاقام واقفنا مريحيين ، ومن كمب النفاق فرحين ، ثم دهمنا من جهنمك داهم أبدي صلحتك ... ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا اليكم ، فيتحكم فينا الاذلال والله حبيب من بني .. وتنتهي الرواية بالقول أن أمير المسلمين على بن يوسف خالف قائده أبا بكر بن تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده ( ابن هود ) فوافاه الكتاب وقد ادخلته الرعية مدينة سرقسطة .

(٤٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على أن أهل ارنيط ( في الأصل : ارنه ) اعتصموا بكنيسة منيمة لديهم ، هي التي ضمنت لهم الصلح .

(٤٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٣ - حيث النص على انه " بايعه الناس بسرقسطة بعد ما اشترطوا ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشيء من أمرهم " .

يُترى بسوق سرقسطة الدوائر ، وفعلًا قام القائد عبد الله بن فاطمة بعد شهر واحد من مقتل المستعين في واقعة أول رجب ، بالتحرك على رأس حامية نحو سرقسطة ، ولكنه عندما اقترب منها نبهه زعماء المدينة إلى خطورة الموقف الذي قد يؤدي إلى استنجد عماد الدولة عبد الملك بالاسبان المسيحيين ، ودخول بلدهم في دوامة الفتنة من جديد ، ونصحوه بناء على ذلك بالانصراف عنهم - تقريبًا لما تصير إليه الأمور ، وهو ما استجاب له القائد المراتبي (٤٧) .

ولما كانت الأوضاع في الثغر الشمالي تفرض ضرورة التعامل بين المسلمين والمسيحيين إن بالحرب أو السلم ، ولما كان استخدام المسيحيين من الاسبان كعسكر في صفوف الدويلات الإسلامية قد صار أمرًا دارجًا ، ليس من المستحسن الإخلال به حتى العصر المراتبي ، بل وعند المراتبين أيضًا ( ما سبق ، ص ٢٦٠ ) ، لم يكن من المستغرب بعد ، ألا يفي عماد الدولة عبد الملك بشرط عدم استخدام « الروم : الاسبان » ، في عسكره ، وقطع صلته بهم . وهكذا لم يكن وفاء عبد الملك بهذا الشرط أو عزمه على مداخلتهم ( الروم ) كافيًا لاستدعاء أمير بلنسية الجديد محمد بن الحجاج ( أمير قرطبة السابق ) (٤٨) ، إذ الأقرب أن يكون ذلك أمرًا مبيتًا من زعماء سرقسطة ، كراهية لأمرهم ابن هود ، تمامًا كما كان الحال من قبل ، لكل من أهل طليطلة وبلنسية بالنسبة بالنسبة لأمرهم ابن ذى النون (ما سبق، ص ٢٩٢) . وهذا الأمر يعني أن الحركات الشعبية في المدن الإسلامية بالأندلس في ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس وبداية السادس ( ١١ - ١٢ م ) ، كانت أقوى من أن تحجبها سلطات أمراء الطوائف الصغار ، ربما بسبب تأييد المراتبين لتلك الحركات سياسيًا ، إلى جانب دعايتهم الدينية التي كانت تلقى التأييد شعبيًا . وهذا ما يتأكد بعد انفراد المراتبين بالسلطة ، حيث استمر الغليان الشعبي الناتج عن مأزق الضعف السياسي والاقتصادي ، في مقابل حركة القوة المتصاعدة في جانب حرب الاسترداد المسيحية ( الريكونكستا ) ، وبيان عجز حركة الانقاذ المراتبية وحدها عن مواجهتها .

هكذا استجاب القائد محمد بن الحجاج أمير بلنسية الجديد من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف ( بعد أن رضى عنه ) لدعوة أهل سرقسطة ،

---

(٤٧) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٨) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٣ - ٥٤ .

وتقدم اليها في ١٠ من ذى القعدة ٥٠٣ هـ/مايه ١١١٠ م ، حيث فتحت المدينة أبوابها للسؤل قواته التي استقرت في موضع المصل ( الشريعة ) ، بينما دخل محمد بن الحاج قصور الجعفرية الشهيرة بمجارتها الفاخرة وفنونها الزخرفية الرائعة(٤٩) .

المهم انه حدث ما كان يتوقمه زعماء أهل سرقسطة من قبل ، من استصراخ عماد الدولة عبد الملك ابن المستمين بالفونس بن ردمير ( ملك أراجون المعروف بالحارب ) الذي وافاه بحصن تطيلة (Tudela)

وهنا رأى محمد بن الحاج الذى كان قد خرج للتعرض بإبن هود أن يعود الى سرقسطة ، ترقيا لتطور الأحداث . وعندما تقدم ابن ردمير نحو سرقسطة حيث توقف على مسافة فرسخين منها خرج له ابن الحاج على رأس المرابطين بينما عهد بقيادة أهل سرقسطة الى ابنه أبى يحيى . ورغم ما بذله ابن الحاج من الجهد فى ترتيب أهل سرقسطة فى هيئة القتال ، الا أن هؤلاء لم يصمدوا طويلا عندما اندلعت الحرب ، إذ لم يأت آخر النهار حتى أخذوا بنظام التعبئة ، بل وتسلسل كثير منهم الى داخل المدينة . وكانت فرصة انتهزها ابن ردمير الذى قسم قواته الى فرقتين ، وقفت احدهما ازاء ابن الحاج بينما صدمت الأخرى عسكر أهل المدينة المختل فحلت بهم الهزيمة وقتل أبو يحيى بن محمد ابن الحاج وكثير من أصحابه السرقسطين ، وذلك عشية يوم الأحد ٥ من ذى الحجة ٥٠٣ هـ/٢٦ يونيه ١١١٠ م(٥٠) .

#### ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

يعتبر انتصار المرابطين على قوات الفونس السادس فى أقليمش ( شرق طليطنة ) سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م فى مطلع عهد علي بن يوسف ، ذروة النجاحات التى حققتها حركة الانقاذ المرابطية فى الأندلس والتى تنوعت بضم آخر امارات الطوائف فى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى ، الى اراضى المسلمين فى الأندلس لتتم وحدتها تحت رايات المرابطين ' والحقيقة أن الصراع سوف يستمر سجالا طوال عشر سنوات تقريبا ، بين حركتى الانقاذ

---

(٤٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ - حيث النص على ولاية ابن الحاج بلنسية عوضا عن ابن ناطلة والى غرناطة ، وأنظر القرطاس ، ص ١٦٠ - أحداث سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م - حيث سار محمد بن الحاج من بلنسية الى سرقسطة لدخلها وأخرج عنها بنى هود .  
(٥٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ .

المرابطين والاسترداد الاسباني ، عندما يبدأ رجحان كفة « الريكونكيستا » نتيجة فقدان حماس المرابطين الحربي من ناحية ، واقتدار ثقة الاندلسيين في كفاءتهم بشكل عام ، الاخر الذي يمكن أن يكون قد ساعد على قيام حركة الموحدين في المغرب ، التي زعزعت قواعد الدولة المرابطية في مهدها من جهة ثالثة في بلاد المصامدة ، وخاصة في منطقة مراكش حاضرة المرابطين ، على مشارف بلاد السوس الأقصى .

وتمثلت علامات التحول الاول في الجانب الاندلسي في وقوف عبدالملك ابن المستعين بن هود صاحب سرقسطة السافر الى جانب ابن ردمير ( المحارب ) ، الامر الذي يشبه ما فعله المنصور بن المتوكل عمر بن الانطس عندما فضل السير الى أرض يسيطر عليها الفونسو السادس بدلا من مواجهة يوسف بن تاشفين ( ما سبق ، ص ) - الامر الذي لم يجعل الحرب سجالا فقط بين المرابطين والمسيحيين في ضواحي سرقسطة بل جعلها تصبح في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ميدانا للحرب والمناوشة بين الطرفين صباحا ومساء . واذا كان النص يجعل التفوق ( الظهور ) لابن ردمير في كثير من الاحيان (٥١) ، فان وصول القائد أبي عبد الله بن عائشة ، والى برسية ، نجدة الى ابن الحاج بامر من أمير المسلمين ، بدل الموقف فاعتدل ميزان الحرب بين الطرفين ، وهكذا : « لم تزل الحرب بعد ذلك متصلة ، والمضارب مترددة ، وغزوات محمد بن الحاج متوالية » ولكنه عندما زاد ضغط المرابطين في منطقة نفوذ عبد الملك بن المستعين ، أثر توجيه علي بن كنفاط اللمتوني لحصار بعض حصون بني هود في جهة قلعة أيوب ، استغاث عبد الملك بملك أراجون فوجه اليه مددا من العساكر الاسبان ( الروم ) الذي لم ينجح فقط في الدخول الى الحصن رغم الحصار ، بل نجح أيضا في التسلسل خلال المعسكر المرابطي المظلم ليلا ليأسر قائده « علي بن كنفاط » ، ويعود به رهينة ثمينة الى عبيد الملك بن المستعين بمقر امارته في روضة (Rueda) حيث بقي بيليه قبل أن يفك أسره عندما تم توقيع الهدنة بين الطرفين - وان لم يمنع ذلك من معاودة القتال ، « والحرب سجال والنفس آجال » (٥٢) ، كما حدث في سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ، حيث خرج عماد الدولة من روضة لحرب محمد بن الحاج وانتهى الامر دون هزيمة أحد ، باكتفاء عماد الدولة بالاياب (٥٣) .

(٥١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٥ .

(٥٣) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٦ .



والظاهر أن توازن القوى الذي ترجع فيه شيئا ما كفة الاسبيان المسيحيين في الأندلس على كفة المرابطين لم يكن مقبولا من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين في مراكش ، الأمر الذي جعله يلجأ في اواخر سنة ٥٠٤ هـ/يونيه ١١١١ م الى تغيير القيادة العليا في الأندلس ، وذلك بنقل أخيه تميم - نائب الملك - من ولاية غرناطة الى ولاية تلمسان ، فاعده المغرب الأوسط(٥٤) . ووقع الاختيار على واحد من أكفأ انقواد المرابطين الذين عملوا في الجبهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى ( أبو محمد بن سزلنكان: ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ) الذي آلت اليه في مطلع سنة ٥٠٥ هـ/يوليه ١١١١ م ولاية كل من قرطبة وغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى - بمعنى النيسابة أو المملكة(٥٥) . والظاهر أن سياسة القوة التي أظهرها الأمير على نالت رضا علما من بعض الزعماء الذين عملوا في الجبهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى ( أبو محمد بن سزلنكان: عاد بعضهم الى الانتظام في صفوف حزبه الطبيعي ، الاسلامي . ففي هذا الوقت المبكر من سنة ٥٠٥ هـ/أغسطس ١١١١ م ، كان المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس يرجع من أرض اسبانيا المسيحية الى مدينة أشبيلية - حيث كان الأمير سير بن أبي بكر ( منذ فتح المدينة على عهد يوسف ) ، الذي رتب توجهه الى حضرة أمير المسلمين بمراكش ، حيث لقي استقبالا حسنا ، وصارت مه منزلة رفيعة في كنف الأمير(٥٦) .

وتظهر سياسة القوة التي انتهجها المرابطون في العقد الأول من ولاية الأمير على بن يوسف نتيجة طبيعية لتضافر عدد من العوامل التي هيأت استقرار الأمور في كل من المغرب والأندلس . أولها حسن اختيار الأمير على لمساعدته من الرجال الأكفاء من أهل المغرب والسياسة ، من أمثال محمد بن الحاج ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة وعلى رأسهم مزدلى ، ومن وقف الى جانبهم من الكتاب والوزراء من أهل العلم والأدب والفن : أصحاب الخبرة في الادارة وشئون الحكم . هذا ، الى جانب التمسك بتطبيق سياسة دينية أصولية مبنية على مبادئ المذهب المالكي وقواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الأمر الذي أدى أيضا الى تقريب الفقهاء ، والمهد اليهم بالبت في كل الأمور ، مما جل منها وما صغر(٥٧) .

(٥٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٥ .

(٥٥) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٦) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٥٧) قارن المسجب لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

وهكذا كان للأمير سير بن أبي بكر ، والى أشبيلية من قبل يوسف بن تاشفين منذ ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، أعماله الهامة فى إقليم الغرب حتى سنة ٥٠٤ هـ / ١١ - ١١١٠ م ، بل والى وفاته بأشبيلية ( جمادى الأولى ٥٠٧ هـ / أكتوبر ١١١٣ م ) (٥٨) حيث ينسب اليه فتوح مدن : برتقال (Porto) ويابره (Yavura) والاعتبونه (Lisbau ; Lisbonne) حتى شريش فى الجنوب ، الى جانب تهدين منطقة بطليوس ايضا - حيث كانت هذه الأعمال موضوع كتب رسمية أرسلت باسمه الى أمير المسلمين علي بن يوسف . وبعد الأمير سير آلت ولاية أشبيلية الى القائد محمد بن فاطمة الى حين وفاته فى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م (٥٩) .

هذا كما كانت للقائد مزدل بصفته والى غرناطة ، ونائب الأمير بالاندلس ، أعماله الحربية المجيدة التى آكلت التفوق المرابطى فى تلك الحقبة الأولى من ولاية علي بن يوسف . وفى سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م التى تسلم فيها مزدل ولاية قرطبة وغرناطة خرج على رأس جيش كبير من المرابطين والحرس الأميرى ( الحشم ) ممن حضروا من المغرب ، ومن قوات امارته ، وبما أمده به سير بن أبي بكر من قوات أشبيلية الى جانب المطوعة من الفرسان والرجالة . وكانت وجهة هذا الجيش الكبير منطقة طليطلة - هدف المرابطين وكل المسلمين ، الصعب المثال - « فدوخا واكنسح (مزدل) به أوديتها ، وأبلغ فى نكايتها » ، قبل أن يعود الى قرطبة « ظافرا ، ظاهرا على عدوه » . وإذا كانت هذه الأعمال موضوع اتفاق كل من ابن عذارى وابن أبي زرع (٦٠) ، فان الأخير يضيف اليها فتح مزدل فى تلك الغزوة حصن أرهينه ( أرينه أو أوريجا ) عنوة ، « وقتل من كان به من الرجال ،

---

(٥٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ - حيث يفهم من رواية ابن عذارى ان وفاة سير كانت مفاجئة ليلة خروجه للاحتفال بزفاف ابنته فاطمة الى أمير المسلمين ، وذلك فى موضع يسمى بالمغربات قرب أشبيلية . وكان يتبع مع ابنته زوجته حواء ( بنت تاشفين ) أخى يوسف ابن تاشفين لأنه ، وابن عمه ( علي ) فى نفس الوقت ) . وعقب الحفل الكبير الذى أستمع فيه الناس بالموسيقى ( اللهو ) والألحمة الفاخرة ، لئذ بالأمير سير مضى شديد صاب يتزايد عليه حتى قفى عليه عند اللجر ، وشهد جنازته بشر عظيم - بعد ولاية ناهزت الـ ٢٥ سنة .

إما عن حواء بنت تاشفين ، زوجة سير فقد عرفت بأنها شاعرة جليلة ماهرة ، ذات بياحة وخطر ، وأنها كانت تحاضر كثيرا من رجال الدولة من الأدباء والشعراء ، مثل : ابن النسيم وابن المرسى .

(٥٩) روض القرطاس ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ .

(٦٠) البيسان ، ج ٤ ص ٥٧ ، القرطاس ، ص ١٦٢ .

وسمى اسما ، وانفردية \* هذا ، وتضيف الرواية أن الفوائد الاسباني الشهير : البرهانس (Alvar Hanez) عندما خرج مسرعا لتجسدة اهل المنطقة لم يستطع مواجهة مزدل في معركة مكتسوفة ، بل انه فر عائدا الى بلده مستترا بسواد الليل ، وقبل ان يرجع مزدل الى قرطبة أمر بنحسين أرينه وحمل الميرة اليها ، كسسا رقب بها حامية مناسبة من البرسان والرجالة(٦١) .

ولا ندرى ان كان من حسن حظ مزدل في صائفته تلك ( سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ) ان شنت النوء العاصف الحملة الصليبية البحرية التي خرجت من فرنسا ( الأرض الكبيرة ) في نحو ٥٠٠ ( خمسمائة ) مركب تحمل عشرات الاف من المقاتلة ، من : الفرسان والرماة والرجالة : والتي كانت تصحبها مراكب الحجاج مشحونة ايضا بالاطعمة والازواد(٦٢) . وذلك أن مثل هذه الحملة الضخمة عادة ما كانت تقدم المداونة على طول الطريق ، وأثناء مرورهم بحذاء الساحل الأندلسي الغربي ، اذا ما طلبها منهم محاربوا الاسترداد ، بل وكان يبقى بعضهم في أسبانيا عندما تفوتهم المراكب المتجهة الى بلاد الشام وفلسطين - ومن المعروف أنه كان لذلك أثره في نشأة مينكة البرتغال التي استقلت بجزء من غربي شبه الجزيرة الأيبيرية .

#### من علامات الهبوط : وفاة مزدل بالثغر واستشهاد ولده دحمد :

وانفاخر أن آيا من نشاط مزدل انشخصي أو كفاءته العسكرية لم تكن وحسنا ، بل ولا كلاهما كافيتين لتقويم الأمر الواقع وتسدل ميزان النوى الى مصلحة المرابطين \* وذلك أنه عندما علم مزدل بتهديد غرسية بن الرند ، صاحب وادي الحجارة (Guadajara) المدينة المحصنة في الثغر ، بالاستيلاء على مدينة سالم (Medineli) الإسلامية -سد أن حاصرهما ، خرج اثنى لثاته ، ولكن مجرد خبر وصوله الى المنطقة كان كافيا لهرب ابن

(٦١) الرطاس ، ص ١٦٢ . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٤ و ١ - حث الاشارة الى ان المصادر الأسبانية تذكر أن الأمير مزدل فتح حصن « أوربغا » الذي يمكن أن يكون اسم أرضه بغيرها له - عن مجلة تطوان ١٩٥٨ .

(٦٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٥٨ - حث النص على أنها كانت دولة نخبة من العرب . يبلغ تعددها ١٥٠٠ فارس ، ومن الرماة ٥٠٠٠٠ ، وأن الرجب الصمصرة المانية أغرهم فلم تبقى منهم باقية .

الرند ، « تاركا جميع أسبابه وأثقاله ومضاربه » التي وقعت جميعا بينه  
يسى مزدلى .

ومع نجاح تلك الحملة التي ربما بدأت في الربيع أو الصيف المبكر ،  
فانه لم يقدر لمزدلى العودة الى مقر نيابته في قرطبة وغرناطة ، اذ استمر في  
غزو الثغر الأعلى ( بلاد الروم ) استكمالا للصائفة المبكرة ، حيث كانت  
بداية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م في أوائل يونيه ، وهي السنة التي توفي فيها  
مزدلى ، ربما بسبب الاجهاد ان لم يكن من المرض (٦٢) . وعندما بلغ الخبر  
الى مراکش ( العاصمة ) صدر الأمر من ديوان أمير المسلمين بتعيين ولدي  
مزدلى وهما : عبد الله بن مزدلى ومحمد بن مزدلى اللذين كانا في كنفه  
بالحضرة مكانه ، فكان لعبد الله غرناطة ولمحمد قرطبة ، وتم لهما الاستقرار  
بولايتيهما في آخر ذي القعدة من سنة ٥٠٨ هـ / ٢٧ ابريل ١١١٥ م (٦٤) .

واستمر محمد بن مزدلى في الغزو بمنطقة الثغر هذه لمدة ٣ ( ثلاثة )  
أشهر أى حتى نهاية الصيف ، ولكنه توفي شهيدا في ساحة القتال ، في  
ظروف صعبة على ما نظن ، وذلك ان الرواية لا تحدد تاريخا لذلك المصائب  
خلال سنة ٥٠٨ هـ / ٥ - ١١١٤ م (٦٥) .

وهكذا كانت قائمة وفيات كبار القواد وأسر بعضهم تزداد طولاً مع  
مرور الوقت خلال العقد الأول من عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ، الأمر  
الذي يمكن ان يعتبر سمة مميزة لنهاية عهد الصعود المرابطي في الأندلس ، وبداية  
بالتالى لمهد الهبوط ، وهو ما يجعله عبد الواحد المراكشي بداية لمهد الفساد  
والتردى (٦٦) ، الأمر الذى ينفق مع نظرية ابن خلدون في أن الحضارة

---

(٦٢) من مزدلى : هو : أبو محمد مزدلى بن مسولكان ، ابن عم أمير المسلمين  
يوسف بن تاشفين ووصل جثمانه الى قرطبة في بداية شهر شوال ، ثاني يوم ولاته ، وصلى  
عليه اثر صلاة العصر ، القتيب القاسي أبو العاصم بن حمدين ، ابن عذاري ، ج ٤ ص ٦٠  
والهامش رقم ١ للمحقق ، وانظر المير ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على كثرة غزواته في  
بلاد النصرانية .

(٦٤) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٦٠ ، وقارن القرقاس ، ص ١٦٢ - حيث خلف والده  
مزدلى بشكل عام .

(٦٥) روض القرقاس ، ص ١٦٢ .

(٦٦) أنظر الموجب ، لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٧٧ - حيث النهى على اختلال البلاد  
( الأندلس ) بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م باستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ٠٠٠ وأمر  
المسلمين ٠٠ ينزايذ تفاقله ، ويقوى ضعفه ٠٠٠ الخ .

خزوة المعمران ومؤذنة بضمادها (٦٧) .

### مظاهر الهبوط والتردى على عهد علي بن يوسف :

والحقيقة أن عهد الواحد المراكشي يبالغ عندما يقرر بشكل عام - أن اختلال الدولة المرابطية بدأ مع عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، فكانه يجعل عهد يوسف وألده علي ، هو ذروة النصر المرابطي . والصحيح أن عهد يوسف بن تاشفين هو عهد التأسيس والقوة العسكرية - والسياسة - أساسى حكمومة الاستقرار التى تزدهر تحت مظلتها أسباب الحضارة والرفعى فى جميع أشكالها ، وهو الأمر الذى ظل يتحقق فى عهد أمير المسلمين الثانى : علي بن يوسف الى أن بلغ أوجه حوالى منتصف امارته ( ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ) وهو انتوقيت المقبول كيداية لتفاقم أسباب الهبوط قبل التردى .

وعهد الواحد المراكشي يشهد أسباب الاختلال فى كثير من المظاهر التى يطلق عليها اسم « المناكر » ( جمع منكر بمعنى الشر ، عكس المعروف بمعنى الخير ) كالآتى :

١ - استيلاء أكابر المرابطين على البلاد - فكان القواد والولاة من المرابطين كونوا طبقة ارستقراطية من السادة الجدد الذين حلوا مكان رؤساء الطوائف وأعادوا سيرتهم الأولى من حيث الاستقلال أو الاستبداد أو الافتئات على السلطة المركزية المثلثة فى سلطان أمير المسلمين (٦٨) .

٢ - حصول المرأة المرابطية ( أى الصنهاجية أو اللمتونية من قبيلة يوسف بن تاشفين - بخاصة ) على مركز متميز ، كما هو الحال فى المجتمع المغربى البربرى حيث نظام الأسرة ذات السيادة الأموية ( الماترياقية ) ، وخاصة عند الصحراويين المثلثين ، مما يسمح للمرأة بالسفور ، وباجتماع النساء والرجال فى العكائبة ( ما سبق ، ص ٧٤ ) ، مما لم تعرفه المجتمعات المدنية الاسلامية وخاصة فى عواصم المغرب الكبرى والأندلس

---

(٦٧) المقننة ، طبعة التجارية ، باب ١ الفصل ١٩ ( فى ان الحضارة لحاية المعمران ) ، ص ٣٧١ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ ، عن مزمل وكثرة غزواته ، وعلى بن يوسف وانه كان خير ملك ، كما كانت أيامه صغر ووافة ..

(٦٨) المذهب ، ص ١٧٧ - حيث النص على استبداد أكابر المرابطين وتناولهم على السلطان الى حد التصريح « بأن كل واحد منهم خير من على أمير المسلمين ، وابق بالأمر منه » .

حيث حياة السراى والجوارى الى جانب الحرات من ذوات الحسبي ، هي مجتمعات الحريم بالقصور المخلقة ومجالس الخاصة (٦٩) ، الأمر الذى كانه يثير مشاعر المتشددىن من المصلحيين ، مثل محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية المناهضة للمرابطين ، الذى لفت الأنظار الى هذه « البدع » - وهو ما كان يعتبر من حرب الدعاية التى قام بها مختلف الخصوم ضد قيام الدولة الفاطمية فى أفريقية ( ج ٢ ص ٥٦٨ ، ج ٣ ص ٣٥ ) .

٣ - ويعتبر السبب الثالث والأخير ، وهو الخاص بتفاؤل أمير المسلمين أو ضعفه ، مما قلعه عبد الواحد المراكشى لاختلال الدولة المرابطية ، السبب الرئيسى على اعتبار أن غيره من الأسباب توابع له ، اذ يقول ان ضعف على ابن يوسف كان يتزايد ويقوى مع مرور الوقت ، حتى « قنع باسم أمير المسلمين ، وبما يرجع اليه من الخراج » وعكف على العبادة والتبتل ، فكانه يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكثرت تمرد الى حالتها الأولى ، ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس (٧٠) .

والذى نراه نراه أن ضعف أمير المسلمين على بن يوسف أو تبتله وتحوله الى ولى من أولياء الله الصالحين « يقوم الليل ويصوم النهار » مهملا أمور الرعية وخاصة بالنسبة للأندلس ، انما هو تهرب من مواجهة الموقف الذى اخذ يتأزم وبخاصة فى حرب الإسبان المسيحيين ( الرىكونيست ) . والحقيقة أن الأمير على - الذى خذ قىلكي يكون كاهنا ، كما يقول دوزى ( ص ٣٧٨ ، ه ٩ ) - ما كان يصلح لمثل هذا الموقف الذى يحتاج الى نوع آخر من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد إلا عزيمة وإصرارا ، تماما كما كان الحال بالنسبة لوالده يوسف : ابن الصحراء الذى تهرس : باختبارات البيئة الصعبة التى لا تسمح بالبقاء الا للناصر القوية من النحاس . وهكذا لم يتحمل الأمير على فشل قواته أكثر من مرة فى مواجهة القوات الاسبانية ، وما كان يصاحب ذلك من استشهاده الشجعان من قواته - فكان تحوله من أمير قائد الى ولى صالح .

---

(٦٩) المصجب ، ص ١٧٧ - حرم البالغة فى الشرق : « واستولى النساء على الأحوال ، واستندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر الخوة ومسولة مشملة على كل عيبه وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر ومخوور » .  
(٧٠) المصجب ، ص ١٧٧ .

### مصاعب الحرب الإسبانية :

#### وتوابعها من الاضطرابات الداخلية والتحديات الخارجية :

ومن سوء حظ الأمير علي بن يوسف أنه لم يواجه في بداية ملكه حروب الاسترداد وحدها في الأندلس ، بل كان عليه أن يواجه ثورات الزناتية ، خصوم المرابطين الأوائل في المغرب ، كما حدث في بلاد الريف وفي المغرب الأوسط بتلمسان ، الى جانب الفارات البحرية التي بدأت تقوم بها أساطيل الجمهوريات الإيطالية البحرية ، سواء على جزر الأندلس الشرقية أو بعض السواحل الليبية .

#### اضطرابات الزناتية في العلوة المغربية :

ففي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ثار الزناتية ببلاد غمارة في الريف ، حيث قام رجل يعرف بابن الزنر الذي ادعى أنه من أبناء منصر الزناتي ، آخر ملوك فاس السابقين . والظاهر أن الدعوة الى قيام دولة مغراوية من جديد لقي نجاحا لدى زناتية الاقليم ، وذلك أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يقضي على تلك الثورة بالقوة ، الأمر الذي دعاه الى استخدام بريق الذهب لتهديد الغماريين الذين خلصوه من التناثر ، فقتلوه غدرا . واتوه برأسه .

أما عن ثورة تلمسان حيث قام ماخوخ الزناتي الذي لم يستقر في عاصمة الاقليم بل اتخذ مدينة أميرية خاصة به ، فكان يكفي للقضاء عليها خروج أمير المسلمين نحو الثائر لكي يفر أمامه ويخرج من بلاده (٧١) .

#### غارات ودعية للجنوبيين على ميورقة وبرقة :

هذا ، كما واجه الأمير علي بن يوسف تهديد أساطيل جنوة التي بدأت تهيم على الملاحة في البحر المتوسط ، وتكون امبراطورية تجارية كبرى تستطيع أن تؤمن متاجرها بقوة الأساطيل الحربية اذا لم تجسد العلاقات الدبلوماسية ومعاهدات السلام .

وهكذا كان الجنوبيون يهاجمون في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م جزيرة

---

(٧١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٨ .

ميورقة ( البليار ) التي كانت بيد الفتى مبشر ، مولى على بن مجاهد ، ودخلوها عنوة بعد حصار شديد (٧٢) . ومن الواضح أن الغسارة الجنوبية كانت انتقامية للردع فقط ، وذلك أن الأسطول المرابطي المكون من ٢٠ ( عشرين ) مركبا حربيا ، حشنت من أجل استرجاع ميورقة ، وجدت الجزيرة خالية من العدو عندها وصلت اليها في السنة التالية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م (٧٣) .

وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م هذه كان الجنويون يهاجمون برقة ويستولون عليها ويخلونها من أهلها . ولكنهم بعد أن تركوها لم يلبث العمران أن عاد اليها بفضل القائد مرتانا قرط المرابطي - الأمر الذي يعني أن النفوذ المرابطي كان يصل في بعض الأحيان شرقا إلى برقة (٧٤) - أن لم يكن برا فمن طريق الأسطول يبحر .

#### وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدلي :

وهنا نلاحظ أن مظاهر بلوغ عهد الذروة عند المرابطين يتمثل في استخدام الأسطول في الجهاد وخاصة ضد صقلية النورمندية ، حيث تمدنا حوليات ابن عذارى بمعلومات جيدة بهذا الشأن . ففي سنة ٥٠٩ هـ / مايو ١١١٥ م كان الأسبان يردون على غارات محمد بن الحاج ومزدلي على بلادهم في سرقسطة وطليطلة بغارات انتقامية على القواعد الإسلامية في قرطبة وأشبيلية . ففي بداية ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م « ضرب العدو على نظر قرطبة ، وتصجل محمد بن مزدلي في مواجهة المعتدين » والظاهر أنه تهور بعض الشيء في مطاردته لهم ، الأمر الذي مكنتهم من مفاجاته على حين غرة . وانتهت المفاجأة بكارثة كبرى في يوم الخميس مستهل صفر ٥٠٩ هـ / ٢٦ يونيو ١١١٥ م ، يمكن أن تعتبر قرينة وثارا لهزيمة « الفتى سانكو » ولي عهد الفونس السادس ، وصحبه الأقمط السبعة في أفليش ( ما سبق ، ص ٣٨٥ ) . وإذا كانت رواية ابن عذارى تبالغ عندما تحدد عدد القتلى من

(٧٢) ابن عذارى ، لهر كولان وبروفيسال ، ج ١ ص ٣٠٥ ، وقارن ابن القطان نظم الحمال ، ص ١٩ - حيث النص على قتل الرجال وسبي النساء والأطفال .  
(٧٣) روض القرماس ، ص ١٦٢ - حيث النص على ملك أمير المسلمين على الجزائر البحرية شرق الأندلس ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٥ ، ابن القطان ، ص ١٩ - حيث النص على أن الروم ، حاجبوا الجزيرة ، والمقصود ، أهل جنوة وبيزة وقطاونيا .  
(٧٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ .



الأمراء المسلمين ( القواد ) بما يناهز الثمانين قائدا ، فإن هذا التهويل  
يعنى فى حقيقة الأمر رسم علامة مميزة على مسار الانقراض المرابطى فى  
الأندلس ، بما يفيد أن وقعة قرطبة هذه يمكن أن تعتبر نذير شؤم على  
طريق بداية النهاية بالنسبة للوجود المرابطى بالأندلس . قالى جنانيد  
استشهاد محمد بن مزدلى يذكر مقتتل كل من : أبى اسحق بن غانية  
( دانية أصلا ) وأبى بكر بن واسينوا ، وجملة كبيرة من رجال الحرس الأمرى  
( الحشم ) وأهل الأندلس - « فكان مصابا عظيما ، وخطبا جسيما » (٧٥) .

### الهيّاج الشعبى على المرابطين :

#### ثورة قرطبة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م بداية النهاية للمرابطين :

هذا ، وإذا كانت حوليات ابن القطان تذكر غزوة لمعد الله بن فاطمة  
الذى آلت اليه ولاية أشبيلية فى نفس السنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ( بدلا من  
فاس ) (٧٦) يمكن أن تعتبر انتقاما لوفاة مزدلى واستشهاد ابنه محمد بن  
مزدلى فى ميدان الجهاد ، فإن ثورة قرطبة ، قاعدة البلاد وحاضرة الخلافة  
العتيدة ، منذ أواخر سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، تعتبر بحق علامة بداية  
النهاية بالنسبة للمرابطين بالأندلس .

والحقيقة أن ثورة قرطبة هذه كانت نوعا من الهيّاج الشعبى الذى  
عرفته العواصم الاسلامية ، بعد عهد من الاستقرار تضخم فيه عدد سكانها ،  
وازدادت فيه رفعتها خارج الأسوار ، أشبه ما يعرف حاليا بالبناء العشوائى  
خارج المدن ، كما حدث فى بغداد على عهد الأمين والمأمون ، وفى قرطبة  
أيام الحكم الرضى ، وفيما بينهما بالاسكندرية ثم فى مدن المغرب الكبرى  
وصقلية ، والأندلس على مر الزمن ، الأمر الذى ينتهى بقيام حكومات مدن  
الطوائف .

(٧٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦١ - حيث تضيف الرواية الى زمرة القواد الشهداء ،  
الأمير محمد بن الحاج ربما نعت تأثير شخامة الكارثة أو من أجل المتانة بإضافة ابن الحاج  
وهو الأمر المقبول . فمن المعروف أن مجال جهاد محمد بن الحاج كان فى منطقة الشتر الأعلى  
وبرشلونة شمالا ، وأنه استشهد سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ( السابقة ) فى حوطة البورت  
( الباب ) ( ١ - حيث الإشارة الى معجم الصندى لابن الأبار ) التى تسمى ممرات جبال  
البرانس المعروفة بالبرينات ( الأبواب ) . وأنظر فيما سبق ص ٢٨٢ و٢٢٢ - حيث رواية  
ابن الأبار ( المعجم ) ترجمة رقم ١٢٠ ص ١٣٤ - حيث استشهد محمد بن الحاج أثناء ولايته  
سرقسطة بالبورث ( الباب ) سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م .  
(٧٦) نظم الحمان ، ص ٢١ و٢٢ .

ففى خلال احتفالات عيد الأضحى من سنة ٥١٤ هـ/نبرابر ١١٢١ م ،  
وخروج عامة أهل قرطبة رجالا ونساء الى المنتزهات وشطبان النهر الكبير ،  
كان الاغراء أشد من أن يحتمل السكوت عليه بالنسبة لبعض رجال الحرس  
الأميرى من العبيد السود ، فامتدت يده الى امرأة وهى تسر بالقرب منه -  
الأمر الذى يعنى أن الحدث وقع على الرصيف المواجه لسور القصر على طول  
شاطئ النهر ، غير بعيد من القنطرة .

والهم أن الحدث الفردى هذا ، لم يمر بسلام بل انتهى بقيام العامة  
على حرس أبى بكر بن يحيى بن رواد ، وإلى قرطبة وقتئذ ، ودامت «الفتنة»  
العظيمة بين العبيد السود من رجال الحرس وأهل البلد طوال النهار .  
وعندما تدخل زعماء العاصمة من الفقهاء والأعيان ورأوا أن يشتري الوالى  
أبو بكر تهدة العامة بقتل واحد ما ، من عبيده الذين أثاروا الفتنة ، أنف  
من ذلك واعتبره تطاولا على سدة الحكم ، واستعد لمواجهة العامة الذين ردوا  
رجاله الى داخل القصر . وعندما ضيق القرطبيون حصارهم على القصر ،  
اضطر الوالى الى الهرب منهم ، فكانت فرصة انتهزها العامة لنهب القصر  
ثم تبادوا الى دور المرابطين فأحرقوها وأخرجوا أصحابها من البلد (٧٧) .  
وبذلك تكون قرطبة قد قلبت ظهر المجن للمرابطين وعادت جمهورية شعبية ،  
كما كان الحال على أيام ابن جهور ( ما سبق ، ص ٢٩٣ و ٣١٠ ) .

وعندما وصل خير ثورة قرطبة على المرابطين أرسل أمير المسلمين على  
ابن يوسف الى أهلها خطاب تقريع وتهديد ، فلم يؤثر فيهم ذلك الترهيب ،  
وعندئذ قرر المسير بنفسه على رأس حملة عبرت الى الأندلس فى ربيع الأول  
سنة ٥١٥ هـ/مارس ١١٢١ م قبل أن يزداد الحرق اتساعا . ولكنه رغم  
وصوله أمام المدينة لم تفتح له الأبواب . وعندما ضرب جيشه الحصار عليها  
وقف أهلها على أهبة الاستعداد للقتال . وأخيرا انتهى الأمر الى المفاوضات  
فى الصلح على أساس ما قيل له من وصية والده بالاحسان الى محسنى أهل  
قرطبة والوفو عن مسيئتهم - لما لهم من منزلة خاصة (هاسبق ، ص ٣٧٩) ،  
واستجاب القرطبيون ، الى ما قرره الأمير ( المتبتل ) من أن يغرم أهل قرطبة

---

(٧٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ - حيث النص على أن هاج قرطبة الجديد هذا ،  
كان قبل سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م ، وقانون ابن التطان ، نظم الجبان ، ص ٢٣ - حيث تصديق  
حملة الأمير على قرطبة فى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م ، بعد أن لم يستجيبوا الى تهديده فى  
لسنة السابقة ( ٥١٤ / ١١٢١ م ، سنة الثورة ) .

للمرابطين ما نهيه من أموالهم ، وعاد من قتالهم (٧٨) . ونحن لا ندرى إن كان يمكن المتباعدة بين فتح الأمير على هذا القرطبة وفتحها الأول على عهد أمير المسلمين يوسف ، فالاختلاف واضح بين الترحيب الشعبي الأول وموقف القهر اللاحق الذي يجعل من أمير المسلمين الثاني واحدا من موك الطوائف .

والهم هنا الإشارة إلى أن ثورة قرطبة هذه التي بدأت خلال سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م واستمرت إلى أوائل سنة ٥١٥ هـ / مارس ١١٢١ م كانت متزامنة مع ظهور دعوة مهدى الموحدين محمد بن تومرت ، وهو التوقيت الذي يجتبر بدء اختلال الأمور على عهد الأمير على بن يوسف ، بل وعم أسبابه (٧٩) .

وهكذا يكون موقف المرابطين العسكري والسياسي قد ضعف في الأندلس على المستويين الخارجي والداخلي بحكم التداعي ، من حيث أدت نجاحات حركة الريكونكيستا إلى افتقاد ثقة أهل البلاد في قدرة حكامهم الجدد على تحقيق عمالية الانقاذ الخارجي ، الأمر الذي أدى بالتالي إلى التحول السلبي في الموقف الأدبي الذي كان يؤدي إلى الضعف المنهوي للجهة الداخلية مما يمكن التعبير عنه بالانفصال الروحي بين الشعب والدرجة الحاكمة .

### الموقف الديني والثقافي في الأندلس والمغرب :

#### في أوائل عهد الأمير على بن يوسف :

ويظهر أثر ذلك التحول الأدبي في الجهة الداخلية في كل من الأندلس والمغرب فيما طرأ على الفكر الديني من التطور ، نتيجة طبيعية لتطور الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت الذروة في القرن ٥ هـ / ١١ م في المشرق

(٧٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ .

(٧٩) أنظر ابن القلان ، ص ٢٢ - حيث النص في أخبار سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م : ثم هاجر الإمام أرضه وحل بجبل إيجلس ومع ذلك اتصل بعلي بن يوسف أن أهل قرطبة قدوا على المسلمين ، أنظر ابن عداري ، ط ، بيروت ، ج ١ ص ٤٤٣ - حيث النص في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م . وفيها كان حلول ابن بومرت للطلب المهدي بأغصان محرّضا على الخروج بل السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة . وفارن الحلل المؤسفة ، ص ١٠٢ - حيث النص : وإن أمير المسلمين علي بن يوسف اضطربت عليه الأمور من لدن ظهور المهدي عليه . وبعد هذا الكلام أعرف بالمهدي ، وبداية أمره . . . وأعود إلى اتهام دولة أمير المسلمين علي بن يوسف من تاشفين .

يظهر كبار المفكرين هناك على كل المستويات ، مثل : الفارابي والماوردي ونظام الملك في الفكر السياسي ونظم الحكم ، والفارابي والرازي وابن سينا في الفلسفة والطب ، والماوردي والغزالي والشهرستاني بعدهم ، في علوم الدين والتصوف ، الأمر الذي كانت له أصدؤه في القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، في الفكر الإسباني المغربي والحضارة فيما تمثل في أعمال كل من ابن رشد وابن زهر في الفلسفة والطب أو أعمال ابن بصال وابن العوام في فلاحه الأرض والزرعة . وهي الأعمال التي تمثل نهضة الغرب الإسلامي التي بدأت بواكيزها في ذلك الوقت المتقدم من عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، والتي ستبلغ الذروة عما قريب على عهد الموحدين الذي يعتبر استمرارا طبيعيا لتطور الحضارة المغربية الأندلسية الناشئة في كنف دولة المرابطين .

#### المالكية المرابطية على عهد علي بن يوسف :

ويظهر التطور الديني على عهد علي بن يوسف بن تاشفين في بلوغ المذهب المالكي الى قمة قوته بفضل مساندة الأمير « المتبتل » الذي أحاط نفسه بفقهاء المالكية ، كما وضعهم على رأس الجهاز الإداري ، حيث شغلوا مناصب القضاء وإقامة الصلاة في المساجد العظمى بالأمصار ، كما شغلوا مناصب الشورى الى جانب أمير المسلمين في مراكش ، وفي نيابة الأندلس وقواعدها الكبرى ، كما في المغرب . الى جانب ما كان لبعضهم ، من وظائف الوزارة والكتابة التي ارتقى بعضهم فيها وبلغ درجة الرشد والكمال (٨٠) .

وأهم المصادر المعتمدة للتعريف بأحوال المالكية في الأندلس على عهد علي بن يوسف وهيمنة المذهب المالكي في تلك الفترة المصيرية من تاريخ الدولة المرابطية هو كتاب ابن الأبار المعروف بمعجم أصحاب الصدفى :

---

(٨٠) انظر معجم الصدفى لابن الأبار ، رقم ١٢٠ ص ١٢٣ - حيث ترجمة ابن الرضى : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز الأشبيلي ، الكاتب الجليل ، أحد المقربين من أمير قرطبة محمد بن الحاج ، والذى وصف بأنه أحد رجال الكمال بالأندلس ، رقم ١٢٥ ص ١٤٦ - حيث يوصف محمد بن أبي الحاصل ( ذو الوزارتين - ت ٤٥٠ هـ / ١١٤٥ م ) بأنه أحد رجال الكمال ، وانظر أيضا رقم ١٤٤ ص ٢٠٣ - حيث رسالة من أبي علي الصدفى الى صديقه صاحب الترجمة : الركن السرقسطي ( عبد الله بن دوى - ت ٥١٣ هـ ) يخبره انه لو كان معه في بغداد أثناء رحلته الشرقية ، لاذن لعرف الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك له قدره ووفاء حقه وقسطه « اذ يقل وجود مثلك وتكثر حاجاتهم ال من ذك فكيف بهم لو ظفروا بك ... » هو از من كنت تحصل به من أهل الدولة العباسية » .

شيخ مرسية ، شهيد موقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م (٨١) . ويظهر الاهتمام بالمذهب المالكي في عناية أفراد الأسرة الحاكمة - اقتداء برأس الأسرة أمير المسلمين علي بن يوسف . وهذا ما يتضح في ترجمة الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف ( المعروف بابن تقيشت - اسم أمه ) ، أخى الأمير علي الذي دخل في زمرة تلاميذ أبي علي الصدفى بحكم موقعة في اماره مرسية ، والذي استشهد معه أبو علي الصدفى في كتندة (٨٢) . والمهم أن ابن الأبار يختم ترجمة الأمير ابراهيم الذي ول مرسية بعد أشبيلية ، مؤكدا سيادة العلم والايمان وقتئذ ، قائلا : وفى دولة أخيه ( أمير المسلمين علي ) تفقت العلوم والآداب ، وكثر النباه ، وخصوصا الكتاب (٨٣) .

والحقيقة أنه رغم أن المشرق ظل حتى ذلك الوقت من بداية القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م منهل العلم والثقافة بالنسبة لعلماء المغرب الاسلامى ، فإن حواضر الأندلس كانت قد أصبحت مراكز علمية مرموقة بفضل إبنائها الرحالة الذين أصبح يشهد اليهم الرحال بدورهم - حتى أصبح اسم « الرحالة » يطلق على من كان لهم تجوال في عواصم الأندلس العلمية أيضا (٨٤) .

أما عن أخذ عنهم من مشاهير الأندلسيين من المشاركة في ذلك

---

(٨١) أنظر المعجم في اصحاب الصيدلى لابن الأبار ، مدريد ( مجريط ) ١٨٨٥ .

(٨٢) معجم الصدفى ، ترجمة ابراهيم بن يوسف ، رقم ٤٠ ص ٥٥ - ٥٦ - حيث أرسل ابراهيم وزيره يطلب من الصدفى أن يسمح عليه في منزله فرحب الشيخ بذلك على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماح اصحابه - وأن طبع في البداية في تشریف الأمر له مجلسه . وعن استشهاده أنى على مع الأمير ابراهيم في كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ترجمة رقم ٣ ص ٨ ، ٢ - ٢١ ( عن كاتبه ابن قزمان ) ، ص ٣٠٦ ( عن سماح كبار المرابطين ) .

(٨٣) معجم الصدفى ، ص ٥٦ - حيث النص على أن أبا بكر الصدفى حكى في تاريخه ان على بن يوسف استنجز أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جمع رواياته لملو استناده فأجاز له . وأضاف الى ذلك ، وأبوه ( علي بن يوسف ) أبو يعقوب ( يوسف بن تاشفين ) مع تشانه في الصحراء ، كان لا يمضى أمرا الا بمشورة الفقهاء .

(٨٤) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٤ ص ١٤٠ - ١٤١ - حيث أبو الطاهر السرقسلى ، الاشتراكى الذى يوصف بأنه كان رسالة في طلب العلم ببطنية وشاسبية وقرطبة ومرسية وقرطاجنة ومالقة وأشبيلية . كما ينسب اليه التضلع في عدد من العلوم ، من : اللغات والآداب والمسلسل ( من الحديث عن طريق علماء الأندلس فيما بينهم ) والمقامات الضرورية والقراءة والحديث .

الوقت ، فمنهم : أبو الطاهر السلفي ( الشافعي ) الذي جعل من الاسكندرية واحدة من أهم مراكز علم الحديث اعتبارا من سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وحتى وفاته في ٥ ربيع الآخر ٥٧٦ هـ / أغسطس ١١٨٠ م (٨٥) . وكان عدد تلاميذ السلفي من الأندلسيين الذين أخذوا عنه لا يحصون كثرة ، كما كان كثير من المعاصرين للأمير علي بن يوسف بن تاشفين قد تتلمذوا عليه بطريق المراسلة ( المكاتبه ) ، مثل : أبي عمران بن أبي تليد ، وأبي الوليد بن رشد ، وأبي علي بن سكرة الصدي ( صاحب المعجم ) (٨٦) .

وأخذ الأندلسيون بالاسكندرية أيضا عن أبي بكر الطرطوشي ، صاحب أول مدرسة مالكية بالاسكندرية (٨٧) وأبي الحسن الخلي ، وأبي الحسن بن داود الفارسي بمصر ، وابن أبي العالم ( أبي القاسم ) وابن أبي الحديد ( أبي عبد الله ) والمقدسي ( أبي الفتح نصر ) ، والاسفراييني ( أبي الفرج بن سهل ) بدمشق (٨٨) والبيضاوي ( أبي الفتح ) ، والنهائدي.

(٨٥) معجم الصفي ، رقم ٣٦ ص ٤٨ - حيث سجل عليه أبو الطاهر بن عوف بجامع عبد الله بن عمر بن العاص ، وكان دفنه في مقبرة وعلة ( مقبرة كوم الدكة ) .

(٨٦) معجم الصفي ، رقم ٣٦ ص ٤٨ - ٥١ - حيث النص على ان السلفي قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م للسمع من الرازي ( أبو عبد الله بن الخطاب ) وفي لفته اختراق بلاد المغرب والأندلس للأخذ عن أصحاب أبي عمر بن عبد البر وغيرهم ثم العودة الى أصبهان بلده ولكنه انشغل بسماع السكندريين منه ، وبإحسانهم اليه فأقام بالفرج الى أن مات الرازي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م وله من العمر ١٠٠ ( مائة ) سنة ، فخلعه في الأسراع . وظل عمر السلفي الذي زاد شيوخه على الألف (?) ليطول الانتفاع به . وينص ابن الأبار ( ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ) على أنه تتلمذ على أكثر من ٢٠ ( عشرين ) شيئا من تلاميذ الرازي من الأندلسيين والمشرقيين ، سمع منهم جميع رواياته ونوالفه ، ص ١٤٢ - حيث ينص محمد بن أحمد بن موسى ، من أهل مرسية على سماعه من الرازي والسلفي ، وأنه جلب الى المغرب فوالد جماعة عند مقدمه من المشرق ، ص ١٧٩ - حيث كتب اليه السلفي والمازري من المشرق ، ص ٢٤١ ( عن السلفي ) ، ص ٢٥٣ ( عن السلفي والمازري ) .

(٨٧) معجم الصفي ، ترجمة رقم ١١٦ ص ١٢٦ - حيث محمد بن إبراهيم ( أبو بكر النيسابري - من أهل الري ) الذي أخذ أيضا بالاسكندرية من ابن الخطرمي ، الذي كان من رحالة الفقهاء المشاهير والذي ول قضاء مرسية بعد وروحه من الري في شبان ٥٢٧ هـ / يونيو ١١٢٣ م الى المحرم سنة ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٢٤ م ، وتوفي متوكبا في مراكش سنة ٥٣٦ هـ / أغسطس .

(٨٨) معجم الصفي ، ترجمة رقم ١٢١ ص ١٣٥ - حيث محمد بن يحيى ( أبو المال : الفرس : ابن الصايغ ) فاضل دمشق وخالد ابن عساکر ، ص ٢٣٦ ( الخلمي ) .

» أبى نصر ( فى مكة (٨٩) ، وابن طرخان التركى ( أبى بكر ) بدمشق (٩٠) .

أما عن أهم الكتب الدارجة فى حلقات هؤلاء العلماء مما كان يمثل مقررات الدراسة فى هذا الوقت من امارة على بن يوسف ، فمنها التقديم المتواتر بين الأجيال ، ومنها الحديث المؤلف بمعرفة رجال العصر المحدثين . وأشهر تلك الكتب التى كان يدرسها كبار العلماء وقتئذ من أهل المشرق أو من تلاميذ الأندلس الذين عرفوا بأنهم من رجالات الأندلس ، بل ومن أصحاب الكمال منهم ، سواء بالسماع أو القراءة أو الرواية أو الكتابة أو الاجازة ، هى كتب الحديث بطبيعة الحال .

ويأتى فى المقام الأول بعد الصحاح كتب الدارقطني ( ت ببغداد ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ) ، من : السنن ، والمؤلف والمختلف ، والاستدرآكات على البخارى ومسلم واللتبوع والازامات (٩١) ، وبعدها يأتى رياضته المعلمين لأبى نعيم (٩٢) وجامع الترمذى (٩٣) ، ثم كتب أبى عمر بن عبد البر ، مثل الوسيط والتقى (٩٤) ثم مشتببه النسبة لابن عبد الفنى (٩٥) .

وأهم كتب المعاصرين ، هى : الاستدرآك على أبى عمر بن عبد البر فى الصحابة ، لأبى اسحق ابراهيم بن يحيى ( ابن الأمين ت ٥٤٤ هـ /

---

(٨٩) معجم الصمدى ، ترجمة رقم ١٢٣ ص ١٣٩ - حيث محمد بن الحسين الأنصارى ( أبو عبد الله الميورى ) الذى سكن غرناطة ، والذى امتحن بالقبطى عليه من ابن رجال ( أبو الحكم ) ، وابن العريف ( أبو العباس ) ، فقصده المشرق ثانية ، وأقام بمدينة بجاية برهة وحدث بها فى سنة ٥٢٧ هـ / ١١٤٢ م .

(٩٠) معجم الصمدى ، ترجمة رقم ٢١٨ ص ٢٢٨ - حيث ترجمة عبد الرحمن بن محمد النفلى ( أبو الفاسم بن الصايغ ) الذى خرج من دمشق الى نطبة سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م فولى الصلاة وخطبة بتوزر .

(٩١) معجم الصمدى ، ص ٨٩ ( السنن ) ، ص ١١٩ ( المؤلف والمختلف ) ، ص ٢٩٥ ( الاستدرآكات والتبوع والازامات ) . وعن الدارقطني الذى أخرج ٢٠٠ ( مائى ) حديث من صحيح البخارى « ذهب الى أنها ضميعة » ، انظر تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، مراجعة حسين مؤسى ، ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٩٢) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٧١ ، وكذلك حلية الأولياء ، ص ١٣٦ .

(٩٣) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٠٠ ، ٢٩٥ .

(٩٤) المعجم ، ص ١٢٨ ( الوسيط ) ، ٢٠٩ ( التقى ) .

(٩٥) المعجم ، ص ١٤٥ ، ٢٩٥ .

(١١٤٩ م) (١٦) ، وكتاب الاعتناء بمصاييح السماء لموفق المسنالي ( من أهل المرية ) (١٧) . أما تواليف « المرسى » : أبو محمد عبد الله بن محمد النفري ( ٤٥٣ هـ / ١١٦١ م - ربيع الثاني ٥٣٨ هـ / سبتمبر ١١٤٣ م ) ، فهي : الفوائد المبسوطة وبستان التيقن ورياض العابدين وسبيل الهدى ، الأمر الذي يؤكد اتجاهاته في الزهد والتصوف (١٨) - الذي كان قد بلغ الغاية في هذا الوقت الموصل ما بين القرن الـ ٥ هـ والـ ٦ هـ / ١١ - ١٢ م ، حيث بدأ دمج الإسلام بطابع الطرق الصوفية - علامة التوكل والسلب : نذير الإضمحلال والضعف . أما عن أعمال الرشاطي : أبو محمد عبد الله بن علي الحافظ النابه - الأريوى ساكن المرية - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م - ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ) ، الممدود من رجال الأندلس العلماء ، فله عدة تأليف في علم الحديث ، منها : كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأذهار » وكتابان في نقد الحديث ، أولهما في نقد كتاب الدارقطني : « المؤلف والمختلف وما فيه من الأوهام » ، والثاني فيه رد على القاضي ابن عطية ( أبي محمد عبد الحق ) في نقده لكتابه هو ( أي الرشاطي ) « الكبير في النسب » (١٩) .

#### غريب الحديث والتسامح الديني :

ومما يثير الانتباه في معجم الصدفى هو اهتمام علماء الحديث في تلك الفترة الأولى من عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بدراسة التاريخ كعلم

(١٦) معجم الصدفى ، ص ٤ .

(١٧) معجم الصدفى ، ص ٢ - ١٩ - حيث سماعه من أبي علي سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وسنة ٥٠ هـ / ١١١٢ م بموسمية .

(١٨) معجم الصدفى ، ترجمة ١٩٨ ص ٢١٥ .

(١٩) معجم الصدفى ، لاین الأبار ، ترجمة رقم ٢٠٠ ص ٢١٧ وما بعدها - حيث النعز على أن الرشاطي كان مشاركاً في اللغات والأدب ، ومحققاً بالآثار والأسانيد ، وله كتب : « اقتباس الأنوار والتماس الأذهار في أسماء الصحابة ورواة الآثار » ، وهو في تقدير ابن الأبار طراز جدير « لم يسبق إلى مثله » ، « الإسلام بما في كتاب المؤلف والمختلف للدراقطني من الأوهام » ، « اظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد » ، الذي رد فيه على القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية . وانتصر فيه لنفسه لما تمكّن عليه مواضع من كتابه الكبير في النسب ، وعابه أشياء أوردتها في نقضه لم يغفل فيها من تعامل ونسب كان تركها أول ، حسبما يقول ابن الأبار ( ص ٢١٨ ) - وبنى الرشاطي شهيداً في المرية عندما تدلب عليها الروم ( الأسبان ) صبيحة الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ / ١٨ أكتوبر ١١٤٦ م ) .



مساعدة للحديث (١٠٠) مع اهتمام خاص بغريب الحديث (١٠١) ، حيث تنتهى تراجم كبار العلماء بما أخذ عنهم فى مسلسلاتهم التى يؤخذ فيها الحديث فيما بينهم أخذاً باليد - زيادة فى التأكيد والاطمئنان (١٠٢) .

ولا بأس أن يكون أول الغريب من الحديث فى ذلك المجتمع الذى تسود فيه السنية المالكية هو الأحاديث الشيعية ، حيث يشار فى بعض الأحيان ، الى عدم صحتها لفساد اسنادها ، ويسكت عن ذلك مواضع أخرى (١٠٣) ، ومما يسترعى الانتباه عناية الأندلسيين فى ذلك الوقت باستخراج الغريب من الأحاديث ذات الموضوعات الأخلاقية مما تدعو الى الفضيلة ، والتحلى

(١٠٠) انظر معجم الصدفى لابن الأبار - حيث الاشارات الى تاريخ البغارى ( التاريخ الكبير ) ، ص ٨٩ ، وصحيح مسلم فى التاريخ ، ص ٢٠٩ . وتاريخ ابن خيثمة ، ص ١١٩ ، ٢٧١ ، وتاريخ أبى بكر بن الخطيب ، ص ١٢٦ .

(١٠١) معجم الصدفى لابن الأبار - حيث غريب الحديث لأبى حميد ، ص ١٢٨ ، ٢١٥ ، وكتاب المريين ، ص ٢٠٣ ، وغريب الصحيح للبغارى ، ص ٢٠٢ ، وانظر أيضا ص ٢٠٤ ( ترجمة ١٨٤ ) لعبد الله بن درى : الركل السرقسطى ( ت ٥١٢ هـ / ١١١٩ م ) الذى كان أبى على كثيرا ما يحضه على تخريج غريب الصحيح للبغارى ، اشارة بتلقفه الشيعى فى الأدب والثقات ، وانظر ص ٢٠٩ - حيث الحديث المسلسل فى الأخذ باليد الذى حمله الناس وسلسلوه من حيث القوة فى الأندلس وتقليد المهمل ( لأبى على الفسائى ) ص ٢٠٦ . وكتمسك الحديث ( لابن مذكى ) ص ٢١٥ ، وغرائب الحديث للخطابى ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) المسلسل من الحديث بمعنى المسند أو المتوحد باليد بين علماء الأندلس - انظر معجم الصدفى لابن الأبار ، ص ١٤١ - حيث النص على أن الاشتراكى : محمد بن يوسف السرقسطى ( ت ٥٢٨ هـ / ١١٤٣ م ) وهو آخر من روى عن الصدفى ، ألف المسلسل الى جانب المقامات اللزومية ، ص ٢٠٩ ، ترجمة رقم ١٩٥ ( لأبى محمد عبد الله بن أيوب - فلفطابى - ت ٥٣٠ هـ / ١١٤٥ م ) - حيث السماع بشاطبة ( من الصدفى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ) الحديث المسلسل فى الأخذ باليد ، ص ٢١٠ - حيث يرى ابن الأبار أن الحديث المسلسل هو الذى يتأكد أخذه مع الترجيب بالأخذ باليد فيما للول الرسول ، وهو يرحب ببراه ويأخذ بعينه ، ويقول له : « لا يلقى مسلم مسلما فيهنش به ويرض به ويأخذ دمه الا تناثرت الذنوب بينهما » كما يتناثر ( ورق الشجر اليابس ) ، حسبما كتبه من خط ابن أيوب ، وانظر أيضا ، ص ٢١٧ - حيث يلهم أن المقصود بالتسلسل هو الاستاذ بين شيوخ أهل العصر الأندلسيين المعروفين قبل تسجيل المتن .

(١٠٣) انظر معجم الصدفى ، ص ١٢٥ - حيث حديث مسنده عن على بن موسى الرضا عن على بن أبى طالب ، عن النبي ، يقول فيه : « الامعان اقرار باللسان وصرفه بالقلب ، وعمل بالأركان » فرغم جودة المتن ووضع الدار قطنى بين المسندين قاضه ( الدار قطنى ) يصفه بأنه لا يصح بسبب الإسناد ، وانظر ص ١٢٧ - حيث حديث : « ومن ينفق آل محمد يدخل النار » ، ص ٣١٧ - حيث الحديث : « النظر الى وجه على بن أبى طالب عبادة » .

بحسن الخلق ، والحلم ، والود ، والنصح ، والكرم ، والتعاون ،  
والرحمة (١٠٤) ، ومما ينهى عن الرذيلة ، من : من الكسل والجبن والكراهية  
والفجور والفضب والبخل والهجر (١٠٥) .

ومما خرج به علماء الأندلس من غريب أحاديث الأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ما يتراوح ما بين الإفراط في شدة والتفريط تساهلا ، ان لم يكن  
في النص ففي التطبيق ، مثل التشدد مع قاطع الطريق ، والتساهل نوعا  
ما مع شارب الخمر (١٠٦) .

---

(١٠٤) مجيب الصديقي ، ص ١٢٢ - حيث : « خير ما أعطى العبد الخلق الحسن » ،  
ص ١٤٠ - حيث : « ويجب محبة الله على من أغضب لعلمه » ، ص ٢٠٩ - ٢١١ - حيث :  
« لا يلقي مسلم مسلما فيبش به ، ويرسب به ، ويأخذ بيده ، الا تناثرت الذنوب بينهما ،  
كما يتناثر ورق الشجر اليابس » وهذا يقول ابن الأثير ، انه حديث مسلسل كتبه من  
خط ابن أيوب ، ولا بأس في إيراد مع ذكر طائفة من رواه بالأندلس وبلادها ، وص ٢١٨ -  
حيث حديث : « شرط النصح لكل مسلم » ، ص ٢٢٧ - حيث : « الكرم بتقديم الهدية للأهل  
حين العودة من السفر مهما قل قدرها » ، ص ٢٤٧ - حيث : « طعام السخي شفاء » ، ص ٢٦٢ -  
حيث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، ص ٢٦٧ - حيث أول حديث  
قصد به التسلسل : « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في  
السماء » ( هكذا ) .

(١٠٥) أنظر مجيب الصديقي ، ص ١٢٩ - حيث النص : « اللهم اني أعوذ بك من الكسل  
والهرم والجبن والبخل وقلة الرجال ، وعذاب القبر ، وقاوتن ص ٢١٧ - حيث « اللهم اني  
أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل ( وضلع ) الدين وغلبة الرجال » .  
وبالمقارنة يتضح أن نص ال ( فتنة ؟ ) ، نقصت منه كلمات ( الحزن ) و ( العجز ) ، وأضيفت  
إليه - بما قد لا يتفق مع السياق - ( وعذاب القبر ) ، بينما نرى أن تصحح ( في النص  
الثاني ) « ( ضلع ؟ ) الدين » إلى ضعف الدين . وأنظر ص ١٣٦ - حيث : « المعروف  
كله صفة » ، وإن آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة : « اذا لم تسقى فاصنع  
ما شئت » ، ص ٢٤٧ - حيث : « طعام البخیل داء ... » .

(١٠٦) أنظر مجيب الصديقي ، ص ٢٤٨ - « ولا يدخل الجنة قاطع » ، بينما يظهر التساهل  
في الخبر وهي « عصاة أهل النار في النار » ( ص ٢٢٩ ) - « حيث يرضى حديث : « وجوب  
النصح لكل مسلم » ، كما ينسب إلى عمر بن عبد العزيز : « طاب له رجال شرهته ( من السمس )  
بتطبيق حديث : « ادبروا الخيول بالشبهات » بالنسبة للفرسخ « السكير » ، حسن الهيئة ،  
الذي ضبط أكثر من مرة متلبسا ، والذي أنزلت به ضعف عقوبة الجلد المستحقة خطأ ،  
لأنه كان عبدا - وذلك في قصة حزلية انتقدوا ابن علية واعتبروها من التكاثرات أو الحكايات  
الفتنة ، ص ٢٢٢ . ومثل هذا يمكن أن يقال عن حديث : « انك لتنظر إلى الطير في  
الجنة فتشتهيها فيخرب بين يديك مشويا » . الأمر الذي جعل الصفي الذي كان يسمح بصحة  
والله أن يضيق من عنقه « والقرصة » ( الرغبة ) حتى تكتمل الرغبة - وهو ما أثار إعجاب  
الحازنين ( لحضور ذهنه ) - ص ٢٨٧ .

وهنا تحسن الانسداد بذلك الاتجاه نحو التسامح الدينى من جانب المحدثين الأندلسيين فى بعض ما استخرجوه من الغريب ، الأمر الذى يمكن أن ينسب الى البيئة الاجتماعية والأوضاع الخاصة التى تجعل من التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى بالأندلس أمرا مقبولا . والمثل انما هنا هو الحديث الذى لا يفرق بين الناس جميعا الا بأعمالهم فى حياتهم اليومية ، حيث ينسب الى النبى حديث ينص فيه على أن : « أهل المروءة فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة (١٠٧) ، الأمر الذى يشبه آراء القدرية الذين يقولون : السعيد سعيد وهو فى بطن أمه والشقى شقى وهو فى بطن أمه - دونما تفرقة عرقية أو مذهبية . وعلى هذا النسق يأتى حديث التسامح الدينى حقيقته ، الذى يبرر عن المحبة والأخوة فى الإنسانية ، دونما حقد أو ضغينة فكأنه من مبادئ حقوق الإنسان الحديثة أو أزيد . وفى ذلك الحديث يقول الرسول : « ان هذه الأمة مرحومة لا عذاب عليها ، عذابها بأيديها ، فإذا كان يوم القيامة أعطى كل رجل منهم رجلا من أهل الأديان فكان فكاكه من النار » (١٠٨) .

وهكذا كون فقهاء الأندلس مدرسة حديث لا تكتفى بالنقل من مجموعات الصحيح الدارجة ، بل تجتهد فى البحث عن الجديد فى علم الحديث ، ليس على سبيل الجمع والاستقصاء فقط ، بل من أجل التصنيف النوعى أيضا ، فكان اجتهدهم فى البحث عن الغريب الذى صنف بدوره ما بين : « عال » والجمع « عوال » ، « وما لا يصح » (١٠٩) .

وارتفع شأن مدرسة الحديث الأندلسية المالكية هذه ، وكان لها

(١٠٧) مجمع الصنفى ، ص ٢٧٣ .

(١٠٨) مجمع الصنفى ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه غريب من حديث أبى بكر بن أبى بردة ، تفرد به عروة بن عبد الله ، ولم يروه عنه بهذا الاستناد غير الأشهب .  
(١٠٩) انظر مجمع الصنفى - حيث العوال من الأحاديث الخاصة بالعبادات ، مثل عوال بن خيرون ، ( ص ٦٧ ) وبكيفية أداء الصلاة ، كذلك الأحاديث التى صالغ أبى على ( الصنفى ) فيها : الامام بن البخارى ومسلم ( ص ٢٠٩ ) . ومنه الأحاديث الأحادية السند التى لا يعرف لها الا رواية واحدة ( ص ٢٠٦ ) ، مثل الحديث الذى ينص على أن النبى أطعم أعرابا لقيحات ، فقال له « انك رجل صالح » مكتفيا بتكرارها دون الفتول فى الاسلام - ولبه يقال : « لا تعلم رواء الاخص بن غياث » ( ص ٢٠٧ ) ، ومنه ما كان عروضا للفقه حتم وضع فى مرتبة الفكاكات أو الحكايات الفنة ( ما سبق ) ص ٤١٣ وه ٦ الى جانب الأحاديث الشعبية مما سبقته الإشارة اليه ( ص ٤١٠ وه ١٠٣ ) .

الذكر في المشرق بفضل علمائها الرحالة الذين جملوا من أداء الحج والزيارة رحلة للعلم والثقافة ، اختصوا بها تبعاً لامكاناتهم المادية التي لم تكن تتوفر لغيرهم من أهل الأقطار الأخرى بنفس السهولة ، وهكذا لم يكن في نية الفقيه الشافعي أبي الطاهر السلفي الإقامة في الاسكندرية - التي صار شيخها الأول - عندما وصلها في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، بل للأخذ عن الرازي ( ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ) الذي كان يدرس هناك ، على أن يقوم بمد ذلك - كما يقول ابن الأبار - باختراق المغرب والأندلس للأخذ من علماء الأندلس من تلاميذ أبي عمر بن عبد البر (١١٠) .

#### اتجاهات مالكية متشعبة على المستوى الرسمي :

رغم افتتاح مدرسة الحديث المالكية الأندلسية على ثقافة المشرق الإسلامي المزدهر في ذلك الوقت من نهاية القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، مثله في مذاهب أهل السنة والشيعة وما عاصرها من أفكار الحكماء والفلاسفة والمتصوفة ، وأخذها بطرف من كل ذلك ، الأمر الذي يعبر عن اتجاهات تسامحية تستحق الإشادة بها . ولكن الحال لم تكن دائماً على هذا المنوال ، فإلى جانب التسامح ظهرت في المقابل اتجاهات متشعبة أخرى بالنسبة لأصحاب المذاهب والديانات المخالفة (١١١) ، إلى جانب أحداث آخر مما يظهر فيما يسمى بالطب النبوي ، والتي لا بأس في السكوت عنها (١١٢) .

ويظهر التشدد بصفة خاصة على المستوى الرسمي ، لدى العاملين في الدولة على مستوى الدواوين أو حاشية الأمير ، حيث رفضت الأفكار الدينية السياسية المخالفة ، وخاصة عندما يستشعر خطرهما على أمن الدولة أو النظام العام أو سلامة الأمير . ولا يظهر ذلك في مقاومة الدولة فقط لبعض

---

(١١٠) معجم الصديقي ، ص ٤٩ - حيث النص على أن السلفي كان ينوي بعد رحلة الأندلس العودة إلى بلده أصبهان لولا أن شغلته السكندريون بالأخذ عنه والإحسان إليه ثم جلوسه مكان الرازي بعد وفاته ( وما سبق ) ، ص ٤٠٨ و ٨٦ ) .

(١١١) معجم الصديقي ، ص ١٢٢ - حيث الحديث للحدود في سباعات أبي علي الصديقي ونصه : « أنا أول شفيح يوم القيامة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، أن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ما معه مصدق غير واحد » .

(١١٢) معجم الصديقي ، ص ١٩٥ - حيث حديث : « من قرأ ياسين عدلت له ٢٠ ( عشرين ) حجة ، ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف يقين وألف رحمة ، ونزعت منه كل غل وداء ، مع النص على أنه : غريب من خط أبي علي ( الصديقي ) ، وقارن الطب النبوي لابن الجوزي .

حركات المتصوفة - التي بدأت تستشري فى أرجاء عالم الاسلام - بل وفرو  
الشك فى مواقف المقربين من أعيان المستشارين كالفقيه القرطبي الشهير  
ابن رشد الجد ( أبو الوليد ) \*

والحقيقة انه يمكن القول ان الفتور كان قد اعتري العلاقة بين أمير  
المساجين على بن يوسف بن تاشفين ، ورعيته من الأندلسيين اعتبارا من  
السنة العاشرة لولايته وهى سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م . ففي تلك السنة  
حسبما تنص رواية ابن عذارى ، سرت بين العامة من الناس شائعات تنبأ  
بقرب نزول كوارث خطيرة بالبلاد ، أعظمها اختلال أمر الدولة بموت الأمير  
السلطان فى شهر رمضان ( ٥١٠ هـ/ يناير ١١١٧ م ) (١١٣) ، الأمر الذى  
يمكن أن يكون دعاية سوداء من بعض المدعين بالولاية أو الكرامات من  
أدعياء السوء \*

وهنا كان على الأمير أن يواجه تلك الفرية بما يليق بها من محاولة  
تهذبة خواطر الناس عن طريق دعوة المسئولين ، من الحكام والقواد الى :  
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن طريق إقامة الحق والالتزام بالعدل  
والبعد عن الشبهات ، مع الإلحاح على مداراة الرعية ورفع الخبن عن الناس ،  
وإغاثة الملهوف منهم(١١٤) \*

#### احراق كتب الفزائى : بشاوة قيام مذهب التوحيد :

أما ما يعبر حقيقة عن تسلط المرابطين المذهبى ، فهو ما يؤخذ على  
مالكية الأندلس على عهد متبتلهم أو كاهنهم الأمير على ، الأمر الذى يمكن أن  
ينسحب على المالكية بمامة ، ويسمهم بالتعصب الذميم ، وهو احراق كتب  
الفزائى التى يقصد بها احياء علوم الدين على وجه الخصوص . وهذا الأمر  
الذى يمثل نوعا من التناقض مع مسار الفكر الاسلامى الذى كان قد بلغ  
الذروة بفضل كبار العلماء والمفكرين من أمثال الفارابى وابن سينا  
والماوردى ، وكذلك الفزائى ، مما لم يكن يخفى على رحالة الأندلس من العلماء  
- وهو ما سوف تظهر تباشيره عما قريب ، على عهد الموحدين خلفاء

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٢ \*

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٣ - ٦٤ - حيث نص الرسالة الموجهة الى الولاة بضرورة  
الالتزام بحسن السيرة والاستقامة وتهديد المخالفين منهم بالخلع \*

المرابطين ، حيث يتم نضج الحضارة المغربية - الاسبانية المعبرة عن تكامل وحدة الغرب الاسلامي .

والمهم هنا هو أن احراق كتب الامام الغزالي في الأندلس يعبر عن المقدمات التاريخية لقيام دولة الموحدين ، بمعنى أن فترة الصراع بين الدولتين المرابطية والموحدية ، وهي فترة « المطاولة » عند ابن خلدون ، تمتد الى هذا الوقت المبكر من العقد الأول لولاية الأمير علي بن يوسف بن تاشفين - حيث بدأ ظهور منظر حركة التوحيد محمد بن تومرت ، في رحلته العلمية الشرقية التي بدأت بمراكز العلم الأندلسية قبل السفر بحرا نحو المشرق ، على أواخر أيام الامام الغزالي ( ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ) ، أشهر أساتذة النظامية سواء في بغداد أو نيسابور ، وصاحب احياء علوم الدين أكثر الكتب الإسلامية رقة روحية وشفافية عند كبار علماء المسلمين ، كما هو عند المستشرقين - رشم أصوليته الدفينة .

والحقيقة أن كتاب الاحياء هو الذي رفع من شأن الغزالي وسما به الى درجة المحجة في الاسلام ، فهو يبين من ناحية تبحر الغزالي في معرفة المذاهب الاسلامية المختلفة ، من مذاهب أهل السنة الخمسة ( حيث يجعل خامسها مذهب صفيان الثوري ) والشيعية ( التي يميل الى المعتدل منها ) ويكره الباطنية ) ، والمتكلمين ( فلاسفة الاسلام المدافعين عنه ) ثم الصوفية . وهو من ناحية أخرى يمثل مشروع الغزالي الاصلاحى الذى يهدف الى لم شمل الفرق الاسلامية المختلفة تحت مظلة واحدة تعيد الى الدين شجابه وحيويته بفضل التفكير المنطقى سمة المعرفة العقلية ، وانشغافية الروحية سمة الوعى القلبى ( الصوفى ) ، وعن طريق التمسك بالعلم الأخرى ، ونبذ كل ما دونه من العلم الدنيوى الذى لا يبتغى به وجه الله ، بل ارضاء السلاطين والملوك (١١٥) . كان الخلاف بين الغزالي وبين فقهاء الأندلس من

---

(١١٥) أنظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٢ - حيث النص على أنه سلك فى اخراج الحديث وبيان صحته أو حسنه أو ضعفه فخرجه ٠٠ وهو المقصود الأعظم عند إبناء الآخرة ، ص ٥ - حيث النص على أن ثمرة هذا العلم : طب القلوب والأرواح المتوصل به الى حياة تدوم أبد الأبد ، ص ١٣ - حيث تفصيل علم الآخرة الذى يعتبره الغزالي فرض عين ، ص ٢١ - حيث الاجماع على أن تقدم أبى بكر لم يكن بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشئ وقر فى صفوه ، كما شهد له سيد المرسلين ، فليكن حرصك على طلب ذلك الشئ ، فهو الجوهر النقيس والدر المكنون ٠٠٠ ، ص ٢٢ - حيث زعماء الفقه الخمسة ، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الخلق فى الدنيا ، ومريدا بفقته =

المالكية الذين كانوا في خخدمة المرابطين ، والذين كانوا يفتون مع من يصنفهم الغزالي من فقهاء العصر من طلاب الدنيا ، من : المال والجاه والسلطة ، فهم من هذا الوجه من خصوم أهل الآخرة من : الفقهاء الأوائل (١١٦) .

والى جانب اتهام فقهاء العصر بأنهم طلاب مال وسلطان وجاه ، الأمر الذى كان يثيرهم من غير شك ، فلا بأس أن كان تبجر الغزالي فى العلم ومعالجته لموضوعات شتى من الفلسفة كالكلام ونظريات الفيض الصوفية ، أو « معنى النفس والروح والقلب والعقل » ( ج ٣ ص ١٢ ) ، الى جانب تعرضه لأمور تفصيلية غير معهودة فى عدد من المعاملات ، كما فى الحب والعشق وآداب النكاح ( ج ٢ ص ١٩ ) ، بل وفى محاولة تأييد آرائه بغريب الحديث - كما فعل تلاميذه الروحانيون من الرحالة الاندلسيين ( ص ٤١٣ ) - حتى فى تفسير القرآن (١١٧) الذى كان يثير فقهاء المحدثين (من

« وجه الله تعالى ، ص ٤٣ - حيث العلم عبادة القلب وصلاته السر وقرية الباطن الى الله تعالى .  
« وانظر عيون الزواجر لابن شاذان الكلبى ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد النعم ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ج ١٤ ص ٤ - حيث القول عن الغزالي انه « ورع أوفاه على وظائف الحج ، ثم ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب » . وحيث القول عن الأحياء : انه « أجل الكتب وأعظمها حتى قيل انه لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الأحياء لا غنى عما ذهب » ، وانظر فتح الله خليف ، فلاسفة الاسلام ( ابن سينا ، والغزالي والفخر الرازى ) ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٢٦٥ - حيث موقف الغزالي من الصوفية .

(١١٦) انظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ٣ - حيث النص على أن أدلة الطريق سم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وله شرف منهم الزمان ... ولم يبق الا المتصورون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستفواهم الطغيان ... ، ص ١٩ - ٢٠ - حيث تفسير اعتراض المسلمين عن الاشتغال بالطلب لانه فرض كفاية قد قام به جماعة ( خصوصا أهل الذمة ) ، ولأن الطلب ليس يتيسر الوصول به الى قول الأوقاف والوصايا أو حيازة مال الأيتام ونحوه اللضاء والحكومة والتقسم به على الأقران والتسليط به على إعداده صيحات صيحات ، قد أندرس علم الدين بتقليبى العلماء السوء ، فانه تعالى المستعان ، واليه اللذا فى أن يميزنا من هذا الغرور ، ص ٢٢ - حيث ونحن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ما تعلم به ما ذكرناه ليس طينا فيهم ، بل هو طين فيمن اشترى الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم ، وهو مخالف لم فى أعمالهم وسيرهم ، ص ٢٧ - حيث أصبح الفقهاء يعد أن كانوا مطلوبين طالبن ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعتراض عن السلاطين لآلة بالاقبال عليهم الا من وقف الله تعالى فى كل عصر .

(١١٧) انظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ١ ص ١٤٤ - حيث تفسير « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » . بالقول : سكارى من كثرة الهم ، أو من حب الدنيا ، وشرح ذلك بـ « كم من مصل لم يكترب خيرا وهو لا يعلم ما يقول فى صلاته » ، ج ٢ ص ٨٦ - حيث شرح : « ومن شر غاسق اذا وقب » بأنه « قيام الذكر أو اذا دخل » ، استنادا الى ابن عباس ، فإن كان المحقق فى « يقول : بهذا حديث لا أصل له .

الظاهرية ( الأندلسيين ضد آراء « حجة الإسلام » الميادية لهم - دونه موارد ) . ولا شك أن غزابة علم الغزالي وجرأته من حيث عدم الخشية فيه سبيل معرفة الحقيقة لومة لائم يمكن أن تكون مبررا كافيا لكرامية « احياء علوم الدين » - الذي يظهر في بعض المواضع وكأنه دعوة الى العودة بالاسلام الى ثقافته الأول أي الى سذاجته الأولى ، دون اعتبار لسنة التطور والتجدد - ولكن ليس الى درجة الاعداء حرقا ، على ما نظن (١١٨) .

والهم أن مجلس شورى فقهاء قرطبة انعقد في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٥ م برئاسة القاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين وقرر احراق كتاب احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، الأمر الذي تم تنفيذه علننا فيما كان لديهم من النسخ ، وذلك في ربة المسجد الجامع ، الواقعة للباب الغربي للجامع .

وإذا كان ابن القطائفة الذي يسجل قصة حرق الأحياء في خبر غريبه يجمع ما بين تفصيلات المذكورة للشخصية وخیالات القصة الأسطورية يجعل وقوع الحرق بأمر من الأمير على بن يوسف بن تاشفين في تلك السنة المبكرة من أوائل حكمه (١١٩) ، فالذي يفهم من بعض روايات ابن الأثير أن مناهضة كتاب الأحياء كانت متدرجة ، حيث بدأ القاضي ابن حمدين بمنع الرجوع الى كتاب الأحياء قبل الاقدام على حرقه (١٢٠) . هذا ، كما كان لأمر حرقه

---

(١١٨) أنظر الأحياء ، ج ٤ ص ٤١٩ - عن الموت والحساب والسرال بتفصيلاتها المتعلقة ، فكانها شهادة شامدة عيان ، عن : حقيقة الموت وما يذناه الميت في القبر من الاستجواب مع استخدام الميزان في شكل مادي عجيب حسب تصور أهل أواسط القرن ٥ هـ / ١٢ م ، تماما كما الفنانون المسيحيون في نفس هذا الوقت ، في تصوير يوم الحساب على واجهات الكاتدرائيات الرومانسكية في فرنسا وأسبانيا - الأمر الذي كان يثير البطش ، كما سترى عند ابن تومرت .

(١١٩) أنظر ابن القطان ، نظم الجبان ، ص ١٤ ، ١٥ ، وهـ ٤ ، ٣ - حيث أخطرت نسختي ميمون بن ياسين ( أبو عمر اللخثري ) التي سكن الزرية وعنى بجمع الكتب ، وكانت له رحلة حج ( ت ٣٥٠ هـ / ١١٣٥ م ) ، وابن العربي ( أبو بكر محمد بن عبد الله المافري الشيبلي ) ( ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م - ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ) ، الذي كانت له رحلة سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م أخذ فيها عن الطروش بصرى ، والغزالي ، وعاد سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م الى الأندلس والمغرب حيث دفن بفاس .

(١٢٠) أنظر معجم الصلح ، ص ٢٣٢ - حيث ترجمة أبي الحسن عبد الرحمن بن أحمد ابن طاهر ( من أهل مرسبة ) - حيث النص على أنه لما جاورهم هذا الشيخ الذي زعم علمه لجة ، وجعل ابن حمدين تركه الأخذ عن أبي حامد حجة الإسلام ، قد قدروا قدره فأكبروه مكانه - وعمره ازدحاما عليه وابتعدوا ( وأبتعدوا ) إليه زمانه وتنافس فيه أولو أحسابهم ... الأمر الذي يعني أن ابن حمدين بدأ بترك الأخذ عن الغزالي ( قبل تقرير حرقه الأحياء ) .



الإخلاء مألوفة قوية ، وخاصة من أولئك الذين جلبوه معهم من المشرق ،  
أو الذين درسوا على أيديهم في الأندلس ، مثل : الفقيه أبي الحسن علي بن  
سعيد البرجي ( ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ) الذي كان يرى انزال عقوبتي التأديب  
والضرامة المالية بمن أحرقت كتب الغزالي (١٢١) .

وهكذا تكون السلطة المراكشية ممثلة في شخص أمير المسلمين علي بن  
يوسف بن تاشفين قد استجابت لمطالب فقهاء الأندلس ، وعن هذا الطريق  
انتشرت عملية الرقابة الدينية في شكل محكمة تفتيش قرطبية نشرت ظلالها  
القائمة على أهل البلاد ، ولم تفرق في بحثها الباطني عما يدور في الغلوب  
والنفوس أو العقول ما بين المسلمين ، بل والمهاجرين ، الأمر الذي استمر  
نظم استشرى على عهد تاشفين بن علي مع ازدياد خطر الدعوة الموحدية التي  
ارتبطت بفكر الغزالي .

وعن هذا الطريق كان الأمير تاشفين الذي كانت له نسيابة الأندلس  
سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م قبل أن تؤول إليه الإمارة سنة ٥٣٧ هـ /  
١١٤٢ م (١٢٢) يصدر الأوامر في السنة التالية ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م إلى الولاة  
والفقهاء ، مثل : يحيى بن علي بن الحجاج أمير بلنسية ، وكذلك قاضيها  
أبي محمد بن جحاف ، يأمرهم بالبحث عن كتب البدع ، وعلى الأخص كتب  
الغزالي التي يجب استئصالها بالحرق التتابع (١٢٣) .

(١٢١) انظر سعيد الصدي ، رقم ٢٥٢ ص ٢٧١ - ٢٧٢ - حيث ترجمة البرجي الذي  
هو أوجب في كتب أبي حامد الغزالي حين أحرقتها أبو عبد الله بن حديد بامر تاشفين ( هكذا )  
تأديب محرقتها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم ( وعلمنا ) قيل له أكتب بما قلته من خط  
يدي ، قال : « سبحان الله ، كبر مقنا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » - وفعل كتب البرجي  
فتباه هذه ووافقه عليها عدد من فقهاء المرية ومشايخها الذين وقعوها بخطوطهم ، ومنهم القاضي  
أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك ، الأمر الذي فاض ابن حديد فكتب إلى القاضي الزاهد  
الذي قبل المؤول وأضيا .

(١٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ - حيث النص على عظم شأن علي بن يوسف وأنه  
عقد لانه تاشفين على غرب الأندلس ، وأنزله قرطبة وإشبيلية ، وأنه عقد في نفس الوقت  
لأبي بكر بن إبراهيم للسوفي على شرق الأندلس ، بينما عقد لابن غانية على الجزائر الشرقية  
«ذانية وميورقة» واستقامت أيامه .

(١٢٣) انظر ابن التطار ، نظم الجمان ، ص ١٦ - حيث النص ( جمعت أحداث سنة  
٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ) على توال الأحرار على ما اشترى منه ( الإحياء ) في المغرب ، وقارن  
بن عذاري ، ج ٤ ص ٥٩ - حيث رواية ابن التطار التي تنص على أن الإحياء كانت بامر  
علي بن يوسف الذي وجبه إلى جميع بلاده بامر بأحراقه . وانظر ص ١ - حيث الإشارة إلى رسالة =

ولا ندرى ان كان يمكن أن يذكر الى جانب أعماله التفيتش عن كتابه الاحياء منذ العقد الأول من ولاية الأمير علي بن يوسف ، ما حدث في أواخر العقد الثاني من ولايته ، مما شارك فيه ( بعد ابن حمدين ) ، قاضى قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد ( المعروف بابن رشد الجدل ) في أواخر أيامه ، من الفتوى بتفريب جماعات المعاهدين من نصارى غرناطة واعماها وتغريمهم بحجة تورطهم فيما قام به ابن دميير الطاغية ( الفونس السابع ) الذي حل محل الفونس السادس في تحلى المرابطين واكتساح الاراضي الإسلامية في أواخر سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م وأوائل سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م . فلقد تجشم ابن رشد مشقة الرحلة من قرطبة الى مراكش حيث التقى بالأمير علي بن يوسف الذي قبل فتواه ، وأصدر أوامره بإجلاء معاهدي الأندلس عن أوطانهم الى العمدة المغربية ، وفعلوا تم نفي عدد كبير منهم الى المغرب حيث تعرضوا أثناء المسيرة التي بدأت في شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ/ أكتوبر ١١٢٥ م ، لكثير من أعمال النهب والسلب والتدمير (٢٤) . الأمر الذي يضع علامة استفهام أمام ما يعزى الى المجتمع الإسلامي من أعمال إنسانية في أمور التسامح مع الأقليات العرقية والدينية ، مما لا يعرف له نظير لدى المجتمعات الأخرى الا في اعلانات حقوق الانسان التي نعيشها الآن .

والمهم أن الفقيه المالكي الكبير ( ابن رشد ) لم يقصر فتواه على نقض المستعربين الأندلسيين للعهد ، بل كانت له تنبيهاته الخاصة بالاجراءات العسكرية الكفيلة بالوقوف أمام الخطر الموحى في المغرب . فلقد نصح الأمير علي بن يوسف باتخاذ أساليب الدفاع المبرورة في الأندلس ، من الأسوار والبوابات الحصينة للعاصمة مراكش . والأمر الذي بلغت النظر هو أن تلك الأساليب الدفاعية المستوحاة من الأندلس تقرر تعزيزها هناك أيضا حيث عرفت عملية التحصين في الأندلس بالتعتيب . وان وقع عبثه

= (الأمير تاشفين ( بن علي أمير المسلمين ) اربعين الحاج وابن جحاف في سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م (٢) والتي ينص فيها على البحث عن كتب البعدة وخاصة كتب الغزالي ، وتتبع أثرها وقطع غيورها بالحرق المحتاج . وانظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، ج ١٢ ص ٤ - حيث النص على انه عندما دخل الاحياء للمغرب أنكروا ما فيه وصنفوا عليه : « الاملاء في الرد على الاحياء » ، ص ٥ - حيث القول : « وأكروا عليه ( الغزالي ) ما فيه من الأحاديث التي لم يصح » ، مع التعليق بالقول : « ومثل هذا يجزئ الترغيب والترهيب ، والكتاب في غاية النفاسة » .

(٢٤) انظر ابن عذارى ، ح ٤ ص ٧٣ - ٧٤ ، الجبل للوشية ، ص ٦٧ .

هناك على أهل كل مدينة أو حصن ، الأمر الذى كان يمثل عبئا ماليا جديدا تنوء به مقدرة أهل البلاد فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تتعرض فيها البلاد لاجتياحات العدو(١٢٥) .

والمهم فى النهاية هو أن محاولة استئصال احياء علوم الدين ، أهم أعمال الغزالي ، وأحد دواوين الفكر الاسلامى فى عصر نهضته فى القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، كان علامة مميزة فى طريق الدولة المرابطية نحو الاضمحلال . فالحقيقة أن هناك نوعا من الربط بين احراق كتاب الاحياء وبين قيام حركة التوحيد التى قامت عليها دولة الموحدين خلفاء المرابطين فى المغرب والأندلس . وفى ذلك تريد الرواية الموحدية - رمزا ان لم يكن واقعا - أن يكون الامام الغزالي قد « أجاز » تلميذه محمد بن تومرت ، الفقيه السوسى ( قبل سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م - تاريخ وفاة الغزالي ) فى الشار لذلك العمل الهمجى الذى قامت به دولة لمؤنة المرابطية ضد مشروع تجديد الاسلام الذى كان يعمده الامام ، فكانت تلك الاجازة بمثابة المحرك لقيام ابن تومرت بحركة التوحيد . وبذلك يرتفع عبء العمل الحضارى فى كل من المغرب والأندلس ، عن كاهل أهل الصحراء المثلثين ليقع على عاتق أهل السوس الجبلين اعتبارا من مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، مما يكون موضوعا للجزء الخامس من الكتاب ، ان شاء الله .

---

(١٢٥) ابن عذارى ج ٤ ، ص ٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٩٧ - ٩٨ ( عن ابن رشد )  
ص ٩٠ ( عن تصوير مراكش ) والعتبة وجميعها أعتاب تمنى أسفل مدخل الباب وأعلى ،  
والتمتيع تمنى التقيف المقود . والمتستعب هو المسكن المسجل الذى يخضع للضريبة ( كما  
فى حالة التخصيصات الأندلسية هنا ) - انظر دوزى ملحق التراميس الدرس ، ج ٢ ص ٩٢ .



خريطة رقم ١٧ - المواقع التاريخية ومسارات الطرق التجارية عبر الصحراء الافريقية

### فهرس المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش

- ابن الآبار ( ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ) :  
كتاب الحلة السيرة في ٢ ج ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ .  
أصحاب الصدفى ، مجريط ( ملرو ) ، ١٨٨٥ .
- ابراهيم بن محمد الساسى العوامر :  
الصروف في تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ، ١٩٧٧ .
- ابن الاثير :  
الكامل في التاريخ ( ج ٩ ، ج ١٠ ) ، الطبعة الأوروبية ، في ١٣ ج .
- احمد ابو زيد :  
المجتمعات الصحراوية في : مصر شمال سيناء . دراسة اثنوجرافية  
لتنظيم والانساق الاجتماعية ، القاهرة ١٩٩١ .
- احمد فكرى :  
المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .
- احمد مختار العبادى :  
الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ،  
مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية المجلد ٢١ : سنة ١٩٦٧ -  
١٩٦٨ .  
دراسات في تاريخ المغرب ، ١٩٦٨ .
- الادريسي :  
المغرب العربي - من كتاب نزعة المشتاق . حققه ونقله الى الفرنسية ،  
محمد حاج صادق ، ط ١٩٨٣ .

- الاستبصار ( كتاب ) :

- وصف مكة والمدينة ومصر والمغرب والسودان فى القرن ٦ هـ / ١٢ م .  
تحقيق المؤلف ، نشر جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٨ .

- اسماعيل العربى :

- الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر ، ١٩٨٣ .

- الاصطخرى :

- المسالك والممالك ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- اطلس التاريخ الافريقى :

- تأليف كولين ماكيفيدى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- اطلس مصر والعالم :

- جيوجيرجكتس ، إنجلترا ، ط ١٠ ، ١٩٨٧ .

- أمين توفيق طيبي :

- تأثير الإسلام فى غانا ومالى فى العصور الوسطى (قرن ١٠ - ١١ م) ،  
بحث بالانجليزية فى مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ،  
صيف ١٩٨٤ .

AMIN TAWFIQ TIBI, The impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10-14th C.)

Arab Journal for Humanities, Kuwait University, 1984.

- بدرى محمد فهد :

- العمامة ، بحث منشور فى ١٩٦٨ .

- ابن بسام ( أبو الحسن التسترينى - ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ) :

- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، كتاب فى ٤ أقسام ، فى ٧ مجلدات  
بمعدل مجلدين للأقسام الثلاثة الأولى وواحد للآخر ، تحقيق احسان  
عباس ، بيروت ١٩٧٩ .

- ابن بشكوال :

كتاب الصلة ، في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم  
وأدبائهم ، ٢ ج ، ط ، مجريط ( مدريد ) ، ١٨٨٢ .

- ابن بطوطة :

الرحلة ، تحقيق على الكتاني ، ٢ ج .

- البكري :

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دسلان ، مع تعريف  
بالبكري بالفرنسية وبالكتاب الذي يعنون ب : وصف أفريقيا الشمالية  
(Description de l'Afrique Septentrionale) ، الجزائر ، ١٨٥٧ .

- هـ . تراس وباسيه (H. Terrasse et Basset) :

بيوت عبادة وقلاع موحدية ، دراسة في مجلة هسبيرس ، عدد  
١٩٢٤ ، ١٩٢٥ تحت عنوان :

Sanctuaires et Fortersess Almohades, 1926.

- الجاحظ :

رسالة مناقب الترك ، في رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون .

- جروسيه ( رينه ) :

امبراطورية السهوب ، باريس ، ١٩٣٩ .  
R. Grousset, l'Empire des Steppes, Paris, 1939.

- الجزائى ( أبو الحسن علي ) :

كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشر الأفراد بيسل ، الجزائر  
١٩٢٢ .

- جمال الدين التميمي :

أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مصر - دار المعارف ، ١٩٦٥ .

- جوتييه :

- ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ١٩٤٢ •  
E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1942.  
الصحراء ، بالفرنسية ، بايو ، باريس ، ١٩٤٦ •  
E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1946.

- جودة حسنين :

- وحسن أبو الميoun ، سطح هذا الكوكب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ •

- جوليان ( ش. أ. ) :

- تاريخ أفريقيا الشمالية بالفرنسية ، باريس ، ١٩٣١ •  
Ch-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie — Algeria —  
Maroc, Payot, Paris, 1931.  
والترجمة العربية تحت عنوان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ج ٢ ( من  
الفتح الاسلامي الى سنة ١٨٣٠ ) • تعريب : محمد مزالي ، البشير بن  
سلامة •

- الحبيب الجنحاني :

- المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ( ق ٣ - ٤ هـ /  
٩ - ١٠ م ) ، الجزائر ، ١٩٧٨ •

- حتى ( فيليب ) :

- تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ، ١٩٦٥ •  
حسن أبو الميoun ، انظر جودة حسنين •

- حسن أحمد محمود :

- قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور  
الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ •  
المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ،  
مجلد ١١ ، ج ٦ ، القاهرة ١٩٦٥ •



- حسين مؤنس :
  - الثغر الأعلى في عصر المرابطين
- الحلل الموشية لجهول ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ •
- ابن حوقل :
  - صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ
- ابن الخطيب :
  - أعمال الأعمال ، نشر بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ •
- ابن خلدون :
  - العبر ، ج ٦ ( بيروت ، مصور عن يولات ) ، ١٩٧١ •
  - ترجمة دسلان ( De slone ) تحت عنوان : تاريخ البربر (Hist. des Berbères) بالفرنسية ، ١٩٢٧ •
  - المقدمة ، ط التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ •
- دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال Lexicon Universal  
افريقيا (Africa) والساحل (Steppes) ، نيويورك ، ١٩٧٥ •
- درش ( جان ) :
  - أصل تاريخ التسميات في جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات الإسلامية ، بالفرنسية ، كراسه ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ •
  - Contribution a une étude de la Toponymie de Haut Atlas, Adarn Deren, d'après les cartes de Jean Dresch, Revue des Etudes Islamiques, 1939 — Cahier 3-4, P. 201-312.
- دوzy Dozy :
  - ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، لينن ، ١٩٦٧ •
  - تاريخ المسلمين في اسبانيا ، ٣ ج ، بالفرنسية •

- **ديفردان** G. Deverdun :  
مراكش ( المدينة ) ، بالفرنسية ، الرباط ، ١٩٥٩ •
- **ديلافوس** :  
الزنج ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ •  
Delafosse (Maurise), Les Nègres, Reider, Paris, 1927.
- **أين وستة** :  
الملق النفيس ، لندن ، ١٨٩١ •
- **زامباور** :  
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة  
وأخراج زكي محمد حسن ، ١٩٥١ •
- **أين أبي ذؤوع** :  
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة  
فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ •
- **سالم ، السيد عبد العزيز** :  
تاريخ المغرب الإسلامي •
- **سالم ، سحر السيد عبد العزيز** :  
مدينة قادس ( بالاندلس ) ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ •
- **سعد زغلول عبد الحميد** :  
تاريخ المغرب العربي ،  
ج ١ ( فتح المغرب ) - ج ٢ ( الأغلبة الرستمبول الادارسة ) - ج ٣  
( الفاطميون والزييريون ) •  
الماوردي بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ،  
الاسكندرية ، ١٩٧٠ •  
الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ،  
١٩٧٩ •

الترك والمجتمعات الحركية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ،  
عدد ١٩٥٦ ،

سيلاويه ( جان ) :

مراكش ( مجموعة الاتحاد الفرنسي ) بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٨ .  
Jean Célérier, Maroc, Paris, 1948.

ابن شاکر الکتبی :

عيون التواريخ ج ١٤ ، تحقيق فيصل السامر ، ونيلة عبد المنعم ،  
بغداد ، ١٩٧٧ ،

شعيرة ، محمد عبد الهادي :

المرايطون : تاريخهم السياسي ( ٤٣٠ هـ - ٥٣٩ هـ ) ، القاهرة ،  
١٩٦٩ .

عبد اللطيف البغدادي :

كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانيه بأرض  
مصر ، لندن ، ١٨٠٠ ،

عبد الله كنون :

عبد الله بن ياسين ، مجلة الثقافة المغربية ، العدد ٤ ، إبريل ١٩٧١ .  
أبو عمران الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ - يناير - فبراير ،  
١٩٧٠ .

عبد المنعم الحفوي :

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ، جمع سنة ١٨٦٦ هـ / ١٩٦١ م ،  
نشر وتصحيح بروفيسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

ابن عذاري المراكشي :

البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج ٤ ، نشر احسان عباس ، بيروت .

- عصمت دنش :  
دور المرابطين في غرب أفريقيا ، ١٩٧٤ .
- علاء الفاسي :  
التصوف الاسلامي في المغرب ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ يناير ١٩٧٠ .
- العمري ( ابن فضل الله ) - ت ٧٤٩ هـ / بداية ١٣٩٤ م :  
مسالك الابصار - القسم الخاص بشمال افريقية ، ترجمة ج . ديومبينه G. Demombynes ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٣٧ .
- العمري :  
مسالك الابصار ، نشر أبو ضيف .
- عياض ( القاضي ) :  
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اهل منتهى مالک . ( المدارك ) ، تحقيق ابن تاووت الطنجي ، الرباط ( ٣ ج الأولى ) - مكتبة د . سالم ( + نسخة ثانية ، ط بيروت ، الجزء الرابع ) .
- بنو عيـد :  
التاريخ الصغير لبني عيـد ، ترجمة فرنسية مع دراسة ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ١٩٣٧ ( كراسة ١ ) .
- ابن الفرضي :  
تاريخ علماء الأندلس ، ٢ ج ، ط مجريط ( مدريد ) ١٨٩٠ م .
- الغزالي :  
احياء علوم الدين ، ٤ ج ، ط . محمـد صبيح . القاهرة ، بدون تاريخ .
- فتح الله خليف :  
فلاسفة الاسلام ( انظر الغزالي ) . الاسكندرية ، بدون تاريخ .

٢ فيدج :

مقدمة في تاريخ غرب إفريقيا ، بالانجليزية ، كامبريدج ، ١٩٦٢ .

٣ ابن القاضي ( أحمد الكناسي ) :

جنود الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ٢ قسم ،  
الرباط ، ١٩٧٣ .

٤ ابن القطن :

نظم الحمان ، تحقيق محمود علي مكي ، الرباط .

٥ الفلقشنلي :

صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ،  
في ١٤ ج ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

كولي ( Cooley ) ، تاريخ جغرافية إفريقيا في العصر الوسيط ،  
بالانجليزية ، ط ١٩٦٦ .

كولين ماكيفيدى ، أنظر أطلس .

٦ لارنود ( مارسل ) :

الجزائر ( مجموعة للاتحاد الفرنسي ) ، بالفرنسية ، باريس ١٩٥٠ .  
Marcel Larnaude, Algerie, Paris, 1950.

٧ لشار :

سجل ماسة : المدينة وعلاقاتها التجارية في القرن الحادى عشر عند  
البكرى .

J.M. Lessard, Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales aux  
XIe siecle d'après El-Bakri. • ١٩٦٩ (Hespéris)

٨ • • • • • لين E.W. Lane :

Eادات وتقاليد المصريين المحدثين  
Manners and Customs of the Modern Egyptians ، إنجلترا ، ١٩٥٤ .

٩ ليون الأفريقي :

الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية بمعرفة  
عبد الرحمن حبيطة ، السعودية .

- ج . مارسيه G. Marçais :  
المجلد في الفن الاسلامي  
Mannuel d'Art Musulman  
٢ ج ، بالفرنسية ، ١٩٢٦ .  
شمال افريقيا والمشرق الاسلامي في العصر الوسيط ، بالفرنسية .  
والترجمة العربية بمعرفة م . هيكل ، تحت عنوان : بلاد المغرب .  
وعلاقتها بالمشرق في العصور الوسيطة .
- الماوردي :  
أدب الدنيا والدين ، ط . القسطنطينية ، ١٢٩٩ هـ .
- محمد توفيق بلبح :  
نشأة الرباط وتطوره ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، ١٩٦٨ .
- محمد سعيد القشاط :  
التوارق : عرب الصحراء الكبرى ، ليبيا ، ١٩٨٩ .
- محمد بن شاکر الكتبي :  
عيون التواريخ ، ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ،  
العراق ، ١٩٧٧ .
- محمد عبد الله عنان :  
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القسم الأول : عصر  
المرابطين ( وبداية الموحدين ) ، ط . القاهرة ١٩٦٤ .  
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، القاهرة ١٩٦٩ .
- محمد الميل :  
تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ .
- مذكرات الأمير عبد الله ( كتاب التبيان ) :  
نشر وتحقيق بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- **مرميسى ( فاطمة ) Mermissi :**  
جنس ، فكر ، اسلام ( مجموعة المرأة والمجتمع ) ، ترجمة فرنسية من  
الامريكية .
- **المسعودى :**  
مروج الذهب ، ٤ ج ، ط٠ بيروت .
- **ابن منظور :**  
لسان العرب ، ط٠ بيروت ، ١٥ ج .
- **مولار ( جاك ويشار ) :**  
افريقيا الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٩ .  
Jacques Richard — Molard, Afrique Occidentale Francaise, Paris, 1949.
- **نبيلة حسن محمد :**  
انتشار الاسلام فى غرب افريقيا ( ق ٣ - ٩ هـ / ١١ م ) رسالة  
ماجستير ، مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧١ .
- **النورى ( احمد بن الوهاب - ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ) :**  
الجزء ٢٢ من مخطوط موسوعة نهاية الارب ( دار الكتب المصرية  
بالقاهرة ) ، تحقيق مصطفى أبو ضيف ، تحت عنوان : تاريخ الغرب  
الاسلامى فى العصر الوسيط ( ٢٧ - ٧١٩ هـ / ٦٤٩ - ١٣١٩ م ) ،  
الدار البيضاء .
- نسخة ثانية بتحقيق حسين نصار ، ومراجعة عبد العزيز الأهوانى -  
وهى الجزء ٢٤ من موسوعة النورى ( نشر دار الكتب المصرية ) ،  
١٩٨٣ .
- **هاينز D.E.L. Haynes :**  
طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، طرابلس ، ليبيا ، بدون  
تاريخ .

— هوباك ( بير ) :

تونس ( مجموعة الاتحاد الفرنسي ) ، باريس ، ١٩٤٨ •  
Pierre Hubac, Tunisie, Paris, 1948.

— والطون كنيث :

الأراضي الجافة ، ترجمة علي عبد الوهاب شاهين ، مصر ، ١٩٧٢ •

— للزان ( ولیم ) :

المسكوكات الإسلامية ، مجموعة خاصة ، بيروت ١٩٨٤ •

— عبد الواحد المراكشي :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سميد العريان  
ومحمد العربي المصلي ، القاهرة ، ١٩٤٩ •

— اليعقوبي :

كتاب البلدان ، لندن ١٨٩١ •

— يوسف اشياخ :

المرابطون والموحدون ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ١٩٤١ •

— يوسف بن جواله :

بنو عباد في اشبيلية — دراسة سياسية وحضارية ، ١٩٨٩ •



## اسماء الاشخاص والقبائل والجماعات

|                                  |                                |
|----------------------------------|--------------------------------|
| ( ١ )                            | - ابن ازرق ( الكاتب )          |
| - الأباضية                       | ٣٥                             |
| ١٢٣                              | - أحمد بن حود ( المستعين )     |
| - ابراهيم بن أحمد (القاضي بسبته) | ٣٦٥                            |
| ٣٧١                              | - الأدفوى                      |
| - ابراهيم بن اسحق الممتوني       | ١٤٦ - ١٤٧                      |
| ٣٤٤                              | - ابن آدم ( عبد الله بن محمد ) |
| - ابراهيم بن أبي بكر بن عمر      | ٢٩٥                            |
| ٢٦٦                              | - الأسبان ( الروم )            |
| - ابراهيم بن تاشفين بن علي       | ٤١ - ٣٠٢ - ٣١١ - ٣١٨ -         |
| ٣١                               | ٣٥٠                            |
| - ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم     | - اسحاق بن يثيان               |
| ١١٣                              | - اسحق بن يعقوب المنصور        |
| - ابراهيم بن يوسف بن تاشفين      | ( الموحدى )                    |
| ٤٠٧                              | ٤٠                             |
| - ابن الأثير                     | - الاسكندرية ( أهل )           |
| ٢٩ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ -           | ١٣٢ - ١٤٩ - ١٥٧ - ٤٠٣          |
| ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٩٦ -          | - الأغواز ( الغز )             |
| ٢٠٦ - ٢١٣ - ٢٢٦ - ٢٢٧ -          | ٢٥٦                            |
| ٢٧٣ - ٢٩٤ - ٣١٧ - ٣٤٥ -          | - ابن افرانك ( الجذامي )       |
| ٣٥٢                              | ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥١ -        |
| - الأنوبيون ( الأحياش )          | ١٥٣                            |
| ٤٦ - ١٠١ - ١٠٢ -                 | - ابن الأنطس                   |
| - الآجري ( أبو بكر )             | ٢٨٩ - ٣٤٠                      |
| ١٤١                              | - الأقطاط ( الكونتات )         |
| - الأدارسة                       | ٣٨٧ - ٤٠٢                      |
| ٣١ - ١٠٥ - ١٣٤ - ١٣٥ -           | - البرهانس                     |
| - الأدريسى                       | ٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣٤٤ - ٣٨٧ -        |
| ٢٨ - ١٠٤ - ١٢٨ - ١٣٦ -           | ٣٩٦                            |

|                              |                                 |
|------------------------------|---------------------------------|
| ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤١٥        | - الفنت ( ولى عهد )             |
| - أمير المؤمنين العباسي      | ٣٨٦                             |
| ٣٧٢                          | - الفونس ٦ ( السادس )           |
| - أمينوكال ( الأمير )        | ٢٩ - ٣٢ - ٣٣ - ٢٨٦ - ٢٨٧        |
| ١٢١                          | ٢٨٨ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٢٩٧     |
| - الأندلسيون ( أهل الأندلس ) | ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣           |
| - ٣٣ - ٣٥ - ١٤٢ - ١٤٤        | ٣٠٤ - ٣٠٩ - ٣١٢ - ٣١٩           |
| - ١٤٨ - ١٥٢ ( طلاب ) - ٢١٨   | ٣٢٤ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩           |
| - ٢٨٦ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٢٩٩      | ٣٢٤ - ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠           |
| - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢      | ٣٤٣ - ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٥           |
| ٢٨٤ - ٣ ٢٥ - ٣١٩             | ٣٦٠ - ٣٦٢ - ٣٦٧ - ٣٦٨           |
| ( ب )                        | ٣٦٩ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨           |
| - أبو الوليد الباجي          | ٣٩٣ - ٣٩٤                       |
| ٣١٣                          | - ألفونس ( المحارب بن ردمير )   |
| - البافلاتي ( أبو بكر )      | ٣٩٣ - ٣٩٤                       |
| ١٦١                          | - الأمويون                      |
| - البجاء                     | ٤٤ - ١٣٩ - ١٤٥ ( الأموي )       |
| ١٢٣ - ١٢٦                    | - أمير المسلمين ( وناصر الدين ) |
| - البجليون                   | لقب يوسف بن تاشفين )            |
| ١٣٥ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦        | ٣٤ - ٢٨٦ - ٣١٤ - ٣١٥            |
| - برير الصحراء               | ٣١٦ - ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٢٣           |
| - ٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٦٩ - ٧٠     | ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨           |
| - ٧٤ - ٧٥ - ٧٨ - ١٠١ - ١٠٢   | ٣٢٩ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣           |
| - ١٠٦ - ١٠٧ - ١١٦ - ١١٩      | ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧           |
| - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٨      | ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٥٢           |
| - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٧ - ١٧٢      | ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٨           |
| ٢٧٩ - ٢٥٢                    | ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٧           |
| - برغواطة                    | ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٢                 |
| - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠      | - علي بن يوسف بن تاشفين         |
| - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٥      | أمير المسلمين ، الأمير          |
| - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩      | ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣           |
| - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٨ - ٢٨١      | ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٨ - ٣٩٠           |
| ٣٢٥                          | ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٥ - ٣٩٦           |

|                           |                                     |
|---------------------------|-------------------------------------|
| ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٧ - ٢١٣ -   | بروفنسال                            |
| ٢١٦ - ٢١٨ - ٢٢٠ - ٢٢٦ -   | ٣٠ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٧                   |
| ٢٢٣ - ٢٣٦ - ٢١٥ -         | ٣٣٤ - ٣٣٨                           |
| - البلخي ( أبو عبد الله ) | - ابن بسم ( الشنتريني )             |
| ١٤١                       | ٣٥ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩٢                  |
| - ابن البنا               | - ابن بشكوال                        |
| ١٤٩                       | ١٦٠                                 |
| - ابن بنوش ( القرطبي )    | - بطي بن اسماعيل                    |
| ١٤٤ - ١٤٨ - ١٥٣ -         | ٢٧٥ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤               |
| - البويهيون               | - أبو بكر بن ابراهيم اللمتوني       |
| ١٤٠                       | ٣٥٧                                 |
| - البياضي                 | - أبو بكر بن ابراهيم ( بن تيفلويت ) |
| ٣٠٥                       | ٣٨٠                                 |
| - البيزنطيون              | - أبو بكر الطرطوشي                  |
| ٤٣ - ٤٦                   | ٤٠٨                                 |
| ( ث )                     | - أبو بكر بن عمر                    |
| - تاشفين بن علي بن يوسف   | ٣٠ - ٣٣ - ٣٤ - ١٢٦ - ١٩٦            |
| ٣١                        | ١٩٧ - ٢٠٠ - ٢٠٩ - ٢١٠ -             |
| - التبو                   | ٢١١ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ -             |
| ١٠٥ - ١٢٣ -               | ٢٢٩ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٤ -             |
| - الترك ( الانراك )       | ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ -             |
| ٢٦ - ٤٣ - ٧٥ - ١٢٤ -      | ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ -             |
| ١٢٦                       | ٢٤٣ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -             |
| - تركان خاتون             | ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٥ - ٢٥٦ -             |
| ١٢٦                       | ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ -             |
| - تكرور ( شمس )           | ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٩ -             |
| ٢٧٠ - ١١٨ - ١٢٩ - ١١٩ -   | ٢٧٠ - ٣١٤                           |
| - تللكاكون ( تلجاجون )    | - أبو بكر: سير بن يوسف بن تاشفين    |
| ١١١ - ١١٠                 | ٣٠٣                                 |
| - ابن التمار              | - البكري                            |
| ١٤٩ - ١٤٦ -               | ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٣١ - ٣٢ -            |
| - تميم بن بلقين           | ٢٣ - ٦٢ - ٧٠ - ٩٦ - ١١٢ -           |
| ٣٣٦ - ٣٣١ -               | ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٧ - ١٨٩ -             |

|                        |                               |
|------------------------|-------------------------------|
| عبد الرحمن (           | تميم بن يلتان                 |
| ١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥        | ١١١ - ١١٢ - ١١٧               |
| ١٠٨ - ١١٩ - ١٦٥ - ١٦٧  | تميم بن يوسف بن تاشفين        |
| ١٦٨ - ١٧٤ - ١٧٦ - ١٧٧  | ( أبو الطاهر )                |
| ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٥ - ١٨٧  | ٢٨٠ - ٢٦٤ - ٣٦٩ - ٣٨٠         |
| ١٨٨ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٠٣  | ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦         |
| ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٤  | ٣٩٥                           |
| ٢٤٩                    | تميم بن معنصر                 |
| الجرمانيون             | ٢٥٧                           |
| ١١٦                    | التوابون                      |
| جزولة ( كزولة )        | ١٩٠                           |
| ١٣٧ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢١٣  | تونكا ( الأمير )              |
| ٢٣١                    | ١١٨                           |
| جعفر بن الحسن          | تيزكي ( أم صنهاجة )           |
| ١٤٥                    | ١٢٠                           |
| جنگيز خان              | ابن تيفاوت                    |
| ٣٩                     | ١١٢                           |
| ابن جهضم ( أبو الحسن ) | تيلوتان                       |
| ١٤٢ - ١٤٣              | ١١٠                           |
| ابن جهور ( المرشاني )  | تينبروتان ( تينبروتان )       |
| ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤        | ١١٢ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١         |
| جهور بن محمد بن جهور   | تينزو ابن وانشق               |
| ( أبو الحزم )          | ٣٢                            |
| ٣٧ - ٤١                | تين يازامارن ( أم ابن ياسين ) |
| الجوهر ( بن سكم )      | ١٧٤                           |
| ١٦٦ - ١٧٠ - ١٨٢        | ( ج )                         |
| الجوهري                | جالينوس                       |
| ١٤٦ - ١٤٨              | ١٢٣                           |
| الجنويون               | ابن جحاف                      |
| ٤٠١                    | ٣٠ - ٣١ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٦٠     |
| جودقروا - ديمومين      | جدالة ( كدالة )               |
| ٢٤٤                    | ٦٣ - ٦٩ - ٧٠ - ٩٤ - ١٠٧       |
| جوتيه                  | ابن جرج « أبو المطرف »        |

|                           |                                 |
|---------------------------|---------------------------------|
| الحمايون                  | ٢٨ - ٣١                         |
| ٤٤ - ٦٨                   | جؤذر الحشمي                     |
| ابن حمدين ( القاضي )      | ٣٣٧                             |
| ٣٨٩                       | الجيلي ( أبو القاسم )           |
| الحميدى ( مؤرخ الأندلس )  | ١٤٥                             |
| ٤٠                        |                                 |
| الحميرى ( عبد المنعم )    | ( ح )                           |
| ٤١                        | ابن الحاج ( أبو عبد الله محمد ) |
| ابن حوشب                  | ٣٣٧ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤           |
| ١٦٥                       | ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤                 |
| ابن حوقل                  | ابن الحاج ( على )               |
| ١٠٦ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٧     | ٣٦٤ - ٣٦٧ - ٣٦٩                 |
| ١٣٨ - ١٢١ - ١٢٠           | الحبشة ( الأثيوبيون )           |
| ابن حيان ( مؤرخ الأندلس ) | ١٠٢ - ١٢٣ - ١٢ - ٣٨٤            |
| ٤٠ - ٣٩ - ٣٨ - ٣٧         | بنو حبيب                        |
| ابن الخطيب ( لسان الدين ) | ١٠٥ - ١٠٩                       |
| ٣٧ - ٣٦ - ٣٥              | ابن الحداد ( الطليطلى )         |
| ابن خلدون                 | ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧                 |
| ٣٢ - ٣٣ - ٣٦ - ٩١ - ١٠٣   | ابن الحديدي ( الفقيه )          |
| ١٠٤ - ١١٢ - ١١٧ - ١٢٠     | ٢٩٢                             |
| ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٨٦     | ابن حزم                         |
| ١٨٨ - ٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٤     | ٢٩٠ - ٢٩٢                       |
| ٢١٧ - ٢٢٩ - ٢٣٦ - ٢٤٣     | الحسن الوزان ( ليون الافريقى )  |
| ٢٧٣ - ٣٧٥                 | ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٦ - ١٣٧           |
| ابن خلكان                 | ١٨٧                             |
| ٣٠٥                       | الحسن بن شعبان                  |
| الخوارج                   | ١٤٦ - ١٤٩                       |
| ١٣٦ - ١٥٠ - ٢١٩ - ٢٢١     | حسين نصار                       |
| ٢٢٤                       | ٢٩                              |
| خوارزمشاه                 | أهل الحق ( دعوة )               |
| ٣٩                        | ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ ( معسكر )       |
| الخيز بن خزر الزناتى      | ١٨٢ - ١٨٦ - ١٩٠ - ١٩٣           |
| ٢٧٥ - ٢٧٦                 | ١٩٤ - ١٩٩ - ٢١٢ - ٢١٣           |
|                           | ٢٢٩                             |

- ( ٥ )
- أبو بكر الداني ٣٤٩
- داود بن عكاشة ( أبوسليمان ) ٢٨٠ - ٣٠٦ - ٣٠٨
- الداودي ( أحمد بن نصر ) ١٥١ - ١٥٥
- ابن الدباغ ١٤٩
- ابن دجون (أبو جعفر أحمد بن ثابت) ١٥٠ - ١٥١
- دسلان ٢٧ - ٢٨ - ١١٢ - ١٨٨ - ٢١٤
- دوزى ٣٠
- الدينورى ( أبو اسحق ) ١٤١
- ( ٦ )
- ابن ذئب الصديق ( الطليطلى ) ١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٧ - ١٤٨
- ١٤٩ - ١٥١ - ١٥٣
- ( ٧ )
- بنو رزين ٣٥٩ - ٣٦٥
- أبو رستم النفوسى ١٣٥
- ابن رشد ( الفيلسوف ) ٣٥ - ٤٢٠
- ابن رشيق ( أبو الحسن ) ١٤٥ - ١٤٦
- الرقيق ٢٩
- رياض الحسن -
- ( أم عمر بن علي بن يوسف ) ٣٨١
- ( ٨ )
- زائفة (زوجة المأمون بن المعتز) ٣٨٦
- ابن زاهر ( أبو حفص عمر ) ١٦٣
- ابن أبي زرع ٣١ - ٣٢ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٧١
- ١٧٨ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧
- ١٨٩ - ١٩٤ - ٢١٤ - ٢١٥
- ٢١٨ - ٢٢٦ - ٢٣٤ - ٢٣٦
- ٢٤٧ - ٢٥٢ - ٢٦٥ - ٢٧٣
- ٢٧٧ - ٢٨٠ - ٣١١ - ٣٢١
- ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣ - ٣٥٣
- ٣٨١
- أبو زكريا بن واسينوا ٣٣٧
- زمر البرغواطى ( أبو صالح ) ٢١٩ - ٢٢٠
- زناقة ٤٤ - ٦٨ - ١٠٣ - ١١٥ - ١١٩
- ١٢٤ - ١٢٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨
- ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٤٥١
- ٢٥٤ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٤٠١
- زناقة ( زناقة ) صنهاجة ٧٠ - ٧٥
- الزواج ( الزوج ) ٧٣ - ٨٣ - ٨٤ (البانتو) - ١٠٦
- ١١٧ - ١٢١ - ١٢٦
- زياد بن يونس ١٥٠
- ابن أبي زيد ( أبو محمد ) ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤

- ١٥٥  
- الزيريون ( بنو زيري )  
٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ١٣٠ - ٣٧٠  
٣٥ - ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٣٠٤  
٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٥٥ - ٣٥٧  
٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١  
٣٦٧  
- زيري مناد  
٤٤  
- زينب النفراوية  
١٢٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٥١  
٢٥٤ - ٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٦٧  
٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٥٣  
٣٨٠ - ٣٨٣ - ٣٩٥  
( س )  
- سرطه ( شرطة )  
٧١ - ١٢١  
- ابن سعيد الخزرجي  
( أبو القاسم عبد الرحمن )  
١٥١ - ١٥٣  
- ابن السرور  
١٥٠  
- ابن سعيد السجزي  
١٥٠  
- الاسقطي  
١٤٣  
- ابن سكرة ( أبو علي )  
١٤٩  
- السلاجقة  
٤٣  
- ابن سلام  
١٤١  
- بنو سليم ( عزب )  
٤٣  
- سمسطه  
٧١ - ١٢١  
- السونينك ( شعب )  
٦٤ - ٧٦ - ١١٧ - ١١٨ - ٢٦٩  
- السيد  
( ش )  
- ابن صالح ( أبو حفص عمر )  
شجر الدر  
١٢٦  
- ابن شداد ( عبد العزيز الزيري )  
١٦٧ - ١٧٠ - ١٩٦ - ٢١٣  
٢٢٦  
- ابن شرف  
( الشاعر : أبو عبد الله محمد  
القبرواني )  
١٥٥ - ١٦٤  
- شرف الدولة بن المعتمد  
٣٤٩  
- الشنتجياتي ( الأموي )  
١٤٣ - ١٤٤  
- الشنياطي  
٣٥٩  
- الشيعة  
١٣٦ - ١٤٠ - ١٥٠ - ٢١٥  
٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٧٠  
- شمين ( أرملة السيد )  
٣٦٢  
( ص )  
- ابن صالح ( أبو حفص عمر )

|                                  |                                  |
|----------------------------------|----------------------------------|
| ١٦٣                              | - طليطلة ( اهل )                 |
| صدينة                            | ٢٩٢ - ٣٥٥ - ٣٨٨                  |
| ٢٥٦                              | - الطوارق                        |
| - الصقالبة ( البيض )             | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٩ - ٦١ -         |
| ٢٦٠ - ٢٧٢                        | ٦٢ - ٧١ - ٧٧ - ٧٨ - ٨٩ -         |
| - صنهاجة                         | ٩٥ - ١٠٩ - ١١٦ - ١٢٢ -           |
| ٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٤٣ - ٤٤ -         | ( حاليا ٥٢ ) - ١٢٣ - ١٢٤ -       |
| ٤٥ - ٤٦ - ٦٣ - ٦٨ - ٦٩ -         | ١٢٨ - ١٣٠ - ( الماصرون ) -       |
| ٧٠ - ٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٨ -         | ١٣٢ - ١٣٤ - ١٧٤                  |
| ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ -          | ( ع )                            |
| ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١١١ -          | - ابن عائشة ( محمد )             |
| ١١٢ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ -          | ٣٤١ - ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -          |
| ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ -          | ٣٨٦ - ٣٩٤                        |
| ١٢٦ - ١٣٥ - ١٦٥ - ١٦٦ -          | - العامريون ( بنو عامر المنصور ) |
| ١٧٢ - ١٨١ - ١٨٩ - ١٩٥ -          | ٣٥٤                              |
| ١٩٦ - ٢١٠ - ٢٣١ - ٢٥٦ -          | - العباديون ( اصحاب اشبيلية )    |
| ٣٣٦                              | ٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤١                   |
| - ابن الصقل                      | - أبو العباس ( الأقلشي )         |
| ( أبو القاسم عبد الرحمن البكري ) | ١٤٧ - ١٤٨                        |
| ١٥٠                              | - العباس بن يحيى                 |
| - الصوفية ( اخوان الطرق )        | ٢٧٧ - ٢٧٨                        |
| ١٦٠                              | - العباس بن عمر بن الأفلح        |
| - ابن الصيرفي                    | ٤١                               |
| ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥٥                  | - ابن عبد البر ( أبو عمر )       |
| - الصينيون                       | ١٥٨ - ١٦٧                        |
| ١٤٤                              | - عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس |
| ( ط )                            | ٣٤٨                              |
| - طارق بن زياد                   | - عبد الحميد العبادي             |
| ٧١                               | ٣٣٤                              |
| - أبو الطاهر السلفي              | - عبد الرحمن بن رشيق             |
| ٤٠٨                              | ( صاحب مرسية )                   |
| - ابن الطرابلسي ( أبو حاتم )     | ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٧ -          |
| ١٦٨                              | ٣٣٦ - ٣٥٠ - ٣٥٣ - ٣٥٤            |



- ٤٤٣ -

|                                |                                  |
|--------------------------------|----------------------------------|
| - عبد العزيز بن شداد           | - العبيد ( السود )               |
| ٢٦ - ٢٩ - ٣٢                   | ٢٦٠ - ٢٧٢                        |
| - عبد الله بن ادريس            | - العجيفي ( أبو الطاهر )         |
| ١١٣                            | ١٤٢                              |
| - عبد الله بن بلقين            | - ابن عديس                       |
| (الأمير - الصنهاجي - ابن حبوس) | ٣٥٨                              |
| ٣٥ - ٣٦ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٢٦      | - ابن غناري                      |
| ٣٢٧ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٢          | ٣٠ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٢٤٠ -           |
| ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨          | ٢٦٩ - ٢٧٣ - ٢٧٨ - ٣٦١ -          |
| ٣٤٣ - ٣٤٧                      | ٣٧٤ - ٤٠٣                        |
| - عبد الله بن مزدي             | - العجم                          |
| ٣٩٨                            | ٢٦                               |
| - عبد الله بن ياسين            | - العرب                          |
| ١٦٥ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٧٥          | ٢٦ - ٣٥ - ٣٩ - ٤٨ - ٧٥ -         |
| ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩          | ١٠١ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٦ -          |
| ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٦          | ١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٢٣ -          |
| ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠          | ١٢٨ - ١٣٠ - ٢٩٥                  |
| ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤          | - ابن عزرة                       |
| ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٩          | ١٥٠                              |
| ٢٠٠ - ٢٠٤ - ٢٠٨ - ٢٠٩          | - ابن عقاب ( أبو بكر )           |
| ٢١٠ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤          | ٣١٧                              |
| ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢٢٠          | - ابن أبي عقبة التميمي           |
| ٢٢١ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨          | ( هبة الله بن محمد أبو بكر )     |
| ٢٣٤ - ٢٣٨ - ٣٧٠                | ١٥٠                              |
| - عبد الملك بن أحمد بن هود     | - عقبة بن نافع                   |
| ( عماد الدولة )                | ٢١٧                              |
| ٣٦٥ - ٣٩٢                      | - الملاف ( أبو القاسم )          |
| - عبد الواحد المراكشي          | ١٤٩                              |
| ٣٥ - ٤٠ - ٣٧ - ٣٧٧ - ٢٩٨       | - أبو علي الصدفى                 |
| - بنو عبد الوارث               | ٤٠٧                              |
| ٦٢ - ١١٣ - ١٢٠ - ١٢١           | - علي بن كنفاط اللمتوني          |
| - ابن عبدون                    | ٣٩٤                              |
| ٤١                             | - (أبو الحسن) علي بن محمد البرجي |

|                                     |                                   |
|-------------------------------------|-----------------------------------|
| ٤١٦                                 | ٤١٩                               |
| - غفجومة ( قبيلة )                  | - علي بن مجاهد                    |
| ١٥٨ - ١٥٧                           | ٤١                                |
| - ابن غلبون ( الأب والابن )         | - علي بن يوسف بن تاشفين           |
| ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥١                     | ٣١ - ٣٢ - ٣٥ - ٤١ - ٣٦٤           |
| - ابن غلبون الحولاني (أبو عبدالله)  | - ٣٦٥ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥           |
| ١٦٩                                 | ٣٧٧ - ٣٧٨                         |
| ( ف )                               | - عمر بن الأفتس ( المتوكل )       |
| - الفارابي ( الفيلسوف )             | ٣٤ - ٤١                           |
| ٣٦                                  | - عمر بن الخطاب                   |
| - ابن فاطمة ( عبد الله )            | ١٨١ - ٣٧٤                         |
| - ١٢٦ - ٣٦٣ - ٣٦٦ - ٣٨٦             | - عمر بن عبد العزيز               |
| ٣٩٢ - ٣٩٦                           | ٣٧٤                               |
| - الفاطميون                         | - عمر بن سليمان المسوفي           |
| ٤٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١٣٥                | ٢٧٣ - ٢٨٠                         |
| ١٣٩ - ١٤٠ - ١٧٢ - ٢١٥               | - أبو عمران الفاسي                |
| - ابن فانو                          | ١١٩ - ١٥٠ - ١٥٧ - ١٥٨             |
| ١٢٦                                 | ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢             |
| - ابن الفرضي ( أبو الوليد الفرطبي ) | ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦             |
| ١٤٣ - ١٤٤ - ١٥١ - ١٥٣               | ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠             |
| - فرناندو                           | ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٥             |
| ( ملك غاليسيا وليون وقشتالة )       | ٢٠٨                               |
| ٢٨٩                                 | - عنان ( محمد عبد الله )          |
| - الفضل بن عمر بن الأفتس            | ٣٥ - ٣٣٤                          |
| ٤١                                  | - عيسى بن أبي الأنصار (أبو منصور) |
| - الفلسطينيون                       | ٢١٩                               |
| ٨٠                                  | ( غ )                             |
| - الفينيقيون                        | - ابن غانية                       |
| ١٣٢                                 | ١٢٦                               |
| ( ق )                               | - غرسية بن الرند                  |
| - القابسي ( أبو الحسن )             | ٣٩٧ - ٣٩٨                         |
| - ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤             | - الفزالي                         |
| ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٠ - ١٦٣               | ٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ١٩٥ - ٤١٥         |

( ج )

- الفادر بن ذى النون  
٣٠ - ٢٨٧ - ٢٩٢ - ٣٥٥ - لبي بن وارجابي ( وازجاي )  
٣٥٦ - ٣٦٠  
٢١١
- أبو القاسم العجيبى ( الاشبيل )  
١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣  
١٤٨
- ابن اللبابة ( أبو بكر محمد )  
١٤٨
- لقوط البرغواطى ( لكوت ، لجوت ، سكوت )  
٣٥
- ابن ترمان ( الطلمنكى )  
١٤٢ - ١٤٨ - ١٥١ - ١٥٤
- قورور ( أمين السر )  
٣٣٠
- ابن القصيرة ( أبو بكر )  
٣٦٥
- ابن القطان  
٣٢ - ٢٩
- ابن القليعى ( شيخ غرناطة )  
٣٢٣ - ٣٢٧
- قدر الرومية ( أم حسن )  
٣٨١
- القناعزى ( القرطبى )  
١٤١ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٢
- لطة  
٢٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٤ - ٩٢ -  
١١٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٧ -  
١٦٥ - ١٧٨

( ك )

- الكتاميون  
٤٣
- الكنانى ( حمزة بن اسحق الحافظ )  
١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٣
- كوار ( اهل )  
١٢٣
- كولان  
٣٠
- كولى  
٢٨
- ( م )
- المامون بن المعتمد  
٣٤٢ - ٣٤٣
- المانديج  
١١٧
- الماوردى ( قاضى قضاء بغداد )  
٣٦
- ماخوخ الزناتى  
٤٠١
- ابن ماهان

- ٤٤٦ -

|                          |                                    |
|--------------------------|------------------------------------|
| ٣٣                       | ١٤٦ - ١٤٨                          |
| - محمد بن مزدل           | - المتوكل بن الأفتس ( عمر )        |
| ٣٩٨ - ٤٠٢ - ٤٠٣          | ٢٩٢ - ٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٤٩              |
| - بنو ( آل ) مدرار       | ٣٥٠                                |
| ١١٥ - ١٣٥                | - أبو محمد بن اسباط                |
| - مدرك التلكتاني         | ٣٨١                                |
| ٢٧٤                      | - محمد بن اسماعيل بن عباد          |
| - المرابطون              | ( القاضي )                         |
| ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩   | ٣٥٦                                |
| ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤   | - ( أبو عبد الله ) محمد بن تاشفين  |
| ٣٥ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣   | ٣٥٩ - ٣٦٠                          |
| ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩   | - محمد بن امبارك اللمتوني          |
| ١٠١ - ١٠٧ - ١١٧ - ١١٨    | ٦٩                                 |
| ١١٩ - ١٢٠ - ١٤٠ - ١٥٠    | - محمد بن تميم الجدالي             |
| ١٧٤ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٩    | ٢٧٣                                |
| ١٩٠ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧    | - ( أبو عبد الله ) محمد بن أبي بكر |
| ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٣ - ٢٠٤    | اللمتوني                           |
| ٢٠٧ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١٢    | ١٨٤                                |
| ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٢٠    | - محمد بن تومرت ( المهدي )         |
| ٢٢٢ - ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠    | ٣٠ - ٣٢ - ١٦٠ - ٢١٢ - ٢٦١          |
| ٢٣١ - ٢٣٤ - ٢٣٤ - ٢٤٦    | ٣٢٨ - ٤٠٠                          |
| ٢٥٢ - ٢٥٨ - ٢٨١ - ٢٨٣    | - محمد حاج صادق                    |
| ٢٩١ - ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٣٠٢    | ٢٨                                 |
| ٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٥    | - محمد بن الخلف                    |
| ٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٣٢ - ٣٣٥    | ( صاحب البيان الواضع )             |
| ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤١    | ٣٣ - ٣٧٣                           |
| ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٥٠    | - محمد بن صمداح                    |
| ٣٥٢ - ٣٥٤ - ٣٥٩ - ٣٦٠    | ١٤١                                |
| ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨    | - محمد ( انظر ابن عائشة )          |
| ٣٧٥ - ٣٨١ - ٣٨٤ - ٣٩٢    | - محمد بن عبد الرحمن               |
| ٣٩٦ - ٤٠٥                | ابن أبي العافية ( أبو القاسم )     |
| - المزينيون ( بنو مرين ) | ٢٧٨                                |
| ٤٣ - ١٦٦                 | - محمد بن عبد العزيز بن الامام     |

|                          |                            |                         |
|--------------------------|----------------------------|-------------------------|
| ٢٩١ - ٢٩٥ - ٣٠٠ - ٣٠٣ -  | مزدلي بن سولنكان           | ٢٦٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٣٦١ - |
| ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٣ -  |                            | ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٨٠ - ٣٩٥ - |
| ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ -  |                            | ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ -       |
| ٣٣٢ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٩ -  |                            |                         |
| ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٣ - ٣٤٥ -  | المستعين أحمد بن هود       | ٣٩١ - ٣٩٢ -             |
| ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ -  | المستنصر ( الأموى )        | ١١٢ - ٢١٩ -             |
| ٣٥٠ - ٣٥٦ -              | مسعود بن وانودين           | ٢٠٦ - ٢٠٧ -             |
| المز لدين الله الفاطمى   | المسلمون                   |                         |
| ٣٧٩                      | ٢٥ - ٢٦ - ٤٤ - ١١٧ - ٣٠٢ - |                         |
| المز بن يوسف بن تاشفين   | ٣١٤ - ٣٢٠ - ٣٢٥ - ٣٥١ -    |                         |
| ٢٩٧                      | ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٩٢ -    |                         |
| مفراوة                   | مسجلة السودان              |                         |
| ٣٢ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢١٠ -   | ٢٠٩ - ٢١١ - ٢٧٠ -          |                         |
| ٢١٤ - ٢١٧ - ٢٥٢ -        | مسوفة                      |                         |
| المقول                   | ٣٢ - ٧٠ - ٧١ - ١٢١ - ١٧٨ - |                         |
| ٢٦ - ٨١ -                | ١٩٥ - ٢٠٣ - ٢٧١ -          |                         |
| مفيلة                    | المسيحيون ( الحلفاء )      |                         |
| ٢٧٦                      | ٣٧ - ٣٥١ - ٣٦٢ - ٣٨٥ -     |                         |
| المقرى ( أبو عمرو )      | ٣٩٢ - ٣٩٥ -                |                         |
| ١٦٧                      | المشاركة                   |                         |
| مكى ( محمود )            | ٢٩ - ٣٣ - ٣٢ - ٢٨ -        |                         |
| ٢٩ - ٣٥ -                | ٤٣ - ٤٥ - ٤٦ - ٦٨ - ٧٣ -   |                         |
| المثمون                  | ٧٧ - ٨٠ - ٨٤ - ١٠١ - ١٠٤ - |                         |
| ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٢ - ٣٣ - | ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ -    |                         |
|                          | ١١٥ - ١١٧ - ١٢٠ - ١٢١ -    |                         |
|                          | ١٢٤ - ١٢٦ - ١٢٩ - ١٣٠ -    |                         |
|                          | ١٣٤ - ١٤٠ - ١٥٦ - ١٥٧ -    |                         |
|                          | ١٦٥ - ١٦٧ - ١٧٠ -          |                         |
|                          | ١٧٢ - ١٧٤ - ٢٠٩ - ٢١٢ -    |                         |
|                          | ٢٣٥ - ٢٨٠ - ٢٩٤ - ٣٧٥ -    |                         |
|                          | ١١٣ - ١٧٣ - ٢١٨ - ٢٣١ -    |                         |
|                          | ٢٥٦ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٣٩٤ -    |                         |
|                          | مصطفى أبو ضيف              |                         |
|                          | ٢٩                         |                         |
|                          | المتضد بن عباد             |                         |
|                          | ٢٨٩                        |                         |
|                          | المتعمد بن عباد            |                         |
|                          | ٣٣ - ٣٤ - ٤٠ - ٤١ - ٢٨٠ -  |                         |

|                                  |                                |
|----------------------------------|--------------------------------|
| ٣٩٩                              | - المهنفس ( أبو بكر )          |
| - المثنون ( قبائلهم )            | ١٤٦ - ١٤٨                      |
| ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤            | - الموحدون                     |
| ١٢٧                              | ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٤         |
| - ملوك الطوائف ( رؤساء الأندلس ) | ٣٥ - ٤٠ - ٤٣ - ١٥٥ - ٢٦١       |
| ٣٢ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨           | ٣٠٨ - ٣١١                      |
| ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٤ - ١١٢          | - مؤنس ( حسين )                |
| (الصنهاجية) - ١١٧ - ١٦٤          | ٢٥ - ٢٣٤                       |
| ٢٨٦ - ٢٨٨ - ٢٩١ - ٢٩٣            | - ابن ميمون ( الطليطلي )       |
| ٢٩٤ - ٢٩٦ - ٣٠٠ - ٣١٦            | ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٥          |
| ٣١٨ - ٣٢١ - ٣٢٥ - ٣٢٧            | ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٠                |
| ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣٤ - ٣٣٥            | - أبو ميمونة (دراس بن اسماعيل) |
| ٣٢٨ - ٣٥٢ - ٣٥٦ - ٣٦٠            | ١٥٧                            |
| ٣٦٤ - ٣٩٢                        | ( ن )                          |
| - بنو مولان                      | نارشت ( نارشي - تارشي )        |
| ٣٢                               | ٣٢ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٩           |
| - المنذر بن أحمد المقتدر بن هود  | - الناصر ( الأموي )            |
| ٣٥٤                              | ٢٧ - ١١٢ - ١٥٧ - ٣١٦           |
| - المنصور (محمد) بن أبي عامر     | - الناصر ( محمد الموحدي )      |
| ٢٧ - ٣٦ - ١١٨ - ٣١٦              | ٤٠                             |
| - المنصور بن الناصر بن علناس     | - ابن النحاس                   |
| ١٤١                              | ١٤٦ - ١٤٩                      |
| - المنصور عمر بن الألفطس         | - النورماند ( ديون )           |
| ( ابن المتوكل )                  | ٤٤ - ١٢٣                       |
| ٣٩٤ - ٣٩٥                        | - ابن ذى النون                 |
| - ابن منظور ( القاضي باشبيلية )  | ٣٢٠                            |
| ٣٨٤                              | - النويري                      |
| - منقباد بن العزيز الزناتي       | ٢٩ - ١٦٨ - ١٧١ - ١٩٦           |
| ٢٧٥                              | ٢٢٦ - ٢٧٣ - ٣١٧ - ٣٥٢          |
| - ابن المنير                     | ( ه )                          |
| ١٤٩                              | - هارون الرشيد                 |
| - المهدي بن يوسف الجزناتي        | ٤١                             |
| ٥٨                               | - هبة الله بن محمد ( أبو بكر ) |

|                             |                                |
|-----------------------------|--------------------------------|
| ابن أبي عتبة التميمي        | - الوندال                      |
| ١٥٠                         | ١٠٣ - ١٠٤ - ١٢٣                |
| - الهروي ( أبو الفضل أحمد ) | - ويثي ميرندا                  |
| ١٤٤                         | ٣٠                             |
| - الهروي ( أبو ذر عبد )     | ( ي )                          |
| ١٥٩ - ١٤٤                   |                                |
| - هزيمة                     | - يتلوتان                      |
| ٢٤٠ - ٢٤١                   | ٣٢                             |
| - هشام المؤيد               | - بنو يفرن                     |
| ٣٧                          | ٢٢                             |
| - الهلالية ( العرب )        | - يحيى بن ابراهيم الجدال       |
| ٢٩ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ - ٤٠٨     | ١١٢ - ١١٣ - ١٢٧ - ١٦٥          |
| ١٦٤ - ٢٩٤                   | ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩          |
| - الهنهيبن                  | ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣          |
| ١٠٥                         | ١٧٧ - ١٧٨ - ١٨٠ - ١٨٤          |
| - ابن هود ( بنو )           | ١٨٥ - ٣٧٠ - ٣٧١                |
| ٢٨٩ - ٣١٩ - ٣٣٧ - ٣٥٨       | - يحيى بن أبي بكر              |
| ٣٦٣ - ٣٦٥ - ٣٧٩ - ٣٩٠       | ٣٨٠                            |
| ٣٩١                         | - يحيى بن بكير                 |
| - الهوسا                    | ١٤١                            |
| ٧٣ - ٨٤ - ٩٥                | - يحيى بن ذى النون             |
| ( ٥ )                       | ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١                |
| - وارجابي ( ورجاي - ورجاي ) | - يحيى بن عمر ( بن تلاجين )    |
| ١١٩                         | ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٩ - ٢٠٩          |
| - ورجا بن زللو              | ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢                |
| ١٦٥ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤       | - ( ضياء الدولة ) يحيى بن لكوت |
| ١٨٨                         | ٢٨١                            |
| - بنو وانودين               | - يحيى بن هذيل ( بن خلف )      |
| ٢٠٤ - ٢٠٦ - ٢١٥             | ٣٦٥                            |
| - بنو ورتنطق                | - أبو يحيى بن محمد بن الحاج    |
| ٧٠                          | ٣٩٣                            |
| - الولوف                    | - يحيى بن مزعل                 |
| ٦٥                          | ٢٧٨                            |
|                             | - يحيى بن واسينوا اللحتوني     |

|                                 |                         |
|---------------------------------|-------------------------|
| ٢٧٦                             | ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - |
| - يحيى بن يحيى                  | ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - |
| ١٤١                             | ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - |
| - أبو يحيى بن اليسع             | ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - |
| ٢٣                              | ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - |
| - اليعقوبى                      | ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٩ - |
| ١٣٨                             | ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - |
| - أبو يعلى الزناتى              | ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - |
| ٢٧٨                             | ٢٨١ - ٢٨٣ - ٢٩٤ - ٢٩٧ - |
| - يعلى بن يوسف                  | ٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٥ - |
| ٢٥٩                             | ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٢ - |
| - سنو يفرن                      | ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - |
| ٢١٦ - ٢١٩ - ٢٢٧ - ٢٣٣ -         | ٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٢ - ٣٢٥ - |
| ٢٥٢ - ٢٥٨                       | ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ -       |
| - يلتان ( يروتان )              | ٣٣٢ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - |
| ١١١ - ١١٨                       | ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢ - |
| - ينتيان بن عمر ينتيان          | ٣٥٣ - ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٥٩ - |
| ٢٨١                             | ٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - |
| - اليهود                        | ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٧٠ - ٣٧١ - |
| ٣٦٦                             | ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - |
| - يوسف بن تاشفين (أمير الملمين) | ٣٨٩ - ٣٨٣ - ٣٨٨ - ٣٩٤ - |
| ٢٥ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -        | ٣٩٩                     |
| ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٤٠ - ٤١ -        | - يوسف بلكين بن زيرى    |
| ٩٩ - ١٢٦ - ٢١٥ - ٢٣٣ -          | ١٢٠                     |
| ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ -         | - اليونان والرومان      |
| ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤٩ -         | ١٢٨                     |



## أسماء المدن والجبال والأنهار والأماكن والمواضع

| ( أ )                     |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| أدرار ( أنوراس )          | ٣٥١                         |
| ٤٥ - ٥٠ - ٥٤ - ٦١ - ٩٧ -  | - أضفاغ ( كيدال )           |
| ١٠٤ - ١٠٦                 | ٥٩                          |
| أرض الروم                 | - اطار                      |
| ٤٣                        | ٤٥                          |
| - أزواغ                   | - الاطنطى ( محيط )          |
| ٥٩                        | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٨ - ٤٤ -     |
| - الأخبود                 | ٦٨ - ٢٢٧                    |
| ٥٣                        | - أعمدة هرقل                |
| - أرتنى ( مدينة )         | ٤٨                          |
| ١٨١ - ١٨٤ - ١٨٨ - ١٨٩     | - أغادير                    |
| - أزقى ( قوقدم )          | ٥٠                          |
| ٧٠ - ١٢٩ - ٢٠٩            | - أغاديس ( إجاديس )         |
| - إسبانيا                 | ٤٥ - ٥٠ - ٧١                |
| ٢٥ - ٤٣ - ٣٦٠             | - أغرغار ( وادى )           |
| - آسيا                    | ٦١ - ٦٢ ( إيفار غار )       |
| ٢٦ - ٣٩ - ٤٣ - ١٠٨        | - ألحمات                    |
| - اشبيلية                 | ٣٢ - ٣٦ - ٩٧ - ١١٣ - ١١٥    |
| ٣٨ - ٤٠ - ٢٨٠ - ٢٨٦ - ٣٠٢ | ١٢٦ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٧ -     |
| ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣١١ - ٣١٨     | ٢٢٧ - ٢٣١ - ٢٣٥ - ٢٣٨ -     |
| ٣٢٠ - ٣٣٢ - ٣٣٥ - ٣٣٦     | ٢٤٠ - ٢٤٥ - ٢٥١ - ٢٦٦ -     |
| ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠     | ٢٦٧ - ٢٨٠ - ٣٤٧ - ٣٤٨ -     |
| ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦     | - الأغروار ( جنوب الجزائر ) |
| ٣٤٧ - ٣٤٩ - ٣٥٢ - ٣٦٦     | ٤٨                          |
| ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٨٠ - ٣٨٣     | - أفريقيا                   |
| ٣٩٥                       | ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٨ - ٤٣ -    |
| - أشتوريش                 | ٤٤ - ٦١ - (الوسطى) - ٨٤ -   |
|                           | ٩٠ - ٩٥ - ١٠٣ - ١١٧ - ١٢٠ - |

|                           |                               |
|---------------------------|-------------------------------|
| ٢٨٥ - ٢٨٣ - ٢٨٢ - ٢٨١     | ٣٢٨ - ٢٤٥ - ١٣٨               |
| ٢٨٩ - ٢٨٨ - ٢٨٧ - ٢٨٦     | - افريقيا الغربية ( السودان ) |
| ٣٩٥                       | - ٤٨ - ٥٦ - ٥٩ - ٦١ - ٦٦      |
| - اودغست ( اودغشت )       | ٦٧ - ٨٤                       |
| - ٤٥ - ٦٢ - ٦٣ - ٧٤ - ٧٦  | - افيدو                       |
| ١١٥ - ١١٤ - ١١٢ - ٩٧ - ٩٠ | ٣٥١                           |
| - ١١٩ - ١١٨ - ١١٧ - ١١٦   | - اقليش                       |
| - ١٣٧ - ١٣٠ - ١٢١ - ١٢٠   | ٣٠ - ٣٥ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩٢     |
| ٢٠٧ - ١٣٨                 | ٤٠٣                           |
| - الأوراس ( جبال )        | - اليسانة                     |
| ٦٢                        | ٣٢٩                           |
| - أوروبا                  | - المرية                      |
| ١٢٣ - ٩٥ - ٥٦             | ٣٢٠                           |
| - اوغام ( مقاطعة )        | - اقرتندي                     |
| ١١٨                       | ٨٩                            |
| - أوليل                   | - أمريكا                      |
| ٩٧ - ٧٠ - ٥٠ - ٤٥         | ٥٦                            |
| - أوكار ( منطقة )         | - الأندلس                     |
| ١١٨ - ١١٧                 | ٢٥ - ٢٦ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١        |
| - ايجل                    | ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٨        |
| ٩٧ - ٨٨ - ٨٦ - ٧٠         | ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤        |
| - أيوني ( جزيرة )         | ٦٩ - ١٠٨ - ١١٢ - ١٢٠          |
| ١٨٧ - ٩٨ - ٩٧ - ٩٤        | ٢٣٠ - ٢٣٥ - ٢٤٥ - ٢٨٠         |
| - آير ( هضبة )            | ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٦         |
| - ٦١ - ٥٩ - ٥٤ - ٤٦ - ٤٥  | ٢٩٣ - ٢٩٦ - ٣٠٠ - ٣٠٢         |
| ١٢٣ - ١٢٢ ( أمير )        | ٣٠٣ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢         |
| ( ب )                     | ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩         |
| - بامبوك                  | ٣٢١ - ٣٢٥ - ٣٣٢ - ٣٣٣         |
| ٢٧٠ - ١١٩ - ٧٦ - ٦٦       | ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨         |
| - بانكلايين ( مدينة )     | ٣٣٩ - ٣٤٤ - ٣٤٧ - ٣٥١         |
| ١٢٠ - ١١٣                 | ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٦ - ٣٥٧         |
| - بجاية                   | ٣٥٩ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥         |
| ١٤٢ - ٦٩ - ٤٤             | ٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٧١ - ٣٧٩         |

|                           |                                |
|---------------------------|--------------------------------|
| بحر الغزال                | ٣٢٤ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٥٥          |
| ٦٢                        | ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٩ - ٣٦٠          |
| البحر المتوسط             | ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٧          |
| ٤٨ - ٥٦ - ٥٨ - ١٠١ - ١٢٢  | ٣٩٢                            |
| ١٣٤ - ٢٠٤ - ٣٥١           | - بنبلوقة                      |
| البحر المحيط ( الأطلنطي ) | ٣٠٤                            |
| ٣٨ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٦٣    | - بوغرات ( مدينة )             |
| ٦٥ - ٧٠ - ٩٤ - ٩٧ - ٩٨    | ١٣٥                            |
| ١٠٤ - ١١٤ - ١٦٦ - ١٧٦     | - بورجرج ( أبو الرقراق )       |
| ١٨٢ - ١٨٧ - ١٨٨ - ٢٠٤     | ٢٢٧ - ٢١٨                      |
| ٣٥١                       | - بولاق                        |
| ٢٢                        |                                |
| البرتقال                  |                                |
| ٣٩٧                       | ( ت )                          |
| برشلونة                   | - نانننال                      |
| ٣٢٠                       | ٩٧                             |
| برقة                      | - ناجه ( وادي )                |
| ٤٤ - ١٠٤ - ١١٥ - ٤٠٢      | ٣٣٥ - ٣٠٤                      |
| بسطة                      | - تادلا                        |
| ٣٥٣ - ٣٢٠                 | ٢١٦ - ٢٢٠ - ٢٢٧ - ٢٢٨          |
| بسكرة                     | ٢٢٩ - ٢٣١                      |
| ٦٢                        | - تادمكة                       |
| البصرة                    | ٤٥ - ٤٦ - ٧٤ - ٧٨ - ٩٧         |
| ١١٤                       | ١١٥ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٩          |
| بطلبيوس                   | ١٣٨ - ٢٦٩                      |
| ٣٠٣ - ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٤٩     | - تارودانت                     |
| ٣٥٠ - ٣٥٢ - ٣٦٨ - ٣٩٦     | ٥٠ - ٥٩ - ٨٩ - ١٣٥ - ٢١٥       |
| البطن                     | ٢١ - ٢٣٣                       |
| ٥٢                        | - تاركا : طارقه ، تارغه ، ترغه |
| بغداد                     | ٣٢ - ٦٩ - ٧١ - ٧٣ - ٨٨         |
| ٣٩ - ٤٠ - ٤٣ - ١٣٩ - ١٥٩  | ١٠٥ - ١٠٩ - ١٢١ - ١٣٤          |
| ١٦١ - ١٦٢ - ٣١٥ - ٤٠٣     | - تازا                         |
| بلنسية                    | ١١٥ - ٢٧٩ ( أحواز )            |
| ٣٠ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٠٤ - ٣١٩  | - تافساسيت ( أودية )           |

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| ٦١                        | - تمنغست                    |
| - تاليوين ( قرية )        | ٥٩ - ٨٩                     |
| ٢١١                       | - تندوف ( نول )             |
| - تامدلت ( تاملت )        | ٥٦ - ٥٤                     |
| ٦٢ - ٩٧ - ١١٣ - ١٣٤ - ٢١٠ | - تنسيفت ( وادي )           |
| - تامسنا                  | ٢٤٠                         |
| ٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠     | - توات ( عين صالح )         |
| - تامنرست                 | ٤٥ - ٤٨ - ٦١ - ٦٢ - ٧١ -    |
| ٦١                        | ١١٤                         |
| - تاهرت                   | - تومبوكتو                  |
| ١٠٥ - ١١٥ - ١٣٥           | ٤٥ - ٥٠ - ٦٥ - ٨٣ ( جنيوة ) |
| - تاوديني ( حوض )         | ١٠١ - ١٠٣ - ٢٧١             |
| ٥٤                        | - تونس                      |
| - تيفريل ( موقعة )        | ٦٨ - ١١٥                    |
| ٢١٠ - ٢١٢                 | - تيبستي                    |
| - التركستان               | ٤٥ - ٥٤ - ٦١ - ٦٢ - ١٠٤ -   |
| ٤٣                        | ١٢٣                         |
| - تساليت                  | - تيدال                     |
| ٤٥                        | ٥٨                          |
| - تطيلة                   | - تيويوين                   |
| ٣٦٨ - ٣٩٣                 | ١٣٥                         |
| - تشاد                    | ( ث )                       |
| ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨ - ٥٩ -  | - الثغر الأعلى              |
| ٦٠ - ٦٢ - ١٠٤ - ١١٤ - ١١٥ | ٣٥ - ٣٧ - ٢٨٨ - ٢٣٧ - ٣٤٤   |
| ١٣٣                       | ٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٢ - ٣٦٥ -     |
| - تغازة                   | ٣٦٨ - ٣٩١                   |
| ٤٦                        | - الثغر الأدنى              |
| - تلمسان                  | ٣٥١                         |
| ٣٢ - ٥٠ - ١١٤ - ١١٥ - ٢٣٨ | - ثغور الأندلس              |
| ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٣٨٠ - ٣٩٥ -   | ٤٤ - ١٥٠ - ٣٣٩ - ٣٦٦ -      |
| ٤٠١                       | ٣٦٧                         |
| - تمامانوت ( قرية )       | ( ج )                       |
| ١٧٤                       | - جامبيا ( نهر )            |



|                           |                                         |
|---------------------------|-----------------------------------------|
| ٣٣٥ - ٣٣٧ - ٣٤٠ - ٣٤٣     | دانية                                   |
| ٣٥٥ - ٣٥٤ - ٣٣٨ - ٤١      | ٤١                                      |
| ريغ ( وادي )              | ٣٥٨                                     |
| ٦٢ - ٦١                   |                                         |
| ريه                       | درعة                                    |
| ٣٥                        | ٥٠ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٥ - ٧١                  |
| ( ج )                     | ٧٣ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٨                  |
| الزباب ( بلاد )           | ١٠٥ - ١١٣ - ١٢١ - ١٦٥                   |
| ٦٩ - ٦٢                   | ١٨٥ - ٢٠٤ - ٢١٣ - ٢٢٨                   |
| الزلاقة                   | ٢٨٠                                     |
| ٤٣ - ٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣١٠      | درن ( جبل الأطلس )                      |
| ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤     | ٤٦ - ٥٤ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢                  |
| ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩     | ٦٨ - ٧٦ - ٩٧ - ١٠٢ - ١٣٦                |
| ٣٢٠ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٨     | ٢٠٤ - ٢١٤ - ٢٣١ - ٢٤١                   |
| ٣٣٥ - ٣٣٩ - ٣٤٦ - ٣٥٢     | ٣٧٩                                     |
| ٣٥٦                       | المسلم ( بلاد )                         |
| زويلة                     | ٩٩                                      |
| ٤٥ - ١٢٣                  | ( د )                                   |
| ( س )                     | الراس الأخضر                            |
| الساحل ( اقليم )          | ٥٤ - ٥٨                                 |
| ٥٨ - ٥٩ - ٦١ - ٦٤ - ٧٣    | الرباط                                  |
| ١٨٤ - ٨٦ - ٨٩ - ١١٥ - ١٢٤ | ٢٩ - ٣١ - ٣٤ ( ١٧٥ )                    |
| ٢٧١                       | وجاج ( ١٧٥ - ١٧٦ - ١٨١ )                |
| السالون ( نهر السنغال )   | ١٨٢ ( وجاج ) - ١٨٣ ( رباط بن            |
| ٦٥                        | ياسين ) - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧               |
| سان لوى ( بالسنغال )      | ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١                   |
| ٦٦ - ٦٥                   | ١٩٢ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦                   |
| الساوره ( نهر )           | ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢                   |
| ٦٢ - ٥٩                   | ٢٠٩ - ٢١٢ - ٢١٣                         |
| السنجة                    | الرباط ( مدينة ) - ٢١٣ ( الرباط الفتح ) |
| ٦٥                        | ١٨٤ - ٢٢٨ - ٢٢٩                         |
| سبته                      | رباط قوز ( جوز )                        |
| ٣٢ - ٢١٦ - ٢٨٠ - ٢٨٢      | ٢٢٧                                     |
| ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠٣ - ٣٢٦     | رتلة                                    |

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| - ١١١ - ١٠٩ - ١٠٨ - ١٠٦   | - ٣٣٧ - ٣٣٦ - ٣٣٣ - ٣٢٨  |
| - ١٢٢ - ١٢٠ - ١١٨ - ١١٦   | - ٣٥٩ - ٣٤٧ - ٣٤٠ - ٣٣٩  |
| - ١٢٨ - ١٢٦ (صفاتهم) ١٢٣  | ٣٨٤                      |
| - ١٣٧ - ١٣٤ - ١٣٠ - ١٢٩   | سجلماسة ( تافللت )       |
| - ١٧٤ - ١٦٥ - ١٥٠ - ١٣٨   | - ٧١ - ٦٣ - ٦٢ - ٤٦ - ٢٨ |
| - ١٨٨ - ١٨٦ - ١٧٧ - ١٧٥   | - ٩٤ - ٩٠ - ٨٨ - ٨٦ - ٧٤ |
| - ٢٠٩ - ٢٠٧ - ٢٠٤ - ٢٠١   | - ١١٤ - ١١٣ - ١٠٩ - ٩٧   |
| - ٢٤٩ - ٢١٣ - ٢١١ (مسلحة) | - ١٣٥ - ١٢١ - ١١٦ - ١١٥  |
| - ٣٠١ - ٢٧٠ - ٢٦٦ - ٢٥١   | - ١٧٥ - ١٦٥ - ١٣٨ - ١٢٧  |
| ٤٠٤ - ٣٨١ - ٣٠٩           | - ٢٠٧ - ٢٠٦ - ٢٠٤ - ١٨٥  |
| السور ( نهر )             | - ٢١٣ - ٢١٠ - ٢٠٩ - ٢٠٨  |
| ٦٥                        | - ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢١٥ - ٢١٤  |
| السوس الأدنى              | ٢٦٦                      |
| - ٢٣٦ - ٢٣٥ - ٢٣٤ - ٢٣٣   | سج ( نهر )               |
| ٢٧٤ - ٢٧٣ - ٢٦٨           | ٦٠                       |
| السوس الأقصى              | سرقسطة                   |
| - ٧٠ - ٦٨ - ٥٩ - ٤٥       | - ٣٢٨ - ٢٨٨ - ٢٨٧ - ٣٥   |
| ١١٣ - ٩٤ - ٨٩ - ٨٦ - ٧٦   | - ٣٩٠ - ٣٦٥ - ٣٦٣ - ٣٣٧  |
| - ٢٠١ - ١٦٤ - ١٣٦ - ١٣٥   | ٣٩٣ - ٣٩١                |
| - ٢١٦ - ٢١٤ - ٢٠٦ - ٢٠٤   | السعودية                 |
| - ٢٢٨ - ٢٢٧ - ٢١٨ - ٢١٧   | ٢٨                       |
| - ٢٣٩ - ٢٣٦ - ٢٣٤ - ٢٣١   | سلا                      |
| ٣٨٠ - ٣٢٥ - ٢٦٨ - ٢٤٥     | ٢٧٣ - ٢١٨                |
| سوسة ( باط )              | السنغال                  |
| ١٨٣                       | - ٤٦ - ٥٢ - ٦٠ - ٦٤ - ٦٥ |
| سوف ( جنوب شرق الجزائر )  | ١٨٨ - ٩٤ - ٩٠ - ٦٨ - ٦٦  |
| ٩٢ - ٨٦ - ٨٣ - ٤٨         | وانظر نهر                |
| سيراك                     | السودان                  |
| ١١٤                       | - ٢٥ - ٣٣ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ |
| السين ( نهر السنغال )     | - ٥٩ - ٥٨ - ٥٤ - ٥٠ - ٤٨ |
| ٦٥ - ٦٠                   | - ٧٣ - ٧٠ - ٦٩ - ٦٢ - ٦٢ |
| ( ش )                     | - ٩٥ - ٨٤ - ٨٣ - ٨١ - ٧٦ |
| شاري ( نهر )              | - ١٠٥ - ١٠٣ - ١٠١ - ٩٦   |

|                           |                                  |
|---------------------------|----------------------------------|
| ١٧٢ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ -   | ٤٥ - ٦٢                          |
| ١٧٧ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٥ -   | شاطبة -                          |
| ١٨٦ - ١٨٨ - ١٩٠ - ١٩٢ -   | ٣٢٨ - ٣٥٤ - ٣٥٧                  |
| ١٩٣ - ٢٠١ - ٢٠٤ - ٢٠٨ -   | القمام -                         |
| ٢٠٩ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٤٩ -   | ٣٨ - ١٠٥ - ١٣٩                   |
| ٢٥٢ - ٢٥٦ - ٢٦٤ - ٢٧١ -   | الشرقي ( من البلاد الأندلسية ) - |
| ٢٧٢ - ٢٧٦ - ٢٧٩ - ٢٩٩ -   | ٣٠ - ٣٨ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٤        |
| صقلية -                   | ٣٥٩ - ٢٦٣ - ٣٦٧ - ٢٦٩            |
| ٤٤ - ٣٥١                  | شقورة -                          |
| صنفاة ( صونفاي ) -        | ٣٢٠ - ٣٣٨                        |
| ٦٣ - ٦٤ - ٧١              | شقندة -                          |
| ( ط )                     | ٣٥٣                              |
| طبرستان -                 | شنتبرية -                        |
| ١٣٠                       | ٣٥١ - ٣٥٩ - ٣٦٥ - ٣٨٥            |
| طرابلس -                  | شنت ياقب -                       |
| ١١٥ - ١١٤ - ٩٥ - ٦٨ - ٤٥  | ٣٥١                              |
| طرطوشة -                  | شيشاوة ( مدينة ) -               |
| ٣٥٤ - ٣٢٨ - ٣٠٤           | ٢١٧                              |
| طريفة -                   | ( ص )                            |
| ٣٥١                       | الصحراء ( صحراء المغرب ) -       |
| طريق الحرير -             | ٢٥ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٠ - ٤٣ -         |
| ١٨٤                       | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ -         |
| طنبيرة -                  | ٥٢ - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٩ -         |
| ٣٠ - ٣٨٨ - ٣٧٩            | ٦٠ - ٦١ ( وهران ) - ٦٢ -         |
| طليطلة -                  | ٦٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٤ - ٧٨ -         |
| ٣٥ - ٤١ - ٢٨١ - ٢٨٦ - ٢٨٧ | ٨١ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٩٠ -         |
| ٢٩٣ - ٢٩٢ - ٢٩٠ - ٢٨٩     | ٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨ -         |
| ٣٠٣ - ٣١٩ - ٣٢٤ - ٣٣٠ -   | ٩٩ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٤ -           |
| ٣٣١ - ٣٥٢ - ٣٥٥ - ٣٦٠ -   | ١٠٥ - ١٠٦ - ١١٠ - ١١١ -          |
| ٣٦٦ - ٣٨٥ - ٣٨٩ - ٣٩٠ -   | ١١٣ - ١١٦ - ١١٩ - ١٢٠ -          |
| طنجة -                    | ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٦ - ١٣١ -          |
| ٢١٦ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٣ -   | ١٣٤ - ١٣٦ - ١٣٧ -                |
| ٢٨٥                       | ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٥ - ١٧٠ -          |



|                           |                           |                        |
|---------------------------|---------------------------|------------------------|
| ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٦ - ٣٦٨ -   | (ع)                       |                        |
| ٣٦٩ - ٣٨٠ - ٣٨٥ - ٣٨٦ -   | العدوة -                  | ٤١ - ٣١٧ - ٣٣٧ - ٣٧٥ - |
| ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩٨ -         | ٤٠١                       |                        |
| الفرد ( كثنان الرمل )     | العراق -                  |                        |
| ٥٠                        | ٣٨ - ٥٤ - ١٣٠             |                        |
| غمارة -                   | العرق -                   |                        |
| ٢١٧ - ٢٥٧ - ٢٧٩ - ٢٨٣ -   | ٥٢ - ٦٠ - ٦٥              |                        |
| (ف)                       | عين صالح ( توات ) -       |                        |
| فارس -                    | ٤٥                        |                        |
| ١٣٠                       | (غ)                       |                        |
| فاس -                     | غاليسيا -                 |                        |
| ٣١ - ٣٢ - ٥٠ - ٦٢ - ١٠٤ - | ٣٠٤ - ٣٥١                 |                        |
| ١١٥ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٥٧ -   | غانة -                    |                        |
| ١٥٨ - ١٦٠ - ٢٣٥ - ٢٣٦ -   | ٢٥ - ٦٠ - ٦٤ - ٧١ - ١٠٣ - |                        |
| ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٦٨ -   | ١٠٥ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ -   |                        |
| ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٨٠ -   | ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ -   |                        |
| ٢٨٣ - ٢٨٠ - ٢٨٢ -         | ١٢٩ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢٠٤ -   |                        |
| الفجارات -                | ٢٦٩ - ٢٧١                 |                        |
| ٦٢                        | غدامس -                   |                        |
| فحص البرنس -              | ٤٦ - ٦٨ - ٨٦ - ٨٩ - ٩٧ -  |                        |
| ٢٦٤                       | ١٣٨                       |                        |
| الفراو ( انشرقى )         | القرب ( غرب الأندلس ) -   |                        |
| ٦٥ - ٦٠                   | ٣٨ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٩ -    |                        |
| الفرنج ( بلاد ) -         | ٣٦٦ - ٣٦٨ - ٣٦٩           |                        |
| ٣٥٣                       | غرب أفريقيا -             |                        |
| فزان -                    | ٢٥                        |                        |
| ٤٥ - ٤٨ - ٥٩ - ٧٤ - ١١٥ - | غرب أوروبا -              |                        |
| ١١٦                       | ٢٥                        |                        |
| فولتا ( نهر ) -           | غناطة -                   |                        |
| ٦٥                        | ٤٤ - ٣٢٠ - ٣٢٣ - ٣٢٦ -    |                        |
| (ق)                       | ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١ -   |                        |
| القاهرة -                 | ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٣٨ - ٣٣٩ -   |                        |
| ٢٩ - ٣٥ - ٤٣ - ٥٠ - ١٤٠ - | ٣٥٢ - ٣٥٥ - ٣٥٩ - ٣٦٠ -   |                        |

- ٤٦٠ -

|                               |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| - قلعة مهدى                   | - قبرة                     |
| ٢٥٣                           | ٣٥٤ - ٣٥٣                  |
| - قليربة                      | - قرطبة                    |
| ٣٦٢                           | ٢٧ - ٢٩ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٧     |
| - قنقارة ( جنجارة )           | ٣٨ - ٣٩ - ٤١ - ٤٢ - ١٥٧    |
| ١٢٠ - ١١٣                     | ١٥٨ - ٢٩٥ - ٣٠٣ - ٣٣٥      |
| - القيروان                    | ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٢      |
| ٢٩ - ٤٣ - ١٠٩ - ١١٣           | ٣٤٣ - ٣٥٣ - ٣٦٦ - ٣٦٧      |
| ١٤٠ - ١٣٩ - ١٣٨ - ١١٥         | ٣٧٩ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٥      |
| ١٥٩ - ١٥٧ - ١٥٠ - ١٤٩         | ٣٨٩ - ٣٩٦ - ٣٩٨ - ٤٠٢      |
| ١٦٤ - ١٦٣ - ١٦١ - ١٦٠         | ٤٠٣ - ٤٠٤                  |
| ١٧١ - ١٦٩ - ١٦٦ - ١٦٥         | - قرمونة                   |
| ١٧٦ - ١٧٥ - ١٧٢               | ٣٠٣ - ٣٣٥ - ٣٤٠ - ٣٤٣      |
| ( ك )                         | ٣٤٧                        |
| - كاكدم ( قاقدم او قوقل )     | - قسطلبية                  |
| أنظر أزقي                     | ٨٨                         |
| ٣٢ - ٧٠ - ١٠٦ - ١٢٩ ( قوقدم ) | - قسنطينة                  |
| - الكاناري ( جزر )            | ٦٩                         |
| ١٣١                           | - قشتالة ( والقشتاليون )   |
| - الكانم                      | ٤٣ - ٢٨٠ - ٣٠٤             |
| ١١٥ - ١١٤ - ٥٠                | - قصر الحجر ( دار )        |
| - كاييس ( منطقة )             | ٢٤٤                        |
| ١١٩                           | - القطب                    |
| - كربلاء                      | ٥٧                         |
| ٩٧ - ١٠٦                      | - قصصة                     |
| - كتندة                       | ٧١                         |
| ٤٠٧                           | - القلعة ( بالاندلس )      |
| - كريفلة ( موقعة )            | ٣٥                         |
| ٢٢٨                           | - قلعة رباح                |
| - كوغة ( مدينة )              | ٣٣٥ - ٣٤٥ - ٣٥١            |
| ١١٧                           | - القلعة ( قلعة بنى حماد ) |
| - كوميى صالح ( كوميى بيشار )  | ٤٤                         |
| ٦٤                            | - قلعة بهت                 |

| ( ل )                         |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| مرسية -                       | لبدية -                    |
| ٤١٩ - ٣٢٣ - ٣٥٣ -             | ٤٨                         |
| ٣٥٤ - ٣٥٦ - ٣٥٨ - ٣٦١ -       | لشبوينة ( اشبوينة )        |
| ٣٩٤                           | ٣٩٦ - ٣٥١                  |
| مراكش ( بلاد ) -              | لوانة ( بلاد )             |
| ٢٥ - ٩٥ - ١٣٠ - ١٥٥ - ١٧٥ -   | ٢٣٣ - ٢٣٦                  |
| ٣٣٦                           | لورقة -                    |
| مراكش ( المدينة ) -           | ٣٥٣                        |
| ٣٥ - ٤٠ - ٤٥ - ٢١٤ - ٢٢٦ -    | ليبيا -                    |
| ٢٢٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ -       | ٤٥ - ٤٦ - ٥٠ - ٥٩          |
| ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٥٤ - ٢٦٠ -       | ليون -                     |
| ٢٦١ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٣١١ -       | ٣٥١                        |
| ٣١٦ - ٣٣٣ - ٣٥٨ - ٣٦٤ -       | ليبطة ( حصن )              |
| ٣٦٦ - ٣٦٩ - ٣٨١ - ٣٨٢ -       | ٣١٨ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٣٤ -    |
| ٣٨٥ - ٣٨٩ - ٣٩٤ - ٣٩٨ -       | ٣٢٥ - ٣٢٧ - ٣٣٩ - ٣٥٢ -    |
| المرية -                      | ٣٥٣ - ٣٦٢                  |
| ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤١ -             | ( م )                      |
| المشرق ( الايراني ) -         | ماسن و ماسة السوس -        |
| ٨٦ - ١٣٢ ( الايراني ) - ١٣٩ - | ١٧٥ - ١٨٢ - ١٨٤ ( رباط ) - |
| ١٤٠ - ١٤٢ - ١٥٦ - ١٦٠ -       | ١٨٧ - ٢٧٥                  |
| ١٦١ - ١٦٢ -                   | مالطة -                    |
| المشرق -                      | ٣٢٠ - ٣٢٦ - ٣٣٧ - ٣٣٦ -    |
| ٢٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ -           | مالي -                     |
| مصر -                         | ٤٥ - ٤٦ - ٦٠ -             |
| ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ١١٥ - ١٣٢ -    | مدريد -                    |
| ١٤٥ - ١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٨ -       | ٣٥                         |
| المضيق ( جبل طارق ) -         | المدينة الاسلامية -        |
| ٢٥ - ٢٦ -                     | ١٨١                        |
| المغرب -                      | المدينة النورة -           |
| ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ -      | ١٤٥                        |
| ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٤٠ -      | مدينة سالم -               |
| ٤٣ - ٤٤ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٦ -      | ٢٩٠                        |
| ٧٧ - ٨٣ - ٨٦ - ٩٠ - ١٠٢ -     |                            |

- ٤٦٢ -

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ -    | ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ -   |
| ١٠٨ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ -    | ٥٢ - ٥٤ - ٩٢ - ١٠٣ - ٢٧٠ - |
| ١٣٠ - ١٣٤ - ١٣٨ -          | المهدية -                  |
| ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٥ -    | ٤٤ - ٣٤٨ -                 |
| ١٤٩ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٩ -    | ملوية ( بلاد ) -           |
| ١٦١ - ١٦٦ - ١٧٤ - ١٨٣ -    | ٢٣٦ - ٢٥٦ - ٢٧٤ -          |
| ٢٠١ - ٢١٢ - ٢٢٦ - ٢٣٣ -    | ميورقة -                   |
| ٢٣٦ - ٢٤٥ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -    | ٣٥ - ٤١ - ٤٠١ -            |
| ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ -    | ( ن ) -                    |
| ٢٥٦ - ٢٦٤ - ٢٦٨ - ٢٧٢ -    |                            |
| ٢٧٣ - ٣٣١ - ٣٣٥ - ٣٦٥ -    | النخل -                    |
| ٣٧٠ - ٣٧٩ - ٣٨١ - ٣٩٥ -    | ٥٩ - ٨٨ - ٨٩ - ١٠٢ - ١١٥ - |
| المغرب الأقصى -            | نهر السنغال -              |
| ٤٤ - ٢١٣ - ٢١٥ - ٢١٨ -     | ٤٥ - ٥٩ - ٦٤ - ٦٥ - ١٠٣ -  |
| ٣١٧ -                      | ١١٩ - ١٨٧ - ١٨٩ - ١٩٤ -    |
| المغرب الأوسط -            | ٢٦٩ -                      |
| ٣٢ - ٢٣٥ -                 | نجامينا -                  |
| مكناس ( مكناسة ) -         | ٤٥ -                       |
| ٢٥٧ - ٢٧٤ - ٢٨٠ - ٢٣١ -    | نفوسة ( بلد ) -            |
| ٣٤٧ - ٣٨٠ -                | ٥٠ -                       |
| مكة -                      | نفيس ( وادي ، بلاد ) -     |
| ١٤٠ - ١٤١ - ١٥٨ -          | ١٧٢ - ١٧٥ - ٢١٧ - ٢٤٠ -    |
| ملازگرد -                  | نواكشوط -                  |
| ٤٣ -                       | ٤٥ -                       |
| ملكوس -                    | نول ( لمطة ) : ( تندوف ) - |
| ١٧٣ - ١٧٥ -                | ٢٨ - ٤٥ - ٥٠ - ٧٠ - ١١٤ -  |
| مليلة -                    | ١٣١ - ٢٠٤ -                |
| ٢٨١ -                      | نيامي -                    |
| ٤٣ - ٣٧ -                  | ٤٥ -                       |
| مالك الشمال ( المسيحية ) - | النيجر ( جمهورية ) -       |
| ٤٣ - ٣٧ -                  | ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٠ - ٥٢ -   |
| المنستير ( رباط ) -        | ٥٨ - ١١٤ -                 |
| ١٨٣ -                      | النيجر ( نهر ) -           |
| موريتانيا -                | ٦٢ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٧٦ -   |

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| ( ٥ )                    | ٩٠ - ١٠٣ - ١٨٦ - ٢٦٩    |
| - واحات مصر              | - نيجيريا               |
| ٥٠ - ٥٩ - ٨٩ - ١١٥       | ٤٥ - ٦٠ - ٦٦ - ٦٧       |
| - وادى آش                | - نيسابور               |
| ٣٦٠                      | ١٦١                     |
| - وادى تنسيفت            | - النيل ( السودانى )    |
| ١٧٥                      | ٦٣ - ٦٤ - ٩٥ - ١٨ - ١٨٨ |
| - وادى نون               | - نيمبا ( مدينة )       |
| ٥٤                       | - نيورو                 |
| - وارجلان                | ٦٠                      |
| ٤٥ - ٤٦ - ٥٩ - ٦١ - ٨٦ - |                         |
| ٨٨                       | ( ه )                   |
| - الوالو ( سهل )         |                         |
| ٦٥                       | - هرمز                  |
| - وهران                  | ١١٤                     |
| ١١٤                      | - الهند                 |
| ( ى )                    | ١١٤                     |
| - اليسانة                | - هيلانة                |
| ٣٦٦                      | ٢٤٠ - ٢٤١               |

\* مع الشكر للطبيبة/فاطمة سمعد زغلول ، على مساعدتها الذكية في عمل الفهارس .

رقم الإيداع ١٩٩٥/٤٩٩٩

I. S. B. N

977 — 03 — 0194 — 9

---

مطبعة أطلس

١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية

تليفون : ٥٧٨٧٧٩٧ - القاهرة



